ألف ليلة وليلة

(الجزء الثالث)




mohamed khatab

ألف ليلة وليلة (الجزء الثالث)



ألف ليلة وليلة (الجزء الثالث)

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٣ ٢٥٠٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

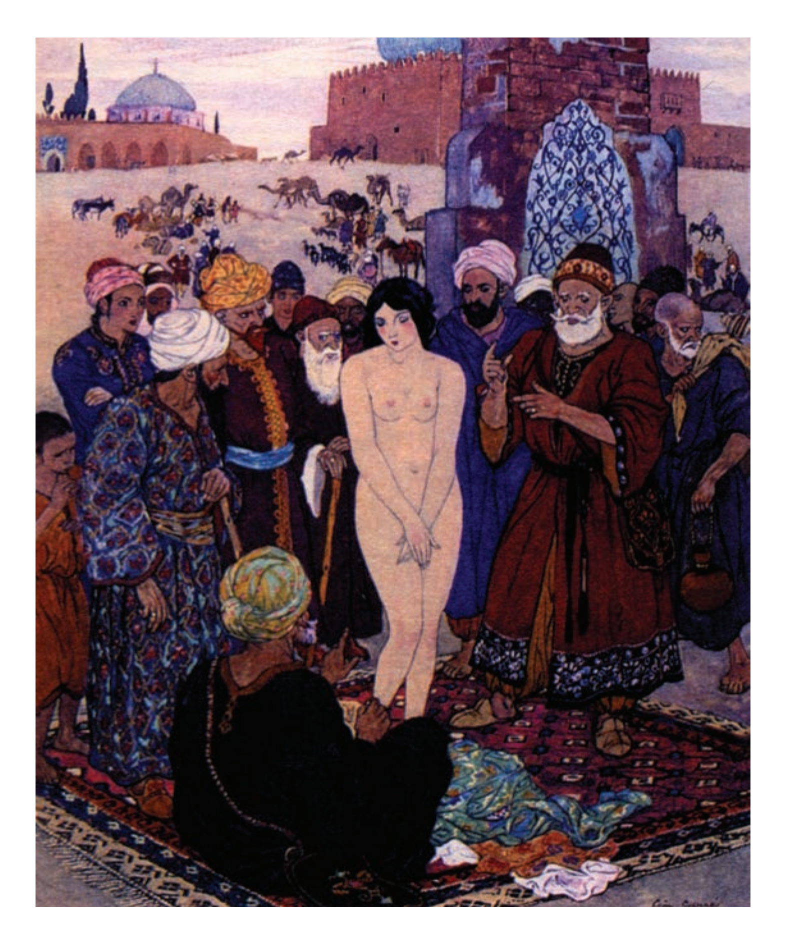
المحتويات

فلما كانت الليلة ٣١٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علي شار أحرقه الجوع، فذهب إلى سوق التجار، فوجد حلقة ازدحام والناس مجتمعون فيها، فقال في نفسه: يا ترى ما سبب اجتماع هؤلاء الناس؟ والله لا أنتقل من هذا المكان حتى أتفرج على هذه الحلقة. ثم تقدَّمَ فوجد جارية خماسية معتدلة القدِّ، موردة الخد، قاعدة النهد، قد فاقت أهل زمانها في الحسن والجمال، والبهاء والكمال، كما قال فيها بعض واصفيها:

كَمَا اشْتَهَتْ خُلِقَتْ حَتَّى إِذَا كَمُلَتْ	فِي قَالَبِ الْحُسْنِ لَا طُولٌ وَلَا قِصَرُ
وَالْحُسْنُ أَصْبَحَ مَشْغُوفًا بِصُورَتِهَا	وَالصَّدُّ يَعْذِلُهَا وَالتِّيهُ وَالْخَفَرُ
فَالْبَدْرُ طَلْعَتُهَا وَالْغُصْنُ قَامَتُهَا	وَالْمِسْكُ نَكْهَتُهَا مَا مِثْلُهَا بَشَرُ
كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ مِنْ مَاءِ لُؤْلُؤَةٍ	فِي كُلِّ جَارِيَةٍ مِنْ حُسْنِهَا قَمَرُ

وكانت تلك الجارية اسمها زمرد، فلما نظرها علي شار تعجَّبَ من حسنها وجمالها، وقال: والله ما أبرح حتى أنظر القدر الذي يبلغه ثمن هذه الجارية، وأعرف الذي يشتريها. ثم وقف بجملة التجار فظنوا أنه يشتري، لما يعلمون من غناه بالمال الذي ورثه عن والديه، ثم إن الدلال قد وقف على رأس الجارية وقال: يا تجار، يا أرباب الأموال، مَن يفتح باب السعر في هذه الجارية سيدة الأقمار، الدرة السنية زمرد السنورية، بُغية الطالب ونزهة الراغب؟ فافتحوا الباب فليس على مَن فتحه لوم ولا عتاب. فقال بعض التجار: عليَّ بخمسمائة دينار. قال آخَر: وعشرة. فقال شيخ يُسمَّى رشيد الدين، وكان أزرق العين قبيح المنظر: ومائة. فقال آخَر: وعشرة. قال الشيخ: بألف دينار. فحبس التجار ألسنتهم وسكتوا، فشاوَرَ الدلال سيدها فقال: أنا حالف أني ما أبيعها إلا لَمَن تختاره فشاوِرْها، فجاء



وكانت تلك الجارية اسمها زمرد، فلما نظَرَها علي شار تعجَّبَ من حُسْنها.

الدلَّال إليها وقال: يا سيدة الأقمار، إن هذا التاجر يريد أن يشتريكِ. فنظرت إليه فوجدته كما ذكرنا، فقالت للدلَّال: أنا لا أُباع لشيخ أوقعه الهرم في أسوأ حال، ولله درُّ مَن قال:

سَـأَلْـتُـهَـا قُـبْـلَـةً يَـوْمًـا وَقَـدْ نَـظَـرَتْ ... شَـيْـبِـي وَقَـدْ كُـنْـتُ ذَا مَـالٍ وَذَا نِـعَـمِ

فَـأَعْـرَضَـتْ ثُـمَّ صَـدَّتْ وَهْـيَ قَـائِـلَـةٌ ... لَا وَالَّـذِي خَـلَـقَ الْإِنْـسَـانَ مِـنْ عَـدَمِ

مَا كَانَ لِي فِي بَيَاضِ الشَّيْبِ مِنْ أَرَبٍ ... أَفِي الْحَيَاةِ يَكُونُ الْقُطْنُ حَشْوَ فَمِي؟

فلما سمع الدلَّال قولها قال لها: والله إنك معذورة، وقيمتك عشرة آلاف دينار. ثم أعلم سيدها أنها ما رضيت بذلك الشيخ، فقال: شاوِرْها في غيره. فتقدم إنسان آخر وقال: عليَّ بما أعطى فيها الشيخ الذي لم ترضَ به. فنظرت إلى ذلك الرجل فوجدَتْه مصبوغَ اللحية، فقالت: ما هذا العيب والريب، وسواد وجه الشيب. ثم أكثرَتِ التعجُّبات وأنشدت هذه الأبيات:

بَدَا لِي مِنْ فُلَانٍ مَا بَدَا لِي قَفًا وَاللهِ يُصْفَعُ بِالنِّعَالِ
وَذَقْنًا لِلْبَعُوضِ بِهَا مَجَالٌ وَقَرْنًا مَالَ مِنْ رَبْطِ الْحِبَالِ
أَيَا مَفْتُونَ فِي خَدِّي وَقَدِّي تَزَوَّرْ بِالْمُحَالِ وَلَا تُبَالِ
أَتَصْبُغُ بِالْعُيُوبِ بَيَاضَ شَيْبٍ لِتُخْفِيَ مَا بَدَا لِلْإِحْتِيَالِ
تَرُوحُ بِلِحْيَةٍ وَتَجِي بِأُخْرَى لِتُخْفِيَ فِعْلَ صُنَّاعِ الْخَيَالِ

وما أحسن قول الشاعر:

قَالَتْ أَرَاكَ خَضَبْتَ الشَّيْبَ قُلْتُ لَهَا سَتَرْتُهُ عَنْكِ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي
فَقَهْقَهَتْ ثُمَّ قَالَتْ إِنَّ ذَا عَجَبٌ تَكَاثَرَ الْغِشُّ حَتَّى صَارَ فِي الشَّعَرِ

فلما سمع الدلال شعرها قال لها: والله إنك صدقتِ. فقال التاجر: ما الذي قالت؟ فأعاد عليه الأبيات فعرف أن الحق على نفسه، وامتنع من اشترائها. فتقدَّمَ تاجر آخَر وقال: شاورها عليَّ بالثمن الذي سمعته. فشاوَرَها عليه فنظرت إليه فوجدته أعور، فقالت: هذا أعور، وقد قال فيه الشاعر:

لَا تَصْحَبِ الْأَعْوَرَ يَوْمًا وَكُنْ فِي حَذَرٍ مِنْ شَرِّهِ وَمَيْنِهِ
لَوْ كَانَ فِي الْأَعْوَرِ مِنْ خِيرَةٍ مَا أَوْجَدَ اللهُ الْعَمَى بِعَيْنِهِ

فقال لها الدلال: أتُباعي لذلك التاجر؟ فنظرت إليه فوجدته قصيرًا وذقنه سابلة سرَّته، فقالت: هذا الذي قال فيه الشاعر:

فَلِي صَدِيقٌ وَلَهُ لِحْيَةٌ أَنْبَتَهَا اللهُ بِلَا فَائِدَهْ
كَأَنَّهَا بَعْضُ لَيَالِي الشِّتَا طَوِيلَةٌ مُظْلِمَةٌ بَارِدَهْ

فقال لها الدلَّال: يا سيدتي، انظري مَن يعجبك من الحاضرين، وقولي عليه حتى أبيعك له. فنظرت إلى حلقة التجار وتفرَّستهم واحدًا بعد واحدٍ، فوقع نظرها على علي شار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما وقع نظرُها على علي شار نظرته نظرة أعقبتها ألف حسرة، وتعلَّق قلبها به؛ لأنه كان بديع الجمال، وألطف من نسيم الشمال، فقالت: يا دلَّال، أنا لا أُباع إلا لسيدي هذا، صاحب الوجه المليح والقد الرجيح، الذي قال فيه بعض واصفيه:

أَبْرَزُوا وَجْهَكَ الْجَمِيـ ـلَ وَلَامُوا مَنِ افْتَتَنْ
لَوْ أَرَادُوا صِيَانَتِي سَتَرُوا وَجْهَكَ الْحَسَنْ

فلا يملكني إلا هو؛ لأن خده أسيل، ورضابه سلسبيل، وريقه يشفي العليل، ومحاسنه تحيِّر الناظم والناثر، كما قال فيه الشاعر:

فَرِيقُهُ خَمْرٌ وَأَنْفَاسُهُ مِسْكٌ وَذَاكَ الثَّغْرُ كَافُورُ
أَخْرَجَهُ رَضْوَانُ مِنْ دَارِهِ مَخَافَةً أَنْ تُفْتَنَ الْحُورُ
يَلُومُهُ النَّاسُ عَلَى تِيهِهِ وَالْبَدْرُ مَهْمَا تَاهَ مَعْذُورُ

صاحب الشعر الأجعد، والخد المورد، واللحظ الساحر، الذي قال فيه الشاعر:

وَشَادِنٍ بِوِصَالٍ مِنْهُ وَاعَدَنِي فَالْقَلْبُ فِي قَلَقٍ وَالْعَيْنُ مُنْتَظِرَهْ
أَجْفَانُهُ ضَمِنَتْ لِي صِدْقَ مَوْعِدِهِ فَكَيْفَ تُوفِي ضَمَانًا وَهْيَ مُنْكَسِرَهْ

وقال الآخر:

قَالُوا بَدَا خَطُّ الْعِذَارِ بِخَدِّهِ كَيْفَ التَّعَشُّقُ فِيهِ وَهْوَ مُعَذَّرُ
فَأَجَبْتُهُمْ كُفُّوا الْمَلَامَةَ وَاقْصِرُوا إِنْ صَحَّ ذَاكَ الْخَطُّ فَهْوَ مُزَوَّرُ
جَنَّاتُ عَدَنٍ فِي جَنَى وَجَنَاتِهِ وَدَلِيلُهُ أَنَّ الْمَرَاشِفَ كَوْثَرُ

فلما سمع الدلَّال ما أنشدته من الأشعار في محاسن علي شار، تعجَّبَ من فصاحتها، وإشراق بهجتها، فقال له صاحبها: لا تعجب من بهجتها التي تفضح شمس النهار، ولا من حفظها لرقائق الأشعار، فإنها مع ذلك تقرأ القرآن العظيم بالسبع قراءات، وتروي الأحاديث الشريفة بصحيح الروايات، وتكتب بالسبعة أقلام، وتعرف من العلوم ما لا يعرفه العالم العلَّام، ويداها أحسن من الذهب والفضة؛ فإنها تعمل الستور الحرير وتبيعها، فتكسب في كل واحد خمسين دينارًا، وتشتغل الستر في ثمانية أيام. فقال الدلال: يا سعادة مَن تكون هذه في داره، ويجعلها من ذخائر أسراره. ثم قال له سيدها: بِعْها لكلِّ مَن أرادته. فرجع الدلال إلى علي شار وقبَّل يديه، وقال: يا سيدي، اشترِ هذه الجارية فإنها اختارتك. وذكر له صفتها وما تعرفه، وقال له: هنيئًا لك إذا اشتريتَها؛ فإنه قد أعطاك مَن لا يبخل بالعطاء. فأطرق علي شار برأسه ساعة إلى الأرض وهو يضحك على نفسه، وقال في سرِّه: إني إلى هذا الوقت من غير إفطار، ولكن أختشي من التجار أن أقول ما عندي مال أشتريها به. فنظرَتِ الجارية إلى إطراقه، وقالت للدلَّال: خذ بيدي وامضِ بي إليه حتى أعرض نفسي عليه، وأرغِّبه في أخذي؛ فإني ما أُباع إلا له. فأخذها الدلال وأوقفها قدَّام علي شار، وقال له: ما رأيك يا سيدي؟ فلم يردَّ عليه جوابًا، فقالت الجارية: يا سيدي وحبيب قلبي، ما لك لا تشتريني؟ فاشترني بما شئتَ وأكون سبب سعادتك. فرفع رأسه إليها وقال: هل الشراء بالغصب؟ أنت غالية بألف دينار. فقالت له: يا سيدي، اشترني بتسعمائة. قال: لا. قالت: بثمانمائة. قال: لا. فما زالت تنقص من الثمن إلى أن قالت له: بمائة دينار. قال: ما معي مائة كاملة. فضحكت وقالت له: كم تنقص مائتك؟ قال: ما معي لا مائة ولا غيرها، أنا والله لا أملك أبيض ولا أحمر من درهم ولا دينار، فانظري لك زبونًا غيري. فلما علمت أنه ما معه شيء قالت له: خذ بيدي على أنك تقبلني في عطفة. ففعل ذلك، فأخرجت من جيبها كيسًا فيه ألف دينار، وقالت: زِنْ منه تسعمائة في ثمني، وأبقِ المائة معك تنفعنا. ففعل ما أمرته به، واشتراها بتسعمائة دينار، ودفع

ثمنها من ذلك الكيس، ومضى بها إلى الدار، فلمَّا وصلت إلى الدار وجدتها قاعًا صفصفًا لا فرشَ بها ولا أواني، فأعطته ألف دينار وقالت له: امضِ إلى السوق، واشترِ لنا بثلاثمائة دينار فرشًا وأواني للبيت. ففعل ثم قالت له: اشترِ لنا مأكولًا ومشروبًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت له: اشترِ لنا مأكولًا ومشروبًا بثلاثة دنانير. ففعل ثم قالت له: اشترِ لنا خرقة حرير قدر ستر، واشترِ قصبًا أصفر وأبيض، وحريرًا ملونًا سبعة ألوان. ففعل، ثم إنها فرشت البيت، وأوقدت الشمع، وجلست تأكل وتشرب هي وإياه، وبعد ذلك قاموا إلى الفرش، وقضوا الغرض من بعضهما، ثم باتا معتنقين خلف الستائر، وكانا كما قال الشاعر:

زُرْ مَنْ تُحِبُّ وَدَعْ كَلَامَ الْحَاسِدِ ... لَيْسَ الْحَسُودُ عَلَى الْهَوَى بِمُسَاعِدِ
إِنِّي نَظَرْتُكَ فِي الْمَنَامِ مُضَاجِعِي ... وَلَثَمْتُ مِنْ شَفَتَيْكَ أَحْلَى بَارِدِ
حَقٌّ صَحِيحٌ كُلُّ مَا عَايَنْتُهُ ... وَلَسَوْفَ أَبْلُغُهُ بِرَغْمِ الْحَاسِدِ
لَمْ تَنْظُرِ الْعَيْنَانِ أَحْسَنَ مَنْظَرًا ... مِنْ عَاشِقَيْنِ عَلَى فِرَاشٍ وَاحِدِ
مُتَعَانِقَيْنِ عَلَيْهِمَا حُلَلُ الرِّضَا ... مُتَوَسِّدَيْنِ بِمِعْصَمٍ وَبِسَاعِدِ
وَإِذَا تَآلَفَتِ الْقُلُوبُ لِبَعْضِهَا ... فَالنَّاسُ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدِ
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى الْهَوَى أَهْلَ الْهَوَى ... هَلْ تَسْتَطِيعُ صَلَاحَ قَلْبٍ فَاسِدِ
وَإِذَا صَفَا لَكَ مِنْ زَمَانِكَ وَاحِدٌ ... فَهْوَ الْمُرَادُ وَعِشْ بِذَاكَ الْوَاحِدِ

واستمرَّا متعانقين إلى الصباح، وقد سكنت محبة كل واحد منهما في قلب صاحبه، ثم أخذت الستر وطرَّزته بالحرير الملوَّن، وزركشته بالقصب، وجعلت فيه منطقة بصور طيور، وصوَّرت في دائرها الوحوش، ولم تترك وحشًا في الدنيا إلا وصوَّرت صورته فيه، ومكثت تشتغل فيه ثمانية أيام. فلمَّا فرغ قطعته وصقلته، ثم أعطته لسيدها، وقالت له: اذهب به إلى السوق وبِعْه بخمسين دينارًا للتاجر، واحذر أن تبيعه لأحد عابر طريق؛ فإن

ذلك يكون سببًا للفراق بيني وبينك؛ لأن لنا أعداء لا يغفلون عنا. فقال: سمعًا وطاعة. ثم ذهب به إلى السوق وباعه لتاجر كما أمرته، وبعد ذلك اشترى الخرقة والحرير والقصب على العادة، وما يحتاجان إليه من الطعام، وأحضر لها ذلك وأعطاها بقية الدراهم؛ فصارت كل ثمانية أيام تعطيه سترًا يبيعه بخمسين دينارًا، ومكثت على ذلك سنة كاملة، وبعد السنة راح إلى السوق بالستر على العادة وأعطاه للدلال، فعرض له نصراني فدفع له ستين دينارًا، فامتنع، فما زال يزيده حتى عمله بمائة دينار، وبَرْطَلَ الدلَّال بعشرة دنانير، فرجع الدلال إلى علي شار وأخبره بالثمن، وتحيَّلَ عليه في أن يبيع الستر للنصراني بذلك المبلغ، وقال له: يا سيدي، لا تَخَفْ من هذا النصراني، وما عليك منه بأس، وقامت التجار عليه، فباعه للنصراني وقلبه مرعوب، ثم قبض المال ومضى إلى البيت، فوجد النصراني ماشيًا خلفه، فقال له: يا نصراني، ما لك ماشيًا خلفي؟ فقال له: يا سيدي، إن لي حاجة في صدر الزقاق، الله لا يحوجك. فما وصل علي شار إلى منزله إلا والنصراني لاحقه، فقال: يا ملعون، ما لك تتبعني أينما أسير؟ فقال: يا سيدي، اسقني شربة ماء فإني عطشان، وأجرك على الله تعالى. فقال علي شار في نفسه: هذا رجل ذمي وقصدني في شربة ماء، فوالله لا أخيبه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علي شار قال في نفسه: هذا رجل ذمي، وقصدني في شربة ماء، فوالله لا أخيبه. ثم دخل البيت وأخذ كوز ماء، فرأته جاريته زمرد، فقالت له: يا حبيبي، هل بعت الستر؟ قال: نعم. قالت: لتاجر أم لعابر سبيل، فقد حس قلبي بالفراق؟ قال: ما بعته إلا لتاجر. قالت: أخبرني بحقيقة الأمر حتى أتدارك شأني، وما بالك أخذت كوز الماء؟ قال: لأسقي الدلَّال. فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم أنشدت هذين البيتين:

يَا طَالِبًا لِلْفِرَاقِ مَهْلًا فَلَا يَغُرَّنَّكَ الْعِنَاقُ
مَهْلًا فَطَبْعُ الزَّمَانِ غَدْرٌ وَآخِرُ الصُّحْبَةِ الْفِرَاقُ

ثم خرج بالكوز فوجد النصراني داخلًا في دهليز البيت، فقال له: هل وصلت إلى هنا يا كلب؟ كيف تدخل منزلي بغير إذني؟ فقال: يا سيدي، لا فرق بين الباب والدهليز، وما بقيت أنتقل من مكاني هذا إلا للخروج، وأنت لك الفضل والإحسان، والجود والامتنان. ثم إنه تناول كوز الماء وشرب ما فيه، وبعد ذلك ناوله إلى علي شار، فأخذه وانتظره أن يقوم فما قام، فقال له: لأي شيء لم تقم وتذهب إلى حال سبيلك؟ فقال: يا مولاي، لا تكن ممَّن فعل الجميل ومَنَّ به، ولا من الذين قال فيهم الشاعر:

ذَهَبَ الَّذِينَ إِذَا وَقَفْتَ بِبَابِهِمْ كَانُوا لِقَصْدِكَ أَكْرَمَ الْكُرَمَاءِ
وَإِذَا وَقَفْتَ بِبَابِ قَوْمٍ بَعْدَهُمْ مَنُّوا عَلَيْكَ بِشَرْبَةٍ مِنْ مَاءِ

ثم قال: يا مولاي، إني قد شربت ولكن أريد منك أن تطعمني مهما كان من البيت، سواء كان كسرة أو قرقوشة وبصلة. فقال له: قم بلا مماحكة، ما في البيت شيء. فقال: يا مولاي، إن لم يكن في البيت شيء فخذ هذه المائة دينار، وَأْتِنا بشيء من السوق، ولو برغيف واحد؛ ليصير بيني وبينك خبز وملح. فقال علي شار في سره: إن هذا النصراني مجنون، فأنا آخذ منه المائة دينار وأجيء له بشيء يساوي درهمين، وأضحك عليه. فقال له النصراني: يا سيدي، إنما أريد شيئًا يطرد الجوع، ولو رغيفًا واحدًا يابسًا وبصلة، فخير الزاد ما دفع الجوع لا الطعام الفاخر، وما أحسن قول الشاعر:

الْجُوعُ يُطْرَدُ بِالرَّغِيفِ الْيَابِسِ فَعَلَى التَّعَظُّمِ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي
وَالْمَوْتُ أَعْدَلُ حِينَ أَصْبَحَ مُنْصِفًا بَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَالْفَقِيرِ الْبَائِسِ

فقال له علي شار: اصبر هنا حتى أقفل القاعة وآتيك بشيء من السوق. فقال له: سمعًا وطاعة. ثم خرج وقفل القاعة، وحطَّ على الباب كيلونًا وأخذ المفتاح معه وذهب إلى السوق، واشترى جبنًا مقليًّا، وعسلًا أبيض، وموزًا وخبزًا، وأتى به إليه، فلما نظر النصراني إلى ذلك قال: يا مولاي، هذا شيء كثير يكفي عشرة رجال وأنا وحدي، فلعلك تأكل معي. فقال له: كُل وحدك فإني شبعان. فقال له: يا مولاي، قالت الحكماء: مَن لم يأكل مع ضيفه فهو ولد زِنا. فلما سمع علي شار من النصراني هذا الكلام جلس وأكل معه شيئًا قليلًا، وأراد أن يرفع يده ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علي شار جلس وأكل معه شيئًا قليلًا، وأراد أن يرفع يده، فأخذ النصراني موزة وقشَّرها وشقَّها نصفين، وجعل في نصفها بنجًا مكررًا ممزوجًا بأفيون، الدرهم منه يرمي الفيل، ثم غمس نصف الموزة في العسل وقال له: يا مولاي، وحق دينك أن تأخذ هذه. فاستحى علي شار أن يحنثه في يمينه، فأخذها منه وابتلعها، فما استقرت في بطنه حتى سبقت رأسه رجلَيْه، وصار كأنه له سنة وهو راقد. فلما رأى النصراني ذلك قام على قدميه كأنه ذئب أمعط مسلَّط، وأخذ منه مفتاح القاعة وتركه مرميًّا، وذهب يجري إلى أخيه وأخبره بالخبر، وسببُ ذلك أن أخا النصراني هو الشيخ الهرم الذي أراد أن يشتريها بألف دينار فلم ترضَ به وهجته بالشعر، وكان كافرًا في الباطن ومسلمًا في الظاهر، وسمَّى نفسه رشيد الدين، ولما هجته ولم ترضَ به شكا إلى أخيه النصراني الذي تحيَّلَ في أخذها من سيدها علي شار، وكان اسمه برسوم، فقال له: لا تحزن من هذا الأمر، فأنا أتحيَّل لك في أخذها بلا درهم ولا دينار. لأنه كان كاهنًا ماكرًا مخادعًا فاجرًا، ثم إنه لم يزل يمكر ويتحيل حتى عمل الحيلة التي ذكرناها، وأخذ المفتاح وذهب إلى أخيه وأخبره بما حصل، فركب بغلته وأخذ غلمانه، وتوجه مع أخيه إلى بيت علي شار، وأخذ معه كيسًا فيه ألف دينار، إذا صادفه الوالي فيعطيه إياه، ففتح القاعة وهجمت الرجال الذين معه على زمرد وأخذوها قهرًا، وهدَّدوها بالقتل إنْ تكلمت، وتركوا المنزل على حاله ولم يأخذوا منه شيئًا، وتركوا علي شار راقدًا في الدهليز، ثم ردُّوا الباب عليه، وتركوا مفتاح القاعة في جانبه، ومضى بها النصراني إلى قصره، ووضعها بين جواريه وسراريه، وقال لها: يا فاجرة، أنا الشيخ الذي ما رضيتِ بي وهجوتني، وقد أخذتك بلا درهم ولا دينار. فقالت له وقد ترغرغت عيناها بالدموع: حسبك الله يا شيخ السوء، حيث فرَّقْتَ بيني وبين سيدي. فقال لها: يا فاجرة يا عشاقة، سوف تنظرين ما أفعل بك من العذاب،

وحق المسيح والعذراء إن لم تطاوعيني وتدخلي في ديني لَأعذِّبَنَّكِ بأنواع العذاب. فقالت له: والله لو قطعتَ لحمي قطعًا ما أفارق دين الإسلام، ولعل الله تعالى يأتي بالفرج القريب، إنه على ما يشاء قدير، وقد قالت العقلاء: مصيبة في الأبدان، ولا مصيبة في الأديان. فعند ذلك صاح على الخدم والجواري، وقال لهم: اطرحوها. فطرحوها، وما زال يضربها ضربًا عنيفًا، وصارت تستغيث فلا تُغاث، ثم أعرضت عن الاستغاثة، وصارت تقول: حسبي الله وكفى. إلى أن انقطع نفسها وخفي أنينها، فلما اشتفى قلبه منها قال للخدم: اسحبوها من رجليها، وارموها في المطبخ، ولا تطعموها شيئًا. ثم بات الملعون تلك الليلة، ولما أصبح الصباح طلبها وكرَّر عليها الضرب، وأمر الخدم أن يرموها في مكانها ففعلوا، فلما برد عليها الضرب قالت: لا إله إلا الله محمد رسول الله، حسبي الله ونعم الوكيل. ثم استغاثت بسيدنا محمد ﷺ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زمرد استغاثت بالنبي ﷺ. هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر علي شار، فإنه لم يزل راقدًا إلى ثاني يوم، ثم طار البنج من رأسه ففتح عينيه وصاح قائلًا: يا زمرد. فلم يجِبْه أحد، فدخل القاعة فوجد الجو قفرًا، والمزار بعيدًا، فعلم أنه ما جرى عليه هذا الأمر إلا من النصراني؛ فحنَّ وبكى، وأنَّ واشتكى، وأفاض العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

يَا وَجْدُ لَا تُبْقِي عَلَيَّ وَلَا تَذَرْ　　هَا مُهْجَتِي بَيْنَ الْمَشَقَّةِ وَالْخَطَرْ
يَا سَادَتِي رِقُّوا لِعَبْدٍ ذَلَّ فِي　　شَرْعِ الْهَوَى وَغَنِيٍّ قَوْمٍ افْتَقَرْ
مَا حِيلَةُ الرَّامِي إِذَا الْتَفَّ الْعِدَا　　وَأَرَادَ رَمْيَ السَّهْمِ فَانْقَطَعَ الْوَتَرْ
وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْهُمُومُ عَلَى الْفَتَى　　وَتَرَاكَمَتْ أَيْنَ الْمَفَرُّ مِنَ الْقَدَرْ؟
وَلَكَمْ أُحَاذِرُ مِنْ تَفَرُّقِ شَمْلِنَا　　لَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقَضَا عَمِيَ الْبَصَرْ

فلما فرغ من شعره، صعَّد الزفرات وأنشد أيضًا هذه الأبيات:

خَلَعَتْ هَيَاكِلَهَا بِجَرْعَاءِ الْحِمَى　　فَصَبَا لِمَغْنَاهَا الْكَئِيبُ تَشَوُّقَا
وَتَلَفَّتَتْ نَحْوَ الدِّيَارِ فَشَاقَهَا　　رَبْعٌ عَفَتْ أَطْلَالُهُ فَتَمَزَّقَا
وَقَفَتْ تُسَائِلُهُ فَرَدَّ جَوَابَهَا　　رَجْعُ الصَّدَى أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى اللِّقَا
فَكَأَنَّهُ بَرْقٌ تَأَلَّقَ بِالْحِمَى　　وَمَضَى فَمَا يُبْدِي إِلَيْكَ تَأَلُّقَا

وندم حيث لا ينفعه الندم، وبكى ومزَّق أثوابه، وأخذ بيده حجرين ودار حول المدينة، وصار يدق بهما على صدره ويصيح قائلًا: يا زمرد. فدارت الصغار حوله، وقالوا: مجنون مجنون. فكان كلُّ مَن عرفه يبكي عليه ويقول: هذا فلان، ما الذي جرى له؟ ولم يزل على هذه الحالة إلى آخر النهار، فلما جنَّ عليه الليل نام في بعض الأزقَّة إلى الصباح، ثم أصبح دائرًا بالأحجار حول المدينة إلى آخر النهار، وبعد ذلك رجع إلى قاعته ليبيت فيها، فنظرته جارته، وكانت امرأة عجوزًا من أهل الخير، فقالت له: يا ولدي سلامتك، متى جُنِنت؟ فأجابها بهذين البيتين:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
دَعُوا جُنُونِي وَهَاتُوا مَنْ جُنِنْتُ بِهِ إِنْ كَانَ يَشْفِي جُنُونِي لَا تَلُومُونِي

فعلمَتْ جارته العجوز أنه عاشق مفارق، فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا ولدي، أشتهي منك أن تحكي لي خبر مصيبتك، عسى الله أن يقدرني على مساعدتك عليها بمشيئته. فحكى لها جميع ما وقع له مع برسوم النصراني أخي الكاهن الذي سمَّى نفسه رشيد الدين، فلما علمت ذلك قالت له: يا ولدي، إنك معذور. ثم أفاضت دمع العين، وأنشدت هذين البيتين:

كَفَى الْمُحِبِّينَ فِي الدُّنْيَا عَذَابُهُمُ تَاللهِ لَا عَذَّبَتْهُمْ بَعْدَهَا سَقَرُ
لِأَنَّهُمْ هَلَكُوا عِشْقًا وَقَدْ كَتَمُوا مَعَ الْعَفَافِ بِهَذَا يَشْهَدُ الْخَبَرُ

فلما فرغت من شعرها قالت له: يا ولدي، قُمِ الآن واشترِ قفصًا مثل أقفاص أهل الصاغة، واشتر أساور وخواتم وحلقانًا، وحُليًّا يصلح للنساء، ولا تبخل بالمال، وضع جميع ذلك في القفص، وهات القفص وأنا أضعه على رأسي في صورة دلَّالة، وأدور أفتش عليها في البيوت حتى أقع على خبرها إن شاء الله تعالى. ففرح علي شار بكلامها وقبَّل يدها، ثم ذهب بسرعة وأتى لها بما طلبته، فلما حضر ذلك عندها قامت ولبست مرقعة، ووضعت على رأسها إزارًا عسليًّا، وأخذت في يدها عكازًا، وحملت القفص ودارت في العُطَف والبيوت، ولم تزل دائرة من مكان إلى مكان، ومن حارة إلى حارة، ومن درب إلى درب، إلى أن دلَّها الله تعالى على قصر الملعون رشيد الدين النصراني، فسمعت من داخله أنينًا فطرقت الباب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما سمعت من داخل البيت أنينًا طرقت الباب، فنزلت لها جارية ففتحت لها الباب وسلَّمت عليها، فقالت لها العجوز: إنَّ معي هذه الحويجات للبيع، هل عندكم مَن يشتري منها شيئًا؟ فقالت لها الجارية: نعم. ثم أدخلتها الدار وأجلستها، وجلس الجواري حولها، وأخذت كل واحدة شيئًا منها، فصارت العجوز تلاطف الجواري وتتساهل معهن في الثمن؛ ففرح بها الجواري بسبب معروفها ولين كلامها، وهي تتأمل في جهات المكان على صاحبة الأنين، فلاحت منها التفاتة إليها فحابتهم وأحسنت إليهم، وتأملت فوجدتها زمرد مطروحة فعرفتها، فبكت وقالت لهن: يا أولادي، ما بال هذه الصبية في هذا الحال؟ فحكى لها الجواري جميع القصة، وقلن لها: هذا الأمر ليس باختيارنا، ولكن سيدنا أمرنا بهذا، وهو مسافر الآن. فقالت لهم: يا أولادي، لي عندكن حاجة، وهي أنكن تحللن هذه المسكينة من الرباط إلى أن تعلمن بمجيء سيدكن فتربطنها كما كانت، وتكسبن الأجرَ من رب العالمين. فقلن لها: سمعًا وطاعة. ثم إنهن حللْنَها وأطعمْنَها وأسقيْنَها، ثم قالت العجوز: يا ليت رجلي انكسرت ولا دخلتُ لَكُنَّ منزلًا. وبعد ذلك ذهبت إلى زمرد، وقالت لها: يا بنتي سلامتك، سيفرِّج الله عنك. ثم ذكرت لها أنها جاءت من عند سيدها علي شار، وواعدتها أنها في ليلة غدٍ تكون حاضرة، وتلقي سمعها للحس، وقالت لها: إن سيدك يأتي إليك تحت مصطبة القصر ويصفِّر لك، فإذا سمعتِ ذلك فصفِّري له، وتدلي له من الطاقة بحبلٍ وهو يأخذكِ ويمضي. فشكرتها على ذلك، ثم خرجت العجوز وذهبت إلى علي شار وأعلمته، وقالت له: توجَّهْ في الليلة القابلة نصف الليل إلى الحارة الفلانية، فإن بيت الملعون هناك، وعلامته كذا وكذا، فقف تحت

قصره وصفِّر، فإنها تتدلَّى إليك، فخذها وامضِ بها إلى حيث شئتَ. فشكرها على ذلك، ثم إنه أفاض العَبَرات وأنشد هذه الأبيات:

كُفَّ الْعَوَاذِلَ عَنْ قِيلٍ وَعَنْ قَالِ قَلْبِي مُعَنًّى وَجِسْمِي نَاحِلٌ بَالِ
وَلِلدُّمُوعِ أَحَادِيثٌ مُسَلْسَلَةٌ عَنِ الصَّحِيحِ بِإِعْضَالٍ وَإِرْسَالِ
يَا خَالِيَ الْبَالِ مِنْ هَمِّي وَمِنْ هِمَمِي أَقْصِرْ عَنَاكَ عَنِ التَّسْآلِ عَنْ حَالِي
عَذْبُ الْمَرَاشِفِ لَدْنُ الْقَدِّ مُعْتَدِلٌ سَبَى فُؤَادِي بِمَعْسُولٍ وَعَسَّالِ
مَا قَرَّ قَلْبِيَ مُذْ غِبْتُمْ وَلَا هَجَعَتْ عَيْنِي وَلَا نَجَعَتْ فِي الصَّبْرِ آمَالِي
تَرَكْتُمُونِي رَهِينَ الشَّوْقِ مُكْتَئِبًا مُذَبْذَبًا بَيْنَ حُسَّادٍ وَعُذَّالِ
أَمَّا السُّلُوُّ فَشَيْءٌ لَسْتُ أَعْرِفُهُ وَغَيْرُكُمْ قَطُّ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِي

فلما فرغ من شعره تنهَّد وأفاض دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

للهِ دَرُّ مُبَشِّرِي بِقُدُومِكُمْ فَلَقَدْ أَتَى بِلَطَائِفِ الْمَسْمُوعِ
لَوْ كَانَ يَقْنَعُ بِالْخَلِيعِ مَنَحْتُهُ قَلْبًا تَمَزَّقَ سَاعَةَ التَّوْدِيعِ

ثم إنه صبر إلى أن جنَّ الليل، وجاء وقت الميعاد، فذهب إلى تلك الحارة التي وصفتها له جارته، ورأى القصر فعرفه، وجلس على مصطبة تحته، وغلب عليه النوم فنام، وجلَّ مَن لا ينام، وكان له مدة لم يَنَمْ من الوَجْد الذي به، فصار كالسكران، فبينما هو نائم … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه بينما هو نائم، وإذا بلصٍّ من اللصوص خرج تلك الليلة في أطراف المدينة ليسرق شيئًا، فرمته المقادير تحت قصر ذلك النصراني، فدار حوله فلم يجد له سبيلًا إلى الصعود إليه، فصار دائرًا حوله إلى أن وصل إلى المصطبة، فرأى علي شار نائمًا فأخذ عمامته، وبعد أن أخذها لم يشعر إلا وزمرد طلَّتْ في ذلك الوقت فرأته واقفًا في الظلام، فحسبته سيدها فصفَّرَتْ له، فصفَّرَ لها الحرامي، فتدلَّت له بالحبل وصحبتها خُرْج ملآن ذهبًا، فلما رآه اللص قال في نفسه: ما هذا إلا أمر عجيب له سبب غريب. ثم حمل الخُرْج وحملها على أكتافه، وذهب بهما مثل البرق الخاطف، فقالت له: إن العجوز أخبرتني أنك ضعيف بسببي، وها أنت أقوى من الفرس. فلم يرد عليها جوابًا، فحسست على وجهه فوجدت لحيته مثل مقشة الحمام، كأنه خنزير ابتلع ريشًا فطلع زَغَبه من حلقه، ففزعت منه وقالت له: أي شيء أنت؟ فقال لها: يا عاهرة، أنا الشاطر جوان الكردي من جماعة أحمد الدنف، ونحن أربعون شاطرًا، وكلهم في هذه الليلة يفسقون في رَحِمك من العشاء إلى الصباح. فلما سمعت كلامه بكت ولطمت على وجهها، وعلمت أن القضاء غلب عليها، وأنه لا حيلةَ لها إلا التفويض إلى الله تعالى، فصبرت وسلَّمت لحكم الله تعالى وقالت: لا إله إلا الله، كلما خلصنا من هَمٍّ وقعنا في همٍّ أكبر منه. وكان السبب في مجيء جوان إلى هذا المحل أنه قال لأحمد الدنف: يا شاطر، أنا دخلت هذه المدينة قبل الآن، وأعرف فيها غارًا خارج البلد يسع أربعين نفسًا، وأنا أريد أن أسبقكم إليه، وأُدخِل أمي في ذلك الغار، ثم أرجع إلى المدينة وأسرق منها شيئًا على بختكم، وأحفظه على اسمكم إلى أن تحضروا، فتكون ضيافتكم في ذلك النهار من عندي. فقال له أحمد: افعل ما تريد. فخرج قبلهم وسبقهم إلى ذلك المحل، ووضع أمه في ذلك الغار، ولما خرج وجد جنديًّا راقدًا وعنده فرس مربوط، فذبحه وأخذ ثيابه، وأخذ فرسه وسلاحه وثيابه

وأخفاها في الغار عند أمه، وربط الحصان هناك ثم رجع إلى المدينة، ومشى حتى وصل إلى قصر النصراني، وفعل ما تقدَّم ذكره من أخذ عمامة علي شار، ومن أخذ زمرد جاريته، ولم يزل يجري بها إلى أن حطَّها عند أمه، وقال لها: احتفظي عليها إلى حين أرجع إليكِ في بُكرة النهار. ثم ذهب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جوان الكردي قال لأمه: احتفظي عليها حتى أرجع إليك في بُكرة النهار. ثم ذهب، فقالت زمرد في نفسها: وما هذه الغفلة عن خلاص روحي بالحيلة، كيف أصبر إلى أن يجيء هؤلاء الأربعون رجلًا، فيتعاقبون عليَّ حتى يجعلوني كالمركب الغريقة في البحر؟ ثم إنها التفتت إلى العجوز أم جوان الكردي وقالت لها: يا خالتي، أَمَا تقومين بنا إلى خارج الغار حتى أفلِّيك في الشمس؟ فقالت: إي والله يا بنتي، فإن لي مدة وأنا بعيدة عن الحمام؛ لأن هؤلاء الخنازير لم يزالوا دائرين بي من مكان إلى مكان. فخرجت معها فصارت تفلِّيها وتقتل القمل من رأسها إلى أن استلذَّت بذلك ورقدت، فقامت زمرد ولبست ثياب الجندي الذي قتله جوان الكردي، وشدَّت سيفه في وسطها، وتعمَّمَتْ بعمامته حتى صارت كأنها رجل، وركبت الفرس وأخذت الخُرْج الذهب معها، وقالت: يا جميل الستر، استرني بجاه محمد ﷺ. ثم إنها قالت في نفسها: إن رُحْتُ إلى البلد ربما ينظرني أحدٌ من أهل الجندي فلا يحصل لي خير. ثم أعرضَتْ عن دخول المدينة وسارت في البر الأقفر، ولم تزل سائرة بالخُرْج والفرس، وتأكل من نبات الأرض وتطعم الفرس منه، وتشرب من الأنهار مدة عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر أقبلَتْ على مدينة طيبة أمينة بالخير مكينة، قد ولَّى عنها فصل الشتاء ببرده، وأقبل عليها فصل الربيع بزهره وورده، فزهت أزهارها وتدفَّقت أنهارها، وغرَّدت أطيارها.

فلما وصلت إلى المدينة وقربت من بابها، وجدت العساكر والأمراء وأكابر أهل المدينة، فتعجَّبت لما نظرتهم على هذه الحالة، وقالت في نفسها: إن أهل هذه المدينة كلهم مجتمعون، ولا بد لذلك من سبب. ثم إنها قصدتهم، فلما قربت منهم تسابق إليها العساكر وترجَّلوا وقبَّلوا الأرض بين يديها، وقالوا: الله ينصرك يا مولانا السلطان. واصطفت بين يديها المناصب، فصارت العساكر يرتبون الناس ويقولون: الله ينصرك، ويجعل قدومك مباركًا

على المسلمين يا سلطان العالمين، ثبَّتَكَ الله يا ملك الزمان، يا فريد العصر والأوان. فقالت لهم زمرد: ما خبركم يا أهل هذه المدينة؟ فقال الحاجب: إنه أعطاك مَن لا يبخل بالعطاء، وجعلك سلطانًا على هذه المدينة، وحاكمًا على رقاب جميع مَن فيها، واعلم أن عادة أهل هذه المدينة إذا مات ملكهم ولم يكن له ولد، تخرج العساكر إلى ظاهر المدينة ويمكثون ثلاثة أيام، فأي إنسان جاء من طريقك التي جئتَ منها يجعلونه سلطانًا عليهم، والحمد لله الذي ساق لنا إنسانًا من أولاد الترك جميل الوجه، فلو طلع علينا أقل منك كان سلطانًا. وكانت زمرد صاحبة رأي في جميع أفعالها، فقالت: لا تحسبوا أنني من أولاد عامة الأتراك، بل أنا من أولاد الأكابر، لكنني غضبت من أهلي فخرجت من عندهم وتركتهم، وانظروا إلى هذا الخُرْج الذهب الذي جئتُ به تحتي لأتصدَّق منه على الفقراء والمساكين طول الطريق. فدعوا لها وفرحوا بها غاية الفرح، وكذلك زمرد فرحت بهم، ثم قالت في نفسها: بعد أن وصلت إلى هذا الأمر ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣١٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زمرد قالت في نفسها: بعد أن وصلت إلى هذا الأمر، لعل الله يجمعني بسيدي في هذا المكان، إنه على ما يشاء قدير. ثم سارت فسار العسكر بسيرها حتى دخلوا المدينة، وترجل العسكر بين يديها حتى أدخلوها القصر، فنزلت وأخذها الأمراء والأكابر من تحت إبطَيْها حتى أجلسوها على الكرسي، وقبَّلوا الأرض جميعًا بين يديها. فلما جلست على الكرسي أمرت بفتح الخزائن ففُتِحت، وأنفقت على جميع العسكر، فدعوا لها بدوام الملك، وأطاعها العباد وسائر أهل البلاد، واستمرت على ذلك مدة من الزمان وهي تأمر وتنهى، وقد صار لها في قلوب الناس هيبة عظيمة من أجل الكرم والعفة، وأبطلت المكوس، وأطلقت مَن في الحبوس، ورفعت المظالم؛ فأحَبَّها جميع الناس، وكلما تذكرت سيدها تبكي، وتدعو الله أن يجمع بينها وبينه. واتفق أنها تذكرته في بعض الليالي، وتذكرت أيامها التي مضت لها معه، فأفاضت دمع العين، وأنشدت هذين البيتين:

شَوْقِي إِلَيْكَ عَلَى الزَّمَانِ جَدِيدُ وَالدَّمْعُ قَرَّحَ مُقْلَتِي وَيَزِيدُ
وَإِذَا بَكَيْتُ بَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى إِنَّ الْفِرَاقَ عَلَى الْمُحِبِّ شَدِيدُ

فلما فرغَتْ من شعرها مسحت دموعها، وطلعت القصر، ودخلت الحريم، وأفردت للجواري والسراري معازل، ورتَّبت لهن الرواتب والجرايات، وزعمت أنها تريد أن تجلس في مكان وحدها عاكفة على العبادة، وصارت تصوم وتصلي حتى قالت الأمراء: إن هذا السلطان له ديانة عظيمة. ثم إنها لم تدع عندها أحدًا من الخدم غير طواشيَّين صغيرين لأجل الخدمة، وجلست في تخت الملك سنة، وهي لم تسمع لسيدها خبرًا، ولم تقف له على أثر، فقلقت من ذلك، فلما اشتد قلقها دعت بالوزراء والحجَّاب وأمرتهم أن يُحضروا

لها المهندسين والبنَّائين، وأن يبنوا لها تحت القصر ميدانًا طوله فرسخ، وعرضه فرسخ، ففعلوا ما أمرتهم به في أسرع وقت، فجاء الميدان على طِبق مرادها، فلما تم ذلك الميدان نزلت فيه، وضربت لها فيه قبة عظيمة، وصفَّت فيه كراسي الأمراء، وأمرت أن يمدوا سماطًا من سائر الأطعمة الفاخرة في ذلك الميدان، ففعلوا ما أمرتهم به، ثم أمرت أرباب الدولة أن يأكلوا فأكلوا، ثم قالت للأمراء: أريد إذا هلَّ الشهر الجديد أن تفعلوا هكذا، وتنادوا في المدينة أنه لا يفتح أحد دكانه، بل يحضرون جميعًا ويأكلون من سماط الملك، وكل مَن خالَفَ منهم يُشنَق على باب داره. فلما هلَّ الشهر الجديد فعلوا ما أمرَتْهم به، واستمروا على هذه العادة إلى أن هلَّ أول شهر في السنة الثانية، فنزلت إلى الميدان، ونادى المنادي: يا معاشر الناس كافة، كلُّ مَن فتح دكانه أو حاصله أو منزله شُنِق في الحال على باب مكانه، بل يجب عليكم أنكم تحضرون جميعًا لتأكلوا من سماط الملك. فلما فرغت المناداة وقد وضعوا السماط، جاءت الخلق أفواجًا، فأمرتهم بالجلوس على السماط ليأكلوا حتى يشبعوا من سائر الألوان، فجلسوا يأكلون كما أمرتهم، وجلست على كرسي المملكة تنظر إليهم، فصار كل مَن جلس على السماط يقول في نفسه: إن الملك لا ينظر إلا إليَّ. وجعلوا يأكلون، وصار الأمراء يقولون للناس: كلوا ولا تستحوا، فإن الملك يحب ذلك. فأكلوا حتى شبعوا وانصرفوا داعين للملك، وصار بعضهم يقول لبعض: عمرنا ما رأينا سلطانًا يحب الفقراء مثل هذا السلطان. ودعوا له بطول البقاء، وذهبت إلى قصرها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة زمرد ذهبت إلى قصرها وهي فرحانة بما رتبته، وقالت في نفسها: إن شاء الله تعالى بسبب ذلك أقع على خبر سيدي علي شار. ولما هلَّ الشهر الثاني فعلَتْ ذلك الأمر على جري العادة، ووضعوا السماط، ونزلت زمرد، وجلست على كرسيها، وأمرت الناس أن يجلسوا ويأكلوا. فبينما هي جالسة على رأس السماط، والناس يجلسون عليه جماعة بعد جماعة، وواحدًا بعد واحد، إذ وقعت عينها على برسوم النصراني الذي كان اشترى الستر من سيدها، فعرفته وقالت: هذا أول الفرج وبلوغ المنى. ثم إن برسوم تقدَّمَ وجلس مع الناس يأكل، فنظر إلى صحن أرز حلو مرشوش عليه سكَّر، وكان بعيدًا عنه، فزاحَمَ عليه ومدَّ يده إليه وتناوله ووضعه قدَّامه، فقال له رجل بجانبه: لِمَ لا تأكل من قدَّامك؟ أَمَا هذا عيب عليك، كيف تمد يدك إلى شيء بعيد عنك، أَمَا تستحي؟ فقال له برسوم: ما آكل إلا منه. فقال له الرجل: كُلْ لا هنَّاكَ الله به. فقال رجل حشَّاش: دعه يأكل منه حتى آكل أنا الآخر معه. فقال له الرجل: يا أنحس الحشاشين، هذا ما هو مأكولكم، وإنما هو مأكول الأمراء، فاتركوه حتى يرجع إلى أصحابه فيأكلوه. فخالَفَه برسوم وأخذ منه لقمة وحطَّها في فمه وأراد أن يأخذ الثانية، والملكة تنظر إليه، فصاحت على بعض الجند وقالت لهم: هاتوا هذا الذي قدامه الصحن الأرز الحلو، ولا تدعوه يأكل اللقمة التي في يده، بل ارموها من يده. فجاءه أربعة من العساكر وسحبوه على وجهه بعد أن رموا اللقمة من يده، وأوقفوه قدَّام زمرد، فامتنعت الناس عن الأكل، وقال بعضهم لبعض: والله إنه ظالم؛ لأنه لم يأكل من طعام أمثاله. فقال واحد: أنا قنعت بهذا الكشك الذي قدَّامي. فقال الحشاش: الحمد لله الذي منعني أن آكل من الصحن الأرز الحلو شيئًا؛ لأني كنتُ أنتظر أن يستقر قدَّامه ويتهنَّى عليه ثم آكل معه، فحصل له ما رأينا. فقالت الناس لبعضهم: اصبروا حتى ننظر ما يجري عليه. فلما قدَّموه بين يدي

الملكة زمرد قالت له: ويلك من أزرق العينين! ما اسمك؟ وما سبب قدومك إلى بلادنا؟ فأنكر الملعون اسمه، وكان متعمِّمًا بعمامة بيضاء، فقال: يا ملك اسمي علي، وصنعتي حبَّاك، وجئت إلى هذه المدينة من أجل التجارة. فقالت زمرد: ائتوني بتخت رمل وقلم من نحاس. فجاءوا بما طلبته في الحال، فأخذت التخت الرمل والقلم وضربت تخت رمل، وخطَّت بالقلم صورة مثل صورة قرد، ثم بعد ذلك رفعت رأسها، وتأملت في برسوم ساعة زمانية، وقالت له: يا كلب، كيف تكذب على الملوك؟ أَمَا أنت نصراني، واسمك برسوم، وقد أتيتَ إلى حاجةٍ تفتِّش عليها؟ فاصدقني الخبر وإلا وعزة الربوبية أضرب عنقك. فتلجلج النصراني، فقال الأمراء والحاضرون: إن هذا الملك يعرف ضرب الرمل، سبحان مَن أعطاه! ثم صاحت على النصراني وقالت له: اصدقني الخبر وإلا أهلكتك. فقال النصراني: العفو يا ملك الزمان، إنك صادق في ضرب الرمل، فإن الأبعد نصراني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن النصراني قال: العفو يا ملك الزمان، إنك صادق في ضرب الرمل، فإن الأبعد نصراني. فتعجب الحاضرون من الأمراء وغيرهم من إصابة الملك في ضرب الرمل، وقالوا: إن هذا الملك منجِّم ما في الدنيا مثله. ثم إن الملكة أمرت بأن يُسلَخ النصراني ويُحشَى جلده تبنًا، ويُعلَّق على باب الميدان، وأن تُحفَر حفرة في خارج البلد ويُحرَق فيها لحمه وعظمه، وتُرمَى عليه الأوساخ والأقذار، فقالوا: سمعًا وطاعة. وفعلوا جميع ما أمرتهم به، فلما نظر الخلق ما حلَّ بالنصراني قالوا: جزاؤه ما حلَّ به، فما كان أشأمها لقمة عليه! فقال واحد منهم: على البعيد الطلاق، عمري ما بقيت آكل أرزًا حلوًا. فقال الحشاش: الحمد لله الذي عافاني مما حلَّ بهذا؛ حيث حفظني من أكل ذلك الأرز. ثم خرج الناس جميعهم وقد حرموا الجلوس على الأرز الحلو في موضع ذلك النصراني. ولما كان الشهر الثالث، مدوا السماط على جري العادة، وملئُوه بالأصحن، وقعدت الملكة على الكرسي، ووقف العسكر على جري العادة وهم خائفون من سطوتها، ودخلت الناس من أهل المدينة على العادة، وداروا حول السماط، ونظروا إلى موضع الصحن، فقال واحد منهم للآخر: يا حاج خلف. قال له: لبيك يا حاج خالد. قال: تجنَّبِ الصحنَ الأرز الحلو، واحذر أن تأكل منه، فإن أكلت منه تصبح مشنوقًا.

ثم إنهم جلسوا حول السماط للأكل، فبينما هم يأكلون والملكة زمرد جالسة، إذ حانت منها التفاتة إلى رجل داخل يهرول من باب المدينة، فتأمَّلته فوجدته جوان الكردي اللص الذي قتل الجندي، وسبب مجيئه أنه كان ترك أمه ومضى إلى رفقائه، وقال لهم: إني كسبت البارحة كسبًا طيبًا وقتلت جنديًّا، وأخذت فرسه، وحصل لي في تلك الليلة خُرْج ملآن ذهبًا، وصبية قيمتها أكثر من الذهب الذي في الخُرْج، ووضعت جميع ذلك في الغار عند والدتي. ففرحوا بذلك، وتوجهوا إلى الغار في آخِر النهار، ودخل جوان الكردي

قدامهم وهم خلفه، وأراد أن يأتي لهم بما قال لهم عليه، فوجد المكان قفرًا، فسأل أمه عن حقيقة الأمر فأخبرته بجميع ما جرى؛ فعضَّ على كفَّيْه ندمًا وقال: والله لأدورنَّ على هذه الفاجرة، وآخذها من المكان الذي هي فيه، ولو كانت في قشور الفستق، وأشفي غليلي منها. وخرج يفتش عليها، ولم يزل دائرًا في البلاد حتى وصل إلى مدينة الملكة زمرد. فلما دخل المدينة لم يجد فيها أحدًا، فسأل بعض النساء الناظرات من الشبابيك، فأعلمنه أن أول كل شهر يمد السلطان سماطًا، وتروح الناس وتأكل منه، ودلُّوه على الميدان الذي يُمَدُّ فيه السماط، فجاء وهو يهرول فلم يجد مكانا خاليًا يجلس فيه إلا عند الصحن المتقدِّم ذكره، فقعد وصار الصحن قدَّامه فمدَّ يده إليه، فصاحت عليه الناس وقالوا له: يا أخانا، ما تريد أن تعمل؟ قال: أريد أن آكل من هذا الصحن حتى أشبع. فقال له واحد: إن أكلت منه تصبح مشنوقًا. فقال له: اسكت، ولا تنطق بهذا الكلام. ثم مدَّ يده إلى الصحن وجرَّه قدَّامه، وكان الحشاش المتقدم ذكره جالسًا في جنبه، فلمَّا رآه جرَّ الصحن قدامه هرب من مكانه، وطارت الحشيشة من رأسه، وجلس بعيدًا وقال: أنا ما لي حاجة بهذا الصحن. ثم إن جوان الكردي مدَّ يده إلى الصحن وهي في صورة رجل الغراب، وغرف بها وأطلعها منه وهي في صورة خُفِّ الجمل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جوان الكردي أطلع يده من الصحن وهي في صورة خُفِّ الجمل، ودوَّر اللقمة في كفه حتى صارت مثل النارنجة الكبيرة، ثم رماها في فمه بسرعة فانحدرت في حلقه ولها فرقعه مثل الرعد، وبان قعر الصحن من موضعها، فقال له مَن بجانبه: الحمد لله الذي لم يجعلني طعامًا بين يدَيْك؛ لأنك خسفت الصحن بلقمة واحدة. فقال الحشاش: دعوه يأكل فإني تخيَّلت فيه صورة المشنوق. ثم التفت إليه وقال له: كُل لا هنَّاك الله. فمدَّ يده إلى اللقمة الثانية، وأراد أن يدوِّرها في يده مثل اللقمة الأولى، وإذا بالملكة صاحت على بعض الجند وقالت لهم: هاتوا ذلك الرجل بسرعة، ولا تدعوه يأكل اللقمة التي في يده. فتجارت عليه العساكر وهو مكبٌّ على الصحن، وقبضوا عليه وأخذوه قدَّام الملكة زمرد، فشمتت الناس فيه وقالوا لبعضهم: إنه يستأهل؛ لأننا نصحناه فلم ينتصح، وهذا المكان موعود بقتل من جلس فيه، وذلك الأرز مشئوم على كل مَن يأكل منه.

ثم إن الملكة زمرد قالت له: ما اسمك؟ وما صنعتك؟ وما سبب مجيئك مدينتنا؟ قال: يا مولانا السلطان اسمي عثمان، وصنعتي خولي بستان، وسبب مجيئي إلى هذه المدينة أنني دائر أفتش على شيء ضاع مني. فقالت الملكة: عليَّ بتخت الرمل. فأحضروه بين يديها، فأخذت القلم وضربت تخت رمل، ثم تأملت فيه ساعة، وبعد ذلك رفعت رأسها وقالت له: ويلك يا خبيث! كيف تكذب على الملوك؟ هذا الرمل يخبرني أن اسمك جوان الكردي، وصنعتك أنك لص تأخذ أموال الناس بالباطل، وتقتل النفس التي حرَّمَ الله قتلها إلا بالحق. ثم صاحت عليه وقالت له: يا خنزير، اصدقني بخبرك وإلا قطعت رأسك. فلما سمع كلامها اصفرَّ لونه، واصطكت أسنانه، وظنَّ أنه إن نطق بالحق ينجو، فقال: صدقت أيها الملك، ولكنني أتوب على يديك من الآن، وأرجع إلى الله تعالى. فقالت له الملكة: لا يحل لي أن أترك آفة في طريق المسلمين. ثم قالت لبعض أتباعها: خذوه واسلخوا

جلده، وافعلوا به مثل ما فعلتم بنظيره في الشهر الماضي. ففعلوا ما أمرتهم به، ولما رأى الحشاش العسكر حين قبضوا على ذلك الرجل، أدار ظهره إلى الصحن الأرز وقال: إن استقبالك بوجهي حرام. ولما فرغوا من الأكل تفرَّقوا وذهبوا إلى أماكنهم، وطلعت الملكة قصرها وأذنت للمماليك بالانصراف.

ولما هلَّ الشهر الرابع نزلوا إلى الميدان على جري العادة، وأحضروا الطعام، وجلس الناس ينتظرون الإذن، وإذا بالملكة قد أقبلت وجلست على الكرسي وهي تنظر إليهم، فوجدت موضع الصحن الأرز خاليًا وهو يسع أربع أنفس، فتعجَّبت من ذلك. فبينما هي تجول بنظرها إذ حانت منها التفاتة فنظرت إنسانًا داخلًا من باب الميدان يهرول، وما زال يهرول حتى وقف على السماط، فلم يجد مكانًا خاليًا إلا عند الصحن فجلس فيه، فتأمَّلته فوجدته الملعون النصراني الذي سمَّى نفسه رشيد الدين، فقالت في نفسها: ما أبركَ هذا الطعام الذي وقع في حبائله هذا الكافر! وكان لمجيئه سبب عجيب، وهو أنه لما رجع من سفره ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملعون الذي سمَّى نفسه رشيد الدين لما رجع من سفره أخبره أهل بيته أن زمرد قد فُقِدت ومعها خُرْج مال، فلما سمع ذلك الخبر شقَّ أثوابه ولطم على وجهه ونتف لحيته، وأرسل أخاه برسوم يفتش عليها في البلاد؛ فلما أبطأ عليه خبره خرج هو بنفسه ليفتش على أخيه وعلى زمرد في البلاد، فرمته المقادير إلى مدينة زمرد، ودخل تلك المدينة في أول يوم من الشهر، فلما مشى في شوارعها وجدها خالية، ورأى الدكاكين مقفولة، ونظر النساء في الطيقان، فسأل بعضهن عن الحال فقلن له: إن الملك يعمل سماطًا لجميع الناس في أول كل شهر، وتأكل منه الخلق جميعًا، وما يقدر أحد أن يجلس في بيته ولا في دكانه. ودللْنَه على الميدان، فلما دخل الميدان وجد الناس مزدحمين على الطعام، ولم يجد موضعًا خاليًا إلا الموضع الذي فيه الصحن الأرز المعهود، فجلس فيه ومدَّ يده ليأكل منه، فصاحت الملكة على بعض العسكر وقالت: هاتوا الذي قعد على الصحن الأرز. فعرفوه بالعادة وقبضوا عليه، وأوقفوه قدَّام الملكة زمرد. فقالت له: ويلك! ما اسمك؟ وما صنعتك؟ وما سبب مجيئك إلى مدينتنا؟ فقال: يا ملك الزمان اسمي رستم، ولا صنعة لي؛ لأني فقير درويش. فقالت لجماعتها: هاتوا لي تخت رمل والقلم النحاس. فأتوها بما طلبته على العادة، فأخذت القلم وخطَّت به تخت رمل، ومكثت تتأمل فيه ساعة، ثم رفعت رأسها إليه وقالت: يا كلب، كيف تكذب على الملوك؟ أنت اسمك رشيد الدين النصراني، وصنعتك أنك تنصب الحِيَل لجواري المسلمين وتأخذهن، وأنت مسلم في الظاهر ونصراني في الباطن، فانطق بالحق، وإن لم تنطق بالحق فإني أضرب عنقك. فتلجلج في كلامه، ثم قال: صدقتَ يا ملك الزمان. فأمرت به أن يُمدَّ ويُضرَب على كل رجل مائة سوط، وعلى جسده ألف سوط، وبعد ذلك يُسلَخ ويُحشَى جلده ساسًا، ثم تُحفَر له حفرة في خارج المدينة ويُحرَق، وبعد ذلك يضعون عليه الأوساخ والأقذار. ففعلوا ما

أمرتهم به، ثم أذنت للناس بالأكل فأكلوا. ولما فرغ الناس من الأكل وانصرفوا إلى حال سبيلهم، طلعت الملكة زمرد إلى قصرها وقالت: الحمد لله الذي أراح قلبي من الذين آذوني. ثم إنها شكرت فاطر الأرض والسموات، وأنشدت هذه الأبيات:

تَحَكَّمُوا فَاسْتَطَالُوا فِي تَحَكُّمِهِمْ وَبَعْدَ حِينٍ كَأَنَّ الْحُكْمَ لَمْ يَكُنِ
لَوْ أَنْصَفُوا أَنْصَفُوا لَكِنْ بَغَوْا فَأَتَى عَلَيْهُمُ الدَّهْرُ بِالْآفَاتِ وَالْمِحَنِ
فَأَصْبَحُوا وَلِسَانُ الْحَالِ يُنْشِدُهُمْ هَذَا بِذَاكَ وَلَا عَتْبٌ عَلَى الزَّمَنِ

ولما فرغت من شعرها خطر ببالها سيدها علي شار فبكت بالدموع الغزار، وبعد ذلك رجعت إلى عقلها وقالت في نفسها: لعل الله الذي مكنني من أعدائي يمنُّ عليَّ برجوع أحبَّائي. فاستغفرت الله عزَّ وجَلَّ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة استغفرت الله — عز وجل — وقالت: لعل الله يجمع شملي بحبيبي علي شار قريبًا، إنه على ما يشاء قدير، وبعباده لطيف خبير. ثم حمدت الله ووالت الاستغفار، وسلَّمت لمواقع الأقدار، وأيقنت أنه لا بد لكل أول من آخِر، وأنشدت قول الشاعر:

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ ... بِكَفِّ الْإِلَـهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِمُؤْذِيكَ مَنْ هَابَهَا ... وَلَا قَاصِرٌ عَنْكَ مَأْمُورُهَا

وقول الآخَر:

دَرِّجِ الْأَيَّامَ تَنْدَرِجِ ... وَبُيُوتَ الْهَمِّ لَا تَلِجِ
رُبَّ أَمْرٍ عَزَّ مَطْلَبُهُ ... قَرَّبَتْهُ سَاعَةُ الْفَرَجِ

وقول الآخَر:

كُنْ حَلِيمًا إِذَا بُلِيتَ بِغَيْظٍ ... وَصَبُورًا إِذَا أَتَتْكَ مُصِيبَةْ
فَاللَّيَالِي مِنَ الزَّمَانِ حَبَالَى ... مُثْقِلَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبَةْ

وقول الآخَر:

اصْبِرْ فَفِي الصَّبْرِ خَيْرٌ لَوْ عَلِمْتَ بِهِ ... لَطِبْتَ نَفْسًا وَلَمْ تَجْزَعْ مِنَ الْأَلَمِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَوْ لَمْ تَصْطَبِرْ كَرَمًا ... صَبَرْتَ رَغْمًا عَلَى مَا خُطَّ بِالْقَلَمِ

فلما فرغت من شعرها مكثت بعد ذلك شهرًا كاملًا، وهي بالنهار تحكم بين الناس، وتأمر وتنهى، وبالليل تبكي وتنتحب على فراق سيدها علي شار. ولما هلَّ الشهر الجديد أمرت بمد السماط في الميدان على جري العادة، وجلست فوق الناس وصاروا ينتظرون الإذن في الأكل، وكان موضع الصحن الأرز خاليًا، وجلست هي على رأس السماط، وجعلت عينها قبال باب الميدان لتنظر كلَّ مَن يدخل منه، وصارت تقول في سرِّها: يا مَن ردَّ يوسف على يعقوب، وكشف البلاء عن أيوب، امنُنْ عليَّ بردِّ سيدي علي شار بقدرتك وعظمتك، إنك على كل شيء قدير يا رب العالمين، يا هادي الضالين، يا سامع الأصوات، يا مجيب الدعوات، استجِبْ مني يا رب العالمين. فلم يتم دعاؤها إلا وشخص داخل من باب الميدان كأن قوامه غصن بان، إلا أنه نحيل البدن يلوح عليه الاصفرار، وهو أحسن ما يكون من الشباب، كامل العقل والآداب. فلما دخل لم يجد موضعًا خاليًا إلا الموضع الذي عند الصحن الأرز فجلس فيه، ولما رأته زمرد خفق قلبها فحقَّقت النظر فيه، فتبيَّنَ لها أنه سيدها علي شار، فأرادت أن تصرخ من الفرح فثبَّتت نفسها، وخشيت من الفضيحة بين الناس، ولكن تقلقلت أحشاؤها، واضطرب قلبها، فكتمت ما بها، وكان السبب في مجيء علي شار أنه لما رقد على المصطبة ونزلت زمرد وأخذها جوان الكردي، استيقظ بعد ذلك فوجد نفسه مكشوف الرأس، فعرف أن إنسانًا تعدَّى عليه وأخذ عمامته وهو نائم، فقال الكلمة التي لا يخجل قائلها، وهي: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم إنه رجع إلى العجوز التي كانت أخبرته بمكان زمرد، وطرق عليها الباب فخرجت إليه، فبكى بين يديها حتى وقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق أخبرها بجميع ما حصل له، فلامته وعنَّفته على ما وقع منه، وقالت له: إن مصيبتك وداهيتك من نفسك. وما زالت تلومه حتى طفح الدم من منخرَيْه، ووقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق من غشيته … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علي شار لما أفاق من غشيته رأى العجوز تبكي من أجله، وتفيض دمع العين، فتضجر وأنشد هذين البيتين:

مَا أَمَرَّ الْفِرَاقَ لِلْأَحْبَابِ ... وَأَلَذَّ الْوِصَالَ لِلْعُشَّاقِ
جَمَعَ اللهُ شَمْلَ كُلِّ مُحِبٍّ ... وَرَعَانِي لِأَنَّنِي فِي السِّيَاقِ

فحزنت عليه وقالت له: اقعد هنا حتى أكشف لك الخبر وأعود بسرعة. فقال: سمعًا وطاعة. ثم تركته وذهبت وغابت عنه إلى نصف النهار ثم عادت إليه وقالت: يا علي، ما أظن إلا أنك تموت بحسرتك؛ لأنك ما بقيت تنظر محبوبتك إلا على الصراط؛ وذلك أن أهل القصر لما أصبحوا وجدوا الشباك الذي يطل على البستان مخلوعًا، ووجدوا زمرد مفقودة ومعها خُرْج مال للنصراني، ولما وصلتُ هناك وجدت الوالي واقفًا على باب القصر هو وجماعته، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فلمَّا سمع علي شار منها هذا الكلام تبدَّلَ الضياء في وجهه بالظلام، ويئس من الحياة وأيقن بالوفاة، وما زال يبكي حتى وقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق أضرَّ به العشق والفراق، ومرض مرضًا شديدًا ولزم داره، فما زالت العجوز تأتيه بالأطباء وتسقيه الأشربة وتعمل له المساليق مدة سنة كاملة حتى رُدَّتْ له روحه، فتذكَّر ما فات وأنشد هذه الأبيات:

الْهَمُّ مُجْتَمِعٌ وَالشَّمْلُ مُفْتَرِقُ ... وَالدَّمْعُ مُسْتَبِقٌ وَالْقَلْبُ مُحْتَرِقُ
زَادَ الْغَرَامُ عَلَى مَنْ لَا قَرَارَ لَهُ ... وَقَدْ ضَنَاهُ الْهَوَى وَالشَّوْقُ وَالْقَلَقُ
يَا رَبُّ إِنْ كَانَ شَيْءٌ فِيهِ لِي فَرَجٌ ... فَامْنُنْ عَلَيَّ بِهِ مَا دَامَ لِي رَمَقُ

ولما دخلت عليه السنة الثانية قالت له العجوز: يا ولدي، هذا الذي أنت فيه من الكآبة والحزن لا يرد عليك محبوبتك، فقُمْ وشدَّ حيلك وفتِّش عليها في البلاد، لعلك أن تقع على خبرها. ولم تزل تجلِّده وتقوِّيه حتى نشَّطته وأدخلته الحمام، وأسقته الشراب وأطعمته الدجاج، وصارت كل يوم تفعل معه كذلك مدة شهر حتى تقوَّى وسافر، ولم يزل مسافرًا إلى أن وصل إلى مدينة زمرد، ودخل الميدان وجلس على الطعام، ومد يده ليأكل فحزنت عليه الناس، وقالوا له: يا شاب، لا تأكل من هذا الصحن؛ لأن مَن أكل منه يحصل له ضرر. فقال: دعوني آكل منه، ويفعلون بي ما يريدون، لعلي أستريح من هذه الحياة المتعبة. ثم أكل أول لقمة وأرادت زمرد أن تحضره بين يديها، فخطر ببالها أنه جائع، فقالت في نفسها: المناسب أني أدعه يأكل حتى يشبع. فصار يأكل والخلق باهتة له ينتظرون الذي يجري له، فلما أكل وشبع قالت لبعض الطواشية: امضوا إلى ذلك الشاب الذي يأكل من الأرز وهاتوه برفق، وقولوا له: كلِّم الملك لسؤال لطيف وجواب. فقالوا: سمعًا وطاعة. ثم ذهبوا إليه حتى وقفوا على رأسه، وقالوا له: يا سيدي، تفضَّلْ كلِّم الملك وأنت منشرح الصدر. فقال: سمعًا وطاعة. ثم مضى مع الطواشية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علي شار قال: سمعًا وطاعة. ثم ذهب مع الطواشية، فقال الخلق لبعضهم: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا ترى ما الذي يفعله به الملك؟ فقال بعضهم: لا يفعل به إلا خيرًا؛ لأنه لو كان يريد ضرره ما كان تركه يأكل حتى يشبع. فلما وقف قدَّام زمرد سلَّم وقبَّل الأرض بين يديها، فردَّت عليه السلام، وقابلته بالإكرام، وقالت له: ما اسمك؟ وما صنعتك؟ وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة؟ فقال لها: يا ملك اسمي علي شار، وأنا من أولاد التجار، وبلدي خراسان، وسبب مجيئي إلى هذه المدينة التفتيش على جارية ضاعت مني، وكانت عندي أعزَّ من سمعي وبصري، فروحي متعلِّقة من حين فقدتُها، وهذه قصتي. ثم بكى حتى غشي عليه، فأمرت أن يرشوا على وجهه ماء الورد، فرشوا على وجهه ماء الورد حتى أفاق، فلما أفاق من غشيته قالت: عليَّ بتخت الرمل والقلم النحاس. فجاءوا به فأخذت القلم وضربت تخت رمل، وتأمَّلت فيه ساعة من الزمان، ثم بعد ذلك قالت له: صدقتَ في كلامك، الله يجمعك عليها قريبًا فلا تقلق. ثم أمرت الحاجب أن يمضي به إلى الحمام، ويُلبِسه بدلة حسنة من ثياب الملوك، ويركبه فرسًا من خواص خيل الملك، ويمضي به بعد ذلك إلى القصر في آخِر النهار. فقال الحاجب: سمعًا وطاعة. ثم أخذه من قدَّامها وتوجَّه به، فقال الناس لبعضهم: ما بال السلطان لاطَفَ الغلام هذه الملاطفة؟ وقال بعضهم: أَمَا قلتُ لكم إنه لا يسيئه فإن شكله حسن، ومن حين صبر عليه لما شبع عرفت ذلك. وصار كل واحد منهم يقول مقالة، ثم تفرَّق الناس إلى حال سبيلهم، وما صدقت زمرد أن الليل يقبل حتى تختلي بمحبوب قلبها. فلما أتى الليل دخلَتْ محل مبيتها، وأظهرت أنه غلب عليها النوم، ولم يكن لها عادة بأن ينام عندها أحد غير خادمين صغيرين برسم الخدمة، فلما استقرَّتْ في ذلك المحل أرسلَتْ إلى محبوبها علي شار، وقد جلست على السرير، والشمع يضيء فوق رأسها وتحت رجليها،

والتعاليق الذهب مشرقة في ذلك المحل، فلما سمع الناس بإرسالها إليه تعجَّبوا من ذلك، وصار كل واحد منهم يظن ظنًّا، ويقول مقالة، وقال بعضهم: إن الملك على كل حال تعلَّقَ بهذا الغلام، وفي غدٍ يجعله قائد عسكر. فلما دخلوا به عليها قبَّلَ الأرض بين يديها ودعا لها، فقالت في نفسها: لا بد أن أمزح معه ساعة، ولا أُعلِمه بنفسي. ثم قالت: يا علي، هل ذهبت إلى الحمام؟ قال: نعم يا مولاي. قالت: قم كُلْ من هذا الدجاج واللحم، واشرب من هذا السُّكْر والشراب فإنك تعبان، وبعد ذلك تعال هنا. فقال: سمعًا وطاعة. ثم فعل ما أمرته به، ولما فرغ من الأكل والشرب قالت له: اطلع عندي على السرير وكبِّسني. فشرع يكبِّس رجليها وسيقانها فوجدها أنعم من الحرير، فقالت له: اطلع بالتكبيس إلى فوق. فقال: العفو يا مولاي، من عند الركبة ما أتعدَّى. قالت: أتخالفني فتكون ليلة مشئومة عليك؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زمرد قالت لسيدها علي شار: أتخالفني فتكون ليلة مشئومة عليك، بل ينبغي لك أن تطاوعني، وأنا أعملك معشوقي، وأجعلك أميرًا من أمرائي. فقال علي شار: يا ملك الزمان، ما الذي أطيعك فيه؟ قالت: حلَّ لباسك، ونَمْ على وجهك. فقال: هذا شيء عمري ما فعلته، وإن قهرتني على ذلك فإني أخاصمك فيه عند الله يوم القيامة، فخذ كل شيء أعطيتني إياه ودعني أروح من مدينتك. ثم بكى وانتحب، فقالت له: حلَّ لباسك ونَمْ على وجهك وإلا ضربتُ عنقك. ففعل، فطلعت على ظهره، فوجد شيئًا ناعمًا أنعم من الحرير، وألين من الزبد، فقال في نفسه: إن هذا الملك خير من جميع النساء. ثم إنها صبرت ساعة وهي على ظهره، وبعد ذلك انقلبت على الأرض، فقال علي شار: الحمد لله، كأن ذكره لم ينتصب. فقالت: يا علي، إن من عادة ذكري أنه لا ينتصب إلا إذا عركوه بأيديهم، فقُمْ واعركه بيدك حتى ينتصب وإلا قتلتك. ثم رقدت على ظهرها، وأخذت يده ووضعتها على فرجها، فوجد فرجًا أنعم من الحرير، وهو أبيض مربرب كبير، يحكي في السخونة حرارة الحمام أو قلب صبٍّ أضناه الغرام، فقال علي شار في نفسه: إن الملك له كس فهذا من العجب العجاب. وأدركته الشهوة فصار ذكره في غاية الانتصاب، فلما رأت منه ذلك ضحكت وقهقهت، وقالت: يا سيدي، قد حصل هذا كله وما تعرفني؟ فقال: ومَن أنت أيها الملك؟ قالت: أنا جاريتك زمرد. فلما علم ذلك قبَّلها وعانقها، وانقضَّ عليها مثل الأسد على الشاة، وتحقَّقَ أنها جاريته بلا اشتباه؛ فأغمد قضيبه في جرابها، ولم يزل بوابًا لبابها، وإمامًا لمحرابها، وهي معه في ركوع وسجود، وقيام وقعود، إلا أنها صارت تتبع التسبيحات بغنج في ضمنه حركات، حتى سمع الطواشية فجاءوا ونظروا من خلف الأستار، فوجدوا الملك راقدًا وفوقه علي شار، وهو يرصع ويرهز، وهي تشخر

وتغنج. فقالت الطواشية: إن هذا الغنج ما هو غنج رجل، لعل هذا الملك امرأة! ثم كتموا أمرهم ولم يظهروه على أحد.

فلما أصبحت زمرد أرسلت إلى كامل العسكر وأرباب الدولة وأحضرتهم، وقالت لهم: أنا أريد أن أسافر إلى بلد هذا الرجل، فاختاروا لكم نائبًا يحكم بينكم حتى أحضر عندكم، فأجابوا زمرد بالسمع والطاعة، ثم شرعت في تجهيز آلة السفر من زاد وأموال وأرزاق، وتحف وجمال وبغال، وسافرَتْ من المدينة، ولم تزل مسافرة إلى أن وصلت إلى بلد علي شار، ودخل منزله، وأعطى وتصدَّقَ ووهب، ورُزِق منها الأولاد، وعاشَا في أحسن المسرات إلى أن أتاهما هادم اللذات ومفرِّق الجماعات، فسبحان الباقي بلا زوال، والحمد لله على كل حال.

حكاية جبير بن عمير والست بدور

ومما يُحكَى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ليلة من الليالي، وتعذَّر عليه النوم، ولم يزل يتقلب من جنب إلى جنب لشدة أرقه، فلما أعياه ذلك أحضر مسرورًا وقال له: يا مسرور، انظر إلى مَن يسلِّيني على هذا الأرق. فقال له: يا مولاي، هل لك أن تدخل البستان الذي في الدار، وتتفرَّج على ما فيه من أزهار، وتنظر إلى الكواكب وحسن ترصيعها، والقمر بينها مشرق على الماء؟ قال له: يا مسرور، إن نفسي لا تهفو إلى شيء من ذلك. قال: يا مولاي، إن في قصرك ثلاثمائة سرية، لكل سرية مقصورة، فَأْمُرْ كلَّ واحدة منهن أن تختلي بنفسها في مقصورتها، وتدور أنت تتفرج عليهنَّ وهن لا يدرين. قال: يا مسرور، القصر قصري والجواري ملكي، غير أن نفسي لا تهفو إلى شيء من ذلك. قال: يا مولاي، اؤمر العلماء والحكماء والشعراء أن يحضروا بين يديك، ويفيضوا في المباحث، وينشدون لك الأشعار، ويقصون عليك الحكايات والأخبار. قال: ما تهفو نفسي إلى شيء من ذلك. قال: يا مولاي، اؤمر العلماء والندماء والظرفاء أن يحضروا بين يديك، ويتحفوك بغريب النكات. قال: يا مسرور، ما تهفو نفسي إلى شيء من ذلك. قال: يا مولاي، فاضرب عنقي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مسرورًا قال للخليفة: يا مولاي، فاضرب عنقي لعله يزيل أرقك، ويُذهِب القلق عنك. فضحك الرشيد من قوله، وقال له: يا مسرور، انظر مَن بالباب من الندماء. فخرج مسرور ثم عاد وقال: يا مولاي، الذي على الباب علي بن منصور الخليعي الدمشقي. قال: عليَّ به. فذهب وأتى به، فلما دخل قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فردَّ عليه السلام وقال: يا ابن منصور، حدِّثنا بشيء من أخبارك. فقال: يا أمير المؤمنين، هل أحدِّثك بشيء رأيته عيانًا أم بشيء سمعت به؟ فقال أمير المؤمنين: إن كنت عاينتَ شيئًا غريبًا فحدِّثنا به، فإنه ليس الخبر كالعيان. قال: يا أمير المؤمنين أخلِ لي سمعك وقلبك. قال: يا ابن منصور، ها أنا سامع لك بأذني، ناظر لك بعيني، مصغٍ لك بقلبي. قال: يا أمير المؤمنين، اعلم أن لي كل سنة رسمًا على محمد بن سليمان الهاشمي سلطان البصرة، فمضيت إليه على عادتي، فلما وصلت إليه وجدته متهيئًا للركوب إلى الصيد والقنص، فسلَّمت عليه وسلَّم عليَّ، وقال لي: يا ابن منصور، اركب معنا إلى الصيد. فقلت له: يا مولاي، ما لي قدرة على الركوب، فأجلسني في دار الضيافة، ووصِّ عليَّ الحجَّاب والنواب. ففعل، ثم توجَّه إلى الصيد، فأكرموني غاية الإكرام، وضيَّفوني أحسن الضيافة، فقلت في نفسي: بالله العجب، إن لي مدةً أقدمُ من بغداد إلى البصرة ولم أعرف في البصرة سوى من القصر إلى البستان، ومن البستان إلى القصر، ومتى يكون لي فرصة أنتهزها في الفرجة على جهات البصرة مثل هذه النوبة، فأنا أقوم في هذه الساعة وأتمشَّى وحدي لأتفرج، وينهضم عني الأكل. فلبست أفخر ثيابي وتمشيت في جانب البصرة، ومعلومك يا أمير المؤمنين أن فيها سبعين دربًا، طول كل درب سبعون فرسخًا بالعراقي؛ فتهت في أزِقَّتها ولحقني العطش. فبينما أنا ماشٍ يا أمير المؤمنين، وإذا بباب كبير له حلقتان من النحاس الأصفر، ومرخيٌّ عليه ستور من الديباج الأحمر، وفي جانبيه مصطبتان، وفوقه

مكعب لدوالي العنب، وقد ظللت على ذلك الباب فوقفت أتفرج على هذا المكان. فبينما أنا واقف إذ سمعت صوتَ أنينٍ ناشئ من قلب حزين يقلِّب النغمات، وينشد هذه الأبيات:

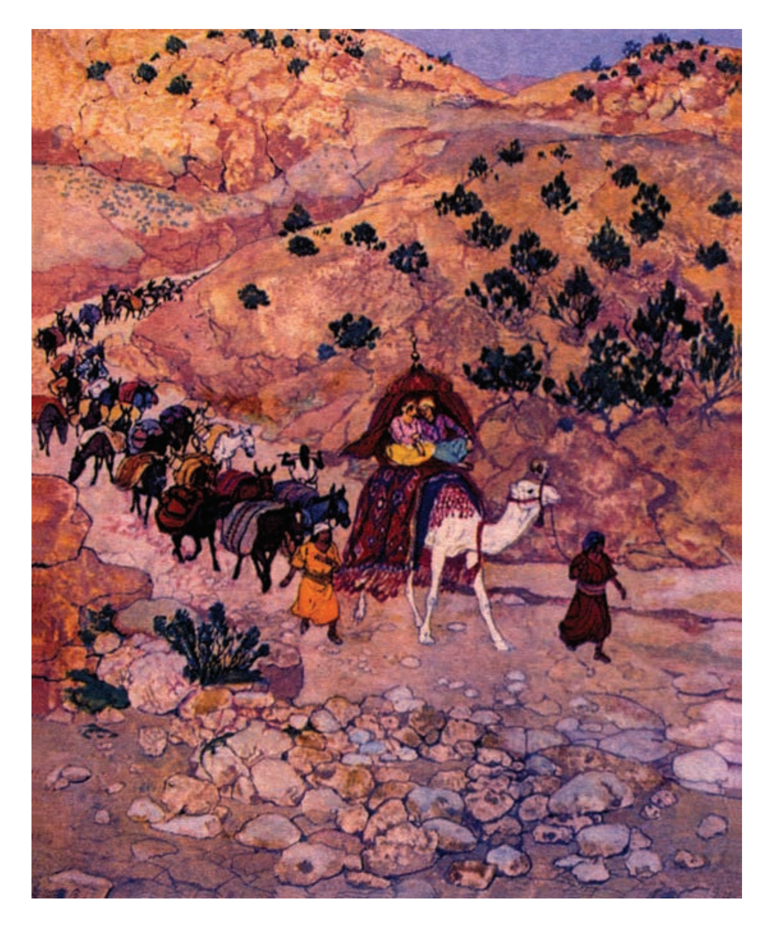
جِسْمِي غَدَا مَنْزِلَ الْأَسْقَامِ وَالْمِحَنِ مِنْ أَجْلِ ظَبْيٍ بَعِيدِ الدَّارِ وَالْوَطَنِ
فَيَا نَسِيمَيْ زَرُودٍ هَيَّجَا شَجَنِي بِاللهِ رَبِّكُمَا عُوجَا عَلَى سَكَنِي
وَعَاتِبَاهُ لَعَلَّ الْعَتْبَ يَعْطِفُهُ
فَذَوِّقَا الْقَوْلَ إِذْ يُصْغِي لِقَوْلِكُمَا وَاسْتَدْرِجَا خَبَرَ الْعُشَّاقِ بَيْنَكُمَا
وَأَوْلِيَانِي جَمِيلًا مِنْ صَنِيعِكُمَا وَعَرِّضَا بِي وَقُولَا فِي حَدِيثِكُمَا
مَا بَالُ عَبْدِكَ بِالْهِجْرَانِ تَتْلَفُهُ
مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ جَنَاهُ أَوْ مُخَالَفَةٍ أَوْ مَيْلِ قَلْبٍ لِغَيْرٍ أَوْ مُحَارَفَةٍ
أَوْ نَقْضِ عَهْدٍ وَثِيقٍ أَوْ مُعَاسَفَةٍ فَإِنْ تَبَسَّمَ قُولَا فِي مُلَاطَفَةٍ
مَا ضَرَّ لَوْ بِوِصَالٍ مِنْكَ تُسْعِفُهُ
فَإِنَّهُ بِكَ مَشْغُوفٌ كَمَا يَجِبُ وَطَرْفُهُ سَاهِرٌ يَبْكِي وَيَنْتَحِبُ
فَإِنْ أَبَانَ الرِّضَا فَالْقَصْدُ وَالْأَدَبُ وَإِنْ بَدَا لَكُمَا فِي وَجْهِهِ غَضَبُ
فَغَالِطَاهُ وَقُولَا لَيْسَ تَعْرِفُهُ

فقلت في نفسي: إن كان صاحب النغمة مليحًا، فقد جمع بين الملاحة والفصاحة وحسن الصوت. ثم دنوت من الباب، وجعلت أرفع الستر قليلًا قليلًا، وإذا أنا بجارية بيضاء كأنها البدر إذا بَدَرَ في ليلة أربعة عشر، بحاجبين مقرونين، وجفنين ناعسين، ونهدين كرمانتين، ولها شفتان رقيقتان كأنهما أقحوانتان، وفم كأنه خاتم سليمان، ونضيد أسنان يلعب بعقل الناظم والناثر، كما قال فيه الشاعر:

يَا دُرَّ ثَغْرِ الْحَبِيبِ مَنْ نَظَمَكْ وَأَوْدَعَ الرَّاحَ وَالْأَقَاحَ فَمَكْ
وَمَنْ أَعَارَ الصَّبَاحَ مُبْتَسَمَكْ وَمَنْ بِقِفْلِ الْعَقِيقِ قَدْ خَتَمَكْ
فَأَصْبَحَ مَنْ رَآكَ مِنْ طَرَبٍ يَتِيهُ عُجْبًا فَكَيْفَ مَنْ لَثَمَكْ

وقول الآخَر:

يَا دُرَّ ثَغْرِ حَبِيبِي كُنْ بِالْعَقِيقِ رَحِيمَا
وَلَا تُعَالِ عَلَيْهِ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمَا



فجهَّزَت آلةَ السَّفَر من زادٍ وجِمالٍ وبِغال، وسافَرَت إلى أن وصلَت إلى بلد علي شار.

وبالجملة فقد حازت أنواع الجمال، وصارت فتنة للنساء والرجال، لا يشبع من رؤية حسنها الناظر، وهي كما قال فيها الشاعر:

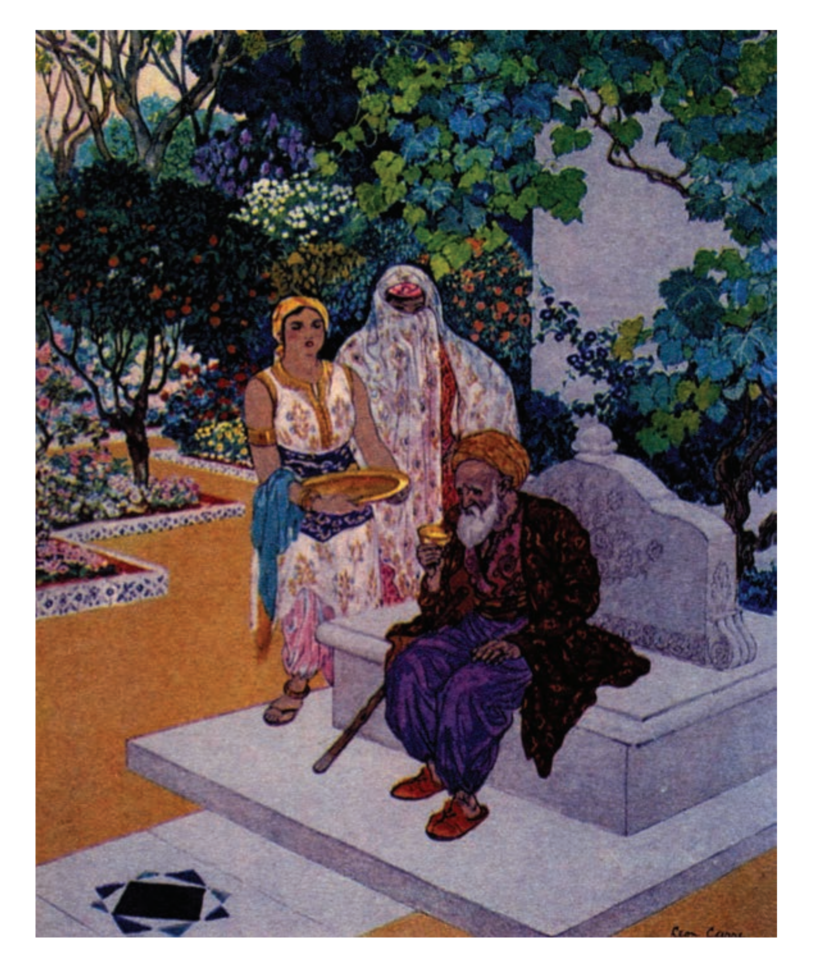
إِنْ أَقْبَلَتْ قَتَلَتْ وَإِنْ هِيَ أَدْبَرَتْ جَعَلَتْ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ عُشَّاقِهَا
شَمْسِيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ لَكِنَّهَا لَيْسَ الْجَفَا وَالصَّدُّ مِنْ أَخْلَاقِهَا
جَنَّاتُ عَدْنٍ فَتَّحَتْ بِقَمِيصِهَا وَالْبَدْرُ فِي فَلَكٍ عَلَى أَطْوَاقِهَا

فبينما أنا أنظر إليها من خلال الستارة، وإذا هي التفتت فرأتني واقفًا على الباب، فقالت لجاريتها: انظري مَن بالباب؟ فقامت الجارية وأتت إليَّ وقالت: يا شيخ، أليس عندك حياء؟ وهل شيب وعيب؟ فقلت لها: يا سيدتي، أمَّا الشيب فقد عرفناه، وأما العيب فما أظن أني أتيتُ بعيب. فقالت سيدتها: وأي عيب أكثر من تهجُّمِكَ على دارٍ غير دارك، ونظرك إلى حريمٍ غير حريمك؟ فقلت لها: يا سيدتي، إن لي عذرًا في ذلك. فقالت: وما عذرك؟ فقلتُ لها: إني رجل غريب عطشان، وقد قتلني العطش. فقالت: قبلنا عذرك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: قبلنا عذرك. ثم نادت بعض جواريها وقالت: يا لطف، اسقيه شربة بالكوز الذهب. فجاءتني بكوز من الذهب الأحمر مرصَّع بالدُّر والجوهر، ملآن ماءً ممزوجًا بالمسك الأذفر، وهو مغطًّى بمنديل من الحرير الأخضر، فجعلتُ أشرب وأطيل في شربي، وأنا سارق النظر إليها حتى طال وقوفي، ثم رددتُ الكوز على الجارية ووقفت، فقالت: يا شيخ، امضِ إلى حال سبيلك. فقلت لها: يا سيدتي، أنا مشغول الفكر. فقالت: في ماذا؟ فقلت: في تقلُّب الزمان، وتصرُّف الحدثان. قالت: يحقُّ لك؛ لأن الزمان ذو عجائب، ولكن ما الذي رأيت من عجائبه حتى تفكِّر فيه؟ فقلت لها: أفكر في صاحب هذه الدار؛ لأنه كان صديقي في حال حياته. فقالت لي: ما اسمه؟ فقلت: محمد بن علي الجوهري، وكان ذا مال جزيل، فهل خلَّف أولادًا؟ قالت: نعم، خلَّف بنتًا يقال لها بدور، وقد ورثت أمواله جميعها. فقلت لها: كأنك ابنته. قالت: نعم. وضحكت، ثم قالت: يا شيخ، قد أطلت الخطاب فاذهب إلى حال سبيلك. فقلت لها: لا بد من الذهاب، ولكني أرى محاسنك متغيِّرة، فأخبريني بشأنك لعل الله يجعل لك على يديَّ فرجًا. فقالت لي: يا شيخ، إن كنتَ من أهل الأسرار كشفنا لك سرنا، فأخبرني مَن أنت حتى أعرف هل أنت محلٌّ للسر أم لا، فقد قال الشاعر:

لَا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا كُلُّ ذِي ثِقَةٍ ... وَالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ
قَدْ صُنْتُ سِرِّيَ فِي بَيْتٍ لَهُ غُلُقٌ ... قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَالْبَابُ مَخْتُومُ



فجاءَتني بِكوزٍ من الذهب الأحمر، مُرصَّعٍ بالدُّر والجوهر، مَلآن ماءً ومِسْكًا.

فقلت لها: يا سيدتي، كأن قصدك أن تعلمي مَن أنا، فأنا علي بن منصور الخليعي الدمشقي نديم أمير المؤمنين هارون الرشيد. فلما سمعت باسمي نزلت من على كرسيها وسلَّمت عليَّ، وقالت لي: مرحبًا بك يا ابن منصور، الآن أخبرك بحالي وأستأمنك على سري، أنا عاشقة مفارقة. فقلت لها: يا سيدتي، أنت مليحة وما تعشقين إلا كل مليح، فمَن الذي تعشقينه؟ قالت: أعشق جبير بن عمير الشيباني أمير بني شيبان. وقد وصفَتْ لي

شابًّا لم يكن بالبصرة أحسن منه، فقلت لها: يا سيدتي، هل جرى بينكما مواصلة أو مراسلة؟ قالت: نعم، إلا أنه قد عشقَنَا عشقًا باللسان، لا بالقلب والجنان؛ لأنه لم يَفِ بوعد، ولم يحافظ على عهد. فقلت لها: يا سيدتي، وما سبب الفراق بينكما؟ قالت: سببه أني كنت يومًا جالسة، وجاريتي هذه تسرِّح شعري، فلما فرغتْ من تسريحه جدلت ذوائبي فأعجبها حُسْني وجمالي، فطأطأت عليَّ وقبَّلَتْ خدي، وكان في ذلك الوقت داخلًا عليَّ فرأى ذلك، فلما رأى الجارية تقبِّل خدي ولَّى من وقته غضبان، عازمًا على دوام البَيْن، وأنشد هذين البيتين:

إِذَا كَانَ لِي فِي مَنْ أُحِبُّ مُشَارِكٌ ... تَرَكْتُ الَّذِي أَهْوَى وَعِشْتُ وَحِيدَا
فَلَا خَيْرَ فِي الْمَعْشُوقِ إِنْ كَانَ فِي الْهَوَى ... لِغَيْرِ الَّذِي يُرْضِي الْمُحِبَّ مُرِيدَا

ومن حين ولَّى معرضًا عني إلى الآن لم يأتنا من عنده كتاب ولا جواب يا ابن منصور. فقلت لها: فما تريدين؟ قالت: أريد أن أرسل إليه معك كتابًا، فإن أتيتني بجوابه فلك عندي خمسمائة دينار، وإن لم تأتني بجوابه فلك حق مشيك مائة دينار. فقلت لها: افعلي ما بَدَا لكِ. فقالت: سمعًا وطاعة. ثم نادت بعض جواريها وقالت: ائتيني بدواة وقرطاس. فأتتها بدواة وقرطاس، فكتبت هذه الأبيات:

حَبِيبِيَ مَا هَذَا التَّبَاعُدُ وَالْقِلَا ... فَأَيْنَ التَّغَاضِي بَيْنَنَا وَالتَّعَطُّفُ
وَمَا لَكَ بِالْهِجْرَانِ عَنِّيَ مُعْرِضًا ... فَمَا وَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي كُنْتُ أَعْرِفُ
نَعَمْ نَقَلَ الْوَاشُونَ عَنِّي بَاطِلًا ... فَمِلْتَ لِمَا قَالُوا فَزَادُوا وَأَسْرَفُوا
فَإِنْ تَكُ قَدْ صَدَّقْتَهُمْ فِي حَدِيثِهِمْ ... فَحَاشَاكَ مِنْ هَذَا وَرَأْيُكَ أَعْرِفُ
بِعَيْشِكَ قُلْ لِي مَا الَّذِي قَدْ سَمِعْتَهُ ... فَإِنَّكَ تَدْرِي مَا يُقَالُ وَتُنْصِفُ
فَإِنْ كَانَ قَوْلًا صَحَّ أَنِّيَ قُلْتُهُ ... فَلِلْقَوْلِ تَأْوِيلٌ وَلِلْقَوْلِ مَصْرِفُ
وَهَبْ أَنَّهُ قَوْلٌ مِنَ اللهِ مُنْزَلٌ ... فَقَدْ بَدَّلَ التَّوْرَاةَ قَوْمٌ وَحَرَّفُوا
وَبِالزُّورِ كَمْ قَدْ قِيلَ فِي النَّاسِ قَبْلَنَا ... فَهَا عِنْدَ يَعْقُوبَ تُلَوَّمُ يُوسُفُ
وَهَا أَنَا وَالْوَاشِي وَأَنْتَ جَمِيعُنَا ... يَكُونُ لَنَا يَوْمٌ عَظِيمٌ وَمَوْقِفُ

ثم بعد ذلك ختمَتِ الكتابَ وناولتني إياه، فأخذتُه ومضيت إلى دار جبير بن عمير الشيباني فوجدته في الصيد، فجلست أنتظره، فبينما أنا جالس وإذا به قد أقبل من

الصيد، فلما رأيته يا أمير المؤمنين على فرسه ذهل عقلي من حسنه وجماله، فالتفت فرآني جالسًا بباب داره، فلما رآني نزل عن جواده وأتى إليَّ واعتنقني وسلَّم عليَّ؛ فخُيِّلَ لي أني اعتنقت الدنيا وما فيها، ثم دخل بي إلى داره، وأجلسني على فراشه، وأمر بتقديم المائدة، فقدموا مائدة من الخولنج الخراساني، وقوائمها من الذهب، عليها جميع الأطعمة وأنواع اللحم من مقلي ومشوي وما أشبه ذلك، فلما جلست على المائدة، أمعنتُ إليها الالتفات، فوجدت مكتوبًا عليها هذه الأبيات ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٣٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علي بن منصور قال: لما جلستُ على مائدة جبير بن عمير الشيباني، أمعنت إليها الالتفات، فوجدتُ مكتوبًا عليها هذه الأبيات:

عُجْ بِالْغَرَانِيقِ فِي رَبْعِ السَّكَارِيجِ　　وَانْزِلْ بِحَيِّ الْقَلَايَا وَالسَّكَابِيجِ
وَانْدُبْ بَنَاتَ الْقَطَا مَا زِلْتُ أَنْدُبُهَا　　مَعَ الْمُحَمَّرِ فِي وَسْطِ الْفَرَارِيجِ
يَا لَهْفَ قَلْبِي عَلَى لَوْنَيْنِ مِنْ سَمَكٍ　　لَدَى رَغِيفٍ طَرِيٍّ فِي الْمَعَارِيجِ
لِلهِ دَرُّ الْعَشَا مَا كَانَ أَحْسَنَهُ　　وَالْبَقْلُ يُغْمَسُ فِي خَلِّ الدَّكَاكِيجِ
كَذَا الْأَرُزُّ بِأَلْبَانِ الْجَمُوسِ غَدَتْ　　فِيهِ الْأَكُفُّ إِلَى حَدِّ الدَّمَالِيجِ
يَا نَفْسُ صَبْرًا فَإِنَّ اللهَ ذُو كَرَمٍ　　إِنْ ضِقْتِ ذَرْعًا أَتَاكِ بِالتَّفَارِيجِ

ثم إن جبير بن عمير قال: مُدَّ يدك إلى طعامنا، واجبر خاطرنا بأكل زادنا. فقلت له: والله ما آكل من طعامك لقمة واحدة حتى تقضي حاجتي. قال: فما حاجتك؟ فأخرجت إليه الكتاب، فلما قرأه وفهم ما فيه مزَّقه ورماه في الأرض وقال لي: يا ابن منصور، مهما كان لك من الحوائج قضيناه، إلا هذه الحاجة التي تتعلَّق بصاحبة هذا الكتاب؛ فإن كتابها ليس له عندي جواب. فقمتُ من عنده غضبان، فتعلَّق بأذيالي وقال لي: يا ابن منصور، أنا أخبرك بالذي قالته لك، وإن لم أكن حاضرًا معكما. فقلت له: ما الذي قالته لي؟ قال: أَمَا قالَتْ لك صاحبة هذا الكتاب إن أتيتني بجوابه فلك عندي خمسمائة دينار، وإن لم تأتِني بجوابه فلك عندي حق مشيك مائة دينار؟ قلت: نعم. قال: اجلس عندي اليوم، وكُلْ واشرب وتلذَّذْ واطرب، وخذ لك خمسمائة دينار. فجلستُ عنده وأكلت وشربت وتلذَّذت وطربت وسامرته، ثم قلت: يا سيدي، ما في دارك سماع؟ قال لي: إن لنا مدة نشرب من

غير سماع. ثم نادى بعض جواريه وقال: يا شجرة الدر. فأجابته جارية من مقصورتها، ومعها عود من صنع الهنود ملفوف في كيس من الإبريسم، ثم جاءت وجلست ووضعته في حجرها، وضربت عليه إحدى وعشرين طريقة، ثم عادت إلى الطريقة الأولى، وأطربت بالنغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

مَنْ لَمْ يَذُقْ حُلْوَ الْغَرَامِ وَمُرَّهُ	لَمْ يَدْرِ وَصْلَ حَبِيبِهِ مِنْ هَجْرِهِ
وَكَذَاكَ مَنْ قَدْ حَادَ عَنْ سُنَنِ الْهَوَى	لَمْ يَدْرِ سَهْلَ طَرِيقِهِ مِنْ وَعْرِهِ
مَا زِلْتُ مُعْتَرِضًا عَلَى أَهْلِ الْهَوَى	حَتَّى بُلِيتُ بِحُلْوِهِ وَبِمُرِّهِ
وَشَرِبْتُ كَأْسَ مِرَارِهِ مُتَجَرِّعًا	وَخَضَعْتُ فِيهِ لِعَبْدِهِ وَلِحُرِّهِ
كَمْ لَيْلَةٍ بَاتَ الْحَبِيبُ مُنَادِمِي	وَرَشَفْتُ حُلْوَ رِضَابِهِ مِنْ ثَغْرِهِ
مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمْرَ لَيْلِ وِصَالِنَا	مُذْ جَاءَ وَقْتُ عَشَائِهِ مَعْ فَجْرِهِ
نَذَرَ الزَّمَانُ بِأَنْ يُفَرِّقَ شَمْلَنَا	وَالْآنَ قَدْ أَوْفَى الزَّمَانُ بِنَذْرِهِ
حَكَمَ الزَّمَانُ فَلَا مَرَدَّ لِحُكْمِهِ	مَنْ ذَا يُعَارِضُ سَيِّدًا فِي أَمْرِهِ

فلما فرغت الجارية من شعرها، صرخ سيدها صرخة عظيمة، ووقع مغشيًّا عليه. فقالت الجارية: لا آخذك الله أيها الشيخ، إن لنا مدة ونحن نشرب بلا سماع مخافةً على سيدنا من مثل هذه الصرعة، ولكن اذهب إلى تلك المقصورة ونَمْ فيها. فتوجَّهتُ إلى المقصورة التي أشارت إليها ونمت فيها إلى الصباح، وإذا أنا بغلامٍ أتاني ومعه كيس فيه خمسمائة دينار، وقال: هذا الذي وعدك به سيدي، ولكنك لا تَعُدْ إلى هذه الجارية التي أرسلَتْك، وكأنك لا سمعتَ بهذا الخبر ولا سمعنا. فقلت له: سمعًا وطاعة. ثم أخذت الكيس ومضيت إلى حال سبيلي، وقلت في نفسي: إن الجارية في انتظاري من أمس، والله لا بد أن أرجع إليها، وأخبرها بما جرى بيني وبينه؛ لأنني إن لم أَعُدْ إليها ربما تشتمني وتشتم كلَّ مَن طلع من بلادي. فمضيتُ إليها فوجدتها واقفةً خلف الباب، فلما رأتني قالت: يا ابن منصور، إنك ما قضيت لي حاجة. فقلت لها: مَن أعلمك بهذا؟ فقالت: يا ابن منصور، إن معي مكاشفة أخرى، وهي أنك لما ناولْتَه الورقة مزَّقها ورماها لك وقال: يا ابن منصور، مهما كان لك من الحوائج قضيناها لك إلا حاجة صاحبة هذه الورقة؛ فإنها ليس لها عندي جواب. فقمتَ أنت من عنده مغضبًا فتعلَّق بأذيالك وقال لك: يا ابن منصور، اجلس عندي اليوم فإنك ضيفي، فكُلْ واشرب والْتَذَّ واطرب، وخذ لك خمسمائة دينار. فجلست عنده وأكلت وشربت وتلذَّذت وطربت وسامرته، وغنَّت الجارية

بالصوت الفلاني، والشعر الفلاني فوقع مغشيًّا عليه. فقلتُ لها يا أمير المؤمنين: هل أنتِ كنتِ معنا؟ فقالت لي: يا ابن منصور، أَمَا سمعتَ قول الشاعر:

قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ لَهَا عُيُونٌ   تَرَى مَا لَا يَرَاهُ النَّاظِرُونَ

ولكن يا ابن منصور، ما تعاقب الليل والنهار على شيء إلَّا وغيَّرَاه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: يا ابن منصور، ما تعاقب الليل والنهار على شيء إلا وغيَّرَاه. ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي، كما بليتني بمحبة جبير بن عمير أن تبليه بمحبتي، وأن تنقل المحبة من قلبي إلى قلبه. ثم إنها أعطتني مائة دينار حق طريقي، فأخذتها ومضيت إلى سلطان البصرة فوجدته قد جاء من الصيد، فأخذت رسمي منه ورجعت إلى بغداد. فلما أقبلَتِ السنة الثانية توجَّهت إلى مدينة البصرة لأطلب رسمي على عادتي، ودفع السلطان إليَّ رسمي، ولما أردتُ الرجوع إلى بغداد تفكَّرت في نفسي أمر الجارية بدور، وقلت: والله لا بد أن أذهب إليها، وأنظر ما جرى بينها وبين صاحبها. فجئتُ إلى دارها فرأيت على بابها كنسًا ورشًّا، وخدمًا وحشمًا وغلمانًا، فقلت: لعل الجارية طفح الهمُّ على قلبها فماتت، ونزل في دارها أمير من الأمراء. فتركتها ورجعت إلى دار جبير بن عمير الشيباني، فوجدت مصاطبها قد هُدِّمت، ولم أجد على بابه غلمانًا مثل العادة، فقلت في نفسي: لعله مات. ثم وقفت على باب داره وجعلت أفيض العَبَرات وأندبه بهذه الأبيات:

يَا سَادَةً رَحَلُوا وَالْقَلْبُ يَتْبَعُهُمْ ... عُودُوا تَعُدْ لِي أَعْيَادِي بِعَوْدِكُمُ
وَقَفْتُ فِي دَارِكُمْ أَنْعِي مَسَاكِنَكُمْ ... وَالدَّمْعُ يَدْفُقُ وَالْأَجْفَانُ تَلْتَطِمُ
أُسَائِلُ الدَّارَ عَنْكُمْ وَهْيَ بَاكِيَةٌ ... أَيْنَ الَّذِي كَانَ مِنْهُ الْجُودُ وَالنِّعَمُ
اقْصِدْ سَبِيلَكَ فَالْأَحْبَابُ قَدْ رَحَلُوا ... مِنَ الرُّبُوعِ وَتَحْتَ التُّرْبِ قَدْ رُدِمُوا
لَا أَوْحَشَ اللهُ مِنْ رُؤْيَا مَحَاسِنَهُمْ ... طُولًا وَعَرْضًا وَلَا غَابَتْ لَهُمْ شِيَمُ

فبينما أنا أندب أهل هذه الدار بهذه الأبيات يا أمير المؤمنين، وإذا بعبد أسود قد خرج عليَّ من الدار، فقال: يا شيخ اسكت ثكلتك أمك، ما لي أراك تندب هذه الدار بهذه الأبيات؟ فقلت له: إني كنت أعهدها لصديق من أصدقائي. فقال: وما اسمه؟ قلت: جبير بن عمير الشيباني. قال: وأي شيء جرى له؟ الحمد لله ها هو على حاله من الغنى والسعادة والملك، ولكن ابتلاه الله بمحبة جارية يقال لها السيدة بدور، وهو في محبتها مغمور، ومن شدة الوَجْد والتبريح فهو كالحجر الجلمود الطريح، فإن جاع لا يقول لهم أطعموني، وإن عطش لا يقول اسقوني. فقلت: استأذن لي في الدخول عليه. فقال: يا سيدي، أتدخل على مَن يفهم أو على مَن لا يفهم؟ فقلت: لا بد أن أدخل إليه على كل حال. فدخل الدار مستأذنًا، ثم عاد إليَّ آذنًا، فدخلت عليه فوجدته كالحجر الطريح لا يفهم بإشارة ولا تصريح، وكلَّمته فلم يكلِّمني، فقال لي بعض أتباعه: يا سيدي، إن كنت تحفظ شيئًا من الشعر فأنشده إياه، وارفع صوتك به فإنه ينتبه لذلك ويخاطبك. فأنشدت هذين البيتين:

أَسَلَوْتَ حُبَّ بُدُورَ أَمْ تَتَجَلَّدُ وَسَهِرْتَ لَيْلَكَ أَمْ جُفُونُكَ تَرْقُدُ
إِنْ كَانَ دَمْعُكَ سَائِلًا مَهْمُولَهُ فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ فِي الْجِنَانِ مُخَلَّدُ

فلما سمع هذا الشعر فتح عينيه وقال لي: مرحبًا يا ابن منصور، قد صار الهزل جدًّا. فقلت له: يا سيدي، ألك بي حاجة؟ قال: نعم، أريد أن أكتب لها ورقة، وأرسلها معك إليها، فإن أتيتني بجوابها فلك عليَّ ألف دينار، وإن لم تأتني بجوابها فلك عليَّ حق مشيك مائتا دينار. فقلت له: افعل ما بَدَا لك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٣٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن منصور قال: فقلت له افعل ما بدا لك. فنادى بعض جواريه وقال: ائتيني بدواة وقرطاس. فأَتَتْه بما طلبه، فكتب هذه الأبيات:

سَأَلْتُكُمُ بِاللهِ يَا سَادَتِي مَهْلَا عَلَيَّ فَإِنَّ الْحُبَّ لَمْ يُبْقِ لِي عَقْلَا
تَمَكَّنَ مِنِّي حُبُّكُمْ وَهَوَاكُمُ فَأَلْبَسَنِي سَقْمًا وَأَوْرَثَنِي ذُلَّا
لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَسْتَصْغِرُ الْهَوَى وَأَحْسَبُهُ يَا سَادَتِي هَيِّنًا سَهْلَا
فَلَمَّا أَرَانِي الْحُبُّ أَمْوَاجَ بَحْرِهِ رَجَعْتُ لِحُكْمِ اللهِ أُعْذِرُ مَنْ يَبْلَى
فَإِنْ شِئْتُمُ الْإِسْعَادَ سَعْدِي وِصَالُكُمْ وَإِنْ شِئْتُمُ الْهِجْرَانَ فَلْتَذْكُرُوا الْفَضْلَا

ثم ختم الكتاب وناولني إياه، فأخذته ومضيت به إلى دار بدور، وجعلت أرفع الستر قليلًا قليلًا على العادة، وإذا أنا بعشر جوارٍ نُهَّاد أبكارٍ كأنهن الأقمار، والسيدة بدور جالسة في وسطهن كأنها البدر في وسط النجوم، أو الشمس إذا خلت عن الغيوم، وليس بها ألم ولا وجع. فبينما أنا أنظر إليها وأتعجَّب من هذا الحال، إذ لاحت منها التفاتة إليَّ فرأتني واقفًا بالباب، فقالت لي: أهلًا وسهلًا ومرحبًا بك يا ابن منصور، ادخل. فدخلْتُ وسلَّمْتُ عليها وناولتها الورقة، فلما قرأتها وفهمت ما فيها ضحكت، وقالت لي: يا بن منصور، ما كذب الشاعر حيث قال:

فَلَأَصْبِرَنَّ عَلَى هَوَاكَ تَجَلُّدًا حَتَّى يَجِيءَ إِلَيَّ مِنْكَ رَسُولُ

يا ابن منصور، ها أنا أكتب لك جوابًا حتى يعطيك الذي وعدك به. فقلتُ لها: جزاكِ الله خيرًا. فنادت بعض جواريها وقالت: ائتيني بدواة وقرطاس. فلما أتتها بما طلبت كتبَتْ إليه هذه الأبيات:

مَا لِي وَفَيْتُ بِعَهْدِكُمْ فَغَدَرْتُمُو   وَأَرَيْتُمُونِي مُنْصِفًا فَظَلَمْتُمُو
بَادَيْتُمُونِي بِالْقَطِيعَةِ وَالْجَفَا   وَغَدَرْتُمُو وَالْغَدْرُ بَادٍ مِنْكُمُو
مَا زِلْتُ أَحْفَظُ فِي الْبَرِيَّةِ عَهْدَكُمْ   وَأَصُونُ عِرْضَكُمُو وَأَحْلِفُ عَنْكُمُو
حَتَّى رَأَيْتُ بِنَاظِرِي مَا سَاءَنِي   وَسَمِعْتُ أَخْبَارَ الْقَبَايِحِ عَنْكُمُو
أَيَهُونُ قَدْرِي حِينَ أَرْفَعُ قَدْرَكُمْ   وَاللهِ لَوْ أَكْرَمْتُمُو كُرِّمْتُمُو
فَلَأَصْرِفَنَّ الْقَلْبَ عَنْكُمْ سَلْوَةً   وَلَأَنْفُضَنَّ يَدَيَّ يَأْسًا مِنْكُمُو

فقلت لها: والله يا سيدتي إنه ما بينه وبين الموت إلا حتى يقرأ هذه الورقة. ثم مزَّقتُها وقلت لها: اكتبي إليه غير هذه الأبيات. فقالت: سمعًا وطاعة. ثم إنها كتبت إليه هذه الأبيات:

أَنَا قَدْ سَلَوْتُ وَلَذَّ فِي طَرْفِي الْكَرَى   وَسَمِعْتُ مِنْ قَوْلِ الْعَوَاذِلِ مَا جَرَى
وَأَجَابَنِي قَلْبِي إِلَى سَلْوَانِكُمْ   وَرَأَتْ جُفُونِي بَعْدَكُمْ أَنْ تَسْهَرَا
كَذَبَ الَّذِي قَالَ الْبِعَادُ مَرَارَةٌ   مَا ذُقْتُ طَعْمَ الْبُعْدِ إِلَّا سُكَّرَا
قَدْ صِرْتُ أَكْرَهُ مَنْ يَمُرُّ بِذِكْرِكُمْ   مُتَعَرِّضًا وَأَرَاهُ شَيْئًا مُنْكَرَا
هَا قَدْ سَلَوْتُكُمُو بِكُلِّ جَوَارِحِي   فَلْيَعْلَمِ الْوَاشِي وَيَدْرِي مَنْ دَرَى

فقلت لها: والله يا سيدتي إنه ما يقرأ هذه الأبيات إلا وتفارق روحه جسده. فقالت لي: يا ابن منصور، قد بلغ بي الوَجْد إلى هذا الحد حتى قلتُ ما قلتَ. فقلت لها: لو قلت أكثر من ذلك الحق لك، ولكن العفو من شيم الكرام. فلما سمعت كلامي ترغرغت عيناها بالدموع، وكتبت إليه رقعة، والله يا أمير المؤمنين ما في ديوانك مَن يُحسِن أن يكتب مثلها، وكتبت فيها هذه الأبيات:

إِلَى كَمْ ذَا الدَّلَالِ وَذَا التَّجَنِّي   شَفَيْتَ وَحَقِّكَ الْحُسَّادَ مِنِّي
لَعَلِّي قَدْ أَسَأْتُ وَلَسْتُ أَدْرِي   فَقُلْ لِي مَا الَّذِي بُلِّغْتَ عَنِّي

فلما كانت الليلة ٣٣٢

مُرَادِي لَوْ وَضَعْتُكَ يَا حَبِيبِي مَكَانَ النَّوْمِ مِنْ عَيْنِي وَجَفْنِي
وَكَيْفَ شَرِبْتَ كَأْسَ الْحُبِّ صِرْفًا فَإِنْ تَرَنِي سَكِرْتُ فَلَا تَلُمْنِي

فلما فرغت من كتابة المكتوب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٢٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بدور لما فرغت من كتابة المكتوب وختمته، ناولتني إياه، فقلت لها: يا سيدتي، إن هذه الرقعة تداوي العليل وتشفي الغليل. ثم أخذت المكتوب وخرجت، فنادتني بعدما خرجت من عندها وقالت لي: يا ابن منصور، قل له: إنها في هذه الليلة ضيفتك. ففرحتُ أنا بذلك فرحًا شديدًا، ومضيت بالكتاب إلى جبير بن عمير، فلما دخلت عليه وجدتُ عينه شاخصة إلى الباب ينتظر الجواب، فلما ناولته الورقة فتحها وقرأها وفهم معناها؛ فصاح صيحة عظيمة ووقع مغشيًّا عليه. فلما أفاق قال: يا ابن منصور، هل كتبَتْ هذه الرقعة بيدها، ولمستها بأناملها؟ قلت: يا سيدي، وهل الناس يكتبون بأرجلهم؟ فوالله يا أمير المؤمنين ما استتم كلامي أنا وإياه إلا وقد سمعنا شن خلاخلها في الدهليز وهي داخلة، فلما رآها قام على أقدامه كأنه لم يكن به ألمٌ قطُّ، وعانقها عناق اللام للألف، وزالت عنه علَّة الذي لا ينصرف، ثم جلس ولم تجلس هي، فقلت لها: يا سيدتي، لأي شيء لم تجلسي؟ قالت: يا ابن منصور، لا أجلس إلا بالشرط الذي بيننا. فقلتُ لها: وما ذلك الشرط الذي بينكما؟ قالت: إن العشاق لا يطَّلِع أحد على أسرارهم. ثم وضعَتْ فمها على أذنه وقالت له كلامًا سرًّا، فقال: سمعًا وطاعة. ثم نام جبير ووشوش بعض عبيده، فغاب العبد ساعة، ثم أتى ومعه قاضٍ وشاهدان، فقام جبير وأتى بكيس فيه مائة ألف دينار وقال: أيها القاضي، اعقد عقدي على هذه الصبية بهذا المبلغ. فقال لها القاضي: قولي رضيتُ بذلك. فقالت: رضيتُ بذلك. فعقدوا العقد ثم فتحَتِ الكيسَ وملأت يدها منه وأعطَتِ القاضي والشهود، ثم ناولَتْه بقية الكيس، فانصرف القاضي والشهود، وقعدتُ أنا وإياهما في بسط وانشراح إلى أن مضى من الليل أكثره، فقلت في نفسي: إنهما عاشقان، ومضت عليهما مدة من الزمان وهما متهاجران، فأنا أقوم في هذه الساعة لأنام في مكان بعيد عنهما، وأتركهما يختليان ببعضهما. ثم

قمتُ فتعلَّقت بأذيالي وقالت لي: ما الذي حدَّثَتْك به نفسُك؟ فقلت: ما هو كذا وكذا. فقالت: اجلس، وإذا أردنا انصرافك صرفناك. فجلست معهما إلى أن قرب الصبح، فقالت: يا ابن منصور، امضِ إلى تلك المقصورة لأننا فرشناها لك، وهي محل نومك. فقمت ونمت فيها إلى الصباح، فلما أصبحت جاءني غلام بطشت وإبريق فتوضأت وصلَّيت الصبح ثم جلست.

فبينما أنا جالس وإذا بجبير ومحبوبته خرجا من حمام في الدار، وكلٌّ منهما يعصر ذوائبه، فصبَّحت عليهما وهنَّأتهما بالسلامة وجمع الشمل، ثم قلت له: الذي أوله شرط آخره رضا. فقال لي: صدقت، وقد وجب لك الإكرام. ثم نادى خازن داره وقال له: ائتني بثلاثة آلاف دينار. فأتاه بكيس فيه ثلاثة آلاف دينار، فقال لي: تفضَّلْ علينا بقبول هذا. فقلت له: لا أقبله حتى تحكي لي ما سبب انتقال المحبة منها إليك بعد ذلك الصد العظيم. قال: سمعًا وطاعة. اعلم أن عندنا عيدًا يقال له عيد النواريز، يخرج الناس فيه وينزلون في الزوارق ويتفرجون في البحر، فخرجت أتفرَّج أنا وأصحابي، فرأيت زورقًا فيه عشر جوارٍ كأنهن الأقمار، والسيدة بدور هذه في وسطهن وعودها معها؛ فضربت عليه إحدى عشرة طريقة، ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأنشدت هذين البيتين:

النَّارُ أَبْرَدُ مِنْ نِيرَانِ أَحْشَائِي وَالصَّخْرُ أَلْيَنُ مِنْ قَلْبٍ لِمُولَائِي
إِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ تَأْلِيفِ خَلْقَتِهِ قَلْبٌ مِنَ الصَّخْرِ فِي جِسْمٍ مِنَ الْمَاءِ

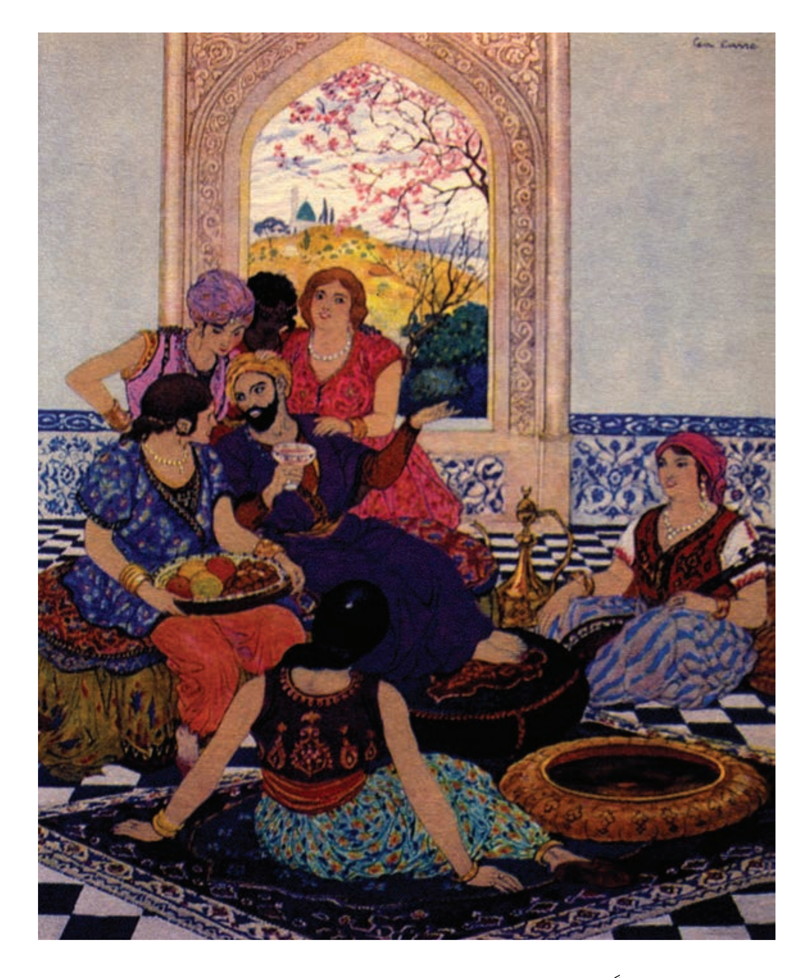
فقلت لها: أعيدي البيتين والطريقة. فما رضيت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جبيرًا قال: فقلت لها: أعيدي البيتين والطريقة. فما رضيت، فأمرت النواتية أن يرجموها، فرجموها بالنارنج حتى خشينا الغرق على الزورق الذي هي فيه، ثم مضت إلى حال سبيلها، وهذا سبب انتقال المحبة من قلبها إلى قلبي. فهنَّأتهما بجمع الشمل، وأخذت الكيس بما فيه، وتوجَّهْتُ إلى بغداد. فانشرح صدر الخليفة، وزال عنه ما كان يجده من الأرق وضيق الصدر.

حكاية اليمني والست جوارٍ

ومما يُحكَى أن أمير المؤمنين المأمون جلس يومًا من الأيام في قصره، وأحضر رؤساء دولته وأكابر مملكته جميعًا، وكذلك أحضر الشعراء والندماء بين يديه، وكان من جملة ندمائه نديم يُسمَّى محمدًا البصري، فالتفت إليه المأمون وقال له: يا محمد، أريد منك في هذه الساعة أن تحدِّثني بشيء ما سمعتُه قطُّ. فقال له: يا أمير المؤمنين، أتريد أن أحدِّثك بحديثٍ سمعتُه بأُذُني أو بأمرٍ عاينْتُه ببصري. فقال المأمون: حدِّثني يا محمد بالأغرب منهما. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنه كان في الأيام الماضية رجلٌ من أرباب النِّعَم، وكان موطنه باليمن، ثم إنه ارتحل من اليمن إلى مدينة بغداد هذه، فطاب له مسكنها، فنقل أهله وماله وعياله إليها، وكان له ستُّ جوارٍ كأنهن الأقمار؛ الأولى بيضاء، والثانية سمراء، والثالثة سمينة، والرابعة هزيلة، والخامسة صفراء، والسادسة سوداء. وكُنَّ حسان الوجوه كاملات الأدب، عارفاتٍ بصناعة الغناء وآلات الطرب، فاتفق أنه أحضر هؤلاء الجواري بين يديه يومًا من الأيام وطلب الطعام والمدام، فأكلوا وشربوا وتلذَّذوا وطربوا، ثم ملأ الكأس وأخذه في يده، وأشار للجارية البيضاء وقال لها: يا وجه الهلال، أسمعينا من لذيذ المقال.



وتلذَّذوا وطَرِبوا، ثم ملأ الكأسَ وأشار للجارية البيضاء.

فأخذت العود وأصلحته، ورجعت عليه الألحان حتى رقص المكان، ثم أطربت بالنغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

لِي حَبِيبٌ خَيَالُهُ نُصْبَ عَيْنِي وَاسْمُهُ فِي جَوَارِحِي مَكْنُونُ
إِنْ تَذَكَّرْتُهُ فَكُلِّي قُلُوبٌ أَوْ تَأَمَّلْتُهُ فَكُلِّي عُيُونُ

قَالَ لِـي عَـاذِلِـي: أَتَسْـلُـو هَـوَاهُ   قُلْتُ: مَـا لَا يَكُونُ كَيْفَ يَكُونُ
قُلْتُ: يَا عَاذِلِي امْضِ عَنِّي وَدَعْنِي   لَا تُـهَـوِّنْ عَـلَـيَّ مَـا لَا يَـهُـونُ

فطرب مولاهن وشرب قدحه وسقى الجواري، ثم ملأ الكأس وأخذه في يده وأشار إلى الجارية السمراء، وقال لها: يا نور المقباس وطيبة الأنفاس، أسمعينا صوتك الحسن الذي مَنْ سمعه افتتن. فأخذت العود ورجعت عليه الألحان حتى طرب المكان، وأخذت القلوب باللفتات، وأنشدت هذه الأبيات:

وَحَيَاةِ وَجْهِكَ لَا أُحِبُّ سِوَاكَا   حَتَّى أَمُوتَ وَلَنْ أَخُونَ هَوَاكَا
يَا بَدْرَ تِمٍّ بِالْجَمِيلِ مُبَرْقَعًا   كُلُّ الْمِلَاحِ تَسِيرُ تَحْتَ لِوَاكَا
أَنْتَ الَّذِي فُقْتَ الْمِلَاحَ لَطَافَةً   وَاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَبَاكَا

فطرب مولاهن وشرب كأسه وسقى الجواري، ثم ملأ القدح وأخذه في يده، وأشار إلى الجارية السمينة، وأمرها بالغناء وتقليب الأهواء؛ فأخذت العود وضربت عليه ضربًا يُذهِب الحسرات، وأنشدت هذه الأبيات:

إِنْ صَحَّ مِنْكَ الرِّضَا يَا مَنْ هُوَ الطَّلَبُ   فَلَا أُبَالِي بِكُلِّ النَّاسِ إِنْ غَضِبُوا
وَإِنْ تَبَدَّى مُحَيَّاكَ الْجَمِيلُ فَلَمْ   أَعْبَأْ بِكُلِّ مُلُوكِ الْأَرْضِ إِنْ حُجِبُوا
قَصْدِي رِضَاكَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا   يَا مَنْ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْحُسْنِ يَنْتَسِبُ

فطرب مولاهن وأخذ الكأس وسقى الجواري، ثم ملأ الكاس وأخذه في يده، وأشار إلى الجارية الهزيلة وقال: يا حور الجنان، أسمعينا الألفاظ الحسان. فأخذت العود وأصلحته ورجعت عليه الألحان، وأنشدت هذين البيتين:

أَلَا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا حَلَّ بِي مِنْكَا   بِصَدِّكَ عَنِّي حَيْثُ لَا صَبْرَ لِي عَنْكَا
أَلَا حَاكِمٌ فِي الْحُبِّ يَحْكُمُ بَيْنَنَا   فَيَأْخُذُ لِي حَقِّي وَيُنْصِفُنِي مِنْكَا

فطرب مولاهن وشرب القدح وسقى الجواري، ثم ملأ القدح وأخذه بيده، وأشار إلى الجارية الصفراء وقال: يا شمس النهار، أَسْمِعينا من لطيف الأشعار. فأخذت العود وضربت عليه أحسن الضربات، وأنشدت هذه الأبيات:

لِي حَبِيبٌ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ   سَلَّ سَيْفًا عَلَيَّ مِنْ مُقْلَتَيْهِ

أَخَذَ اللهُ بَعْضَ حَقِّيَ مِنْهُ إِذْ جَفَانِي وَمُهْجَتِي فِي يَدَيْهِ
كُلَّمَا قُلْتُ يَا فُؤَادِيَ دَعْهُ لَا يَمِيلُ الْفُؤَادُ إِلَّا إِلَيْهِ
هُوَ سُؤْلِي مِنَ الْأَنَامِ وَلَكِنْ حَسَدَتْنِي عَيْنُ الزَّمَانِ عَلَيْهِ

فطرب مولاهن وشرب وسقى الجواري، ثم ملأ الكأس وأخذه في يده، وأشار إلى الجارية السوداء وقال: يا سوداء العين، أسمعينا ولو كلمتين. فأخذت العود وأصلحته وشدَّت أوتاره، وضربت عليه عدة طرق، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى، وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

أَلَا يَا عَيْنُ بِالْعَبَرَاتِ جُودِي فَوَجْدِي قَدْ عَدِمْتُ بِهِ وُجُودِي
أُكَابِدُ كُلَّ وَجْدٍ مِنْ حَبِيبٍ أَلِفْتُ بِهِ وَيَشْمَتُ بِي حَسُودِي
وَتَمْنَعُنِي الْعَوَاذِلُ وَرْدَ خَدٍّ وَلِي قَلْبٌ يَحِنُّ إِلَى الْوُرُودِ
لَقَدْ دَارَتْ هُنَاكَ كُئُوسُ رَاحٍ بِأَفْرَاحٍ لَدَى ضَرْبٍ وَعُودِ
وَوَافَانِي الْحَبِيبُ فَهِمْتُ فِيهِ وَأَشْرَقَ بِالْوَفَا نَجْمُ السُّعُودِ
تَصَدَّى لِلصُّدُودِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَهَلْ شَيْءٌ أَمَرُّ مِنَ الصُّدُودِ
وَفِي وَجَنَاتِهِ وَرْدٌ جَنِيٌّ فَيَا لِلهِ مِنْ وَرْدِ الْخُدُودِ
فَلَوْ أَنَّ السُّجُودَ يُحَلُّ شَرْعًا لِغَيْرِ اللهِ كَانَ لَهُ سُجُودِي

ثم بعد ذلك قامت الجواري وقبَّلن الأرض بين يدي مولاهن وقلن له: أنصف بيننا يا سيدي. فنظر مولاهن إلى حسنهن وجمالهن واختلاف ألوانهن؛ فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال لهن: ما منكن إلا وقد قرأت القرآن، وتعلَّمت الألحان، وعرفَتْ أخبارَ المتقدمين، واطَّلعت على سِيَر الأمم الماضين، وقد اشتهيت أن تقوم كل واحدة منكن وتشير بيدها إلى ضرَّتها؛ يعني تشير البيضاء إلى السمراء، والسمينة إلى الهزيلة، والصفراء إلى السوداء، وتمدح كل واحدة منكن نفسها وتذمُّ ضرتها، ثم تقوم ضرتها وتفعل معها مثلها، ولكن يكون ذلك بدليل من القرآن الشريف، وشيء من الأخبار والأشعار؛ لننظر أدبَكُنَّ وحُسْنَ ألفاظكنَّ. فقلن له: سمعًا وطاعة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل اليمني قالت له جواريه: سمعًا وطاعة. ثم قامت أولاهنَّ، وهي البيضاء، وأشارت إلى السوداء وقالت لها: ويحك يا سوداء، قد ورد أن البياض قال: أنا النور اللامع، أنا البدر الطالع، لوني ظاهر، وجبيني زاهر في حسن، قال الشاعر:

بَيْضَاءُ مَصْقُولَةُ الْخَدَّيْنِ نَاعِمَةٌ ... كَأَنَّها لُؤْلُؤٌ فِي الْحُسْنِ مَكْنُونُ
فَقَدُّهَا أَلِفٌ يَزْهُو وَمَبْسِمُهَا ... مِيمٌ وَحَاجِبُهَا مِنْ فَوْقِهِ نُونُ
كَأَنَّ أَلْحَاظَهَا نَبْلٌ وَحَاجِبَهَا ... قَوْسٌ عَلَى أَنَّهُ بِالْمَوْتِ مَقْرُونُ
الْخَدُّ وَالْقَدُّ وَالْجِيدُ وَوَجْنَتُهَا ... وَرْدٌ وَآسٌ وَرَيْحَانٌ وَنِسْرِينُ
وَالْغُصْنُ يُعْهَدُ فِي الْبُسْتَانِ مَغْرِسُهُ ... وَغُصْنَ قَدِّكِ لَمْ تَشْهَدْ بَسَاتِينُ

فلوني مثل النهار الهنيِّ، والزهر الجَنيِّ، والكوكب الدريِّ، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز لنبيه موسى — عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فلوني آية، وجمالي غاية، وحسني نهاية، وعلى مثلي يحسُن الملبوس، وإليه تميل النفوس، وفي البياض فضائل كثيرة؛ منها: أن الثلج ينزل من السماء أبيض، وقد ورد أن أحسن الألوان البياض، ويفتخر المسلمون بالعمائم البيض، ولو ذهبت أذكر ما فيه من المدح لطال الشرح، ولكن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وما وفى، وسوف أبتدي بذمِّك يا سوداء،

يا لون المداد، وهباب الحداد، ووجه الغراب المفرِّق بين الأحباب، وقد قال الشاعر يمدح البياض ويذمُّ السواد:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدُّرَّ يَغْلُو بِلَوْنِهِ وَأَنَّ سَوَادَ الْفَحْمِ حِمْلٌ بِدِرْهَمِ
وَأَنَّ الْوُجُوهَ الْبِيضَ تَدْخُلُ جَنَّةً وَأَنَّ الْوُجُوهَ السُّودَ حَشْوُ جَهَنَّمِ

وقد ورد في بعض الأخبار المروية عن الأخبار أن نوحًا — عليه السلام — نام في بعض الأيام وولداه سام وحام جالسان عند رأسه، فجاءت ريح فرفعت أثوابه وانكشفت عورته، فنظر إليه حام وضحك ولم يغطِّه، فقام سام وغطَّاه؛ فانتبه أبوهما من منامه وقد علم بما جرى من ولديه، فدعا لسام ودعا على حام؛ فابيضَّ وجه سام وجاءت الأنبياء والخلفاء الراشدون والملوك من أولاده، واسودَّ وجه حام وخرج هاربًا إلى بلاد الحبشة، وجاءت السودان من نسله، وقد أجمعت الناس على قلة عقل السودان. وفي المثل يقول القائل: كيف يوجد أسود عاقل؟ فقال لها سيدها: اجلسي ففي هذا القدر كفاية، فقد أسرفتِ. ثم أشار إلى السوداء؛ فقامت وأشارت بيدها إلى البيضاء وقالت: أَمَا علمتِ أنه ورد في القرآن المنزَّل على نبيه المرسل قولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، ولولا أن الليل أَجَلُّ لَمَا أقسم الله به وقدَّمه على النهار، وقبلته ألوف البصائر والأبصار، أَمَا علمتِ أن السواد زينة الشباب، فإذا نزل المشيب ذهبت اللذات، ودنَتْ أوقات الممات، ولو لم يكن أجلَّ الأشياء ما جعله الله في حبة القلب والناظر، وما أحسن قول الشاعر:

لَمْ أَعْشَقِ السُّمْرَ إِلَّا مِنْ حِيَازَتِهِمْ لَوْنَ الشَّبَابِ وَحَبَّ الْقَلْبِ وَالْحَدَقِ
لَا مَا سَلَوْتُ بَيَاضَ الْبِيضِ عَنْ غَلَطٍ إِنِّي مِنَ الشَّيْبِ وَالْأَكْفَانِ فِي فَرَقِ

وقول الآخَر:

السُّمْرُ دُونَ الْبِيضِ هُمْ أَوْلَى بِعِشْقِي وَأَحَقْ
السُّمْرُ فِي لَوْنِ اللَّمَى وَالْبِيضُ فِي لَوْنِ الْبَهَقْ

وقول الآخَر:

سَوْدَاءُ بَيْضَاءُ الْفِعَالِ كَأَنَّهَا مِثْلُ الْعُيُونِ تُخَصُّ بِالْأَضْوَاءِ

أَنَا إِنْ جُنِنْتُ بِحُبِّهَا لَا تَعْجَبُوا أَصْلُ الْجُنُونِ يَكُونُ بِالسَّوْدَاءِ
فَكَأَنَّ لَوْنِي فِي الدَّيَاجِي غَيْهَبٌ لَوْلَاهُ مَا قَمَرٌ أَتَى بِضِيَاءِ

وأيضًا فهل يحسُن اجتماع الأحباب إلا في الليل؟ فيكفيك هذا الفضل والنبل، فما ستر الأحباب عن الواشين واللوَّام مثل سواد الظلام، ولا خوَّفهم من الافتضاح مثل بياض الصباح، فكم للسواد من مآثر! وما أحسن قول الشاعر:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

وقول الآخر:

وَكَمْ لَيْلَةٍ بَاتَ الْحَبِيبُ مُؤَانِسِي وَقَدْ سَتَرَتْنَا مِنْ دُجَاهَا ذَوَائِبُ
فَلَمَّا بَدَا نُورُ الصَّبَاحِ أَرَاعَنِي فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْمَجُوسَ كَوَاذِبُ

وقول الآخر:

وَزَارَنِي فِي قَمِيصِ اللَّيْلِ مُسْتَتِرًا يَسْتَعْجِلُ الْخَطْوَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ حَذَرِ
وَقُمْتُ أَفْرِشُ خَدِّي فِي الطَّرِيقِ لَهُ ذُلًّا وَأَسْحَبُ أَذْيَالِي عَلَى أَثَرِي
وَلَاحَ ضَوْءُ هِلَالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا مِثْلُ الْقُلَامَةِ قَدْ قُدَّتْ مِنَ الظُّفُرِ
وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظُنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ

وقول الآخر:

لَا تَلْقَ إِلَّا بِلَيْلٍ مَنْ تُوَاصِلُهُ فَالشَّمْسُ نَمَّامَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَّادُ

وقول الآخر:

لَا أَعْشَقُ الْأَبْيَضَ الْمَنْفُوخَ مِنْ سِمَنٍ لَكِنَّنِي أَعْشَقُ السُّمْرَ الْمَهَازِيلَا
إِنِّي امْرُؤٌ أَرْكَبُ الْمُهْرَ الْمُضَمَّرَ فِي يَوْمِ الرِّهَانِ وَغَيْرِي يَرْكَبُ الْفِيلَا

وقول الآخر:

زَارَنِي الْمَحْبُوبُ لَيْلًا فَتَعَانَقْنَا جَمِيعَا
ثُمَّ بِتْنَا وَإِذَا قَدْ طَلَعَ الصُّبْحُ سَرِيعَا
أَسْأَلُ اللهَ إِلَهِي يَجْمَعُ الشَّمْلَ رُجُوعَا
وَيُدِيمُ اللَّيْلَ لِي مَا دَامَ لِي الْإِلْفُ ضَجِيعَا

ولو ذهبتُ أذكر ما في السواد من المدح لَطالَ الشرح، ولكن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وما وفى. وأما أنت يا بيضاء فلونك لون البَرَص، ووصالك من الغصص، وقد ورد أن البرد والزمهرير في جهنم لعذاب أهل النكير. ومن فضيلة السواد أن منه المِداد الذي يُكتَب به كلام الله، ولولا سواد المسك والعنبر ما كان الطيب يُحمَل للملوك ولا يُذكَر، وكم للسواد من مفاخر! وما أحسن قول الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمِسْكَ يَعْظُمُ قَدْرُهُ وَأَنَّ بَيَاضَ الْجِيرِ حِمْلٌ بِدِرْهَمِ
وَأَنَّ بَيَاضَ الْعَيْنِ يَقْبَحُ بِالْفَتَى وَأَنَّ سَوَادَ الْعَيْنِ يَرْمِي بِأَسْهُمِ

فقال لها سيدها: اجلسي ففي هذا القدر كفاية. فجلست، ثم أشار إلى السمينة فقامت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن اليمني سيد الجواري أشار إلى الجارية السمينة فقامت، وأشارت بيدها إلى الهزيلة، وكشفت سيقانها ومعاصمها، وكشفت عن بطنها فبانت طيَّاته، وظهر تدوير سُرَّتها، ثم لبست قميصًا رفيعًا، فبان منه جميع بدنها، وقالت: الحمد لله الذي خلقني فأحسن صورتي، وسمَّنني فأحسن سمنتي، وشبَّهني بالأغصان، وزاد في حسني وبهجتي، فله الحمد على ما أولاني وشرَّفني؛ إذ ذكرني في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، وجعلني كالبستان المشتمل على خوخ ورمَّان. وإن أهل المدن يشتهون الطيرَ السمين فيأكلون منه، ولا يحبون طيرًا هزيلًا، وبنو آدم يشتهون اللحم السمين ويأكلونه، وكم للسمن من مفاخر، وما أحسن قول الشاعر:

وَدِّعْ حَبِيبَكَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ　　وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ
كَأَنَّ مَشْيَتَهَا فِي بَيْتِ جَارَتِهَا　　مَشْيَ السَّمِينَةِ لَا عَيْبٌ وَلَا مَلَلُ

وما رأيت أحدًا يقف على الجزار إلا ويطلب منه اللحم السمين. وقالت الحكماء: اللذة في ثلاثة أشياء: أكل اللحم، والركوب على اللحم، وإدخال اللحم في اللحم. وأما أنت يا رفيعة فسيقانك كسيقان العصفور، ومحراك التنُّور، وأنت خشبة المصلوب، ولحم المعيوب، وليس فيكِ شيء يسرُّ الخاطر، كما قال فيكِ الشاعر:

أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ أَشْيَاءَ تُحْوِجُنِي　　إِلَى مُضَاجَعَةٍ كَالدَّلْكِ بِالْمَسَدِ
فِي كُلِّ عُضْوٍ لَهَا قَرْنٌ يُنَاطِحُنِي　　عِنْدَ الْمَنَامِ فَأُمْسِي وَاهِيَ الْجَسَدِ

فقال لها سيدها: اجلسي، ففي هذا القدر كفاية. فجلست، ثم أشار إلى الهزيلة فقامت كأنها غصن بان أو قضيب خيزران أو عود ريحان، وقالت: الحمد لله الذي خلقني فأحسنني، وجعل وصلي غاية المطلوب، وشبَّهني بالغصن الذي تميل إليه القلوب، فإن قمتُ قمتُ خفيفةً، وإن جلستُ جلستُ ظريفة؛ فأنا خفيفة الروح عند المزاح، طيبة النفس من الارتياح، وما رأيت أحدًا وصف حبيبه فقال: حبيبي قدر الفيل، ولا مثل الجبل العريض الطويل، وإنما حبيبي له قدٌّ أهيف، وقوام مهفهف. فاليسير من الطعام يكفيني، والقليل من الماء يرويني، لعبي خفيف، ومزاجي ظريف؛ فأنا أنشط من العصفور، وأخف حركة من الزرزور، ووصلي منية الراغب، ونزهة الطالب. وأنا مليحة القوام حسنة الابتسام، كأني غصن بان أو قضيب خيزران أو عود ريحان، وليس لي في الجمال مماثِل، كما قال فيَّ القائل:

شَبَّهْتُ قَدَّكِ بِالْقَضِيبِ وَجَعَلْتُ شَكْلَكِ مِنْ نَصِيبِي
وَغَدَوْتُ خَلْفَكِ هَائِمًا خَوْفًا عَلَيْكِ مِنَ الرَّقِيبِ

وفي مثلي تهيم العشاق، ويتولَّه المشتاق، وإن جذبني حبيبي أنجذب إليه، وإن استمالني ملت له لا عليه، وها أنت يا سمينة البدن، فإن أكلك أكل الفيل، ولا يُشبِعك كثير ولا قليل، وعند الاجتماع لا يستريح معك خليل، ولا يوجد لراحته معك سبيل؛ فكبر بطنك يمنعه من جماعك، وعند التمكن من فرجك يدفعه غلظ أفخاذك، أي شيء في غلظك من الملاحة؟ أو في فظاظتك من اللطف والسماحة؟ ولا يليق باللحم السمين غير الذبح، وليس فيه شيء من موجبات المدح، إنْ مازَحَكِ أحدٌ غضبتِ، وإن لاعَبَكِ حزنتِ، فإنْ غنجتِ شخرتِ، وإنْ مشيتِ لهثتِ، وإنْ أكلتِ ما شبعتِ. وأنت أثقل من الجبال، وأقبح من الخبال والوبال، ما لك حركة، ولا فيك بركة، وليس لك شغل إلا الأكل والنوم، وإنْ بُلْتِ شرشرْتِ، وإنْ تغوَّطتِ بطبطتِ، كأنك زقٌّ منفوخ أو فيل ممسوخ، إنْ دخلتِ بيت الخلا تريدين مَن يغسل لك فرجكِ، وينتف من فوقه شعرك، وهذا غاية الكسل، وعنوان الخبل، وبالجملة ليس فيك شيء من المفاخر، وقد قال فيك الشاعر:

ثَقِيلَةٌ مِثْلُ زِقِّ الْبَوْلِ مُنْتَفِخٌ أَوْرَاكُهَا كَعَوَامِيدَ مِنَ الْجَبَلِ
إِذَا مَشَتْ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ أَوْ خَطَرَتْ سَرَى إِلَى الشَّرْقِ مَا تُبْدِي مِنَ الْهَبَلِ

فقال لها سيدها: اجلسي، ففي هذا القدر كفاية. فجلست، ثم أشار إلى الصفراء، فقامت على قدمَيْها وحمدت الله تعالى وأثنت عليه، وأتَتْ بالصلاة والسلام على خيار خلقه لديه، ثم أشارت بيدها إلى السمراء وقالت ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٣٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية الصفراء قامت على قدميها فحمدت الله تعالى وأثنت عليه، ثم أشارت بيدها إلى السمراء وقالت لها: أنا المنعوتة في القرآن، ووصَفَ لوني الرحمن، وفضَّله على سائر الألوان، بقوله تعالى في كتابه المبين: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ فلوني آية، وجمالي غاية، وحسني نهاية؛ لأن لوني لون الدينار، ولون النجوم والأقمار، ولون التفاح، وشكلي شكل الملاح، ولون الزعفران يزهو على سائر الألوان، فشكلي غريب، ولوني عجيب، وأنا ناعمة البدن غالية الثمن، وقد حويت كلَّ معنًى حَسَن، ولوني في الوجود عزيز، مثل الذهب الإبريز، وكم من مآثر، وفي مثلي قال الشاعر:

لَهَا اصْفِرَارٌ كَلَوْنِ الشَّمْسِ فِي الْبَهَجِ ... وَكَالدَّنَانِيرِ فِي حُسْنِ مِنَ النَّظَرِ
مَا الزَّعْفَرَانُ يُحَاكِي بَعْضَ بَهْجَتِهَا ... كَلَّا وَمَنْظَرُهَا يَعْلُو عَنِ الْقَمَرِ

وسوف أبتدي بذمِّك يا سمراء اللون؛ فلونك لون الجاموس، تشمئز عند رؤيتك النفوس، إنْ كان لونك في شيء فهو مذموم، وإن كان في طعام فهو مسموم، فلونك لون الذباب، وفيه بشاعة الكلاب، وهو محيِّر بين الألوان، ومن علامات الأحزان، وما سمعت قطُّ بذهبٍ أسمر، ولا دُرٍّ ولا جوهر، إنْ دخلتِ الخلاء يتغيَّر لونك، وإن خرجتِ ازددتِ قبحًا، فلا أنت سوداء فتُعرَفين، ولا أنت بيضاء فتُوصَفين، وليس لك شيء من المآثر، كما قال فيك الشاعر:

لَوْنُ الْهِبَابِ لَهَا لَوْنٌ فَغُبْرَتُهَا ... كَالتُّرْبِ تَرْهَسُهُ فِي أَقْدَامِ قُصَّادِي
لَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهَا قُمْتُ أَرْمُقُهَا ... وَقَدْ تَزَايَدَ بِي هَمِّي وَأَنْكَادِي

فقال لها سيدها: اجلسي، ففي هذا القدر كفاية. فجلست، ثم أشار إلى السمراء، وكانت ذات حسن وجمال، وقدٍّ واعتدال، وبهاء وكمال، لها جسم ناعم، وشعر فاحم، معتدلة القدِّ، موردة الخدِّ، ذات طرفٍ كحيل، وخدٍّ أسيل، ووجه مليح، ولسان فصيح، وخصر نحيل، وردف ثقيل. ثم قالت: الحمد لله الذي خلقني لا سمينة مذمومة، ولا هزيلة مهضومة، ولا بيضاء كالبَرَص، ولا صفراء كالمغص، ولا سوداء بلون الهِباب؛ بل جعل لوني معشوقًا لأولي الألباب، وسائر الشعراء يمدحون السُّمْر بكل لسان، ويفضِّلون ألوانهم على سائر الألوان؛ فأسمر اللون حميد الخصال، ولله دَرُّ مَن قال:

وَفِي السُّمْرِ مَعْنًى لَوْ عَلِمْتِ بَيَانَهُ ... لَمَا نَظَرَتْ عَيْنَاكِ بِيضًا وَلَا حُمْرَا
لَبَاقَةُ أَلْفَاظٍ وَغُنْجُ لَوَاحِظٍ ... يُعَلِّمْنَ هَارُوتَ الْكَهَانَةَ وَالسِّحْرَا

وقول الآخر:

مَنْ لِي بِأَسْمَرَ تَرْوِي عَنْ مَعَاطِفِهِ السُّـ ... ـمْرِ الرِّشَاقِ عَوَالٍ سَمْهَرِيَّاتُ
سَاجِي الْجُفُونِ حَرِيرِيُّ الْعِذَارِ لَهُ ... فِي قَلْبِ عَاشِقِهِ الْمُضْنَى مَقَامَاتُ

وقول الآخر:

بِالرُّوحِ أَسْمَرُ نُقْطَةٌ مِنْ لَوْنِهِ ... تَدَعُ الْبَيَاضَ يُفَاخِرُ الْأَقْمَارَا
وَلَوِ اسْتَقَلَّ مِنَ الْبَيَاضِ بِمِثْلِهَا ... لَتَبَدَّلَتْ مِنْهُ الْمَلَاحَةُ عَارَا
مَا مِنْ سُلَافَتِهِ سَكِرْتُ وَإِنَّمَا ... تَرَكَتْ سَوَالِفُهُ الْأَنَامَ سُكَارَى
حَسَدَ الْمَحَاسِنُ بَعْضَهَا حَتَّى اشْتَهَتْ ... كُلُّ الْمَحَاسِنِ أَنْ تَكُونَ عِذَارَا

وقوله:

لِمَ لَا أَمِيلُ إِلَى الْعِذَارِ إِذَا بَدَا ... مِنْ أَسْمَرَ كَالصَّعْدَةِ السَّمْرَاءِ
مَعَ أَنَّهُ قِصَصُ الْمَحَاسِنِ كُلُّهَا ... فِي نَمْلِهِ الْأَنْفَالُ لِلشُّعَرَاءِ
وَرَأَيْتُ كُلَّ الْعَاشِقِينَ تَهَتَّكُوا ... فِي الْخَالِ تَحْتَ الْمُقْلَةِ السَّوْدَاءِ
أَتَلُومُنِي الْعُذَّالُ فِيمَنْ كُلُّهُ ... خَالٌ فَخَلُّونِي مِنَ السُّفَهَاءِ

فشكلي مليح، وقدِّي رجيح، ولوني ترغب فيه الملوك، ويعشقه كل غني وصعلوك، وأنا لطيفة خفيفة، مليحة ظريفة، ناعمة البدن غالية الثمن، وقد كملت في الملاحة والأدب والفصاحة؛ فظاهري مليح، ولساني فصيح، ومزاحي خفيف، ولعبي ظريف؛ وأما أنتِ فمثل ملوخية باب اللوق، صفراء وكلها عروق؛ فتعسًا لك يا قدرة الرواس، ويا صدأ النحاس، وطلعة البوم، وطعام الزقوم؛ فضجيعك مُضيِّق الأنفاس، مقبور في الأرماس، وليس لك في الحُسْن مآثر، وفي مثلك قال الشاعر:

عَلَيْهَا اصْفِرَارٌ زَادَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يَضِيقُ لَهُ صَدْرِي وَتُوجِعُنِي رَاسِي
إِذَا لَمْ تَتُبْ نَفْسِي فَإِنِّي أَذِلُّهَا بِلَثْمِ مُحَيَّاهَا فَتَقْلَعُ أَضْرَاسِي

فلما فرغت من شعرها، قال لها سيدها: اجلسي، ففي هذا القدر كفاية. ثم بعد ذلك … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

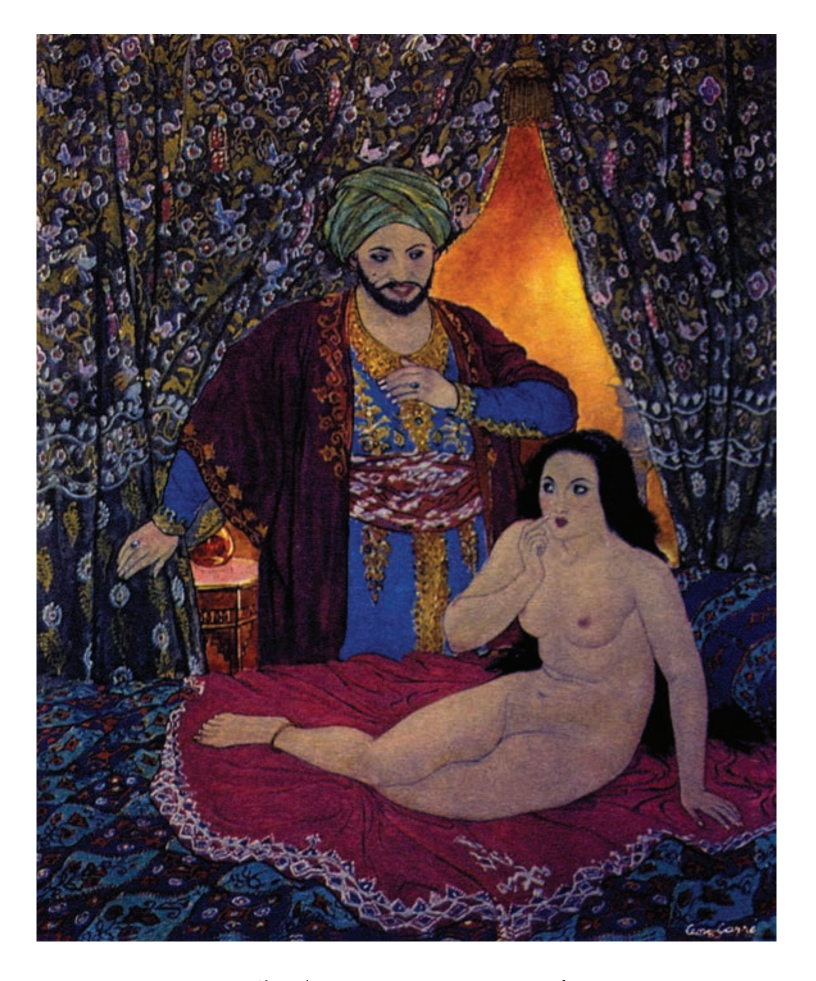
فلما كانت الليلة ٣٣٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما فرغت من شعرها قال لها سيدها: اجلسي، ففي هذا القدر كفاية. ثم بعد ذلك أصلح بينهن وألبسهن الخلع السنية، ونقَّطهن بنفيس الجواهر البرية والبحرية. فما رأيت يا أمير المؤمنين في مكان ولا زمان أحسن من هؤلاء الجواري الحسان.

فلما سمع المأمون هذه الحكاية من محمد البصري أقبل عليه، وقال له: يا محمد، هل تعرف لهؤلاء الجواري وسيدهن محلًّا؟ وهل يمكنك أن تشتريهن لنا من سيدهن؟ فقال له محمد: يا أمير المؤمنين، قد بلغني أن سيدهنَّ مغرم بهن، ولا يمكنه مفارقتهن. فقال المأمون: خذ معك إلى سيدهن في كل جارية عشرة آلاف دينار، فيكون مبلغ ذلك الثمن ستين ألف دينار، فاحملها صحبتك وتوجَّه إلى منزله، واشترِهُنَّ منه. فأخذ محمد البصري منه ذلك القدر وتوجَّه به، فلما وصل إلى سيد الجواري أخبره بأن أمير المؤمنين يريد اشتراءهن منه بذلك المبلغ، فسمح ببيعهن لأجل خاطر أمير المؤمنين وأرسلهن إليه، فلما وصلت الجواري إلى أمير المؤمنين هيَّأ لهن مجلسًا لطيفًا، وصار يجلس فيه معهن وينادمنَهُ، وقد تعجَّب من حسنهن وجمالهن، واختلاف ألوانهن، وحسن كلامهن، وقد استمر على ذلك مدة من الزمان. ثم إن سيدهنَّ الأول الذي باعهن لما لم يكن له صبر على فراقهن، أرسل كتابًا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكو إليه فيه ما عنده للجواري من الصبابات، ومن ضمنه هذه الأبيات:

سَلَبَتْنِي سِتٌّ مِلَاحٍ حِسَانٍ   فَعَلَى السِّتَّةِ الْمِلَاحِ سَلَامِي

هُنَّ سَمْعِي وَنَاظِرِي وَحَيَاتِي   وَشَرَابِي وَنُزْهَتِي وَطَعَامِي



كشف عنها فكأنها بَدْر، ومالت نفسُه إليها فقَبَّل أثَرًا كان بوجهها.

لَسْتُ أَسْلُو مِنْ حُسْنِهِنَّ وِصَالًا ذَاهِبٌ بَعْدَهُنَّ طِيبُ مَنَامِي
آهِ يَا طُولَ حَسْرَتِي وَبُكَائِي لَيْتَنِي مَا خُلِقْتُ بَيْنَ الْأَنَامِ
وَعُيُونٍ قَدْ زَانَهُنَّ جُفُونٌ كَقِسِيٍّ رَمَيْنَنِي بِسِهَامِ

فلما وقع ذلك الكتاب في يد الخليفة المأمون كسا الجواري من الملابس الفاخرة، وأعطاهن ستين ألف دينار، وأرسلهن إلى سيدهن، فوصلن إليه وفرح بهن غاية الفرح

أكثر مما أتى إليه من المال، وأقام معهن في أطيب عيش وأهناه، إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرِّق الجماعات.

ومما يُحكَى أن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد قلق ذات ليلة قلقًا شديدًا، وتفكَّرَ فكرًا عظيمًا، فقام يتمشى في جوانب قصره حتى انتهى إلى مقصورة عليها ستر، فرفع ذلك الستر فرأى في صدرها تختًا، وعلى ذلك التخت شيء أسود كأنه إنسان نائم، وعلى يمينه شمعة وعلى يساره شمعة، فبينما هو ينظر إلى ذلك ويتعجَّب منه، وإذا بباطية مملوءة خمرًا عتيقًا والكأس عليها، فلما رأى ذلك أمير المؤمنين تعجب في نفسه وقال: أتكون هذه الصحبة لمثل هذا الأسود؟ ثم دَنَا من التخت فرأى الذي فوقه صبية نائمة وقد تجللت بشعرها، فكشف عن وجهها فرآها كأنها البدر ليلة تمامه، فملأ الخليفة الكأس من الخمر وشربه على ورد خدها، ومالت نفسه إليها فقبَّلَ أثرًا كان بوجهها، فانتبهت من منامها وهي قائلة: يا أمين الله ما هذا الخبر؟ فقال: ضيف طارق في حَيِّكم كي تضيفونه إلى وقت السحر. قالت: نعم بالسمع مني والبصر. ثم قدَّمَتِ الشراب فشربَا معًا، ثم أخذت العود وأصلحت أوتاره وضربت عليه إحدى وعشرين طريقة، ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

لِسَانُ الْهَوَى فِي مُهْجَتِي لَكَ نَاطِقُ ... يُخَبِّرُ عَنِّي أَنَّنِي لَكَ عَاشِقُ
وَلِي شَاهِدٌ عَنْ فَرْطِ سَقْمِيَ مُعْرِبٌ ... وَقَلْبٌ جَرِيحٌ مِنْ فِرَاقِكَ خَافِقُ
وَلَمْ أَكْتُمِ الْحُبَّ الَّذِي قَدْ أَذَابَنِي ... وَوَجْدِي مَزِيدٌ وَالدُّمُوعُ سَوَابِقُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ حُبِّكَ مَا الْهَوَى ... وَلَكِنْ قَضَاءُ اللهِ فِي الْخَلْقِ سَابِقُ

فلما فرغت من شعرها قالت: أنا مظلومة يا أمير المؤمنين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: أنا مظلومة يا أمير المؤمنين. قال: ولِمَ ذلك؟ ومَن ظلمكِ؟ قالت: إن ولدك اشتراني من مدة بعشرة آلاف درهم وأراد أن يهبني لك، فأرسلَتْ إليه ابنةُ عمك الثمنَ المذكور وأمرته أن يحجبني عنك في هذه المقصورة. فقال لها: تَمَنِّي عليَّ. قالت: تمنَّيْتُ عليك أن تكون ليلة غدٍ عندي. فقال: إن شاء الله تعالى. ثم تركها ومضى، فلما أصبح الصباح توجه إلى مجلسه وأرسل إلى أبي نواس فلم يجده، فأرسل الحاجب يسأل عنه فرآه مرتهنًا في بعض الخمارات على ألف درهم أنفقها على بعد المُرْد، فسأله الحاجب عن حاله، فقَصَّ عليه قصته وما وقع له مع أمرد مليح أنفق عليه الألف درهم، فقال له: أَرِني إياه، فإن كان يستحق ذلك فأنت معذور. فقال له: اصبر وأنت تراه في هذه الساعة. فبينما هما في الحديث وإذا بالأمرد قد أقبَلَ ودخل عليهما وعليه ثوب أبيض، ومن تحته ثوب أحمر، ومن تحته ثوب أسود، فلما شاهَدَه أبو نواس صعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات:

تَبَدَّى فِي قَمِيصٍ مِنْ بَيَاضٍ ... بِـأَحْـدَاقٍ وَأَجْـفَـانٍ مِـرَاضِ
فَقُلْتُ لَهُ: عَبَرْتَ وَلَمْ تُسَلِّمْ ... وَإِنِّي مِنْكَ بِالتَّسْلِيمِ رَاضِ
تَبَارَكَ مَنْ كَسَا خَدَّيْكَ وَرْدًا ... وَيَخْلُقُ مَا يَشَاءُ بِلَا اعْتِرَاضِ
فَقَالَ: دَعِ الْجِدَالَ فَإِنَّ رَبِّي ... بَدِيعُ الصُّنْعِ مِنْ غَيْرِ انْتِقَاضِ
فَثَوْبِي مِثْلُ وَجْهِي مِثْلُ حَظِّي ... بَيَاضٌ فِي بَيَاضٍ فِي بَيَاضِ

فلما سمع الأمرد هذا الكلام نزع الثوب الأبيض من فوق الثوب الأحمر، فلما رآه أبو نواس أكثر التعجبات وأنشد هذه الأبيات:

تَبَدَّى فِي قَمِيصٍ مِنْ شَقِيقٍ عَدُوٌّ لِي يُلَقَّبُ بِالْحَبِيبِ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ: أَنْتَ بَدْرٌ وَقَدْ أَقْبَلْتَ فِي زِيٍّ عَجِيبِ
أَحُمْرَةُ وَجْنَتَيْكَ كَسَتْكَ هَذَا أَمْ أَنْتَ صَبَغْتَهُ بِدَمِ الْقُلُوبِ
فَقَالَ: الشَّمْسُ أَهْدَتْ لِي قَمِيصًا قَرِيبَ الْعَهْدِ مِنْ شَفَقِ الْمَغِيبِ
فَثَوْبِي وَالْمُدَامُ وَلَوْنُ خَدِّي شَقِيقٌ فِي شَقِيقٍ فِي شَقِيقِ

فلما فرغ أبو نواس من شعره، خلع الأمرد الثوب الأحمر وبقي في الثوب الأسود، فلما رآه أبو نواس أكثر إليه الالتفات، وأنشد هذه الأبيات:

تَبَدَّى فِي قَمِيصٍ مِنْ سَوَادِ تَجَلَّى فِي الظَّلَامِ عَلَى الْعِبَادِ
فَقُلْتُ لَهُ: عَبَرْتَ وَلَمْ تُسَلِّمْ وَأَشْمَتَّ الْحَوَاسِدَ وَالْأَعَادِي
فَثَوْبُكَ مِثْلُ شَعْرِكَ مِثْلُ حَظِّي سَوَادٌ فِي سَوَادٍ فِي سَوَادِ

فلما رأى ذلك الحاجب علم بحال أبي نواس وغرامه، فرجع إلى الخليفة وأخبره بحاله، فأحضر الخليفة ألف درهم وأمر الحاجب أن يأخذها ويرجع بها إلى أبي نواس ويدفعها عنه ويخلصها من الرهن، فرجع بها الحاجب إلى أبي نواس وخلَّصه وتوجه به إلى الخليفة، فلما وقف بين يديه قال له الخليفة: أنشدني شعرًا يكون فيه: «يا أمين الله ما هذا الخبر؟» فقال: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا نواس قال: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين. ثم أنشد هذه الأبيات:

طَالَ لَيْلِي بِالْعَوَادِي وَالسَّهَرْ   فَانْضَنَى جِسْمِي وَأَكْثَرْتُ الْفِكَرْ
قُمْتُ أَمْشِي فِي مَحَلِّي تَارَةً   ثُمَّ طَوْرًا فِي مَقَاصِيرِ الْحَجَرْ
فَرَأَتْ عَيْنَايَ شَخْصًا أَسْوَدَ   وَبُيَيْضَهُ قَدْ تَغَطَّتْ بِالشَّعَرْ
يَا لَهَا مِنْ بَدْرِ تِمٍّ زَاهِرٍ   تَنْثَنِي كَالْغُصْنِ فِي وَقْتِ الْمَطَرْ
فَشَرِبْتُ الْخَمْرَ مَفْتُونًا بِهَا   ثُمَّ أَقْبَلْتُ وَقَبَّلْتُ الْأَثَرْ
فَاسْتَفَاقَتْ وَهْيَ فِي غَشْيَتِهَا   صَفَّقَتْ تَصْفِيقَ أَوْرَاقِ الشَّجَرْ
بَعْدُ جَاءَتْ وَهْيَ لِي قَائِلَةً   يَا أَمِينَ اللهِ مَا هَذَا الْخَبَرْ؟
قُلْتُ: ضَيْفٌ طَارِقٌ فِي حَيِّكُمْ   يَرْتَجِي الْمَأْوَى إِلَى وَقْتِ السَّحَرْ
فَأَجَابَتْ: بِسُرُورٍ سَيِّدِي   أُكْرِمُ الضَّيْفَ بِسَمْعِي وَالْبَصَرْ

فقال له الخليفة: قاتلك الله كأنك كنتَ حاضرًا معنا. ثم أخذه الخليفة من يده وتوجه به إلى الجارية، فلما رآها أبو نواس وكان عليها بدلة زرقاء وقناع أزرق، أكثر التعجبات وأنشد هذه الأبيات:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْقِنَاعِ الْأَزْرَقِ   نَاشَدْتُكَ بِاللهِ أَنْ تَتَرَفَّقِي
إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا جَفَاهُ حَبِيبُهُ   هَاجَتْ بِهِ زَفَرَاتُ كُلِّ تَشَوُّقِ

فَبِحَقِّ حُسْنِكَ مَعْ بَيَاضٍ زَانَهُ هَلَّا رَثِيتِ لَقَلْبِ صَبٍّ مُحْرَقِ
حِنِّي عَلَيْهِ وَسَاعِدِيهِ عَلَى الْهَوَى لَا تَقْبَلِي فِيهِ كَلَامَ الْأَحْمَقِ

فلما فرغ أبو نواس من شعره، قدَّمت الجارية الشراب للخليفة، ثم أخذت العود بيدها وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

أَتُنْصِفُ غَيْرِي فِي هَوَاكَ وَتَظْلِمُ وَتُبْعِدُنِي وَالْغَيْرُ فِيكَ مُنَعَّمُ
وَلَوْ كَانَ لِلْعُشَّاقِ قَاضٍ شَكَوْتُكُمْ إِلَيْهِ عَسَاهُ بِالْحَقِيقَةِ يَحْكُمُ
فَإِنْ تَمْنَعُونِي أَنْ أَمُرَّ بِبَابِكُمْ فَإِنِّي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعِيدٍ أُسَلِّمُ

ثم إن أمير المؤمنين أمر بإكثار الشراب على أبي نواس حتى غاب عن رشده، ثم ناوله قدحًا فشرب منه جرعة واستدامه في يده، فأمرها الخليفة أن تأخذ القدح من يده وتخفيه، فأخذت القدح من يده وأخفته بين أفخاذها، ثم إن الخليفة سحب سيفه في يده ووقف على رأس أبي نواس ووكزه بالسيف، فاستفاق فوجد السيف مسلولًا في يد الخليفة، فطار السُّكْر من رأسه، فقال له الخليفة: أنشدني شعرًا وأخبرني فيه عن قدحك وإلا ضربت عنقك. فأنشد هذه الأبيات:

قِصَّتِي أَعْظَمُ قِصَّةْ صَارَتِ الظَّبْيَةُ لِصَّةْ
سَرَقَتْ كَأْسَ مُدَامِي وَامْتِصَاصِي مِنْهُ مَصَّةْ
سَتَرَتْهُ فِي مَكَانٍ بِفُؤَادِي مِنْهُ غَصَّةْ
لَا أُسَمِّيهِ وَقَارًا لِلْخَلِيفَةِ فِيهِ حِصَّةْ

وقال له أمير المؤمنين: قاتلك الله، من أين علمتَ ذلك؟ ولكن قد قبلنا ما قلت. وأمر له بخلعة وألف دينار وانصرف مسرورًا.

حكاية الرجل والصحن من ذهب

ومما يُحكَى أن رجلًا كثرت عليه الديون وضاق عليه الحال، فترك أهله وعياله وخرج هائمًا على وجهه، ولم يزل سائرًا إلى أن أقبَلَ بعد مدة على مدينة عالية الأسوار، عظيمة البنيان، فدخلها وهو في حالة الذل والانكسار، وقد اشتدَّ به الجوع وأتعبه السفر، فمَرَّ

في بعض شوارعها فرأى جماعة من الأكابر متوجِّهين، فذهب معهم إلى أن دخلوا في محلٍّ يشبه محلَّ الملوك، فدخل معهم، ولم يزالوا داخلين إلى أن انتهوا إلى رجل جالس في صدر المكان، وهو في هيئة عظيمة وجلالة جسيمة، وحوله الغلمان والخدم كأنه من أبناء الوزراء، فلما رآهم قام إليهم وأكرم مثواهم، فأخذ الرجل المذكور الوهم من ذلك الأمر واندهش مما رآه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل المذكور أخذه الوهم من ذلك الأمر، واندهش مما رآه من حسن البنيان والخدم والحشم، فتأخَّرَ إلى ورائه وهو في حيرة وكرب؛ خائفًا على نفسه، حتى جلس في محل وحده بعيدًا عن الناس بحيث لا يراه أحد، فبينما هو جالس إذ أقبل رجل ومعه أربعة كلاب من كلاب الصيد، وعليها أنواع القز والديباج، وفي أعناقها أطواق من الذهب بسلاسل الفضة، فربط كلَّ واحد منها في محل منفرد له، ثم غاب وأتى لكل كلب بصحن من الذهب ملآن طعامًا من الأطعمة الفاخرة، ووضع لكل واحد صحنه على انفراد، ثم مضى وتركها، فصار هذا الرجل ينظر إلى الطعام من شدة جوعه ويريد أن يتقدَّم إلى كلبٍ منها ويأكل معه، فيمنعه الخوف منها، ثم إن كلبًا منها نظر إليه فألهمه الله تعالى معرفة حاله، فتأخَّرَ عن الصحن وأشار إليه، فأقبل وأكل حتى أكتفى، وأراد أن يذهب فأشار إليه الكلب أن يأخذ الصحن بما فيه من الطعام لنفسه وألقاه له بيده، فأخذه وخرج من الدار وسار ولم يتبعه أحد، ثم سافَرَ إلى مدينة أخرى، فباع الصحن وأخذ بثمنه بضائع وتوجه إلى بلده، فباع ما معه وقضى ما كان عليه من الديون، وكثر رزقه وصار في نعمة زائدة وبركة عميمة، ولم يزل مقيمًا في بلده مدةً من الزمان، وبعد ذلك قال في نفسه: لا بد أنني أسافر إلى مدينة صاحب الصحن، وآخذ له هدية مليحة لائقة، وأدفع له ثمنَ الصحن الذي أنعَمَ عليَّ به كلبٌ من كلابه. ثم إنه أخذ هدية تليق به، وأخذ معه ثمن الصحن وسافَرَ، ولم يزل مسافرًا أيامًا وليالي حتى وصل إلى تلك المدينة، فدخلها وأراد الاجتماع به، فمشى في شوارعها حتى أقبل على محله، فلم يَرَ إلا طللًا باليًا،

وغرابًا ناعيًا، وديارًا قد قفرت، وأحوالًا قد تغيَّرَتْ، وحالًا قد تنكَّرَتْ، فارتجف منه القلب والبال، وأنشد قول مَن قال:

خَلَتِ الزَّوَايَا مِنْ خَبَايَاهَا كَمَا خَلَتِ الْقُلُوبُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالتُّقَى
وَتَنَكَّرَ الْوَادِي فَمَا غِزْلَانُهُ تِلْكَ الظِّبَاءُ وَلَا الْتَقَى ذَاكَ النَّقَا

وقول الآخر:

سَرَى طَيْفُ سَعْدَى طَارِقًا يَسْتَفِزُّنِي سُحَيْرًا وَصَحْبِي بِالْفَلَاةِ رُقُودُ
فَلَمَّا انْتَبَهْنَا لِلْخَيَالِ الَّذِي سَرَى أَرَى الْجَوَّ قَفْرًا وَالْمَزَارَ بَعِيدُ

ثم إن ذلك الرجل لما شاهَدَ تلك الأطلال البالية، ورأى ما صنعَتْ بها أيدي الدهر علانيةً، ولم يجد بعد العين إلا الأثر، أغناه الخبر عن الخبر، والتفت فرأى رجلًا مسكينًا في حالة تقشعر منها الجلود ويحن إليها الحجر الجلمود، فقال: يا هذا، ما صنع الدهر والزمان بصاحب هذا المكان؟ وأين بدوره السافرة ونجوسه الزاهرة؟ وما سبب الحادث الذي حدث على بنيانه حتى لم يبقَ فيه غير جدرانه؟ فقال له: هو هذا المسكين الذي تراه، وهو يتأوَّه مما عراه، ولكن أَمَا تعلم أن في كلام الرسول عبرةً لَمن به اقتدى، وموعظةً لَمن اهتدى؛ حيث قال ﷺ: إنَّ حقًّا على الله تعالى ألَّا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه. فإن كان سؤالك عن مآل هذا الأمر من سبب، فليس مع انقلاب الدهر عجب، أنا صاحب هذا المكان ومُنشِئه ومالِكه وبانيه، وصاحب بدوره السافرة، وأحواله الفاخرة، وتُحَفه الزاهية، وجواريه الباهية، لكن الزمان قد مال، فأذهب الخدم والمال، وصيَّرني في هذه الحالة الراهنة، ودهمني بحوادث كانت عنده كامنة، لكن لا بد لسؤالك هذا من سبب، فأخبرني عنه واترك العجب. فأخبره الرجل بجميع القصة وهو في ألم وغصة، وقال له: قد جئتُكَ بهدية فيها النفوس ترغب، وثمن صحنك الذي أخذته فإنه كان سببًا لغناي بعد الفقر، ولعمار ربعي وهو قفر، ولزوال ما كان عندي من الهم والحصر، فهزَّ الرجل رأسه وبكى، وأنَّ واشتكى، وقال: يا هذا، أظنك مجنونًا؛ فإن هذا الأمر لا يكون من عاقل، كيف يتكرَّم عليك كلب من كلابنا بحصنٍ من الذهب وأرجع أنا فيه؟ فرجوعي فيما تكرَّمَ به كلبي من العجب، ولو كنتُ في أشد الهمِّ والوصب، والله لا يصل إليَّ منك شيء يساوي

قلامة، فامضِ من حيث جئتَ بالصحة والسلامة. فقبل الرجل قدمَيْه وانصرف راجعًا يثني عليه، ثم إنه عند فراقه ووداعه أنشد هذا البيت:

ذَهَبَ النَّاسُ وَالْكِلَابُ جَمِيعًا   فَعَلَى النَّاسِ وَالْكِلَابِ السَّلَامُ

والله أعلم.

حكاية اللص ووالي الإسكندرية

ومما يُحكَى أنه كان بثغر الإسكندرية والٍ يقال له حسام الدين، فبينما هو جالس في دسته ذات ليلة إذ أقبل عليه رجل جندي وقال له: اعلم يا مولانا الوالي، أني دخلتُ هذه المدينة في هذه الليلة، ونزلت في خان كذا فنمتُ فيه إلى ثلث الليل، فلما انتبهتُ وجدتُ خُرْجي مشروطًا وقد سُرِق منه كيس فيه ألف دينار، فلم يتم كلامه حتى وصل الوالي وأحضر المقدمين وأمرهم بإحضار جميع مَن في الخان، وأمر بسجنهم إلى الصباح، فلما جاء الصبح أمر بإحضار آلة العقوبة، وأحضر هؤلاء الناس بحضرة الجندي صاحب الدراهم وأراد عقابهم، وإذا برجل قد أقبل وشقَّ الناس حتى وقف بين يدي الوالي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوالي أراد عقابهم، وإذا برجل قد أقبَلَ وشقَّ الناس حتى وقف بين يدَيِ الوالي والجندي، فقال: أيها الأمير، أطلق هؤلاء الناس كلهم فإنهم مظلومون، وأنا الذي أخذت مالَ هذا الجندي، وها هو الكيس الذي أخذتُه من خُرْجه. ثم أخرجه من كمه ووضعه بين يدي الوالي والجندي، فقال الوالي للجندي: خذ مالك وتسلَّمه، فما بقي لك على الناس سبيل. وصار الناس وجميع الحاضرين يثنون على ذلك الرجل ويدعون له، ثم إن الرجل قال: أيها الأمير، ما الشطارة أني جئتُ إليك بنفسي وأحضرت هذا الكيس، وإنما الشطارة في أخذ الكيس ثانيًا من هذا الجندي. فقال له الوالي: وكيف فعلتَ يا شاطر حين أخذتَه؟ فقال: أيها الأمير، إني كنتُ واقفًا في مصر في سوق الصيارف إذ رأيت هذا الجندي لما صرف هذا الذهب ووضعه في هذا الكيس، فتبعته من زقاق إلى زقاق، فلم أجد لي إلى أَخْذِ المال منه سبيلًا، ثم إنه سافَرَ فتبعته من بلد إلى بلد، وصرت أحتال عليه في أثناء الطريق فما قدرت على أخذه، فلما دخل هذه المدينة تبعته حتى دخل في هذا الخان، فنزلت إلى جانبه ورصدته حتى نام وسمعتُ غطيطَه، فمشيتُ إليه قليلًا قليلًا وقطعت الخُرْج بهذه السكين، وأخذت الكيس هكذا، ومَدَّ يده وأخذ الكيس من بين أيادي الوالي والجندي، وتأَخَّرَ إلى خلف الوالي والجندي والناس ينظرون إليه، ويعتقدون أنه يُرِيهم كيف أخذ الكيس من الخُرْج، وإذا به قد جرى ورمى نفسه في بركة، فصاح الوالي على حاشيته وقال: الحقوه وانزلوا خلفه. فما نزعوا ثيابهم ونزلوا في الدرج، حتى كان الشاطر مضى إلى حال سبيله، وفتشوا عليه فلم يجدوه، وذلك أن أزِقَّة الإسكندرية كلها تنفذ إلى بعضها، ورجع الناس ولم يحصلوا الشاطر، فقال الوالي للجندي: لم يبقَ لك عند الناس حقٌّ؛ لأنك عرفت غريمك وتسلَّمْتَ مالك وما حفظتَه. فقام الجندي وقد ضاع عليه ماله، وخلصت الناس من يدي الجندي والوالي، وكل ذلك من فضل الله تعالى.

حكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة

ومما يُحكَى أن الملك الناصر أحضر الولاة الثلاثة في بعض الأيام؛ والي القاهرة، ووالي بولاق، ووالي مصر القديمة، وقال: أريد أن كل واحد منكم يخبرني بأعجب ما وقع له في مدة ولايته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك الناصر قال للولاة الثلاثة: أريد أن كل واحد منكم يخبرني بأعجب ما وقع له في مدة ولايته. فأجابوه بالسمع والطاعة، ثم قال والي القاهرة: اعلم يا مولانا السلطان أن أعجب ما وقع في مدة ولايتي، أنه كان بهذه المدينة عدلان يشهدان على الدماء والجراحات، وكانَا مُولَعين بحب النساء وشرب الشراب والفساد، وما قدرت عليهما بحيلةٍ لأنتقم منهما بها وعجزتُ عن ذلك، فأوصيت الخمَّارين والنقليين والفكهانيين والشماعين وأرباب البيوت المعدَّة للفساد، أن يخبروني بهذين الشاهدين متى كانَا في مكان يشربان أو يُفسِدان، سواء كانا مع بعضهما أو متفرقين، وإن اشتريا أو اشترى أحدهما منهم شيئًا من الأشياء المعدَّة للشراب، فلا يخفوه عني. فقالوا: سمعًا وطاعة. فاتفق في بعض الأيام أنه حضر إليَّ رجل ليلًا وقال: يا مولانا، اعلم أن الشاهدين في المكان الفلاني، في الدرب الفلاني، في دار فلان، وأنهما في منكر عظيم. فقمتُ وتخفَّيْتُ أنا وغلامي ومضيت إليهما منفردًا، ليس من أحد معي غير غلامي، ولم أَزَلْ ماشيًا حتى وقفت على الباب وطرقته، فأتت إليَّ جارية وفتحت لي الباب وقالت: مَن أنت؟ فدخلتُ ولم أردَّ عليها جوابًا، فرأيتُ الشاهدين وصاحب الدار جلوسًا وعندهم نساء بغايا، ومن الشراب شيء كثير، فلما رأوني قاموا إليَّ وعظَّموني وأَجْلَسوني في صدر المقام وقالوا لي: مرحبًا بك من ضيف عزيز، ونديم ظريف. واستقبلوني من غير خوف مني ولا فزع، وبعد ذلك قام صاحب الدار من عندنا وغاب ساعة، ثم عاد ومعه ثلاثمائة دينار وليس عنده من الخوف شيء، وقالوا: اعلم يا مولانا الوالي أنك تقدر على أكثر من هتيكتنا، وفي يديك تعزيرنا، ولكن لا يعود عليك من ذلك إلا التعب، فالرأي أن تأخذ هذا القدر وتستر علينا، فإن الله تعالى اسمه الستار، ويحب من عباده الستيرين، ولك الأجر والثواب. فقلت

في نفسي: خذ هذا الذهب منهم، واستر عليهم في هذه المرة، وإذا قدرت عليهم مرة أخرى فانتقم منهم.

فطمعت في المال وأخذتُه منهم وتركتهم، وانصرفت ولم يشعر بي أحد، فما أشعر في ثاني يوم إلا ورسول القاضي جاء إليَّ وقال: أيها الوالي تفضَّلْ كلِّم القاضي فإنه يدعوك. فقمت معه ومضيت إلى القاضي ولا اعلم ما سبب ذلك، فلما دخلت عليه رأيت الشاهدين وصاحب الدار الذي أعطاني الثلاثمائة دينار جالسين عنده، فقام صاحب الدار وادَّعَى عليَّ بثلاثمائة دينار، فما وسعني الإنكار، فخرج مسطورًا وشهد فيه هذان الشاهدان العدلان عليَّ بثلاثمائة دينار، فثبت ذلك عند القاضي بشهادة الشاهدين، فأمرني بدفع ذلك المبلغ، فما خرجت من عندهم حتى أخذوا مني الثلاثمائة دينار، فاغتظت ونويت لهم كل سوء، وندمت على عدم تنكيلهم وانصرفت وأنا في غاية الخجل، وهذا أعجب ما وقع لي في مدة ولايتي.

فقام والي بولاق وقال: وأما أنا يا مولانا السلطان، فأعجب ما وقع لي في مدة ولايتي أنه كمل عليَّ من الدين ثلاثمائة ألف دينار، فأضرَّ بي ذلك وبعتُ ما ورائي وما قدامي وما كان بيدي، فجمعتُ مائة ألف دينار من غير زيادة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن والي بولاق قال: بعت ما ورائي وما قدامي، فجمعت مائة ألف دينار من غير زيادة، وبقيت في حيرة عظيمة، فبينما أنا جالس في داري ليلة من الليالي وأنا في هذا الحال، وإذا بطارق يطرق الباب، فقلت لبعض الغلمان: انظر مَن بالباب. فخرج ثم عاد إليَّ وهو مصفرُّ الوجه، متغيِّر اللون، مرتعد الفرائص، فقلتُ له: ما دهاك؟ فقال: إن بالباب رجلًا عريانًا، وعليه ثياب من الجلد، ومعه سيف، وفي وسطه سكين، ومعه جماعة على هيئته وهو يطلبك. فأخذت السيف في يدي وخرجتُ لأنظر مَن هؤلاء، وإذا بهم كما قال الغلام، فقلت لهم: ما شأنكم؟ فقالوا: إننا لصوص وغنمنا في هذه الليلة غنيمة عظيمة، وجعلناها برسمك لتستعين بها على هذه القضية التي أنتَ مهموم بسببها، وتسدَّ بها الدَّيْن الذي عليك. فقلت لهم: وأين الغنيمة؟ فأحضروا لي صندوقًا كبيرًا ممتلئًا أواني من ذهب وفضة، فلما رأيته فرحت وقلت في نفسي: أسدُّ الدَّيْنَ الذي عليَّ من هذا، ويفضل لي قدرَ الدَّيْنِ مرةً أخرى. فأخذته ودخلت الدار وقلت في نفسي: ليس من المروءة أن أدعهم يذهبون من غير شيء، فأخذتُ المائة ألف دينار التي كانت عندي ودفعتُها إليهم وشكرت صنعهم، فأخذوا الدنانير ومضوا تحت الليل إلى حال سبيلهم ولم يعلم بهم أحد، فلما أصبح الصباح، رأيتُ ما في الصندوق نحاسًا مطليًّا بالذهب والقزير يساوي كله خمسمائة درهم، فعَظُم عليَّ ذلك وضاعت الدنانير التي كانت معي، وازددْتُ غمًّا على غمِّي، وهذا أعجب ما جرى لي في زمن ولايتي.

فقام والي مصر القديمة وقال: يا مولانا السلطان، وأما أنا فأعجب ما جرى لي في مدة ولايتي، أني شنقت عشرةَ لصوص وجعلتُ كلَّ واحد على خشبة وحده، وأوصيتُ الحارسين أنهم يحفظونهم ولا يتركون الناس يأخذون أحدًا منهم، فلما كان من الغد جئتُ لأنظرهم فنظرتُ مشنوقَيْن على خشبةٍ واحدة، فقلتُ للحارسين: مَن فعل هذا؟ وأين

الخشبة التي كان عليها المشنوق الثاني؟ فأنكروا ذلك، فأردت أن أضربهم فقالوا: اعلم أيها الأمير أننا نمنا البارحة، فلما انتبهنا وجدنا مشنوقًا واحدًا سُرِق هو والخشبة التي كان عليها، فخفنا منك، وإذا برجل فلاح مسافر قد أقبل علينا ومعه حمار، فقبضنا عليه وقتلناه وشنقناه مكان الذي سُرِق على هذه الخشبة. فتعجَّبْتُ من ذلك وقلتُ لهم: وما كان مع الفلاح؟ فقالوا: كان معه خُرْج على الحمار. قلت لهم: وما فيه؟ قالوا: لا ندري. فقلتُ لهم: عليَّ به. فأحضروه بين يدي فأمرتُ بفتحه، وإذا فيه رجل مقتول مقطَّع، فلما رأيته تعجَّبْتُ من ذلك، وقلت في نفسي: سبحان الله، ما كان سبب شنق هذا الفلاح إلا ذنب هذا المقتول، وما ربك بظلَّام للعبيد.

حكاية اللص والصيرفي

ومما يُحكَى أن رجلًا من الصيارف كان معه كيس ملآن ذهبًا، وقد مرَّ على اللصوص فقال واحد من الشطار: أنا أقدر على أخذ هذا الكيس. فقالوا له: كيف تصنع؟ فقال: انظروا. ثم تبعه إلى منزله، فدخل الصيرفي ورمى الكيس على الصفة وكان حاقنًا، فدخل بيت الراحة لإزالة الضرورة، وقال للجارية: هاتي إبريق ماء. فأخذت الجارية الإبريق وتبعته إلى بيت الراحة، وتركَتِ البابَ مفتوحًا، فدخل اللص وأخذ الكيس وذهب إلى أصحابه وأعلمهم بما جرى. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن اللص أخذ الكيس وذهب إلى أصحابه وأعلمهم بما جرى له مع الصيرفي والجارية، فقالوا له: والله إن الذي عملته شطارة، وما كل إنسان يقدر عليه، ولكن في هذا الوقت يخرج الصيرفي من بيت الراحة، فلا يجد الكيس، فيضرب الجارية ويعذِّبها عذابًا أليمًا، فكأنك ما عملتَ شيئًا تُشكَر عليه، فإنْ كنتَ شاطرًا فخلِّص الجاريةَ من الضرب والعذاب. فقال لهم: إن شاء الله تعالى أخلِّص الجارية والكيس. ثم إن اللص رجع إلى دار الصيرفي فوجده يعاقب الجارية لأجل الكيس، فدقَّ عليه الباب، فقال له: مَن هذا؟ قال له: أنا غلام جارك الذي في القيسرية. فخرج إليه وقال له: ما شأنك؟ فقال له: إن سيدي يسلِّم عليك ويقول لك: قد تغيَّرَتْ أحوالك كلها، كيف ترمي بمثل هذا الكيس على باب الدكان وتروح وتخليه؟ ولو لقيه أحدٌ غريب كان أخذه وراح. ولولا أن سيدي رآه وحفظه لَكان ضاع عليك. ثم أخرج الكيس وأراه إياه، فلما رآه الصيرفي قال: هذا كيسي بعينه. ومدَّ يده ليأخذه منه، فقال له: والله ما أعطيك إياه حتى تكتب ورقةً لسيدي أنك تسلَّمْتَ الكيس مني، فإني أخاف ألَّا يصدِّقني في أنك أخذتَ الكيس وتسلَّمْتَه حتى تكتب لي ورقة وتختمها بختمك. فدخل الصيرفي ليكتب له ورقةً بوصول الكيس كما ذكر له، فذهب اللص بالكيس إلى حال سبيله، وخلصت الجارية من العذاب.

حكاية والي قوص وقاطع الطريق

ومما يُحكَى أن علاء الدين والي قوص كان جالسًا ذات ليلة من الليالي في بيته، وإذا بشخص حسن الصورة والمنظر، كامل الهيئة، قد أتاه في الليل ومعه صندوق على رأس خادم ووقف على الباب وقال لبعض غلمان الأمير: ادخل وأَعْلِم الأميرَ أني أريد الاجتماعَ به

من أجل سرٍّ. فدخل الغلام وأعلَمَه بذلك، فأمره بإدخاله، فلما دخل رآه الأمير عظيمَ الهيئة حسنَ الصورة، فأجلسه إلى جانبه وأكرم مثواه، وقال له: ما حاجتك؟ فقال له: أنا رجل من قطَّاع الطريق، وأريد التوجُّه والرجوع إلى الله تعالى على يدَيْك، وأريد أن تساعدني على ذلك؛ لأني صرتُ في طرفك وتحت نظرك، ومعي هذا الصندوق فيه شيء قيمته نحو أربعين ألف دينار، فأنت أولى بها، وأعطني من خالص مالك ألفَ دينار حلالًا أجعلها رأسَ مالٍ، وأستعين بها على التوبة، وأستغني بها عن الحرام وأجرك على الله تعالى. ثم إنه فتح الصندوق ليرى الوالي ما فيه، وإذا به مصاغ وجواهر ومعادن وفصوص ولؤلؤ، فأدهشه ذلك وفرح به فرحًا شديدًا، وصاح على خازنداره وقال له: أحْضِرِ الكيسَ الفلاني. وكان فيه ألف دينار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوالي صاح على خازنداره وقال له: أحضر الكيس الفلاني. وكان فيه ألف دينار، فلما أحضر الخازندار ذلك الكيس أعطاه لذلك الرجل، فأخذه منه وشكره على فعله، ومضى إلى حال سبيله تحت الليل، فلما أصبح الصباح أحضر الوالي قيِّم الصاغة، فلما حضر أراه ذلك الصندوق وما فيه من المصاغ، فوجد جميع ذلك من القزير والنحاس، ورأى الجواهر والفصوص واللؤلؤ كلها من الزجاج، فعَظُم ذلك على الوالي وأرسل في طلبه، فلم يقدر أحدٌ على تحصيله.

حكاية زواج إبراهيم بن المهدي

ومما يُحكَى أن أمير المؤمنين المأمون قال لإبراهيم بن المهدي: حدثنا بأعجب ما رأيت. قال: سمعًا وطاعةً يا أمير المؤمنين، اعلم أني خرجت يومًا للنزهة فانتهى بي المشي إلى موضع، فشممت فيه رائحة الطعام، فاشتاقت نفسي إليه ووقفت يا أمير المؤمنين متحيِّرًا لا أقدر على المضي ولا على دخول ذلك الموضع، فرفعت بصري وإذا أنا بشباك، ومن خلفه كفٌّ ومِعْصَم ما رأيت أحسن منهما، وطار عقلي عند رؤيتهما ونسيتُ رائحةَ الطعام بذلك الكف والمعصم، وأخذت في الحيلة على الوصول إلى ذلك الموضع، وإذا بخياط قريب من ذلك الموضع فتقدَّمْتُ إليه وسلَّمْتُ عليه، فردَّ عليَّ السلام، فقلت: لَمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من التجار. فقلت له: ما اسمه؟ قال: اسمه فلان ابن فلان، وهو لا ينادم إلا التجار. فبينما نحن في الكلام إذ أقبل رجلان نبيلان ذكيان، فأعلمني أنهما أخصُّ الناس بصحبته وأخبرني باسمهما، فحرَّكْتُ دابتي حتى لقيتهما وقلتُ لهما: جُعِلت فداكما قد استبطأكما

أبو فلان. وسايرتهما حتى وصلنا إلى الباب، فدخلت ودخل الرجلان، فلما رآني صاحب الدار معهما لم يشك في أنني صاحبهما، فرحَّبَ بي وأجلسني في أرفع المواضع، ثم جاءوا بالمائدة، فقلت في نفسي: قد مَنَّ الله عليَّ ببلوغ الغرض من هذه الأطعمة، وبقي الكفُّ والمعصم. ثم انتقلنا إلى المنادمة في موضع آخَر، فرأيته محفوفًا باللطائف، وجعل صاحب المنزل يتلطَّف بي ويُقبِل عليَّ بالحديث لظنِّه أني ضيف لأضيافه، وهم كذلك يلاطفونني غايةَ الملاطَفَة لظنِّهم أنني صاحب ربِّ المنزل، ولم يزل جميعهم في ملاطفتي حتى شربنا أقداحًا، ثم خرجَتْ علينا جاريةٌ كأنها غصن بان، وهي في غاية الظرف وحسن الهيئة، فأخذَتِ العود وأطربَتْ بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنَّ بَيْتَنَا يَضُمُّنَا وَإِيَّاكَ لَا تَدْنُو وَلَا تَتَكَلَّمُ
سِوَى أَعْيُنٍ تُبْدِي سَرَائِرَ أَنْفُسٍ وَتَقْطِيعَ أَكْبَادٍ عَلَى النَّارِ تُضْرَمُ
إِشَارَةُ أَلْحَاظٍ وَغَمْزُ حَوَاجِبٍ وَتَكْسِيرُ أَجْفَانٍ وَكَفٌّ تُسَلِّمُ

فهيجت بلابلي يا أمير المؤمنين وأخذني الطرب من فرط جمالها ورِقَّة شِعْرها الذي غنَّتْ به، فحسدتُها على حُسْن صنعتها وقلتُ: بقي عليكِ شيء يا جارية. فرمت العود من يدها غضبًا وقالتْ: متى كنتم تحضرون السفهاء في مجالسكم؟ فندمتُ على ما كان مني، ورأيت القوم قد أنكروا عليَّ، فقلت: قد فاتني جميع ما أملت ولم أَرَ حيلةً لدفع اللوم عني، إلا أنني طلبت عودًا وقلت: أنا أبيِّنُ ما فاتها من الطريقة التي ضربَتْ بها. فقال القوم: سمعًا وطاعة. ثم أحضروا لي عودًا، فأصلحتُ منه الأوتار وغنَّيْتُ بهذه الأشعار:

هَذَا مُحِبُّكِ مَطْوِيًّا عَلَى كَمَدِهْ صَبٌّ مَدَامِعُهُ تَجْرِي عَلَى جَسَدِهْ
لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمَنَ رَاجِيَةً آمَالَهُ وَيَدٌ أُخْرَى عَلَى كَبِدِهْ
يَا مَنْ يَرَى هَالِكًا مِنْ عِشْقِهِ تَلِفًا كَانَتْ مَنِيَّتُهُ مِنْ عَيْنِهِ وَيَدِهْ

فوثبَتِ الجارية وانكبَّتْ على رجلي تقبِّلها وقالت: المعذرة إليك يا سيدي، والله ما علمتُ بمكانك ولا سمعتُ بمثل هذه الصناعة. ثم أخذ القوم في إكرامي وتبجيلي بعدما طربوا غايةَ الطرب، وسألني كلٌّ منهم الغناء، فغنَّيْتُ نوبة مطربة، فصار القوم سكارى وذهبت عقولهم، فحُمِلوا إلى منازلهم وبقي صاحب المنزل هو والجارية، فشرب معي أقداحًا ثم قال: يا سيدي، ذهب عمري مجانًا حيث لم أعرف مثلك قبل ذلك الوقت، فبالله يا سيدي

مَن أنت حتى أعرف نديمي الذي مَنَّ الله عليَّ به في هذه الليلة؟ فأخذت أوري ولم أصرِّح له باسمي، وهو يقسم عليَّ فأعلمْتُه، فلما عرف اسمي وثب قائمًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إبراهيم بن المهدي قال: فلما عرف اسمي صاحب الدار وثب قائمًا على قدمَيْه وقال: عجبتُ من أن يكون هذا الفضل إلا لمثلك، ولقد أهدى الزمان إليَّ يدًا لا أقوم بشكرها، ولعل هذا منام وإلا فمتى طمعتُ أن تزورني الخلافة في منزلي وتنادمني ليلتي هذه؟ فأقسمت عليه أن يجلس فجلس وأخذ يسألني عن السبب في حضوري عنده بألطف معنى، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها وما سترت منها شيئًا، وقلت: أمَّا الطعام فقد نلتُ منه بغيتي، وأما الكف والمعصم فلم أَنَلْ مرادي منهما. فقال: والكف والمعصم تنال مرادك منهما إن شاء الله تعالى. ثم قال: يا فلانة، قولي لفلانة أن تنزل. ثم جعل يستدعي جواريه واحدة بعد واحدة، ويعرض الجميع عليَّ وأنا لا أرى صاحبتي إلى أن قال: والله يا سيدي ما بقي إلا أمي وأختي، ولكن والله لا بد من إنزالهما إليك وعرضهما عليك حتى تراهما. فعجبت من كرمه وسعة صدره، فقلت: جُعِلْتُ فداك فأبدا بالأخت. قال: حبًّا وكرامة. ثم نزلت أخته فأراني يدها، فإذا هي صاحبة الكف والمعصم اللذين رأيتهما، فقلت: جُعِلت فداك، هذه الجارية هي التي رأيتُ كفَّها ومعصمها. فأمر الغلمان أن يحضروا الشهودَ في الوقت والساعة، فأحضروا الشهود ثم أحضر بدرتين من الذهب وقال للشهود: هذا مولانا سيدي إبراهيم بن المهدي عم أمير المؤمنين، خطب أختي فلانة وأشهدكم أني قد زوَّجتُها له وقد أمهرها ببدرة. ثم قال: زوَّجْتُك أختي فلانة على المهر المسمَّى. فقلت: قبلتُ ذلك ورضيتُه. ثم دفع إحدى البدرتين إلى أخته، والأخرى إلى الشهود، ثم قال: يا مولانا، أريد أن أمهِّد لك بعض البيوت لتنام مع أهلك. فأحشمني ما رأيتُ من كرمه، واستحيت أن أخلو بها في داره، فقلت له: جهِّزْها إلى منزلي. فوحقِّكَ يا أمير المؤمنين لقد حمل إليَّ من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا مع سعتها، ثم أولدتها هذا الغلام القائم بين يدَيْك. فتعجَّبَ المأمون من كرم هذا الرجل وقال: لله دره،

ما سمعتُ قطُّ بمثله! وأمر إبراهيم بن المهدي بإحضار الرجل ليشاهده، فأحضره بين يديه واستنطقه، فأعجبه ظرفه وأدبه، فصيَّرَه من جملة خواصه، والله هو المعطي الوهَّاب.

حكايات الصدقة

ومما يُحكَى أن ملكًا من الملوك قال لأهل مملكته: لئن تصدَّق أحد منكم بشيء لأقطعن يده. فأسكت الناس جميعًا عن الصدقة، ولم يقدر أحد أن يتصدَّق على أحدٍ، فاتفق أن سائلًا جاء إلى امرأة يومًا من الأيام، وقد أضرَّ به الجوع وقال لها: تصدَّقِي عليَّ بشيء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل السائل قال للمرأة: تصدَّقِي عليَّ بشيء. فقالت: كيف أتصدَّق عليك والملك يقطع يدَ كلِّ مَن تصدَّق؟ فقال: اسألك بالله تعالى أن تتصدَّقِي عليَّ. فلما سألها بالله رقَّتْ له وتصدقت عليه برغيفين، فوصل الخبر إلى الملك فأمر فإحضارها، فلما حضرت قطع يديها وتوجهت إلى دارها، ثم إن الملك بعد حين قال لأمه: إني أريد الزواج فزوِّجيني امرأةً جميلة. قال: إن في جوارنا امرأة لم يوجد أحسن منها ولكن بها عيب شديد. قال: ما هو؟ قالت: مقطوعة اليدين. قال: أريد أن أنظرها. فأَتَتْ بها إليه، فلما نظرها افتتن بها، فتزوَّجَها ودخل بها، وكانت تلك المرأة هي التي تصدَّقت على السائل برغيفين وقطع يديها من أجل ذلك، فلما تزوَّجَ بها حسدها ضرائرها، وكتبن إلى الملك يخبرنه عنها بأنها فاجرة وقد ولدت غلامًا، فكتب الملك إلى أمه كتابًا وأمرها فيه أن تخرج بها إلى الصحراء وتتركها هناك ثم ترجع، ففعلت أمه ذلك وخرجت بها إلى الصحراء ثم رجعت، فصارت تلك المرأة تبكي على ما جرى لها، وتنتحب انتحابًا شديدًا ما عليه من مزيد، فبينما هي تمشي والولد على عنقها إذ مرَّتْ على نهر، فبركت لتشرب من شدة العطش الذي لحقها من مشيها وتعبها وحزنها، فعندما طأطأت سقط الولد في الماء، فجلست تبكي على ولدها بكاءً شديدًا، فبينما هي تبكي إذ مرَّ عليها رجلان فقالا لها: ما يُبكِيكِ؟ قالت لهما: كان لي ولد على عنقي فسقط في الماء. فقالا لها: أتحبين أن نُخرِجه لك؟ قالت: نعم. فدعَوَا الله تعالى فخرج الولد إليها سالمًا لم يُصِبه شيء. ثم قالَا لها: أتحبِّين أن يردَّ الله يدَيْك كما كانتا؟ قالت: نعم. فدعَوَا الله سبحانه وتعالى، فرجعت يداها أحسن مما كانتا عليه، ثم قالا لها: أتدرين مَن نحن؟ قالت: الله أعلم. قالا: نحن رغيفاك اللذان تصدَّقْتِ بنا على السائل، وكانت الصدقة سببًا لقطع يدَيْكِ، فاحمدي الله تعالى الذي ردَّ عليك يدَيْكِ وولدكِ. فحمدت الله تعالى وأثنت عليه.

ومما يُحكَى أنه كان في بني إسرائيل رجل عابد له عيال يغزلون القطن، فكان كل يوم يبيع الغزل ويشتري قطنًا، وما خرج من الكسب يشتري به طعامًا لعياله يأكلونه في ذلك اليوم، فخرج ذات يوم وباع الغزل، فلقيه أخ له فشكا إليه الحاجة، فدفع له ثمن الغزل ورجع إلى عياله من غير قطن ولا طعام، فقالوا له: أين القطن والطعام؟ فقال لهم: استقبلني فلان فشكا إليَّ الحاجةَ، فدفعت إليه ثمن الغزل. قالوا: وكيف نصنع وليس عندنا شيء نبيعه؟ وكان عندهم قصعة مكسورة وجرَّة، فذهب بهما إلى السوق فلم يشترهما أحدٌ منه، فبينما هو في السوق إذ مرَّ به رجل ومعه سمكة … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٤٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل أخذ القصعة والجرة وذهب بهما إلى السوق، فلم يشترهما أحدٌ منه، فبينما هو في السوق إذ مرَّ به رجل ومعه سمكة مُنتِنة منفوخة لم يشترها أحد منه، فقال له صاحب السمكة: أتبيعني كاسدك بكاسدي؟ قال: نعم. فدفع القصعة والجرة وأخذ منه السمكة وجاء بها إلى عياله، فقالوا له: ما تفعل بهذه السمكة؟ قال: نشويها ونأكلها إلى أن يشاء الله تعالى لنا برزقنا. فأخذوها وشقُّوا بطنها، فوجدوا فيه حبة لؤلؤ، فأخبروا بها الشيخ فقال: أنظروا إنْ كانت مثقوبةً فهي لبعض الناس، وإنْ كانت غير مثقوبة فإنها رزق رزقكم الله تعالى به. فنظروا فإذا هي غير مثقوبة، فلما أصبح الصباح غدا بها إلى بعض إخوانه من أصحاب المعرفة بذلك، فقال: يا فلان من أين لك هذه اللؤلؤة؟ قال: رزقٌ رزَقَنا الله تعالى به. قال: إنها تساوي ألف درهم، وأنا أعطي لك ذلك، ولكن اذهب بها إلى فلان فإنه أكثر مني مالًا ومعرفةً. فذهب بها إليه فقال: إنها تساوي سبعين ألف درهم لا أكثر من ذلك. ثم دفع له سبعين ألف درهم، ودعا بالحمَّالين فحملوا له المال حتى وصل إلى باب منزله، فجاءه سائل وقال له: أعطني مما أعطاك الله تعالى. فقال للسائل: قد كنَّا بالأمس مثلك، خذ نصف هذا المال. فلما قسم المال شطرَيْن وأخذ كل واحد شطره، قال له السائل: أمسِكْ عليك مالك وخذه بارك الله لك فيه، وإنما أنا رسول ربك، بعثني إليك لأختبرك. فقال: لله الحمد والمنة. وما زال في أرغد عيش هو وعياله إلى الممات.

حكاية أبي حسان الزيادي والخراساني

ومما يُحكَى أن أبا حسان الزيادي قال: ضاق عليَّ الحال في بعض الأيام ضيقًا شديدًا، حتى إنه قد ألَحَّ عليَّ البقالُ والخباز وسائر المعاملين، فاشتدَّ عليَّ الكربُ ولم أجد لي حيلةً،

فبينما أنا على تلك الحالة لا أدري كيف أصنع؟ إذ دخل عليَّ غلام لي فقال: إن بالباب رجلًا حاجيًا يطلب الدخول عليك. فقلت: ائذن له. فدخل فإذا هو رجل خراساني، فسلَّمَ عليَّ، فرددتُ عليه السلام، ثم قال لي: هل أنت أبو حسان الزيادي؟ قلت: نعم، وما حاجتك؟ قال: إني رجل غريب، وأريد الحج، ومعي جملة من المال، وإنه قد أثقَلَني حمله، وأريد أن أدع عندك هذه العشرة آلاف درهم إلى أن أقضي حجي وأرجع، فإن رجع الركب ولم ترني، فاعلم أنني قد متُّ، فالمال هبة مني إليك، وإن رجعتُ فهي لي. فقلت له: لك ذلك إن شاء الله تعالى. فأخرَجَ جرابًا، فقلت للغلام: ائتني بميزان. فأتى بميزان فوزنها وسلَّمَها إليَّ وذهب إلى حال سبيله، فأحضرت المعاملين وقضيتُ ديني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا حسان الزيادي قال: أحضرت المعاملين وقضيتُ ما كان عليَّ من الدَّيْن، وأنفقت واتسعت وقلت في نفسي: إلى أن يرجع يفتح الله علينا بشيء من عنده. فلما كان بعد يوم دخل الغلام عليَّ وقال لي: إن صاحبك الخراساني بالباب. فقلت: ائذن له. فدخل ثم قال: إني كنتُ عازمًا على الحج، فجاءني خبرٌ بوفاة والدي، وقد عزمتُ على الرجوع فأعطني المالَ الذي أودعتُكَ إياه بالأمس. فلما سمعتُ منه هذا الكلام، حصل لي همٌّ عظيم لم يحصل لأحد مثله قط، وتحيَّرْتُ فلم أرد جوابًا، فإن جحدته استحلفني وكانت الفضيحة في الآخرة، وإن أخبرته بالتصرُّف فيه صاح وهتكني، فقلت له: عافاكَ الله، إن منزلي هذا ليس بحصين ولا حرز لذلك المال، وإني لما أخذتُ جرابك أرسلته إلى مَن هو عنده الآن، فعُدْ علينا في الغد لتأخذه إن شاء الله تعالى. فانصرف عني وبتُّ متحيِّرًا من أجل رجوع الخراساني إليَّ، فلم يأخذني نوم في تلك الليلة ولم أقدر على غمض عيني، فقمت للغلام وقلت له: أسرِجْ لي البغلة. قال: يا مولاي، إن هذا الوقت عتمة، ولم يمضِ من الليل شيء. فرجعتُ إلى فراشي فإذا النون ممتنع، فلم أزل أوقِظُ الغلام وهو يردُّني حتى طلع الفجر، فأسرج لي البغلة، فركبت وأنا لا أدري أين أذهب، فطرحت عنان على عاتقها وصرت مشغولًا بالفكر والهموم، وهي تسير إلى الجانب الشرقي من بغداد.

فبينما أنا سائر وإذا أنا بقوم قد رأيتهم، فانحرفت عنهم وعدلت عن طريقهم إلى طريق أخرى فتبعوني، فلما رأوني بطيلسان تبادروا إليَّ وقالوا لي: أتعرف منزل أبي حسان الزيادي؟ فقلتُ لهم: هو أنا. قالوا: أَجِبْ أميرَ المؤمنين. فسِرْتُ معهم حتى دخلت على المأمون، فقال لي: مَن أنت؟ قلت: رجل من أصحاب القاضي أبي يوسف، من الفقهاء وأصحاب الحديث. فقال: بأي شيء تُكنَّى؟ قلت: بأبي حسان الزيادي. قال: اشرح لي قصتك. فشرحتُ له خبري، فبكى بكاءً شديدًا وقال: ويحك، ما تركني رسول الله ﷺ

أنام في هذه الليلة بسببك. فإني لما نمتُ أول الليل قال لي: أَغِثْ أبا حسان الزيادي. فانتبهتُ ولم أعرفك، ثم نمتُ فأتاني وقال لي: ويحك! أَغِثْ أبا حسان الزيادي. فانتبهتُ ولم أعرفك، ثم نمت فأتاني وقال لي: ويحك! أغث أبا حسان الزيادي. فما تجاسرتُ على النوم بعد ذلك، وسهرت الليل كله وقد أيقظت الناس وأرسلتهم في طلبك من كل جانب. ثم أعطاني عشرة آلاف درهم وقال: هذه للخراساني. ثم أعطاني عشرة آلاف درهم وقال: اتسع بهذه وأصلح بها أمرك. ثم أعطاني ثلاثين ألف درهم وقال: جهِّزْ نفسك بهذه، وإذا كان يوم الموكب فَائْتِني حتى أقلِّدَك عملًا. فخرجت والمال معي، فجئتُ إلى منزلي فصليتُ فيه الغداة، وإذا بالخراساني قد حضر. فأدخلتُه البيتَ وأخرجتُ له بدرة وقلت له: هذا مالك. قال: ليس هذا عين مالي. فقلت: نعم. فقال: ما سبب هذا؟ فقصصتُ عليه القصة، فبكى وقال: والله لو أصدَقْتَني من أول الأمر ما طالبتُكَ، وأنا الآن والله لا أقبل شيئًا.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخراساني قال للزيادي: والله لو أصدقتني من أول الأمر ما طالبتك، وأنا الآن والله لا أقبل شيئًا من هذا المال، وأنت في حلٍّ منه. وانصرف من عندي، ثم أصلحت أمري وذهبت في يوم الموكب إلى باب المأمون، فدخلت عليه وهو جالس، فلما مَثُلْتُ بين يدَيْه استدناني وأخرج لي عهدًا من تحت مصلاه وقال: هذا عهد بقضاء المدينة الشريفة من الجانب الغربي من باب السلام إلى ما لا نهايةَ له، وقد أجريتُ لك كذا وكذا في كل شهر. فاتقِّ الله عزَّ وجل وحافِظْ على عناية رسول الله ﷺ بك. فتعجَّبَ الناس من كلامه وسألوني عن معناه، فأخبرتهم بالقصة من أولها إلى آخرها، فشاع الخبر بين الناس، وما زال أبو حسان الزيادي قاضيًا في المدينة الشريفة إلى أن مات في أيام المأمون، رحمة الله عليه.

حكاية الصديق عند الضيق

ومما يُحكَى أن رجلًا كان ذا مال كثير، ففقد منه وصار لا يملك شيئًا، فأشارت عليه زوجته أن يقصد بعض أصدقائه فيما يُصلِح به حاله، فقصد صديقًا له وذكر له ضرورته له، فأقرضه خمسمائة دينار على أنه يتجر فيها، وكان في ابتداء حاله جوهريًّا، فأخذ الذهب ومضى إلى سوق الجواهر وفتح دكانه ليشتري ويبيع، فلما قعد في الدكان أتاه ثلاثة رجال وسألوه عن والده، فذكر لهم وفاته، فقالوا له: هل خلف أحدًا من الذرية؟ قال: خلف العبد الذي بين أيديكم. قالوا: مَن يعرف أنك ولده؟ قال: أهل السوق. فقالوا له: اجمعهم حتى يشهدوا أنك ولده. فجمعهم وشهدوا بذلك، فأخرج الثلاثة رجال خُرْجًا فيه مقدار ثلاثين ألف دينار، وفيه جواهر ومعادن ثمينة، وقالوا: هذا كان عندنا أمانة

لأبيك. ثم انصرفوا، فأتته امرأة وطلبت منه شيئًا من ذلك الجوهر يساوي خمسمائة دينار، فاشترته منه بثلاثة آلاف دينار فباعه لها، ثم قام وأخذ الخمسمائة دينار التي كان اقترضها من صديقه وحملها إليه وقال له: خذ الخمسمائة دينار التي اقترضتُها منك، فقد فتح الله عليَّ ويسَّرَ لي. فقال له صديقه: إني أعطيتك إياها وخرجت عنها لله، فخذها وخذ هذه الورقة ولا تقرأها إلا وأنت في دارك، واعمل بما فيها. فأخذ المال والورقة وذهب إلى بيته، فلما فتحها وجد مكتوبًا فيها هذه الأبيات:

إِنَّ الرِّجَالَ الْأُولَى جَاءُوكَ مِنْ نَسَبِي ... أَبِي وَعَمِّي وَخَالِي صَالِحُ بْنُ عَلِي
كَذَاكَ مَا بِعْتُهُ نَقْدًا لِوَالِدَتِي ... الْمَالَ وَالْجَوْهَرَ الْمَبْعُوثَ مِنْ قِبَلِي
وَمَا أَرَدْتُ بِهَذَا مِنْكَ مَنْقَصَةً ... لَكِنْ لَأَكْفِيكَ مِنِّي وَرْطَةَ الْخَجَلِ

حكاية إفلاس رجل من بغداد

ومما يُحكَى أنَّ رجلًا من بغداد كان صاحب نعمة وافرة ومال كثير، فنفد ماله وتغيَّرَ حاله وصار لا يملك شيئًا، ولا ينال قُوتَه إلا بجهد جهيد، فنام ذات ليلة وهو مغمور مقهور، فرأى في منامه قائلًا يقول له: إن رزقك بمصر فاتبعه وتوجَّهْ إليه. فسافَرَ إلى مصر، فلما وصل إليها أدركه المساء فنام في مسجد، وكان بجوار المسجد بيت، فقدَّرَ الله تعالى أن جماعة من اللصوص دخلوا المسجد وتوصَّلوا منه إلى ذلك البيت، فانتبه أهل البيت على حركة اللصوص وقاموا بالصياح، فأغاثهم الوالي بأتباعه فهرب اللصوص، ودخل الوالي المسجد فوجد الرجل البغدادي نائمًا في المسجد، فقبض عليه وضربه بالمقارع ضربًا مؤلمًا حتى أشرف على الهلاك وسجنه، فمكث ثلاثة أيام في السجن، ثم أحضره الوالي وقال له: من أي البلاد أنت؟ قال: من بغداد. قال له: وما حاجتك التي هي سبب في مجيئك إلى مصر؟ قال: إني رأيت في منامي قائلًا يقول لي: إن رزقك بمصر فتوجَّهْ إليه. فلما جئتُ إلى مصر وجدتُ الرزقَ الذي أخبرني به؛ تلك المقارع التي نلتُها منك. فضحك الوالي حتى بدت نواجذه وقال له: يا قليل العقل، أنا رأيتُ ثلاثَ مرات في منامي قائلًا يقول لي: إن بيتًا في بغداد بخط كذا ووصفه كذا، بحوشه جنينة تحتها فسقية بها مال له جرم عظيم، فتوجَّهْ إليه وخذه، فلم أتوجَّهْ، وأنت من قلة عقلك سافرتَ من بلدة إلى بلدة من أجل رؤيا رأيتَها وهي أضغاث أحلام. ثم أعطاه دراهم وقال له: استعِنْ بها على عودك إلى بلدك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوالي أعطى البغدادي دراهم وقال له: استعِنْ بها على عودك إلى بلدك. فأخذها وعاد إلى بغداد، وكان البيت الذي وصفه الوالي ببغداد هو بيت ذلك الرجل، فلما وصل إلى منزله حفر تحت الفسقية، فرأى مالًا كثيرًا ووسَّعَ الله عليه رزقَه، وهذا اتفاق عجيب.

حكاية المتوكِّل ومحبوبة

ومما يُحكَى أنه كان في قصر أمير المؤمنين المتوكِّل على الله أربعة آلاف سرية؛ مائتان روميات، ومائتان مولدات وحبش، وقد أهدى عبيد بن طاهر إلى المتوكل أربعمائة جارية؛ مائتان بيض، ومئتان حبش ومولدات، وكان من جملة ذلك جاريةٌ من مولدات البصرة يقال لها محبوبة، وكانت فائقة في الحُسْن والجمال والظرف والدلال، وكانت تضرب بالعود وتُحسِن الغناء وتنظم الشعر وتكتب خطًّا جيدًا، فافتتن بها المتوكل وكان لا يصبر عنها ساعة واحدة، فلما رأت ميله إليها تكبَّرَتْ عليه وبطرت النعمة، فغضب عليها غضبًا شديدًا وهجرها، ومنع أهل القصر من كلامها، فمكثت على ذلك أيامًا، وكان المتوكل له ميل إليها، فأصبح ذات يوم وقال لجلسائه: إني رأيت في هذه الليلة في منامي كأني صالَحْتُ محبوبة. فقالوا له: نرجو من الله تعالى أن يكون ذلك يقظة. فبينما هو في الكلام وإذا بخادمة قد أقبلت وأسَرَّتْ إلى المتوكل حديثًا، فقام من المجلس ودخل دار الحريم. وكان الذي أَسَرَّتْه إليه أنها قالت له: سمعنا من حجرة محبوبة غناءً وضربًا بالعود، وما ندري

سبب ذلك. فلما وصل إلى حجرتها سمعها تغني على العود، وتُحسِن الضربات وتنشد هذه الأبيات:

أَدُورُ فِي الْقَصْرِ لَا أَرَى أَحَدًا   أَشْكُو إِلَيْهِ وَلَا يُكَلِّمُنِي
حَتَّى كَأَنِّي ارْتَكَبْتُ مَعْصِيَةً   لَيْسَ لَهَا تَوْبَةٌ تُخَلِّصُنِي
فَهَلْ لَنَا شَافِعٌ إِلَى مَلِكٍ   قَدْ زَارَنِي فِي الْكَرَى وَصَالَحَنِي
حَتَّى إِذَا مَا الصَّبَاحُ لَاحَ لَنَا   عَادَ إِلَى هَجْرِهِ وَقَاطَعَنِي

فلما سمع المتوكل كلامها، تعجَّبَ من هذه الأبيات ومن هذا الاتفاق الغريب؛ حيث رأت محبوبة منامًا موافِقًا لمنامه، فدخل عليها في الحجرة، فلما دخل حجرتها وأَحَسَّتْ به، بادرت بالقيام إليه وانكَبَّتْ على أقدامه وقبَّلَتْها وقالت: والله يا سيدي، لقد رأيتُ هذه الواقعة في منامي ليلةَ البارحة، فلما انتبهت من النوم نظمت هذه الأبيات. فقال لها المتوكل: والله إني رأيتُ منامًا مثل ذلك. ثم إنهما تعانَقَا واصطلحَا، وأقام عندها سبعة أيام بلياليها، وكانت محبوبة قد كتبت على خدها بالمسك اسم المتوكل، وكان اسمه جعفر، فلما رأى المتوكل اسمه مكتوبًا بأعلى خدِّها بالمسك، أنشد يقول:

وَكَاتِبَةٍ بِالْمِسْكِ فِي الْخَدِّ جَعْفَرَا   بِنَفْسِي مَنْ قَدْ خَطَّ فِي الْخَدِّ مَا أَرَى
لَئِنْ كَتَبَتْ فِي الْخَدِّ سَطْرًا بَنَانُهَا   لَقَدْ أَوْدَعَتْ قَلْبِي مِنَ الْخَطِّ أَسْطُرَا
فَيَا مَنْ هَدَاهَا فِي الْبَرِيَّةِ جَعْفَرٌ   سَقَى اللهُ مِنْ سُقْيَا شَرَابِكِ جَعْفَرَا

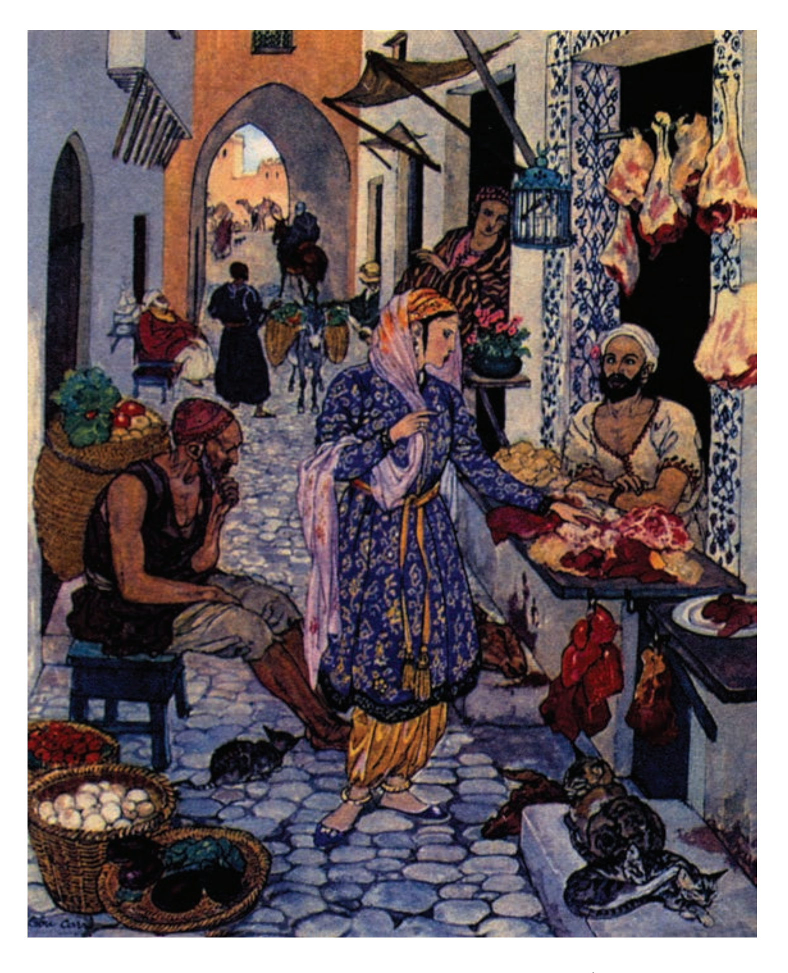
ولما مات المتوكل، سلاه جميع مَن كان له من الجواري إلا محبوبة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه لما مات المتوكل، سلاه جميع مَن كان له من الجواري إلا محبوبة، فإنها لم تزل حزينة عليه حتى ماتت ودُفِنت بجانبه رحمة الله عليهم أجمعين.

حكاية وردان الجزار والمرأة والدب

ومما يُحكَى أنه كان في زمن الحاكم بأمر الله رجل بمصر يُسمَّى وردان، وكان جزَّارًا في اللحم الضاني، وكانت امرأة تأتيه كل يوم بدينار يقارب وزنُه وزنَ دينارين ونصف من الدنانير المصرية، وتقول له: أعطني خروفًا. وتُحضِر معها حمَّالًا بقفص، فيأخذ منها الدينار ويعطيها خروفًا، فتحمله إلى الحمال وتأخذه وتروح به إلى مكانها، وفي ثاني يوم وقت الضحى تأتي. وكان ذلك الجزار يكتسب منها كل يوم دينارًا، وأقامت مدة طويلة على ذلك؛ فتفكَّر وردان الجزَّار ذات يوم في أمرها، وقال في نفسه: هذه المرأة كل يوم تشتري مني بدينار، ولم تغلط يومًا واحدًا، وتشتري مني بدراهم، فهذا أمر عجيب. ثم إن وردان سأل الحمال في غيبة المرأة فقال له: إلى أين تروح كل يوم مع هذه المرأة؟ فقال له: أنا في غاية العجب منها؛ فإنها كل يوم تحمِّلني الخروف من عندك، وتشتري حوائج الطعام والفاكهة والشمع والنقل بدينار آخَر، وتأخذ من شخص نصراني مروقتين نبيذًا وتعطيه دينارًا، وتحمِّلني الجميع وأسير معها إلى بساتين الوزير، ثم تعصب عيني بحيث إني لا أنظر موضعًا من الأرض أحطُّ فيه قدمي، وتأخذ بيدي فما أعرف أين تذهب بي، ثم تقول: حطَّ هنا. وعندها قفص آخَر فتعطيني الفارغ، ثم تمسك يدي وتعود بي إلى الموضع الذي شدَّتْ عينيَّ فيه بالعصابة، فتحلها وتعطيني عشرة دراهم. فقال له



وكانت امرأةٌ تأتيه كلَّ يومٍ بدينارٍ يُقارِب وزنُه وزنَ دينارَين ونصف.

الجزار: الله يكون في عونها. ولكن ازداد فكرًا في أمرها، وكثرت عنده الوساوس، وبات في قلق عظيم. ثم قال وردان الجزار: فلما أصبحتُ أتتني على العادة، وأعطتني الدينار، وأخذت الخروف وحملته إلى الحمال وراحت؛ فأوصيت صبيِّي على الدكان وتبعتها بحيث لا تراني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن وردان الجزار قال: فأوصيت صبيي على الدكان، وتبعتها بحيث لا تراني، ولم أزل أعاينها إلى أن خرجَتْ من مصر، وأنا أتوارى خلفها حتى وصلت إلى بساتين الوزير، فاختفيت حتى عصبت عينَيِ الحمال، وتبعتها من مكان إلى مكان إلى أن أتت الجبل، فوصلَتْ إلى مكان فيه حجر كبير، وحطَّتِ القفصَ عن الحمال، فصبرتُ إلى أن عادت بالحمال ورجعَتْ ونزعَتْ جميعَ ما كان في القفص وغابت ساعة، فأتيتُ إلى ذلك الحجر فزحزحته ودخلت، فوجدت خلفه طابقًا من نحاس مفتوحًا ودَرَجًا نازلة، فنزلت في تلك الدَّرَج قليلًا قليلًا حتى وصلت إلى دهليز طويل كثير النور، فمشيت فيه حتى رأيت هيئةَ باب قاعة، فارتكنت في زوايا الباب، فوجدتُ صفة بها سلالم خارج باب القاعة، فتعلقت فيها فوجدت صفة صغيرة بها طاقة تشرف على قاعة، فنظرت في القاعة فوجدت المرأة قد أخذت الخروف، وقطعت منه مطايبه، وعملته في قِدْر، ورمت الباقي إلى دبٍّ كبير عظيم الخلقة، فأكله عن آخره وهي تطبخ، فلما فرغت أكلت كفايتها، ووضعت الفاكهة والنقل، وحطت النبيذ، وصارت تشرب بقدح وتسقي الدب بطاسة من ذهب، حتى حصل لهما نشوة السُّكْر، فنزعت لباسها ونامت، فقام الدب وواقَعَها وهي تعاطيه من أحسن ما يكون لبني آدم حتى فرغ وجلس، ثم وثب إليها وواقَعَها، ولما فرغ جلس واستراح، ولم يزل كذلك حتى فعل ذلك عشر مرات، ثم وقع كلٌّ منهما مغشيًّا عليه، وصارا لا يتحركان، فقلت في نفسي: هذا وقت انتهاز الفرصة، فنزلت ومعي سكين تبري العظم قبل اللحم، فلما صرت عندهما وجدتهما لا يتحرك فيهما عرق لما حصل لهما من المشقة، فجعلت السكين في منحر الدب واتكأت عليه حتى خلَّصته، وانعزلت رأسه عن بدنه، فصار له شخير عظيم مثل الرعد، فانتبهت المرأة مرعوبة، فلما رأت الدبَّ مذبوحًا وأنا واقف والسكين في يدي، زعقت زعقة عظيمة حتى ظننتُ أن روحها قد خرجت،

وقالت لي: يا وردان، أيكون هذا جزاء الإحسان؟ فقلت لها: يا عدوة نفسها، هل عُدِمت الرجال حتى تفعلي هذا الفعل الذميم؟ فأطرقت رأسها إلى الأرض لا ترد جوابًا، وتأمَّلت الدبَّ وقد نُزِعت رأسه عن جثته، ثم قالت: يا وردان، أي شيء أحبُّ إليك؛ أن تسمع الذي أقوله لك ويكون سببًا لسلامتك … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة قالت: يا وردان، أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؛ أن تسمع الذي أقوله لك ويكون سببًا لسلامتك وغناك إلى آخر الدهر، أم تخالفني ويكون سببًا لهلاكك؟ قلتُ: أختار أن أسمع كلامك، فحدِّثيني بما شئتِ. فقالت: اذبحني كما ذبحتَ هذا الدبَّ، وخذ من هذا الكنز حاجتك، وتوجَّه إلى حال سبيلك. فقلت لها: أنا خير من هذا الدب، فارجعي إلى الله تعالى وتوبي وأتزوَّج بك، ونعيش باقي عمرنا بهذا الكنز. قالت: يا وردان، إن هذا بعيد، كيف أعيش بعده؟ والله إن لم تذبحني لأتلفنَّ روحك، فلا تراجعني تتلف، وهذا ما عندي من الرأي، والسلام. فقلتُ: أذبحك وتروحين إلى لعنة الله. ثم جذبتها من شعرها وذبحتها وراحت إلى لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وبعد ذلك نظرت في المحل فوجدت فيه من الذهب والفصوص واللؤلؤ ما لا يقدر على جمعه أحدٌ من الملوك، فأخذتُ قفص الحمال وملأته على قدر ما أطيق، ثم سترته بقماشي الذي كان عليَّ وحملته، وطلعت من الكنز وسرت، ولم أزل سائرًا إلى باب مصر، وإذا بعشرة من جماعة الحاكم بأمر الله مُقبِلون، والحاكم خلفهم، فقال لي: يا وردان. قلت: لبيك أيها الملك. قال: هل قتلتَ الدبَّ والمرأة؟ قلتُ: نعم. قال: حطَّ عن رأسك، وطِبْ نفسًا، فجميع ما معك من المال لك لا ينازعك فيه أحد. فحططتُ القفصَ بين يديه، فكشفه ورآه وقال: حدِّثني بخبرهما، وإن كنت أعرفه كأنني حاضر معكم. فحدَّثته بجميع ما جرى وهو يقول: صدقتَ. فقال: يا وردان، قُمْ سِرْ بنا إلى الكنز. فتوجَّهْتُ معه إليه، فوجد الطابق مغلقًا، فقال: ارفعه يا وردان، فإن هذا الكنز لا يقدر أحد أن يفتحه غيرك، فإنه مرصود باسمك وصفتك. فقلت: والله لا أطيق فتحه. فقال: تقدَّمْ أنت على بركة الله. فتقدَّمْتُ إليه وسمَّيْتُ الله تعالى، ومددت يدي إلى الطابق فارتفع كأنه أخف ما يكون، فقال الحاكم: انزل وأطلع ما فيه، فإنه لا ينزله إلا مَن هو باسمك وصورتك وصفاتك من حين وُضِع، وقَتْل هذا

الدب وهذه المرأة على يديك وهو عندي مؤرَّخ، وكنتُ أنتظر وقوعَه حتى وقع. قال وردان: فنزلت ونقلت له جميع ما في الكنز، ثم دعا بالدواب وحمله، وأعطاني قفصي بما فيه، فأخذته وعدتُ إلى بيتي، وفتحتُ لي دكانًا في السوق، وهذا السوق موجود إلى الآن، ويُعرَف بسوق وردان.

حكاية بنت السلطان والقرد

ومما يُحكَى أيضًا أنه كان لبعض السلاطين ابنة، وقد تعلَّق قلبها بحبِّ عبد أسود، فافتض بكارتها، وأُولِعت بالنكاح، فكانت لا تصبر عنه ساعة واحدة، فشكت أمرها إلى بعض القهرمانات، فأخبرتها أنه لا شيء ينكح أكثر من القرد. فاتفق أن قرَّادًا مرَّ تحت طاقتها بقرد كبير، فأسفرت عن وجهها ونظرت إلى القرد وغمزته بعيونها، فقطع القرد وثاقه وسلاسله وطلع لها، فخبَّأته في مكان عندها، وصار ليلًا ونهارًا على أكل وشرب وجماع، ففطن أبوها بذلك وأراد قتلها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السلطان لما فطن بأمر ابنته، وأراد قتلها شعرت بذلك؛ فتزيَّت بزيِّ المماليك وركبت فرسًا، وأخذت لها بغلًا وحمَّلته من الذهب والمعدن والقماش ما لا يُوصَف، وحملت القرد معها، وسارت حتى وصلت إلى مصر، فنزلت في بعض بيوت الصحراء، وصارت كل يوم تشتري لحمًا من شاب جزار، ولكن لا تأتيه إلا بعد الظهر وهي مصفرة اللون متغيِّرة الوجه، فقال الشاب في نفسه: لا بد لهذا المملوك من سبب عجيب. فلما جاءت على العادة وأخذت اللحم تَبِعها من حيث لا تراه، قال: ولم أزل خلفها من حيث لا تراني من محل إلى محل حتى وصلَتْ إلى مكانها الذي بالصحراء ودخلت هناك، فنظرتُ إليها من بعض جهاته فرأيتها استقرت بمكانها، وأوقدت النار، وطبخت اللحم وأكلت كفايتها، وقدَّمت باقيه إلى القرد الذي معها فأكل كفايته، ثم إنها نزعت ما عليها من الثياب ولبست أفخر ما عندها من ملابس النساء، فعلمتُ أنها أنثى، ثم إنها أحضرت خمرًا وشربت منه، وسقت القرد، ثم واقَعَها القرد نحو عشر مرات حتى غُشِي عليها، وبعد ذلك نشر القرد عليها ملاءة من حرير، وراح إلى محله؛ فنزلتُ إلى وسط المكان فأحَسَّ بي القرد وأراد افتراسي، فبادرتُه بسكين كانت معي فضربتُ بها كرشه، فانتبهت الصبية فَزِعة مرعوبة، فرأت القرد على هذه الحالة؛ فصرخت صرخة عظيمة حتى كادت أن تزهق روحها، ثم وقعت مغشيًّا عليها، فلما أفاقت من غشيتها قالت لي: ما حملك على ذلك؟ ولكن بالله عليك أن تُلحِقني به. فلا زلت ألاطفها، وأضمن لها أني أقوم بما قام به القرد من كثرة النكاح إلى أن سكن روعها، وتزوَّجْتُ بها، فعجزت عن ذلك ولم أصبر عليه؛ فشكوت حالي إلى بعض العجائز، وذكرتُ لها ما كان من أمرها، فالتزمت لي بتدبير هذا الأمر، وقالت لي: لا بد أن تأتيني بقِدْر وتملأه من الخل البكر، وتأتيني بقَدر رطل من العود القرح. فأتيتُ لها بما طلبته، فوضعته في القِدر ووضعت القِدر على النار، وغلته

غليانًا قويًّا، ثم أمرتني بنكاح الصبية، فنكحتُها إلى أن غُشِي عليها، فحملتها العجوز وهي لا تشعر، وألقت فرجها على فم القدر، فصعد دخانه حتى دخل فرجها، فنزل من فرجها شيء، فتأمَّلْتُه فإذا هو دودتان؛ إحداهما سوداء، والأخرى صفراء، فقالت العجوز: الأولى تربَّتْ من نكاح العبد، والثانية تربَّتْ من نكاح القرد. فلما أفاقت من غشيتها استمرت معي وهي لم تطلب النكاح، وقد صرف الله عنها تلك الحالة، وتعجَّبَتْ من ذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب قال: وقد صرف الله عنها تلك الحالة، وتعجَّبَتْ من ذلك، فأخبرتها بالقصة. واستمرت معه في أرغد عيش وأحسن لذة، واتخذت عندها العجوز مكان والدتها، وما زالت هي وزوجها والعجوز في هناء وسرور إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرِّق الجماعات؛ فسبحان الحي الذي لا يموت، وبيده الملك والملكوت.

حكاية الفرس الطائر

ومما يُحكَى أنه كان في قديم الزمان ملك عظيم ذو خطر جسيم، وكان له ثلاث بنات مثل البدور السافرة، والرياض الزاهرة، وولد ذكر كأنه القمر. فبينما الملك جالس على كرسي مملكته يومًا من الأيام إذ دخل عليه ثلاثة من الحكماء، مع أحدهم طاوس من ذهب، ومع الثاني بوق من نحاس، ومع الثالث فرس من عاج وأبنوس، فقال لهم الملك: ما هذه الأشياء؟ وما منفعتها؟ فقال صاحب الطاوس: إن منفعة هذا الطاوس أنه كلما مضت ساعة من ليل أو نهار يصفِّق بأجنحته ويزعق. وقال صاحب البوق: إنه إذا وضع هذا البوق على باب المدينة يكون كالمحافظ عليها، فإذا دخل إلى تلك المدينة عدوٌّ، يزعق عليه هذا البوق فيُعرَف ويُمسَك باليد. وقال صاحب الفرس: يا مولاي، إن منفعة هذه الفرس أنه إذا ركبها إنسان فإنها توصله إلى أي بلاد أراد. فقال الملك: لا أنعم عليكم حتى أجرِّب منافع هذه الصور. ثم إنه جرَّب الطاوس فوجده كما قال صاحبه، وجرَّب البوق فوجده كما قال صاحبه، فقال الملك للحكيمين: تمنَّيَا عليَّ. فقالَا: نتمنَّى عليك أن تزوِّج كل واحد منَّا بنتًا من بناتك. فأنعم الملك عليهما ببنتين من بناته، ثم تقدَّم الحكيم الثالث صاحب الفرس، وقبَّل الأرض بين يدي الملك وقال له: يا ملك الزمان، أَنعِم عليَّ كما أنعمت على



ومما يُحكى أنه كان في قديم الزمان مِلكٌ عظيمٌ ذو خطرٍ جسيم.

أصحابي. فقال له الملك: حتى أجرِّب ما أتيتَ به. فعند ذلك تقدَّمَ ابن الملك وقال: يا والدي، أنا أركب هذه الفرس وأجرِّبها وأختبر منفعتها. فقال الملك: يا ولدي، جرِّبها كما تحب. فقام ابن الملك وركب الفرس وحرَّك رجليه، فلم تتحرك من مكانها. فقال: يا حكيم، أين الذي ادَّعَيْتَه من سرعة سيرها؟ فعند ذلك جاء الحكيم إلى ابن الملك، وأراه لولب الصعود، وقال له: افرك هذا اللولب. ففركه ابن الملك، وإذا بالفرس قد تحرَّكَ، وطار بابن الملك إلى عنان السماء، ولم يزل طائرًا به حتى غاب عن الأعين، فعند ذلك احتار ابن الملك في أمره،

وندم على ركوبه الفرس، ثم قال: إن الحكيم قد عمل حيلةً على هلاكي، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم إنه جعل يتأمل في جميع أعضاء الفرس، فبينما هو يتأمل فيها إذ نظر إلى شيءٍ مثل رأس الديك على كتف الفرس الأيمن، وكذلك الأيسر، فقال ابن الملك: ما أرى فيه أثرًا غير هذين الزِّرَّين. ففرك الزر الذي على الكتف الأيمن، فازدادت به الفرس سيرًا طالعة إلى الجو فتركه، ثم نظر إلى الكتف الأيسر فرأى ذلك الزرَّ ففركه، فتناقصت حركات الفرس من الصعود إلى الهبوط، ولم تزل هابطة به إلى الأرض قليلًا قليلًا، وهو محترس على نفسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك لما فرك الزر الأيسر تناقصت حركات الفرس من الصعود إلى الهبوط، ولم تزل هابطة به إلى الأرض قليلًا قليلًا، وهو محترس على نفسه، فلما نظر ابن الملك ذلك وعرف منافع الفرس، امتلأ قلبه فرحًا وسرورًا، وشكر الله تعالى على ما أنعَمَ به عليه حيث أنقذه من الهلاك، ولم يزل هابطًا طول نهاره؛ لأنه كان في حال صعوده بعدت عنه الأرض، وجعل يدوِّر وجه الفرس كما يريد وهي هابطة به، وإذا شاء نزل بها، وإذا شاء طلع بها. فلما تمَّ له من الفرس ما يريد، أقبل بها إلى جهة الأرض، وصار ينظر إلى ما فيها من البلاد والمدن التي لا يعرفها؛ لأنه لم يرها طول عمره، وكان من جملة ما رآه مدينة مبنية بأحسن البنيان، وهي في وسط أرض خضراء ناضرة ذات أشجار وأنهار، فتفكَّرَ في نفسه وقال: يا ليت شعري! ما اسم هذه المدينة؟ وفي أي الأقاليم هي؟ ثم إنه جعل يطوف حول تلك المدينة ويتأملها يمينًا وشمالًا، وكان النهار قد ولى، ودنت الشمس للمغيب، فقال في نفسه: إني لا أجد موضعًا للمبيت أحسن من هذه المدينة، فأنا أبيت فيها هذه الليلة، وعند الصباح أتوجه إلى أهلي ومحل ملكي، وأُعلِم أهلي ووالدي بما جرى لي، وأخبره بما نظرت عيناي. وصار يفتش على موضع يأمن فيه على نفسه وعلى فرسه، ولا يراه أحد.

فبينما هو كذلك، وإذا به قد نظر في وسط المدينة قصرًا شاهقًا في الهواء، وقد أحاط بذلك القصر سور متَّسِع بشرافات عاليات، فقال ابن الملك في نفسه: إن هذا الموضع مليح. وجعل يحرك الزر الذي يهبط به الفرس، ولم يزل هابطًا به حتى نزل مستويًا على سطح القصر، ثم نزل من فوق الفرس، وحمد الله تعالى، وجعل يدور حول الفرس ويتأمَّلها ويقول: والله إن الذي عملك بهذه الصفة لحكيم ماهر، فإنْ مدَّ الله تعالى في أجلي وردَّني إلى بلادي وأهلي سالِمًا، وجمع بيني وبين والدي؛ لَأُحسِننَّ إلى هذا الحكيم كل الإحسان،

ولأنعِمنَّ عليه غاية الإنعام. ثم جلس فوق سطح القصر حتى علم أن الناس قد ناموا، وكان قد أضرَّ به الجوع والعطش؛ لأنه منذ فارق والده لم يأكل طعامًا، فقال في نفسه: إن مثل هذا القصر لا يخلو من الرزق. فترك الفرس في مكان ونزل يتمشى لينظر شيئًا يأكله، فوجد سُلَّمًا فنزل منه إلى أسفل، فوجد ساحة مفروشة بالرخام؛ فتعجَّبَ من ذلك المكان ومن حُسْن بنيانه، ولكنه لم يجد في ذلك القصر حسَّ حسيسٍ، ولا أُنْسَ أنيسٍ، فوقف متحيِّرًا وصار ينظر يمينًا وشمالًا وهو لا يعرف أين يتوجه، ثم قال في نفسه: ليس لي أحسن من أن أرجع إلى المكان الذي فيه فرسي وأبيت عندها، فإذا أصبح الصباح ركبتها وسرت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك قال في نفسه: ليس لي أحسن من البيات عند فرسي، فإذا أصبح الصباح ركبتها وسرت. فبينما هو واقف يحدِّث نفسه بهذا الكلام إذ نظر إلى نورٍ مقبل إلى ذلك المحل الذي هو فيه، فتأمَّلَ ذلك النور فوجده مع جماعة من الجواري، وبينهن صبية بهية، بقامة ألفية، تحاكي البدر الزاهر، كما قال فيها الشاعر:

جَاءَتْ بِلَا مَوْعِدٍ فِي ظُلْمَةِ الْغَسَقِ	كَأَنَّهَا الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الْأُفُقِ
هَيْفَاءُ مَا فِي الْبَرَايَا مَنْ يُشَابِهُهَا	فِي بَهْجَةِ الْحُسْنِ أَوْ فِي رَوْنَقِ الْخَلَقِ
نَادَيْتُ لَمَّا رَأَتْ عَيْنِي مَحَاسِنَهَا	سَبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقِ
أُعِيذُهَا مِنْ عُيُونِ النَّاسِ كُلِّهِمِ	بِقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ وَالْفَلَقِ

وكانت تلك الصبية بنت ملك هذه المدينة، وكان أبوها يحبها حبًّا شديدًا، ومن محبته إياها بنى لها هذا القصر، فكانت كلما ضاق صدرها تجيء إليه وجواريها وتقيم فيه يومًا أو يومين أو أكثر، ثم تعود إلى سرايتها؛ فاتفق أنها قد أتت تلك الليلة من أجل الفرجة والانشراح، وصارت ماشية بين الجواري، ومعها خادم مقلَّد بسيف، فلما دخلوا ذلك القصر فرشوا الفرش، وأطلقوا مجامر البخور، ولعبوا وانشرحوا. فبينما هم في لعب وانشراح، إذ هجم ابن الملك على ذلك الخادم، ولطمه لطمة فبطحه، وأخذ السيف من يده وهجم على الجواري اللاتي مع ابنة الملك، فشتَّتهنَّ يمينًا وشمالًا، فلما نظرت ابنة الملك إلى حسنه وجماله قالت: لعلك أنت الذي خطبتني من والدي بالأمس وردَّك وزعم أنك قبيح المنظر، والله لقد كذب أبي حيث قال ذلك الكلام، فما أنت إلا مليح. وكان ابن ملك الهند قد خطبها من أبيها فردَّه؛ لأنه كان بشع المنظر، فظنت أنه هو الذي خطبها، ثم

أقبلت عليه وعانقته وقبَّلته ورقدت هي وإياه، فقالت لها الجواري: يا سيدتي، هذا ما هو الذي خطبك من أبيك؛ لأن ذاك قبيح وهذا مليح، وما يصلح الذي خطبك من أبيك وردَّه أن يكون خادمًا لهذا، ولكن يا سيدتي إن هذا الفتى له شأن عظيم. ثم توجهت الجواري إلى الخادم المبطوح وأيقظنه، فوثب مرعوبًا وفتَّش على سيفه فلم يجده بيده، فقالت له الجواري: إن الذي أخذ سيفك وبطحك جالس مع ابنة الملك. وكان ذلك الخادم قد وكَّله الملك بالمحافظة على ابنته خوفًا عليها من نوائب الزمان وطوارق الحدثان؛ فقام ذلك الخادم وتوجَّه إلى الستر ورفعه، فرأى ابنة الملك جالسة مع ابن الملك وهما يتحدثان، فلما نظرهما الخادم قال لابن الملك: يا سيدي، هل أنت إنسي أم جني؟ فقال له ابن الملك: ويلك يا أنحس العبيد! كيف تجعل أولاد الملوك الأكاسرة من الشياطين الكافرة؟ ثم إنه أخذ السيف بيده وقال له: أنا صهر الملك، وقد زوَّجني بابنته، وأمرني بالدخول عليها.

فلما سمع الخادم منه ذلك الكلام قال له: يا سيدي، إن كنتَ من الإنس كما زعمت، فإنها ما تصلح إلا لك، وأنت أحقُّ بها من غيرك. ثم إن الخادم توجه إلى الملك وهو صارخ، وقد شقَّ ثيابه، وحثا التراب على رأسه، فلما سمع الملك صياحه قال له: ما الذي دهاك؟ فقد أرجفتَ فؤادي، أخبرني بسرعة وأوجز في الكلام. فقال له: أيها الملك أدرك ابنتك؛ فإنها قد استولى عليها شيطان من الجن في زيِّ الإنس، مُصوَّر بصورة أولاد الملوك، فدونك وإياه. فلما سمع الملك منه ذلك الكلام همَّ بقتله، وقال له: كيف تغافلت عن ابنتي حتى لحقها هذا العارض؟ ثم إن الملك توجَّه إلى القصر الذي فيه ابنته، فلما وصل إليه وجد الجواري قائمات، فقال لهن: ما الذي جرى لابنتي؟ فقلن له: أيها الملك، بينما نحن جالسات معها فلم نشعر إلا وقد هجم علينا هذا الغلام الذي كأنه بدر التمام، ولم نَرَ قطُّ أحسنَ منه وجهًا، وبيده سيف مسلول، فسألناه عن حاله فزعم أنك قد زوَّجْتَه ابنتك، ونحن لا نعلم شيئًا غير هذا، ولا نعرف هل هو إنسي أم جني، ولكنه عفيف أديب لا يتعاطى القبيح. فلما سمع الملك مقالتهن برد ما به، ثم إنه رفع الستر قليلًا قليلًا ونظر، فرأى ابن الملك جالسًا مع ابنته يتحدثان، وهو في أحسن التصوير، ووجهه كالبدر المنير؛ فلم يقدر الملك أن يمسك نفسه من غيرته على ابنته، فرفع الستر ودخل وبيده سيف مسلول، وهجم عليهما كأنه الغول، فلما نظره ابن الملك قال لها: أهذا أبوكِ؟ قالت: نعم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك لما رأى الملك بيده سيف مسلول، وقد هجم عليهما كأنه الغول، قال لها: أهذا أبوكِ؟ قالت: نعم. فعند ذلك وثب قائمًا على قدميه، وتناول سيفه بيديه، وصاح على الملك صيحة منكرة فأدهشه، وهَمَّ أن يحمل عليه بالسيف، فعلم الملك أنه أوثب منه، فأغمد سيفه، ثم وقف حتى انتهى إليه ابن الملك فقابَلَه بملاطفة، وقال له: يا فتى، هل أنت إنسي أم جني؟ فقال له ابن الملك: لولا أني أرعى ذمامك وحرمة ابنتك لسفكتُ دمَك، كيف تنسبني إلى الشياطين، وأنا من أولاد الملوك الأكاسرة الذين لو شاءوا أخذوا مُلْكَك، وَلَزَلْزَلُوك عن عزك وسلطانك، وسلبوا عنك جميع ما في أوطانك؟ فلما سمع الملك كلامه هابه، وخاف على نفسه منه، وقال له: إن كنتَ من أولاد الملوك كما زعمتَ فكيف دخلت قصري بغير إذني، وهتكت حرمتي، ووصلت إلى بنتي، وزعمت أنك بعلها، وادَّعيت أني قد زوجتك بها؟ وأنا قد قتلت الملوك وأبناء الملوك حين خطبوها مني، ومَن ينجيك من سطوتي، وأنا إن صحتُ على عبيدي وغلماني وأمرتهم بقتلك قتلوك في الحال؟ فمَن يخلِّصك من يدي؟ فلما سمع ابن الملك منه ذلك الكلام قال للملك: إني لا أعجب منك ومن قلة بصيرتك، هل تطمع لابنتك في بعل أحسن مني؟ وهل رأيت أحدًا أثبتَ جنانًا، وأكثرَ مكافأةً، وأعزَّ سلطانًا وجنودًا وأعوانًا مني؟ فقال له الملك: لا والله، ولكن وددتُ يا فتى أن تكون خاطبًا لها على رءوس الأشهاد حتى أزوِّجَك بها، وأما إذا زوَّجْتُك بها خفيةً فإنك تفضحني فيها. فقال له ابن الملك: لقد أحسنتَ في قولك، ولكن أيها الملك إذا اجتمع عبيدك وخدمك وجنودك عليَّ وقتلوني كما زعمت، فإنك تفضح نفسك، وتبقى الناس فيك بين مصدِّق ومكذِّب، ومن الرأي عندي أن ترجع أيها الملك إلى ما أشير به عليك. فقال له الملك: هاتِ حديثك. فقال له ابن الملك: الذي أحدثك به؛ إما أن تبارزني أنا وأنت خاصة، فمَن قتل صاحبه كان أحقَّ وأولى بالمُلْك، وإما أن تتركني في هذه الليلة،

وإذا كان الصباح فاخرج إلى عسكرك وجنودك وغلمانك وأخبرني بعدتهم. فقال له الملك: إن عدتهم أربعون ألف فارس غير العبيد الذين لي، وغير أتباعهم وهم مثلهم في العدد. فقال ابن الملك: إذا كان طلوع النهار فأخرجهم إليَّ، وقل لهم ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك قال له: إذا كان طلوع النهار فأخرجهم إليَّ، وقل لهم: هذا قد خطب مني ابنتي على شرط أن يبارزكم جميعًا، وادَّعى أنه يغلبكم ويقهركم، وأنكم لا تقدرون عليه. ثم اتركني معهم أبارزهم، فإذا قتلوني فذلك أخفى لسرك وأصوَنُ لعرضك، وإن غلبتهم وقهرتهم فمثلي يرغب الملك في مصاهرته. فلما سمع الملك كلامه استحسن رأيه، وقبَل رأيه مع ما استعظمه من قوله، وما أهاله من أمره في عزمه على مبارزة جميع عسكره الذين وصفهم له، ثم جلسا يتحدثان، وبعد ذلك دعا الملك بالخادم وأمره أن يخرج من وقته وساعته إلى وزيره، ويأمره أن يجمع العساكر، ويأمرهم بحمل أسلحتهم، وأن يركبوا خيولهم؛ فسار الخادم إلى الوزير وأعلمه بما أمره به الملك، فعند ذلك طلب الوزير نُقباء الجيش وأكابر الدولة، وأمرهم أن يركبوا خيولهم، ويخرجوا لابسين آلات الحرب.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر الملك، فإنه ما زال يتحدث مع الغلام حيث أعجبه حديثه وعقله وأدبه. فبينما هما يتحدثان وإذا بالصباح قد أصبح، فقام الملك وتوجَّه إلى تخته، وأمر جيشه بالركوب، وقدَّم لابن الملك فرسًا جيدًا من خيار خيله، وأمر أن تُسرَج له بعدَّة حَسَنة، فقال له: أيها الملك، إني ما أركب حتى أشرف على الجيش وأشاهدهم. فقال له الملك: الأمر كما تحب. ثم سار الملك والفتى بين يديه حتى وصلا إلى الميدان، فنظر الغلام إلى الجيش وكثرته ثم نادى الملك: يا معاشر الناس، إنه قد وصل إليَّ غلام يخطب ابنتي، ولم أَرَ قطُّ أحسنَ منه ولا أشدَّ قلبًا ولا أعظمَ بأسًا منه، وقد زعم أنه يغلبكم ويقهركم وحده، ويدَّعي أنكم ولو بلغتم مائة ألف ما أنتم عنده إلا قليل، فإذا بارزكم فخذوه على أسنة رماحكم وأطراف صفاحكم، فإنه قد تعاطى أمرًا عظيمًا. ثم إن الملك قال له: يا ابني، دونك وما تريد منهم. فقال له: أيها الملك، إنك ما أنصفتني، كيف

أبارزهم وأنا مترجِّل وأصحابك ركَّاب خيل؟ فقال له: قد أمرتك بالركوب فأبيتَ، فدونك والخيل فاخْتَرَ منها ما تريد. فقال له: لا يعجبني شيء من خيلك، ولا أركب إلا الفرس التي جئتُ راكبًا عليها. فقال له الملك: وأين فرسك؟ فقال له: هي فوق قصرك. فقال له: في أي موضع في قصري؟ فقال: على سطح القصر. فلما سمع كلامه قال له: هذا أول ما ظهر من خبالك، يا ويلك! كيف تكون الفرس فوق السطح؟ ولكن في هذا الوقت يظهر صدقك من كذبك. ثم إن الملك التفت إلى بعض خواصه وقال له: امضِ إلى قصري وأحضر الذي تجده فوق السطح. فصار الناس متعجبين من قول الفتى، ويقول بعضهم لبعض: كيف ينزل هذا الفرس من سلالم السطح؟ إن هذا شيء ما سمعنا بمثله. ثم إن الذي أرسله الملك إلى القصر صعد إلى أعلاه فرأى الفرس قائمًا، ولم يَرَ أحسنَ منه، فتقدَّمَ إليه وتأمَّله فوجده من الأبنوس والعاج، وكان بعض خواص الملك طلع معه أيضًا، فلما نظروا إلى الفرس تضاحكوا، وقالوا: وعلى مثل هذا الفرس يكون ما ذكره الفتى! فما نظنُّه إلا مجنونًا، ولكن سوف يظهر لنا أمره. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خواص الملك لما نظروا الفرس تضاحكوا، وقالوا: وعلى مثل هذا الفرس يكون ما ذكره الفتى! فما نظنه إلا مجنونًا، ولكن سوف يظهر لنا أمره، وربما يكون له شأن عظيم. ثم إنهم رفعوا الفرس على أيديهم، ولم يزالوا حاملين لها حتى وصلوا إلى قدَّام الملك، وأوقفوها بين يديه؛ فاجتمع عليها الناس ينظرون إليها، ويتعجَّبون من حسن صنعتها، وحسن سرجها ولجامها، واستحسنها الملك أيضًا، وتعجَّب منها غاية العجب، ثم قال لابن الملك: يا فتى، أهذه فرسك؟ فقال: نعم أيها الملك هذه فرسي، وسوف ترى منها العجب. فقال له الملك: خذ فرسك واركبها. قال: لا أركبها إلا إذا بَعُدَ عنها العساكر، فأمر الملك العسكر الذين حوله أن يبعدوا عنها مقدار رمية السهم، فقال له: أيها الملك، ها أنا رائح أركب فرسي، وأحمل على جيشك فأفرِّقهم يمينًا وشمالًا، وأصدِّع قلوبهم. فقال له الملك: افعل ما تريد، ولا تُبْقِ عليهم، فإنهم لا يبقون عليك. ثم إن ابن الملك توجَّهَ إلى فرسه وركبها، واصطفت له الجيوش، وقال بعضهم لبعض: إذا وصل الغلام بين الصفوف نأخذه بأسنَّة الرماح، وشفار الصفاح. فقال واحد منهم: والله إنها مصيبة، كيف نقتل هذا الغلام صاحب الوجه المليح، والقدِّ الرجيح؟ فقال واحد آخر: والله لن تصلوا إليه إلا بعد أمر عظيم، وما فعل الفتى هذه الفعال إلا لما علم من شجاعة نفسه وبراعته.

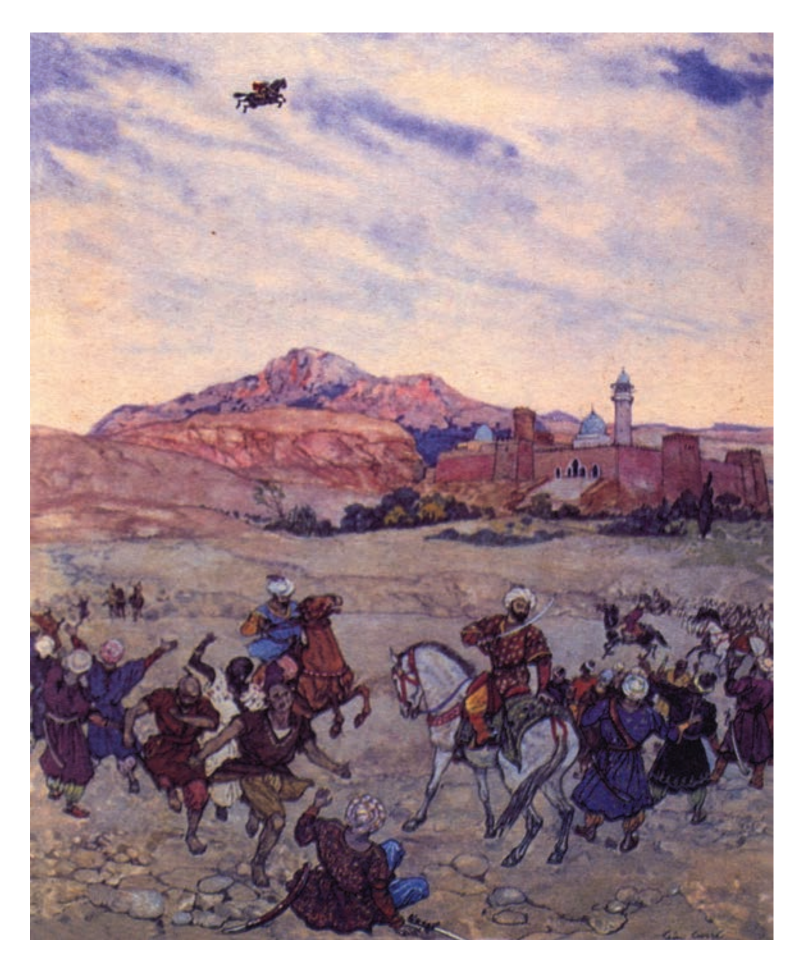
فلما استوى ابن الملك على فرسه فرك لولب الصعود، فتطاولت إليه الأبصار لينظروا ماذا يريد أن يفعل، فماجت فرسه واضطربت حتى عملت أغرب حركات تعملها الخيل، وامتلأ جوفها بالهواء، ثم ارتفعت وصعدت إلى الجو، فلما رآه الملك قد ارتفع وصعد، نادى على جيشه وقال: ويلكم! خذوه قبل أن يفوتكم. فعند ذلك قال له وزراؤه ونوَّابه: أيها الملك، هل أحد يلحق الطير الطائر؟ وما هذا إلا ساحر عظيم قد نجَّاكَ الله منه، فاحمد

الله تعالى على خلاصك من يده. فرجع الملك إلى قصره بعدما رأى من ابن الملك ما رأى، ولما وصل إلى قصره ذهب إلى ابنته، وأخبرها بما جرى له مع ابن الملك في الميدان، فوجدها كثيرة التأسُّف عليه وعلى فراقها له، ثم إنها مرضت مرضًا شديدًا، ولزمت الوساد؛ فلما رآها أبوها على تلك الحالة ضمَّها إلى صدره، وقبَّلها بين عينيها، وقال لها: يا بنتي، احمدي الله تعالى واشكريه حيث خلَّصنا من هذا الساحر الماكر. وجعل يكرِّر عليها ما رآه من ابن الملك، ويذكر لها صفة صعوده في الهواء، وهي لا تصغي إلى شيء من قول أبيها، واشتدَّ بكاؤها ونحيبها، ثم قالت في نفسها: والله لا آكل طعامًا، ولا أشرب شرابًا، حتى يجمع الله بيني وبينه. فحصل لأبيها الملك همٌّ عظيم من أجل ذلك، وشقَّ عليه حالُ ابنته، وصار حزين القلب عليها، وكلَّما يلاطفها لا تزداد إلا شغفًا به. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك صار حزينَ القلب على ابنته، وكلما يلاطفها لا تزداد إلا شغفًا به. هذا ما كان من أمر الملك وابنته، وأما ما كان من أمر ابن الملك، فإنه لما صعد في الجو اختلى بنفسه، وتذكَّرَ حُسْن الجارية وجمالها، وكان قد سأل أصحاب الملك عن اسم المدينة واسم الملك واسم ابنته، وكانت تلك المدينة مدينة صنعاء. ثم إنه جَدَّ في السير حتى أشرف على مدينة أبيه، ودار حول المدنية، ثم توجَّه إلى قصر أبيه، ونزل فوق السطح، وترك فرسه هناك، ونزل إلى والده ودخل عليه، فوجده حزينًا كئيبًا لأجل فراقه، فلما رآه والده قام إليه واعتنقه وضمَّه إلى صدره، وفرح به فرحًا شديدًا. ثم إنه لما اجتمع بوالده سأله عن الحكيم الذي عمل الفرس وقال: يا والدي، ما فعل الدهر به؟ فقال له والده: لا بارَكَ الله في الحكيم، ولا في الساعة التي رأيتُه فيها؛ لأنه هو الذي كان سببًا لفراقك منَّا، وهو مسجون يا ولدي من يوم غبتَ عنَّا. فأمر ابن الملك بالإفراج عنه وإخراجه من السجن، وإحضاره بين يديه؛ فلما حضر بين يدي الملك خلع عليه خلعة الرضا، وأحسن إليه غاية الإحسان، إلا أنه لم يُزوِّجه ابنته؛ فغضب الحكيم من أجل ذلك غضبًا شديدًا، وندم على ما فعل، وعلم أن ابن الملك قد عرف سر الفرس وكيفية سيرها.

ثم إن الملك قال لابنه: الرأي عندي أنك لا تقرب هذه الفرس بعد ذلك، ولا تركبها أبدًا بعد يومك هذا؛ لأنك لا تعرف أحوالها، فأنت منها على غرور. وكان ابن الملك حدَّث أباه بما جرى له مع ابنه الملك صاحب تلك المدينة، وما جرى له مع أبيها، فقال له أبوه: لو أراد الملك قتلك لقتلك، ولكن في أَجَلك تأخير. ثم إن ابن الملك هاجت بلابله بحبِّ الجارية ابنة الملك صاحب صنعاء، فقام إلى الفرس وركبها، وفرك لولب الصعود فطارت به في الهواء، وعلت به إلى عنان السماء، فلما أصبح الصباح افتقده أبوه فلم يجده، فطلع إلى أعلى القصر وهو ملهوف، فنظر إلى ابنه وهو صاعد في الهواء فتأسَّفَ على فراقه، وندم



ثم إن الفَرَس ارتفع وصعد إلى الجَو، فنادى الملِك على جيشه ليأخذوه.

كل الندم حيث لم يأخذ الفرس ويُخفِي أمرها، ثم قال في نفسه: والله إنْ رجع إليَّ ولدي ما بقيت أخلِّي هذه الفرس؛ لأجل أن يطمئن قلبي على ولدي. ثم إنه عاد إلى بكائه ونحيبه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك عاد إلى بكائه ونحيبه من حزنه على ولده. هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر ابنه فإنه لم يزل سائرًا في الجو حتى وقف على مدينة صنعاء، ونزل في المكان الذي كان فيه أولًا، ومشى مستخفيًا حتى وصل إلى محل ابنة الملك فلم يجدها لا هي ولا جواريها ولا الخادم الذي كان محافظًا عليها؛ فعَظُم ذلك عليه، ثم إنه دار يفتِّش عليها في القصر، فوجدها في مجلس آخر غير محلها الذي اجتمع معها فيه، وقد لزمت الوساد، وحولها الجواري والدايات، فدخل عليهن وسلَّم عليهن، فلما سمعت الجارية كلامه قامت إليه واعتنقته وجعلت تقبِّله بين عينيه، وتضمُّه إلى صدرها؛ فقال لها: يا سيدتي، أوحشتِني هذه المدة. فقالت له: أنت الذي أوحشتني، ولو طالت غيبتك عني لَكنتُ هلكت بلا شك. فقال لها: يا سيدتي، كيف رأيت حالي مع أبيك وما صنع بي؟ ولولا محبَّتك يا فتنة العالمين لقتلته وجعلته عبرة للناظرين، ولكن أحبه من أجلك. فقالت له: كيف تغيب عني؟ وهل تطيب حياتي بعدك؟ فقال لها: أتطيعينني وتصغين إلى قولي؟ فقالت له: قل ما شئتَ فإني أجيبك إلى ما تدعوني إليه، ولا أخالفك في شيء. فقال لها: سيري معي إلى بلادي وملكي. فقالت له: حبًّا وكرامة.

فلما سمع ابن الملك كلامها فرح فرحًا شديدًا، وأخذ بيدها وعاهدها بعهد الله تعالى على ذلك، ثم صعد بها إلى أعلى سطح القصر وركب فرسه وأركبها خلفه، ثم ضمَّها إليه وشدَّها شدًّا وثيقًا، وحرَّك لولب الصعود الذي في كتف الفرس فصعدت بهما إلى الجو، فعند ذلك زعقت الجواري، وأعلمن الملك أباها وأمها، فصعدا مبادرَيْن إلى سطح القصر، والتفت الملك إلى الجو فرأى الفرس الأبنوس وهي طائرة بهما في الهواء؛ فعند ذلك انزعج الملك وزاد انزعاجه، وصاح وقال: يا ابن الملك، سألتك بالله أن ترحمني وترحم زوجتي ولا تفرق بيننا وبين بنتنا. فلم يجبه ابن الملك، ثم إن ابن الملك ظن في نفسه أن الجارية ندمت

على فراق أمها وأبيها، فقال لها: يا فتنة الزمان، هل لك أن أردَّكِ إلى أمك وأبيك؟ فقالت له: يا سيدي، والله ما مرادي ذلك، إنما مرادي أن أكون معك أينما تكون؛ لأنني مشغولة بمحبَّتك عن كل شيء حتى أبي وأمي. فلما سمع ابن الملك كلامها فرح بذلك فرحًا شديدًا، وجعل يسير الفرس بهما سيرًا لطيفًا لكيلا يزعجها، ولم يزل يسير بها حتى نظر إلى مرج أخضر، وفيه عين ماء جارية، فنزلا هناك وأكلا وشربا، ثم إن ابن الملك ركب فرسه وأردفها خلفه، وأوثقها بالرباط خوفًا عليها وسار بها، ولم يزل سائرًا بها في الهواء حتى وصل إلى مدينة أبيه فاشتدَّ فرحه، ثم أراد أن يُظهِر للجارية محل سلطانه وملك أبيه، ويُعرِّفها أن مُلْك أبيه أعظم من مُلْك أبيها، فأنزلها في بعض البساتين التي يتفرج فيها والده، وأدخلها في المقصورة المعدَّة لأبيه، وأوقف الفرس الأبنوس على باب تلك المقصورة، وأوصى الجارية بالمحافظة على الفرس، وقال لها: اقعدي ها هنا حتى أرسل إليك رسولي؛ فإني متوجِّه إلى أبي لأُهيِّئ لك قصرًا، وأُظهِر لك مُلْكي. ففرحت الجارية عندما سمعت منه هذا الكلام وقالت له: افعل ما تريد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية فرحت عندما سمعت من ابن الملك هذا الكلام، وقالت له: افعل ما تريد. ثم خطر ببالها أنها لا تدخل إلا بالتبجيل والتشريف كما يصلح لأمثالها، ثم إن ابن الملك تركها وسار حتى وصل إلى المدينة ودخل على أبيه، فلما رآه أبوه فرح بقدومه وتلقَّاه ورحَّب به. ثم إن ابن الملك قال لوالده: اعلم أنني قد أتيت ببنت الملك التي كنتُ أعلمتُكَ بها، وقد تركتها خارج المدينة في بعض البساتين، وجئت أعلمك بها لأجل أن تهيِّئ الموكب وتخرج لملاقتها، وتُظهِر لها مُلْكَك وجنودك وأعوانك. فقال له الملك: حبًّا وكرامةً. ثم أمر من وقته وساعته أهل المدينة أن يُزيِّنوا المدينة بالزينة الحسنة، وركب في أكمل هيبة وأحسن زينة هو وجميع عساكره وأكابر دولته، وسائر مملكته وخدمه، وأخرج ابن الملك من قصره الحُليَّ والحلل، وما تدَّخره الملوك، وهيَّأ لها عمارة من الديباج الأخضر والأحمر والأصفر، وأجلس على تلك العمارة الجواري الهنديات والروميات والحبشيات، وأظهر من الذخائر شيئًا عجيبًا. ثم إن ابن الملك ترك العمارة بمَن فيها وسبق إلى البستان، ودخل المقصورة التي تركها فيها وفتَّش عليها فلم يجدها، ولم يجد الفرس؛ فعند ذلك لطم على وجهه ومزَّق ثيابه، وجعل يطوف في البستان وهو مدهوش العقل، ثم بعد ذلك رجع إلى عقله وقال في نفسه: كيف علمتْ بسرِّ هذا الفرس وأنا لم أُعلِمها بشيء من ذلك؟ ولعل الحكيم الفارسي الذي عمل الفرس قد وقع عليها، وأخذها جزاء ما عمله والدي معه. ثم إن ابن الملك طلب حرَّاسَ البستان وسألهم عمَّن مرَّ بهم، وقال لهم: هل نظرتم أحدًا مرَّ بكم ودخل هذا البستان؟ فقالوا: ما رأينا أحدًا دخل هذا البستان سوى الحكيم الفارسي، فإنه دخل ليجمع الحشائش النافعة. فلما سمع كلامهم صحَّ عنده أن الذي أخذ الجارية هو ذلك الحكيم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك لما سمع كلامهم صحَّ عنده أن الذي أخذ الجارية هو ذلك الحكيم، وكان بالأمر المقدَّر أن ابن الملك لما ترك الجارية في المقصورة التي في البستان وذهب إلى قصر أبيه ليهيِّئ أمره، دخل الحكيم الفارسي البستان ليجمع شيئًا من الحشيش النافع، فشمَّ رائحة المسك والطيب التي عبق منها المكان، وكان ذلك الطيب من رائحة ابنة الملك، فقصد الحكيم صوب تلك الرائحة حتى وصل إلى تلك المقصورة، فرأى الفرس التي صنعها بيده واقفة على باب المقصورة، فلما رأى الحكيم الفرس امتلأ قلبه فرحًا وسرورًا؛ لأنه كان كثير التأسُّف على الفرس حيث خرجت من يده، فتقدَّم إلى الفرس وافتقد جميع أجزائها فوجدها سالمة، ولما أراد أن يركبها ويسير قال في نفسه: لا بد أن أنظر إلى ما جاء به ابن الملك وتركه مع الفرس ها هنا. فدخل المقصورة فوجد الجارية جالسة وهي كالشمس الضاحية في السماء الصاحية، فلما نظرها علم أنها جارية لها شأن عظيم، وقد أخذها ابن الملك وأتى بها على الفرس وتركها في تلك المقصورة، ثم توجَّه إلى المدينة ليجيء لها بموكب ويُدخِلها المدينة بالتبجيل والتشريف، فعند ذلك دخل الحكيم إليها وقبَّل الأرض بين يديها، فرفعت إليه طرفها ونظرت إليه، فوجدته قبيح المنظر جدًّا بَشِع الصورة، فقالت له: مَن أنت؟ فقال لها: يا سيدتي، أنا رسول ابن الملك، قد أرسلني إليك وأمرني أن أنقلك إلى بستان آخَر قريب من المدينة. فلما سمعت الجارية منه ذلك الكلام قالت له: وأين ابن الملك؟ قال لها: هو في المدينة عند أبيه، وسيأتي إليك في هذه الساعة بموكب عظيم. فقالت له: يا هذا، وهل ابن الملك لم يجد أحدًا يُرسِله إليَّ غيرك؟ فضحك الحكيم من كلامها وقال لها: يا سيدتي، لا يغرنَّك قُبْح وجهي وبشاعة منظري، فلو نلتِ مني ما ناله ابن الملك لحمدتِ أمري، وإنما خصَّني ابن الملك بالإرسال

إليك لقُبْح منظري ومهول صورتي؛ غيرةً منه عليكِ ومحبةً لكِ، وإلا فعنده من المماليك والعبيد والغلمان والخدم والحشم ما لا يُحصَى. فلما سمعت الجارية كلامه دخل في عقلها وصدَّقته، وقامت معه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحكيم الفارسي لما أخبر الجارية بأحوال ابن الملك صدَّقت كلامه، ودخل في عقلها، وقامت معه ووضعت يدها في يده، ثم قالت له: يا والدي، ما الذي جئتَ لي به معك حتى أركبه؟ فقال: يا سيدتي، الفرس التي جئتِ عليها تركبينها. فقالت له: أنا لا أقدر على ركوبها وحدي. فتبسَّمَ الحكيم عندما سمع منها ذلك، وعلم أنه قد ظفر بها، فقال لها: أنا أركب معك بنفسي. ثم إنه ركب وأركب الجارية خلفه وضمَّها إليه، وشدَّ وثاقها، وهي لا تعلم ما يريد بها، ثم إنه حرَّكَ لولب الصعود فامتلأ جوف الفرس بالهواء، وتحرَّكت وماجت، ثم ارتفعت صاعدة إلى الجو، ولم تزل سائرة بهما حتى غابت عن المدينة، فقالت له الصبية: يا هذا، أين الذي قلته عن ابن الملك حيث زعمتَ أنه أرسلك إليَّ؟ فقال لها الحكيم: قبَّحَ الله ابن الملك! فإنه خبيث لئيم. فقالت له: يا ويلك! كيف تخالف أمر مولاك فيما أمرك به؟ فقال لها: ليس هو مولاي، فهل تعرفين مَن أنا؟ فقالت له: لا أعرفك إلا بما عرَّفتني به عن نفسك. فقال لها: إنما كان إخباري لك بهذا الخبر حيلةً مني عليك وعلى ابن الملك، ولقد كنتُ متأسِّفًا طول عمري على هذه الفرس التي تحتك؛ فإنها صناعتي، وكان استولى عليها، والآن قد ظفرت بها وبكِ أيضًا، وقد أحرقتُ قلبه كما أحرق قلبي، ولا يتمكَّن منها بعد ذلك أبدًا، فطيبي قلبًا وقرِّي عينًا، فأنا لك أنفعُ منه.

فلما سمعت الجارية كلامه لطمت على وجهها ونادت: يا أسفاه! لا حصَّلت حبيبي ولا بقيت عند أبي وأمي. وبكت بكاءً شديدًا على ما حلَّ بها، ولم يزل الحكيم سائرًا بها إلى بلاد الروم حتى نزل بها في مرج أخضر ذي أنهار وأشجار، وكان ذلك المرج بالقرب من مدينة، وفي تلك المدينة ملك عظيم الشأن، فاتفق في ذلك اليوم أن ملك تلك المدينة خرج إلى الصيد والنزهة، فجاز على ذلك المرج، فرأى الحكيم واقفًا والفرس والجارية بجانبه، فلم

يشعر الحكيم إلا وقد هجم عليه عبيد الملك وأخذوه هو والجارية والفرس، وأوقفوا الجميع بين يدي الملك، فلما نظر إلى قُبْح منظره وبشاعته، ونظر إلى حُسْن الجارية وجمالها، قال لها: يا سيدتي، ما نسبة هذا الشيخ منك؟ فبادَرَ الحكيم بالجواب وقال: هي زوجتي وابنة عمي. فكذَّبته الجارية عندما سمعت قوله وقالت: أيها الملك، والله لا أعرفه ولا هو بعلي، بل أخذني بالحيلة. فلما سمع الملك مقالها أمر بضربه فضربوه حتى كاد أن يموت، ثم أمر الملك أن يحملوه إلى المدينة ويطرحوه في السجن، ففعلوا به ذلك. ثم إن الملك أخذ الجارية والفرس منه، ولكنه لم يعلم بأمر الفرس، ولا بكيفية سيرها.

هذا ما كان من أمر الحكيم والجارية، وأما ما كان من أمر ابن الملك فإنه لبس ثياب السفر، وأخذ ما يحتاج إليه من المال، وسافَرَ وهو في أسوأ حال، وسار مُسرِعًا يقتصُّ الأثر في طلبهما من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة، ويسأل عن الفرس الأبنوس، وكلُّ مَن سمع منه خبر الفرس الأبنوس يتعجَّب منه ويستعظم قوله. فأقام على هذا الحال مدةً من الزمان، ومع كثرة السؤال والتفتيش عليهما لم يقع لهما على خبر، ثم إنه سار إلى مدينة أبي الجارية وسأل عنها هناك، فلم يسمع لها بخبر، ووجد أباها حزينًا على فقدها، فرجع وقصد بلاد الروم، وجعل يقتصُّ أثرهما ويسأل عنهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك قصد بلاد الروم، وجعل يقتصُّ أثرهما ويسأل عنهما، فاتفق أنه نزل في خان من الخانات فرأى جماعة من التجار جالسين يتحدثون، فجلس قريبًا منهم، فسمع أحدهم يقول: يا أصحابي، لقد رأيت عجبًا من العجائب. فقالوا له: وما هو؟ قال: إني كنت في بعض الجهات في مدينة كذا — وذكر اسم المدينة التي فيها الجارية — فسمعت أهلها يتحدثون بحديث غريب، وهو أن ملك المدينة خرج يومًا من الأيام إلى الصيد والقنص، ومعه جماعة من أصحابه وأكابر دولته، فلما طلعوا إلى البرية جازوا على مرج أخضر فوجدوا هناك رجلًا واقفًا وإلى جانبه امرأة جالسة، ومعه فرس من أبنوس؛ فأما الرجل فإنه قبيح المنظر مهول الصورة جدًّا، وأما المرأة فإنها صبية ذات حُسْن وجمال، وبهاء وكمال، وقدٍّ واعتدال، وأما الفرس الأبنوس فإنها من العجائب التي لم يَرَ الراءُون أحسن منها ولا أجمل من صنعتها. فقال له الحاضرون: فما فعل الملك بهم؟ فقال: أما الرجل فإنه أخذه الملك وسأله عن الجارية فادَّعى أنها زوجته وابنة عمه، وأما الجارية فإنها كذَّبته في قوله فأخذها الملك منه، وأمر بضربه وطرحه في السجن، وأما الفرس الأبنوس فما لي بها علم. فلما سمع ابن الملك هذا الكلام من التاجر دنا منه، وصار يسأله برفق وتلطُّف حتى أخبره باسم المدينة واسم ملكها، فلما عرف ابن الملك اسم المدينة واسم ملكها بات ليلته مسرورًا. فلما أصبح الصباح خرج وسافَرَ، ولم يزل مسافرًا حتى وصل إلى تلك المدينة، فلما أراد أن يدخلها أخذه البوابون وأرادوا إحضاره قدَّام الملك ليسأله عن حاله، وعن سبب مجيئه إلى تلك المدينة، وعمَّا يُحسِنه من الصنائع، وكانت هذه عادة الملك من سؤال الغرباء عن أحوالهم وصنائعهم، وكان وصول ابن الملك إلى تلك المدينة في وقت المساء، وهو وقت لا يمكن الدخول فيه على الملك ولا المشاورة عليه، فأخذه البوابون وأتوا به إلى السجن ليضعوه فيه، فلما نظر السجانون إلى حُسْنه وجماله

لم يهُنْ عليهم أن يُدخِلوه السجن، بل أجلسوه معهم خارج السجن. فلما جاءهم الطعام أكل معهم بحسب الكفاية، فلما فرغوا من الأكل جعلوا يتحدثون، ثم أقبلوا على ابن الملك وقالوا له: من أي البلاد أنت؟ فقال: أنا من بلاد فارس بلاد الأكاسرة. فلما سمعوا كلامه ضحكوا، وقال له بعضهم: يا كسروي، لقد سمعت حديث الناس وأخبارهم وشاهدت أحوالهم، فما رأيت ولا سمعت أكذب من هذا الكسروي الذي عندنا في السجن. فقال آخَر: ولا رأيت أقبح من خلقته، ولا أبشع من صورته. فقال لهم ابن الملك: ما الذي بانَ لكم من كذبه؟ فقالوا: يزعم أنه حكيم، وكان الملك قد رآه في طريقه وهو ذاهب إلى الصيد، ومعه امرأة بديعة الحسن والجمال، والبهاء والكمال، والقدِّ والاعتدال، ومعه أيضًا فرس من الأبنوس الأسود ما رأينا قطُّ أحسنَ منها؛ فأما الجارية فهي عند الملك وهو لها محب، ولكن تلك المرأة مجنونة، ولو كان ذلك الرجل حكيمًا كما يزعم لداواها، والملك مجتهد في علاجها، وغرضه مداواتها مما هي فيه، وأما الفرس الأبنوس فإنها في خزانة الملك، وأما الرجل القبيح المنظر الذي كان معها فإنه عندنا في السجن، فإذا جنَّ عليه الليل يبكي وينتحب أسفًا على نفسه، ولا يدعنا ننام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الموكلين بالسجن لما أخبروه بخبر الحكيم الفارسي الذي عندهم في السجن، وبما هو فيه من البكاء والنحيب، خطر بباله أن يدبِّر تدبيرًا يبلغ به غرضه، فلما أراد البوَّابون النومَ أدخلوه السجن، وأغلقوا عليه الباب، فسمع الحكيم يبكي وينوح على نفسه بالفارسية، ويقول في نوحه: الويل لي بما جنيتُ على نفسي وعلى ابن الملك، وبما فعلتُ بالجارية حيث لم أتركها ولم أظفر بمرادي، وذلك كله من سوء تدبيري؛ فإني طلبت لنفسي ما لا أستحقه، وما لا يصلح لمثلي، ومَن طلب ما لا يصلح له وقع في مثل ما وقعتُ فيه. فلما سمع ابن الملك كلامَ الحكيم كلَّمه بالفارسية وقال له: إلى كم هذا البكاء والعويل، هل ترى أنه أصابك ما لم يُصِبْ غيرك؟ فلما سمع الحكيم كلامه أنس به، وشكا إليه حاله وما يجده من المشقة. فلما أصبح الصباح أخذ البوَّابون ابن الملك وأتوا به إلى ملكهم، وأعلموه أنه وصل إلى المدينة بالأمس في وقتٍ لا يمكن الدخول فيه على الملك، فسأله الملك وقال له: من أيِّ البلاد أنتَ؟ وما اسمك؟ وما صنعتك؟ وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة؟ فقال ابن الملك: أما اسمي فإنه بالفارسية حرجة، وأما بلادي فهي بلاد فارس، وأنا من أهل العلم وخصوصًا علم الطب؛ فإني أداوِي المرضى والمجانين، ولهذا أطواف في الأقاليم والمدن لأستفيد علمًا على علمي، وإذا رأيتُ مريضًا فإني أداويه، فهذه صنعتي.

فلما سمع الملك كلامه فرح به فرحًا شديدًا، وقال له: أيها الحكيم الفاضل، لقد وصلتَ إلينا في وقت الحاجة إليك. ثم أخبره بخبر الجارية وقال له: إنْ داويتَها وأبرأْتَها من جنونها، فلك عندي جميع ما تطلبه. فلما سمع كلام الملك قال له: أعزَّ الله الملك، صِفْ لي كلَّ شيء رأيتَه من جنونها، وأخبرني منذ كَمْ يوم عرض لها هذا الجنون، وكيف أخذتها هي والفرس والحكيم؟ فأخبره بالخبر من أوله إلى آخِره، ثم قال له: إن الحكيم في السجن.

فقال له: أيها الملك السعيد، ما فعلت بالفرس التي كانت معهما؟ فقال له: باقية عندي إلى الآن محفوظة في بعض المقاصير. فقال ابن الملك في نفسه: إن من الرأي عندي أن أتفقَّد الفرس وأنظرها قبل كل شيء، فإن كانت سالمة لم يحدث فيها أمر فقد تمَّ لي كل ما أريده، وإن رأيتها قد بطلت حركاتها تحيَّلت بحيلة في خلاص مهجتي. ثم التفت إلى الملك وقال له: أيها الملك، ينبغي أن أنظر الفرس المذكورة لعلي أجد شيئًا يعينني على بُرْء الجارية. فقال له الملك: حبًّا وكرامة. ثم قام الملك وأخذ بيده ودخل معه إلى الفرس؛ فجعل ابن الملك يطوف حول الفرس ويتفقَّدها وينظر أحوالها، فوجدها سالمة لم يعِبْها شيء؛ ففرح ابن الملك بذلك فرحًا شديدًا، وقال: أعزَّ الله الملك، إني أريد الدخول إلى الجارية حتى أنظر ما يكون منها، وأرجو الله أن يكون بُرْؤُها على يدي بسبب الفرس إن شاء الله تعالى. ثم أمر بالمحافظة على الفرس، ومضى به الملك إلى البيت الذي فيه الجارية، فلما دخل عليها ابن الملك وجدها تختبط وتنصرع على عادتها، ولم يكن بها جنون، وإنما تفعل ذلك حتى لا يقربها أحد، فلما رآها ابن الملك على هذه الحالة قال لها: لا بأس عليك يا فتنة العالَمِين. ثم إنه جعل يرفق بها ويلاطفها إلى أن عرَّفها بنفسه، فلما عرفته صاحت صيحة عظيمة حتى غُشِي عليها من شدة ما حصل لها من الفرح؛ فظن الملك أن هذه الصرعة من فزعها منه.

ثم إن ابن الملك وضع فمه على أذنها، وقال لها: يا فتنة العالَمِين، احقني دمي ودمك واصبري وتجلَّدي؛ فإن هذا موضع نحتاج فيه إلى الصبر وإتقان التدبير في الحِيَل حتى نتخلَّص من هذا الملك الجائر، ومن الحيلة أني أخرج إليه وأقول له: إن المرض الذي بها عارض من الجنون، وأنا أضمن لك بُرْءَها. وأشرط عليه أن يفكَّ عنكِ القيد ويزول هذا العارض عنكِ، فإذا دخل إليكِ فكلِّميه بكلام مليح حتى يرى أنكِ برِئت على يدي، فيتم لنا كل ما نريد. فقالت له: سمعًا وطاعة. ثم إنه خرج من عندها، وتوجَّه إلى الملك فَرِحًا مسرورًا، وقال: أيها الملك السعيد، قد عرفتُ بسعادتك داءها ودواءها، وقد داويتها لكَ، فقُمِ الآن وادخل إليها، ولِّيْنْ كلامَك لها، وترفَّقْ بها، وعِدْها بما يسرُّها؛ فإنه يتم لك كل ما تريد منها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك لما جعل نفسه حكيمًا، ودخل على الجارية وأعلمها بنفسه، أخبرها بالتدبير الذي يدبره، فقالت له: سمعًا وطاعة. ثم خرج من عندها، وتوجَّه إلى الملك وقال له: قُمِ ادخلْ إليها، ولَيِّنْ لها الكلام، وعِدْها بما يسرها؛ فإنه يتم لك كل ما تريد منها. فقام الملك ودخل عليها، فلما رأته قامت إليه وقبَّلت الأرض بين يديه ورحَّبت به؛ ففرح الملك بذلك فرحًا شديدًا، ثم أمر الجواري والخدم أن يقوموا بخدمتها، ويُدخِلوها الحمام ويجهِّزوا لها الحلي؛ فدخلوا إليها وسلَّموا عليها، فردَّتْ عليهم السلام بألطف منطق وأحسن كلام، ثم ألبسوها حللًا من ملابس الملوك، ووضعوا في عنقها عقدًا من الجواهر، وساروا بها إلى الحمام وخدموها، ثم أخرجوها من الحمام كأنها البدر التمام، ولما وصلت على الملك سلَّمت عليه، وقبَّلت الأرض بين يديه؛ فحصل للملك بها سرور عظيم، وقال لابن الملك: كل ذلك ببركتك زادنا الله من نفحاتك. فقال له: أيها الملك، إن تمام بُرئها وكمال أمرها أنك تخرج أنت وكل مَن معك من أعوانك وعسكرك إلى المحل الذي كنتَ وجدتها فيه، وتكون صحبتك الفرس الأبنوس التي كانت معها؛ لأجل أن أعقد عنها العارض هناك وأسجنه وأقتله، فلا يعود إليها أبدًا. فقال له الملك: حبًّا وكرامةً. ثم أخرج الفرس الأبنوس إلى المرج الذي وجدها فيه هي والجارية والحكيم الفارسي، وركب الملك مع جيشه، وأخذ الجارية صحبته، وهم لا يدرون ما يريد أن يفعل. فلما وصلوا إلى ذلك المرج أمر ابن الملك الذي جعل نفسه حكيمًا أن تُوضَع الجارية والفرس بعيدًا عن الملك والعساكر بمقدار مد البصر، وقال للملك: دستور عن إذنك، أنا أريد أن أطلق البخور وأتلو العزيمة، وأسجن العارض هنا حتى لا يعود إليها أبدًا، ثم بعد ذلك أركب الفرس الأبنوس وأركب الجارية خلفي؛ فإذا فعلتُ ذلك فإن الفرس تضطرب وتمشي حتى تصل إليك، فعند ذلك يتم الأمر فافعل بها بعد ذلك ما تريد.

فلما سمع الملك كلامه فرح فرحًا شديدًا، ثم إن ابن الملك ركب الفرس ووضع الصبية خلفه، وصار الملك وجميع عسكره ينظرون إليه، ثم إنه ضمَّها إليه وشدَّ وثاقها، وبعد ذلك فرك ابن الملك لولب الصعود، فصعدت بهما الفرس في الهواء، والعساكر تنظر إليه حتى غاب عن أعينهم، ومكث الملك نصف يوم ينتظر عودته إليه فلم يَعُدْ، فيئس منه وندم ندمًا عظيمًا، وتأسَّف على فراق الجارية، ثم أخذ عسكره وعاد إلى مدينته.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر ابن الملك، فإنه قصد مدينة أبيه فَرِحًا مسرورًا، ولم يزل سائرًا إلى أن نزل على قصره، وأنزل الجارية في القصر وأمَّنَ عليها، ثم ذهب إلى أبيه وأمه فسلَّمَ عليهما وأعلمها بقدوم الجارية، ففرحَا بذلك فرحًا شديدًا.

هذا ما كان من أمر ابن الملك والفرس والجارية، وأما ما كان من أمر ملك الروم، فإنه لما عاد إلى مدينته احتجَبَ في قصره حزينًا كئيبًا، فدخل عليه وزراؤه وجعلوا يسلُّونه ويقولون له: إن الذي أخذ الجارية ساحر، والحمد لله الذي نجَّاك من سحره ومكره. وما زالوا به حتى تسلَّى عنها. وأما ابن الملك فإنه عمل الولائم العظيمة لأهل المدينة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك عمل الولائم العظيمة لأهل المدينة، وأقاموا في الفرح شهرًا كاملًا، ثم دخل على الجارية، وفرحَا ببعضهما فرحًا شديدًا. هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر والده، فإنه كسر الفرس الأبنوس، وأبطل حركاتها. ثم إن ابن الملك كتب كتابًا إلى أبي الجارية، وذكر له فيه حالها، وأخبره أنه تزوَّجَ بها، وهي عنده في أحسن حال، وأرسله إليه مع رسول، وصحبته هدايا وتحف نفيسة، فلما وصل الرسول إلى مدينة أبي الجارية، وهي صنعاء اليمن، أوصل الكتاب والهدايا إلى ذلك الملك، فلما قرأ الكتاب فرح فرحًا شديدًا، وقبل الهدايا، وأكرم الرسول. ثم جهَّز هدية لصهره ابن الملك، وأرسلها إليه مع ذلك الرسول؛ فرجع بها إلى ابن الملك، وأعلمه بفرح الملك أبي الجارية حين بلغه خبر ابنته، فحصل له سرور عظيم، وصار ابن الملك في كل سنة يكاتب صهره ويهاديه، ولم يزالوا كذلك حتى تُوفي الملك أبو الغلام، وتولَّى هو بعده في المملكة؛ فعدل في الرعية، وسار فيهم بسيرة مرضية؛ فدانت له البلاد وأطاعته العباد، واستمروا على هذه الحالة في ألذ عيش وأهنئه، وأرغده وأمرئه، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات، ومخرِّب القصور ومعمر القبور، فسبحان الحي الذي لا يموت، وبيده الملك والملكوت.

حكاية أنس الوجود والورد في الأكمام

ومما يُحكَى أيضًا أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، ملك عظيم الشان، ذو عزٍّ وسلطان، وكان له وزير يُسمَّى إبراهيم، وكانت له ابنة بديعة في الحُسْن والجمال، فائقة في البهجة والكمال، ذات عقل وافر وأدب باهر، إلا أنها تهوى المنادمة والراح

والوجوه الملاح، ورقائق الأشعار ونوادر الأخبار، تدعو العقولَ إلى الهوى رقَّةُ معانيها، كما قال فيها بعض واصفيها:

كَلِفْتُ بِهَا فَتَّانَةِ التُّرْكِ وَالْعَرَبْ تُجَادِلُنِي فِي الْفِقْهِ وَالنَّحْوِ وَالْأَدَبْ
تَقُولُ: أَنَا الْمَفْعُولُ بِي وَخَفَضْتَنِي لِمَاذَا؟ وَهَذَا فَاعِلٌ فَلِمَ انْتَصَبْ؟
فَقُلْتُ لَهَا: نَفْسِي وَرُوحِي لَكِ الْفِدَا أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الزَّمَانَ قَدِ انْقَلَبْ
وَإِنْ كُنْتِ يَوْمًا تُنْكِرِينَ انْقِلَابَهُ فَهَا فَانْظُرِي مَا عُقْدَةُ الرَّأْسِ فِي الذَّنَبْ

وكان اسمها «الورد في الأكمام»، وسبب تسميتها بذلك فرطُ رقَّتها، وكمال بهجتها، وكان الملك محبًّا لمنادمتها لكمال أدبها، ومن عادة الملك أنه في كل عام يجمع أعيان مملكته ويلعب الكرة، فلما كان ذلك اليوم الذي يجمع فيه الناس للعب الكرة، جلست ابنة الوزير في الشباك لتتفرج؛ فبينما هم في اللعب إذ لاحت منها التفاتة، فرأت بين العسكر شابًّا لم يكن أحسن منه منظرًا ولا أبهى طلعةً؛ نيِّر الوجه، ضاحك السن، طويل الباع، واسع المنكب؛ فكرَّرت فيه النظر مرارًا فلم تشبع منه نظرًا، فقالت لدايتها: ما اسم هذا الشاب المليح الشمائل الذي بين العسكر؟ فقالت لها: يا بنتي، الكل ملاح، فمَن هو فيهم؟ فقالت لها: اصبري حتى أشير لك إليه. ثم أخذت تفاحة ورمتها عليه؛ فرفع رأسه فرأى ابنة الوزير في الشباك كأنها البدر في الأفلاك، فلم يردَّ إليه طرفه إلا وهو بعشقها مشغول الخاطر، فأنشد قول الشاعر:

أَرَمَانِي الْقَوَّاسُ أَمْ جِفْنَاكِ فَتْكًا بِقَلْبِ الصَّبِّ حِينَ رَآكِ
أَأَتَانِي السَّهْمُ الْمُفَوَّقُ بُرْهَةً مِنْ جَحْفَلٍ أَمْ جَاءَ مِنْ شُبَّاكِ

فلما فرغ اللعب قالت لدايتها: ما اسم هذا الشاب الذي أريته لك؟ قالت: اسمه أنس الوجود. فهزت رأسها ونامت في مرتبتها، وقدحت فكرتها، ثم صعَّدت الزفرات وأنشدت هذه الأبيات:

مَا خَابَ مَنْ سَمَّاكَ أُنْسَ الْوُجُودْ يَا جَامِعًا مَا بَيْنَ أُنْسٍ وَجُودْ
يَا طَلْعَةَ الْبَدْرِ الَّذِي وَجْهُهُ قَدْ نَوَّرَ الْكَوْنَ وَعَمَّ الْوُجُودْ
مَا أَنْتَ إِلَّا مُفْرَدٌ فِي الْوَرَى سُلْطَانُ ذِي حُسْنٍ وَعِنْدِي شُهُودْ

حَاجِبُكَ النُّونُ الَّتِي حُرِّرَتْ وَمُقْلَةٌ كَالصَّادِ صُنْعُ الْوَدُودْ
وَقَدُّكَ الْغُصْنُ الرَّطِيبُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَجُودْ
قَدْ فُقْتَ فُرْسَانَ الْوَرَى سَطْوَةً وَفُقْتَهُمْ أُنْسًا وَحُسْنَ وُجُودْ

فلما فرغت من شعرها كتبته في قرطاس، ولفَّته في خرقة من الحرير مطرَّزة بالذهب، ووضعته تحت المخدة، وكانت واحدة من داياتها تنظر إليها، فجاءتها وصارت تمارسها في الحديث حتى نامت، وسرقت الورقة من تحت المخدة وقرأتها؛ فعرفت أنها حصل لها وَجْد بأُنْس الوجود، وبعد أن قرأت الورقة وضعتها في مكانها. فلما استفاقت سيدتها الورد في الأكمام من نومها، قالت لها: يا سيدتي، إني لكِ من الناصحات، وعليك من الشفيقات، اعلمي أن الهوى شديد، وكتمانه يذيب الحديد، ويورث الأمراض والأسقام، وما على مَن يبوح بالهوى ملام. فقالت لها الورد في الأكمام: يا دايتي، وما دواء الغرام؟ قالت: دواؤه الوصال. قالت: وكيف يوجد الوصال؟ قالت: يا سيدتي، يوجد بالمراسلة ولين الكلام، وإكثار التحيات والسلام، فهذا يجمع بين الأحباب، وبه تسهُل الأمور الصعاب، وإن كان لكِ أمرٌ يا مولاتي، فأنا أولى بكتم سرك وقضاء حاجتك وحمل رسالتك. فلما سمعت منها الورد في الأكمام ذلك الكلام، طار عقلها من الفرح، لكن أمسكت نفسها عن الكلام حتى تنظر عاقبة أمرها، وقالت في نفسها: إن هذا الأمر ما عرفه أحدٌ مني، فلا أبوح به لهذه المرأة إلا بعد اختبارها. فقالت لها المرأة: يا سيدتي، إني رأيت في منامي كأنَّ رجلًا جاءني، وقال لي: إن سيدتك وأُنْس الوجود متحابَّان فمارسي أمرهما، واحملي رسائلهما، واقضي حوائجهما، واكتمي أمرهما وأسرارهما؛ يحصل لك خير كثير، وها أنا قد قصصت ما رأيتُ عليكِ، والأمر إليكِ. فقالت الورد في الأكمام لدايتها لما أخبرتها بالمنام ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الورد في الأكمام قالت لدايتها لما أخبرتها بالمنام الذي رأته: هل تكتمين الأسرار يا دايتي؟ فقالت: كيف لا أكتم الأسرار وأنا من خلاصة الأحرار؟ فأخرجَتْ لها الورقة التي كتبت فيها الشعر، وقالت لها: اذهبي برسالتي هذه إلى أُنْس الوجود، وائتيني بجوابه. فأخذتها وتوجَّهت بها إلى أُنْس الوجود، فلما دخلت عليه قبَّلت يديه، وحيَّته بألطف كلام، ثم أعطته القرطاس، فقرأه وفهم معناه، ثم كتب في ظهره هذه الأبيات:

أُعَلِّلُ قَلْبِي فِي الْغَرَامِ وَأَكْتُمُ ... وَلَكِنَّ حَالِي عَنْ هَوَايَ يُتَرْجِمُ
وَإِنْ فَاضَ دَمْعِي قُلْتُ جُرْحٌ بِمُقْلَتِي ... لِئَلَّا يَرَى حَالِي الْعَذُولُ فَيَفْهَمُ
وَكُنْتُ خَلِيًّا لَسْتُ أَعْرِفُ مَا الْهَوَى ... فَأَصْبَحْتُ صَبًّا وَالْفُؤَادُ مُتَيَّمُ
رَفَعْتُ إِلَيْكُمْ قِصَّتِي أَشْتَكِي بِهَا ... غَرَامِي وَوَجْدِي كَيْ تَرِقُّوا وَتَرْحَمُوا
وَسَطَّرْتُهَا مِنْ دَمْعِ عَيْنِي لَعَلَّهَا ... بِمَا حَلَّ بِي مِنْكُمْ إِلَيْكُمْ تُتَرْجِمُ
رَعَى اللهُ وَجْهًا بِالْجَمَالِ مُبَرْقَعًا ... لَهُ الْبَدْرُ عَبْدٌ وَالْكَوَاكِبُ تَخْدُمُ
عَلَى حُسْنِ ذَاتٍ مَا رَأَيْتُ مَثِيلَهَا ... وَمِنْ مَيْلِهَا الْأَغْصَانُ عَطْفًا تَعَلَّمُ
وَأَسْأَلُكُمْ مَنْ غَيْرِ حَمْلِ مَشَقَّةٍ ... زِيَارَتَنَا إِنَّ الْوِصَالَ مُعَظَّمُ
وَهَبْتُ لَكُمْ رُوحِي عَسَى تَقْبَلُونَهَا ... فَلِي الْوَصْلُ خُلْدٌ وَالصُّدُودُ جَهَنَّمُ

ثم طوى الكتاب وقبَّله وأعطاه لها، وقال لها: يا داية، استعطفي خاطر سيدتك. فقالت له: سمعًا وطاعة. ثم أخذت منه المكتوب ورجعت إلى سيدتها، وأعطتها القرطاس،

فقبَّلته ورفعته فوق رأسها، ثم فتحته وقرأته وفهمت معناه، وكتبت في أسفله هذه الأبيات:

يَا مَنْ تَوَلَّعَ قَلْبُهُ بِجَمَالِنَا ... اصْبِرْ لَعَلَّكَ فِي الْهَوَى تَحْظَى بِنَا
لَمَّا عَلِمْنَا أَنَّ حُبَّكَ صَادِقٌ ... وَأَصَابَ قَلْبَكَ مَا أَصَابَ فُؤَادَنَا
زِدْنَاكَ فَوْقَ الْوَصْلِ وَصْلًا مِثْلَهُ ... لَكِنَّ مَنْعَ الْوَصْلِ مِنْ حُجَّابِنَا
لَمَّا يُجَنُّ اللَّيْلُ مِنْ فَرْطِ الْهَوَى ... تَتَوَقَّدُ النِّيرَانُ فِي أَحْشَائِنَا
وَجَفَتْ مَضَاجِعُنَا الْمَنَامَ وَرُبَّمَا ... قَدْ بَرَّحَ التَّبْرِيحُ فِي أَجْسَامِنَا
الْفَرْضُ فِي شَرْعِ الْهَوَى كَتْمُ الْهَوَى ... لَا تَرْفَعُوا الْمَسْبُولَ مِنْ أَسْتَارِنَا
وَقَدِ انْحَشَى مِنِّي الْحَشَا بِهَوَى الرَّشَا ... يَا لَيْتَهُ مَا غَابَ عَنْ أَوْطَانِنَا

فلما فرغت من شعرها طوت القرطاس وأعطته للداية، فأخذته وخرجت من عند الورد في الأكمام بنت الوزير، فصادفها الحاجب وقال لها: أين تذهبين؟ فقالت: إلى الحمام. وقد انزعجت منه فوقعت منها الورقة حين خرجت من الباب وقت انزعاجها.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر الورقة، فإن بعض الخدم رآها مرمية في الطريق فأخذها، ثم إن الوزير خرج من باب الحريم وجلس على سريره، فقصده الخادم الذي التقط الورقة، فبينما الوزير جالس على سريره وإذا بذلك الخادم تقدَّم إليه وفي يده الورقة، وقال له: يا مولاي، إني وجدت هذه الورقة مرمية في الدار فأخذتها. فتناولها الوزير من يده وهي مطوية ففتحها، فرأى مكتوبًا فيها الأشعار التي تقدَّمَ ذِكْرها، فقرأها وفهم معناها، ثم تأمل كتابتها فرآها بخط ابنته، فدخل على أمها وهو يبكي بكاءً شديدًا حتى ابتلَّت لحيته، فقالت له زوجته: ما أبكاك يا مولاي؟ فقال لها: خذي هذه الورقة، وانظري ما فيها. فأخذت الورقة وقرأتها، فوجدتها مشتملة على مراسلة من بنتها الورد في الأكمام إلى أنس الوجود؛ فجاءها البكاء لكنَّها غلبت على نفسها وكفكفت دموعها، وقالت للوزير: يا مولاي، إن البكاء لا فائدة فيه، وإنما الرأي الصواب أن نتبصَّر في أمرٍ يكون فيه صون عرضك، وكتمان أمر بنتك. وصارت تسلِّيه وتخفف عنه الأحزان، فقال لها: إني خائف على ابنتي من العشق؛ أَمَا تعلمين أن السلطان يحب أنس الوجود محبة عظيمة؟ ولخوفي من هذا الأمر سببان؛ الأول من جهتي، وهو أنها ابنتي، والثاني من جهة السلطان، وهو أن أنس الوجود محظي عند السلطان، وربما يحدث من هذا أمر عظيم، فما رأيك في ذلك؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما أخبر زوجته بخبر بنته، وقال لها: فما رأيك في ذلك؟ قالت له: اصبر عليَّ حتى أصلي صلاة الاستخارة. ثم إنها صلت ركعتين سنَّة الاستخارة، فلما فرغت من صلاتها قالت لزوجها: إن في وسط بحر الكنوز جبلًا يُسمَّى جبل الثكلى — وسبب تسميته بذلك سيأتي — وذلك الجبل لا يقدر على الوصول إليه أحدٌ إلا بالمشقة، فاجعل لها موضعًا هناك. فاتفق الوزير مع زوجته على أنه يبني فيه قصرًا منيعًا ويجعلها فيه، ويضع عندها مئُونتها عامًا بعد عام، ويجعل عندها مَن يؤانسها ويخدمها، ثم جمع النجارين والبنَّائين والمهندسين، وأرسلهم إلى ذلك الجبل، وقد بنوا لها قصرًا منيعًا لم يَرَ مثلَه الراءُون. ثم هيَّأ الزاد والراحلة ودخل على ابنته في الليل وأمرها بالسير؛ فحسَّ قلبها بالفراق، فلما خرجت ورأت هيئة الأسفار بكت بكاءً شديدًا، وكتبت على الباب تُعرِّف أنس الوجود بما جرى لها من الوَجْد الذي تقشعر منه الجلود، ويذيب الجلمود، ويُجرِي العَبَرات، والذي كتبته هذه الأبيات:

بِاللهِ يَا دَارُ إِنْ مَرَّ الْحَبِيبُ ضُحًى ... مُسَلِّمًا بِإِشَارَاتِ الْمُحِبِّينَا
أَهْدِيهِ مِنَّا سَلَامًا زَاكِيًا عَطِرًا ... لِأَنَّهُ لَيْسَ يَدْرِي أَيْنَ أَمْسَيْنَا
وَلَسْتُ أَدْرِي إِلَى أَيْنَ الرَّحِيلُ بِنَا ... لَمَّا مَضَوْا بِي سَرِيعًا مُسْتَخِفِّينَا
فِي جُنْحِ لَيْلٍ وَطَيْرُ الْأَيْكِ قَدْ عَكَفَتْ ... عَلَى الْغُصُونِ تُبَاكِينَا وَتَنْعِينَا
وَقَالَ عَنْهَا لِسَانُ الْحَالِ وَا حَرَبَا ... مِنَ التَّفَرُّقِ مَا بَيْنَ الْمُحِبِّينَا
لَمَّا رَأَيْتُ كُئُوسَ الْبُعْدِ قَدْ مُلِئَتْ ... وَالدَّهْرُ مِنْ صِرْفِهَا بِالْقَهْرِ يَسْقِينَا
مَزَجْتُهَا بِجَمِيلِ الصَّبْرِ مُعْتَذِرًا ... وَعَنْكُمُ الْآنَ لَيْسَ الصَّبْرُ مُجْدِينَا

فلما فرغت من شعرها ركبت، وساروا بها يقطعون البراري والقفار، والسهول والأوعار، حتى وصلوا إلى بحر الكنوز، ونصبوا الخيام على شاطئ البحر، ومدُّوا لها مركبًا عظيمةً، وأنزلوها فيها هي وعائلتها، وقد أمرهم أنهم إذا وصلوا إلى الجبل، وأدخلوها في القصر هي وعائلتها يرجعون بالمركب، وبعد أن يطلعوا من المركب يكسرونها، فذهبوا وفعلوا جميع ما أمرهم به، ثم رجعوا وهم يبكون على ما جرى.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر أنس الوجود، فإنه قام من نومه وصلَّى الصبح، ثم ركب وتوجَّه إلى خدمة السلطان، فمَرَّ في طريقه على باب الوزير على جري العادة، لعله يرى أحدًا من أتباع الوزير الذين كان يراهم، ونظر إلى الباب فرأى الشعر المتقدِّم ذِكْره مكتوبًا عليه، فلما رآه غاب عن وجوده واشتعلت النار في أحشائه ورجع إلى داره، ولم يقر له قرار ولم يطاوعه اصطبار، ولم يزل في قلقٍ ووَجْدٍ إلى أن دخل الليل، فكتم أمره وتنكَّر وخرج في جوف الليل هائمًا على غير طريق، وهو لا يدري أين يسير؛ فسار الليل كله وثاني يوم إلى أن اشتدَّ حرُّ الشمس، وتلهَّبت الجبال، واشتدَّ عليه العطش، فنظر إلى شجرة فوجد بجانبها جدول ماء يجري، فقصد تلك الشجرة وجلس في ظلِّها على شاطئ ذلك الجدول، وأراد أن يشرب فلم يجد للماء طعمًا في فمه، وقد تغَيَّرَ لونه، واصفرَّ وجهه، وتورَّمت قدماه من المشي والمشقة؛ فبكى بكاءً شديدًا، وسكب العَبَرات وأنشد هذه الأبيات:

سَكَرُ الْعَاشِقِ فِي حُبِّ الْحَبِيبْ ... إِنْ سَأَلْنَاهُ سُؤَالًا لَا يُجِيبْ
هَائِمٌ فِي الْحُبِّ صَبٌّ تَائِهٌ ... طَعْمُ زَادٍ عِنْدَهُ لَيْسَ يَطِيبْ
كَيْفَ يَهْنَا الْعَيْشُ لِلصَّبِّ الَّذِي ... فَارَقَ الْأَحْبَابُ ذَا شَيْءٍ عَجِيبْ
ذُبْتُ لَمَّا أَنْ ذَكَا وَجْدِي بِهِمْ ... وَجَرَى دَمْعِي عَلَى خَدِّي صَبِيبْ
هَلْ أَرَاهُمْ أَوْ أَرَى مِنْ رَبْعِهِمْ ... أَحَدًا يَبْرَى بِهِ الْقَلْبُ الْكَئِيبْ

فلما فرغ من شعره بكى حتى بَلَّ الثَّرَى، ثم قام من وقته وساعته، وسار من ذلك المكان؛ فبينما هو سائر في البراري والقِفار، إذ خرج عليه سَبْعٌ رقبته مختنقة بشعره، ورأسه قدر القبة، وفمه أوسع من الباب، وأنيابه مثل أنياب الفيل، فلما رآه أنس الوجود أيقن بالموت، واستقبل القبلة وتشهَّد واستعد للموت، وكان قد قرأ في الكتب أن مَن خادع السبع انخدع له؛ لأنه ينخدع بالكلام الطيب وينتخي بالمديح، فشرع يقول له: يا أسد الغابة، يا ليث الفضاء، يا ضرغام، يا أبا الفتيان، يا سلطان الوحوش، إنني عاشق مشتاق،

وقد أتلفني العشق والفراق، وحين فارقت الأحباب، غبت عن الصواب، فاسمع كلامي، وارحم لوعتي وغرامي. فلما سمع الأسد مقالته تأخَّرَ عنه، وجلس مُقعِيًا على ذَنَبِه، ورفع رأسه إليه، وصار يلعب له بذَنَبه ويديه؛ فلما رأى أنس الوجود هذه الحركات، أنشد هذه الأبيات:

أَسَدَ الْبَيْدَاءِ هَلْ تَقْتُلُنِي   قَبْلَمَا أَلْقَى الَّذِي تَيَّمَنِي
لَسْتُ صَيْدًا لَا وَلَا بِيَّ سِمَنْ   فَقْدُ مَنْ أَهْوَاهُ قَدْ أَسْقَمَنِي
وَفِرَاقُ الْحُبِّ أَضْنَى مُهْجَتِي   فَمِثَالِي صُورَةٌ فِي كَفَنِي
يَا أَبَا الْحَارِثِ يَا لَيْثَ الْوَغَى   لَا تُشَمِّتْ عُذَّلِي فِي شَجَنِي
أَنَا صَبٌّ مَدْمَعِي غَرَّقَنِي   وَفِرَاقُ الْحُبِّ قَدْ أَقْلَقَنِي
وَاشْتِغَالِي فِي دُجَى اللَّيْلِ بِهِمْ   عَنْ وُجُودِي فِي الْهَوَى غَيَّبَنِي

فلما فرغ من شعره قام الأسد ومشى نحوه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أنس الوجود لما فرغ من شعره، قام الأسد ومشى نحوه بلطف وعيناه مغرغرتان بالدموع، ولما وصل إليه لحسه بلسانه ومشى قدَّامه، وأشار إليه أن اتبعني فتبعه، ولم يزل سائرًا وهو خلفه ساعةً من الزمان حتى طلع به فوق جبل، ثم نزل به من فوق ذلك الجبل، فرأى آثار المشي في البراري؛ فعرف أن ذلك أثر مشي القوم بالورد في الأكمام، فتبع الأثر ومشى فيه، فلما رآه الأسد تبع الأثر وعرف أنه أثر مشي القوم بمحبوبته، رجع الأسد إلى حال سبيله. وأما أنس الوجود فإنه لم يزل ماشيًا في الأثر أيامًا وليالي حتى أقبل على بحرٍ عجاجٍ متلاطِم بالأمواج، ووصل الأثر إلى شاطئ البحر وانقطع؛ فعلم أنهم ركبوا البحر وساروا فيه، وانقطع رجاؤه منهم هناك، فسكب العَبَرات وأنشد هذه الأبيات:

شَطَّ الْمَزَارُ وَعَنْهُمْ قَلَّ مُصْطَبَرِي ... وَكَيْفَ أَمْشِي لَهُمْ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ
أَوْ كَيْفَ أَصْبِرُ وَالْأَحْشَاءُ قَدْ تَلَفَتْ ... فِي حُبِّهِمْ وَبَدَلْتُ النَّوْمَ بِالسَّهَرِ
مِنْ يَوْمِ غَابُوا عَنِ الْأَوْطَانِ وَارْتَحَلُوا ... وَمُهْجَتِي فِي لَهِيبٍ أَيِّ مُسْتَعِرِ
سَيْحُون جَيْحُون دَمْعِي كَالْفُرَاتِ جَرَى ... فَفَيْضُهُ فَائِقُ الطُّوفَانِ وَالْمَطَرِ
تَقَرَّحَ الْجَفْنُ مِنْ جَرْيِ الدُّمُوعُ بِهِ ... وَأَحْرَقَ الْقَلْبَ بِالنِّيرَانِ وَالشَّرَرِ
جُيُوشُ وَجْدِيَ وَالْأَشْوَاقُ قَدْ هَجَمَتْ ... وَجَيْشُ صَبْرِيَ فِي إِدْبَارِ مُنْكَسِرِ
خَاطَرْتُ بِالرُّوحِ بَذْلًا فِي مَحَبَّتِهِ ... وَكَانَتِ الرُّوحُ عِنْدِي أَسْهَلَ الْخَطَرِ
لَا آخَذَ اللهُ عَيْنًا فِي الْحِمَى نَظَرَتْ ... ذَاكَ الْجَمَالَ الَّذِي أَبْهَى مِنَ الْقَمَرِ
أَصْبَحْتُ مُنْطَرِحًا مِنْ أَعْيُنٍ نُجْلٍ ... سِهَامُهَا رَشَقَتْ قَلْبِي بِلَا وَتَرِ

وَخَادَعَتْنِي بِلِينٍ مِنْ مَعَاطِفِهَا | كَمَا تَلِينُ غُصُونُ الْبَانِ فِي الشَّجَرِ
طَمِعْتُ مِنْهُمْ بِوَصْلٍ أَسْتَعِينُ بِهِ | عَلَى أُمُورِ الْهَوَى وَالْغَمِّ وَالْكَدَرِ
وَصِرْتُ فِيهِمْ كَمَا أَمْسَيْتُ مُكْتَئِبًا | وَكُلُّ مَا حَلَّ بِي مِنْ فِتْنَةِ النَّظَرِ

فلما فرغ من شعره بكى حتى وقع مغشيًّا عليه، واستمر في غشيته مدة مديدة، ثم أفاق من غشيته والتفت يمينًا وشمالًا فلم يرَ أحدًا في البرية، فخشي على نفسه من الوحوش فصعد على جبل عالٍ. فبينما هو في ذلك الجبل إذ سمع صوت آدمي يتكلم في مغارة فصغى إليه، وإذا هو عابد قد ترك الدنيا واشتغل بالعبادة، فطرق عليه المغارة ثلاث مرات فلم يُجِبْه العابد ولم يخرج إليه؛ فصعَّد الزفرات وأنشد هذه الأبيات:

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى أَنْ أَبْلُغَ الْأَرَبَا | وَأَتْرُكَ الْهَمَّ وَالتَّكْدِيرَ وَالتَّعَبَا
وَكُلُّ هَوْلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ شَيَّبَنِي | قَلْبًا وَرَأْسًا مَشِيبًا فِي زَمَانِ صِبَا
وَلَمْ أَجِدْ لِي مُعِينًا فِي الْغَرَامِ وَلَا | خِلًّا يُخَفِّفُ عَنِّي الْوَجْدَ وَالنَّصَبَا
وَكَمْ أُكَابِدُ فِي الْأَشْوَاقِ مِنْ وَلَهٍ | كَأَنَّ دَهْرِي عَلَيَّ الْآنَ قَدْ قَلَبَا
وَا رَحْمَتَاهُ لِصَبٍّ عَاشِقٍ قَلِقٍ | كَأْسَ التَّفَرُّقِ وَالْهِجْرَانِ قَدْ شَرِبَا
فَالنَّارُ فِي الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءِ قَدْ مُحِيَتْ | وَالْعَقْلُ مِنْ لَوْعَةِ التَّفْرِيقِ قَدْ سُلِبَا
مَا كَانَ أَعْظَمَ يَوْمًا جِئْتُ مَنْزِلَهُمْ | وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى الْأَبْوَابِ مَا كُتِبَا
بَكَيْتُ حَتَّى سُقِيتُ الْأَرْضَ مِنْ وَلَهٍ | لَكِنْ كَتَمْتُ عَنِ الدَّانِينَ وَالْغُرَبَا
يَا عَابِدًا قَدْ تَغَاضَى فِي مَغَارَتِهِ | كَأَنَّهُ ذَاقَ طَعْمَ الْعِشْقِ وَانْسَلَبَا
وَبَعْدَ هَذَا وَهَذَا كُلِّهِ فَإِذَا | بَلَغْتُ قَصْدِي فَلَا هَمًّا وَلَا تَعَبَا

فلما فرغ من شعره، وإذا بباب المغارة قد انفتح، وسمع قائلًا يقول: وا رحمتاه! فدخل الباب وسلَّم على العابد، فردَّ عليه السلام وقال له: ما اسمك؟ قال: اسمي أنس الوجود. فقال له: ما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ فقصَّ عليه قصته من أولها إلى آخرها، وأخبره بجميع ما جرى له؛ فبكى العابد وقال له: يا أنس الوجود، إن لي في هذا المكان عشرين عامًا ما رأيت فيه أحدًا إلا بالأمس؛ فإني سمعت بكاءً وغواشًا، فنظرت إلى جهة الصوت فرأيت ناسًا كثيرين، وخيامًا منصوبة على شاطئ البحر، وأقاموا مركبًا ونزل فيها قوم منهم، وساروا بها في البحر، ثم رجع بالمركب بعض مَن نزل فيها وكسروها، وتوجَّهوا إلى حال سبيلهم، وأظن أن الذين ساروا على ظهر البحر ولم يرجعوا هم الذين

أنت في طلبهم يا أنس الوجود، وحينئذٍ همُّك عظيم، وأنت معذور، ولكن لا يوجد مُحِبٌّ إلا وقد قاسى الحسرات. ثم أنشد العابد هذه الأبيات:

أُنْسُ الْوُجُودِ خَلِيَّ الْبَالِ تَحْسَبُنِي ... وَالشَّوْقُ وَالْوَجْدُ يَطْوِينِي وَيَنْشُرُنِي
إِنِّي عَرَفْتُ الْهَوَى وَالْعِشْقَ مِنْ صِغَرِي ... مِنْ حِينَ كُنْتُ صَبِيًّا رَاضِعَ اللَّبَنِ
مَارَسْتُهُ زَمَنًا حَتَّى عُرِفْتُ بِهِ ... إِنْ كُنْتَ تَسْأَلُ عَنِّي فَهْوَ يَعْرِفُنِي
شَرِبْتُ كَأْسَ الْجَوَى مِنْ لَوْعَةٍ وَضَنًى ... فَصِرْتُ مَحْوًا بِهِ مِنْ رِقَّةِ الْبَدَنِ
قَدْ كُنْتُ ذَا قُوَّةٍ لَكِنْ وَهَى جَلَدِي ... وَجَيْشُ صَبْرِي بِأَسْيَافِ اللِّحَاظِ فَنِي
لَا تَرْتَجِي فِي الْهَوَى وَصْلًا بِغَيْرِ جَفَا ... فَالضِّدُّ بِالضِّدِّ مَقْرُونٌ مَدَى الزَّمَنِ
قَضَى الْغَرَامُ عَلَى الْعُشَّاقِ أَجْمَعِهِمْ ... إِنَّ السُّلُوَّ حَرَامٌ حِكْمَةُ الْفَطِنِ

فلما فرغ العابد من إنشاد شعره، قام إلى أنس الوجود وعانَقَه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العابد لما فرغ من إنشاد شعره قام إلى أنس الوجود وعانقه، وتباكيا حتى دوت الجبال من بكائهما، ولم يزالا يبكيان حتى وقعا مغشيًّا عليهما، ثم أفاقا وتعاهدا على أنهما أخوان في الله تعالى، ثم قال العابد لأنس الوجود: أنا في هذه الليلة أصلِّي وأستخير الله لك على شيء تعمله. فقال له أنس الوجود: سمعًا وطاعة.

هذا ما كان من أمر أنس الوجود، وأما ما كان من أمر الورد في الأكمام، فإنها لما وصلوا بها إلى الجبل وأدخلوها القصر ورأته ورأت ترتيبه، بكت وقالت: والله إنك مكان مليح، غير أنك ناقص وجود الحبيب فيك. ورأت في تلك الجزيرة أطيارًا، فأمرت بعض أتباعها أن ينصب لها فخًّا، ويصطاد به منها، وكل ما اصطاده يضعه في أقفاص من داخل القصر، ففعل ما أمرته به. ثم إنها قعدت في شباك القصر وتذكرت ما جرى لها، وزاد بها الغرام، والوَجْد والهيام؛ فسكبت العَبَرات وأنشدت هذه الأبيات:

يَا لِمَنْ أَشْتَكِي الْغَرَامَ الَّذِي بِي	وَشُجُونِي وَفِرْقَتِي عَنْ حَبِيبِي
يَا لَهِيبًا بَيْنَ الضُّلُوعِ تَلَظَّى	لَسْتُ مُبْدِيكَ خِيفَةً مِنْ رَقِيبِي
أَصْبَحَ الْقَدُّ رِقَّ عُودِ خِلَالٍ	مِنْ بُعَادٍ وَحُرْقَةٍ وَنَحِيبِ
أَيْنَ عَيْنُ الْحَبِيبِ حَتَّى تَرَانِي	كَيْفَ أَمْسَيْتُ مِثْلَ حَالِ السَّلِيبِ
قَدْ تَعَدَّوْا عَلَيَّ إِذْ حَجَبُونِي	فِي مَكَانٍ لَمْ يَسْتَطِعْهُ حَبِيبِي
أَسْأَلُ الشَّمْسَ حَمْلَ أَلْفِ سَلَامٍ	عِنْدَ وَقْتِ الشُّرُوقِ ثُمَّ الْغُرُوبِ
لِحَبِيبٍ قَدْ أَخْجَلَ الْبَدْرَ حُسْنًا	مُذْ تَبَدَّى بِقَامَةٍ كَالْقَضِيبِ
إِنْ حَكَى الْوَرْدُ خَدَّهُ قُلْتُ فِيهِ	ذَلِكَ الْوَرْدُ نُورُهُ مِنْ نَصِيبِي

إِنَّ فِـي ثَـغْـرِهِ لَـسِـلْـسَـالَ رَيـقٍ   يَجْلِبُ الْبَرْدَ عِنْدَ حَرِّ اللَّهِيبِ
كَيْفَ أَسْلُوهُ وَهْوَ قَلْبِي وَرُوحِي   مُسْقِمِي مُمْرِضِي حَبِيبِي طَبِيبِي

فلما جنَّ عليها الظلام اشتدَّ بها الغرام وتذكرَتْ ما فات، فأنشدت هذه الأبيات:

جَنَّ الـظَّـلَامُ وَهَـاجَ الْـوَجْـدُ بِـالـسَّـقَـمِ   وَالـشَّـوْقُ حَـرَّكَ مَـا عِـنْـدِي مِـنَ الْأَلَـمِ
وَلَوْعَةُ الْبَيْنِ فِي الْأَحْشَاءِ قَدْ سَكَنَتْ   وَالْـفِـكْـرُ صَـيَّـرَنِـي فِـي حَـالَـةِ الْـعَـدَمِ
وَالْـوَجْـدُ أَقْـلَـقَـنِـي وَالـشَّـوْقُ أَحْـرَقَـنِـي   وَالـدَّمْـعُ بَـاحَ بِـسِـرٍّ أَيُّ مُـكْـتَـتِـمِ
وَلَيْسَ لِي حَالَةٌ فِي الشَّوْقِ أَعْرِفُهَا   مِنْ رِقِّ عُودِي وَمِنْ ضَعْفِي وَمِنْ أَلَمِي
جَحِيمُ قَلْبِي مِنَ النِّيرَانِ قَدْ سُعِرَتْ   وَمِـنْ لَـظَـى حَـرِّهَـا الْأَكْـبَـادُ فِـي نِـقَـمِ
مَـا كُـنْـتُ أَمْـلُـكُ نَـفْـسِـي أَنْ أُوَدِّعَـهُـمْ   يَوْمَ الْفِرَاقِ فَيَا قَهْرِي وَيَا نَدَمِي
يَا مَنْ يُبَلِّغُهُمْ مَا حَلَّ بِي وَكَفَى   أَنِّـي صَـبَـرْتُ عَـلَـى مَـا خُـطَّ بِـالْـقَـلَـمِ
وَاللهِ لَا حِلْتُ عَنْهُمْ فِي الْهَوَى أَبَدًا   يَمِينُ شَرْعِ الْهَوَى مَبْرُورَةُ الْقَسَمِ
يَا لَيْلُ سَلِّمْ عَلَى الْأَحْبَابِ مُخْبِرَهُمْ   وَاشْـهَـدْ بِـعِـلْـمِـكَ أَنِّـي فِـيـكَ لَـمْ أَنَـمِ

هذا ما كان من أمر الورد في الأكمام، وأما ما كان من أمر أنس الوجود، فإن العابد قال له: انزل إلى الوادي وائتني من النخيل بليف. فنزل وجاء له بليف، فأخذه العابد وفتله وجعله شنفًا مثل أشناف التبن، وقال له: يا أنس الوجود، إن في جوف الوادي فرعًا يطلع وينشف على أصوله، فانزل إليه واملأ هذا الشنف منه، واربطه وارمه في البحر واركب عليه، وتوجَّه به إلى وسط البحر لعلَّك تبلغ قصدك؛ فإن مَن لم يخاطر بنفسه لم يبلغ المقصود. فقال: سمعًا وطاعة. ثم ودَّعه وانصرف من عنده إلى ما أمره به بعد أن دعا له العابد. ولم يزل أنس الوجود سائرًا إلى جوف الوادي، وفعل كما قال له العابد، ولما وصل بالشنف إلى وسط البحر خرج عليه ريح فزفَّه بالشنف حتى غاب عن عين العابد، ولم يزل سابحًا في لجَّة البحر ترفعه موجة وتحطُّه أخرى، وهو يرى ما في البحر من العجائب والأهوال، إلى أن رمته المقادير على جبل الثكلى بعد ثلاثة أيام، فنزل إلى البر مثل الفرخ الدائخ لهفان من الجوع والعطش؛ فوجد في ذلك المكان أنهارًا جارية، وأطيارًا مغرِّدة على الأغصان، وأشجارًا مثمرة صنوانًا وغير صنوان؛ فأكل من الأثمار، وشرب من الأنهار، وقام يمشي فرأى بياضًا على بُعْدٍ، فمشى جهته حتى وصل إليه فوجده قصرًا منيعًا حصينًا، فأتى باب القصر فوجده مقفولًا، فجلس عنده ثلاثة أيام. فبينما هو

جالس وإذا بباب القصر قد فُتِح وخرج منه شخص من الخدم، فرأى أنس الوجود قاعدًا، فقال له: من أين أتيتَ؟ ومَن أوصلك إلى هنا؟ فقال: من أصبهان، وكنت مسافرًا في البحر بتجارة فانكسرت المركب التي كنتُ فيها، فرمتني الأمواج على ظهر هذه الجزيرة. فبكى الخادم وعانَقَه وقال: حيَّاك الله يا وجه الأحباب، إن أصبهان بلادي، ولي فيها بنت عمٍّ كنتُ أحبُّها وأنا صغير، وكنتُ مولعًا بها، فغزانا قوم أقوى منَّا وأخذوني في جملة الغنائم، وكنت صغيرًا فقطعوا إحليلي ثم باعوني خادمًا، وها أنا في تلك الحالة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخادم الذي خرج من قصر الورد في الأكمام حدَّث أنس الوجود بجميع ما حصل له، وقال له: إن القوم الذين أخذوني قطعوا إحليلي وباعوني خادمًا، وها أنا في تلك الحالة. وبعدما سلَّم عليه وحيَّاه أدخله ساحة القصر، فلما دخل رأى بحيرة عظيمة، وحولها أشجار وأغصان، وفيها أطيار في أقفاص من فضة، وأبوابها من الذهب، وتلك الأقفاص معلَّقة على الأغصان، والأطيار فيها تناغي وتسبِّح الملك الديان، فلما وصل إلى أولها تأمَّله فإذا هو قمري، فلما رآه الطير مدَّ صوته وقال: يا كريم. فغشي على أنس الوجود، فلما أفاق من غشيته صعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

أَيُّهَا الْقُمْرِيُّ هَلْ مِثْلِي تَهِيمْ ... فَاسْأَلِ الْمَوْلَى وَغَرِّدْ يَا كَرِيمْ
يَا تُرَى نَوْحُكَ هَذَا طَرَبٌ ... أَوْ غَرَامٌ مِنْكَ فِي الْقَلْبِ مُقِيمْ
إِنْ تَنُحْ وَجْدًا لِأَحْبَابٍ مَضَوْا ... إِنَّنِي مُضْنًى بِهِمْ دَوْمًا سَقِيمْ
أَوْ فَقَدْتَ الْحُبَّ مِثْلِي فِي الْهَوَى ... فَالتَّجَافِي يُظْهِرُ الْوَجْدَ الْقَدِيمْ
يَا رَعَى اللهُ مُحِبًّا صَادِقًا ... لَسْتُ أَسْلُوهُ وَلَوْ عَظْمِي رَمِيمْ

فلما فرغ من شعره بكى حتى وقع مغشيًّا عليه، وحين أفاق من غشيته مشى حتى وصل إلى ثاني قفص فوجده فاختًا، فلمَّا رآه الفاخت غرَّدَ وقال: يا دايم أشكرك. فصعَّد أنس الوجود الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

وَفَاخِتٍ قَدْ قَالَ فِي نَوْحِهِ ... يَا دَايِمًا شُكْرًا عَلَى بَلْوَتِي
عَسَى لَعَلَّ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ... يَقْضِي بِوَصْلِ الْحُبِّ فِي سَفْرَتِي

وَرُبَّ مَعْسُولِ اللَّمَى زَارَنِي فَزَادَنِي عِشْقًا عَلَى صَبْوَتِي
فَقُلْتُ وَالنِّيرَانُ قَدْ أُضْرِمَتْ فِي الْقَلْبِ حَتَّى أَحْرَقَتْ مُهْجَتِي
وَالدَّمْعُ مَسْفُوحٌ يُحَاكِي دَمًا قَدْ فَاضَ جَارِيهِ عَلَى وَجْنَتِي
مَا ثَمَّ مَخْلُوقٌ بِلَا مِحْنَةٍ لَكِنَّ لِي صَبْرًا عَلَى مِحْنَتِي
بِقُدْرَةِ اللهِ مَتَّى لَمَّنِي وَقْتَ الصَّفَا يَوْمًا عَلَى سَادَتِي
جَعَلْتُ لِلْعُشَّاقِ مَالِي قِرًى لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ عَلَى سُنَّتِي
وَأَطْلُقُ الْأَطْيَارَ مِنْ سِجْنِهَا وَأَتْرُكُ الْأَحْزَانَ مِنْ فَرْحَتِي

فلما فرغ من شعره تمشَّى إلى ثالث قفص فوجده هَزارًا، فزعق الهزار عند رؤيته؛ فلما سمعه أنشد هذه الأبيات:

إِنَّ الْهَزَارَ لَطِيفُ الصَّوْتِ يُعْجِبُنِي كَأَنَّهُ صَوْتُ صَبٍّ فِي الْغَرَامِ فَنِي
وَا رَحْمَتَاهُ عَلَى الْعُشَّاقِ كَمْ قَلِقُوا مِنْ لَيْلَةٍ بِالْهَوَى وَالشَّوْقِ وَالْمِحَنِ
كَأَنَّهُمْ مِنْ عَظِيمِ الشَّوْقِ قَدْ خُلِقُوا بِلَا صَبَاحٍ وَلَا نَوْمٍ مِنَ الشَّجَنِ
لَمَّا جُنِنْتُ بِمَنْ أَهْوَاهُ قَيَّدَنِي فِيهِ الْغَرَامُ وَلَمَّا عَادَ قَيَّدَنِي
تَسَلْسَلَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي فَقُلْتُ لَهُ سَلَاسِلُ الدَّمْعِ قَدْ طَالَتْ فَسَلْسَلَنِي
زَادَ اشْتِيَاقِي وَطَالَ الْبُعْدُ وَانْعَدَمَتْ كُنُوزُ صَبْرِي وَفَرْطُ الْوَجْدُ أَتْلَفَنِي
إِنْ كَانَ الدَّهْرُ صَافٍ قَامَ يَجْمَعُنِي بِمَنْ أُحِبُّ وَسَتْرُ اللهِ يَشْمُلُنِي
قَلَعْتُ ثَوْبِي لِحِبِّي كَيْ يَرَى جَسَدِي بِالصَّدِّ وَالْبُعْدِ وَالْهِجْرَانِ كَيْفَ ضُنِي

فلما فرغ من شعره تمشَّى إلى رابع قفص فرآه بُلبلًا، فناح وغرَّد عند رؤية أنس الوجود؛ فلما سمع تغريده سكب العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

إِنَّ لِلْبُلْبُلِ صَوْتًا فِي السَّحَرْ يُشْغِلُ الْعَاشِقَ عَنْ حُسْنِ الْوَتَرْ
فِي الْهَوَى أُنْسَ الْوُجُودِ الْمُشْتَكِي مِنْ غَرَامٍ قَدْ مَحَا مِنْهُ الْأَثَرْ
كَمْ سَمِعْنَا صَوْتَ أَلْحَانٍ مَحَتْ طَرَبًا صَلْدَ حَدِيدٍ وَحَجَرْ
وَنَسِيمُ الصُّبْحِ قَدْ يَرْوِي لَنَا عَنْ رِيَاضٍ يَانِعَاتٍ بِالزَّهَرْ
فَطَرِبْنَا بِسَمَاعٍ وَشَذًا مِنْ نَسِيمٍ وَطُيُورٍ فِي السَّحَرْ

وَتَـذَكَّـرْنَـا حَـبِـيـبًـا غَـائِـبًـا　　فَـجَـرَى الـدَّمْـعُ سُـيُـولًا وَمَـطَـرْ
وَلَـهِـيـبُ الـنَّـارِ فِـي أَحْـشَـائِـنَـا　　مُـضْـرَمٌ ذَاكَ كَـجَـمْـرٍ بِـالـشَّـرَرْ
مَـتَّـعَ الـلَّـهُ مُـحِـبًّـا عَـاشِـقًـا　　مِـنْ حَـبِـيـبٍ بِـوِصَـالٍ وَنَـظَـرْ
إِنَّ لِـلْـعُـشَّـاقِ عُـذْرًا وَاضِـحًـا　　لَيْسَ يَدْرِي الْعُذْرَ إِلَّا ذُو نَظَرْ

فلما فرغ من شعره مشى قليلًا فرأى قفصًا حسنًا لم يكن هناك أحسن منه، فلما قرب منه وجده حمام الأيك، وهو اليمام المشهور من بين الطيور ينوح بالغرام، وفي عنقه عقد من جوهر بديع النظام، وتأمَّله فوجده ذاهلًا باهتًا في قفصه، فلما رآه بهذه الحالة أفاض العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

يَا حَمَامَ الْأَيْكِ أُقْرِيكَ السَّلَامْ　　يَا أَخَا الْعُشَّاقِ مِنْ أَهْلِ الْغَرَامْ
إِنَّـنِـي أَهْـوَى غَـزَالًا أَهْـيَـفَ　　لَحْظُهُ أَقْطَعُ مِنْ حَدِّ الْحُسَامْ
فِي الْهَوَى أَحْرَقَ قَلْبِي وَالْحَشَا　　وَعَلَا جِسْمِي نُحُولِي وَالسَّقَامْ
وَلَـذِيـذُ الـزَّادِ قَـدْ حُـرِمْـتُـهُ　　مِثْلَمَا حُرِمْتُ مِنْ طِيبِ الْمَنَامْ
وَاصْـطِـبَـارِي وَسُـلُـوِّي رَحَـلَا　　وَالْهَوَى بِالْوَجْدِ عِنْدِي قَدْ أَقَامْ
كَيْفَ يَهْنَا الْعَيْشُ لِي مِنْ بَعْدِهِمْ　　وَهُمُو رُوحِي وَقَصْدِي وَالْمَرَامْ

فلما فرغ أنس الوجود من شعره … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أنس الوجود لما فرغ من شعره، كان حمام الأيك قد انتبه من ذهوله وسمع إنشاده، فصاح وناح، وأكثر التغريد والنواح، حتى كاد أن ينطق بالترنيمات، وأنشد عنه لسان الحال هذه الأبيات:

أَيُّهَا الْعَاشِقُ قَدْ ذَكَّرْتَنِي   زَمَنًا فِيهِ شَبَابِي قَدْ فَنِي
وَحَبِيبًا كُنْتُ أَهْوَى شَكْلَهُ   ذَا جَمَالٍ فَائِقٍ وَمُفْتِنِ
صَوْتُهُ مِنْ فَوْقِ أَغْصَانِ النَّقَى   عَنْ سَمَاعِ النَّايِ وَجْدًا رَدَّنِي
نَصَبَ الصَّيَادُ فَخًّا صَادَهُ   قَائِلًا لَوْ لِلْفَضَا يَتْرُكُنِي
كُنْتُ أَرْجُو أَنَّهُ ذُو رَأْفَةٍ   أَوْ يَرَانِي عَاشِقًا يَرْحَمُنِي
فَرَمَاهُ اللهُ لَمَّا أَنَّهُ   مِنْ حَبِيبِي بِالْجَفَا أَفْرَقَنِي
وَغَرَامِي فِيهِ أَضْحَى زَائِدًا   وَبِنَارِ الْبُعْدِ قَدْ أَحْرَقَنِي
يَا رَعَى اللهُ مُحِبًّا عَاشِقًا   مَارَسَ الْحُبَّ وَقَاسَى شَجَنِي
إِذْ يَرَانِي لَابِثًا فِي قَفَصِي   لِحَبِيبِي رَحْمَةً يُطْلِقُنِي

ثم إن أنس الوجود التفت إلى صاحبه الأصبهاني وقال له: ما هذا القصر؟ وما فيه؟ ومَن بناه؟ قال له: بناه وزير الملك الفلاني لابنته خوفًا عليها من عوارض الزمان، وطوارق الحدثان، وأسكنها فيه هي وأتباعها، ولا تفتحه إلا في كل سنة مرة لما تأتي إليهم مئونتهم. فقال في نفسه: قد حصل المقصود، ولكن المدة طويلة.

هذا ما كان من أمر أنس الوجود، وأما ما كان من أمر الورد في الأكمام، فإنها لم يهنأ لها شراب ولا طعام، ولا قعود ولا منام، فقامت وقد زاد بها الغرام، والوَجْد والهيام، ودارت في أركان القصر فلم تجد لها مصرفًا؛ فسكبت العَبَرات، وأنشدت هذه الأبيات:

حَبَسُونِي عَنْ حَبِيبِي قَسْوَةً ... وَأَذَاقُونِي بِسِجْنِي لَوْعَتِي
أَحْرَقُوا قَلْبِي بِنِيرَانِ الْهَوَى ... حَيْثُ رَدُّوا عَنْ حَبِيبِي نَظْرَتِي
حَبَسُونِي فِي قُصُورٍ شُيِّدَتْ ... فِي جِبَالٍ خُلِقَتْ فِي لُجَّةٍ
إِنْ يَكُونُوا قَدْ أَرَادُوا سَلْوَتِي ... لَمْ تَزِدْ فِي الْحُبِّ إِلَّا مِحْنَتِي
كَيْفَ أَسْلُو وَالَّذِي بِي كُلُّهُ ... أَصْلُهُ فِي وَجْهِ حِبِّي نَظْرَتِي
فَنَهَارِي كُلُّهُ فِي أَسَفٍ ... أَقْطَعُ اللَّيْلَ بِهِمْ فِي فِكْرَتِي
وَأَنِيسِي ذِكْرُهُمْ فِي وِحْدَتِي ... حِينَ أَلْقَى مِنْ لُقَاهُمْ وَحْشَتِي
يَا تُرَى هَلْ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ... يَرْتَضِي الدَّهْرُ لِقَلْبِي مُنْيَتِي

فلما فرغت من شعرها طلعت إلى سطح القصر، وأخذت أثوابًا بعلبكية، وربطت نفسها فيها، وتدلَّت حتى وصلت إلى الأرض، وقد كانت لابسة أفخر ما عندها من اللباس، وفي عنقها عقد من الجواهر، وسارت في تلك البراري والقفار حتى وصلت إلى شاطئ البحر، فرأت صيادًا في مركب دائرًا في البحر يصطاد، فرماه الريح على تلك الجزيرة، فالتفت فرأى الورد في الأكمام في تلك الجزيرة، فلما رآها فزع منها وخرج بالمركب هاربًا، فنادته وأكثرت إليه الإشارات، وأنشدت هذه الأبيات:

يَا أَيُّهَا الصَّيَادُ لَا تَخْشَ الْكَدَرْ ... فَإِنَّنِي إِنْسِيَّةٌ مِثْلُ الْبَشَرْ
أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تُجِيبَ دَعْوَتِي ... وَتَسْمَعَنْ قَوْلِي بِإِسْنَادِ الْخَبَرْ
فَارْحَمْ وَقَاكَ اللهُ حَرَّ صَبْوَتِي ... إِنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ مَحْبُوبًا نَفَرْ
فَإِنَّنِي أَهْوَى مَلِيحًا وَجْهُهُ ... قَدْ فَاقَ وَجْهَ الشَّمْسِ نُورًا وَالْقَمَرْ
وَالظَّبْيُ لَمَّا أَنْ رَأَى أَلْحَاظَهُ ... قَدْ قَالَ إِنِّي عَبْدُهُ ثُمَّ اعْتَذَرْ
قَدْ كَتَبَ الْحُسْنُ عَلَى وَجْنَتِهِ ... سَطْرًا بَدِيعًا فِي الْمَعَانِي مُخْتَصَرْ
فَمَنْ رَأَى نُورَ الْهَوَى قَدِ اهْتَدَى ... أَمَّا الَّذِي ضَلَّ تَعَدَّى وَكَفَرْ
عَسَى حَبِيبِي أَنْ يُوَفِّي بِالْمُنَى ... فَإِنَّ قَلْبِي ذَابَ شَوْقًا وَانْفَطَرْ

فلما سمع الصياد كلامها، بكى وأنَّ واشتكى، وتذكَّر ما مضى له في صباه حين غلب عليه هواه، واشتدَّ به الغرام وزاد به الوَجْد والهيام، وأحرقته نيران الصبابات، وأنشد هذه الأبيات:

بِـغَـرَامِـي أَيُّ عُـذْرٍ وَاضِـحِ ... سَقِيمُ أَعْضَاءٍ بِدَمْعٍ سَافِحِ

تِلْكَ عَيْنِي فِي الدُّجَى سَاهِرَةٌ ... مَـنْ لِـقَـلْـبٍ كَـزِنَـادٍ قَـادِحِ

قَدْ بَلَوْنَا الْعِشْقَ مِنْ نَشْأَتِنَا ... وَعَـرَفْـنَـا نَـاقِصًـا مِـنْ رَاجِـحِ

ثُمَّ بِعْنَا فِي الْهَوَى أَنْفُسَنَا ... بِـوِصَـالٍ مِـنْ حَـبِـيبٍ نَـازِحِ

ثُمَّ بِالْأَرْوَاحِ خَاطَرْنَا عَسَى ... أَنْ يَكُونَ الْبَيْعُ بَيْعَ الرَّابِحِ

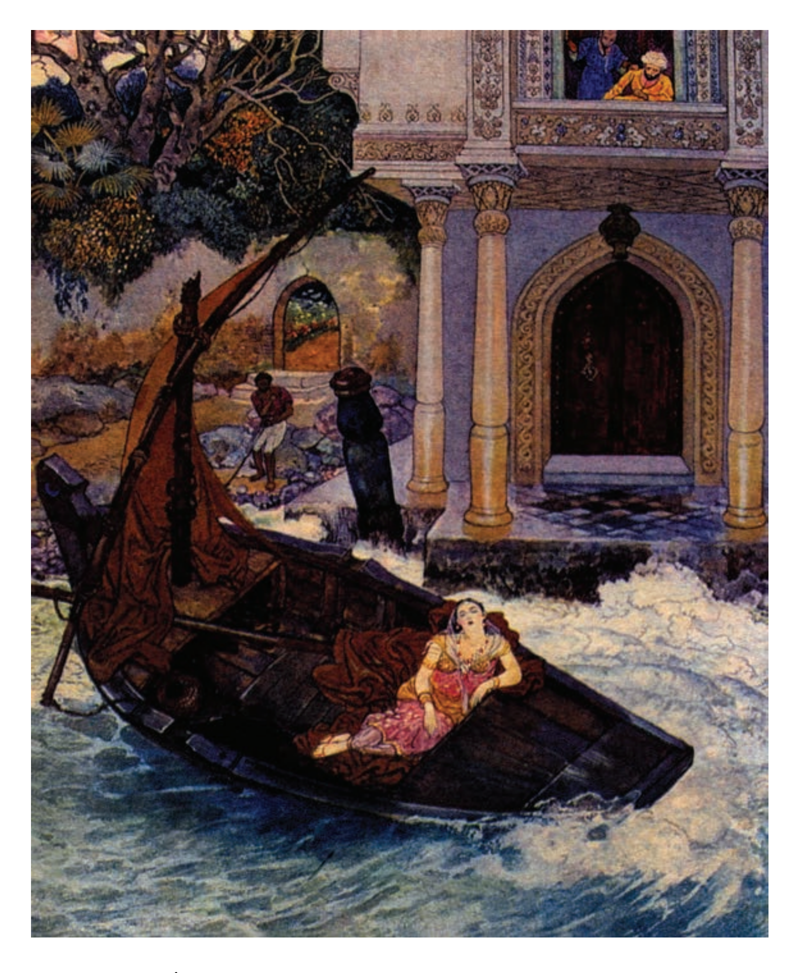
مَذْهَبُ الْعُشَّاقِ أَنَّ الْمُشْتَرِي ... وَصْلَ مَحْبُوبٍ سَمَا عَنْ رَابِحِ

فلما فرغ من شعره أرسى مركبه على البر، وقال لها: انزلي في المركب حتى أعدي بك إلى أي موضع تريدين. فنزلت في المركب وعوَّمَ بها، فلما فارق البر بقليل هبَّت على المركب ريح من خلفها، فسارت المركب بسرعة حتى غاب البر عن أعينهما، وصار الصياد لا يعرف أين يذهب، ومكث اشتداد الريح مدة ثلاثة أيام، ثم سكنت الريح بإذن الله تعالى، ولم تزل المركب تسير بهما حتى وصلت إلى مدينة على شاطئ البحر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المركب لما وصلت بالصياد والورد في الأكمام إلى مدينة على شاطئ البحر، أراد الصياد أن يرسي مركبه على تلك المدينة، وكان فيها ملك عظيم السطوة يقال له درباس، وكان في ذلك الوقت جالسًا هو وابنه في قصر مملكته، وصارا ينظران من شباك القصر فالتفتا إلى جهة البحر فرأيا تلك المركب، فتأمَّلاها فوجدا فيها صبية كأنها البدر في أفق السماء، وفي أذنيها حلق من البلخش النفيس، وفي عنقها عقد من الجوهر النفيس، فعرف الملك أنها من بنات الأكابر والملوك، فنزل الملك من قصره وخرج من باب القيطون، فرأى المركب قد رست على الشاطئ، وكانت البنت نائمة، والصياد مشغولًا بربط المركب، فأيقظها الملك من منامها فاستيقظت وهي تبكي، فقال لها الملك: من أين أنتِ؟ وابنة مَن أنتِ؟ وما سبب مجيئكِ هنا؟ فقالت له الورد في الأكمام: أنا ابنة إبراهيم، وزير الملك شامخ، وسبب مجيئي هنا أمر عجيب وشأن غريب. وحكت له جميع قصتها من أولها إلى آخرها، ولم تُخْفِ عنه شيئًا، ثم صعَّدت الزفرات، وأنشدت هذه الأبيات:

قَدْ قَرَّحَ الدَّمْعُ جَفْنِي فَاقْتَضَى عَجَبَا ... مِنَ التَّكَدُّرِ لَمَّا فَاضَ وَانْسَكَبَا
مِنْ أَجْلِ خِلٍّ ثَوَى فِي مُهْجَتِي أَبَدًا ... وَلَمْ أَنَلْ فِي الْهَوَى مِنْ وَصْلِهِ أَرَبَا
لَهُ مُحَيًّا جَمِيلٌ بَاهِرٌ نَضِرٌ ... وَفِي الْمَلَاحَةِ فَاقَ التُّرْكَ وَالْعَرَبَا
وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ قَدْ مَالَا لِطَلْعَتِهِ ... كَالصَّبِّ وَالْتَزَمَا فِي حُبِّهِ الْأَدَبَا
وَطَرْفُهُ بِعَجِيبِ السِّحْرِ مُكْتَحِلٌ ... يُرِيكَ قَوْسًا لِرَمْيِ السَّهْمِ مُنْتَصِبَا
يَا مَنْ لَهُ حَالَتِي كَمْ جِئْتُ مُعْتَذِرًا ... ارْحَمْ مُحِبًّا بِهِ صَرْفُ الْهَوَى لَعِبَا



الْتَفتَ الملِك إلى البحر، فرأى المركبَ وفيها صَبِيةٌ كأنها البدر في أُفق السماء.

إِنَّ الْهَوَى قَدْ رَمَانِي فِي وَسْطِ سَاحَتِكُمْ ضَعِيفَ عَزْمٍ وَمِنْكُمْ أَرْتَجِي حَسَبَا
إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا حَلَّ سَاحَتَهُمْ مُسْتَحْسِبٌ فَحَمَاهُمْ يَرْفَعُ الْحَسَبَا
فَاسْتُرْ فَضَائِحَ أَهْلِ الْعِشْقِ يَا أَمَلِي وَكُنْ لِوَصْلَتِهِمْ يَا سَيِّدِي سَبَبَا

فلما فرغَتْ من شعرها حكت للملك قصَّتها من أولها إلى آخِرها، ثم أفاضت العَبَرات وأنشدت هذه الأبيات:

عِشْنَا إِلَى أَنْ رَأَيْنَا فِي الْهَوَى عَجَبَا كُلُّ الشُّهُورِ وَفِي الْأَمْثَالِ عِشْ رَجَبَا
أَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ أَنِّي ضُحَى ارْتَحَلُوا أَوْقَدْتُ مِنْ مَاءِ دَمْعِي فِي الْحَشَا لَهَبَا
وَإِنَّ أَجْفَانَ عَيْنِي أَمْطَرَتْ وَرَقًا وَإِنَّ سَاحَةَ خَدِّي أَنْبَتَتْ ذَهَبَا
كَأَنَّ مَا انْعَقَّ عَنْهُ مِنْ مُعَصْفَرِهِ قَمِيصُ يُوسُفَ غَشَّوْهُ دَمًا كَذِبَا

فلما سمع الملك كلامها تحقَّقَ وَجْدَها وغرامَها، فأخذته الشفقة عليها وقال لها: لا خوف عليك ولا فزع، قد وصلتِ إلى مرادكِ، فلا بدَّ أن أبلغك ما تريدين، وأوصل إليك ما تطلبين، فاسمعي مني هذه الكلمات. ثم أنشد هذه الأبيات:

بِنْتَ الْكِرَامِ بَلَغْتِ الْقَصْدَ وَالْأَرَبَا لَكِ الْبِشَارَاتُ لَا تَخْشَيْ هُنَا نَصَبَا
الْيَوْمَ أَجْمَعُ أَمْوَالًا وَأُرْسِلُهَا لِشَامِخ صَحِبَ الْفُرْسَانَ وَالنُّجُبَا
نَوَافِحَ الْمِسْكِ وَالدِّيبَاجِ أُرْسِلُهَا وَأُرْسِلُ الْفِضَّةَ الْبَيْضَاءَ وَالذَّهَبَا
نَعَمْ وَتُخْبِرُهُ عَنِّي مُكَاتَبَتِي أَنِّي مُرِيدٌ لَهُ صِهْرًا وَمُنْتَسِبَا
وَأَبْذُلُ الْيَوْمَ جَهْدِي فِي مُعَاوَنَةٍ حَتَّى يَكُونَ الَّذِي تَهْوِينَ مُقْتَرِبَا
قَدْ ذُقْتُ طَعْمَ الْهَوَى دَهْرًا وَأَعْرِفُهُ وَأَعْذُرُ الْيَوْمَ مَنْ كَأْسَ الْهَوَى شَرِبَا

فلما فرغ من شعره خرج إلى عسكره ودعا بوزيره، وحزم له مالًا لا يُحصَى، وأمره أن يذهب بذلك إلى الملك شامخ، وقال له: لا بد أن تأتيني بشخص عنده اسمه أنس الوجود، وقل له: إنه يريد مصاهرتك بأن يزوِّج ابنته لأنس الوجود تابعك، فلا بد من إرساله معي حتى نعقد عقده عليها في مملكة أبيها. ثم إن الملك درباس كتب مكتوبًا للملك شامخ بمضمون ذلك وأعطاه لوزيره، وأكَّد عليه في الإتيان بأنس الوجود، وقال له: إن لم تأتِني به تكون معزولًا عن مرتبتك. فقال له: سمعًا وطاعة. ثم توجَّه بالهدية إلى الملك شامخ، فلما وصل إليه بلَّغه السلام عن الملك درباس، وأعطاه المكاتبة والهدية التي معه، فلما رآها الملك شامخ وقرأ المكاتبة ونظر اسم أنس الوجود، بكى بكاءً شديدًا، وقال للوزير المرسل إليه: وأين أنس الوجود؟ فإنه ذهب ولا نعلم مكانه، فَأْتِني به وأنا

أعطيك أضعاف ما جئتَ به من الهدية. ثم بكى وأنَّ واشتكى، وأفاض العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

رُدُّوا عَلَـيَّ حَـبِـيـبِـي لَا حَـاجَـةَ لِـي بِـمَـالِ
وَلَا أُرِيــدُ هَــدَايَــا مِــنْ جَـوْهَـرٍ وَلَآلِـي
قَدْ كَانَ عِنْدِي بَدْرًا سَـمَـا بِـأُفْـقِ جَـمَـالِ
وَفَـاقَ حِـسًّـا وَمَـعْـنًـى وَلَـمْ يُـقَـسْ بِـغَـزَالِ
وَقَـدُّهُ غُـصْـنُ بَـانٍ أَثْـمَـارُهُ مِـنْ دَلَالِ
وَلَيْسَ فِي الْغُصْنِ طَبْعٌ يُسْبِي عُقُولَ الرِّجَالِ
رَبَّـيْـتُـهُ وَهْـوَ طِـفْـلٌ عَـلَـى مِـهَـادِ الـدَّلَالِ
وَإِنَّــنِــي لِــحَــزِيــنٌ عَلَيْهِ مَشْغُولُ بَالِي

ثم التفت إلى الوزير الذي جاء بالهدية والرسالة وقال له: اذهب إلى سيدك، وأخبره أن أنس الوجود مضى له عام وهو غائب، وسيده لم يَدْرِ أين ذهب، ولا يعرف له خبرًا. فقال له الوزير: يا مولاي، إن سيدي قال لي: إن لم تأتني به تكن معزولًا عن الوزارة، ولا تدخل مدينتي. فكيف أذهب إليه بغيره؟ فقال الملك شامخ لوزيره إبراهيم: اذهب معه صحبة جماعة، وفتِّشوا على أنس الوجود في سائر الأماكن. فقال له: سمعًا وطاعة. ثم أخذ جماعة من أتباعه، واستصحب وزير الملك درباس، وساروا في طلب أنس الوجود. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إبراهيم وزير الملك شامخ أخذ جماعة من أتباعه، واستصحب وزير الملك درباس، وساروا في طلب أنس الوجود، فكانوا كلما مروا بعرب أو قوم يسألونهم عن أنس الوجود فيقولون لهم: هل مرَّ بكم شخص اسمه كذا، وصفته كذا وكذا؟ فيقولون: لا نعلمه. وما زالوا يسألون في المدائن والقرى، ويفتِّشون في السهول والأوعار، والبراري والقفار، حتى وصلوا إلى شاطئ البحر، وطلبوا مركبًا ونزلوا فيها، وساروا بها حتى أقبلوا على جبل الثكلى، فقال وزير الملك درباس لوزير الملك شامخ: لأي شيء سُمِّي هذا الجبل بذلك الاسم؟ فقال له: لأنه نزلت به جنِّية في قديم الزمان، وكانت تلك الجنية من جن الصين، وقد أَحَبَّتْ إنسانًا ووقع له فيها غرام، وخافت على نفسها من أهلها، فلما زاد بها الغرام فتَّشت في الأرض على مكان تخفيه فيه عن أهلها، فوجدت هذا الجبل منقطعًا عن الإنس والجن، بحيث لا يهتدي إلى طريقه أحد لا من الإنس ولا من الجن، فاختطفَتْ محبوبها ووضعته فيه، وصارت تذهب إلى أهلها وتأتيه في خفية، ولم تزل على ذلك زمنًا طويلًا حتى ولدت منه في ذلك الجبل أطفالًا متعددة، وكان كلُّ مَن يمرُّ على هذا الجبل من التجار المسافرين في البحر، يسمع بكاء الأطفال كبكاء المرأة التي ثكلت أولادها؛ أي فقدتهم، فيقول: هل هنا ثكلى؟ فتعجَّبَ وزير الملك درباس من ذلك الكلام، ثم إنهم ساروا حتى وصلوا إلى القصر وطرقوا الباب، فانفتح الباب وخرج لهم خادم فعرف إبراهيم وزير الملك شامخ فقبَّلَ يديه، ثم دخل القصر فوجد في فسحته رجلًا فقيرًا بين الخدامين، وهو أنس الوجود، فقال لهم: من أين هذا؟ فقالوا له: إنه رجل تاجر غرق ماله ونجا بنفسه وهو مجذوب. فتركه ثم مشى إلى داخل القصر فلم يجد لابنته

أثرًا، فسأل الجواري التي هناك فقلن له: ما عرفنا كيف راحت، ولا أقامت معنا سوى مدة يسيرة. فسكب العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

أَيُّهَا الدَّارُ الَّتِي أَطْيَارُهَا قَدْ تَغَنَّتْ وَازْدَهَتْ أَعْتَابُهَا
كَمْ أَتَاهَا الصَّبُّ يَنْعَى شَوْقَهُ وَرَآهَا فُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا
لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ ضَاعَتْ مُهْجَتِي عِنْدَ دَارٍ قَدْ نَأَتْ أَرْبَابُهَا
كَانَ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ فَاخِرًا وَاسْتَطَابَتْ وَاعْتَلَتْ حُجَّابُهَا
وَكَسَوْهَا حُلَلًا مِنْ سُنْدُسٍ يَا تُرَى أَيْنَ غَدَتْ أَصْحَابُهَا

فلما فرغ من شعره بكى وأنَّ واشتكى، وقال: لا حيلة في قضاء الله، ولا مفر مما قدَّره وقضاه. ثم طلع إلى سطح القصر فوجد الثياب البعلبكية مربوطة في شراريف القصر واصلة إلى الأرض، فعرف أنها قد نزلت من ذلك المكان، وراحت كالهائم الولهان، والتفت فرأى هناك طيرين غرابًا وبومة؛ فتشاءم من ذلك، وصعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

أَتَيْتُ إِلَى دَارِ الْأَحِبَّةِ رَاجِيًا بِآثَارِهِمْ إِطْفَاءَ وَجْدِي وَلَوْعَتِي
فَلَمْ أَجِدِ الْأَحْبَابَ فِيهَا وَلَمْ أَجِدْ بِهَا غَيْرَ مَشْئُومَيْ غُرَابٍ وَبُومَةِ
وَقَالَ لِسَانُ الْحَالِ قَدْ كُنْتَ ظَالِمًا وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الْمُغْرَمِينَ الْأَحِبَّةِ
فَذُقْ طَعْمَ مَا ذَاقُوهُ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى وَعِشْ أَبَدًا مَا بَيْنَ دَمْعٍ وَحُرْقَةِ

ثم نزل من فوق القصر وهو يبكي، وقد أمر الخفلما فرغَتْ من شعرها حكت للملك دام أن يخرجوا إلى الجبل ويفتشوا على سيدتهم، ففعلوا ذلك فلم يجدوها. هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر أنس الوجود، فإنه لما تحقَّق أن الورد في الأكمام قد ذهبت، صاح صيحة عظيمة، ووقع مغشيًّا عليه، واستمر في غشيته؛ فظنوا أنه أخذته جذبة من الرحمن، واستغرق في جمال هيئة الديَّان، ولما يئسوا من وجود أنس الوجود، واشتغل قلب الوزير إبراهيم بفقد بنته الورد في الأكمام، أراد وزير الملك درباس أن يتوجه إلى بلاده، وإن لم يفُزْ من سفره بمراده، فأخذ يودعه الوزير إبراهيم والد الورد في الأكمام، فقال له وزير الملك درباس: إني أريد أن آخذ هذا الفقير معي، عسى الله تعالى أن يعطف عليَّ قلب الملك ببركته لأنه مجذوب، ثم بعد ذلك أُرسِله إلى بلاد أصبهان؛ لأنها قريبة من بلادنا. فقال له: افعل ما تريد. ثم انصرف كلٌّ منهما متوجِّهًا إلى بلاده، وقد أخذ وزير الملك درباس أنس الوجود معه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن وزير الملك درباس أخذ أنس الوجود معه وهو مغشيٌّ عليه، وسار به ثلاثة أيام وهو في غشيته محمول على البغال، ولا يدري هل هو محمول أو لا، فلما أفاق من غشيته قال: في أي مكان أنا؟ فقالوا له: أنت صحبة وزير الملك درباس. ثم ذهبوا إلى الوزير وأخبروه أنه قد أفاق، فأرسل إليه ماء الورد والسكر، فسقوه وأنعشوه، ولم يزالوا مسافرين حتى قربوا من مدينة الملك درباس، فأرسل الملك إلى الوزير يقول له: إن لم يكن أنس الوجود معك فلا تأتني أبدًا. فلما قرأ مرسوم الملك عسر عليه ذلك، وكان الوزير لا يعلم أن الورد في الأكمام عند الملك، ولا يعلم ما سبب إرسال الملك إياه إلى أنس الوجود، ولا يعلم ما سبب رغبته في مصاهرته، وأنس الوجود لا يعلم أين يذهبون به، ولا يعلم أن الوزير مرسل في طلبه، والوزير لا يعلم أن هذا هو أنس الوجود. فلما رأى الوزير أن أنس الوجود قد استفاق قال له: إن الملك أرسلني في حاجة، وهي لم تُقضَ، ولما علم بقدومي أرسل إليَّ مكتوبًا يقول لي فيه: إن لم تكن الحاجة قد قُضِيت فلا تدخل مدينتي. فقال له: وما حاجة الملك؟ فحكى له جميع الحكاية، فقال له أنس الوجود: لا تَخَفْ، واذهب إلى الملك وخذني معك، وأنا أضمن لك مجيء أنس الوجود. ففرح الوزير بذلك وقال له: أحقٌّ ما تقول؟ فقال: نعم. فركب وأخذه معه وسار به إلى الملك، فلما وصلَا إلى الملك قال له: أين أنس الوجود؟ فقال أنس الوجود: أيها الملك، أنا أعرف مكان أنس الوجود. فقرَّبه إليه وقال له: في أي مكان هو؟ قال: في مكان قريب جدًّا، ولكن أخبِرْني ماذا تريد منه، وأنا أُحضِره بين يديك. فقال له: حبًّا وكرامة، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى خلوة. ثم أمر الناس بالانصراف، ودخل معه خلوة، وأخبره الملك بالقصة من أولها إلى

آخِرها، فقال له أنس الوجود: ائتني بثياب فاخرة وألبسني إياها، وأنا آتيك بأنس الوجود سريعًا. فأتاه ببدلة فاخرة فلبسها وقال: أنا أنس الوجود، وكمد الحسود. ثم رمى القلوب باللحظات، وأنشد هذه الأبيات:

يُؤَانِسُنِي ذِكْرُ الْحَبِيبِ بِخَلْوَتِي ... وَيَطْرُدُ عَنِّي فِي التَّبَاعُدِ وَحْشَتِي
وَمَا لِيَ غَيْرُ الدَّمْعِ عَوْنٌ وَإِنَّمَا ... إِذَا فَاضَ مِنْ عَيْنِي يُخَفِّفُ زَفْرَتِي
وَشَوْقِي شَدِيدٌ لَيْسَ يُوجَدُ مِثْلُهُ ... وَأَمْرِي عَجِيبٌ فِي الْهَوَى وَالْمَحَبَّةِ
فَأَقْطَعُ لَيْلِي سَاهِرَ الْجَفْنِ لَمْ أَنَمْ ... وَفِي الْعِشْقِ أَسْعَى بَيْنَ نَارٍ وَجَنَّةِ
وَقَدْ كَانَ لِي صَبْرٌ جَمِيلٌ عَدِمْتُهُ ... وَمَا مِنْحَتِي فِي الْحُبِّ إِلَّا بِمِحْنَتِي
وَقَدْ رَقَّ جِسْمِي مِنْ أَلِيمِ بِعَادِهِمْ ... وَغَيَّرَتِ الْأَشْوَاقُ وَصْفِي وَصُورَتِي
وَأَجْفَانُ عَيْنِي بِالدُّمُوعِ تَقَرَّحَتْ ... وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُسْكِتَ الْآنَ دَمْعَتِي
وَقَدْ قَلَّ حَيْلِي وَالْفُؤَادُ عَدِمْتُهُ ... وَكَمْ ذَا أُلَاقِي لَوْعَةً بَعْدَ لَوْعَةِ
وَقَلْبِي وَرَأْسِي فِي الْمَشِيبِ تَشَابَهَا ... عَلَى سَادَةٍ فِي الْحُسْنِ أَحْسَنَ سَادَةِ
عَلَى رُغْمِهِمْ كَانَ التَّفَرُّقُ بَيْنَنَا ... وَمَا قَصْدُهُمْ إِلَّا لِقَائِي وَوَصْلَتِي
فَيَا هَلْ تُرَى بَعْدَ التَّقَاطُعِ وَالنَّوَى ... يُمَتِّعُنِي دَهْرِي بِوَصْلِ أَحِبَّتِي
وَيَطْوِي كِتَابَ الْبُعْدِ مِنْ بَعْدِ نَشْرِهِ ... وَتُمْحَى بِرَاحَاتِ الْوِصَالِ مَشَقَّتِي
وَيَبْقَى حَبِيبِي فِي الدِّيَارِ مُنَادِمِي ... وَتُبْدَلُ أَحْزَانٌ بِصَفْوِ سَرِيرَتِي

فلما فرغ من شعره، قال له الملك: والله إنكما لمحبَّان صادقان، وفي سماء الحسن كوكبان نيِّران، وأمركما عجيب، وشأنكما غريب. ثم حكى له حكاية الورد في الأكمام إلى آخرها، فقال له: وأين هي يا ملك الزمان؟ قال: هي عندي الآن. ثم أحضر الملك القاضي والشهود وعقد عقدها عليه، وأكرمه وأحسن إليه، ثم أرسل الملك درباس إلى الملك شامخ، وأخبره بجميع ما اتفق له من أمر أنس الوجود والورد في الأكمام؛ ففرح الملك شامخ بذلك غاية الفرح، وأرسل إليه مكتوبًا مضمونه: «حيث حصل عقد العقد عندك، ينبغي أن يكون الفرح والدخول عندي.» ثم جهَّزَ الجمال والخيل والرجال، وأرسل في طلبهما، فلما وصلت الرسالة إلى الملك درباس مدَّهما بمال عظيم، وأرسلهما مع جملة من عسكره، فساروا بهما حتى دخلوا مدينتهما، وكان يومًا مشهودًا لم يُرَ أعظم منه، وجمع الملك شامخ سائر المطربات من آلات المغاني، وعمل الولائم، ومكثوا على ذلك سبعة أيام، وفي كل يوم يخلع الملك شامخ على الناس الخِلَع السنية ويُحسِن إليهم. ثم إن أنس الوجود دخل

على الورد في الأكمام فعانَقَها، وجلسَا يبكيان من فرط الفرح والمسرَّات؛ فأنشدت الورد في الأكمام هذه الأبيات:

جَاءَ السُّرُورُ أَزَالَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَا ثُمَّ اجْتَمَعْنَا وَأَكْمَدْنَا حَوَاسِدَنَا
وَنَسْمَةُ الْوَصْلِ قَدْ هَبَّتْ مُعَطَّرَةً فَأَحْيَتِ الْقَلْبَ وَالْأَحْشَاءَ وَالْبَدَنَا
وَبَهْجَةُ الْأُنْسِ قَدْ لَاحَتْ خَوَالِفُهَا وَفِي الْخَوَافِقِ قَدْ دَقَّتْ بَشَائِرَنَا
لَا تَحْسَبُوا أَنَّنَا بَاكُونَ مِنْ حَزَنٍ لَكِنْ فَرِحْنَا وَقَدْ فَاضَتْ مَدَامِعُنَا
فَكَمْ رَأَيْنَا مِنَ الْأَهْوَالِ وَانْصَرَفَتْ وَقَدْ صَبَرْنَا عَلَى مَا هَيَّجَ الشَّجَنَا
فَسَاعَةٌ مِنْ وِصَالٍ قَدْ نَسِينَا بِهَا مَا كَانَ مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ شَيَّبَنَا

فلما فرغت من شعرها تعانقا، ولم يزالا متعانقين حتى وقعا مغشيًّا عليهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أنس الوجود والورد في الأكمام لما اجتمعا تعانَقَا، ولم يزالَا متعانِقَيْنِ حتى وقعَا مغشيًّا عليهما من لذَّة الاجتماع، فلما أفاقا من غشيتهما أنشد أنس الوجود هذه الأبيات:

مَا أُحَيْلَاهَا لُيَيْلَاتِ الْوَفَا حَيْثُ أَمْسَى لِي حَبِيبِي مُنْصِفَا
وَتَوَالَى الْوَصْلُ فِيمَا بَيْنَنَا وَانْفِصَالُ الْهَجْرِ عَنَّا قَدْ وَفَى
وَإِلَيْنَا الدَّهْرُ يَسْعَى مُقْبِلًا بَعْدَمَا مَالَ وَعَنَّا انْحَرَفَا
نَصَبَ السَّعْدُ لَنَا أَعْلَامُهُ وَشَرِبْنَا مِنْهُ كَأْسًا قَدْ صَفَا
وَاجْتَمَعْنَا وَتَشَاكَيْنَا الْأَسَى وَلُيَيْلَاتٍ تَقَضَّتْ بِالْجَفَا
وَنَسِينَا مَا مَضَى يَا سَادَتِي وَعَفَا الرَّحْمَنُ عَمَّا سَلَفَا
مَا أَلَذَّ الْعَيْشَ مَا أَطْيَبَهُ لَمْ يَزِدْنِي الْوَصْلُ إِلَّا شَغَفَا

فلما فرغ من شعره تعانقا، واضطجعا في خلوتهما، ولم يزالا في منادمة وأشعار، ولطيف حكايات وأخبار، حتى غرقا في بحر الغرام، ومضت عليهما سبعة أيام، وهما لا يدريان ليلًا من نهار؛ لفرط ما هما فيه من لذة وسرور، وصفو وحبور، فكأنَّ السبعة أيام يوم واحد ليس له ثانٍ، وما عرفا يوم الأسبوع إلا بمجيء آلات المغاني؛ فأكثرت الورد في الأكمام التعجُّبات، ثم أنشدت هذه الأبيات:

عَلَى غَيْظِ الْحَوَاسِدِ وَالرَّقِيبِ بَلَغْنَا مَا نُرِيدُ مِنَ الْحَبِيبِ
وَأَسْعَفَنَا التَّوَاصُلُ بِاعْتِنَاقٍ عَلَى الدِّيبَاجِ وَالْقَزِّ الْقَشِيبِ

وَفَرْشٍ مِنْ أَدِيمٍ قَدْ حَشَوْنَا بِرِيشِ الطَّيْرِ مِنْ شَكْلٍ غَرِيبِ
وَعَنْ شُرْبِ الْمُدَامِ قَدِ اغْتَنَيْنَا بِرِيقِ الْحِبِّ جُلَّ عَنِ الضَّرِيبِ
وَمِنْ طِيبِ الْوِصَالِ فَلَيْسَ نَدْرِي بِأَوْقَاتِ الْبَعِيدِ مِنَ الْقَرِيبِ
لَيَالٍ سَبْعَةٌ مَرَّتْ عَلَيْنَا وَلَمْ نَشْعُرْ بِهَا كَمْ مِنْ عَجِيبِ
فَهَنُّونِي بِأُسْبُوعٍ وَقُولُوا أَدَامَ اللهُ وَصْلَكَ بِالْحَبِيبِ

فلما فرغت من شعرها قبَّلها أنس الوجود ما ينوف عن المئات، ثم أنشد هذه الأبيات:

أَتَى يَوْمُ السُّرُورِ مَعَ التَّهَانِي وَجَاءَ الْحِبُّ مِنْ صَدٍّ وَقَانِي
فَآنَسَنِي بِطِيبِ الْوَصْلِ مِنْهُ وَنَادَمَنِي بِأَلْطَافِ الْمَعَانِي
وَأَسْقَانِي شَرَابَ الْأُنْسِ حَتَّى ذُهِلْتُ عَنِ الْوُجُودِ بِمَا سَقَانِي
طَرِبْنَا وَانْشَرَحْنَا وَاضْطَجَعْنَا وَصِرْنَا فِي شَرَابٍ مَعْ أَغَانِي
وَمِنْ فَرْطِ السُّرُورِ فَلَيْسَ نَدْرِي مِنَ الْأَيَّامِ أَوَّلَهَا وَثَانِي
هَنِيئًا لِلْمُحِبِّ بِطِيبِ وَصْلٍ وَوَافَاهُ السُّرُورُ كَمَا وَفَانِي
وَلَا يَدْرِي لِمُرِّ الصَّدِّ طَعْمًا وَرَبِّي قَدْ حَبَاهُ كَمَا حَبَانِي

فلما فرغ من شعره قاما وخرجا من مكانهما، وأنعما على الناس بالمال والخلع، وأعطيا ووهبا، ثم أمرت الورد في الأكمام أن يُخلوا لها الحمَّام، وقالت لأنس الوجود: يا قرة عيني، قصدي أن أراك في الحمام ونكون بمفردنا من غير أحد معنا. وزادت بها المسرَّات فأنشدت هذه الأبيات:

أَيَا مَنْ قَدْ تَمَلَّكَنِي قَدِيمًا وَلَمْ يُغْنِ الْحَدِيثُ عَنِ الْقَدِيمِ
وَيَا مَنْ لَيْسَ لِي عَنْهُ غَنَاءٌ وَلَا أَرْجُو سِوَاهُ مِنْ نَدِيمِ
إِلَى الْحَمَّامِ قُمْ يَا نُورَ عَيْنِي نَرَى الْفِرْدَوْسَ فِي وَسَطِ الْجَحِيمِ
وَنَعْبَقُهَا بِعُودِ النَّدِّ حَتَّى يَفُوحُ الطِّيبُ فِي الْقَطْرِ الْعَمِيمِ
وَنَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبِ الدَّهْرِ طُرًّا وَنَشْكُرُ فَضْلَ مَوْلَانَا الرَّحِيمِ
وَأَنْشُدُ إِذْ أَرَاكَ هُنَاكَ فِيهَا هَنِيئًا يَا حَبِيبِي بِالنَّعِيمِ

فلما فرغت من شعرها، قاما وذهبا إلى الحمام وتنعَّما فيه، ثم عادا إلى قصرهما وأقاما به في ألذِّ المسرات إلى أن أتاهما هادم اللذات، ومفرِّق الجماعات، فسبحان مَن لا يحول ولا يزول، وإليه كل الأمور تئُول.

حكاية أبي نواس والغلمان الحسان

ومما يُحكَى أن أبا نواس خلا بنفسه يومًا من الأيام، وهيَّأ مجلسًا فاخرًا وجمع فيه من أنواع الأطعمة وسائر الألوان كل ما تشتهي الشفة واللسان، ثم إنه خرج يمشي في طلب محبوب لائق بذلك المجلس وقال: يا إلهي وسيدي ومولاي، أسألك أن تسوق لي مَن يناسب ذلك المجلس ويصلح للمنادمة معي في هذا اليوم. فما استتم كلامه إلا وقد رأى ثلاثة من المُرْد الحسان، كأنهم من ولدان الجنان، إلا أن ألوانهم مختلفة ومحاسنهم في الإبداع مؤتلفة، وفي تثني معاطفهم تطمع الآمال، على حدِّ قول مَن قال:

مَرَرْتُ بِأَمْرَدَيْنِ فَقُلْتُ إِنِّي أُحِبُّكُمَا فَقَالَ الْأَمْرَدَانِ
أَذُو مَالٍ؟ فَقُلْتُ وَذُو سَخَاءٍ فَقَالَ الْأَمْرَدَانِ الْأَمْرُ دَانِ

وكان أبو نواس يذهب هذا المذهب، ومع الملاح يلهو ويطرب، ويجتني ورد كل خد ناضر، كما قال الشاعر:

وَشَيْخٍ كَبِيرٍ لَهُ صَبْوَةٌ يُحِبُّ الْمِلَاحَ وَيَهْوَى الطَّرَبْ
غَدَا مُوصِلِيًّا بِأَرْضِ النَّقَا فَمَا إِنْ تَذَكَّرَ إِلَّا حَلَبْ

فذهب إلى هؤلاء الغلمان وحيَّاهم بالسلام، فقابلوه بأوفى تحية وإكرام، ثم أرادوا الانصراف إلى بعض الجهات، فحجزهم أبو نواس وأنشد هذه الأبيات:

فَلَا تَسْعَوْا إِلَى غَيْرِي فَعِنْدِي مَعْدَنُ الْخَيْرِ
وَعِنْدِي قَهْوَةٌ تُجْلَى سَبَاهَا رَاهِبُ الدَّيْرِ
وَعِنْدِي اللَّحْمُ مِنْ ضَأْنٍ وَأَصْنَافٌ مِنَ الطَّيْرِ
كُلُوا ذَا وَاشْرَبُوا خَمْرًا عَتِيقًا مُذْهِبَ الضَّيْرِ
وَنِيكُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا وَدُسُّوا بَيْنَكُمْ أَيْرِي

فلما خدع الغلمان بأبياته مالوا إلى مرضاته وأجابوه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا نواس لما خدع الغلمان بأبياته، مالوا إلى مرضاته وأجابوه بالسمع والطاعة، وذهبوا معه إلى منزله، فوجدوا جميع ما وصفه في شعره حاضرًا في المجلس، فجلسوا وأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا وتحاكموا عند أبي نواس في أيهم أحسن بهجةً وجمالًا، وأقوم قدًّا واعتدالًا. فأشار إلى أحدهم بعد تقبيله مرتين، ثم أنشد هذين البيتين:

بِرُوحِيَ أَفْدِي خَالَهُ فَوْقَ خَدِّهِ　　وَمِنْ أَيْنَ هَذَا الْخَالُ أَفْدِيهِ بِالْمَالِ
تَبَارَكَ مَنْ أَخْلَى مِنَ الشَّعْرِ خَدَّهُ　　وَأَسْكَنَ كُلَّ الْحُسْنِ فِي ذَلِكَ الْخَالِ

ثم أشار إلى الثاني بعد لثم الشفتين، وأنشد هذين البيتين:

وَمَعْشُوقٍ لَهُ فِي الْخَدِّ خَالٌ　　كَمِسْكٍ فَوْقَ كَافُورٍ نَقِيٍّ
تَعَجَّبَ نَاظِرِي لَمَّا رَآهُ　　فَقَالَ الْخَالُ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ

ثم أشار إلى الثالث بعد تقبيله عشر مرات، وأنشد هذه الأبيات:

أَذَابَ التِّبْرَ فِي كَأْسِ اللُّجَيْنِ　　فَتًى بِالرَّاحِ مَخْضُوبُ الْيَدَيْنِ
وَطَافَ مَعَ السُّقَاةِ بِكَأْسِ رَاحٍ　　وَطَافَتْ مُقْلَتَاهُ بِآخَرَيْنِ
مَلِيحٌ مِنْ بَنِي الْأَتْرَاكِ ظَبْيٌ　　يُجَاذِبُ خَصْرُهُ جَبَلَيْ حُنَيْنِ
لَئِنْ سَكَنَتْ إِلَى الزَّوْرَاءِ نَفْسِي　　فَإِنَّ الْقَلْبَ بَيْنَ مُحَرَّكَيْنِ
هُوَ يَقْتَادُهُ لِدِيَارِ بَكْرٍ　　وَآخَرُ نَحْوَ أَرْضِ الْجَامِعَيْنِ

وكان كل واحد من الغلمان قد شرب قدحين، فلما وصل الدور إلى أبي نواس أخذ القدح وأنشد هذين البيتين:

لَا تَشْرَبِ الرَّاحَ إِلَّا مِنْ يَدَيْ رَشَأٍ تَحْكِيهِ فِي رِقَّةِ الْمَعْنَى وَيَحْكِيهَا
إِنَّ الْمُدَامَةَ لَا يَلْتَذُّ شَارِبُهَا حَتَّى يَكُونَ نَقِيَّ الْخَدِّ سَاقِيهَا

ثم شرب كأسه ودار الدور، فلما وصل الدور إلى أبي نواس ثانيًا، غلبت عليه المسرات فأنشد هذه الأبيات:

اجْعَلْ نَدِيمَكَ أَقْدَاحًا تُوَاصِلُهَا مِنَ الْمُدَامِ وَأَتْبِعْهَا بِأَقْدَاحِ
مِنْ كَفِّ أَلْمَى بَدِيعِ الْحُسْنِ رِيقَتُهُ بَعْدَ الْهُجُوعِ كَمِسْكٍ أَوْ كَتُفَّاحِ
لَا تَشْرَبِ الرَّاحَ إِلَّا مِنْ يَدَيْ رَشَأٍ تَقْبِيلُ وَجْنَتِهِ أَشْهَى مِنَ الرَّاحِ

فلما غلب السكر على أبي نواس ولم يعرف له يدًا من رأس، مال على الغلمان بالبوس والعناق والتفاف الساق على الساق، ولم يبالِ بإثم ولا عار، وأنشد هذه الأشعار:

مَا اسْتَكْمَلَ اللَّذَاتِ إِلَّا فَتًى يَشْرَبُ وَالْمُرْدُ نَدَامَاهُ
هَذَا يُغَنِّيهِ وَهَذَا إِذَا أَنْعَشَهُ بِالْكَأْسِ حَيَّاهُ
وَكُلَّمَا احْتَاجَ إِلَى قُبْلَةٍ مِنْ وَاحِدٍ أَرْشَفَهُ فَاهُ
سَقْيًا لَهُمْ قَدْ طَابَ يَوْمِي بِهِمْ وَا عَجَبًا مَا كَانَ أَحْلَاهُ
نَشْرَبُهَا صِرْفًا وَمَمْزُوجَةً وَشَرْطُنَا مَنْ نَامَ نِكْنَاهُ

فبينما هم كذلك وإذا بطارق يطرق الباب، فأذنوا له في الدخول، فلما دخل وجدوه أمير المؤمنين هارون الرشيد، فقام له الجميع وقبلوا الأرض بين يديه، واستفاق أبو نواس من سكره لهيبة الخليفة، فقال له أمير المؤمنين: يا أبا نواس. فقال: لبيك يا أمير المؤمنين أَيَّدَكَ الله. قال له: ما هذا الحال؟ قال: يا أمير المؤمنين، لا شكَّ أن الحال يُغنِي عن السؤال. فقال له الخليفة: يا أبا نواس، قد استخرتُ الله تعالى ووليتك قاضي المعرصين. فقال أبو نواس: وهل تحب لي هذه الولاية يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك من دعوة تدعيها عندي؟ فاغتاظ منه أمير المؤمنين ثم ولَّى وتركهم وهو ممزوج بالغضب، فلما جنَّ الليل بات أمير المؤمنين في غيظ شديد من أبي نواس، وبات أبو نواس

في أسر الليالي بما هو فيه من البسط والانشراح، فلما أصبح الصباح وأضاء كوكبه ولاح، فضَّ أبو نواس المجلس وصرف الغلمان، ولبسَ لبْسَ الموكب وخرج من بيته متوجِّهًا إلى أمير المؤمنين، وكان من عادة أمير المؤمنين أنه إذا فضَّ الديوان يدخل قاعة الجلوس، ثم يحضر فيها الشعراء والندماء وأرباب الآلات، ويجلس كل منهم في مرتبته لا يتعداها، فأتفق أن كان في ذلك اليوم نزل من الديوان إلى القاعة وأحضر ندماءه وأجلسهم في مراتبهم، فلما جاء أبو نواس وأراد أن يجلس في موضعه، دعا أمير المؤمنين بمسرور السياف وأمره أن ينزع عن أبي نواس ثيابه، ويشد على ظهره برذعة حمار، ويجعل في رأسه مقودًا وفي دبره طفرًا، ويدور به على مقاصير الجواري. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين أمر مسرور السياف أن ينزع عن أبي نواس ثيابه، ويشد على ظهره برذعة، ويجعل في رأسه مقودًا وفي دبره طفرًا، ثم يدور به على مقاصير الجواري وعلى منازل الحريم وسائر المحلات، ليسخروا به، وبعد ذلك يقطع رأسه ويأتيه بها، فقال مسرور: سمعًا وطاعة. وأخذ يفعل ما أمره به الخليفة ودار به على المقاصير، وكان عددها بعدد أيام السنة، وكان أبو نواس مُضحِكًا وكلُّ مَن رآه يعطيه مالًا، فما رجع إلا وجيبه ملآن مالًا، فبينما هو على هذه الحالة وإذا بجعفر البرمكي مُقبِل، فدخل على الخليفة وكان غائبًا في أمر مهم لأمير المؤمنين، فرأى أبا نواس في هذه الحالة فعرفه، فقال له: يا أبا نواس. فقال له: لبيك يا مولانا. قال له: أي ذنب فعلتَ حتى حصلَتْ لك هذه العقوبة؟ فقال له أبو نواس: ما فعلتُ ذنبًا إلا أني هاديتُ مولانا الخليفة بمحاسن أشعاري، فهاداني بمحاسن ملبوسه. فلما سمع أمير المؤمنين ذلك، ضحك ضحكًا ناشئًا عن قلب مملوء بالغيظ، وعفا عنه وأمر له ببدرة من المال.

من حكايات العشق ومكارم الأخلاق

حكاية عبد الله بن معمر ورجل من البصرة

ومما يُحكَى أن بعض أهل البصرة اشترى جارية فأدَّبَها وأحسن أدبها وتعليمها، وكان يحبها غاية المحبة، وأنفق ماله على البسط والانشراح وهو معها، ولم يَبْقَ عنده شيء، وقد أضرَّ به الفقر الشديد، فقالت له الجارية: يا سيدي، بعني لأنك محتاج إلى ثمني، وقد أشفقت على حالك مما أرى بك من الفقر، فلو بعتني وأنفقتَ ثمني لَكان ذلك أصلح لك من بقائي عندك، ولعل الله تعالى يوسع عليك رزقك، فأجابها إلى ذلك من ضيق حاله، ثم

أخذها ونزل بها السوق فعرضها الدلال على أمير البصرة وكان اسمه عبد الله بن معمر التيمي، فأعجبته فاشتراها بخمسمائة دينار، ودفع ذلك المبلغ إلى سيدها، فلما قبضه سيدها وأراد الانصراف، بكت الجارية وأنشدت هذين البيتين:

هَنِيئًا لَكَ الْمَالُ الَّذِي قَدْ حَوَيْتَهُ ... وَلَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ الْأَسَى وَالتَّفَكُّرِ
أَقُولُ لِنَفْسِي وَهْيَ فِي سُوءِ كَرْبِهَا ... أَقِلِّي فَقَدْ بَانَ الْحَبِيبُ أَوِ اكْثِرِي

فلما سمعها سيدها صعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات:

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْأَمْرِ عِنْدَكَ حِيلَةٌ ... وَلَمْ تَجِدِي شَيْئًا سِوَى الْمَوْتِ فَاعْذِرِي
أَرُوحُ وَأَغْدُو وَالْأَوَانِسُ ذِكْرُهُمْ ... أُنَاجِي بِهِ قَلْبًا شَدِيدَ التَّفَكُّرِ
عَلَيْكِ سَلَامٌ لَا زِيَارَةَ بَيْنَنَا ... وَلَا وَصْلَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ابْنُ مَعْمَرِ

فلما سمع عبد الله بن معمر شعرهما ورأى كآبتهما قال: والله كنت معينًا على فراقكما وقد ظهر لي أنكما متحابان، فخذ المال والجارية أيها الرجل بارك الله لك فيهما، فإن افتراق الحبيبين من بعضهما صعب عليهما. فقبَّلَ الاثنان يده وانصرفا، وما زالا مجتمعين إلى أن فرَّقَ بينهما الموت، فسبحان مَن لا يدركه فوت.

حكاية العاشق العذري

ومما يُحكَى أنه كان في بني عذرة رجل ظريف وكان لا يخلو من العشق يومًا واحدًا، فاتفق له أنه أحب امرأة جميلة من الحي، فراسَلَها أيامًا وهي لا تزال تجفوه وتصدُّ عنه إلى أن أضرَّ به الغرام والوَجْد والهيام، فمرض مرضًا شديدًا ولزم الوساد وجفا الرقاد، وظهر للناس أمره واشتهر بالعشق ذِكْرُه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل لزم الوساد وجفا الرقاد، وظهر للناس أمره واشتهر بالعشق ذِكْرُه، وازداد سقمه وعَظُمَ ألمه حتى كاد أن يموت، ولم يزل أهله وأهلها يسألونها أن تزوره وهي تأبى، إلى أن أشرف على الموت فأخبروها بذلك، فرَقَّتْ له وأنعمت عليه بالزيارة، فلما نظرها تحدَّرَتْ عيناه بالدموع، وأنشد عن قلب مصدوع:

بِعَيْشِكِ إِنْ مَرَّتْ عَلَيْكِ جَنَازَتِي وَقَدْ رُفِعَتْ مِنْ فَوْقِ أَعْنَاقِ أَرْبَعِ
أَمَا تَتْبَعِينَ النَّعْشَ حَتَّى تُسَلِّمِي عَلَى قَبْرِ مَيْتٍ فِي الْحَفِيرَةِ مُودَعِ

فلما سمعت كلامه بكت بكاء شديدًا وقالت له: والله ما كنت أظن أنه بلغ بك الغرام إلى أن يلقيك بين أيدي الحمام، ولو علمتُ بذلك لساعدتك على حالك وتمتَّعْتُ بوصالك. فلما سمع كلامها، صارت دموعه كالسحاب الماطر، وأنشد قول الشاعر:

دَنَتْ حِينَ حَالَ الْمَوْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ

ثم شهق شهقة فمات، فوقعت عليه تلثمه وتبكي، ولم تزل تبكي حتى وقعت عنده مغشيًّا عليها، فلما أفاقت أوصت أهلها أنهم يدفنونها في قبره إذا ماتت، ثم أَجْرَتْ دمعَ العين وأنشدت هذين البيتين:

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا وَالْعَيْشُ فِي رَغَدٍ وَالْحَيُّ يَزْهُو بِنَا وَالدَّارُ وَالْوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ وَالتَّصْرِيفُ أُلْفَتَنَا وَصَارَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَفَنُ

فلما فرغت من شعرها بكت بكاءً شديدًا، ولم تزل تبكي حتى وقعت مغشيًّا عليها، واستمرت في غشيتها ثلاثة أيام، وماتت ودُفِنت في قبره، وهذا من عجيب الاتفاق في المحبة.

حكاية بدر الدين وزير اليمن والشيخ

ومما يُحكَى أن الصاحب بدر الدين وزير اليمن كان له أخ بديع الجمال، وكان شديد الحرص عليه، فالتمس له مَن يعلِّمه فوجد شيخًا ذا هيبة ووقار وعفة وديانة، فأسكنه بمنزل بجانب منزله وأقام على ذلك مدة أيام، وهو كل يوم يذهب من بيته إلى بيت الصاحب بدر الدين ليعلم أخاه ثم ينصرف إلى منزله، ثم إن الشيخ تعلق قلبه بحب ذلك الشاب وقوي به غرامه وهاجت بلابله، فشكا حاله يومًا إلى الشاب، فقال له الشاب: ما حيلتي وأنا لا أستطيع مفارقة أخي ليلًا ونهارًا، فهو ملازم لي كما ترى. فقال له الشيخ: إن منزلي بجانب منزلكم، فيمكن إذا نام أخوك أن تقوم أنت تدخل الخلوة وتظهر للناس أنك تنام، ثم تأتي إلى حائط السطح وأنا أتناولك من وراء الجدار، فتجلس عندي لحظة ثم تعود من غير أن يشعر بك أخوك. فقال الشاب: سمعًا وطاعة. فجهَّزَ الشيخ من التحف ما يليق بمقامه.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الشاب، فإنه دخل الخلوة وصبر حتى أخذ أخوه في مضجعه، ومضت ساعة من الليل حتى استغرق أخوه في النوم، ثم قام وتمشى إلى الحائط فوجد الشيخ واقفًا ينتظره، فناوله يده فأخذه ودخل به المجلس، وكانت تلك الليلة ليلة البدر، فجلسا وتنادما ودارت بينهما كاسات الراح، فأخذ الشيخ في الغناء وقد ألقى البدر شعاعه عليهما. فبينما هما في فرح وسرور، ولذة وحبور، وحظ يدهش العقل والطرف ويجل عن الوصف، إذ انتبه الصاحب بدر الدين من منامه فلم يجد أخاه، فقام فزعًا فوجد الباب مفتوحًا، فطلع منه فسمع همس الكلام، فصعد من الحائط إلى السطح فوجد نورًا ساطعًا بالبيت، فنظر من خلف جدار فوجدهما والكأس دائر بينهما، فحسَّ به الشيخ والكأس في يده، فأطرب بالنغمات وأنشد هذه الأبيات:

سَقَانِي خَمْرَةً مِنْ رِيقِ فِيهِ وَحَيًّا بِالْعَذَارِ وَمَا يَلِيهِ
وَبَاتَ مُعَانِقِي خَدًّا لِخَدٍّ مَلِيحٌ فِي الْأَنَامِ بِلَا شَبِيهِ
وَبَاتَ الْبَدْرُ مُطَّلِعًا عَلَيْنَا سَلُوهُ لَا يَنِمُّ عَلَى أَخِيهِ

فكان من لطافة الصاحب بدر الدين أنه لم سمع هذه الأبيات قال: والله لا أنمُّ عليكما. ومضى وتركهما في أتمِّ سرور.

حكاية العاشقين في مكتب التعليم

ومما يُحكَى أن غلامًا وجارية كانَا يقرآن في مكتب، فتعلَّقَ الغلام بحب الجارية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام تعلَّقَ بحبِّ الجارية وأحَبَّها حبًّا شديدًا، فلما كان في بعض الأيام في ساعة غفلة الصبيان، أخذ الغلام لوح الجارية وكتب فيه هذين البيتين:

مَاذَا تَقُولِينَ فِيمَنْ شَفَّهُ سَقَمُ   مِنْ فَرْطِ حُبِّكِ حَتَّى صَارَ حَيْرَانَا
يَشْكُو الصَّبَابَةَ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ أَلَمٍ   لَا يَسْتَطِيعُ لِمَا فِي الْقَلْبِ كِتْمَانَا

فلما أخذت الجارية لوحها رأت هذا الشعر مكتوبًا فيه، فلما قرأته وفهمت معناه بكت رحمةً له، وكتبت تحت خط الغلام هذين البيتين:

إِذَا رَأَيْنَا مُحِبًّا قَدْ أَضَرَّ بِهِ   حَالُ الصَّبَابَةِ أَوْلَيْنَاهُ إِحْسَانَا
وَيَبْلُغُ الْقَصْدَ مِنَّا فِي مَحَبَّتِهِ   وَلَوْ يَكُونُ عَلَيْنَا كُلُّ مَا كَانَا

فاتفق أن الفقيه دخل عليهما فوجد اللوح على حين غفلة، فأخذه وقرأ ما فيه فرَقَّ لحالهما، وكتب في اللوح تحت كتابهما هذين البيتين:

صِلِي مُحِبَّكِ لَا تَخْشَيْ مُعَاقَبَةً   إِنَّ الْمُحِبَّ غَدَا فِي الْحُبِّ حَيْرَانَا
أَمَّا الْفَقِيهُ فَلَا تَخْشَى مَهَابَتَهُ   فَإِنَّهُ قَدْ بُلِيَ بِالْعِشْقِ أَزْمَانَا

فاتفق أن سيد الجارية دخل المكتب في تلك الساعة، فوجد لوح الجارية فأخذه وقرأ ما فيه من كلام الجارية وكلام الشاب وكلام الفقيه، فكتب الآخر في اللوح تحت كتابة الجميع هذين البيتين:

لَا فَرَّقَ اللهُ طُولَ الدَّهْرِ بَيْنَكُمَا وَظَلَّ وَاشِيكُمَا حَيْرَانَ تَعْبَانَا
أَمَّا الْفَقِيهُ فَلَا وَاللهِ مَا نَظَرَتْ عَيْنَايَ أَعْرَسَ مِنْهُ قَطُّ إِنْسَانَا

ثم إن سيد الجارية أرسل خلف القاضي والشهود، وكتب كتابها على الشاب في المجلس، وجعل لهما وليمة وأحسن إليهما إحسانًا عظيمًا، وما زالا مجتمعين في هناء وسرور إلى أن أدركهما هادم اللذات ومفرِّق الجماعات.

حكاية المتلمس وزوجته أميمة

ومما يُحكَى أن المتلمس هرب من النعمان بن المنذر وغاب غيبة طويلة حتى ظنوا أنه مات، وكان له زوجة جميلة تُسمَّى أميمة، فشار عليها أهلها بالزواج فأَبَتْ، فألحوا عليها لكثرة خطَّابها وغصبوها على الزواج، فأجابتهم إلى ذلك وهي كارهة، فزوَّجوها رجلًا من قومها، وكانت تحبُّ زوجَها المتلمس محبةً عظيمة، فلما كانت ليلة زفافها على ذلك الرجل الذي غصبوها على الزواج به، قَدِمَ زوجُها المتلمس في تلك الليلة، فسمع في الحي صوت المزامير والدفوف ورأى علامات الفرح، فسأل من بعض الصبيان عن هذا الفرح فقالوا له: إن أميمة زوجة المتلمس زوَّجوها لفلان، وها هو داخل في هذه الليلة. فلما سمع المتلمس ذلك الكلام تحيَّلَ في الدخول مع جملة النساء، فوجدهما على منصتهما وقد تقدَّمَ إليها العريس، فتنفست الصعداء وبكت وأنشدت هذا البيت:

أَيَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ بِـأَيِّ بِـلَادٍ أَنْـتَ يَـا مُـتَـلَـمِّـسُ؟

وكان زوجها المتلمِّس من الشعراء المشهورين، فأجابها بقوله:

بِـأَقْـرَبِ دَارٍ يَـا أُمَـيْـمَـةُ فَـاعْـلَـمِـي وَمَا زِلْتُ مُشْتَاقًا إِذَا الرَّكْبُ عَرَّسُوا

فعند ذلك فطن العريس بهما، فخرج من بينهما بسرعة وهو ينشد قوله:

فَكُنْتُ بِخَيْرٍ ثُمَّ بِتُّ بِضِدِّهِ وَضَمَّكُمَا بَيْتٌ رَحِيبٌ وَمَجْلِسُ

ثم تركهما وذهب، واختلى بها زوجها المتلمِّس، وما زالا في أطيب عيش وأصفاه وأرغده وأهناه، إلى أن فرَّقَ بينهما الممات، فسبحان مَن تقوم بأمره الأرض والسموات.

حكاية هارون الرشيد والسيدة زبيدة في البحيرة

ومما يُحكَى أن الخليفة هارون الرشيد كان يحب السيدة زبيدة محبةً عظيمة، وبنى لها مكانًا للتنزُّه، وعمل فيه بحيرة من الماء، وعمل لها سياجًا من الأشجار، وأرسل إليها الماء من كل جانب، فالتفَّتْ عليها الأشجار حتى لو دخل أحد يغتسل في تلك البحيرة لم يره أحد من كثرة أوراق الشجر، فاتفق أن السيدة زبيدة دخلت ذلك المكان يومًا، وأتت إلى البحيرة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة زبيدة لما دخلت ذلك المكان يومًا، وأتت إلى البحيرة وتفرَّجت على حُسْنها، فأعجبها رونقها، والتفاف الأشجار عليها، وكان ذلك في يوم شديد الحر، فقلعت أثوابها ونزلت في البحيرة ووقفت، وكانت البحيرة لا تستر مَن يقف فيها، فجعلت تملأ الماء بإبريقٍ من لُجَيْن، وتصبُّ الماء على بدنها، فعلم الخليفة بذلك فنزل من قصره يتجسَّس عليها من خلف أوراق الأشجار، فرآها عريانة وقد بان منها ما كان مستورًا، فلمَّا أحست بأمير المؤمنين خلف أوراق الأشجار وعرفت أنه رآها عريانة، التفتت إليه ونظرته؛ فاستحت منه ووضعت يديها على فرجها، ففاض من بين يديها لفرط كبره وغلظه؛ فولَّى من ساعته وهو يتعجَّب من ذلك، وينشد هذا البيت:

نَظَرَتْ عَيْنِي لِحَيْنِي وَذَكَا وَجْدِي لِبَيْنِي

ولم يدرِ بعد ذلك ما يقول، فأرسل خلف أبي نواس يحضر، فلما حضر بين يديه قال له الخليفة: أنشدني شعرًا أقول في أوَّله: نظرتْ عيني لحيني وذكا وَجْدي لبيني. فقال أبو نواس: سمعًا وطاعة. وارتجل في أقرب اللحظات، وأنشد هذه الأبيات:

نَظَرَتْ عَيْنِي لِحَيْنِي وَذَكَا وَجْدِي لِبَيْنِي
مِنْ غَزَالٍ قَدْ سَبَانِي تَحْتَ ظِلِّ السِّدْرَتَيْنِ
سَكَبَ الْمَاءُ عَلَيْهِ بِأَبَارِيقِ اللُّجَيْنِ

نَظَرَتْنِي سَتَرَتْهُ فَاضَ مِنْ بَيْنَ الْيَدَيْنِ
لَيْتَنِي كُنْتُ عَلَيْهِ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ

فتبسَّمَ أمير المؤمنين من كلامه وأحسن إليه، وانصرف من عنده مسرورًا.

حكاية هارون الرشيد والشعراء الثلاثة

ومما يُحكَى أن أمير المؤمنين الرشيد قلق ذات ليلة قلقًا شديدًا، فقام يتمشَّى في جوانب قصره، فوجد جارية تتمايل من السُّكْر، وكان يهوى تلك الجارية ويحبها محبة عظيمة، فلاعَبَها وجذبها إليه، فسقط رداؤها وانحَلَّ إزارها، فسألها الوصل، فقالت: امهلني إلى ليلة غدٍ يا أمير المؤمنين، فإني غير متهيِّئة لك؛ لأنه لم يكن لي عِلْم بحضورك. فتركها ومضى، فلما أقبل النهار وأشرقت من شمسه الأنوار، أرسل إليها غلامًا يعرِّفها أن أمير المؤمنين حاضر إلى حجرتها، فأرسلت تقول له: كلام الليل يمحوه النهار. فقال الرشيد لندمائه: أنشدوني شعرًا فيه: «كلام الليل يمحوه النهار». فقالوا: سمعًا وطاعة. ثم تقدَّمَ الرقاشي وأنشد هذه الأبيات:

أَمَا وَاللهِ لَوْ تَجِدِينَ وَجْدِي لَوَلَّى مُعْرِضًا عَنْكِ الْقَرَارُ
وَقَدْ تَرَكَتْكَ صَبًّا مُسْتَهَامًا فَتَاةٌ لَا تَزُورُ وَلَا تُزَارُ
إِذَا وَعَدَتْكَ صَدَّتْ ثُمَّ قَالَتْ كَلَامُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَّهَارُ

وبعد ذلك تقدَّمَ أبو مصعب وأنشد هذه الأبيات:

مَتَّى تَصْحُو وَقَلْبُكَ مُسْتَطَارُ وَلَمْ تَهْجَعْ وَقَدْ مُنِعَ الْقَرَارُ
أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ الْعَيْنَ عَبْرَى وَفِي الْأَحْشَاءِ آلَامٌ وَنَارُ
تَبَسَّمَ ضَاحِكًا إِذْ قَالَ عُجْبًا كَلَامُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَّهَارُ

ثم تقدَّمَ أبو نواس وأنشد هذه الأبيات:

تَمَادَّى الْحُبُّ وَانْقَطَعَ الْمَزَارُ وَجَاهَرْنَا فَلَمْ يُغْنِ الْجِهَارُ
وَلَيْلَةَ أَقْبَلَتْ فِي الْقَصْرِ سَكْرَى وَلَكِنْ زَيَّنَ السُّكْرَ الْوَقَارُ
وَقَدْ سَقَطَ الرِّدَا عَنْ مَنْكِبَيْهَا مِنَ التَّخْمِيشِ وَانْحَلَّ الْإِزَارُ

وَهَـزَّ الـرِّيـحُ أَرْدَافًـا ثِـقَـالًا وَغُصْنًا فِيهِ رُمَّانٌ صِغَارُ
فَقُلْتُ: عِدِي مُحِبَّكِ وَعْدَ صِدْقٍ فَقَالَتْ: فِي غَدٍ يَصْفُو الْمَزَارُ
فَجِئْتُ وَقُلْتُ: أَيْنَ الْوَعْدُ؟ قَالَتْ: كَلَامُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَّهَارُ

فأمر الخليفة لكل واحد من الشعراء ببدرة من المال إلا أبا نواس، فإنه أمر بضرب عنقه وقال له: أنت كنتَ حاضرًا معنا في القصر ليلًا؟ فقال: والله ما نمتُ إلا في بيتي، وإنما استدللتُ بكلامك على مضمون الشعر، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. فعفا عنه وأمر له ببدرتين من المال، ثم انصرفوا من عنده.

حكاية مصعب بن الزبير وعائشة بنت طلحة

ومما يُحكَى عن مصعب بن الزبير أنه وجد عزة في المدينة وكانت من أعقل النساء، فقال لها: إني عزمتُ على زواج عائشة بنت طلحة، وأنا أحب منك أن تسيري إليها متأملة لخلقها. فسارت إليها ثم رجعت إلى مصعب وقالت له: رأيت وجهًا أحسن من العافية، لها عينان نجلاوان من تحتهما أنف أقنى، وخدان أسيلان، وفم كفم الرمانة، وعنق كإبريق فضة، وتحت ذلك صدر فيه نهدان كأنهما رمانتان، وتحت ذلك بطن أقب فيه سرَّة كأنها حق عاج، ولها عجيزة كدعص الرمل، وفخذان ملفوفتان، وساقان كأنهما من المرمر عمودان، غير أني رأيتُ في رجلها كبرًا وأنت تغيب عندها وقت الحاجة. فلما وصفَتْها عزة بتلك الصفات، تزوَّجَها مصعب ودخل بها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عزة لما وصفت عائشة بنت طلحة بتلك الصفات تزوَّجَها مصعب ودخل بها، ثم إن عزة دعت عائشة ونساء قريش إلى بيتها، فغَنَّتْ عزة — ومصعب قائم — بهذين البيتين:

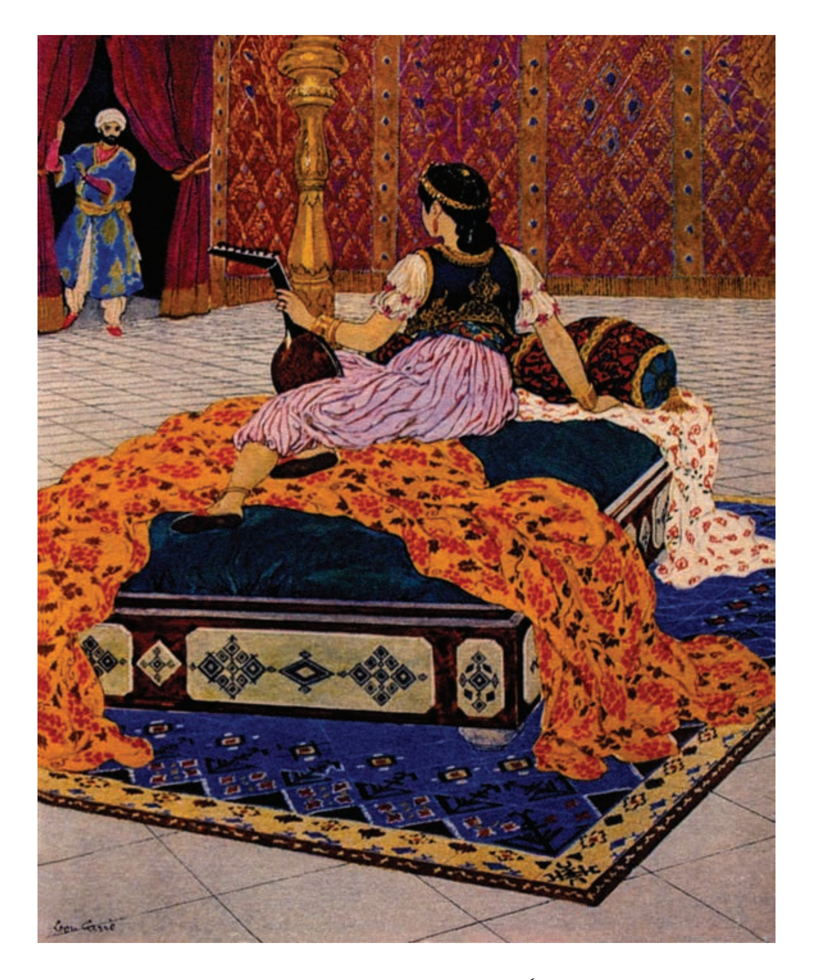
وَثَغْرُ الْبَنَاتِ لَهُ نَكْهَةٌ لَذِيذُ الْمُقَبَّلِ وَالْمُبْتَسَمْ
وَمَا ذُقْتُهُ غَيْرَ ظَنِّي بِهِ وَبِالظَّنِّ يَحْكُمُ فِيهَا الْحَكَمْ

وليلة دخول مصعب بها لم ينصرف عنها إلا بعد سبع مرات، فلقيته مولاة له حين أصبح، فقالت له: فديتك، كملت في كل شيء حتى في هذا. وقالت امرأة: كنت عند عائشة بنت طلحة فدخل زوجها فحنت إليه، فوقع عليها فشخرت ونخرت، وأتت من الحركات بالعجائب وبدائع الغرائب وأنا أسمع، فلما خرج من عندها قلتُ لها: كيف تفعلين هذا وأنا في بيتك مع شرفك ونَسَبك وحَسَبك؟ فقالت: إن المرأة تأتي لزوجها بكل ما تقدر عليه من المهيِّجات وغريب الحركات، فما الذي تُنكِرينه من ذلك؟ فقلتُ: أحِبُّ أن يكون ذلك ليلًا. قالت: ذاك هكذا بالنهار، وبالليل أفعل أعظم منه؛ لأنه حين يراني تتحرَّك شهوته وتهيج عليه باءته، فيمد يده إليَّ فأطاوعه، فيكون ما ترين.

حكاية أبي الأسود والجارية الحولاء

وبلغني أن أبا الأسود اشترى جاريةً حولاء مولدة فأُعجِب بها، فذمَّها أهله عنده، فتعجَّبَ منهم وقلب الكفين وأنشد هذين البيتين:

يُعِيبُونَهَا عِنْدِي وَلَا عَيْبَ عِنْدَهَا سِوَى أَنَّ فِي الْعَيْنَيْنِ بَعْضَ الْمَآثِرِ
فَإِنْ يَكُ فِي الْعَيْنَيْنِ عَيْبٌ فَإِنَّهَا مُهَفْهَفَةُ الْكَشْحَيْنِ تَحْتَ الْمَآزِرِ



فدخل زوجها، فحنَّت إليه وأتَت من الحركات بالعجائب والغرائب.

حكاية هارون الرشيد والجواري

ومما يُحكَى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان ليلة بين جاريتين؛ مدنية وكوفية، فجعلت الكوفية تكبس يديه، والمدنية تكبس رجليه، وجعلت ترفع البضاعة، فقالت لها الكوفية: أراكِ قد انفردتِ دوننا برأس المال وحدك، فأعطيني نصيبي منه. فقالت المدنية: حدَّثَنِي مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن أحيا مواتًا فهو له ولعقبه.»

فاستغفلتها الكوفية ثم دفعتها وأخذته بيديها جميعًا وقالت: حدَّثنا الأعمش عن خيثمة عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «الصيد لمَن صاده لا لمَن أثاره.»

وحُكِي أيضًا أن هارون الرشيد رقد مع ثلاث جوارٍ؛ مكية ومدنية وعراقية، فمدت المدنية يدها إلى ذَكَره وأنعظته فقام، فوثبت المكية وجذبته إليها، فقالت لها المدنية: ما هذا التعدِّي؟ حدَّثني مالك عن الزهري عن عبد الله بن سالم عن سعيد بن زيد، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أحيا أرضًا ميتة فهي له.» فقالت المكية: حدَّثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصيد لمَن صاده لا لمَن أثاره.» فدفعتهما العراقية عنه وقالت: هذا لي حتى تنقضي مخاصمتكما.

حكاية الطحان وزوجته

ومما يُحكَى أن رجلًا كان عنده طاحون وله حمار يطحن عليه، وكان له زوجة سوء وهو يحبها وهي تكرهه، وكانت تحب جارًا لها وهو يبغضها ويمتنع منها، فرأى زوجها في النوم قائلًا يقول له: احفر في الموضع الفلاني من مدار الحمار بالطاحون تجد كنزًا. فلما انتبه من منامه وحدَّثَ زوجته برؤياه وأمرها بكتمان السر، فأخبرت بذلك جارها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة الطحان أخبرت جارها الذي تهواه بذلك لأجل أن تتقرب إليه، فعاهدها أن يأتيها ليلًا، فأتاها ليلًا وحفر في مدار الطاحون، فوجدَا الكنز فاستخرجاه، فقال لها الجار: كيف نصنع بهذا؟ فقالت: نقسمه نصفين بالسوية، وتفارق أنت زوجتك وأنا أحتال في فراق زوجي، ثم تتزوج بي، فإذا اجتمعنا جمعنا المال كله على بعضه فيصير بأيدينا. فقال لها جارها: أنا أخاف أن يطغيك الشيطان فتأخذي غيري، فإن الذهب في المنزل كالشمس في الدنيا، والرأي السديد أن يكون المال كله عندي لتحرصي أنتِ على الخلاص من زوجك والإتيان إليَّ. فقالت له: إني أيضًا أخاف مثل ما تخاف أنتَ، ولا أسلِّم إليك نصيبي من هذا المال، فإني أنا التي قد دللتُكَ عليه. فلما سمع منها هذا الكلام دعاه البغي إلى قتلها، فقتلها وألقاها في موضع الكنز، ثم أدركه النهار فعوقه عن مداراتها، فحمل المال وخرج؛ فاستيقظ الطحان من النوم فلم يجد زوجته، فدخل الطاحون وعلَّقَ حماره في الطاحون وصاح عليه فمشى ووقف، فضربه الطحان ضربًا شديدًا وكلما ضربه يتأخَّر؛ لأنه قد جفل من المرأة الميتة وصار لا يمكنه التقدُّم، كل ذلك والطحان لا يدري ما سبب توقُّف الحمار، فأخذ سكينًا ونخسه نخسًا كثيرًا، فلم ينتقل من موضعه، فغضب منه وطعنه بها في خاصرته، فسقط الحمار ميتًا. فلما طلع النهار رأى الطحان الحمار ميتًا، ورأى زوجته ميتة ووجدها في موضع الكنز، اشتدَّ غيظه على ذهاب الكنز وهلاك زوجته والحمار وحصل له همٌّ عظيم؛ فهذا كله من إظهار سره لزوجته وعدم كتمانها له.

حكاية المغفل والشاطر

ومما يُحكَى أن أحد المغفلين كان سائرًا وبيده مقود حماره وهو يجره خلفه، فنظره رجلان من الشطار، فقال واحد منهما لصاحبه: أنا آخذ هذا الحمار من هذا الرجل. فقال له: كيف تأخذه؟ فقال له: اتبعني وأنا أريك. فتبعه فتقدَّمَ ذلك الشاطر إلى الحمار، وفكَّ منه المقود وأعطاه لصاحبه وحط المقود في رأسه، ومشى خلف المغفل حتى علم أن صاحبه ذهب بالحمار ثم وقف، فجَرَّه المغفل بالمقود فلم يمشِ، فالتفت إليه فرأى المقود في رأس رجل، فقال له: أي شيء أنتَ؟ فقال له: أنا حمارك ولي حديث عجيب، وهو أنه كان لي والدة عجوز صالحة جئتُ إليها في بعض الأيام وأنا سكران، فقالت لي: يا ولدي، تُبْ إلى الله تعالى من هذه المعاصي. فأخذتُ العصا وضربتُها بها، فدعت عليَّ فمسخني الله تعالى حمارًا، وأوقعني في يدك، فمكثت عندك هذا الزمان كله، فلما كان هذا اليوم تذكَّرَتْني أمي وحنَّنَ الله قلبها عليَّ، فدعت لي فأعادني الله أدميًّا كما كنتُ. فقال الرجل: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بالله عليك يا أخي أن تجعلني في حلٍّ مما فعلتُه بكَ من الركوب وغيره. ثم خلى سبيله ومضى ورجع صاحب الحمار إلى داره وهو سكران من الهمِّ والغمِّ، فقالت له زوجته: ما الذي دهاك وأين الحمار؟ فقال لها: أنتِ ما عندك خبر بأمر الحمار، فأنا أخبرك به. ثم حكى لها الحكاية فقالت: يا ويلنا من الله تعالى، كيف مضى لنا هذا الزمان كله ونحن نستخدم بني آدم؟ ثم إنها تصدَّقَتْ واستغفرَتْ، وجلس الرجل في الدار مدةً وهو من غير شغل، فقالت له زوجته: إلى متى هذا القعود في البيت من غير شغل؟ فامضِ إلى السوق واشترِ لنا حمارًا واشتغل عليه، فمضى إلى السوق ووقف عند الحمير، وإذا هو بحماره يُباع، فلما عرفه تقدَّمَ إليه ووضع فمه على أذنه وقال له: ويلك يا مشئوم، لعلك رجعت إلى السكر وضربتَ أمك، والله ما بقيت أشتريك أبدًا. ثم تركه وانصرف.

حكاية هارون الرشيد والسيدة زبيدة والقاضي

ومما يُحكَى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد آوَى إلى فراشه ذات يوم في وقت الظهيرة، فلما رَقِيَ السرير الذي ينام عليه، وجد منيًّا طريًّا في فراشه، فهاله ذلك وانحرف مزاجه انحرافًا شديدًا، وحصل له غمٌّ زائد، فدعا السيدة زبيدة، فلما حضرت بين يديه قال لها: ما هذا الملقَى على الفراش؟ فنظرت إليه ثم قالت له: هذا مني يا أمير المؤمنين. فقال لها: أصدقيني عن سبب هذا المني وإلا بطشتُ بكِ في الوقت. فقالت له: يا أمير المؤمنين والله

لا أعلم لذلك سببًا، وإني بريئة مما توهمته فيَّ. فطلب القاضي أبا يوسف وذكر له القصة وأراه المني، فرفع القاضي أبو يوسف رأسه إلى السقف، فرأى فيه فرجة، فقال: يا أمير المؤمنين إن للخفاش منيًّا كمنيِّ الرجال، وهذا مني خفاش. وطلب رمحًا فأخذه بيده وطعن به في الفرجة، فوقع الخفاش فاندفع الوهم عن هارون الرشيد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القاضي أبا يوسف لما أخذ الرمح بيده وطعن به في الفرجة وقع الخفاش، فاندفع الوهم عن هارون الرشيد وظهرت براءة زبيدة، ثم إنها تفوَّهَتْ بلسانها فرحًا ببراءتها، وأَقَرَّتْ لأبي يوسف بجائزة وافرة، وكان عندها فاكهة عظيمة في غير أوانها، وتعلم بفاكهة أخرى في غير أوانها أيضًا في البستان، فقالت له: يا إمام الدين، أي الفاكهتين أحبُّ إليك؛ الفاكهة الحاضرة أم الغائبة؟ فقال: مذهبنا لا يحكم غائب، فإذا حضر يحكم عليه. فأحضرتُ له الفاكهتين فأكل من هذه ومن هذه. فقالت: ما الفرق بينهما؟ فقال: كلما أردتُ أن أشكر إحداهما، قامت عليَّ الأخرى بحجتها. فلما سمع الرشيد كلامه ضحك وأعطاه الجائزة، وأعطته أيضًا زبيدة الجائزة التي وعدَتْه بها، وانصرف من عندهما مسرورًا. فانظر فضيلة الإمام، وما حصل على يديه من براءة السيدة زبيدة وإظهار السبب.

حكاية الحاكم بأمر الله

ومما يُحكَى أن الحاكم بأمر الله كان راكبًا في موكبه يومًا من الأيام، فمَرَّ على بستان فرأى رجلًا هناك وحوله عبيد وخدم، فاستسقاه ماء فسقاه، ثم قال: لعل أمير المؤمنين أن يكرمني بنزوله عندي في هذا البستان. فنزل الملك ونزل جيشه في ذلك البستان، فأخرج الرجل المذكور مائة بساط، ومائة نطع، ومائة وسادة، ومائة طبق من الفاكهة، ومائة جام ملآن حلوى، ومائة زبدية ملآى بالشربات السكرية، فاندهش عقل الحاكم بأمر الله من ذلك وقال له: أيها الرجل، إن خبرك عجيب! فهل علمتَ بمجيئنا فأعددتَ لنا هذا؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما علمتُ بمجيئكم وإنما أنا تاجر من جملة رعيتك، ولكن لي مائة محظية، فلما أكرمني أمير المؤمنين بنزوله عندي، أرسلتُ إلى كل واحدة منهن أن ترسل لي الغدا في البستان، فأرسلَتْ كل واحدة منهن شيئًا من فراشها، وزائد أكلها

وشربها، فإن كل واحدة منهن ترسل لي في يومٍ طبقَ طعام، وطبق مبردات، وطبق فاكهة، وجامًا ممتلئًا حلوى، وزبدية شراب، وهذا غذائي في كل يوم لم أَزِدْ لكَ فيه شيئًا. فسجد أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله تعالى وقال: الحمد لله الذي جعل في رعايانا مَن وسَّعَ الله عليه حتى يُطعِم الخليفة وعسكره من غير استعداد لهم، بل من فاضل طعامه. ثم أمر له بما في بيت المال من الدراهم المضروبة في تلك السنة، فكانت ثلاثة آلاف ألف وسبعمائة ألف، ولم يركب حتى أحضرها وأعطاها لذلك الرجل وقال له: استعِنْ بها على حالك، فإن مروءتك أكبر من ذلك. ثم ركب الملك وانصرف.

حكاية كسرى أنوشروان والصبية

ومما يُحكَى أن الملك العادل كسرى أنوشِروان ركب يومًا إلى الصيد، فانفرد عن عسكره خلف ظبي، فبينما هو ساعٍ خلف الظبي، إذ رأى ضيعة قريبة منه، وكان قد عطش عطشًا شديدًا؛ فتوجَّه إلى تلك الضيعة، وقصد باب دار قوم في طريقه، فطلب ماءً ليشرب، فخرجت له صبية فأبصرته ثم عادت إلى البيت، وعصرت له عودًا واحدًا من قصب السكر، ومزجت ما عصرته منه بالماء، ووضعته في قدح، ووضعت عليه شيئًا من الطيب يشبه التراب، ثم سلَّمته إلى أنوشروان، فنظر في القدح فرأى فيه شيئًا يشبه التراب، فجعل يشرب منه قليلًا حتى انتهى إلى آخره، ثم قال للصبية: أيتها الصبية، نِعْمَ الماء ما أحلاه! لولا ذلك القَذَى الذي فيه فإنه كدَّره. فقالت الصبية: أيها الضيف، أنا عمدًا ألقيتُ فيه ذلك القذى الذي كدَّرَه. فقال الملك: ولِمَ فعلتِ ذلك؟ فقالت: لأني رأيتُكَ شديد العطش، وخفتُ أن تشربه نهلةً واحدةً فيضرُّك، فلو لم يكن فيه قذًى لكنتَ شربته بسرعة نهلةً واحدةً، وكان يضرُّك شرْبُه على هذه الطريقة. فتعجَّبَ الملك العادل أنوشِروان من كلامها وذكاء عقلها، وعلم أن ما قالته ناشئ عن ذكاء وفطنة وجودة عقل، فقال لها: من كم عود عصرت ذلك الماء؟ فقالت: من عود واحد. فتعجب أنوشِروان وطلب جريدة الخراج الذي يحصل من تلك القرية، فرأى خراجها قليلًا، فأضمر في نفسه أنه إذا عاد إلى تخته يزيد في خراج تلك القرية، وقال: قرية يكون في عود واحد منها هذا الماء، كيف يكون خراجها هذا القدر القليل؟ ثم إنه انصرف عن تلك القرية إلى الصيد، وفي آخر النهار رجع إليها، واجتاز على ذلك الباب منفردًا، وطلب الماء ليشرب، فخرجَتْ له تلك الصبية بعينها، فرأته فعرفته، ثم عادت لتخرج له الماء فأبطأت عليه، فاستعجلها أنوشِروان وقال: لأيِّ شيء أبطأتِ؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك أنوشِروان لما استعجل الصبية قال لها: لأي شيء أبطأتِ؟ فقالت له: لأنه لم يخرج من عود واحد قدر حاجتك، فعصرت ثلاثة أعواد، ولم يخرج منها مثل ما كان يخرج من عود واحد. فقال الملك أنوشِروان: ما سبب ذلك؟ فقالت: سببه أن نيَّة السلطان قد تغيَّرَتْ. فقال لها: من أين جاءك هذا؟ فقالت: سمعنا من العقلاء أنه إذا تغيَّرَتْ نيَّة السلطان على قومٍ زالت بركتهم وقلَّت خيراتهم. فضحك أنوشِروان، وأزال من نفسه ما كان أضمر لهم عليه، وتزوَّج بتلك الصبية حالًا؛ حيث أعجبه فرْطُ ذكائها وفطنتها، وحسن كلامها.

حكاية السقَّاء وزوجة الصائغ

ومما يُحكَى أنه كان بمدينة بخارى رجل سقَّاء يحمل الماء إلى دار رجل صائغ، ومضى له على تلك الحالة ثلاثون سنة، وكان لذلك الصائغ زوجة في غاية الحُسْن والجمال، والبهاء والكمال، موصوفة بالديانة والحفظ والصيانة، فجاء السقَّاء على عادته يومًا وصبَّ الماء في الجباب، وكانت المرأة قائمة في وسط الدار، فدنا منها السقَّاء وأخذ بيدها وفركها وعصرها، ثم مضى وتركها، فلما جاء زوجها من السوق قالت: إني أريد أن تعرِّفني أي شيء صنعتَ هذا اليوم في السوق مما يُغضِب الله تعالى. فقال الرجل: ما صنعتُ شيئًا يُغضِب الله تعالى. فقالت المرأة: لا والله، إنك فعلتَ شيئًا يُغضِب الله تعالى، وإن لم تحدِّثني بما صنعت وتصدقني في حديثك، لا أقعد في بيتك، ولا تراني ولا أراك. فقال: أخبرك بما فعلتُه في يومي هذا على وجه الصدق؛ اتفق أنني جالس في الدكان على عادتي إذ جاءتني امرأة إلى دكاني، وأمرتني أن أصوغ لها سوارًا وانصرفت، فصغت لها سوارًا من ذهب

ورفعته، فلما حضرَتْ أتيتُها به، فأخرجت يدها ووضعتُ السوار في ساعِدِها؛ فتحيَّرتُ من بياض يدها وحُسْن زندها الذي يُسبِي الناظر، وتذكرتُ قولَ الشاعر:

وَسَوَاعِدٍ تَزْهُو بِحُسْنِ أَسَاوِرٍ ... كَالنَّارِ تُضْرَمُ فَوْقَ مَاءٍ جَارِ
فَكَأَنَّهَا وَالتِّبْرُ مُحْتَاطٌ بِهَا ... مَاءٌ تَمَنْطَقَ مُعْجَبًا بِالنَّارِ

فأخذتُ يدها وعصرتها ولويتها. فقالت له المرأة: الله أكبر، لِمَ فعلتَ هذا الجرم؟ إن ذلك الرجل السقاء الذي كان يدخل بيتنا منذ ثلاثين سنة ولم نَرَ فيه خيانة، أخذ اليوم يدي وعصرها ولواها. فقال الرجل: نسأل الله الأمان أيتها المرأة، إني تائب ممَّا كان مني فاستغفري الله لي. فقالت المرأة: غفر الله لنا ولك، ورزقنا حسن العاقبة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة الصائغ قالت: غفَرَ الله لنا ولك، ورزقنا حسن العاقبة. فلما كان الغد جاء الرجل السقاء وألقى نفسه بين يدي المرأة، وتمرَّغ على التراب واعتذر إليها، وقال: يا سيدتي، اجعليني في حِلٍّ مما أغراني به الشيطان، حيث أضلَّني وأغواني. فقالت له المرأة: امضِ إلى حال سبيلك؛ فإن ذلك الخطأ لم يكن منك، وإنما كان سببه من زوجي؛ حيث فعل ما فعل في الدكان، فاقتصَّ الله منه في الدنيا.

وقيل: إن الرجل الصائغ لما أخبرته زوجته بما فعل السقاء معها قال: دقَّة بدقَّة، ولو زِدتُ لزاد السقا. فصار هذا الكلام مثلًا سائرًا بين الناس، فينبغي للمرأة أن تكون مع زوجها ظاهرًا وباطنًا، وتقنع منه بالقليل إن لم يقدر على الكثير، وتقتدي بعائشة الصدِّيقة، وفاطمة الزهراء — رضي الله تعالى عنهما — لتكون مع حواشي السلف.

حكاية خسرو وشيرين والصياد

ومما يُحكَى أن خسرو وهو ملك من الملوك كان يحب السمك، فكان يومًا جالسًا في قاعته هو وشيرين زوجته، فجاء صياد ومعه سمكة كبيرة فأهداها لخسرو، فأعجبته تلك السمكة فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقالت له شيرين: بئس ما فعلتَ. فقال: ولِمَ؟ قالت: لأنك بعد هذا إذا أعطيتَ أحدًا من حشمك هذا القدر يحتقره، ويقول: إنما أعطاني مثل القدر الذي أعطاه للصياد. وإنْ أعطيتُه أقلَّ منه يقول: قد احتقرني وأعطاني أقل مما أعطى الصياد. فقال خسرو: لقد صدقتِ، ولكن يقبح بالملوك أن يرجعوا في هبتهم، وقد فات هذا. فقالت شيرين: أنا أدبِّر لك أمرًا في استرجاع العطية منه. فقال لها: وكيف ذلك؟ قالت له: إذا أردتَ ذلك فادعُ الصيادَ وقُلْ له: هل هذه السمكة ذكرًا أم أنثى؟ فإن قال: ذكر.

فقُلْ له: إنما أردنا أنثى. وإنْ قال: أنثى. فقُلْ له: إنما أردنا ذكرًا. فأرسل خلف الصياد فعاد، وكان الصياد صاحب ذكاء وفطنة، فقال له الملك خسرو: هل هذه السمكة ذكرًا أم أنثى؟ فقبَّلَ الصياد الأرض وقال: هذه السمكة خنثى، لا ذكر ولا أنثى. فضحك خسرو من كلامه، وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى، فمضى الصياد إلى الخازندار وقبض منه ثمانية آلاف درهم، ووضعها في جراب كان معه وحملها على عنقه، وهَمَّ بالخروج، فوقع منه درهم واحد، فوضع الصياد الجراب عن كاهله وانحنى على الدرهم فأخذه، والملك وشيرين ينظران إليه، فقالت شيرين: أيها الملك، رأيت خِسَّةَ هذا الرجل وسفالته؛ حيث سقط منه درهم لم يسهل عليه أن يتركه ليأخذه بعض غلمان الملك. فلما سمع الملك كلامها اشمأَزَّ من الصياد وقال: لقد صدقتِ يا شيرين. ثم إنه أمر بإعادة الصياد وقال له: يا ساقِطَ الهمة لستَ بإنسان، كيف وضعتَ هذا المال عن كاهلك وانحنيتَ لأجل درهم، وبخلتَ أن تتركه في مكانه؟ فقبَّلَ الصياد الأرض وقال: أطال الله بقاء الملك، إنني لم أرفع ذلك الدرهم عن الأرض لخطره عندي، وإنما رفعته عن الأرض لأن على أحد وجهَيْه صورة الملك، وعلى وجهه الآخر اسمه، فخشيتُ أن يضع أحدٌ رجله عليه بغير علم، فيكون ذلك استخفافًا باسم الملك وصورته، فأكون أنا المؤاخذ بهذا الذنب. فتعجَّبَ الملك من قوله واستحسن ما ذكره، فأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى، وأمر الملك مناديًا أن ينادي في مملكته ويقول: لا ينبغي لأحد أن يقتدي برأي النساء، فمَن اقتدَى برأيهن خسر مع درهمه درهمين.

حكاية يحيى بن خالد والفقير

ومما يُحكَى أن يحيى بن خالد البرمكي خرج من دار الخلافة متوجِّهًا إلى داره، فرأى على باب الدار رجلًا، فلما قرب منه نهض الرجل قائمًا وسلَّمَ عليه وقال له: يا يحيى، أنا محتاج إلى ما في يدك، وقد جعلتُ اللهَ وسيلتي إليك. فأمر يحيى أن يُفرَد له موضع في داره، وأمر خازنداره أن يحمل إليه في كل يوم ألف درهم، وأن يكون طعامه من خاص طعامه، فاستمرَّ الرجل على ذلك الحال شهرًا كاملًا، فلما انقضى الشهر كان قد وصل إليه ثلاثون ألف درهم، فخاف الرجل أن يحيى يأخذ منه الدراهم لكثرتها، فانصرف خفية.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل أخذ الدراهم وانصرف خفية، فأخبروا يحيى بذلك، فقال: والله لو أقام عندي عمره وطول دهره لما منعْتُه صلتي، ولا قطعتُ عنه إكرامَ ضيافتي. وفضائل البرامكة لا تُحصَى، ومناقبهم لا تُستقصَى، وخصوصًا يحيى بن خالد؛ فإنه جمُّ المفاخر كما قال فيه الشاعر:

سَأَلْتُ النَّدَى هَلْ أَنْتَ حُرٌّ فَقَالَ: لَا ... وَلَكِنَّنِي عَبْدٌ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدِ
فَقُلْتُ شِرَاءٌ قَالَ حَاشَا وَإِنَّمَا ... تَوَارَثَنِي مِنْ وَالِدٍ بَعْدَ وَالِدِ

حكاية جعفر بن موسى ومحمد الأمين

ومما يُحكَى أن جعفر بن موسى الهادي كانت له جارية عوادة اسمها البدر الكبير، ولم يكن في زمانها أحسن منها وجهًا، ولا أعدل قدًّا، ولا ألطف معنًى، ولا أَعْرَفُ بصناعة الغناء وضرب الأوتار، وكانت في غاية الجمال ونهاية الظرف والكمال، فسمع بخبرها محمد الأمين ابن زبيدة، والتمس من جعفر أن يبيعها له، فقال له جعفر: أنتَ تعلم أنه لا يليق بمثلي بيع الجواري والمساومة على السراري، ولولا أنها تربية داري لَأرسلتُها هديةً إليك ولم أبخل بها عليك. ثم إن محمدًا الأمين ابن زبيدة توجَّهَ يومًا لقصد الطرب إلى دار جعفر، فأحضر له ما يحسن حضوره بين الأحباب، وأمر جاريته البدر الكبير أن تغني له وتطربه، فأصلحت الآلات وغنَّتْ بأطيب النغمات، فأخذ محمد الأمين ابن زبيدة في الشراب والطرب، وأمر السقاة أن يُكثِروا الشراب على جعفر حتى يُسكِروه، ثم أخذ الجارية معه وانصرف إلى داره ولم يمدَّ إليها يده. فلما أصبح الصباح، أمر باستدعاء جعفر، فلما حضر قدم بين يديه الشراب، وأمر الجارية أن تغنِّي له من داخل الستارة،

فسمع جعفر صوتها فعرفها فاغتاظ لذلك، ولكن لم يُظهِر غيظًا لشرف نفسه وعلوِّ همته، ولم يُبْدِ تغيُّرًا في منادمته؛ فلما انقضى مجلس الشراب أمر محمد الأمين ابن زبيدة بعض أتباعه أن يملأ الزورق الذي ركب فيه جعفر إليه من الدراهم والدنانير، وأصناف الجواهر واليواقيت، والثياب الفاخرة والأموال الباهرة، ففعل ما أمره به حتى إنه وضع في الزورق ألف بدرة، وألف درة، قيمة الدرة عشرون ألف درهم، ولم يزل يضع فيه أصناف التحف حتى استغاث الملَّاحون وقالوا: ما يقدر الزورق أن يحمل شيئًا آخَر. وأمر بحمله إلى دار جعفر، وهكذا همم الأكابر رحمهم الله.

حكاية سعيد بن سالم وابنا يحيى بن خالد

ومما يُحكَى أن سعيد بن سالم الباهلي قال: اشتدَّ بي الحال في زمن هارون الرشيد واجتمع عليَّ ديون كثيرة أثقلت ظهري، وعجزتُ عن قضائها وضاقَتْ حيلي وبقيتُ متحيِّرًا لا أدري ما أصنع؛ حيث عسر عليَّ أداؤها إعسارًا عظيمًا، واحتاطت ببابي أرباب الديون وتزاحَمَ عليَّ المطالِبون، ولازمني الغرماء فضاقت حيلي وازدادت فكرتي، فلما رأيت الأمور متعسرة والأحوال متغيرة، قصدتُ عبد الله بن مالك الخزاعي والتمستُ منه أن يمدَّني برأيه ويرشدني إلى باب الفرج بحسن تدبيره، فقال عبد الله بن مالك الخزاعي: لا يقدر أحد على خلاصك من محنتك وهمك وضيقك وغمِّك غير البرامكة. فقلت: ومَن يقدر على احتمال تكبُّرهم ويصبر على تجبُّرهم؟ فقال: تحمَّلْ ذلك لأجل إصلاح حالك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن مالك الخزاعي قال لسعيد بن سالم: تحمَّلْ ذلك لأجل إصلاح حالك. فنهضت من عنده ومضيتُ إلى الفضل وجعفر ولدَيْ يحيى بن خالد، وقصصتُ عليهما قصتي، وأبديتُ لهما حالتي، فقالا: ساعَدَك الله بعونه، وأغناك عن خلقه بمَنِّه، وأجزل لك عظيم خير، وقام لك بالكفاية دون غيره، إنه على ما يشاء قدير وبعباده خبير. فانصرفتُ من عندهما ورجعتُ إلى عبد الله بن مالك ضيِّق الصدر، متحيِّر الفكر، منكسر القلب، وأعدتُ عليه ما قالاه، فقال: ينبغي أن تقيم اليومَ عندنا لننظر ما يقدِّره الله تعالى. فجلست عنده ساعة، وإذا بغلامي قد أقبَلَ وقال: يا سيدي، إن ببابنا بغالًا كثيرة بأحمالها، ومعها رجل يقول: أنا وكيل الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى. فقال عبد الله بن مالك: أرجو أن يكون الفرج قد أقبَلَ عليك، فقُمْ وانظُرْ ما الشأن. فنهضتُ من عنده وأسرعتُ عدوًا إلى بيتي، فرأيت ببابي رجلًا معه رقعة مكتوب فيها: إنك لما كنتَ عندنا وسمعنا كلامك توجَّهْنا بعد خروجك إلى الخليفة، وعرفناه أنه أفضى بك الحال إلى ذلِّ السؤال، فأمَرَنا أن نحمل إليك من بيت المال ألف درهم، فقلنا له: هذه الدراهم يصرفها إلى غرمائه ويؤدِّي بها دينه، ومن أين يقيم وجه نفقاته؟ فأمر لك بثلاثمائة ألف درهم أخرى، وقد حمل إليك كلُّ واحد منَّا من خالص ماله ألف ألف درهم، فصارت الجملة ثلاثة آلاف ألف وثلاثمائة ألف درهم، تصلح بها أحوالك وأمورك. فانظُرْ إلى هذا الكرم من هؤلاء الكرام رحمهم الله تعالى.

حكاية مكيدة امرأة مع زوجها

ومما يُحكَى أن امرأة فعلَتْ مع زوجها مكيدةً، وهي أن زوجها أتى لها بسمكة يوم الجمعة وأمرها بطبخها وإحضارها عقب صلاة الجمعة، وانصرف إلى أشغاله، فجاءها

صديقها وطلبها لحضور عرس عنده، فامتثلت ووضعت السمكة في زير عندها وذهبَتْ معه، وقعدت غائبة عن بيتها إلى الجمعة الثانية، وزوجها يفتِّش في البيوت ويسأل عنها، فلم يخبره أحد بخبرها، ثم حضرت يوم الجمعة الثانية وأخرجت له السمكة بالحياة، وجمعت عليه الناس وأخبرتهم بالقصة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة لما جاءت لزوجها في الجمعة الثانية أخرجت السمكة من الزير حية، وجمعت عليه الناس، فأخبرهم بالقصة فكذبوه وقالوا له: لا يمكن أن السمكة تقعد بالحياة هذه المدة. وأثبتوا جنونه وسجنوه وصاروا يضحكون عليه، فأفاضَ دمعَ العين وأنشد هذين البيتين:

عَجُوزٌ تَوَلَّتْ فِي الْقَبَائِحِ مَنْصِبًا عَلَى وَجْهِهَا لِلْفَاحِشَاتِ شُهُودُ
إِذَا طُمِّثَتْ قَادَتْ وَإِنْ طُهِّرَتْ زَنَتْ مَدَى الدَّهْرِ تَزْنِي تَارَةً وَتَقُودُ

حكاية الإسرائيلية والشيخين

ومما يُحكَى أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، امرأة صالحة في بني إسرائيل، وكانت تلك المرأة ديِّنة عابدة تخرج كلَّ يوم إلى المصلَّى، وكان بجانب تلك المصلَّى بستان، فإذا خرجت إلى المصلى تدخل ذلك البستان وتتوضَّأ منه، وكان في البستان شيخان يحرسانه، فتعلَّق الشيخان بتلك المرأة، وراوداها عن نفسها فأبت، فقالا لها: إن لم تمكِّنينا من نفسك، لَنشهدنَّ عليك بالزنا. فقالت لهما الجارية: الله يكفيني شرَّكما. ففتحا باب البستان وصاحا؛ فأقبل عليهما الناس من كل مكان وقالوا: ما خبركما؟ فقالا: إنَّا وجدنا هذه الجارية مع شاب يفجر بها، وانفلت الشاب من أيدينا. وكان الناس في ذلك الوقت ينادون بفضيحة الزاني ثلاثة أيام ثم يرجمونه؛ فنادوا عليها ثلاثة أيام من أجل الفضيحة، وكان الشيخان في كل يوم يدنوان منها ويضعان أيديهما على رأسها، ويقولان لها: الحمد لله الذي أنزَلَ بكِ نقمته. فلما أرادوا رجمها تبعهم دانيال، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وهذه أول معجزة له — على نبينا وعليه الصلاة والسلام — ولم يزل تابعًا

لهم حتى لحقهم وقال: لا تعجلوا عليها بالرجم حتى أقضي بينهم. فوضعوا له كرسيًّا ثم جلس، وفرَّق بين الشيخين — وهو أول مَن فرَّقَ بين الشهود — فقال لأحدهما: ما رأيتَ؟ فذكر له ما جرى، فقال له: حصل ذلك في أي مكان في البستان؟ فقال: في الجانب الشرقي تحت شجرة الكمثرى. ثم سأل الثاني عمَّا رأى فأخبره بما جرى، فقال له: في أي مكان في البستان؟ فقال: في الجانب الغربي تحت شجرة التفاح. كل هذا والجارية واقفة رافعة رأسها ويديها إلى السماء، وهي تدعو الله بالخلاص؛ فأنزل الله تعالى صاعقةً من العذاب فأحرقت الشيخين، وأظهر الله تعالى براءة الجارية، وهذا أول ما جرى من المعجزات لنبي الله دانيال عليه السلام.

حكاية جعفر البرمكي والشيخ

ومما يُحكَى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد خرج يومًا من الأيام هو وأبو يعقوب النديم وجعفر البرمكي وأبو نواس، وساروا في الصحراء فرأوا شيخًا متَّكِئًا على حمار له، فقال هارون الرشيد لجعفر: اسأل هذا الشيخ من أين هو؟ فقال له جعفر: من أين جئتَ؟ فقال: من البصرة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جعفرًا البرمكي لما سأل الرجل وقال له: من أين جئت؟ قال: من البصرة. فقال له جعفر: وإلى أين سيرُك؟ قال: إلى بغداد. قال له: وما تصنع فيها؟ قال: ألتمِس دواءً لعيني. فقال هارون الرشيد: يا جعفر مازِحْه. فقال: إذا مازحْتُه أسمع منه ما أكره. فقال: بحقي عليك أن تمازحه. فقال جعفر للشيخ: إنْ وضعتُ لك دواءً ينفعك ما الذي تكافِئُني به؟ فقال له: الله تعالى يكافِئُك عني بما هو خير لك من مكافأتي. فقال: أنصِتْ إليَّ حتى أصف لك هذا الدواء الذي لا أصفه لأحد غيرك. فقال له: وما هو؟ قال له جعفر: خذ لك ثلاث أواقٍ من هبوب الريح، وثلاث أواقٍ من شعاع الشمس، وثلاث أواقٍ من زهر القمر، وثلاث أواقٍ من نور السراج، واجمع الجميع وضعها في الريح ثلاثة أشهر، ثم بعد ذلك ضعها في هون بلا قعر، ودُقَّها ثلاثة أشهر، فإذا دققتَها فضَعْها في جَفنة مشقوقة، وضَعِ الجفنةَ في الريح ثلاثة أشهر، ثم استعمل هذا الدواء في كل يوم ثلاثة دراهم عند النوم، واستمِرَّ على ذلك ثلاثة أشهر؛ فإنك تُعافَى إن شاء الله تعالى. فلما سمع الشيخ كلام جعفر، انسطح على حماره وضرط ضرطة منكرة، وقال: خُذْ هذه الضرطة مكافأةً لك على وصفك هذا الدواء، فإذا استعملتُه ورزقني الله العافية، أعطيتُكَ جاريةً تخدمك في حياتك خدمةً يقطع الله بها أجلك، فإذا متَّ وعجَّل الله بروحك إلى النار، سخمت وجهك بخراها من حزنها عليك، وتندب وتلطم وتنوح، وتقول في نياحتها: يا ساقع الذقن، ما أسقع ذقنك! فضحك هارون الرشيد حتى استلقى على قفاه، وأمر لذلك الرجل بثلاثة آلاف درهم.

حكاية عمر بن الخطاب والشاب الحسن

وحكى الشريف حسين بن ريَّان أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان جالسًا في بعض الأيام للقضاء بين الناس، والحكم بين الرعايا، وعنده أكابر أصحابه من أهل الرأي والإصابة. فبينما هو جالس إذ أقبل عليه شاب من أحسن الشباب، نظيف الثياب، وقد تعلَّق به شابَّان من أحسن الشباب، وقد جذبه الشابان من طوقه، وأوقفاه بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؛ فنظر أمير المؤمنين إليهما وإليه، فأمرهما بالكفِّ عنه وأدناه منه، وقال للشابين: ما قصتكما معه؟ فقالا: يا أمير المؤمنين، نحن أخوان شقيقان، وباتِّباع الحقِّ حقيقان، كان لنا أبٌ شيخٌ كبيرٌ حَسَنُ التدبير، مُعظَّمٌ في القبائل، مُنزَّهٌ عن الرذائل، معروفٌ بالفضائل، ربَّانا صغارًا وأولانا مِننًا كبارًا ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشابين قالا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنَّ أبانا كان مُعظَّمًا في القبائل، مُنزَّهًا عن الرذائل، معروفًا بالفضائل، ربَّانا صغارًا وأولانا مِننًا كبارًا، جمَّ المناقب والمفاخر، حقيقًا بقول الشاعر:

قَالُوا أَبُو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ   كَلَّا لَعَمْرِي وَلَكِنْ مِنْهُ شَيْبَانُ
فَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ ذَوِي شَرَفٍ   كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

فخرج يومًا إلى حديقة له ليتنزَّه في أشجارها، ويقتطف يانع أثمارها، فقتله هذا الشاب، وعدل عن طريق الرشاد، ونسألك القصاص بما جناه، والحكم فيه بما أمر الله. فنظر عمر إلى الشاب نظرة مرهبة، وقال له: قد سمعتُ من هذين الغلامين الخطاب، فما تقول أنت في الجواب؟ وكان ذلك الغلام ثابت الجَنَان، جريء اللسان، قد خلع ثياب الهلع، ونزع لباس الجزع، فتبسَّم وتكلَّم بأفصح لسان، وحيَّا أمير المؤمنين بكلماتٍ حِسان، ثم قال: والله يا أمير المؤمنين لقد وعيتُ ما ادَّعياه، وصدَقَا فيما قالاه، حيث أخبرَا بما جرى، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، ولكن سأذكر قصَّتي بين يديك، والأمر فيها إليك؛ اعلم يا أمير المؤمنين، أني من صميم العرب العرباء، الذين هم أشرف مَن تحت الجرباء، نشأت في منازل البادية فأصابت قومي سود السنين العادية، فأقبلت إلى ظاهر هذه البلد بالأهل والمال والولد، وسلكت بعض طرائقها إلى المسير بين حدائقها، بنياق كريمة لديَّ، عزيزات عليَّ، بينهن فحلٌ كريم الأصل، كثير النسل، مليح الشكل، به يكثر منهن النِّتاج، ويمشي بينهن كأنه ملك عليه تاج، فندَّت بعض النياق إلى حديقة أبيهم، وقد ظهر من الحائط شجرها فتناولته بمشفرها فطردتُها عن تلك الحديقة، وإذا بشيخ من خلال الحائط قد

ظهر، وزفير غيظه يرمي بالشرر، وفي يده اليمنى حجر، وهو يتهادى كالليث إذا حضر، فضرب الفحل بذلك الحجر فقتله؛ لأنه أصاب مقتله؛ فلما رأيتُ الفحل قد سقط بجانبي، آنست أن قلبي قد توقَّدَتْ فيه جمرات الغضب، فتناولت ذلك الحجر بعينه وضربته به، فكان سببًا لحينه، ولقي سوء منقلبه، والمرء مقتول بما قتل به، وعند إصابته بالحجر صاح صيحة عظيمة، وصرخ صرخة أليمة، فأسرعتُ بالسير من مكاني، فأسرع هذان الشابان وأمسكاني، وإليك أحضراني، وبين يديك أوقفاني.

فقال عمر — رضي الله تعالى عنه: قد اعترفتَ بما اقترفت، وتعذَّر الخلاص، ووجب القصاص، ولات حين مناص. فقال الشاب: سمعًا وطاعة لما حكم به الإمام، ورضيت بما اقتضته شريعة الإسلام، ولكن لي أخٌ صغير، كان له أبٌ كبير، خصَّه قبل وفاته بمال جزيل، وذهب جليل، وسلَّم أمره إليَّ، وأشهدَ الله عليَّ، وقال: هذا لأخيك عندك فاحفظه جهدك. فأخذتُ ذلك المال منه ودفنتُه، ولا أحد يعلم به إلا أنا، فإن حكمتَ الآن بقتلي ذهب المال، وكنتَ أنتَ السببَ في ذهابه، وطالَبَك الصغير بحقه يومَ يقضي الله بين خلقه، وإنْ أنتَ أنظرتَني ثلاثة أيام، أقمتُ مَن يتولَّى أمر الغلام، وعُدت وافيًا بالذمام، ولي مَن يضمنني على هذا الكلام. فأطرق أمير المؤمنين رأسه، ثم نظر إلى مَن حضر، وقال: مَن يقوم لي بضمانه والعَوْدِ إلى مكانه؟ فنظر الغلام إلى وجوه مَن في المجلس وأشار إلى أبي ذَرٍّ دون الحاضرين، وقال: هذا يكفلني ويضمنني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب لما أشار إلى أبي ذَرٍّ وقال: هذا يكفلني ويضمنني. قال عمر — رضي الله تعالى عنه: يا أبا ذرٍّ، أسمعتَ هذا الكلام، وتضمن لي حضور هذا الغلام؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أضمنه إلى ثلاثة أيام. فرضي بذلك وأذن للغلام في الانصراف، فلما انقضَتْ مدة الإمهال، وكاد وقتها أن يزول أو زال، ولم يحضر الشاب إلى مجلس عمر، والصحابة حوله كالنجوم حول القمر، وأبو ذرٍّ قد حضر، والخصمان ينتظران فقالا: أين الغريم يا أبا ذرٍّ؟ كيف رجوع مَن فرُّوا؟ لكن نحن لا نبرح من مكاننا حتى تأتينا به للأخذ بثأرنا. فقال أبو ذرٍّ: وحق الملك العلَّام، إنِ انقضَتِ الثلاثة أيام، ولم يحضر الغلام، وفَّيْتُ بالضمان وسلَّمْتُ نفسي للإمام. فقال عمر — رضي الله عنه: واللهِ إنْ تأخَّرِ الغلام لَأقضين في أبي ذرٍّ ما اقتضَتْه شريعة الإسلام. فهملَتْ عَبَرات الحاضرين، وارتفعت زفرات الناظرين، وعَظُم الضجيج، فعرض أكابر الصحابة على الشابَّيْن أَخْذَ الدية، واغتنام الأَثْنِية، فأبَيَا ولم يقبلَا شيئًا إلا الأخذ بالثأر. فبينما الناس يموجون ويضجون تأسُّفًا على أبي ذرٍّ، إذ أَقبَلَ الغلام، ووقف بين يدي الإمام، وسلَّم عليه بأحسن سلام، ووجهه مشرق يتهلَّل، وبالعَرَق يتكلَّل، وقال له: قد أسلمتُ الصبي إلى أخواله، وعرَّفتهم بجميع أحواله، وأطلعتهم على مكان ماله، ثم اقتحمتُ هاجرةَ الحَرِّ، ووفَّيْتُ وفاءَ الحُرِّ. فتعجَّب الناس من صدقه ووفائه، وإقدامه على الموت واجترائه، فقال له بعضهم: ما أكرمك من غلام! وأوفاك بالعهد والزمام! فقال الغلام: أَمَا تحقَّقتم أن الموت إذا حضر لا ينجو منه أحد؟ وإنما وفَّيْتُ كي لا يقال: ذهب الوفاء من الناس. فقال أبو ذرٍّ: والله يا أمير المؤمنين لقد ضمنتُ هذا الغلام ولم أعرفه من أي قوم، ولا رأيتُه قبل ذلك اليوم، ولكن لما أعرض عمَّن حضر وقصدني وقال: هذا يضمنني ويكفلني. لم

أستحسن ردَّه، وأَبَتِ المروءة أن تخيِّب قصده؛ إذ ليس في إجابة القصد من بأس، كي لا يقال: ذهب الفضل من الناس. فعند ذلك قال الشابان: يا أمير المؤمنين، قد وهبنا لهذا الشاب دمَ أبينا؛ حيث بدَّل الوحشة بالإيناس، كي لا يقال: ذهب المعروف من الناس. واستبشَرَ الإمام بالعفو عن الغلام، وصِدْقه ووفائه بالذمام، واستكبر مروءة أبي ذرٍّ دون جلسائه، واستحسن اعتماد الشابين في اصطناع المعروف، وأثنى عليهما ثناء الشاكر، وتمثَّل بقول الشاعر:

مَنْ يَصْنَعِ الْخَيْرَ بَيْنَ الْخَلْقِ يُجْزَ بِهِ لَا يَذْهَبُ الْخَيْرُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

ثم عرض عليهما أن يصرف إليهما دية أبيهما من بيت المال فقالا: إنما عفونا عنه ابتغاءَ وجه الله الكريم المتعال، ومَن نيَّته كذا لا يُتبِع إحسانَه منًّا ولا أذًى.

حكاية المأمون والأهرام

ومما يُحكَى أن المأمون بن هارون الرشيد لما دخل مصر المحروسة أراد هدم الأهرام ليأخذ ما فيها، فلما حاوَلَ هدمها لم يقدر على ذلك، مع أنه اجتهد في هدمها وأنفق على ذلك أموالًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المأمون اجتهَدَ في هدم الأهرام وأنفق على ذلك أموالًا عظيمة، ولم يقدر على هدمها، وإنما فتح في أحدها طاقة صغيرة، ويقال: إن المأمون وجد في الطاقة التي فتحها من الأموال قدْرَ الذي أنفقه على فتحها لا يزيد ولا ينقص، فتعجب المأمون من ذلك، ثم أخذ ما هناك ورجع عن تلك النية. والأهرام ثلاثة، وهي من عجائب الدنيا، لم يكن على وجه الأرض مثلها في إحكامها وإتقانها وعلوِّها، وذلك أنها مبنية بالصخور العظام، وكان البناءون الذين بنوها يثقبون الحجر من طرفَيْه ويجعلون فيه القضبان الحديد قائمة، ويثقبون الحجر الثاني وينزلونه فيه ويذيبون الرصاص ويجعلونه فوق القضيب بترتيب الهندسة، حتى إذا كمل بناؤها وصار ارتفاع كل هرم في الهواء مائة ذراع بالذراع المعهود في ذلك الوقت، وهي مربعة الأطراف من كل جانب، منحدرة الأعالي من أواخرها، مقدار الواحد منها ثلاثمائة ذراع. ويقول القدماء: إن في داخل الهرم الغربي ثلاثين مخزنًا من حجارة الصوان، مملوءة بالجواهر النفيسة والأموال الجمة والتماثيل الغريبة، والآلات والأسحلة الفاخرة التي دُهِنت بالدهان المدبر بالحكمة، فلا تصدأ إلى يوم القيامة، وفيها الزجاج الذي ينطوي ولا ينكسر، وأصناف العقاقير المركبة والمياه المدبرة؛ وفي الهرم الثاني أخبار الكهنة مكتوبة في ألواح من الصوان، لكل كاهن لوح من ألواح الحكمة، وموسوم في ذلك اللوح عجائب صناعته وأعماله، وفي الحيطان صور أشخاص كالأصنام تعمل بأيديها جميع الصناعات وهي قاعدة على المراتب، ولكل هرم منها خازن حارس عليها، وتلك الحراس يحفظونها على مر الزمان من طوارق

الحدثان، وعجائب الأهرام حيَّرَتْ أربابَ البصائر والأبصار، وقد كثرت في وصفها الأشعار، ولم تحصل منه على طائل، فمن ذلك قول القائل:

هِمَمُ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ الْبُنْيَانِ
أَوَمَا تَرَى الْهَرَمَيْنِ قَدْ بَقِيَا وَلَمْ يَتَغَيَّرَا بِطَوَارِقِ الْحَدَثَانِ

وقول الآخَر:

انْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ وَاسْمَعْ مِنْهُمَا مَا يَرْوِيَانِ عَنِ الزَّمَانِ الْغَابِرِ
لَوْ يَنْطِقَانِ لَأَخْبَرَانَا بِالَّذِي فَعَلَ الزَّمَانُ بِأَوَّلٍ وَبِآخِرِ

وقول الآخَر:

خَلِيلِي هَلْ تَحْتَ السَّمَاءِ بِنَايَةٌ تُضَارِعُ فِي إِتْقَانِهَا هَرَمَيْ مِصْرَ
بِنَاءٌ يَخَافُ الدَّهْرُ مِنْهُ وَكُلُّ مَنْ عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ
تَنَزَّهَ طَرْفِي فِي بَدِيعِ بِنَائِهَا وَلَمْ يَتَنَزَّهْ فِي الْمُرَادِ بِهَا فِكْرِي

وقول الآخَر:

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَصْرَعُ
تَتَخَلَّفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِينًا وَيُدْرِكُهَا الْمَمَاتُ فَتُصْرَعُ

حكاية اللص وتاجر القماش

ومما يُحكَى أنَّ رجلًا كان لصًّا وتاب إلى الله تعالى وحسنت توبته، وفتح له دكانًا يبيع فيها القماش، ولم يزل على ذلك مدةً من الزمان، فاتفق في بعض الأيام أنه أغلق دكانه ومضى إلى بيته، فجاء اللصوص المحتالين وتزيًّا بزيِّ صاحب الدكان، وأخرج من كمه مفاتيح، وكان ذلك ليلًا، وقال لحارس السوق: أشعِلْ لي هذه الشمعة. فأخذها منه الحارس ومضى ليُشعِلها … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٩٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحارس أخذ منه الشمعة ومضى ليشعلها، ففتح اللص الدكان وأشعل شمعة أخرى كانت معه، فلما جاء الحارس وجده جالسًا في الدكان ودفتر الحساب في يده، وهو ينظر إليه ويحسب بأصابعه، ولم يزل على تلك الحالة إلى وقت السَّحَر، ثم قال للحارس: ائتني بجمَّال وجَمَلِه ليحمل لي بعض البضائع. فأتاه بجمَّال وجَمَلِه، فتناوَلَ أربع رزم من القماش وناولها له، فحملها على الجمل، ثم أغلق الدكان وأعطى الحارس درهمين ومضى خلف الجمَّال والحارس معتقد أنه صاحب الدكان. فلما أصبح الصباح واتضح النهار، جاء صاحب الدكان فجعل الحارس يدعو له لأجل الدرهمين، فأنكَرَ صاحب الدكان مقالته وتعجَّبَ منها، فلما فتح الدكان وجد سيلان الشمع ودفتر الحساب مطروحًا، وتأمَّلَ في الدكان فوجد أربع رزم من القماش مفقودة، فقال للحارس: ما الخبر؟ فحكى له ما صنع بالليل ومقاولة الجمَّال على الرزم، فقال له: ائتني بالجمَّال الذي حمل القماش معك سَحَرًا. فقال: سمعًا وطاعةً. ثم أتاه به فقال له: إلى أين حملتَ القماش سَحَرًا؟ فقال له: إلى الموردة الفلانية، ووضعته في مركب فلان. فقال له: سِرْ معي إليها. فمضى معه إليها وقال له: هذه المركب وهذا صاحبها. فقال للمراكبي: إلى أين حملتَ التاجر والقماش؟ فقال له: إلى المكان الفلاني، وأتاني بجمَّال فحمل القماش على جملة ومضى ولم أعرف إلى أين ذهب. فقال له: ائتني بالجمال الذي حمل من عندك القماش. فأتاه به فقال له: إلى أين حملتَ القماشَ من المركب مع التاجر؟ فقال: إلى موضع كذا. فقال له: سِرْ معي إليه وأَرِنِي إياه. فمضى معه الجمَّال إلى مكان بعيد عن الشاطئ، وعرَّفَه الخان الذي وضع فيه القماش، وأراه حاصل التاجر، فتقدَّمَ إلى الحاصل وفتحه، فوجد الأربع رزم القماش بحالها لم تنفك، فناوَلَها إلى الجمَّال، وكان اللص قد وضع كساءه على القماش، فناوَلَه صاحب القماش إلى الجمَّال أيضًا، فحمل

الجميع على الجمل ثم أغلق الحاصل وذهب مع الجمَّال، وإذا باللص واجهه، فتبعه إلى أن أنزل القماش في المركب، فقال له: يا أخي، أنت في وداعة الله وقد أخذتَ قماشك وما ضاع منه شيء، فأَعْطِني الكساء. فضحك منه التاجر وأعطاه الكساء ولم يشوِّش عليه، وانصرف كلٌّ منهما إلى حال سبيله.

حكاية مسرور السيَّاف وابن القاربي

ومما يُحكَى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد قلق ليلةً من الليالي قلقًا شديدًا، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي: إني أرقت في هذه الليلة وضاق صدري، ولم أعرف كيف أصنع. وكان خادمه مسرور واقفًا أمامه فضحك، فقال له الخليفة: ومِمَّ تضحك؟ أتضحك استخفافًا بي أم جنونًا منك؟ فقال: لا والله يا أمير المؤمنين … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن هارون الرشيد قال لمسرور السياف: أتضحك استخفافًا بي أم جنونًا منك؟ فقال: لا والله يا أمير المؤمنين، وحق قرابتك من سيد المرسلين، ما فعلتُ ذلك باختياري، ولكنني خرجتُ بالأمس أتمشَّى بظاهر القصر حتى وصلت إلى شاطئ الدجلة، فرأيت الناس مجتمعين فوقفتُ، فرأيتُ رجلًا يُضحِك الناس يقال له ابن القاربي، فتذكَّرْتُ الآنَ كلامَه فغلب عليَّ الضحك، وأطلب منك العفو يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: عليَّ به في هذه الساعة. فخرج مسرور مُسرِعًا إلى أن وصل إلى ابن القاربي وقال له: أَجِبْ أمير المؤمنين. فقال: سمعًا وطاعةً. فقال له مسرور: ولكن بشرط، أنك إذا دخلتَ عليه وأنعَمَ عليك بشيء، يكون لك فيه الربعُ والبقيةُ لي. فقال له ابن القاربي: بل لك النصف ولي النصف. فقال له مسرور: لا. فقال له ابن القاربي: لك الثلثان ولي الثلث. فأجابه مسرور إلى ذلك بعد جهد جهيد، ثم قام معه، فلما دخل على أمير المؤمنين حيَّاه بتحية الخلافة ووقف بين يديه، فقال له أمير المؤمنين: إذا أنتَ لم تُضحِكني ضربتُك بهذا الجراب ثلاثَ مرات. فقال ابن القاربي في نفسه: وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب، مع أن ضرب السياط لا يضرني. وظنَّ أنَّ الجراب فارغ، ثم تكلَّمَ بكلامٍ يُضحِك المغتاظ وأتى بأنواع السخرية، فلم يضحك أمير المؤمنين ولم يتبسَّم، فتعجب ابن القاربي منه وضجر وخاف، فقال له أمير المؤمنين: الآن استحققْتَ الضرب. ثم أخذ الجراب وضربه مرةً، وكان فيه أربع زلطات، كل زلطة زنتها رطلان، فوقعت الضربة في رقبته فصرخ صرخة عظيمة، وتذكَّرَ الشرطَ الذي بينه وبين مسرور، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، اسمع مني كلمتين. قال له: قُلْ ما بَدَا لك. فقال: إن مسرور أشرط عليَّ شرطًا واتفقت معه عليه، وهو أن ما حصل لي من إنعام أمير المؤمنين، يكون لي منه الثلث وله الثلثان، وما أجابني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم، فالآن لم تُنعِم عليَّ إلا بالضرب، وهذه الضربة نصيبي

والضربتان الباقيتان نصيبه، فأنا قد أخذتُ نصيبي، وها هو واقف يا أمير المؤمنين، فادفع له نصيبَه. فلما سمع أمير المؤمنين كلامه ضحك حتى استلقى على قفاه، ودعا بمسرور فضربه ضربة فصاح وقال: يا أمير المؤمنين، يكفيني الثلث وأَعْطِه الثلثين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مسرورًا قال: يا أمير المؤمنين، يكفيني الثلث وأَعْطِه الثلثين. فضحك عليهما وأَمَرَ لكلٍّ واحدٍ منهما بألف دينار، وانصرفا مسرورَيْن بما أنعم عليهما الخليفة.

حكاية هارون الرشيد وابنه

يُحكَى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان له ولد قد بلغ من العمر ستة عشر عامًا، وكان مُعرِضًا عن الدنيا، وسالكًا طريقة الزُّهاد والعُبَّاد، فكان يخرج إلى المقابر ويقول: قد كنتم تملكون الدنيا فما ذلك بمنجيكم، وقد صرتم إلى قبوركم، فيا ليت شعري ما قلتم وما قيل لكم؟ ويبكي بكاء الخائف الواجل، وينشد قول القائل:

تُرَوِّعُنِي الْجَنَائِزُ كُلَّ وَقْتٍ وَيُحْزِنُنِي بُكَاءَ النَّائِحَاتِ

فاتفق أن أباه مرَّ عليه في بعض الأيام وهو في موكبه، وحوله وزراؤه وكبراء دولته وأهل مملكته، فرأوا ولد أمير المؤمنين وعلى جسده جبَّة من صوف، وعلى رأسه مئزر من صوف، فقال بعضهم لبعض: لقد فضح هذا الولدُ أميرَ المؤمنين بين الملوك، فلو عاتَبَه لَرجع عمَّا هو فيه. فسمع أمير المؤمنين كلامهم فكلَّمه في ذلك وقال له: يا بني، لقد فضحتني بما أنت عليه. فنظر إليه ولم يُجِبْه، ثم نظر إلى طائر على شرفة من شرفات القصر، فقال له: أيها الطائر، بحق الذي خلقك أن تسقط على يدي. فانقضَّ الطائر على يد الغلام، ثم قال له: ارجع إلى موضعك. فرجع إلى موضعه، ثم قال له: اسقط على يد أمير المؤمنين. فأَبَى أن يسقط على يده، فقال الغلام لأبيه أمير المؤمنين: أنت الذي فضحتني بين

الأولياء بحبك الدنيا، وقد عزمتُ على مفارقتك مفارَقةً لا أعود إليك بعدها إلا في الآخرة. ثم انحدر إلى البصرة فكان يعمل مع الفَعَلة في الطين، وكان لا يعمل في كل يوم إلا بدرهم ودانق، فيتقوَّت بالدانق ويتصدَّق بالدرهم.

قال أبو عامر البصري: وكان قد وقع في داري حائط فخرجت إلى موقف الفَعَلة لأنظر رجلًا يعمل لي فيه، فوقعت عيني على شاب مليح ذي وجه صبيح، فجئت إليه وسلَّمت عليه وقلت له: يا حبيبي، أتريد الخدمة؟ فقال: نعم. فقلت: قُمْ معي إلى بناء حائط. فقال لي: بشروطٍ أشترطها عليك. قلت: يا حبيبي، ما هي؟ قال: الأجرة درهم ودانق، وإذا أذَّنَ المؤذن تتركني حتى أصلي مع الجماعة. قلت: نعم. ثم أخذته وذهبت به إلى المنزل فخدم خدمة لم أرَ مثلها، وذكرت له الغداء فقال: لا. فعلمت أنه صائم، فلما سمع الأذان قال لي: قد علمتَ الشرط. فقلت: نعم. فحلَّ حزامه وتفرَّغَ للوضوء، فتوضَّأ وضوءًا لم أرَ أحسن منه، ثم خرج إلى الصلاة فصلى مع الجماعة، ثم رجع إلى خدمته، فلما أذَّن العصر توضَّأ وذهب إلى الصلاة، ثم عاد إلى الخدمة، فقلت له: يا حبيبي، قد انتهى وقت الخدمة، فإن خدمة الفَعَلة إلى العصر. فقال: سبحان الله، إنما خدمتي إلى الليل. ولم يزل يخدم إلى الليل فأعطيته درهمين، فلما رآهما قال: ما هذا؟ قلت: والله إن هذا بعض أجرتك لاجتهادك في خدمتي. فرمى بهما إليَّ وقال: لا أريد زيادة على ما كان بيني وبينك. فرغَّبْتُه فلم أقدر عليه، فأعطيته درهمًا ودانقًا وسار.

فلما أصبح الصباح بكَّرت إلى الموقف فلم أجده، فسألت عنه فقيل لي: إنه لا يأتي ها هنا إلا في يوم السبت فقط. فلما كان يوم السبت الثاني ذهبت إلى ذلك المكان فوجدته، فقلت له: باسم الله تفضَّل إلى الخدمة. فقال لي: على الشروط التي تعلمها. قلت: نعم. فذهبت به إلى داري ووقفت أنظره وهو لا يراني، فأخذ كفًّا من الطين ووضعه على الحائط، فإذا الحجارة يتركَّب بعضها على بعض، فقلت: هكذا أولياء الله. فخدم يومه ذلك، وزاد فيه على ما تقدم، فلمَّا كان الليل دفعت له أجرته فأخذها وسار. فلما جاء يوم السبت الثالث أتيت إلى الموقف فلم أجده، فسألت عنه فقيل لي: هو مريض وراقد في خيمة فلانة. وكانت تلك المرأة عجوزًا مشهورة بالصلاح، ولها خيمة من قصب في الجبَّانة، فسرت إلى الخيمة ودخلتها، فإذا هو مضطجع على الأرض، وليس تحته شيء، وقد وضع رأسه على لَبِنة، ووجهه يتهلل نورًا، فسلَّمت عليه فردَّ عليَّ السلام، فجلست عند رأسه أبكي على صِغَر سنه وغربته، وتوفيقه لطاعة ربه، ثم قلت له: أَلَكَ حاجة؟ قال: نعم. قلت: وما هي؟ قال: إذا كان الغد تجيء إليَّ في وقت الضحى فتجدني ميتًا، فتغسلني وتحفر قبري، ولا

تُعلِم بذلك أحدًا، وتكفِّنني في هذه الجُبَّة التي عليَّ بعد أن تفتقها، وتفتِّش جيبها وتُخرِج ما فيه وتحفظه عندك، فإذا صلَّيتَ عليَّ وواريتني في التراب فاذهب إلى بغداد، وارتقب الخليفة هارون الرشيد حتى يخرج، وادفع له ما تجده في جيبي، وأَقْرِئه مني السلام. ثم تشهَّدَ وأثنى على ربه بأبلغ الكلمات، وأنشد هذه الأبيات:

بَلِّغْ أَمَانَةَ مَنْ وَافَتْ مَنِيَّتُهُ ... إِلَى الرَّشِيدِ فَإِنَّ الْأَجْرَ فِي ذَاكَ
وَقُلْ غَرِيبٌ لَهُ شَوْقٌ لِرُؤْيَتِكُمْ ... عَلَى تَمَادِي الْهَوَى وَالْبُعْدِ لَبَّاكَ
مَا صَدَّهُ عَنْكَ بُغْضٌ لَا وَلَا مَلَلٌ ... لِأَنَّ قَرْيَتَهُ مِنْ لَثْمِ يُمْنَاكَ
وَإِنَّمَا أَبْعَدَتْهُ عَنْكَ يَا أَبَتِي ... نَفْسٌ لَهَا عِفَّةٌ عَنْ نَيْلِ دُنْيَاكَ

ثم إن الغلام بعد ذلك اشتغل بالاستغفار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام بعد ذلك اشتغل بالاستغفار، والصلاة والسلام على سيد الأبرار، وتلاوة بعض الآيات، ثم أنشد هذه الأبيات:

يَا وَالِدِي لَا تَغْتَرِرْ بِتَنَعُّمِ فَالْعُمْرُ يَنْفَدُ وَالنَّعِيمُ يَزُولُ
وَإِذَا عَلِمْتَ بِحَالِ قَوْمٍ سَاءَهُمْ فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ عَنْهُمُ مَسْئُولُ
وَإِذَا حَمَلْتَ إِلَى الْقُبُورِ جَنَازَةً فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَهَا مَحْمُولُ

قال أبو عامر البصري: فلما فرغ الغلام من وصيته وإنشاده، ذهبت عنه وتوجَّهت إلى بيتي. فلما أصبح الصباح ذهبت إليه من الغد وقت الضحى فوجدته قد مات رحمة الله عليه، فغسَّلته وفتقت جُبَّته، فوجدتُ في جيبها ياقوتة تساوي آلافًا من الدنانير، فقلت في نفسي: والله إن هذا الفتى زهد في الدنيا غاية الزهد. ثم بعد أن دفنتُه توجَّهت إلى بغداد، ووصلت إلى دار الخلافة، وصرت أترقَّب خروجَ الرشيد إلى أن خرج، فتعرَّضت له في بعض الطرق، ودفعت إليه الياقوتة، فلما رآها عرفها فخَرَّ مغشيًّا عليه، فقبض عليَّ الخَدَمَة، فلما أفاق قال للخَدَمة: أفرجوا عنه وأرسلوه برفق إلى القصر. ففعلوا ما أمرهم به، فلما دخل قصره طلبني وأدخلني محله، وقال لي: ما فعل صاحب هذه الياقوتة؟ فقلت له: قد مات. ووصفت له حاله، فجعل يبكي ويقول: انتفع الولد، وخاب الوالد. ثم نادى: يا فلانة. فخرجت امرأة، فلما رأتني أرادت أن ترجع فقال لها: تعالي، وما عليك منه. فدخلَتْ وسلَّمَتْ، فرمى إليها الياقوتة، فلما رأتها صرخت صرخة عظيمة، ووقعت مغشيًّا عليها. فلما أفاقت من غشيتها قالت: يا أمير المؤمنين، ما فعل الله بولدي؟ فقال لي: أخبرها بشأنه. وأخذته العَبْرة. فأخبرتها بشأنه فجعلتْ تبكي وتقول بصوت ضعيف: ما

أشوقني إلى لقائك يا قرة عيني! ليتني كنتُ أسقيك إذا لم تجد ساقيًا! ليتني كنت أؤانسك إذا لم تجد مؤانسًا! ثم سكبَتِ العَبَرات، وأنشدت هذه الأبيات:

أَبْكِي غَرِيبًا أَتَاهُ الْمَوْتُ مُنْفَرِدًا ... لَمْ يَلْقَ إِلْفًا لَهُ يَشْكُو الَّذِي وَجَدَا
مَنْ بَعْدِ عِزٍّ وَشَمْلٍ كَانَ مُجْتَمِعًا ... أَضْحَى فَرِيدًا وَحِيدًا لَا يَرَى أَحَدَا
يُبِينُ لِلنَّاسِ مَا الْأَيَّامُ تُضْمِرُهُ ... لَمْ يَتْرُكِ الْمَوْتَ مِنَّا وَاحِدًا أَبَدَا
يَا غَائِبًا قَدْ قَضَى رَبِّي بِغُرْبَتِهِ ... وَصَارَ مِنِّيَ بَعْدَ الْقُرْبِ مُبْتَعِدَا
إِنْ أَيْأَسَ الْمَوْتُ مِنْ لُقْيَاكَ يَا وَلَدِي ... فَإِنَّنَا نَلْتَقِي يَوْمَ الْحِسَابِ غَدَا

فقلت: يا أمير المؤمنين، أهو ولدك؟ قال: نعم، وقد كان قبل ولايتي هذا الأمر يزور العلماء ويجالِس الصالحين، فلما وليت هذا الأمر نفر مني، وباعَدَ نفسه عني، فقلت لأمه: إن هذا الولد منقطع إلى الله تعالى، وربما تصيبه الشدائد ويكابد بالامتحان، فادفعي إليه هذه الياقوتة ليجدها وقت الاحتياج إليها. فدفعتها إليه وعزمت عليه أن يمسكها، فامتثل أمرها وأخذها منها، ثم ترك لنا دنيانا وغاب عنا، ولم يزل غائبًا حتى لقي الله — عز وجل — تقيًّا نقيًّا. ثم قال: قُمْ فأَرِني قبره. فخرجت معه وجعلت أسير إلى أن أريتُه إياه، فجعل يبكي وينتحب حتى وقع مغشيًّا عليه. فلما أفاق من غشيته استغفر الله وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ودعا له بخير، ثم سألني الصحبة، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن لي في ولدك أعظم العظات. ثم أنشدتُ هذه الأبيات:

أَنَا الْغَرِيبُ فَلَا آوِي إِلَى أَحَدٍ ... أَنَا الْغَرِيبُ وَإِنْ أَمْسَيْتُ فِي بَلَدِي
أَنَا الْغَرِيبُ فَلَا أَهْلٌ وَلَا وَلَدٌ ... وَلَيْسَ لِي أَحَدٌ يَأْوِي إِلَى أَحَدِ
إِلَى الْمَسَاجِدِ آوِي بَلْ وَأُعْمِرُهَا ... فَمَا يُفَارِقُهَا قَلْبِي مَدَى الْأَبَدِ
فَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى ... أَفْضَالِهِ بِبَقَاءِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ

حكاية الفقيه والصبيان

ومما يُحكَى عن بعض الفضلاء أنه قال: مررتُ بفقيه في كتَّاب وهو يُقرِئ الصبيان، فوجدته في هيئة حسنة، وقماش مليح، فأقبلتُ عليه فقام إليَّ وأجلسني معه؛ فمارسته في القرآن والنحو والشعر واللغة، فإذا هو كامل في كل ما يُراد منه، فقلتُ له: قوَّى الله عزمك، فإنك عارف بكل ما يُراد منك. ثم عاشرته مدة، وكل يوم يظهر لي فيه حسن،

فقلت في نفسي: إن هذا شيء عجيب من فقيه يعلِّم الصبيان، مع أن العقلاء اتفقوا على نقص عقل معلِّم الصبيان. ثم فارقته، وكنت كل أيام قلائل أتفقَّده وأزوره، فأتيت إليه في بعض الأيام على عادتي من زيارته، فوجدت الكتَّاب مغلوقًا فسألت جيرانه فقالوا: إنه مات عنده ميت. فقلت في نفسي: وجب علينا أن نعزِّيه. فجئت إلى بابه وطرقته، فخرجت لي جارية وقالت: ما تريد؟ فقلت: أريد مولاك. فقالت: إن مولاي قاعد في العزاء وحده. فقلت لها: قولي له إن صديقك فلانًا يطلب أن يعزيك. فراحت وأخبرته، فقال لها: دعيه يدخل. فأذنت لي في الدخول، فدخلتُ إليه فرأيته جالسًا وحده ومعصِّبًا رأسه، فقلت له: عظَّم الله أجرك، وهذا سبيل لا بد لكل أحد منه، فعليك بالصبر. ثم قلت له: مَن الذي مات لك؟ فقال: أعز الناس عليَّ، وأحبهم إليَّ. فقلت: لعله والدك. فقال: لا. قلتُ: والدتك. قال: لا. قلت: أخوك. قال: لا. قلت: أحد من أقاربك. قال: لا. قلت: فما نسبته إليك؟ قال: حبيبتي. فقلتُ في نفسي: هذا أول المباحث في قلَّة عقله. ثم قلت له: قد يوجد غيرها مما هو أحسن منها. فقال: أنا ما رأيتها حتى أعرف إنْ كان غيرها أحسن منها أم لا. فقلتُ في نفسي: وهذا مبحث ثانٍ. فقلت له: وكيف عشقتَ مَن لا تراها؟ فقال: اعلم أني كنتُ جالسًا في الطاقة، وإذا برجل عابر طريق يغني بهذا البيت:

يَا أُمَّ عَمْرٍو جَزَاكِ اللهُ مَكْرُمَةً   رُدِّي عَلَيَّ فُؤَادِي كَالَّذِي كَانَا

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الفقيه قال: لما غنَّى الرجل المار في الطريق بالشعر الذي سمعته منه، قلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا مثلها، ما كان الشعراء يتغزلون فيها. فتعلَّقْتُ بحبها، فلما كان بعد يومين عبَرَ ذلك الرجل وهو ينشد هذا البيت:

إِذَا ذَهَبَ الْحِمَارُ بِأُمِّ عَمْرٍو فَلَا رَجَعَتْ وَلَا رَجَعَ الْحِمَارُ

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها، ومضى لي ثلاثة أيام وأنا في العزاء. فتركته وانصرفت بعدما تحقَّقتُ قلةَ عقله.

ومما يُحكَى من قلَّة عقل معلم الصبيان، أنه كان رجل فقيه في مكتب فدخل عليه رجل ظريف، وجلس عنده ومارسه، فرآه فقيهًا نحويًّا لغويًّا شاعرًا أديبًا فهيمًا لطيفًا، فتعجَّب من ذلك وقال: إن الذين يعلِّمون الصبيان في المكاتب ليس لهم عقل كامل. فلما همَّ بالانصراف من عند الفقيه قال له: أنت ضيفي في هذه الليلة. فأجابه إلى الضيافة، وتوجَّه صحبته إلى منزله، فأكرمه وأتى له بالطعام، فأكلا وشربا، ثم جلسا بعد ذلك يتحدثان إلى ثلث الليل، وبعد ذلك جهَّز له الفراش وطلع إلى حريمه. فاضطجع الضيف وأراد النوم، وإذا بصراخ كثير ثار في حريمه، فسأل: ما الخبر؟ فقالوا له: إن الشيخ حصل له أمر عظيم، وهو في آخِر رمق. فقال: طلعوني له. فطلعوه له، ودخل عليه فرآه مغشيًّا عليه ودمه سائل، فرشَّ الماء على وجهه فلما أفاق قال له: ما هذا الحال؟ أنت طلعت من عندي في غاية ما يكون من الحظ وأنت صحيح البدن، فما أصابك؟ فقال له: يا أخي، إني بعدما طلعت من عندك جلست أتذكر في مصنوعات الله تعالى، وقلت في نفسي: كل شيء خلقه الله للإنسان فيه نفع؛ لأن الله سبحانه خلق اليدين للبطش، والرجلين للمشي، والعينين للنظر،

والأذنين للسماع، والذكر للجماع ... وهلمَّ جرًّا، إلا هاتين البيضتين ليس لهما نفع، فأخذت موسى كان عندي وقطعتهما فحصل لي هذا الأمر. فنزل من عنده وقال: صدَقَ مَن قال: إن كل فقيه يعلِّم الصبيان ليس له عقل كامل، ولو كان يعرف جميعَ العلوم.

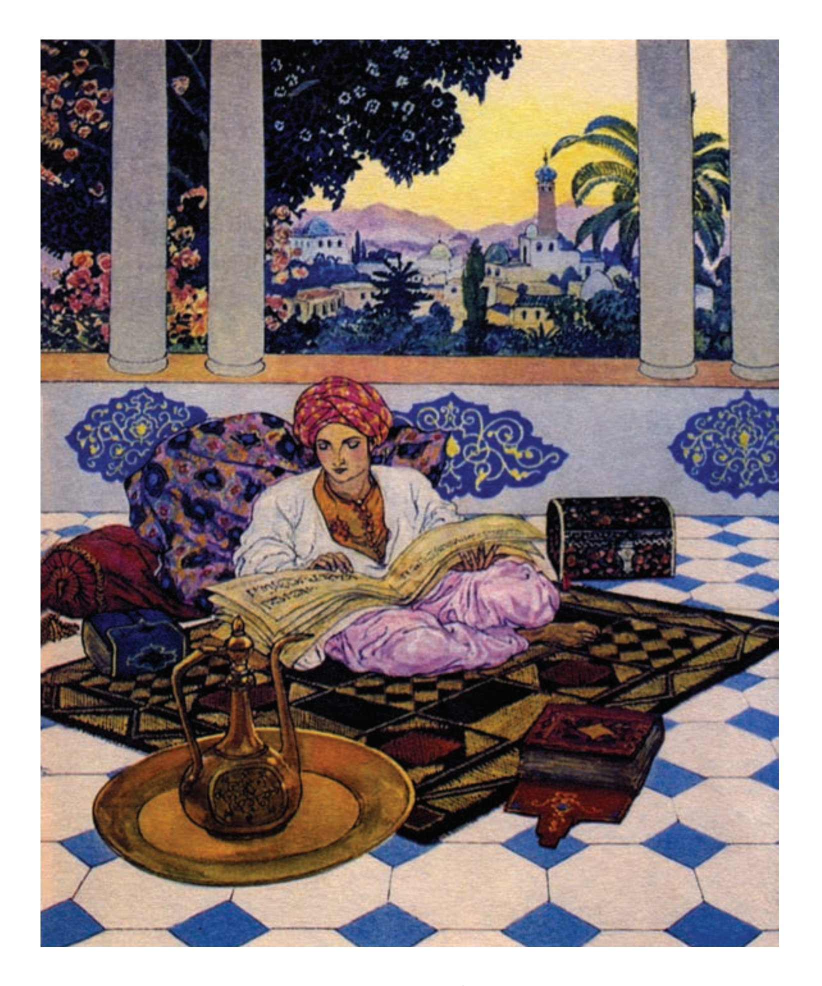
وحُكِي أيضًا أن أحد المجاورين كان لا يعرف الخط ولا القراءة، وإنما كان يحتال على الناس بحِيَل يأكل منها الخبز، فخطر بباله يومًا من الأيام أنه يفتح له مكتبًا ويُقرِئ فيه الصبيان؛ فجمع ألواحًا وأوراقًا مكتوبة، وعلَّقها في مكان، وكبَّر عمامته، وجلس على باب المكتب؛ فصار الناس يمرون عليه وينظرون إلى عمامته، وإلى الألواح والأوراق فيظنون أنه فقيه جيد، فيأتون إليه بأولادهم؛ فصار يقول لهذا اكتب، ولهذا اقرأ؛ فصار الأولاد يعلِّم بعضهم بعضًا. فبينما هو ذات يوم جالس على باب المكتب على عادته، وإذا بامرأة مقبلة من بعيد وبيدها مكتوب، فقال في باله: لا بد أن هذه المرأة تقصدني لأقرأ لها المكتوب الذي معها، فكيف يكون عملي معها وأنا لا أعرف قراءة الخط؟ وهمَّ بالنزول ليهرب منها فلحقته قبل أن ينزل، وقالت له: إلى أين؟ فقال لها: أريد أن أصلي الظهر وأعود. فقالت له: الظهر بعيد، فاقرأ لي هذا الكتاب. فأخذه منها وجعل أعلاه أسفله، وصار ينظر إليه، ويهزُّ عمامته تارةً، ويرقِّص حواجبه تارةً أخرى، ويُظهِر غيظًا، وكان زوج المرأة غائبًا، والكتابُ مُرسَل إليها من عنده، فلما رأت الفقيه على تلك الحالة قالت في نفسها: لا شكَّ أن زوجي مات، وهذا الفقيه يستحي أن يقول لي إنه مات. فقالت له: يا سيدي، إن كان مات فقُلْ لي. فهزَّ رأسه وسكت، فقالت له المرأة: هل أشقُّ ثيابي؟ فقال لها: شقِّي. فقالت له: هل ألطم على وجهي؟ فقال لها: الْطِمِي. فأخذت الكتاب من يده وعادت إلى منزلها، وصارت تبكي هي وأولادها، فسمع بعض جيرانها البكاء فسألوا عن حالها فقيل لهم: إنه جاءها كتاب بموت زوجها. فقال الرجل: إن هذا كلام كذب؛ لأن زوجها أرسَلَ لي مكتوبًا بالأمس يخبر فيه أنه طيب بخير وعافية، وأنه بعد عشرة أيام يكون عندها. فقام من ساعته وجاء إلى المرأة وقال لها: أين الكتاب الذي جاءك؟ فجاءت به إليه، فأخذه منها وقرأه، وإذا فيه: أما بعدُ، فإني طيب بخير وعافية، وبعد عشرة أيام أكون عندكم، وقد أرسلتُ إليكم ملحفة ومكمرة. فأخذت الكتاب وعادت به إلى الفقيه، وقالت له: ما حملك على الذي فعلتَه معي؟ وأخبرَتْه بما قاله جارها من سلامة زوجها، وأنه أرسل إليها ملحفة ومكمرة، فقال لها: لقد صدقت، ولكن يا حرمة اعذريني؛ فإني كنت في تلك الساعة مغتاظًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة قالت للفقيه: ما حملك على الذي فعلتَه معي؟ فقال لها: إني كنت في تلك الساعة مغتاظًا مشغول الخاطر، ورأيت المكمرة ملفوفة في الملحفة، فظننتُ أنه مات وكفَّنوه. وكانت المرأة لا تعرف الحيلة، فقالت له: أنت معذور. وأخذت الكتاب منه وانصرفت.

حكاية ملك خرج متخفيًا

وحُكِي أن ملكًا من الملوك خرج مستخفيًا ليطَّلع على أحوال رعيته، فوصل إلى قرية عظيمة فدخلها منفردًا، وقد عطش، فوقف بباب دار من دور القرية وطلب ماء، فخرجت إليه امرأة جميلة بكوز ماء فناولته إيَّاه فشرب، فلما نظر إليها افتتن بها فراودها عن نفسها، وكانت المرأة عارفة به، فدخلت به بيتها وأجلسته، وأخرجت له كتابًا وقالت: انظر في هذا الكتاب إلى أن أُصلِح أمري وأرجع إليك. فجلس يطالع في الكتاب وإذا فيه الزجر عن الزنا، وما أعدَّه الله لأهله من العذاب؛ فاقشعرَّ جلده وتاب الى الله، وصاح بالمرأة وأعطاها الكتاب وذهب. وكان زوج المرأة غائبًا، فلما حضر أخبرته بالخبر فتحيَّر، وقال في نفسه: أخاف أن يكون وقع غرض الملك فيها. فلم يتجاسر على وطئها بعد ذلك، ومكث على ذلك مدة، فأعلمت المرأة أقاربها بما حصل لها مع زوجها، فرفعوه إلى الملك، فلما مثلوا بين يديه قال أقارب المرأة: أعزَّ الله الملك، إن هذا الرجل استأجر منَّا أرضًا للزراعة فزرعها مدة، ثم عطَّلها فلا هو يتركها حتى نؤاجرها لَمن يزرعها، ولا هو يزرعها، وقد حصل الضرر للأرض فنخاف فسادها بسبب التعطيل؛ لأن الأرض إذا لم تُزرَع فسدَتْ. فقال الملك: ما



فخطر بباله يومًا من الأيام أنه يفتح له مكتبًا، ويُقرِئ فيه الصِّبْيان.

الذي يمنعك من زرع أرضك؟ فقال: أعزَّ الله الملك، إنه قد بلغني أن الأسد قد دخل الأرض فهِبْته ولم أقدر على الدنوِّ منها، لعلمي أنه لا طاقةَ لي بالأسد، وأخاف منه. ففهم الملك القصة وقال له: يا هذا، إن أرضك لم يَطَأْها الأسد، وأرضك طيبة الزرع فازرعها بارَكَ الله لك فيها، فإن الأسد لا يعدو عليها. ثم أمر له ولزوجته بصلة حسنة وصرفهم.

فلما كانت الليلة ٤٠٤

حكاية عبد الرحمن المغربي وفرخ الرخِّ

ومما يُحكَى أن رجلًا من أهل المغرب كان سافَرَ الأقطار، وجاب القفار والبحار، فألقته المقادير في جزيرة وأقام فيها مدة طويلة، ثم رجع إلى بلده ومعه قصبة ريشة من جناح فرخ الرخِّ وهو في البيضة ولم يخرج منها إلى الوجود، وكانت تلك القصبة تسع قربة ماء، وقيل إن طول جناح فرخ الرخ حين خروجه من البيضة ألف باع، وكان الناس يتعجَّبون من تلك القصبة حين رأوها، وكان هذا الرجل اسمه عبد الرحمن المغربي، واشتهر بالصيني لكثرة إقامته هناك، وكان يحدِّث بالعجائب، منها ما ذكره من أنه سافر في بحر الصين ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الرحمن المغربي الصيني كان يحدِّث بالعجائب، منها ما ذكره من أنه سافر في بحر الصين مع جماعة، فرأوا جزيرة على بُعْد، فرست بهم المركب على تلك الجزيرة فرأوها عظيمة واسعة، فخرج إليها أهل تلك السفينة ليأخذوا ماءً وحطبًا، ومعهم الفئوس والحبال والقرب وذلك الرجل معهم، فرأوا في الجزيرة قبة عظيمة بيضاء لَّماعة طولها مائة ذراع، فلما رأوها قصدوها ودنوا منها فوجدوها بيضة الرخ، فجعلوا يضربونها بالفئوس والحجارة والخشب حتى انشَقَّتْ عن فرخ الرخِّ، فوجدوه كالجبل الشامخ، فنتفوا ريشه من جناحه ولم يقدروا على نتفها منه إلا بتعاونهم، مع أنه لم يتكامل خلف الريش في ذلك الفرخ، ثم أخذوا ما قدروا عليه من لحم الفرخ وحملوه معهم، وقطعوا أصل الريشة من حد القصبة وحلوا قلوع المركب، وسافروا طول الليل إلى طلوع الشمس، وكانت الريح مسعفة لتلك السفينة وهي سائرة بهم، فبينما هم كذلك إذ أقبل الرخُّ كالسحابة العظيمة، وفي رجلَيْه صخرة كالجبل العظيم أكبر من السفينة، فلما حاذى السفينة وهو في الجو ألقى الصخرة عليها وعلى مَن بها من الناس، وكانت السفينة مُسرِعة في الجري فسبقت فوقعت الصخرة في البحر، وكان لوقوعها هول عظيم، وكتب الله لهم السلامة ونجَّاهم من الهلاك، وطبخوا ذلك اللحم وأكلوه، وكان فيهم مشايخ بيض اللحى، فلما أصبحوا وجدوا لحاهم قد اسودَّتْ ولم يَشِب بعد ذلك أحد من القوم الذين أكلوا من ذلك اللحم، وكانوا يقولون: إن سبب عود شبابهم إليهم وامتناع المشيب عنهم، أن العود الذي حرَّكوا به القدر كان من شجرة النشاب، وبعضهم يقول: سبب ذلك لحم فرخ الرخ. وهذا من أعجب العجب.

حكاية عدي بن زيد والأميرة هند

ومما يُحكَى أن النعمان بن المنذر ملك العرب كان له بنت تُسمَّى هندًا، وقد خرجت في يوم الفصح وهو عيد النصارى لتتقرَّب في البيعة البيضاء، ولها من العمر أحد عشر عامًا، وكانت أجمل بنات عصرها وزمانها، وفي ذلك اليوم كان عدي بن زيد قد قَدِم إلى الحيرة من عند كسرى بهدية إلى النعمان، فدخل البيعة البيضاء ليتقرب، وكان مديد القامة، حلو الشمائل، حسن العينين، نقي الخد، ومعه جماعة من قومه، وكان مع هند بنت النعمان جارية تُسمَّى مارية، وكانت مارية تعشق عديًّا، ولكنها لا يمكنها الوصول إليه، فلما رأته في البيعة قالت لهند: انظري إلى هذا الفتى، فهو والله أحسن من كلِّ مَنْ تزيَّنَ. قالت هند: ومَن هو؟ قالت: عدي بن زيد. قالت هند بنت النعمان: أخاف أن يعرفني إنْ دنوْتُ منه حتى أراه من قريب. قالت مارية: ومن أين يعرفك وما رآك قطُّ؟ فدنَتْ منه وهو يمازح الفتيان الذين معه، وقد برع عليهم بجماله وحُسْن كلامه وفصاحة لسانه، وما عليه من الثياب الفاخرة، فلما نظرت إليه افتتنت به واندهش عقلها وتغيَّر لونها، فلما عرفت مارية ميلها إليه، قالت لها: كلِّميه. فكلَّمَتْه وانصرفت، فلما نظر إليها وسمع كلامها افتتن بها، واندهش عقله، وارتجف قلبه، وتغيَّرَ لونه، حتى أنكر عليه الفتيان، فأسر إلى بعضهم أن يتبعها ويكشف له خبرها، فمضى خلفها ثم عاد إليه وأخبره أنها هند بنت النعمان، فخرج من البيعة وهو لا يدري أين الطريق من شدة عشقه، ثم أنشد هذين البيتين:

يَا خَلِيلِي زِدْتُمَا تَيْسِيرَا إِنْ تَؤُمَّا إِلَى الْبِقَاعِ مَسِيرَا
عَرِّجَا لِي عَلَى دِيَارٍ لِهِنْدٍ ثُمَّ رُوحَا وَخَبِّرَا تَخْبِيرَا

فلما فرغ من شعره ذهب إلى مكانه، وبات ليلته قلقًا لم يذق طعم النوم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عديًّا لما فرغ من شعره ذهب إلى بيته وبات ليلته قلقًا لم يَذُقِ النومَ، فلما أصبح تعرَّضَتْ له مارية، فلما رآها هشَّ لها وكان قبل ذلك لا يلتفت إليها، ثم قال لها: ما مرادك؟ قالت: إن لي حاجة إليك. قال: اذكريها، فوالله لا تسأليني شيئًا إلا أعطيتُكِ إياه. فأخبرته أنها تهواه وأن حاجتها إليه الخلوة، فسمح لها بذلك بشرط أن تحتال في هند وتجمع بينها وبينه، وأدخَلَها حانوت خمار في بعض دروب الحيرة وواقَعَها، ثم خرجت وأتَتْ هند فقالت لها: أَمَا تشتهين أن تري عديًّا؟ قالت: وكيف لي بذلك، وقد أقلقني الشوق إليه، ولا يقر لي قرار من البارحة؟ فقالت: أنا أعده بمكان كذا أو كذا، وتنظرين إليه من القصر. فقالت هند: افعلي ما شئتِ. واتفقت معها على ذلك الموضع، فأتى عدي فأشرفت عليه، فلما رأته كادت أن تسقط من أعلاه، ثم قالت: يا مارية، إنْ لم تُدخِليه عليَّ في هذه الليلة هلكتُ. ثم وقعَتْ مغشيًّا عليها، فحملنها وصائفها وأَدْخَلْنَها القصر، فبادرت مارية إلى النعمان وأخبرته بخبرها وأصدقته الحديث، وذكرت له: إنها هامَتْ بِعُدَيٍّ. وأعلمَتْه أنه إنْ لم يزوِّجها به افتضحت وماتت من عشقه، ويكون ذلك عارًا عليه بين العرب، وأنه لا حيلةَ في ذلك الأمر إلا تزويجها به؛ فأطرق النعمان ساعة يفكِّر في أمرها، واسترجع مرارًا ثم قال: ويلك، وكيف الحيلة في تزويجها به، وأنا لا أحب أن أبتَدِئَه بذلك الكلام؟ فقالت: هو أشد عشقًا منها وأكثر رغبةً فيها، فأنا أحتال في ذلك من حيث لا يعلم أنك عرفتَ أمره، ولا تفضح نفسك أيها الملك. ثم إنها ذهبت إلى عُدَيٍّ وأخبرته وقالت له: اصنع طعامًا ثم ادعُ الملك إليه، فإذا أخذ منه الشراب فأخطبها منه، فإنه غير رادِّكَ. فقال: أخشى أن يُغضِبه ذلك فيكون سببًا للعداوة بيننا. فقالت له: ما جئتُكَ إلا بعدما فرغتُ من الحديث معه. وبعد ذلك رجعَتْ إلى النعمان وقالت له: أطلب منه أن يضيفك في بيته. فقال لها: لا بأس. ثم إن النعمان بعد ذلك بثلاثة أيام سأله أن يتغدى

عنده أصحابه، فأجابه إلى ذلك، ثم ذهب إليه النعمان فلما أخذ منه الشراب مأخذه، قام عُدَيٌّ فخطبها منه، فأجابه وزوَّجَه إياها وضمَّها إليه بعد ثلاثة أيام، فمكثت عنده ثلاث سنين وهما في أرغد عيش وأهناه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عُدَيًّا مكث مع هند بنت النعمان بن المنذر ثلاث سنين وهما في أرغد عيش وأهناه، ثم إن النعمان بعد ذلك غضب على عُدَيٍّ وقتله، فوَجَدَتْ عليه هند وَجْدًا عظيمًا، ثم إنها بَنَتْ لها ديرًا في ظاهر الحيرة وترهَّبَتْ فيه وجلست تندبه وتبكيه حتى ماتت، وديرها معروف إلى الآن في ظاهر الحيرة.

حكاية دعبل الخزاعي والجارية وابن الوليد

ومما يُحكَى أن دعبل الخزاعي قال: كنتُ جالسًا بباب الكرخ إذ مرَّتْ بي جارية لم أَرَ أحسن منها ولا أعدل قَدًّا، وهي تنثني في مشيتها وتسبي الناظرين بتثنيها، فلما وقع بصري عليها افتتنتُ بها وارتجف فؤادي، وآنست أنه قد طار قلبي من صدري، فأنشدتُ معرضًا لها هذا البيت:

دُمُوعُ عَيْنِي بِهَا انْفِضَاضُ وَنَوْمُ جَفْنِي بِهِ انْقِبَاضُ

فنظرَتْ إليَّ واستدارَتْ بوجهها، وأجابتني بسرعة بهذا البيت:

وَذَا قَلِيلٌ لِمَنْ دَعَتْهُ بِلَحْظِهَا الْأَعْيُنُ الْمِرَاضُ

فأدهشتني بسرعة جوابها وحُسْن منطقها، فأنشدتُها ثانيًا هذا البيت:

فَهَلْ لِمَوْلَاي عَطْفُ قَلْبٍ عَلَى الَّذِي دَمْعُهُ مُفَاضُ

فأجابتني بسرعة من غير توقُّف بهذا البيت:

إِنْ كُنْتَ تَهْوَى الْوِدَادَ مِنَّا فَالْوُدُّ مَا بَيْنَنَا قِرَاضُ

فما دخل في أذني قطُّ أحلى من كلامها، ولا رأيت أبهج من وجهها، فعدلتُ بالشعر عن القافية امتحانًا لها وعجبًا بكلامها، فقلتُ لها هذا البيت:

أَتَرَى الزَّمَانَ يَسُرُّنَا بِتَلَاقِ وَيَضُمُّ مُشْتَاقًا إِلَى مُشْتَاقِ

فتبسَّمَتْ فما رأيتُ أحسن من فمها، ولا أحلى من ثَغْرها، وأجابتني بسرعة من غير توقُّف بهذا البيت:

مَا لِلزَّمَانِ وَلِلتَّحَكُّمِ بَيْنَنَا أَنْتَ الزَّمَانُ فَسُرُّنَا بِتَلَاقِ

فنهضتُ مسرعًا وصرتُ أقبِّل يديها، وقلت لها: ما كنتُ أظن أن الزمان يسمح لي بمثل هذه الفرصة، فاتَّبعي أثري غير مأمورة ولا مستكرهة، بل بفضلٍ منك تعطُّفًا عليَّ، ثم وليتُ وهي خلفي، ولم يكن إليَّ في ذلك الوقت منزل أرضاه لمثلها، وكان مسلم بن الوليد صديقًا لي وله منزل حسن فقصدته، فلما قرعتُ عليه الباب خرج إليَّ فسلَّمْتُ عليه وقلتُ: لمثل هذا الوقت تُدَّخَر الإخوان. فقال: حبًّا وكرامةً، ادخل. فدخلنا فصادفنا عنده عسرة، فدفع لي منديلًا وقال: اذهب به إلى السوق وبِعْه وخُذْ ما تحتاج إليه من طعام وغيره. فمضيتُ مسرعًا إلى السوق وبِعْتُه وأخذت ما نحتاج إليه من طعام وغيره، ثم رجعت فرأيت مسلمًا قد خلا بها في سرداب، فلما أَحَسَّ بي وثب إليَّ وقال لي: كافاكَ الله يا أبا عليٍّ على جميل ما صنعتَ معي، ولقاك ثوابه وجعله حسنةً في حسناتك يومَ القيامة. ثم تناوَلَ مني الطعام والشراب، وأغلَقَ البابَ في وجهي، فغاظني قوله ولم أَدْرِ ما أصنع وهو قائم خلف الباب يهتَزُّ سرورًا، فلما رآني على تلك الحالة قال: بحياتي يا أبا عليٍّ، مَن الذي أنشأ هذا البيت:

بِتُّ فِي دَرْعِهَا وَبَاتَ رَفِيقِي جُنُبَ الْقَلْبِ طَاهِرَ الْأَطْرَافِ

فاشتدَّ غيظي منه وقلتُ: هو منشئ هذا البيت:

مَنْ لَهُ فِي حِزَامِهِ أَلْفُ قَرْنٍ   قَدْ أَنَافَتْ عَلَى عُلُوِّ مَنَافِ

ثم جعلت أشتمه وأسبُّه على قبيح فعله وقلة مروءته، وهو ساكت لا يتكلم، فلما فرغت من سبِّي له، تبسَّمَ وقال: ويلك يا أحمق، إنما دخلتُ منزلي وبعتُ منديلي وأنفقتُ دراهمي، فعلى مَن تغضب يا قوَّاد؟ ثم تركني وانصرف إليها، فقلتُ له: أَمَا والله لقد صدقتَ في نسبتي إلى الحماقة والقوادة. وانصرفتُ عن بابه وأنا في همٍّ شديدٍ أجد أثره في قلبي إلى يومي هذا، ولم أظفر بها ولا سمعتُ لها خبرًا.

حكاية إسحاق الموصلي والمغني

ومما يُحكَى أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: اتفق أنني ضجرت من ملازمة دار الخليفة والخدمة بها، فركبت وخرجت بكرة النهار، وعزمت على أن أطوف الصحراء وأتفرَّج، وقلت لغلماني: إذا جاء رسول الخليفة أو غيره فعرِّفوه أنني بكَّرت في بعض مهماتي، وأنكم لا تعرفون أين ذهبت. ثم مضيت وحدي وطفت في المدينة، وقد حَمِي النهار فوقفت في شارع يُعرَف بالحرم ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: لما حَمِي النهار وقفت في شارع يُعرَف بالحرم لأستظل من حرِّ الشمس، وكان للدار جناح رحب بارز على الطريق، فلم ألبث حتى جاء خادم أسود يقود حمارًا، فرأيت عليه جارية راكبة، وتحتها منديل مكلَّل بالجواهر، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده، ورأيت لها قوامًا حسنًا، وطرفًا فاترًا، وشمائل ظريفة، فسألت عنها بعضَ المارين فقال لي: إنها مغنية. وقد تعلَّقَ بحبِّها قلبي عند نظري إليها، وما قدرتُ أن أستقرَّ على ظهر دابتي، ثم إنها دخلت الدار التي كنت واقفًا على بابها، فجعلتُ أتفكَّر في حيلة أتوصَّل بها إليها. فبينما أنا واقف إذ أقبل رجلان شابَّان جميلان فاستأذنا فأَذِن لهما صاحب الدار، فنزلا ونزلت معهما، ودخلت صحبتهما، فظنَّا أن صاحب الدار دعاني، فجلسنا ساعةً فأتى بالطعام فأكلنا، ثم وضع الشراب بين أيدينا، ثم خرجت الجارية وفي يدها عود فغنَّت وشربنا، وقمت لأقضي حاجة، فسأل صاحب المنزل الرجلين عنِّي فأخبراه أنهما لا يعرفاني، فقال: هذا طفيليٌّ، ولكنه ظريف فأجملوا عشرته. ثم جئتُ فجلستُ في مكاني، فغنَّت الجارية بلحن لطيف، وأنشدت هذين البيتين:

قُلْ لِلْغَزَالَةِ وَهْيَ غَيْرُ غَزَالَةٍ وَالْجُؤْذُرُ الْمَكْحُولُ غَيْرُ الْجُؤْذُرِ
لِمُذَكَّرِ الْخَلَوَاتِ غَيْرِ مُؤَنَّثٍ وَمُؤَنَّثِ الْخَطَوَاتِ غَيْرِ مُذَكَّرِ

فأدته أداءً حسنًا، وشرب القوم وأعجبهم ذلك. ثم غنَّتْ طُرقًا شتَّى بألحان غريبة، وغنَّت من جملتها طريقة هي لي، وأنشدت هذين البيتين:

الطُّلُولُ الدَّوَارِسُ فَارَقَتْهَا الْأَوَانِسُ
أَوْحَشَتْ بَعْدَ أُنْسِهَا فَهْيَ قَفْرَاءُ طَامِسُ

فكان أمرها أصلح فيها من الأولى. ثم غنت طُرقًا شتَّى بألحان غريبة من القديم والحديث، وغنَّت في أثنائها طريقة هي لي بهذين البيتين:

قُلْ لِمَنْ صَدَّ عَاتِبَا وَنَأَى عَنْكَ جَانِبَا
قَدْ بَلَغْتَ الَّذِي بَلَغْـ ـتَ وَإِنْ كُنْتَ لَاعِبَا

فاستعدْتُهُ منها لأصحِّحه لها، فأقبَلَ عليَّ أحدُ الرجلين وقال: ما رأينا طفيليًّا أصفق وجهًا منك، أَمَا ترضى بالتطفُّل حتى اقترحتَ؟ وقد صحَّ فيك المثل: طفيلي ومقترح. فأطرقْتُ حياءً ولم أُجِبْه، فجعل صاحبه يكفُّه عني فلا ينكف، ثم قاموا إلى الصلاة فتأخرتُ قليلًا، وأخذتُ العود وشددتُ طرفَيْه وأصلحته إصلاحًا محكمًا، وعدت إلى موضعي فصليَّتُ معهم، ولما فرغنا من الصلاة رجع ذلك الرجل إلى اللوم عليَّ والتعنيف، ولجَّ في عربدته وأنا صامت؛ فأخذَتِ الجاريةُ العودَ وجسَّته فأنكرت حاله وقالت: مَن جسَّ عودي؟ فقالوا: ما جسَّه أحدٌ منا. قالت: بلى والله لقد جسَّه حاذِقٌ متقدِّم في الصناعة؛ لأنه أحكَمَ أوتارَه، وأصلحه إصلاحَ حاذقٍ في صنعته. فقلتُ لها: أنا الذي أصلحتُه. فقالت: بالله عليك أن تأخذه وتضرب عليه. فأخذته وضربت عليه طريقة عجيبة صعبة، تكاد أن تُمِيتَ الأحياءَ وتُحْيِيَ الأموات، وأنشدت عليه هذه الأبيات:

وَكَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشُ بِهِ فَاكْتَوَى بِالنَّارِ وَاحْتَرَقَ
أَنَا لَمْ أُرْزَقْ مَحَبَّتَهَا إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَ
إِنْ يَكُنْ مَا ذُقْتُ طَعْمَ هَوًى ذَاقَهُ لَا شَكَّ مَنْ عَشِقَ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٠٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: لما فرغت من شعري لم يَبْقَ أحدٌ من الجماعة إلا ووثب من موضعه، وجلسوا بين يدي وقالوا: بالله عليك يا سيدنا أن تغني لنا صوتًا آخَر. فقلتُ لهم: حبًّا وكرامة. ثم أحكمتُ الضربات، وغنَّيت بهذه الأبيات:

أَلَا مَنْ لِقَلْبٍ ذَائِبٍ بِالنَّوَائِبِ	أَنَاخَتْ بِهِ الْأَحْزَانُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
حَرَامٌ عَلَى رَامِي فُؤَادِي بِسَهْمِهِ	دَمُ الصَّبِّ بَيْنَ الْحَشَا وَالتَّرَائِبِ
تَبِينُ يَوْمَ الْبَيْنِ أَنَّ اقْتِرَابَهُ	عَلَى الْبَيْنِ مِنْ ضِمْنِ الظُّنُونِ الْكَوَاذِبِ
أَرَاقَ دَمًا لَوْلَا الْهَوَى مَا أَرَاقَهُ	فَهَلْ لِدَمِي مِنْ ثَائِرٍ وَمُطَالِبِ

فلما فرغ من شعره لم يَبْقَ أحدٌ منهم إلا وقام على قدمَيْه، ثم رمى بنفسه على الأرض من شدة ما أصابه من الطرب. قال: فرميت العود من يدي، فقالوا: بالله عليك ألَّا تفعل بنا هذا، وزدنا صوتًا آخَر زادك الله تعالى من نعمته. فقلت لهم: يا قوم، أزيدكم صوتًا آخَر وآخَر وآخَر، وأعرِّفكم مَن أنا، أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي، والله إني لأتيه على الخليفة إذا طلبني، وأنتم قد أسمعتموني غليظَ ما أكره في هذا اليوم، فوالله لا نطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى تُخرِجوا هذا العربيد من بينكم. فقال له صاحبه: من هذا حذَّرْتُك، وخفتُ عليك. ثم أخذوا بيده وأخرجوه، فأخذتُ العود وغنَّيت الأصوات التي غنَّتْها الجارية من صنعتي، ثم أسررتُ إلى صاحب الدار أن الجارية قد وقعَتْ في قلبي، ولا صبرَ لي عنها. فقال الرجل: هي لك بشرط. فقلت: وما هو؟ قال: أن تقيم عندي شهرًا، والجارية وما يتعلَّق بها من حليٍّ وحُلل لك. فقلت: نعم، أفعل ذلك. فأقمت عنده شهرًا لا

يعرف أحدٌ أين أنا؟ والخليفة يفتش عليَّ في كل موضع، ولا يعرف لي خبرًا. فلما انقضى الشهر سلَّم لي الجارية وما يتعلق بها من الأمتعة النفيسة، وأعطاني خادمًا آخَر، فجئتُ بذلك إلى منزلي وكأني قد حُزْتُ الدنيا بأسرها من شدة فرحي بالجارية. ثم ركبتُ إلى المأمون من وقتي، فلما حضرت بين يديه قال لي: ويحك يا إسحاق! أين كنتَ؟ فأخبرته بخبري. فقال: عليَّ بذلك الرجل في هذه الساعة. فدللتهم على داره، فأرسل إليه الخليفة، فلما حضر سأله عن القصة فأخبره بها، فقال له: أنت رجل ذو مروءة، والرأي أن تُعَان على مروءتك. فأمر له بمائة ألف درهم وقال لي: يا إسحاق أحضر الجارية. فأحضرتها فغنَّت له وأطربته، فحصل له منها سرور عظيم، فقال: قد جعلتُ عليها نوبة في كل يوم خميس، فتحضر وتغني من وراء الستارة. ثم أمر لها بخمسين ألف درهم، فوالله لقد ربحت وأربحت في تلك الركبة.

حكاية ثلاثة عشَّاق حزَانَى

ومما يُحكَى أن العتي قال: جلست يومًا وعندي جماعة من أهل الأدب، فتذاكرنا أخبار الناس ونزع بنا الحديث إلى أخبار المحِبِّين، فجعل كلٌّ منَّا يقول شيئًا، وفي الجماعة شيخ ساكت، ولم يَبْقَ عند أحدٍ منهم شيءٌ إلا أخبَرَ به، فقال ذلك الشيخ: هل أحدِّثكم حديثًا لم تسمعوا مثله قطٌّ؟ قلنا: نعم. قال: اعلموا أنه كانت لي ابنة وكانت تهوى شابًّا، ونحن لا نعلم بها، وكان الشاب يهوى قينة، وكانت القينة تهوى ابنتي، فحضرت في بعض الأيام مجلسًا فيه ذلك الشاب ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ قال: فحضرتُ في بعض الأيام مجلسًا فيه ذلك الشاب والقينة، فغنَّتِ القينة بهذين البيتين:

عَلَامَاتُ ذُلِّ الْهَوَى عَلَى الْعَاشِقِينَ الْبُكَا
وَلَا سِيَّمَا عَاشِقٌ إِذَا لَمْ يَجِدْ مُشْتَكَى

فقال لها الشاب: أحسنتِ والله يا سيدتي، أفتأذني لي أن أموت؟ فقالت القينة من وراء الستر: نعم، إنْ كنتَ عاشقًا فمُتْ. فوضع الشاب رأسه على وسادة وأغمض عينه، فلما وصل القدح إليه حرَّكْنَاه فإذا هو ميت، فاجتمعنا عليه وتكدر علينا السرور وتنكدنا وافترقنا من ساعتنا، فلما سرتُ إلى منزلي أنكَرَ عليَّ أهلي حيث انصرفت إليهم في غير الوقت المعتاد، فأخبرتُهم بما كان من أمر الشاب لأعجبهم بذلك، فسمعَتِ ابنتي كلامي فقامت من المجلس الذي أنا فيه ودخلت مجلسًا آخَر، فقمتُ خلفها ودخلت ذلك المجلس فوجدتها متوسدة على مثالِ ما وصفتُ من حال الشاب، فحرَّكْتُها فإذا هي ميتة، فأخذنا في تجهيزها وغدونا بجنازتها وغدوا بجنازة الشاب، فلما صرنا في طريق الجبانة وإذا نحن بجنازة ثالثة، فسألنا عنها فإذا هي جنازة القينة؛ فإنها حين بلغها موتُ ابنتي فعلت مثل ما فعلت فماتت، فدفنا الثلاثة في يوم واحد، وهذا أعجب ما سُمِع من أخبار العشَّاق.

حكاية عشَّاق بني طيٍّ

ومما يُحكَى أن القاسم بن عدي حكى عن رجل من بني تميم أنه قال: خرجتُ في طلب ضالَّة، فوردتُ على مياه بني طيٍّ فرأيتُ بفريقين، أحدهما قريب من الآخَر، وإذا في أحد

الفريقين كلام مثل كلام أهل الفريق الآخَر، فتأمَّلْتُ فرأيتُ في أحد الفريقين شابًّا قد نهكه المرض، وهو مثل الشن البالي، فبينما أنا أتأمله وإذا هو ينشد هذه الأبيات:

أَلَا مَا لِلْمَلِيحَةِ لَا تَعُودُ أَبُخْلٌ بِالْمَلِيحَةِ أَمْ صُدُودُ
مَرِضْتُ فَعَادَنِي أَهْلِي جَمِيعًا فَمَا لَكِ لَا تُرَيْ فِيمَنْ يَعُودُ
فَلَوْ كُنْتِ الْمَرِيضَةَ جِئْتُ أَسْعَى إِلَيْكِ وَلَمْ يُنَهْنِهْنِي الْوَعِيدُ
عَدِمْتُكِ مِنْهُمُو فَبَقِيتُ وَحْدِي وَفَقْدُ الْإِلْفِ يَا سَكَنِي شَدِيدُ

فسمعَتْ كلامه جارية من الفريق الآخَر، فبادرتْ نحوه وتبعها أهلها، وجعلت تضاربهم؛ فأحسَّ بها الشاب فوثب نحوها، فبادَرَ إليه أهل فريقه وتعلَّقوا به، فجعل يجذب نفسه منهم وهي تجذب نفسها من فريقها حتى تخلَّصَا، وقصد كل واحد منهما صاحبه حتى التقيَا بين الفريقين وتعانَقَا، ثم خرَّا إلى الأرض ميتَيْن. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب والشابة لما التقَيَا بين الفريقين وتعانَقَا، خرَّا إلى الأرض ميتَيْن، فخرج شيخ من تلك الأخبية ووقف عليهما واسترجع وبكى بكاء شديدًا ثم قال: رحمكما الله تعالى، والله لئن كنتما لم تُجمَعَا في حال حياتكما، لَأجمعن بينكما بعد الموت. ثم أمر بتجهيزهما، فغُسِّلَا وكُفِّنَا في كفن واحد، وحفر لهما جدث واحد، وصلَّى عليهما الناس ودفنوهما في ذلك القبر، ولم يَبْقَ في الفريقين ذكر ولا أنثى إلا رأيته يبكي عليهما ويلطم، فسألت الشيخ عنهما فقال لي: هذه ابنتي وهذا ابن أخي، بلغ بهما الحب إلى ما رأيت. فقلت: أصلحهما الله، فهلا زوَّجْتُهما لبعضهما؟ قال: خشيتُ من العار والفضيحة، وقد وقعت الآن فيهما. وهذا من عجائب أخبار العشاق.

حكاية العاشق المجنون

ومما يُحكَى أن أبا العباس المبرد قال: قصدت البريد مع جماعة إلى حاجة، فمررنا بدير هرقل فنزلنا في ظله، فجاءنا رجل وقال: إن في الدير مجانين، فيهم رجل مجنون ينطق بالحكمة، فلو رأيتموه لَتعجَّبْتُم من كلامه. فنهضنا جميعًا ودخلنا الدير، فرأينا رجلًا جالسًا في مقصورة على نطع، وقد كشف رأسه وهو شاخص ببصره إلى الحائط، فسلَّمْنا عليه فردَّ علينا السلام من غير أن ينظر إلينا بطرفه، فقال الرجل: أَنْشِده شعرًا؛ فإنه إذا سمع الشعر يتكلم. فأنشدتُ هذين البيتين:

يَا خَيْرَ مَنْ وَلَدَتْ حَوَّاءُ مِنْ بَشَرِ ... لَوْلَاكَ لَمْ تَحْسُنِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَطِبِ

أَنْتَ الَّذِي مَنْ أَرَاكَ اللهُ صُورَتَهُ ... نَالَ الْخُلُودَ فَلَمْ يَهْرَمْ وَلَمْ يَشِبِ

فلما سمع ذلك مني، استدار نحونا وأنشد هذه الأبيات:

اللـهُ يَـعْـلَـمُ أَنَّـنِـي كَـمِـدُ　　لَا أَسْـتَـطِـيعُ أَبُثُّ مَا أَجِدُ
نَفْسَانِ لِي: نَفْسٌ يُضَمُّ لَهَا　　بَـلَـدٌ وَأُخْـرَى ضَـمَّـهَـا بَـلَـدُ
وَأَظُنُّ غَائِبَتِي كَشَاهِدَتِي　　وَأَظُـنُّـهَـا تَـجِـدُ الَّذِي أَجِدُ

ثم قال: أحسنتُ في قولي أم أسأتُ؟ قلنا له: ما أسأتَ بل أحسنتَ وأجملت. فمد يده إلى حجر عنده فتناوله، فظننا أنه يرمينا به فهربنا منه، فجعل يضرب به صدره ضربًا قويًّا ويقول: لا تخافوا وادنوا مني واسمعوا لي شيئًا خذوه عني. فدنونا منه، فأنشد هذه الأبيات:

لَمَّا أَنَاخُوا قُبَيْلَ الصُّبْحِ عِيسَهُمُ　　حَـثَّ الْـمَـطَـايَـا بِـالْـهَـوَى الْإِبِـلُ
وَمُقْلَتِي مِنْ خِلَالِ السِّجْنِ تَنْظُرُهَا　　فَقُلْتُ مِنْ لَوْعَتِي وَالدَّمْعُ يَنْهَمِلُ
يَا حَادِيَ الْعِيسِ عَرِّجْ كَيْ أُوَدِّعَهَا　　فَفِي الْفِرَاقِ وَفِي تَوْدِيعِهَا الْأَجَلُ
إِنِّي عَلَى الْعَهْدِ لَمْ أَنْقُضْ مَوَدَّتَهَا　　يَا لَيْتَ شِعْرِي بِذَاكَ الْعَهْدِ مَا فَعَلُوا

ثم إنه نظر إليَّ وقال: هل عندك علم بما فعلوا؟ قلت: نعم، إنهم ماتوا رحمهم الله تعالى. فتغيَّرَ وجهه ووثب قائمًا على قدميه وقال: كيف علمتَ موتهم؟ قلتُ: لو كانوا أحياء ما تركوك هكذا. فقال: صدقتَ والله، ولكنني أيضًا لا أحِبُّ الحياةَ بعدهم. ثم ارتعدت فرائصه وسقط على وجهه، فتبادرنا إليه وحرَّكناه فوجدناه ميتًا، رحمة الله تعالى عليه، فتعجَّبْنا من ذلك وأسفنا عليه أسفًا شديدًا، ثم جهَّزناه ودفناه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المبرد قال: لما سقط الرجل ميتًا أسفنا عليه وجهَّزْناه ودفناه، فلما رجعت إلى بغداد دخلت على المتوكل، فنظر آثار الدموع على وجهي فقال: ما هذا؟ فذكرتُ له القصة، فصعب عليه وقال: ما حملك على ذلك؟ والله لو علمتُ أنك غير حزين عليه لَأخذتُك به. ثم إنه حزن عليه بقية يومه.

حكاية إسلام الراهب

ومما يُحكَى أن أبا بكر بن محمد الأنباري قال: خرجتُ من الأنبار في بعض الأسفار إلى عمورية من بلاد الروم، فنزلتُ في أثناء الطريق بدير الأنوار في قرية قريبة من عمورية، فخرج إليَّ صاحب الدير الرئيس على الرهبان، وكان اسمه عبد المسيح، فأدخلني الدير فوجدتُ فيه أربعين راهبًا، فأكرموني في تلك الليلة بضيافة حسنة، ثم رحلت عنهم في الغد، وقد رأيت من كثرة اجتهادهم وعبادتهم ما لم أرَهُ من غيرهم، فقضيتُ أربى من عمورية ثم رجعت إلى الأنبار. فلما كان في العام المقبل حججتُ إلى مكة، فبينما أنا أطوف حول البيت إذ رأيتُ عبد المسيح الراهب يطوف أيضًا، ومعه خمسة نفر من أصحابه الرهبان، فلما تحقَّقتُ معرفتَه تقدَّمْتُ إليه وقلتُ له: هل أنت عبد المسيح الراهب؟ قال: بل أنا عبد الله الراغب. فجعلتُ أقبِّلُ شيبته وأبكي، ثم أخذت بيده ومِلت إلى جانب الحرم، وقلت له: أخبرني عن سبب إسلامك. فقال: إنه من أعجب العجائب، وذلك أن جماعة من زهَّاد المسلمين مرُّوا بالقرية التي فيها ديرنا، فأرسلوا شابًّا يشتري لهم طعامًا، فرأى في السوق جارية نصرانية تبيع الخبز، وهي من أحسن النساء صورةً، فلما نظر إليها افتتن بها وسقط على وجهه مغشيًّا عليه، فلما أفاق رجع إلى أصحابه وأخبرهم بما أصابه، وقال:

امضوا إلى شأنكم، فلست بذاهب معكم. فعذلوه ووعظوه، فلم يلتفت إليهم، فانصرفوا عنه، ودخل القرية وجلس عند باب حانوت تلك المرأة، فسألته عن حاجته فأخبرها أنه عاشق لها، فأعرضت عنه، فمكث في موضعه ثلاثة أيام لم يطعم طعامًا، بل صار شاخصًا إلى وجهها، فلما رأته لا ينصرف عنها ذهبَتْ إلى أهلها وأخبرتهم بخبره؛ فسلَّطوا عليه الصبيان، فرموه بالحجارة حتى رضُّوا أضلاعه وشجُّوا رأسه، وهو مع ذلك لا ينصرف، فعزم أهل القرية على قتله، فجاءني رجل منهم وأخبرني بحاله، فخرجتُ إليه فرأيته طريحًا، فمسحتُ الدمَ عن وجهه وحملتُه إلى الدير وداويتُ جراحه، وأقام عندي أربعة عشر يومًا، فلما قدر على المشي خرج من الدير. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الراهب عبد الله قال: فحملته إلى الدير وداويت جراحه، وأقام عندي أربعة عشر يومًا، فلما قدر على المشي خرج من الدير إلى باب حانوت الجارية، وجلس ينظر إليها، فلما أبصرته قامت إليه وقالت له: والله لقد رحمتك، فهل لك أن تدخل في ديني، وأنا أتزوَّجك؟ فقال: معاذ الله أن أنسلخ من دين التوحيد، وأدخل في دين الشرك. فقالت: قُمْ وادخل معي داري واقضِ مني أربك وانصرف راشدًا. فقال: لا، ما كنتُ لأُذهِب عبادة اثنتي عشرة سنة بشهوة لحظة واحدة. فقالت: انصرف عني حينئذٍ. قال: لا يطاوعني قلبي. فأعرضَتْ عنه بوجهها، ثم فطن به الصبيان فأقبلوا عليه يرمونه بالحجارة، فسقط على وجهه وهو يقول: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾. فخرجت من الدير وطردت عنه الصبيان، ورفعت رأسه عن الأرض، فسمعته يقول: اللهم اجمع بيني وبينها في الجنة. فحملتُه إلى الدير فمات قبل أن أصل به إليه، فخرجت به عن القرية وحفرتُ له قبرًا ودفنته. فلما دخل الليل وذهب نصفه، صرخت تلك المرأة وهي في فراشها صرخةً، فاجتمع إليها أهل القرية وسألوها عن قصتها، فقالت: بينما أنا نائمة إذ دخل عليَّ هذا الرجل المسلم، فأخذ بيدي وانطلق بي إلى الجنة، فلما صار بي إلى بابها منعني خازنها من دخولها، وقال: إنها محرمة على الكافرين. فأسلمْتُ على يديه ودخلتُ معه، فرأيتُ فيها من القصور والأشجار ما لا يمكن أن أصفه لكم، ثم إنه أخذني إلى قصر من الجوهر، وقال لي: إن هذا القصر لي ولك، وأنا لا أدخله إلا بكِ، وبعد خمس ليالٍ تكونين عندي فيه إن شاء الله تعالى. ثم مدَّ يده إلى شجرة على باب ذلك القصر فقطف منها تفاحتين وأعطانيهما، وقال: كلي هذه، وأخفي الأخرى حتى يراها الرهبان. فأكلتُ واحدة فما رأيتُ أطيب منها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: لما قطف التفاحتين أعطانيهما وقال: كلي هذه، وأخفي الأخرى حتى يراها الرهبان. فأكلتُ واحدة فما رأيت أطيب منها، ثم إنه أخذ بيدي، وخرج بي حتى أوصلني إلى داري، فلما استيقظتُ من منامي وجدتُ طعْمَ التفاح في فمي، والتفاحة الثانية عندي. ثم أخرجَتِ التفاحةَ فأشرقت في ظلام الليل كأنها كوكب دري، فجاءوا بالمرأة إلى الدير ومعها التفاحة؛ فقصَّتْ علينا الرؤيا وأخرجت لنا التفاحة، فلم نَرَ شيئًا مثلها في سائر فواكه الدنيا، فأخذتُ سكينًا وشقَّقتها على عدد أصحابي، فما رأينا ألذَّ من طعمها، ولا أطيب من ريحها. فقلنا: لعل هذا شيطان تمثَّلَ إليها ليغويها عن دينها. فأخذها أهلها وانصرفوا، ثم إنها امتنعت عن الأكل والشرب، فلما كانت الليلة الخامسة قامت من فراشها، وخرجت من بيتها، وتوجَّهت إلى قبر ذلك المسلم، وألقَتْ نفسها عليه وماتت، ولم يعلم بها أهلها. فلما كان وقت الصباح أقبل على القرية شيخان مسلمان عليهما ثياب من الشعر، ومعهما امرأتان كذلك، فقالا: يا أهل القرية، إن لله تعالى عندكم ولية من أوليائه قد ماتت مسلمة، ونحن نتولاها دونكم. فطلب أهل القرية تلك المرأة فوجدوها على القبر ميتة، فقالوا: هذه صاحبتنا قد ماتت على ديننا ونحن نتولاها. وقال الشيخان: إنها ماتت مسلمة، ونحن نتولاها. واشتدَّ الخصام والنزاع بينهم، فقال أحد الشيخين: إن علامة إسلامها أن يجتمع رهبان الدير الأربعون ويجذبوها عن القبر، فإن قدروا على حملها من الأرض فهي نصرانية، وإن لم يقدروا على ذلك يتقدَّم واحدٌ منَّا ويجذبها، فإن جاءت معه فهي مسلمة. فرضي أهل القرية بذلك، واجتمع الأربعون راهبًا، وقوَّى بعضهم بعضًا، وأتوها ليحملوها فلم يقدروا على ذلك، فربطنا في وسطها حبلًا عظيمًا، وجذبناها فانقطع الحبل ولم تتحرك، فتقدَّم أهل القرية وفعلوا كذلك فلم تتحرك من موضعها، فلما عجزنا عن حملها بكل حيلة قلنا لأحد الشيخين: تقدَّمْ أنت واحملها.

فتقدَّمْ إليها أحدهما، ولفَّها في ردائه وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى ملة رسول الله ﷺ. ثم حملها في حضنه، وانصرف بها المسلمون إلى غار هناك فوضعوها فيه، وجاءت المرأتان فغسَّلَتَاها، وكفنتاها، ثم حملها الشيخان وصلَّيَا عليها، ودفناها إلى جانب قبره وانصرفا، ونحن نشاهد هذا كله. فلما خلا بعضنا ببعض قلنا: إن الحق أحقُّ أن يُتَّبَع، وقد وضح الحق لنا بالمشاهدة والعيان، ولا برهان لنا على صحة الإسلام أوضح لنا مما رأيناه بأعيننا. ثم أسلمتُ وأسلَمَ رهبان الدير جميعهم، وكذلك أهل القرية. ثم إنا بعثنا إلى أهل الجزيرة نستدعي فقيهًا يعلِّمنا شرائع الإسلام وأحكام الدين؛ فجاءنا رجل فقيه صالح، فعلَّمَنا العبادةَ وأحكامَ الإسلام، ونحن اليوم على خير كثير، ولله الحمد والمنَّة.

حكاية أبي عيسى وعشقه لقرَّة العين

ومما يُحكَى أن عمرو بن مسعدة قال: كان أبو عيسى بن الرشيد أخو المأمون عاشقًا لقرَّة العين جارية علي بن هشام، وكانت هي أيضًا عاشقة له، ولكن كان أبو عيسى كاتمًا لهواه فلا يبوح به ولا يشكوه إلى أحد، ولم يُطلِع أحدًا على سره، وكل ذلك من نَخْوته ومروءته، وكان يجتهد في ابتياعها من مولاها بكل حيلةٍ فلم يقدر على ذلك، فلما عيل صبره واشتدَّ وَجْده وعجز عن الحيلة في أمرها، دخل على المأمون في يوم موسم بعد انصراف الناس من عنده وقال: يا أمير المؤمنين، إنك لو امتحنتَ فؤادك في هذا اليوم على حين غفلةٍ منهم، لتعرف أهل المروءة من غيره، ومحلَّ كل واحد منهم وقدرَ همته. وإنما قصد أبو عيسى بهذا الكلام أن يتصل بذلك إلى الجلوس مع قرَّة العين في دار مولاها، فقال المأمون: إن هذا الرأي صواب. ثم أمر أن يشدوا له زورقًا اسمه الطيار، فقدموه له فركبه ومعه جماعة من خواصه، فأول قصر دخله قصر حميد الطويل الطوسي، ودخلوا عليه في القصر على حين غفلة منه، فوجده جالسًا … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المأمون ركب هو وخواصه وساروا حتى وصلوا إلى قصر حميد الطويل الطوسي، فدخلوا قصره على حين غفلةٍ فوجدوه جالسًا على حصير، وبين يدَيْه المغنيون وبأيديهم آلات المغاني من العيدان والنايات وغيرها، فجلس المأمون ساعةً ثم حضر بين يدَيْه طعام من لحوم الدواب ليس فيه شيء من لحوم الطير، فلم يلتفت المأمون إلى شيء من ذلك، فقال أبو عيسى: يا أمير المؤمنين، إنَّا دخلنا هذا المكان على حين غفلة، وصاحبه لم يعلم بقدومك، فقُمْ بنا إلى مجلس هو مُعَدٌّ لك يليق بك. فقام الخليفة هو وخواصه وصحبه أخوه أبو عيسى وتوجهوا إلى دار علي بن هشام، فلما علم بمجيئهم قابَلَهم أحسن مقابلة وقبَّل الأرض بين يدي الخليفة، ثم ذهب بهم إلى القصر وفتح مجلسًا لم يَرَ الراءون أحسن منه، أرضه وأساطينه وحيطانه مرخمة بأنواع الرخام، وهو منقوش بأنواع النقوش الرومية، وأرضه مفروشة بالحُصُر السندية، وعليها فرش بصرية، وتلك الفرش متَّخذة على طول المجلس وعرضه، فجلس المأمون ساعةً وهو يتأمَّل البيت والسقف والحيطان، ثم قال: أطعمنا شيئًا. فأحضر إليه من وقته وساعته قريبًا من مائة لون من الدجاج، سوى ما معها من الطيور والثرائد والقلايا والبوارد، فلما أكل قال: أسقنا يا علي شيئًا. فأحضر إليه نبيذًا مثلثًا مطبوخًا بالفواكه والأبازير الطيبة في أواني الذهب والفضة والبلور، والذي حضر بذلك النبيذ في المجلس غلمان كأنهم الأقمار، عليهم الملابس الإسكندرانية المنسوجة بالذهب، وعلى صدرهم بواط من البلور فيها ماء الورد المسك، فتعجَّبَ المأمون مما رأى عجبًا شديدًا وقال: يا أبا الحسن. فوثب إلى البساط وقبَّله، ثم وقف بين يدي الخليفة وقال: لبيك يا أمير المؤمنين. فقال: أَسْمِعنا شيئًا من المغاني المطربة. فقال: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين. ثم قال لبعض أتباعه: أحضر الجواري المغنيات. فقال له: سمعًا وطاعة. ثم غاب الخادم لحظةً وحضر ومعه عشرة من

الخدم يحملون عشرة كراسي من الذهب فنصبوها، وبعد ذلك جاءت عشر وصائف كأنهن البدور السافرة والرياض الزاهرة، وعليهم الديباج الأسود، وعلى رءوسهن تيجان الذهب، ومشين حتى جلسن على الكراسي، وغنَّيْن بأنواع الألحان، فنظر المأمون إلى جارية منهن، ففُتِن بظرفها وحُسْن منظرها، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي سجاح يا أمير المؤمنين. فقال لها: غنِّي لنا يا سجاح. فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

أَقْبَلْتُ أَمْشِي عَلَى خَوْفٍ مُخَالَسَةٍ ... مَشْيَ الذَّلِيلِ رَأَى شِبْلَيْنِ قَدْ وَرَدَا
سَيْفِي خَضُوعٌ وَقَلْبِي مُشْغَفٌ وَجِلٌ ... أَخْشَى الْعُيُونَ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالرَّصَدَا
حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى خَوْدٍ مُنَعَّمَةٍ ... كَظَبْيَةِ الدَّعْصِ لَمَّا تَفْقِدِ الْوَلَدَا

فقال لها المأمون: لقد أحسنتِ يا جارية، لَمَن هذا الشعر؟ قالت: لعمرو بن معديكرب الزبيدي، والغناء لمعبد. فشرب المأمون وأبو عيسى وعلي بن هشام، ثم انصرفت الجواري وجاءت عشر جوارٍ أخرى، على كل واحدة منهن الوشي اليماني المنسوج بالذهب، فجلسْنَ على الكراسي وغنَّيْنَ بأنواع الألحان، فنظر المأمون إلى وصيفةٍ منهن كأنها مهاة رمل، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ فقالت: اسمي ظبية يا أمير المؤمنين. قال: غنِّي لنا يا ظبية. فغرَّدَتْ بالشدقين وأنشدت هذين البيتين:

حُورٌ حَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ ... كَظِبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ لِينِ الْحَدِيثِ زَوَانِيَا ... وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الْخَنَا الْإِسْلَامُ

فلما فرغَتْ من شعرها قال لها المأمون: لله درك ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما فرغت من إنشادها قال لها المأمون: لله درك، لَمَن هذا الشعر؟ قالت: لجرير، والغناء لابن سريج. فشرب المأمون ومَن معه، ثم انصرفت الجواري وجاءت بعدهن عشر جوارٍ أخرى كأنهن اليواقيت، وعليهن الديباج الأحمر المنسوج بالذهب المرصَّع بالدر والجوهر، وهن مكشوفات الرءوس، فجلسن على الكراسي وغنَّيْنَ بأنواع الألحان، فنظر إلى جارية منهن كأنها شمس النهار، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي فاتن يا أمير المؤمنين. فقال لها: غنِّي لنا يا فاتن. فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

أَنْعِمْ بِوَصْلِكَ لِي فَهَذَا وَقْتُهُ   يَكْفِي مِنَ الْهِجْرَانِ مَا قَدْ ذُقْتُهُ
أَنْتَ الَّذِي جَمَعَ الْمَحَاسِنَ وَجْهُهُ   لَكِنْ عَلَيْهِ تَصَبُّرِي فَرَّقْتُهُ
أَنْفَقْتُ عُمْرِي فِي هَوَاكَ وَلَيْتَنِي   أُعْطَى وِصَالًا بِالَّذِي أَنْفَقْتُهُ

فقال: لله درك يا فاتن، لَمَن هذا الشعر؟ فقالت: لعدي بن زيد، والطريقة قديمة. فشرب المأمون وأبو عيسى وعلي بن هشام، ثم انصرفت الجواري وجاءت بعدهن عشر من الجواري كأنهن الدراري، عليهن الوشي المنسوج بالذهب الأحمر، وفي أوساطهن المناطق المرصَّعة بالجوهر، فجلسن على الكراسي وغنَّيْنَ بأنواع الألحان، فقال المأمون لجارية منهن كأنها قضيب بان: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي رشا يا أمير المؤمنين. فقال: غنِّي لنا يا رشا. فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

وَأَحْوَرَ كَالْغُصْنِ يَشْفِي الْجَوَى   وَيَحْكِي الْغَزَالَ إِذَا مَا رَنَا

شَرِبْتُ الْمُدَامَ عَلَى خَدِّهِ وَنَازَعْتُهُ الْكَأْسَ حَتَّى انْثَنَى
فَبَاتَ ضَجِيعِي وَبِتْنَا مَعًا وَقُلْتُ لِنَفْسِي: هَذَا الْمُنَى

فقال لها المأمون: أحسنتِ يا جارية، زيدينا. فقامت الجارية وقبَّلَتِ الأرض بين يديه، وغنَّتْ بهذا البيت:

خَرَجَتْ تَشْهَدُ الرِّفَاقَ رُوَيْدًا فِي قَمِيصٍ مُضَمَّخٍ بِالْعَبِيرِ

فطرب المأمون لذلك البيت طربًا عظيمًا، فلما رأت الجارية طرب المأمون، صارت تردِّد الصوت بهذا البيت، ثم إن المأمون قال: قدِّموا الطيار. وأراد أن يركب ويتوجه، فقام علي بن هشام وقال: يا أمير المؤمنين عندي جارية اشتريتها بعشرة آلاف دينار قد أخذَتْ مجامع قلبي، وأريد أن أعرضها على أمير المؤمنين، فإن أعجبته ورضيها فهي له، وإلا فيسمع منها شيئًا. فقال الخليفة: عليَّ بها. فخرجَتْ جارية كأنها قضيب بان، لها عينان فتَّانتان، وحاجبان كأنهما قوسان، وعلى رأسها تاج من الذهب الأحمر مرصَّع بالدر والجوهر، تحته عصابة مكتوب عليها بالزبرجد هذا البيت:

جِنِّيَّةٌ وَلَهَا جِنٌّ تُعَلِّمُهَا رَمْيَ الْقُلُوبِ بِقَوْسٍ مَا لَهَا وَتَرْ

ومشت تلك الجارية كأنها غزال شارد وهي تفتن العابد، ولم تزل ماشية حتى جلست على الكرسي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية مشت كأنها غزال شارد وهي تفتن العابد، ولم تزل ماشية حتى جلست على الكرسي، فلما رآها المأمون تعجَّبَ من حُسْنها وجمالها، وجعل أبو عيسى يتوجَّع من فؤاده، واصفرَّ لونه وتغيَّرَ حاله، فقال له المأمون: ما لك يا أبا عيسى قد تغيَّرَ حالك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، بسبب علَّةٍ تعتريني في بعض الأوقات. فقال له الخليفة: أتعرف هذه الجارية قبل اليوم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وهل يخفى القمر؟ ثم قال لها المأمون: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي قرَّة العين يا أمير المؤمنين. قال لها: غنِّي لنا يا قرَّةَ العين. فغَنَّتْ بهذين البيتين:

ظَعَنَ الْأَحِبَّةُ عَنْكَ بِالْإِدْلَاجِ　　وَلَقَدْ سَرَوْا سَحَرًا مَعَ الْحُجَّاجِ
ضَرَبُوا خِيَامَ الْعِزِّ حَوْلَ قِبَابِهِمْ　　وَتَسَتَّرُوا بِأَكِلَّةِ الدِّيبَاجِ

فقال لها الخليفة: لله درك! لِمَن هذا الشعر؟ قالت: لدعبل الخزاعي، والطريقة لزرزور الصغير. فنظر إليها أبو عيسى وخنقته العَبْرة حتى تعجَّبَ منه أهلُ المجلس، فالتفتت الجارية إلى المأمون وقالت له: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في أن أغيِّر الكلام. فقال لها: غنِّي بما شئتِ. فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

إِذَا كُنْتَ تُرْضِيهِ وَيُرْضِيكَ صَاحِبٌ　　جِهَارًا فَكُنْ فِي الْغَيْبِ أَحْفَظَ لِلْوُدِّ
وَالْغِ أَحَادِيثَ الْوُشَاةِ فَقَلَّمَا　　يُحَاوِلُ وَاشٍ غَيْرَ هِجْرَانِ ذِي وُدِّ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إِذَا دَنَا　　يَمَلُّ وَأَنَّ الْبُعْدَ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ

بِكُلٍّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بِنَا عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ
عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوَاهُ لَيْسَ بِذِي وُدِّ

فلما فرغت من شعرها قال أبو عيسى: يا أمير المؤمنين ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قرة العين لما فرغَتْ من شعرها قال أبو عيسى: يا أمير المؤمنين إذا افتضحنا استرحنا، أتأذن لي في جوابها؟ فقال له الخليفة: نعم، قُلْ لها ما شئتَ. فكَفْكَفَ دمعَ العين، وأنشد هذين البيتين:

سَكَتُّ وَلَمْ أَقُلْ إِنِّي مُحِبٌّ　　وَأَخْفَيْتُ الْمَحَبَّةَ عَنْ ضَمِيرِي
فَإِنْ ظَهَرَ الْهَوَى فِي الْعَيْنِ مِنِّي　　فَدَانِيَةٌ مِنَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ

فأخذَتِ العود قرَّة العين، وأطربت بالنغمات وغنَّتْ هذه الأبيات:

لَوْ كَانَ مَا تَدَّعِيهِ حَقًّا　　لَمَا تَعَلَّلْتَ بِالْأَمَانِي
وَلَا تَصَبَّرْتَ عَنْ فَتَاةٍ　　بَدِيعَةِ الْحُسْنِ وَالْمَعَانِي
لَكِنَّ دَعْوَاكَ لَيْسَ مِنْهَا　　شَيْءٌ سِوَى الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ

فلما فرغت قرة العين من شعرها، جعل أبو عيسى يبكي وينتحب ويتوجَّع ويضطرب، ثم رفع رأسه إليها، وصعَّدَ الزفرات وأنشد هذه الأبيات:

تَحْتَ ثِيَابِي جَسَدٌ نَاحِلُ　　وَفِي فُؤَادِي شُغُلٌ شَاغِلُ
وَلِي فُؤَادٌ دَاؤُهُ دَائِمٌ　　وَمُقْلَةٌ مَدْمَعُهَا هَاطِلُ
وَكُلَّمَا سَالَمَنِي عَاقِلٌ　　قَامَ لِحِينِي فِي الْهَوَى عَاذِلُ
يَا رَبُّ لَا أَقْوَى عَلَى كُلِّ ذَا　　مَوْتٌ وَإِلَّا فَرَجٌ عَاجِلُ

فلما فرغ أبو عيسى من شعره، وثب علي بن هشام إلى رجله فقبَّلَها وقال له: يا سيدي، قد استجاب الله دعاءك وسمع نجواك وأجابك إلى أخذها بجميع متعلقاتها من التحف واللطائف، إن لم يكن لأمير المؤمنين غرض فيها. فقال المأمون: ولو كان لنا غرض فيها لَآثرنا أبا عيسى على أنفسنا، وساعدناه على قصده. ثم قام المأمون وركب في الطيار، وتخلَّفَ أبو عيسى لأخذ قرة العين، ثم أخذها وانصرف بها إلى منزله وهو منشرح الصدر، فانظر إلى مروءة علي بن هشام.

حكاية الأمين وعمه إبراهيم بن المهدي

ومما يُحكَى أن الأمين أخا المأمون، دخل دار عمه إبراهيم بن المهدي، فرأى بها جارية تضرب بالعود، وكانت من أحسن النساء، فمال قلبه إليها، فظهر ذلك عليه لعمه إبراهيم، فلما ظهر له ذلك من حاله بعثها إليه مع ثياب فاخرة وجواهر نفيسة، فلما رآها الأمين ظنَّ أن عمه إبراهيم بنى بها، فكَرِه الخلوة بها من أجل ذلك، وقبل ما كان معها من الهدية ورَدَّها إليه، فعلم إبراهيم بذلك الخبر من بعض الخدم، فأخذ قميصًا من الوشي وكتب على ذيله بالذهب هذين البيتين:

لَا وَالَّذِي سَجَدَ الْجُبَاةُ لَهُ مَا لِي بِمَا تَحْتَ ذَيْلِهَا خَبَرُ
وَلَا بِفِيهَا وَلَا هَمَمْتُ بِهِ مَا كَانَ إِلَّا الْحَدِيثُ وَالنَّظَرُ

ثم ألبسها القميص وناوَلَها عودًا وبعثها إليه ثانيًا، فلما دخلت عليه قبَّلَتِ الأرض بين يديه، وأصلحت العود وغنَّتْ عليه بهذين البيتين:

هَتَكْتَ الضَّمِيرَ بِرَدِّ التُّحَفْ وَقَدْ بَانَ هَجْرُكَ لِي وَانْكَشَفْ
فَإِنْ كُنْتَ تَحْقِدُ شَيْئًا مَضَى فَهَبْ لِلْخِلَافَةِ مَا قَدْ سَلَفْ

فلما فرغَتْ من شعرها نظر إليها الأمين، فرأى ما على ذيل القميص فلم يملك نفسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤١٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمين لما نظر إلى الجارية رأى ما على ذيل القميص، فلم يملك نفسه بل أدناها منه وقبَّلها وأفرد لها مقصورة من المقاصير، وشكر عمه إبراهيم على ذلك، وأنعم عليه بولاية الريِّ.

حكاية المتوكل والفتح بن خاقان

ومما يُحكَى أن المتوكل شرب دواءً، فجعل الناس يهدون إليه طرائف التحف وأنواع الهدايا، وأهدى إليه الفتح بن خاقان جاريةً بِكْرًا ناهدًا من أحسن نساء زمانها، وأرسل معها أناء بلور فيه شراب أحمر، وجامًا أحمر مكتوبًا عليه بالسواد هذه الأبيات:

إِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ مِنَ الدَّوَاءِ وَأُعْقِبَ بِالسَّلَامَةِ وَالشِّفَاءِ
فَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ غَيْرَ شُرْبٍ بِهَذَا الْجَامِ مِنْ هَذَا الطِّلَاءِ
وَفَضِّ الْخَاتِمِ الْمُهْدَى إِلَيْهِ فَهَذَا صَالِحٌ بَعْدَ الدَّوَاءِ

فلما دخلت الجارية بما معها على الخليفة، كان عنده يوحنا الطبيب، فلما رأى الطبيب الأبيات تبسَّمَ وقال: والله يا أمير المؤمنين، إن الفتح أعرف مني بصناعة الطب، فلا يخالفه أمير المؤمنين فيما وصفه له. فقَبِل الخليفة رأيَ الطبيب واستعمل ذلك الدواء على مقتضى مضمون الأبيات، فشفاه الله وحقَّقَ ما رجاه.

حكاية في محاسن اختلاف الأجناس

ومما يُحكَى أن بعض الفضلاء قال: ما رأيت في النساء أذكى خاطرًا، وأحسن فطنة، وأغزر علمًا، وأجود قريحة، وأظرف أخلاقًا من امرأة واعظة من أهل بغداد يقال لها سيدة المشايخ؛ اتفق أنها جاءت إلى مدينة حماة سنة إحدى وستين وخمسمائة، فكانت تعظ الناس على الكرسي وعظًا شافيًا، وكان يتردد على منزلها جماعة من المتفقهين وذوي المعارف والآداب يطارحونها مسائل الفقه، ويناظرونها في الخلاف؛ فمضيتُ إليها ومعي رفيق من أهل الأدب، فلما جلسنا عندها وضعت بين أيدينا طبقًا من الفاكهة، وجلست هي خلف ستر، وكان لها أخٌ حَسَنُ الصورة قائمًا على رءوسنا في الخدمة، فلما أكلنا شرعنا في مطارحة الفقه؛ فسألتُها مسألةً فقهيةً مشتملة على خلاف بين الأئمة، فشرعَتْ تتكلم في جوابها وأنا أصغي إليها، وجعل رفيقي ينظر إلى وجه أخيها، ويتأمل في محاسنه، ولا يصغي إليها، وهي تلحظه من وراء الستر. فلما فرغَتْ من كلامها التفتَتْ إليه وقالت: أظنك ممَّنْ يفضِّل الرجالَ على النساء. قال: أجل. قالت: ولِمَ ذلك؟ قال: لأن الله فضَّل الذكرَ على الأنثى. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ أجابها بقوله: لأن الله فضَّل الذكر على الأنثى، وأنا أحب الفاضل وأكره المفضول. فضحكَتْ، ثم قالت: أتنصفني في المناظرة إن ناظرتُكَ في هذا المبحث؟ قال: نعم. قالت: فما الدليل على تفضيل الذكر على الأنثى؟ قال: المنقول والمعقول؛ أما المنقول فالكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وقوله تعالى في الميراث: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ فالله — سبحانه وتعالى — فضَّل الذكر على الأنثى في هذه المواضع، وأخبر أن الأنثى على النصف من الذكر؛ لأنه أفضل منها. وأما في السنة؛ فما رُوِي عن النبي ﷺ أنه جعل دية المرأة على النصف من دية الرجل. وأما المعقول؛ فإن الذكر فاعل والأنثى مفعول بها، والفاعل أفضل من المفعول به. فقالت له: أحسنتَ يا سيدي، لكنك والله أظهرتَ حجتي عليك من لسانك، ونطقتَ ببرهان هو عليك لا لك؛ وذلك أن الله — سبحانه وتعالى — إنما فضَّلَ الذكر على الأنثى بمجرد وصف الذكورية، وهذا لا نزاعَ فيه بيني وبينك، وقد يستوي في هذا الوصف الطفل والغلام والشاب والكهل والشيخ، لا فرقَ بينهم في ذلك، وإذا كانت الفضيلة إنما حصلت له بوصف الذكورية، فينبغي أن يميل طبعك وترتاح نفسك إلى الشيخ كما ترتاح إلى الغلام؛ إذ لا فرْقَ بينهما في الذكورية، وإنما وقع الخلاف بيني وبينك في الصفات المقصودة من حسن العشرة والاستمتاع، وأنتَ لم تأتِ ببرهان على فضل الغلام على الأنثى في ذلك. فقال لها: يا سيدتي، أَمَا علمتِ ما اختصَّ به الغلام من اعتدال القدِّ، وتوريد الخدِّ، وملاحة الابتسام، وعذوبة الكلام؛ فالغلمان بهذا

الاعتبار أفضل من النساء، والدليل على ذلك ما رُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تديموا النظر إلى المُرد، فإن فيهم لمحة من الحور العين.» وتفضيل الغلام على الجارية لا يخفى على أحد من الناس، وما أحسن قول أبي نواس:

أَقَلُّ مَا فِيهِ مِنْ فَضَائِلِهِ   أَمْنُكَ مِنْ طَمْثِهِ وَمِنْ حَبَلِهِ

وقول الشاعر:

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو نُواسٍ وَهْوَ فِي   شَرْعِ الْخَلَاعَةِ وَالْمُجُونِ يُقَلَّدُ
يَا أُمَّةً تَهْوَى الْعِذَارَ تَمَتَّعُوا   مِنْ لَذَّةٍ فِي الْخُلْدِ لَيْسَتْ تُوجَدُ

ولأن الجارية إذ بالَغَ الواصف في وصفها، وأراد ترويجها بذِكْر محاسن أوصافها، شبَّهَها بالغلام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ قال: ولأن الجارية إذا بالَغَ الواصف في وصفها، وأراد ترويجها بذكر محاسن أوصافها، شبَّهها بالغلام لما له من المآثر، كما قال الشاعر:

غُلَامِيَّةُ الْأَرْدَافِ تَهْتَزُّ فِي الصِّبَا　　كَمَا اهْتَزَّ فِي رِيحِ الشَّمَالِ قَضِيبُ

فلولا أن الغلام أفضل وأحسن لما شُبِّهت به الجارية، واعلمي — صانك الله تعالى — أن الغلام سهل القياد، موافق على المراد، حسن العشرة والأخلاق، مائل عن الخلاف للوفاق، ولا سيما إن تنمنم عذاره، واخضرَّ شاربه، وجرت حمرة الشبيبة في وجنته حتى صار كالبدر التمام، وما أحسن قول أبي تمام:

قَالَ الْوُشَاةُ بَدَا فِي الْخَدِّ عَارِضُهُ　　فَقُلْتُ لَا تُكْثِرُوا مَا ذَاكَ عَايِبُهُ
لَمَّا اسْتَقَلَّ بِأَرْدَافٍ تُجَاذِبُهُ　　وَاخْضَرَّ فَوْقَ جُمَانِ الدُّرِّ شَارِبُهُ
وَأَقْسَمَ الْوَرْدُ أَيْمَانًا مُغَلَّظَةً　　أَلَّا تُفَارِقَ خَدَّيْهِ عَجَائِبُهُ
كَلَّمْتُهُ بِجُفُونٍ غَيْرِ نَاطِقَةٍ　　فَكَانَ مِنْ رَدِّهِ مَا قَالَ حَاجِبُهُ
الْحُسْنُ مِنْهُ عَلَى مَا كُنْتَ تَعْهَدُهُ　　وَالشِّعْرَ أَحْرَزَهُ مِمَّنْ يُطَالِبُهُ
أَحْلَى وَأَحْسَنُ مَا كَانَتْ شَمَائِلُهُ　　إِذْ لَاحَ عَارِضُهُ وَاخْضَرَّ شَارِبُهُ
وَصَارَ مَنْ كَانَ يُلْحَى فِي مَحَبَّتِهِ　　إِنْ يُحْكَ عَنِّي وَعَنْهُ قَالَ صَاحِبُهُ

وقال الآخَر وأجاد:

قَالَ الْعَوَاذِلُ: مَا هَذَا الْغَرَامُ بِهِ　　أَمَا تَرَى الشَّعْرَ فِي خَدَّيْهِ قَدْ نَبَتَا
فَقُلْتُ: وَاللهِ لَوْ أَنَّ الْمُفَنِّدَ لِي　　تَأَمَّلَ الرُّشْدَ فِي عَيْنَيْهِ مَا ثَبَتَا
وَمَنْ أَقَامَ بِأَرْضٍ لَا نَبَاتَ بِهَا　　فَكَيْفَ يَرْحَلُ عَنْهَا وَالرَّبِيعُ أَتَى

وقول الآخَر:

قَالَ الْعَوَاذِلُ عَنِّي قَدْ سَلَا كَذِبُوا　　مَنْ مَسَّهُ الشَّوْقُ لَا يَعْرُوهُ سُلْوَانُ
مَا كُنْتُ أَسْلُو وَوَرْدُ الْخَدِّ مُنْفَرِدٌ　　فَكَيْفَ أَسْلُو وَحَوْلَ الْوَرْدِ رَيْحَانُ

وقول الآخَر:

وَمُهَفْهَفٍ أَلْحَاظُهُ وَعِذَارُهُ　　يَتَعَاضَدَانِ عَلَى قِتَالِ النَّاسِ
سَفَكَ الدِّمَاءَ بِصَارِمٍ مِنْ نَرْجِسٍ　　كَانَتْ حَمَائِلُ غِمْدِهِ مِنْ آسِ

وقول الآخَر:

مَا مِنْ سُلَافَتِهِ سَكِرْتُ وَإِنَّمَا　　تَرَكَتْ سَوَالِفُهُ الْأَنَامَ سُكَارَى
حَسَدَ الْمَحَاسِنُ بَعْضَهَا حَتَّى اشْتَهَتْ　　كُلُّ الْمَحَاسِنِ أَنْ تَكُونَ عِذَارَا

فهذه فضيلة في الغلمان لم تُعطَها النساء، وكفى بذلك للغلمان عليهن فخرًا ومزيَّة. فقالت له: عافاكَ الله تعالى، إنك قد شرطتَ على نفسك المناظرة، وقد تكلَّمتَ وما قصَّرتَ، واستدللتَ بهذه الأدلة على ما ذكرتَ، ولكن الآن قد حصحص الحقُّ فلا تعدل عن سبيله، وإن لم تقنع بإجمال الدليل فأنا آتيك بتفصيله؛ بالله عليك أين الغلام من الفتاة؟ ومَن يقيس السخل على المهاة؟ إنما الفتاة رخيمة الكلام، حَسَنة القوام، فهي كقضيب الريحان، بثغر كالأقحوان، وشعر كالأرسان، وخدٍّ كشقائق النعمان، ووجه كتفاح، وشفة كالراح، وثدي كالرمان، ومعاطف كالأغصان، وهي ذات قدٍّ معتدل، وجسم متجدل، وخد كحد السيف اللائح، وجبين واضح، وحاجبين مقرونين، وعينين كحلاوين، إنْ نطقَتْ فاللؤلؤ الرطب يتناثر من فِيها، وتجذب القلوب برقة معانيها، وإن تبسَّمَتْ ظننتَ البدر يتلألأ من

بين شفتَيْها، وإنْ رنت فالسيوف تُسلُّ من مقلتيها، إليها تنتهي المحاسن، وعليها مدار الظاعن والقاطن، ولها شفتان حمراوان ألين من الزبد، وأحلى مذاقًا من الشهد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة الواعظة لما وصفت الفتاة قالت: ولها شفتان حمراوان ألين من الزبد، وأحلى مذاقًا من الشهد. ثم قالت بعد ذلك: ولها صدر كجادة الفجاج، فيه ثديان كأنهما حقَّان من عاج، وبطن لطيف الكشح كالزهر الغض، وعكن قد انعطفت وانطوى بعضها على بعض، وفخذان ملتفان كأنهما من الدر عمودان، وأرداف تموج كأنها بحر من بلور أو جبال من نور، ولها قدمان لطيفتان، وكفان كأنهما سبائك العقبان، فيا مسكين أين الإنس من الجان؟ أَمَا علمتَ أن الملوك القادة والأشراف السادة أبدًا للنساء خاضعون، وعليهن في التلذُّذ معتمدون؟ وهنَّ يقُلْنَ: قد ملكنا الرقاب وسلبنا الألباب، فالأنثى كم غنيٍّ أفقرته، وعزيزٍ أذَلَّتْه، وشريفٍ استخدمته، فالنساء قد فتنَّ الأدباء، وهتكن الأنقياء، وأفقرن الأغنياء، وصيَّرن أهل النعيم أشقياء، ومع ذلك لا تزداد العقلاء لهن إلا محبة وإجلالًا، ولا يعدُّون ذلك ضيمًا ولا إذلالًا، فكم عبدٍ قد عصى فيهن ربه وأسخط أباه وأمه! كل ذلك لغلبة هواهنَّ على القلوب؛ أَمَا علمتَ يا مسكين أن لهنَّ تُبنَى القصور، وعليهن تُرخَى الستور، ولهنَّ تُشترَى الجواري، وعليهن الدمع جارٍ، ولهن يُتَّخذ المسك الأذفر والحلي والعنبر، ولأجلهن تُجمَع العساكر وتُعقَد الدساكر، وتُجمَع الأرزاق وتُضرب الأعناق؟ ومَن قال إن الدنيا عبارة عن النساء كان صادقًا.

وأما ما ذكرتَ من الحديث الشريف فهو حجة عليك لا لك؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تديموا النظر إلى المرد فإن فيهم لمحة من الحور العين.» فشبَّه المرد بالحور العين، ولا شك أن المشبَّه به أفضل من المشبَّه، فلولا أن النساء أفضل وأحسن لما شُبِّه بهن غيرهن. وأما قولك إن الجارية تُشبَّه بالغلام، فليس الأمر كذلك، بل الغلام يُشبَّه بالجارية فيقال: هذا الغلام كأنه جارية. وأما ما استدللتَ به من الأشعار فهي ناشئة عن شذوذ الطبيعة عند الاعتبار، وأما اللاطة العادون والفَسَقة المخالفون، الذين ذمَّهم الله تعالى في كتابه العزيز،

وأنكر عليهم فعلهم الشنيع فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، فهؤلاء الذين يشبِّهون الجارية بالغلام؛ لغلُوِّهم في الفسق والعصيان واتِّباع النفس والشيطان، حتى قالوا إنها تصلح للأمرين جميعًا، عدولًا منهم عن سلوك طريق الحق عند الناس، كما قال كبيرهم أبو نواس:

مَمْشُوقَةُ الْخَصْرِ غُلَامِيَّةٌ   تَصْلُحُ لِلُّوطِيِّ وَالزَّانِي

وأما ما ذكرتَه من حسن نبات العذار، واخضرار الشارب، وأن الغلام يزداد به حسنًا وجمالًا؛ فوالله لقد عدلت عن الطريق، وقلتَ غير التحقيق؛ لأن العذار يبدل حسنات الجمال بالسيئات. ثم أنشدَتْ هذه الأبيات:

بَدَا الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ فَانْتَقَمْ   لِعَاشِقِهِ مِنْهُ لَمَّا ظَلَمْ
وَلَمْ أَرَ فِي وَجْهِهِ كَالدُّخَا   نِ إِلَّا وَسَالِفُهُ كَالْحِمَمْ
إِذَا اسْوَدَّ فَاضِلُ قِرْطَاسِهِ   فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَكَانِ الْقَلَمْ
فَإِنْ فَضَّلُوهُ عَلَى غَيْرِهِ   فَمَا ذَاكَ إِلَّا لِجَهْلِ الْحَكَمْ

فلما فرغت من شعرها قالت للرجل: سبحان الله العظيم … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة الواعظة لما فرغت من شعرها قالت للرجل: سبحان الله العظيم، كيف يخفى عليك أن كمال اللذة في النساء، وأن النعيم المقيم لا يكون إلا بهِنَّ؟ وذلك أن الله — سبحانه وتعالى — وعد الأنبياء والأولياء في الجنة بالحور العين، وجعلهن جزاء لأعمالهم الصالحة، ولو علم الله تعالى أن في غيرهن لذة الاستمتاع لجزاهم به، ووعدهم إياه، وقال ﷺ: «حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وقرَّة عيني في الصلاة.» وإنما جعل الله الولدان خدمًا للأنبياء والأولياء في الجنة؛ لأن الجنة دار نعيم وتلذُّذ، ولا يكمل ذلك إلا بخدمة الولدان. وأما استعمالهم لغير الخدمة فهو من الخبال والوبال، وما أحسن قول الشاعر حيث قال:

لَحَاجَةُ الْمَرْءِ فِي الْأَدْبَارِ إِدْبَارُ وَالْمَائِلُونَ إِلَى الْأَحْرَارِ أَحْرَارُ
كَمْ مِنْ ظَرِيفٍ لَطِيفٍ بَاتَ مُمْتَطِيًا رِدْفَ الْغُلَامِ فَأَضْحَى وَهْوَ عَطَّارُ
تَصْفَرُّ أَثْوَابُهُ مِنْ وَرَسِ فَقْحَتِهِ فَيَسْتَبِينُ لِذَاكَ الْخِزْيُ وَالْعَارُ
لَا يَسْتَطِيعُ جُحُودًا إِذْ تُقَذِّرُهُ يَوْمًا وَفِي ثَوْبِهِ لِلسَّلْحِ آثَارُ
كَمْ بَيْنَ ذَاكَ وَمَنْ بَاتَتْ مَطِيَّتَهُ حَوْرَاءُ نَاظِرُهَا بِاللَّحْظِ سَحَّارُ
يَقُومُ عَنْهَا وَقَدْ أَهْدَتْ لَهُ أَرِجًا تَضَوَّعَتْ مِنْ غَوَالِي طِيبِهِ الدَّارُ
لَيْسَ الْغُلَامُ لَهَا عِدْلًا يُقَاسُ بِهَا وَهَلْ يُقَاسُ بِعُودِ النَّدِّ أَقْذَارُ

ثم قالت: يا قوم، لقد أخرجتموني عن قانون الحياء ودائرة أحرار النساء، إلى ما لا يليق بالعلماء من اللغو والفحشاء، ولكنَّ صدور الأحرار قبور الأسرار، والمجالس بالأمانات، وإنما الأعمال بالنيَّات، وأنا أستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، إنه

هو الغفور الرحيم. ثم سكتَتْ فلم تُجِبنا عن شيء بعد ذلك، فخرجنا من عندها مسرورين بما استفدناه من مناظرتها متأسِّفين على مفارقتها.

حكاية أبي سويد والعجوز الصبيحة

ومما يُحكَى أن أبا سويد قال: اتفق أنني أنا وجماعة من أصحابي دخلنا بستانًا يومًا من الأيام لنشتري شيئًا من الفاكهة، فرأينا في جانب ذلك البستان عجوزًا صبيحة الوجه غير أن شعر رأسها أبيض، وهي تسرِّحه بمشط من العاج، فوقفنا عندها فلم تحتفل بنا، ولم تُغطِّ رأسها، فقلت لها: يا عجوز، لو صبغتِ شعرك أسود لَكنتِ أحسن من صبية، فما منعك من ذلك؟ فرفعت رأسها إليَّ ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا سويد قال: لما قلتُ للعجوز ذلك الكلام رفعَتْ رأسَها إليَّ، وحملقت العينين، وأنشدت هذين البيتين:

وَصَبَغْتُ مَا صَبَغَ الزَّمَانُ فَلَمْ يَدُمْ صِبْغِي وَدَامَتْ صَبْغَةُ الْأَيَّامِ
أَيَّامَ أَرْفُلُ فِي ثِيَابِ شَبِيبَتِي وَأُنَاكَ مِنْ خَلْفِي وَمِنْ قُدَّامِي

فقلت لها: لله دَرُّك من عجوز! ما أصدقك في اللهج بالحرام! وأكذبك في دعوى التوبة من الآثام.

حكاية علي بن طاهر والجارية مؤنس

ومما يُحكَى أن علي بن محمد بن عبد الله بن طاهر استعرض جارية اسمها مؤنس للشراء، وكانت فاضلة أديبة شاعرة، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: أعَزَّ الله الأمير، اسمي مؤنس. وكان قد عرف اسمها قبل ذلك، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه إليها، وأنشد هذا البيت:

مَاذَا تَقُولِينَ فِيمَنْ شَفَّهُ سَقَمُ مِنْ أَجْلِ حُبِّكِ حَتَّى صَارَ حَيْرَانَا

فقالت: أعَزَّ الله الأمير. وأنشدت هذا البيت:

إِذَا رَأَيْنَا مُحِبًّا قَدْ أَضَرَّ بِهِ دَاءُ الصَّبَابَةِ أَوْلَيْنَاهُ إِحْسَانَا

فأعجبته، فاشتراها بسبعين ألف درهم، وأولدها عبيد الله بن محمد صاحب المآثر.

حكاية أبي العيناء عن امرأتين عاشقتين

وقال أبو العيناء: كان عندنا في الدرب امرأتان؛ إحداهما تعشق رجلًا، والأخرى تعشق أمردَ، فاجتمعَتَا ليلة على سطح إحداهما، وهو قريب من داري، وهما لا يعلمان بي، فقالت صاحبة الأمرد للأخرى: يا أختي، كيف تصبرين على خشونة اللحية حين تقع على صدرك وقت لثمك، وتقع شواربه على شفتَيْك وخدَّيك؟ فقالت لها: يا رعناء، وهل يزين الشجر إلا ورقه، والخيار إلا زغبه؟ وهل رأيت في الدنيا أقبح من أقرع منتوف؟ أَمَا علمتِ أن اللحية للرجل مثل الذوائب للمرأة؟ وما الفرق بين الخدِّ واللحية؟ أَمَا علمتِ أن الله — سبحانه وتعالى — خلق في السماء ملكًا يقول: سبحان مَن زيَّن الرجال باللحى والنساء بالذوائب. فلولا أن اللحى كالذوائب في الجمال لما قُرِن بينهما. يا رعناء، ما لي أفرش نفسي تحت الغلام الذي يعاجلني إنزاله، ويسابقني انحلاله، وأترك الرجل الذي إذا شمَّ ضمَّ، وإذا أدخل أمهل، وإذا فرغ رجع، وإذا هزَّ أجاد، وكلما خلص عاد. فاتَّعَظَتْ صاحبة الغلام بمقالها، وقالت: سلوت صاحبي وربِّ الكعبة.

حكاية علي المصري التاجر من بغداد

ومما يُحكَى أنه كان بمدينة مصر رجل تاجر، وكان عنده شيء كثير من مال ونقود وجواهر ومعادن وأملاك لا تُحصَى، وكان اسمه حسن الجوهري البغدادي، وقد رزقه الله بولد حسن الوجه، معتدل القد، مورد الخد، ذي بهاء وكمال وبهجة وجمال، فسمَّاه عليًّا المصري، وقد علَّمَه القرآن والعلم والفصاحة والأدب، وصار بارعًا في كامل العلوم، وكان تحت يد والده في التجارة، فحصل لوالده مرض وزاد عليه الحال، فأيقن بالموت وأحضر ولده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن التاجر الجوهري البغدادي لما مرض وأيقن بالموت أحضر ولده الذي اسمه علي المصري وقال له: يا ولدي، إن الدنيا فانية، والآخرة باقية، وكل نفس ذائقة الموت، والآن يا ولدي، قد قربت وفاتي وأريد أن أوصيك وصية، إن عملتَ بها لم تزل آمِنًا سعيدًا إلى أن تلقى الله تعالى، وإن لم تعمل بها فإنه يحصل لك تعب زائد وتندم على ما فرَّطْتَ في وصيتي. فقال له: يا أبت، كيف لا أسمع ولا أعمل بوصيتك، مع أن طاعتك فرض عليَّ، وسماع قولك عليَّ واجب. فقال له: يا ولدي، إني خلفت لك أماكن ومحلات وأمتعة ومالًا لا يُحصَى، بحيث إذا كنتَ تنفق منه في كل يوم خمسمائة دينار لم ينقص عليك شيء من ذلك، ولكن يا ولدي عليك بتقوى الله واتِّبَاع ما أمر به من الفرائض، وباتِّبَاع المصطفى ﷺ فيما ورد عنه مما أمر به ونهى عنه في سنته، وكُنْ مواظِبًا على فعل الخيرات، وبذل المعروف، وصحبة أهل الخير والصلاح والعلم، وعليك بالوصية بالفقراء والمساكين، وتجنَّبِ الشحَّ والبخل وصحبة الأشرار وذوي الشبهات، وانظر لخَدَمك وعيالك بالرأفة، ولزوجتك أيضًا فإنها من بنات الأكابر، وهي حامل منك لعل الله يرزقك منها بالذرية الصالحة. وما زال يوصيه ويبكي ويقول له: يا ولدي، اسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يخلِّصك من كل ضيق يحصل لك، ويدركك بالفرج القريب منه. فبكى الولد بكاءً شديدًا وقال: يا والدي، واللهِ إني ذبتُ من هذا الكلام، كأنك تقول قول مودِّع. فقال له: نعم يا ولدي، أنا عارف بحالي، فلا تَنْسَ وصيتي. ثم إن الرجل صار يتشهَّد ويقرأ إلى أن حضر الوقت المعلوم، فقال لولده: ادْنُ مني يا ولدي. فدنا منه فقبَّله وشهق، ففارقَتْ روحه جسده وتُوفي إلى رحمة الله تعالى، فحصل لولده غاية الحزن، وعلا الضجيج في بيته، واجتمع عليه أصحاب والده، فأخذ في تجهيزه وتشهيله وأخرجه خرجة عظيمة، وحملوا جنازته إلى الصلاة فصلوا عليه وانصرفوا بجنازته إلى المقبرة فدفنوه، وقرءوا عليه

ما تيسَّرَ من القرآن العظيم ثم رجعوا إلى المنزل، فعَزَّوْا ولده وانصرف كلٌّ واحد منهم إلى حال سبيله، وعمل له ولده الجُمَع والختمات إلى تمام أربعين يومًا، وهو مقيم في البيت لا يخرج إلا إلى المصلَّى، ومن يوم الجمعة إلى الجمعة يزور والده، ولم يزل في صلاته وقراءته وعبادته مدةً من الزمان، حتى دخل عليه أقرانه من أولاد التجار وسلَّموا عليه وقالوا له: إلى متى هذا الحزن الذي أنت فيه، وترك شغلك وتجارتك واجتماعك على أصحابك؟ وهذا أمر يطول عليك ويحصل لجسدك منه ضرر زائد. وحين دخلوا عليه كان صحبتهم إبليس اللعين يوسوس لهم، فصاروا يحسِّنون له أن يخرج معهم إلى السوق، وإبليس يغريه بموافقتهم إلى أن وافَقَهم على الخروج معهم من البيت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أولاد التجار لما دخلوا على التاجر علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري، حسَّنوا له أن يخرج معهم إلى السوق، فوافَقَهم على ذلك لأمرٍ يريده الله سبحانه وتعالى، وخرج معهم من البيت فقالوا له: اركب بغلتك وتوجَّهْ بنا إلى البستان الفلاني لنتفرج فيه ويذهب عنك الحزن والفكر. فركب بغلته وأخذ عبده معه وتوجَّهَ معهم إلى البستان الذي قصدوه، فلما صاروا في البستان ذهب واحد منهم وعمل لهم الغداء وأحضره في البستان، فأكلوا وانبسطوا وجلسوا يتحدَّثون إلى آخِر النهار، ثم ركبوا وانصرفوا وسار كلٌّ منهم إلى منزله وباتوا. فلما أصبح الصباح جاءوا إليه وقالوا له: قُمْ بنا. فقال لهم: إلى أين؟ فقالوا: إلى البستان الفلاني، فإنه أحسن من الأول وأنزه. فركب وتوجَّهَ معهم إلى البستان الذي قصدوه، فلما صاروا في البستان ذهب واحد منهم وعمل لهم الغداء وأحضره إلى البستان، وأحضر صحبته المدام المسكر، فأكلوا ثم أحضروا الشراب، فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا له: هذا الذي يُذهِب الحزن ويُجلِي السرور. ولم يزالوا يحسِّنونه له حتى غلبوا عليه، فشرب معهم، واستمروا في حديث وشرب إلى آخِر النهار، ثم توجَّهوا إلى منازلهم، ولكن علي المصري حصل له دوخة من الشراب، فدخل على زوجته وهو بهذا الحال، فقالت له: ما بالك متغيِّرًا؟ فقال: نحن اليوم كنَّا في حظ وانبساط، ولكن بعض أصحابنا جاء لنا بماء فشرب أصحابي وشربتُ معهم فحصلت لي هذه الدوخة. فقالت له زوجته: يا سيدي، هل نسيتَ وصيةَ والدك، وفعلتَ ما نهاك عنه من معاشرة أصحاب الشبهات؟ فقال لها: إن هؤلاء من أولاد التجار ولم يكونوا أصحاب شبهات، وإنما هم أصحاب حظ وانبساط.

وما زال كلَّ يوم مع أصحابه على هذه الحالة، يتوجهون إلى محل بعد محل وهم في أكل وشرب، إلى أن قالوا له: قد فرغ دورنا وصار الدور عليك. فقال لهم: أهلًا وسهلًا

ومرحبًا. ولما أصبح أحضر كامل ما يحتاج إليه الحال من المأكل والمشرب أضعاف ما فعلوه، وأخذ معه الطباخين والفراشين والقهوجية، وتوجَّهوا إلى الروضة والمقياس، ومكثوا فيها شهرًا كاملًا على أكل وشرب وسماع وانبساط، فلما مضى الشهر رأى نفسه قد صرف جملةً من المال لها صورة، فغَرَّه إبليس اللعين وقال له: لو صرفتُ كلَّ يوم قدر الذي صرفتُه لم ينقص مالك. فلم يبالِ بصرف المال واستمرَّ على هذا الحال مدة ثلاث سنوات، وزوجته تنصحه وتذكِّره بوصية والده، فلم يسمع كلامها إلى أن نفَدَ المال الذي كان عنده من النقود جميعه، فصار يأخذ من الجواهر ويبيع ويصرف أثمانها إلى أن أنفدها، ثم أخذ في بيع البيوت والعقارات حتى لم يَبْقَ منها شيء، فلما نفدت صار يبيع في الضياع والبساتين واحدًا بعد واحد، إلى أن ذهبَتْ جميعها ولم يَبْقَ عنده شيء يملكه إلا البيت الذي هو فيه، فصار يقلع رخامه وأخشابه ويتصرَّف فيها إلى أن أفناها جميعها، ونظر في نفسه فلم يجد عنده شيئًا يصرفه، فباع البيت وتصرَّفَ في ثمنه، ثم بعد ذلك جاءه الذي اشترى منه البيت وقال له: انظر لك محلًّا فإني محتاج إلى بيتي. فنظر في نفسه فلم يجد عنده شيئًا يحتاج إلى بيت غير زوجته، وقد ولدَتْ منه ولدًا وبنتًا، ولم يَبْقَ عنده خَدَم غير نفسه وعياله، فأخذ له قاعة في بعض الحيشان وسكن فيها بعد العز والدلال، وكثرة الخدم والمال، وصار لا يملك قوت يوم، فقالت له زوجته: من هذا كنتُ أحذِّرك وأقول لك: احفظ وصية والدك، فلم تسمع قولي، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومن أين تأكل الأولاد الصغار؟ فقُمْ وطُفْ على أصحابك أولاد التجار، لعلهم يعطونك شيئًا نتقوَّت به في هذا اليوم، فقام وتوجَّهَ إلى أصحابه واحد بعد واحد، وكلُّ مَن توجَّهَ إليه منهم يواري وجهه منه، ويُسمِعه ما يكره من الكلام المؤلم، ولم يُعطِه أحدٌ منهم شيئًا، فرجع إلى زوجته وقال لها: لم يعطوني شيئًا. فقامت إلى جيرانها لتطلب منهم شيئًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري لما رجع إليها زوجها من غير شيء، قامت إلى جيرانها لتطلب شيئًا يتقوَّتون به في ذلك اليوم، فتوجَّهَتْ إلى امرأة كانت تعرفها في الأيام السابقة، فلما دخلت عليها ورأت حالها، قامت وأخذتها بقبول وبكت وقالت لها: ما الذي أصابكم؟ فحكت لها جميع ما كان من زوجها، فقالت لها: مرحبًا بك وأهلًا وسهلًا، فجميع ما تحتاجينه اطلبيه مني من غير مقابل. فقالت لها: جزاكِ الله خيرًا. ثم أعطتها ما يكفيها هي وعيالها مؤنة شهر كامل، فأخذته وتوجَّهَتْ إلى محلها، فلما رآها زوجها بكى وقال لها: من أين لك ذلك؟ فقالت له: من فلانة؟ فإني لما أخبرتها بما حصل لم تقصِّر في شيء وقالت لي: جميع ما تحتاجين إليه اطلبيه مني. فعند ذلك قال لها زوجها: حيث صار عندك هذا، فأنا متوجِّه إلى محل أقصده لعل الله تعالى يفرج عنا. وأخذ بخاطرها وقبَّل أولاده ثم خرج ولم يعرف أين يقصد، وما زال ماشيًا حتى وصل إلى بولاق، فرأى مركبًا مسافرة إلى دمياط، فرآه رجلٌ كان بينه وبين أبيه صحبه، فسلَّمَ عليه وقال له: أين تريد؟ قال: أريد دمياط، فإنَّ لي أصحابًا أسأل عنهم وأزورهم ثم أرجع. فأخذه إلى بيته وأكرمه وعمل له زادًا، وأعطاه شيئًا من الدنانير، وأنزله في المركب المتوجِّهة إلى دمياط، فلما وصلوا إليها طلع من المركب ولم يعرف أين يقصد.

فبينما هو ماشٍ إذ رآه رجل من التجار، فحنَّ عليه وأخذه معه إلى منزله، فمكث عنده مدة، وبعد ذلك قال في نفسه: وإلى متى هذا القعود في بيوت الناس؟ ثم طلع من بيت ذلك التاجر فرأى مركبًا مسافرة إلى الشام، فعمل له الرجل الذي كان نازلًا عنده زادًا وأنزله في تلك المركب، وتوجَّهَتْ بهم حتى وصلوا إلى ساحل الشام، فنزل من المركب

وسافَرَ حتى دخل دمشق، فبينما هو ماشٍ في شوارعها إذ رآه رجل من أهل الخير، فأخذه إلى منزله فأقام عنده مدة، ثم بعد ذلك خرج فرأى قافلة متوجهة إلى بغداد، فخطر بباله أن يسافر مع تلك القافلة، ثم رجع إلى التاجر الذي كان مُقِيمًا عنده في منزله وأخذ خاطره وطلع مع القافلة، فحنَّنَ الله سبحانه وتعالى عليه رجل من التجار، فأخذه عنده وصار يأكل ويشرب معه إلى أن بقي بينهم وبين بغداد يوم واحد، فطلع على القافلة جماعة من قطَّاع الطريق، فأخذوا كامل ما معهم ولم ينجُ منهم إلا القليل، فسار كل واحد من القافلة يقصد محلًّا يأوي إليه، وأما علي المصري فإنه قصد بغداد، ثم وصل إليها عند غروب الشمس، وما حصل باب المدينة حتى رأى البوَّابين مرادهم أن يقفلوا الباب، فقال لهم: دعوني أدخل عندكم. فأدخلوه عندهم وقالوا له: من أين أتيتَ وإلى أين تسير؟ فقال: أنا رجل من مدينة مصر، ومعي تجارة وبغال وأحمال وعبيد وغلمان، فسبقتهم لكي أنظر لي محلًّا أحطُّ فيه تجارتي، فلما سبقتهم وأنا راكب على بغلتي قابَلَني جماعة من قطَّاع الطريق فأخذوا بغلتي وحوائجي، وما نجوت منهم إلا وأنا على آخِر رمق. فأكرموه وقالوا له: مرحبًا بك، فبِتْ عندنا إلى الصباح، ثم ننظر لك محلًّا يليق بك. ففتَّشَ في جيبه فرأى دينارًا كان باقيًا من الدنانير التي أعطاها له التاجر في بولاق، فأعطى ذلك الدينار لواحد من البوابين وقال له: خذ هذا واصرفه وائتنا بشيء نأكله. فأخذه وذهب إلى السوق وصرفه وجاء له بخبز ولحم مطبوخ، فأكل هو وإياهم ونام عندهم إلى الصباح.

ثم أخذه رجل من البوَّابين وتوجَّه إلى رجل من تجار بغداد وحكى له حكايته، فصدَّقَه ذلك الرجل وظنَّ أنه تاجر ومعه أحمال، فأطلعه دكانه وأكرمه وأرسل إلى منزله، فأحضر له بدلة عظيمة من ملبوسه وأدخله الحمام. قال علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري: فدخلتُ معه الحمام، وعند خروجنا أخذني وتوجَّهَ بي إلى منزله وأحضر لنا الغداء، فأكلنا وانبسطنا وقال لواحد من عبيده: يا مسعود، خذ سيدك واعرض عليه البيتين اللذين في المكان الفلاني، والذي يعجبه منهما أَعْطِه مفتاحه وتعال. فتوجَّهْتُ أنا والعبد حتى وصلنا إلى درب فيه ثلاثة بيوت بجانب بعضهما جديدة مقفولة، ففتح أول بيت وتفرجت عليه، وخرجنا وتوجهنا إلى الثاني ففتحه وتفرجت عليه، فقال لي: أيهما أعطيك مفتاحه؟ فقلت له: وهذا البيت الكبير لِمَن؟ قال: لنا. قلت له: افتحه لأجل أن نتفرَّج عليه. فقال: ليس لك حاجة به. فقلتُ له: لِمَ ذلك؟ فقال: لأنه معمور، ولم يسكنه أحدٌ إلا ويصبح ميتًا، ولا نفتح بابه لإخراج الميت منه، بل نطلع على سطح أحد البيتين ونُخرِجه منه، فمن ذلك تركه سيدي وقال: أنا ما بقيت أعطيه لأحد. فقلت: افتحه لي حتى أتفرَّج

عليه. وقلت في نفسي: هذا هو المطلوب، فأبيتُ فيه وأصبح ميتًا وأرتاح من هذا الحال الذي أنا فيه. ففتحه ودخلتُه فرأيته بيتًا عظيمًا لا مثيلَ له، فقلت للعبد: أنا ما أختار إلا هذا البيت، فأَعْطِني مفتاحَه. فقال لي العبد: لا أعطيك المفتاح حتى أشاور سيدي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٨

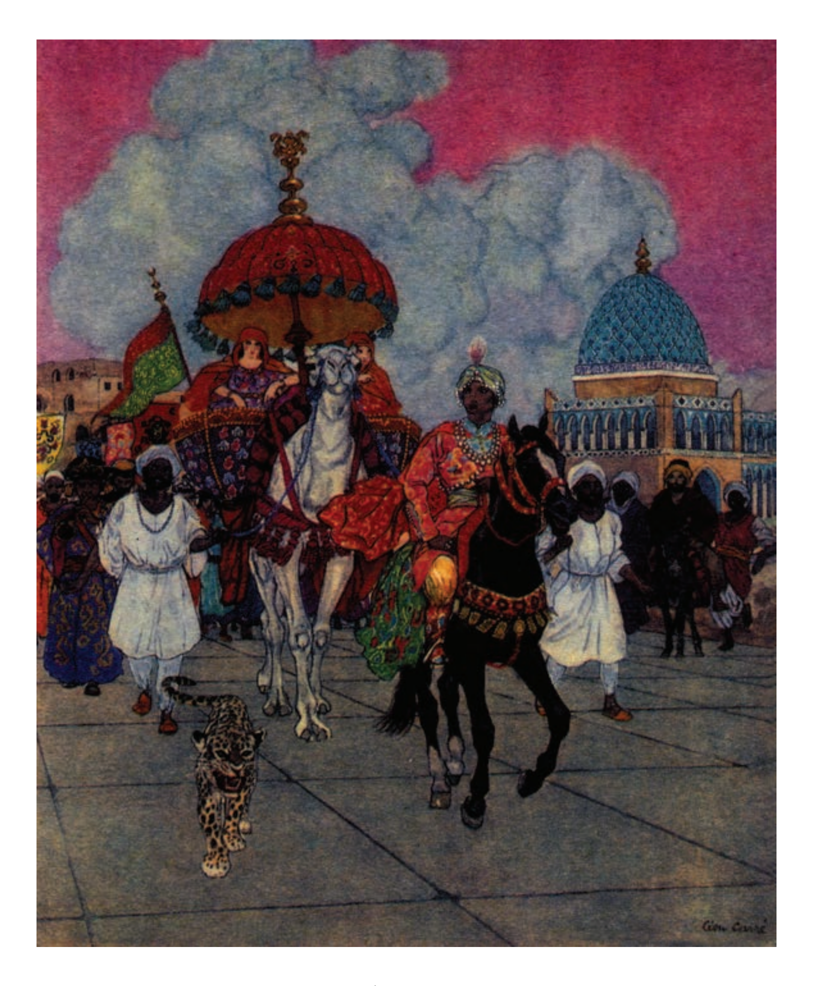
قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العبد قال لي: لا أعطيك المفتاح حتى أشاور سيدي. ثم توجَّهَ إلى سيده وقال له: إن التاجر المصري يقول: ما أسكن إلا في البيت الكبير. فقام وجاء إلى علي المصري وقال له: يا سيدي، ليس لك بهذا البيت حاجة. فقال له علي المصري: ما أسكن إلا فيه، ولا أبالي بهذا القول. فقال له: أكتب بيني وبينك حجة أنه إذا حصل لك شيء لا علاقةَ لي بك. قال: كذلك. فأحضر شاهدًا من المحكمة وكتب عليه حجة وأخذها عنده وأعطاه المفتاح، فأخذه ودخل البيت، فأرسل إليه التاجر فرشًا مع عبد، ففرشه له على المصطبة التي خلف الباب ورجع، ثم بعد ذلك قام علي المصري ودخل، فرأى بئرًا في حوش البيت وعليها منطال، فأنزله في البئر وملأه وتوضأ منه وصلَّى فرضه وجلس قليلًا، فجاء له العبد بالعشاء من بيت سيده، وجاء له بقنديل وشمعة وشمعدان وطشت وإبريق وقلَّة، ثم تركه وتوجَّهَ إلى بيت سيده، فأوقد الشمعة وتعشَّى وانبسط وصلَّى العشاء وقال في نفسه: قُمِ اطلع فوق وخذ الفرش ونَمْ هناك أحسن من هنا. فقام وأخذ الفرش وأطلعه فوق، فرأى قاعةً عظيمةً سقفها مُذهَّب، وأرضها وحيطانها بالرخام الملون، ففرش فرشة وجلس يقرأ شيئًا من القرآن العظيم، فلم يشعر إلا وشخص يناديه ويقول له: يا علي يا ابن حسن، هل أُنزِل عليك الذهب؟ قال له: وأين الذهب الذي تُنزِله؟ فما قال له ذلك حتى صبَّ عليه ذهبًا كالمنجنيق، ولم يزل الذهب منصبًّا حتى ملأ القاعة، فلما فرغ انصباب الذهب قال له: اعتقني حتى أتوجَّه إلى حال سبيلي، فقد فرغَتْ خدمتي. فقال له علي المصري: أقسمتُ عليك بالله العظيم أن تخبرني عن سبب هذا الذهب؟ فقال له: إن هذا الذهب كان مرصودًا عليك من قديم الزمن، وكان كلُّ مَن دخل هذا البيت نأتيه ونقول له: يا علي يا ابن حسن، هل نُنزِل الذهب؟ فيخاف من كلامنا ويصرخ، فنُنْزِل له ونكسر رقبته ونروح، فلما جئتَ أنت وناديناك باسمك واسم أبيك، وقلنا لك: هل نُنزِل الذهب؟

قلت لنا: وأين الذهب؟ فعرفنا أنك صاحبه فأنزلناه، وبقي لك كنز في بلاد اليمن، فإذا سافرتَ وأخذتَه وأتيتَ إلى هنا كان أولى لك، وأريد منك أن تعتقني حتى أروح إلى حال سبيلي. فقال: والله ما أعتقك إلا إذا أتيتَني بالذي في بلاد اليمن إلى هنا. فقال له: إذا أتيتُكَ به هل تعتقني وتعتق خادم ذلك الكنز؟ فقال: نعم. قال له: احلف لي. فحلف له، وأراد أن يتوجَّه فقال له علي المصري: بقي لي عندك حاجة. قال: وما هي؟ قال: لي زوجة وأولاد بمصر في المحل الفلاني ينبغي أن تأتيني بهم على راحة من غير ضرر. فقال له: آتيك بهم في موكب من تختروان، وخدم وحشم مع الكنز الذي نأتيك به من بلاد اليمن إن شاء الله تعالى.

ثم أخذ منه إجازة على ثلاثة أيام، ويكون جميع ذلك عنده وتوجه، فأصبح يدور في القاعة على محل يأوي فيه الذهب، فرأى رخامة على طرف ليوان القاعة وفيها لولب، فرك اللولب فانزاحت الرخامة وبان له باب ففتحه ودخل، فرأى خزنة كبيرة وفيها أكياس من القماش مخيطة، فصار يأخذ الأكياس ويملؤها من الذهب ويُدخِلها في الخزنة، إلى أن حوَّلَ الذهب جميعه وأدخَلَه الخزنة وقفل الباب وفرك اللولب، فرجعت الرخامة محلها، ثم قام ونزل وقعد على المصطبة التي وراء الباب، فبينما هو قاعد وإذا بطارق يطرق عليه الباب، فقام وفتحه فرآه عبد صاحب البيت، فلما رآه العبدُ جالسًا رجع بسرعة إلى سيده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٢٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبدَ صاحبِ البيت لما جاء وطرق الباب على علي المصري ابن التاجر حسن، فتح له الباب، فلما رآه جالسًا رجع بسرعة إلى سيده ليُبشِّره، فلما وصل إلى سيده قال له: يا سيدي، إن التاجر الذي سكن في البيت المعمور بالجن طيِّب بخير، وهو جالس على المصطبة التي وراء الباب. فقام سيده وهو فرحان وتوجَّهَ إلى ذلك البيت ومعه الفطور، فلما رآه عانَقَه وقبَّلَه بين عينيه وقال له: ما فعل الله بك؟ قال: خيرًا، وما نمتُ إلا فوق في القاعة المرخمة. فقال له: هل أتاكَ شيء أو نظرتَ شيئًا؟ قال: لا، وإنما قرأتُ ما تيسَّرَ من القرآن العظيم ونمتُ إلى الصباح، ثم قمتُ وتوضأت ونزلت وجلست على المصطبة. فقال: الحمد لله على السلامة. ثم قام من عنده وأرسل إليه عبيدًا ومماليك وجواري وفرشًا، فكنسوا البيت من فوق وتحت، وفرشوه له فرشًا عظيمًا، وبقي عنده ثلاثة مماليك وثلاثة عبيد وأربع جوارٍ للخدمة، والباقي توجَّهوا إلى بيت سيدهم، ولما سمع بخبره التجار أرسلوا إليه هدايا من كل شيء نفيس، حتى من المأكول والمشروب والملبوس، وأخذوه عندهم في السوق وقالوا له: متى تجيء حملتك؟ فقال لهم: بعد ثلاثة أيام تدخل. فلما مضت الثلاثة أيام، جاء له خادم الكنز الأول الذي أنزل له الذهب من البيت وقال له: قُمْ لاقِ الكنز الذي جئتُ لك به من اليمن، وحريمك وصحبتهم من جملة الكنز مال على صورة المتجر العظيم، وجميع ما معه من البغال والخيل والجمال والخَدَم والمماليك كلهم من الجان، وكان ذلك الخادم قد توجَّهَ إلى مصر فرأى زوجةَ علي وأولاده في هذه المدة صاروا في عري وجوع زائد، فحملهم من مكانهم في تختروان خارجًا عن مصر، وألبسهم خلعًا عظيمة من الخلع التي في كنز اليمن، فلما جاء إليه وأخبره بذلك الخبر، قام وتوجَّهَ إلى التجار وقال لهم: قوموا بنا نطلع خارج المدينة لنلاقي القافلة التي فيها



ركبوا معهم ودخلوا المدينةَ في مَوكبٍ عظيم.

متجرنا، وتشرفونا بحريماتكم لأجل ملاقاة حريمنا. فقالوا له: سمعًا وطاعةً. ثم أرسلوا أحضروا حريمهم وطلعوا جميعًا وقعدوا في بستان من بساتين المدينة وجلسوا يتحدثون.

فبينما هم في الحديث وإذا بغبار قد ثار من كبد البر، فقاموا ينظرون ما سبب ذلك الغبار، فانكشف وبان عن بغال ورجال وعكامة وفراشين وضويه، وهم مقبلون في غناء ورقص إلى أنا أقبلوا، فتقدَّمَ مقدم العكامة إلى علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري

وقبَّلَ يده وقال له: يا سيدي، إننا تعوقنا في الطريق لأننا أردنا الدخول بالأمس فخفنا من قطاع الطريق، فمكثنا أربعة أيام ونحن مُقِيمون في محلنا إلى أن صرفهم الله تعالى عنَّا. فقام التجار وركبوا بغالهم وساروا مع القافلة، وتأخرت الحريمات عند حريم التاجر علي المصري إلى أن ركبوا معهم ودخلوا في موكب عظيم، وصار التجار يتعجَّبون من البغال المحملة بالصناديق، ونساء التجار يتعجَّبن من ملبس زوجة التاجر علي وملبس أولادها، ويقلن: إن هذه الملابس لا يوجد مثلها عند ملك بغداد ولا غيره من سائر الملوك والأكابر والتجار. ولم يزلوا سائرين في موكبهم؛ الرجال مع التاجر علي المصري، والنساء مع حريمه، إلى أن دخلوا المنزل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنهم لم يزالوا سائرين في موكبهم؛ الرجال مع التاجر علي المصري، والنساء مع حريمه، حتى دخلوا المنزل ونزلوا، وأدخلوا البغال بأحمالها في وسط الحوش، ثم نزلوا الأحمال وخزنوها في الحواصل، وطلع الحريمات مع الحريم إلى القاعة، فرأوها مثل الروضة الغنَّاء، مفروشة بالفرش العظيم، فجلسوا في حظ وسرور، واستمروا جالسين إلى وقت الظهر، فطلع الغداء لهم على أحسن ما يكون من أنواع الأطعمة والحلويات، فأكلوا وشربوا الشربات العظيمة، وتطيَّبوا بعدها بماء الورد والبخور، ثم أخذوا خاطره وانصرفوا إلى محلاتهم رجالًا ونساء، ولما رجع التجار إلى أماكنهم صاروا يرسلون إليه الهدايا على قدر أحوالهم، وصار الحريمات يهادين الحريم إلى أن جاء لهم شيء كثير من جوارٍ وعبيد ومماليك، ومن كامل الأصناف كالحبوب والسكر وغير ذلك من الخير الذي لا يُحصَى، وأما التاجر البغدادي صاحب البيت الذي هو فيه، فإنه أستمرَّ مُقِيمًا عنده ولم يفارقه وقال له: خل العبيد والخدم يُدخِلون البغال وغيرها من البهائم في بيت من البيوت لأجل الراحة. فقال له: إنهم مسافرون في هذه الليلة إلى محل كذا. وأعطاهم إجازة بأن يخرجوا إلى خارج المدينة حتى يأتي الليل يسافرون، فما صدقوا أن يعيطهم الإجازة بذلك حتى آخذوا خاطره، وانصرفوا إلى ظاهر المدينة وطاروا في الهواء إلى أماكنهم.

وقعد التاجر علي مع صاحب البيت الذي هو فيه إلى ثلث الليل، ثم انفضَّ مجلسهما وذهب صاحب البيت إلى محله، وطلع التاجر علي إلى حريمه وسلَّمَ عليهم وقال لهم: ما الذي جرى لكم بَعْدي في هذه المدة؟ فأخبرته زوجته بما قاسوه من الجوع والعري والتعب، فقال لها: الحمد لله على السلامة، وكيف جئتُم؟ فقالت: يا سيدي، بينما أنا نائمة مع أولادي ليلةَ البارحة، فلم أشعر إلا والذي رفعني عن الأرض أنا وأولادي إلى

أن صرنا طائرين في الهواء، ولكن لم يحصل لنا ضرر، ولم نزل طائرين حتى نزلنا على الأرض في مكان على شكل حلة العرب، فرأينا هناك بغالًا محمَّلة وتختروانًا على بغلتين كبيرتين، وحوله خدم من غلمان ورجال، فقلت لهم: مَن أنتم؟ وما هذه الأحمال؟ ونحن في أي مكان؟ فقالوا: نحن خدَّام التاجر علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري، وقد أرسلنا نأخذكم ونوصلكم إليه في مدينة بغداد. فقلتُ لهم: وهل المسافة التي بيننا وبين بغداد بعيدة أم قريبة؟ فقالوا لي: قريبة، فما بيننا وبينها غير سواد الليل. ثم أركبونا في التختروان، فما أصبح الصباح إلا ونحن عندكم ولم يحصل لنا ضرر قطُّ. فقال لها: ومَن أعطاكم هذا الملبس؟ فقالت: مقدم القافلة؛ فتح صندوقًا من الصناديق التي على البغال وأخرَجَ منه هذه الحلل، فألبسني حلة وألبس أولادك كل واحد حلة، ثم قفل الصندوق الذي أخذ منه الحلل وأعطاني مفتاحه، وقال لي: احرصي عليه حتى تعطيه لزوجك. وها هو محفوظ عندي، ثم أخرَجَتْه له، فقال لها: هل تعرفين الصندوق؟ قالت: نعم أعرفه. فقام ونزل معها إلى الحواصل وأراها الصناديق، فقالت له: هذا هو الصندوق الذي أخذ منه الحلل. فأخذ المفتاح منها وحطَّه في القفل وفتحه، فرأى فيه حللًا كثيرة، ورأى فيه مفاتيح كامل الصناديق، فأخذها منه وصار يفتح الصناديق صندوقًا بعد ويتفرج على ما فيها من الجواهر والمعادن الكنوزية التي لم يوجد عند أحدٍ من الملوك نظيرها، ثم قفلها وأخذ مفاتيحها وطلع هو وزوجته إلى القاعة وقال لها: هذا من فضل الله تعالى. ثم بعد ذلك أخذها وتوجه بها إلى الرخامة التي فيها اللولب، وفركه وفتح باب الخزنة ودخل هو وإياها وفرَّجها على الذهب الذي وضعه فيها، فقالت له: من أين جاءك هذا كله؟ فقال لها: جاءني من فضل ربي، فإني خرجتُ من عندك بمصر … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه لما فرَّجَ التاجر علي المصري زوجتَه على الذهب، قالت له: من أين جاءك هذا كله؟ فقال لها: جاءني من فضل ربي، فإني خرجت من عندك بمصر وطلعت وأنا لا أدري أين أذهب، فتمشيت حتى وصلت إلى بولاق، فوجدت مركبًا مسافرة إلى دمياط فنزلت فيها، فلما وصلت إلى دمياط قابلني رجل تاجر كان يعرف والدي فأخذني وأكرمني وقال لي: إلى أين تسافر؟ فقلت له: أريد أن أسافر إلى دمشق الشام، فإن لي فيها أصحابًا. وحكى لها ما وقع له من أوله إلى آخِره، فقالت له: يا سيدي، هذا كله ببركة دعاء والدك حين كان يدعو لك قبل موته ويقول: أسأل الله ألَّا يوقعك في شدة إلا ويدركك بالفرج القريب. فالحمد لله تعالى حيث أتاك بالفرج وعوَّضَ عليك بأكثر مما ذهب منك، فبالله عليك يا سيدي لا تَعُدْ إلى ما كنت فيه من عِشْرة أصحاب الشُّبَه، وعليك بتقوى الله تعالى في السر والعلانية. وصارت توصيه، فقال لها: قبلتُ وصيتك، وأسال الله تعالى أن يُبعِد عنَّا أقرانَ السوء، وأن يوفِّقنا لطاعته واتِّباع سُنَّة نبيه ﷺ، وصار هو وزوجه وأولاده في أرغد عيش، ثم إنه أخذ له دكانًا في سوق التجار، ووضع فيه شيئًا من الجواهر والمعادن المثمنة وجلس في الدكان وعنده أولاده ومماليكه، وصار أجلَّ التجَّار في مدينة بغداد، فسمع بخبره ملك بغداد، فأرسل إليه رسولًا بطلبه، فلما جاءه الرسول قال له: أجِبِ الملكَ فإنه يطلبك. فقال: سمعًا وطاعةً. ثم جهَّزَ هديةً للملك، فأخذ أربع صواني من الذهب الأحمر وملأها من الجواهر والمعادن التي لا يوجد مثلها عند الملوك، وأخذ الصواني وطلع بها إلى الملك.

فلما دخل عليه قبَّلَ الأرض بين يدَيْه ودعا له بدوام العز والنِّعَم وأحسن ما به تكلَّم، فقال له الملك: يا تاجر، قد آنستَ بلادنا. فقال له: يا ملك الزمان، إن العبد أتاك بهدية ويرجو من فضلك قبولها. ثم قدَّمَ الأربع صواني بين يدَيْه، فكشف عنها الملك وتأملها،

فرأى فيها شيئًا من الجواهر لم يكن عنده مثله، وقيمته تساوي خزائن مال. فقال له: هديتك مقبولة يا تاجر، وإن شاء الله تعالى نجازيك بمثلها. فقبَّلَ يدي الملك وانصرف من عنده، فأحضر الملك أكابر دولته وقال لهم: كم ملكًا من الملوك خطب ابنتي؟ قالوا له: كثير. فقال لهم: هل أحد منهم هاداني بمثل هذه الهدية؟ فقالوا جميعًا: لا، لأنه لا يوجد عند أحدٍ منهم مثل هذا قطُّ. فقال الملك: استخرتُ الله تعالى في أن أزوِّجَ ابنتي لهذا التاجر، فما تقولون؟ فقالوا له: الأمر كما ترى. فأمر الطواشية أن يحملوا الأربع صواني بما فيها ويُدخِلوها إلى سرايته، ثم اجتمع بزوجته ووضع الصواني بين يدَيْها، فكشفت عنها فرأت فيها شيئًا لم يكن عندها مثله ولا قطعة واحدة، فقالت له: من أي الملوك هذا؟ لعله من أحد الملوك الذين خطبوا بنتك. فقال: لا، وإنما هذا من رجل تاجر مصري جاء عندنا في هذه المدينة، فلما سمعتُ بقدومه أرسلتُ إليه رسولًا يُحضِره لنا كي نصاحبه، لعلنا نجد عنده شيئًا من الجواهر فنشتريه منه من أجل جهاز بنتنا، فامتثل أمرنا وجاء لنا بهذه الأربع صواني وقدَّمَها لنا هدية، فرأيتُه شابًّا حسنًا ذا مهابة وعقل كامل وشكل ظريف يكاد أن يكون من أبناء الملوك، فلما رأيتُه مالَ إليه قلبي وانشرح له صدري، وأحبَبْتُ أن أزوِّجه بنتي، وقد عرضتُ الهدية على أرباب دولتي وقلت لهم: كم واحدًا من الملوك خطب ابنتي؟ فقالوا: كثير. فقلت لهم: وهل جاءني أحد منهم بمثل ذلك؟ فقالوا كلهم: لا والله يا ملك الزمان، إنه لا يوجد عند أحد منهم مثل ذلك. فقلت لهم: إني استخرتُ الله تعالى في أن أزوِّجه ابنتي، فما تقولون؟ قالوا: الأمر كما تراه. فما تقولين أنتِ في جوابك؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ملك مدينة بغداد لما عرض الهدية على زوجته وأخبرها بشمائل التاجر علي الجوهري، وأنه يريد أن يزوِّجه ابنته، ثم قال لها: فما تقولين أنتِ في جوابك؟ قالت له: الأمر لله ولك يا ملك الزمان، والذي يريده الله هو الذي يكون. فقال: إن شاء الله تعالى لا نزوِّجها إلا لهذا الشاب. وبات تلك الليلة، فلما أصبح الصباح طلع إلى ديوانه وأمر بإحضار التاجر علي المصري وكامل تجار بغداد، فحضروا جميعًا، فلما تمثَّلوا بين يدَيِ الملك أمرهم بالجلوس فجلسوا، ثم قال: أحضروا قاضي الديوان. فحضر بين يدَيْه فقال له: يا قاضي، اكتب كتاب ابنتي على التاجر علي المصري. فقال علي المصري: العفو يا مولانا السلطان، لا يصح أن يكون صهر الملك تاجر مثلي. فقال الملك: قد أنعمتُ عليك بذلك وبالوزارة. ثم خلع عليه خلعة الوزراء في الحال، فعند ذلك جلس على كرسي الوزارة وقال: يا ملك الزمان، أنت أنعمتَ عليَّ بذلك وقد تشرَّفْتُ بإنعامك، ولكن اسمع لي كلمة أقولها لك. فقال: قُلْ ولا تَخَفْ. قال: حيث صدر أمرك الشريف بزواج ابنتك، فينبغي أن يكون زواجها لولدي. فقال: هل لك ولد؟ قال: نعم. فقال الملك: أرسِلْ إليه في هذه الساعة. فقال: سمعًا وطاعةً. ثم أرسل واحدًا من مماليكه إلى ولده وأحضره، فلما حضر بين يدي الملك قبَّلَ الأرض بين يدَيْه ووقف متأدِّبًا، فنظر إليه الملك فرآه أجمل من بنته وأحسن منها قدًّا واعتدالًا وبهجةً وكمالًا، فقال له: ما اسمك يا ولدي؟ فقال: يا مولانا السلطان اسمي حسن. وكان عمره حينئذٍ أربعة عشر عامًا، فقال الملك للقاضي: اكتب كتابَ بنتي حسن الوجود على حسن ابن التاجر علي المصري. فكتب كتابه عليها وتمَّ الأمر على أحسن حال، وانصرف كلٌّ مَن في الديوان إلى سبيله، ونزل التجار خلف الوزير علي المصري إلى أن وصل إلى منزله وهو في منصب الوزارة، ثم هنوه بذلك وانصرفوا إلى حال سبيلهم.

ثم دخل الوزير علي المصري على زوجته، فرأته لابسًا خلعة الوزارة، فقالت له: ما هذا؟ فحكى لها الحكاية من أولها إلى آخِرها وقال لها: إن الملك زوَّجَ ابنته لحسن ولدي. ففرحت بذلك فرحًا زائدًا، ثم بات علي المصري تلك الليلة، ولما أصبح الصباح طلع الديوان، فلاقاه الملك ملاقاةً حَسَنة وأجلَسَه إلى جانبه وقرَّبَه منه، وقال له: يا وزير، قصدنا أننا نقيم الفرح ونُدخِل ابنَك على بنتي. فقال: يا مولانا السلطان، ما تراه حسنًا فهو حسن. فأمر الملك بقيام الفرح وزيَّنوا المدينة، واستمروا في إقامة الفرح ثلاثين يومًا وهم في هناء وسرور، وفي تمام الثلاثين يومًا دخل حسن ابن الوزير على بنت الملك وتمتَّع بحُسْنها وجمالها، وأما زوجة الملك فإنها حين رأت زوج ابنتها أَحَبَّتْه حبًّا شديدًا، وكذلك فرحت بأمه فرحًا زائدًا.

ثم إن الملك أمر لحسن ابن الوزير بسراية، فبنوا له سراية عظيمة بسرعة، وسكن فيها ابن الوزير، وصارت أمه تقعد عنده أيامًا ثم تنزل إلى بيتها، فقالت زوجة الملك لزوجها: يا ملك الزمان، إن والدة حسن لا يمكنها أن تقعد عند ولدها وتترك الوزير، ولا يمكنها أن تقعد عند الوزير وتترك ولدها. فقال: صدقتِ. وأمر أن تُبنَى سراية ثالثة بجنب سراية حسن ابن الوزير، فبنوا سراية ثالثة في أيام قلائل، وأمر الملك أن ينقلوا حوائج الوزير إلى السراية، فنقلوها وسكن بها الوزير، وصارت الثلاث سرايات نافذات لبعضها، فإذا أراد الملك أن يتحدَّث مع الوزير يمشي له ليلًا أو يرسل إليه يُحضِره، وكذلك حسن وأمه وأبوه، وما زالوا مع بعضهم في حالة مرضية وعيشة هنية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك والوزير وابنه ما زالوا مع بعضهم في حالة مرضية وعيشة هنية مدة من الزمان، ثم إن الملك حصل له ضعف وزاد سقمه، فأحضر أكابر دولته وقال لهم: إنه حصل لي مرض شديد وربما كان مرض الموت، وأحضرتكم لأشاوركم في أمرٍ، فشوروا عليَّ بما ترونه حسنًا. فقالوا: إني صرت كبيرًا وقد مرضتُ وأخاف على المملكة بعدي من الأعداء، وقصدي أن تتفقوا أنتم الجميع على واحد حتى أبايعه على المملكة في حياتي لكي ترتاحوا. فقالوا جميعًا: نحن نرضى كلنا بزوج ابنتك حسن ابن الوزير علي، فإننا رأينا عقله وكماله وفهمه، وهو يعرف مقام الكبير والصغير. فقال لهم الملك: وهل رضيتم بذلك؟ قالوا: نعم. قال لهم: ربما تقولون ذلك بين يديَّ حياءً مني، وفي خلفي تقولون غير ذلك! فقالوا جميعًا: والله إن كلامنا ظاهرًا وباطنًا واحد لا يتغيَّر، وقد ارتضيناه بطيب قلوبنا وانشراح صدورنا. فقال لهم: إن كان الأمر كذلك فأَحْضِروا قاضي الشرع الشريف، وسائر الحجاب والنوَّاب وأرباب الدولة جميعًا بين يدي في غدٍ، ونتمِّم الأمر على أحسن حال. فقالوا له: سمعًا وطاعة. ثم انصرفوا من عنده ونبَّهوا على كامل العلماء ووجهاء الناس من الأمراء.

فلما أصبح الصباح طلعوا إلى الديوان وأرسلوا إلى الملك يستأذنونه في الدخول عليه، فأذِنَ لهم، فدخلوا وسلموا عليه وقالوا: نحن الجميع قد حضرنا بين يديك. فقال لهم الملك: يا أمراء بغداد، مَن ترضوا يكون عليكم ملكًا بعدي لأجل أن أبايعه في حياتي قبل مماتي في حضوركم جميعًا؟ فقالوا كلهم: قد اتفقنا على حسن ابن الوزير عليٍّ زوج ابنتك. فقال لهم: إن كان الأمر كذلك فقوموا جميعًا وأحضروه بين يدي. فقاموا جميعًا ودخلوا سرايته وقالوا له: قُمْ بنا إلى الملك. فقال لهم: لأي شيء؟ فقالوا له: لأمرٍ فيه صلاحٌ لنا ولك. فقام معهم حتى دخلوا على الملك، فقبَّلَ حسن الأرض بين يدَيْه، فقال له الملك: اجلس يا ولدي.

فجلس، فقال له: يا حسن، إن الأمراء جميعًا استرضوا عنك واتفقوا على أن يجعلوك ملكًا عليهم من بعدي، وقصدي أن أبايعك في حياتي لأجل انفضاض الأمر. فعند ذلك قام حسن وقبَّلَ الأرض بين يدي الملك وقال له: يا مولانا الملك، إن في الأمراء مَن هو أكبر مني سنًّا وأعلى قدرًا، فأقيلوني من ذلك الأمر. فقالت الأمراء جميعًا: لا نرضى إلا أن تكون مَلِكًا علينا. فقال لهم: إن أبي أكبر مني، وأنا وأبي شيء واحد ولا يصح تقديمي عليه. فقال له أبوه: أنا لا أرضى إلا بما رضي به إخواني، وقد رضوا بك واتفقوا عليك، فلا تخالف أمر الملك ولا أمر إخوانك. فأطرَقَ حسن برأسه إلى الأرض حياءً من الملك ومن أبيه، فقال لهم الملك: هل رضيتم به؟ قالوا: رضينا به. فقرءوا جميعًا على ذلك فواتح سبع، ثم قال الملك: يا قاضي، اكتب حجةً شرعيةً على هؤلاء الأمراء أنهم اتفقوا على سلطنة حسن زوج بنتي، وأنه يكون عليهم مَلِكًا. فكتب الحجة بذلك وأمضاها بعد أن بايعوه جميعًا على المُلْك، وبايَعَه الملك وأمره بالجلوس على كرسي المملكة، فقاموا جميعًا وقبَّلوا يدَيِ الملك حسن ابن الوزير وأبدوا له الطاعة، فحكم في ذلك النهار حكمًا عظيمًا، وخلع على أرباب الدولة الخلع السنية، ثم انفَضَّ الديوان ودخل حسن على والد زوجته وقبَّلَ يدَيْه، فقال له: يا حسن عليك بتقوى الله في الرعية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك حسن لما فرغ من الديوان دخل على والد زوجته وقبَّلَ يديه، فقال له: يا ولدي، عليك بتقوى الله في الرعية. فقال له: بدعائك لي يا والدي يحصل لي التوفيق. ثم دخل سرايته فلاقته زوجته هي وأمها وأتباعها وقبَّلوا يدَيْه وقالوا له: يوم مبارك. وهنوه بالمنصب، ثم قام من سرايته ودخل سراية والده، وفرحوا فرحًا زائدًا بما أنعم الله به عليه من تقليد الملك، وأوصاه والده بتقوى الله والشفقة على الرعية، وبات تلك الليلة في فرح وسرور إلى الصباح، ثم صلى فرضه وختم ورده وطلع إلى الديوان، وطلع إليه كامل العسكر وأرباب المناصب، فحكم بين الناس وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وولَّى وعزل، ولم يزل في الحكومة إلى آخِر النهار، ثم انفضَّ الديوان على أحسن حال، وانصرف العسكر وسار كل واحد منهم إلى حال سبيله. ثم قام ودخل السراية فرأى والد زوجته قد ثقل عليه الضعف، فقال له: لا بأس عليك. ففتح عينيه وقال له: يا حسن. قال: لبيك يا سيدي. قال له: أنا الآن قد قرب أجلي فكُنْ متوصيًا بزوجتك ووالدتها، وعليك بتقوى الله وبر والديك، واخشَ مهابة الملك الديَّان، واعلم بأن الله يأمر بالعدل والإحسان. فقال له الملك حسن: سمعًا وطاعةً. ثم إن الملك القديم أقام ثلاثة أيام بعد ذلك وتُوفِّيَ إلى رحمة الله تعالى، فجهَّزوه وكفَّنوه وعملوا له القراءات والختمات إلى تمام الأربعين يومًا، واستقل الملك حسن ابن الوزير بالملك، وفرحت به الرعية، وكانت أيامه كلها سرورًا، وما زال والده وزيرًا كبيرًا على ميمنته، وأتخذ له وزيرًا آخَر على ميسرته، واستقامت به الأحوال، ومكث مَلِكًا في بغداد مدةً مستطيلةً، ورُزِق من بنت الملك ثلاثة أولاد ذكور، وتوارثوا المملكة من بعده، وصاروا في أرغد عيش وأهناه، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات، فسبحان مَن له الدوام وبيده النقض والإبرام.

حكاية رجل من الحُجَّاج وامرأة عجوز

ومما يُحكَى أن رجلًا من الحجاج نام نومة طويلة ثم انتبه، فلم يَرَ للحُجَّاج أثرًا، فقام يمشي فضَلَّ عن الطريق، وصار يسير إلى أن رأى خيمة ورأى امرأة عجوزًا على باب الخيمة، ووجد عندها كلبًا نائمًا، فدنا من الخيمة ثم سلَّمَ على العجوز وطلب منها طعامًا، فقالت: امضِ إلى ذلك الوادي واصطد من الحيات بقدر كفايتك لأشوي لك منها وأُطعِمك. فقال لها الرجل: أنا لا أجسر على أن أصطاد الحيات، وما أكلتها قطُّ. فقالت العجوز: أنا أمضي معك وأتصيَّد منها، فلا تخف. ثم إنها مضت معه وتبعها الكلب، فاصطادت من الحيات بقدر الكفاية، وجعلت تشوي منها. قال: فلم يَرَ الرجل الحاج من الأكل بدًّا، وخاف من الجوع والهزال، فأكل من تلك الحيات، ثم إنه عطش فطلب من العجوز ماءً ليشرب، فقالت له: دونك والعين فاشرب منها. فمضى إلى العين فوجد ماءَها مُرًّا، ولم يجد له من شربه بدًّا، مع شدة مرارته؛ لما لحقه من العطش، فشرب ثم عاد للعجوز وقال لها: عجبًا منك أيتها العجوز ومن مقامك بهذا الموضع ومكثك في هذا المكان! وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل الحاج لما شرب من ماء العين المر لكثرة ما لحقه من العطش، ثم عاد للعجوز وقال لها: أعجب أيتها العجوز منك ومن مقامك بهذا الموضع واغتذائك بهذا الطعام وشربك من هذا الماء! قالت له العجوز: فكيف تكون بلادكم؟ قال لها: إن في بلادنا الدُّورَ الواسعة الرَّحبة، والفواكه اليانعة اللذيذة، والمياه الغزيرة العذبة، والأطعمة الطيبة، واللحوم السمينة، والغنم الكثيرة، وكل شيء طيب، والخيرات الحسان اللاتي لا يكون مثلهن إلا في الجنة التي وصفها الله تعالى لعباده الصالحين. فقالت العجوز: قد سمعت هذا كله، فقل لي: هل يكون لكم من سلطان يحكم عليكم ويجور في حكمه وأنتم تحت يده؟ وإن أذنب أحد منكم أخذ أمواله وأتلفه؟ وإذا أراد أخرجكم من بيوتكم واستأصل شأفتكم؟ فقال لها الرجل: قد يكون ذلك. فقالت العجوز: إذًا والله يكون ذلك الطعام اللطيف، والعيش الظريف، والنِّعَم اللذيذة، مع الجور والظلم سمًّا ناقعًا، وتعود أطعمتنا مع الأمن درياقًا نافعًا؛ أَمَا سمعتَ أن أجلَّ النعيم بعد الإسلام الصحةُ والأمن، وإنما يكون هذا من عدل السلطان خليفة الله في أرضه وحُسْن سياسته، وكان مَن تقدَّمَ من السلاطين يحبُّ أن يكون له أدنى هيبة، بحيث إذا رأته الرعية خافوه، وسلطان هذا الزمان يحب أن يكون له أوفى سياسة وأتم هيبة؛ لأن الناس الآن ليسوا كالمتقدِّمين، وزماننا هذا زمان ذوي الوصف الذميم والخطب الجسيم؛ حيث اتصفوا بالسفاهة والقساوة، وانطووا على البغضاء والعداوة، وإذا كان السلطان والعياذ بالله تعالى بينهم ضعيفًا أو غير ذي سياسة وهيبة، فلا شك في أن ذلك يكون سببًا لخراب البلاد، وفي الأمثال: جور السلطان مائة سنة ولا جور الرعية بعضهم على بعض سنة واحدة. وإذا جارت الرعية سلَّطَ الله عليهم سلطانًا جائرًا ومَلِكًا قاهرًا، كما ورد في

الأخبار: أن الحَجَّاج بن يوسف رُفِعت إليه في بعض الأيام قصةٌ مكتوب فيها: اتقِّ الله ولا تُجِرْ على عباد الله كلَّ الجور. فلما قرأ القصة رقي المنبر وكان فصيحًا، فقال: أيها الناس، إن الله تعالى سلَّطَني عليكم بأعمالكم ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحجَّاج بن يوسف لما قرأ القصة، رقي المنبر وكان فصيحًا، فقال: أيها الناس، إن الله تعالى سلَّطَني عليكم بأعمالكم، فإنْ أنا متُّ فأنتم لا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال السيئة؛ لأن الله تعالى خلق أمثالي خلقًا كثيرًا، وإذا لم أكن أنا، كان مَن هو أكثر مني شرًّا وأعظم جورًا وأشد سطوةً، كما قال الشاعر في معنى ذلك:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللهِ فَوْقَهَا　　وَمَا ظَالِمٌ إِلَّا سَيُبْلَى بِأَظْلَمِ

والجور يخاف منه، والعدل أصلح كل شيء. نسأل الله أن يُصلِح أحوالنا.

حكاية الجارية تودُّد

ومما يُحكَى أنه كان ببغداد رجل ذو مقدار، وكان موسرًا بالمال والعقار، وهو من التجار الكبار، وقد وسَّع الله عليه دنياه، ولم يبلغه من الذرية ما يتمناه، ومضت عليه مدة من الزمان، ولم يُرزَق بإناثٍ ولا ذكران، فكَبِر سنُّه، ورَقَّ عَظْمه، وانحنى ظهره، وكثر وهنه وهمُّه، فخاف ذهابَ ماله ونسبه، إذا لم يكن له ولد يَرِثه ويُذكَر به؛ فتضرَّعَ إلى الله تعالى، وصام النهار وقام الليل، ونذر النذور لله تعالى الحي القيوم، وزار الصالحين، وأكثر التضرع إلى الله تعالى؛ فاستجاب الله له وقَبِل دعاه، ورحم تضرُّعه وشكواه، فما كان إلا قليل من الأيام حتى جامَعَ إحدى نسائه، فحملت منه في ليلتها ووقتها وساعتها، وأَتَمَّتْ أَشْهُرها ووضعت حملها، وجاءت بذَكَر كأنه فلقة قمر؛ فأوفى بالنذر شكرًا لله — عزَّ وجَلَّ — وأخرج الصدقات، وكسا الأرامل والأيتام. وليلة سابع الولادة سمَّاه

بأبي الحسن؛ فأرضعته المراضع، وحضنته الحواضن، وحملته المماليك والخدم إلى أن كَبُر ونشأ، وترعرع وانتشأ، وتعلَّم القرآن العظيم، وفرائض الإسلام وأمور الدين القويم، والخط والشعر والحساب، والرمي بالنشاب؛ فكان فريدَ دهْرِه وأحسنَ أهلِ زمانه وعصره، ذا وجه مليح، ولسان فصيح، يتهادى تمايلًا واعتدالًا، ويتزاهى تدلُّلًا واختيالًا، بخدٍّ أحمر، وجبين أزهر، وعذار أخضر، كما قال فيه بعض واصفيه:

بَدَا رَبِيعُ الْعِذَارِ لِلْحَدَقِ وَالْوَرْدُ بَعْدَ الرَّبِيعِ كَيْفَ بَقِي
أَمَا تَرَى النَّبْتَ فَوْقَ عَارِضِهِ بَنَفْسَجًا طَالِعًا مِنَ الْوَرَقِ

فأقام مع أبيه برهة من الزمن في أحسن حال، وأبوه به فَرِح مسرور، إلى أن بلغ مبالغ الرجال، فأجلسه أبوه بين يديه يومًا من الأيام، وقال له: يا ولدي، إنه قد قرب الأجل، وحانت وفاتي، ولم يَبْقَ غير لقاء الله عزَّ وجلَّ، وقد خلَّفت لك ما يكفيك إلى ولد الولد من المال المتين، والضِّياع والأملاك والبساتين؛ فاتَّقِ الله تعالى يا ولدي فيما خلَّفته لك، ولا تتبع إلا من رفدك. فلم يكن إلا قليل حتى مرض الرجل ومات، فجهَّزه ولده أحسن تجهيز، ودفنه ورجع إلى منزله، وقعد للعزاء أيامًا وليالي، وإذا بأصحابه قد دخلوا عليه وقالوا له: مَن خلَّف مثلك ما مات، وكل ما فات فقد فات، وما يصلح العزاء إلا للبنات والنساء المخدرات. ولم يزالوا به حتى دخل الحمام، ودخلوا عليه وفكُّوا حزنه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا الحسن ابن الخواجا لما دخل عليه أصحابه الحمام وفكُّوا حزنه، نسي وصيَّة أبيه، وذهل لكثرة المال، وظنَّ أن الدهر يبقى معه على حال، وأن المال ليس له زوال؛ فأكل وشرب، ولذَّ وطرب، وخلع ووهب، وجاد بالذهب، ولازَمَ أكل الدجاج، وفضَّ ختام الزجاج، وقهقهة القناني، واستماع الأغاني، ولم يزل على هذا الحال إلى أن مال المال وقعد الحال، وذهب ما كان لديه، وسُقِط في يدَيْه، ولم يَبْقَ له بعد أن أتلف ما أتلف، غير وصيفة خلَّفها له والده من جملة ما خلَّف، وكانت الوصيفة هذه ليس لها نظير في الحُسْن والجمال، والبهاء والكمال، والقدِّ والاعتدال، وهي ذات فنون وآداب، وفضائل تُستطاب، قد فاقت أهل عصرها وأوانها، وصارت أشهر من عَلَم في افتنانها، وزادت على المِلَاح بالعلم والعمل، والتثنِّي والميل مع كونها خماسية القد مقارنة للسعد، بجبينين كأنهما هلال شعبان، وحاجبين أزجين، وعينين كعيون غزلان، وأنفٍ كحد الحسام، وخدٍّ كأنه شقائق النعمان، وفمٍ كخاتم سليمان، وأسنانٍ كأنها عقود الجمان، وسرَّة تَسَع أوقية دهن بان، وخصر أَنْحَل من جسمِ مَنْ أضناه الهوى وأسقمه الكتمان، وردف أثقل من الكثبان، وبالجملة فهي في الجمال جديرة بقول مَن قال:

إِنْ أَقْبَلَتْ فَتَنَتْ بِحُسْنِ قَوَامِهَا ... أَوْ أَدْبَرَتْ قَتَلَتْ بِصَدِّ فِرَاقِهَا

شَمْسِيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ غُصْنِيَّةٌ ... لَيْسَ الْجَفَا وَالْبُعْدُ مِنْ أَخْلَاقِهَا

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَحْتَ جَيْبِ قَمِيصِهَا ... وَالْبَدْرُ فِي فَلَكٍ عَلَى أَطْوَاقِهَا

كأنها البدر الطالع والغزال الراتع، بنت تسعٍ وخمس، تُخجِل القمر والشمس، كما قال الشاعر البليغ الماهر:

شَبِيهَةُ الْبَدْرِ إِذَا مَا مَضَى   خَمْسٌ وَخَمْسٌ بَعْدَهَا أَرْبَعُ
مَا كَانَ ذَنْبِي حِينَ صَيَّرَتْنِي   شَبِيهَهُ أَوَّلَ مَا يَطْلَعُ

صافية الأديم، عاطرة النسيم، كأنها خُلِقت من النور وتكوَّنت من البلور، تورَّد منها الخد، واعتدل القوام والقد، كما قال فيها بعض واصفيها:

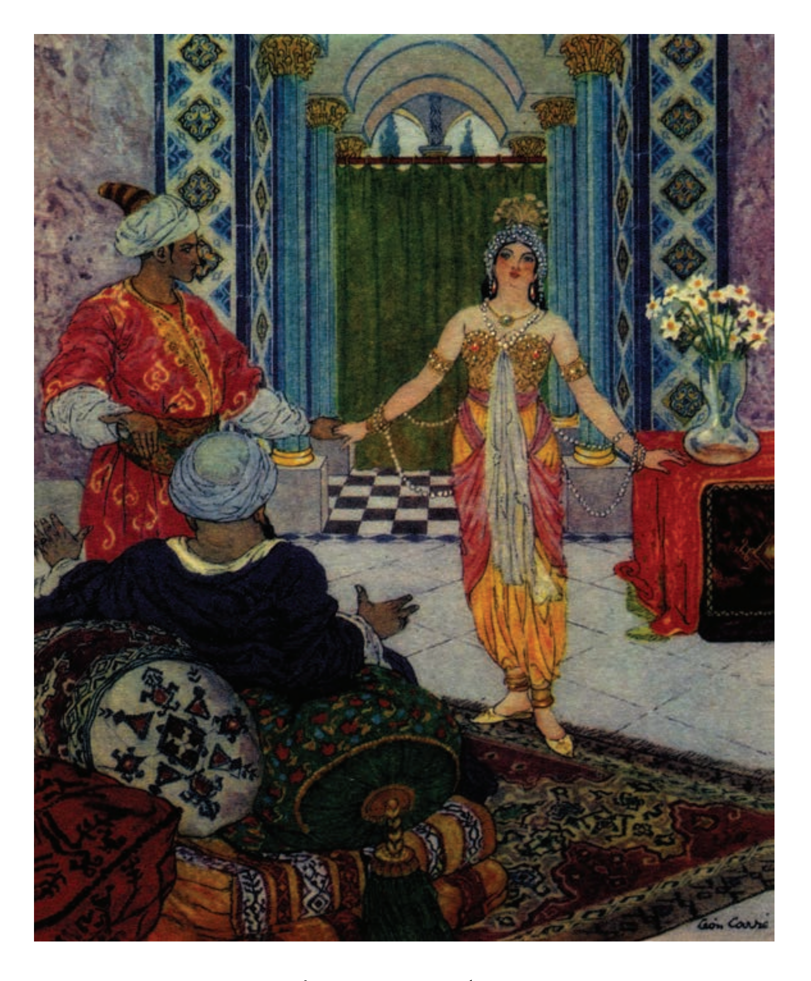
تَخْتَالُ بَيْنَ مُعَصْفَرٍ وَمُدَنَّرٍ   وَمُغَضَّضٍ وَمُوَرَّدٍ وَمُصَنْدَلِ
هِيَ زَهْرَةٌ فِي رَوْضَةٍ أَوْ دُرَّةٌ   فِي شَمْسِهِ أَوْ صُورَةٌ فِي هَيْكَلِ
هَيْفَاءُ إِنْ قَالَ الْقَوَامُ لَهَا: انْهَضِي   قَالَتْ رَوَادِفُهَا: قِفِي وَتَمَهَّلِي
وَإِذَا طَلَبْتُ الْوَصْلَ قَالَ جَمَالُهَا   جُودِي وَقَالَ دَلَالُهَا: لَا تَفْعَلِي
سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْمَلَاحَةَ حَظَّهَا   وَنَصِيبُ عَاشِقِهَا كَلَامُ الْعُذَّلِ

تسلب مَن يراها بحُسْن جمالها، وبريق ابتسامها، وترميه من عيونها بنبل سهامها، وهي مع هذا كله فصيحة الكلام حَسَنة النظام. فلمَّا نفَدَ جميعُ ماله، وتبيَّن سوءُ حاله، ولم يَبْقَ معه غير هذه الجارية، أقام ثلاثة أيام وهو لم يَذُقْ طَعْمَ طعام، ولم يسترح في منامٍ. فقالت له الجارية: يا سيدي، احملني إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت لسيدها: يا سيدي، احملني إلى هارون الرشيد الخامس من بني العباس، واطلب ثمني منه عشرة آلاف دينار، فإنِ استغلاني فقُلْ له: يا أمير المؤمنين، وصيفتي أكثر من ذلك، فاختبرها يعظُم قدرها في عينك؛ لأن هذه الجارية ليس لها نظير، ولا تصلح إلا لمثلك. ثم قالت له: إياك يا سيدي أن تبيعني بدون ما قلت لك من الثمن؛ فإنه قليل في مثلي. وكان سيد الجارية لا يعلم قدرها، ولا يعرف أنها ليس لها نظير في زمانها. ثم إنه حملها إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد وقدَّمها له، وذكر ما قالت، فقال لها الخليفة: ما اسمك؟ قالت: اسمي تودُّد. قال: يا تودُّد، ما تحسنين من العلوم؟ قالت: يا سيدي، إني أعرف النحو، والشعر، والفقه، والتفسير، واللغة، وأعرف فن الموسيقى، وعلم الفرائض، والحساب، والقسمة، والمساحة، وأساطير الأولين، وأعرف القرآن العظيم، وقد قرأته للسبع وللعشر وللأربع عشرة، وأعرف عدد سوره وآياته وأحزابه وأنصافه وأرباعه وأثمانه وأعشاره، وسجداته وعدد أحرفه، وأعرف ما فيه من الناسخ والمنسوخ، والمدنية والمكية، وأسباب التنزيل، وأعرف الحديث الشريف درايةً وروايةً، المسند منه والمرسَل، ونظرت في علوم الرياضة والهندسة، والفلسفة وعلم الحكمة والمنطق، والمعاني والبيان، وحفظت كثيرًا من العلم، وتعلَّقْتُ بالشعر، وضربت العود، وعرفت مواضع النغم فيه، ومواقع حركات أوتاره وسكناتها؛ فإنْ غنَّيتُ ورقصتُ فتنتُ، وإن تزيَّنْتُ وتطيَّبْتُ قتلتُ، وبالجملة فإني وصلت إلى شيءٍ لم يعرفه إلا الراسخون في العلم.

فلما سمع الخليفة هارون الرشيد كلامها على صِغَر سنِّها، تعجَّبَ من فصاحة لسانها، والتفت إلى مولاها، وقال: إني أُحضِر مَن يناظرها في جميع ما ادَّعته، فإنْ أجابَتْ دفعتُ لك ثمنها وزيادة، وإن لم تُجِبْ فأنت أولى بها. فقال مولاها: يا أمير المؤمنين، حبًّا



وكان سيد الجارية لا يعلم قَدْرها، فحمَلها إلى أمير المؤمنين وقدَّمَها له.

وكرامة. فكتب أمير المؤمنين إلى عامل البصرة بأن يرسل إليه إبراهيم بن سيَّار النظَّام، وكان أعظم أهل زمانه في الحجة والبلاغة والشعر والمنطق، وأمره أن يُحضِر القرَّاء، والعلماء، والأطباء، والمنجمين، والحكماء، والمهندسين، والفلاسفة؛ وكان إبراهيم أعلم من الجميع. فما كان إلا قليل حتى حضروا دار الخلافة، وهم لا يعلمون الخبر، فدعاهم أمير المؤمنين إلى مجلسه، وأمرهم بالجلوس فجلسوا، ثم أمر أن تحضر الجارية تودُّد فحضرت،

وأظهرت نفسها وهي كأنها كوكب دري، فوُضِع لها كرسي من ذهب، فسلَّمت ونطقت بفصاحة لسان، وقالت: يا أمير المؤمنين، مُر مَنْ حضر من العلماء، والقرَّاء، والأطباء، والمنجمين، والحكماء، والمهندسين، والفلاسفة؛ أن يناظروني. فقال لهم أمير المؤمنين: أريد منكم أن تناظروا هذه الجارية في أمر دينها، وأن تدحضوا حجتها في كل ما ادَّعَتْه. فقالوا: السمع والطاعة لله، ولك يا أمير المؤمنين. فعند ذلك أطرقت الجارية وقالت: أيكم الفقيه العالم المقرِئ المحدِّث؟ فقال أحدهم: أنا ذلك الرجل الذي طلبتِ. قالت له: اسأل عمَّا شئتَ. قال لها: أنت قرأتِ كتابَ الله العزيز، وعرفتِ ناسخه ومنسوخه، وتدبرت آياته وحروفه؟ قالت: نعم. فقال لها: أسألك عن الفرائض الواجبة، والسنن القائمة، فأخبريني أيتها الجارية عن ذلك، ومَن ربك؟ ومَن نبيك؟ ومَن إمامك؟ وما قبلتك؟ وما إخوانك؟ وما طريقتك؟ وما منهاجك؟ قالت: الله ربي، ومحمد ﷺ نبيي، والقرآن إمامي، والكعبة قبلتي، والمؤمنون إخواني، والخير طريقتي، والسنة منهاجي. فتعجَّبَ الخليفة من قولها، ومن فصاحة لسانها على صِغَر سنها، ثم قال لها: أيتها الجارية، أخبريني بِمَ عرفتِ الله تعالى؟ قالت: بالعقل. قال: وما العقل؟ قالت: العقل عقلان؛ عقل موهوب، وعقل مكسوب … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: العقل عقلان؛ موهوب ومكسوب؛ فالعقل الموهوب هو الذي خلقه الله — عزَّ وجلَّ — يهدي به مَن يشاء من عباده، والعقل المكسوب هو الذي يكسبه المرء بتأدُّبه وحُسْن معرفته. فقال لها: أحسنتِ. ثم قال: أين يكون العقل؟ قالت: يقذفه الله في القلب، فيصعد شعاعه في الدماغ حتى يستقر. قال لها: أحسنتِ. ثم قال: أخبريني بِمَ عرفتِ النبي ﷺ؟ قالت: بقراءة كتاب الله تعالى، وبالآيات والدلالات، والبراهين والمعجزات. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن الفرائض الواجبة، والسنن القائمة. قالت: أما الفرائض الواجبة فخمس: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام مَن استطاع إليه سبيلًا؛ وأما السُّنَن القائمة فهي أربع: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، وهن يبنين العمر والأمل، وليس يعلم ابن آدم أنهن يهدمن الأجل. قال: أحسنتِ، فأخبريني ما شعائر الإيمان؟ قالت: شعائر الإيمان: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، واجتناب الحرام. قال: أحسنتِ، فأخبريني بأي شيء تقومين إلى الصلاة؟ قالت: بنية العبودية مُقِرَّة بالربوبية. قال: فأخبريني كم فرَضَ الله عليك قبل قيامك على الصلاة؟ قالت: الطهارة، وستر العورة، واجتناب الثياب المتنجسة، والوقوف على مكان طاهر، والتوجُّه للقبلة، والقيام، والنية، وتكبيرة الإحرام. قال: أحسنتِ، فأخبريني بِمَ تخرجين من بيتك إلى الصلاة؟ قالت: بنية العبادة. قال: فبأيِّ نية تدخلين المسجد؟ قالت: بنية الخدمة. قال: فبماذا تستقبلين القبلة؟ قالت: بثلاث فرائض وسُنَّة. قالت: أحسنتِ، فأخبريني ما مبدأ الصلاة؟ وما تحليلها؟ وما تحريمها؟ قالت: مبدأ الصلاة الطهور، وتحريمها تكبيرة

الإحرام، وتحليلها السلام من الصلاة. قال: فماذا يجب على مَن تركها؟ قالت: رُوِي في الصحيح: «مَن ترَكَ الصلاةَ عامدًا متعمِّدًا من غير عذرٍ، فلا حظَّ له في الإسلام.» وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما ذكرَتِ الحديث الشريف قال لها الفقيه: أحسنتِ، فأخبريني عن الصلاة ما هي؟ قالت: الصلاة صلة بين العبد وربه، وفيها عشر خصال: تنوِّر القلب، وتُضِيء الوجه، وترضي الرحمن، وتغضب الشيطان، وتدفع البلاء، وتكفي شر الأعداء، وتُكثِر الرحمة، وتدفع النقمة، وتقرِّب العبد من مولاه، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي من الواجبات المفروضات المكتوبات، وهي عماد الدين. قال: أحسنتِ، فأخبريني ما مفتاح الصلاة؟ قالت: الوضوء. قال: فما مفتاح الوضوء؟ قالت: التسمية. قال: فما مفتاح التسمية؟ قالت: اليقين. قال: فما مفتاح اليقين؟ قالت: التوكُّل. قال: فما مفتاح التوكل؟ قالت: الرجاء. قال: فما مفتاح الرجاء؟ قالت: الطاعة. قال: فما مفتاح الطاعة؟ قالت: الاعتراف لله تعالى بالوحدانية والإقرار له بالربوبية. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن فروض الوضوء. قالت: ستة أشياء على مذهب الإمام الشافعي محمد بن إدريس رضي الله عنه: النية، وغسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح بعض الرأس، وغسل الرجلين مع الكعبين، والترتيب؛ وسُنَّتُه عشرة أشياء: التسمية، وغسل الكفين قبل إدخالهما الإناء، والمضمضة، والاستنشاق، ومسح جميع الرأس، ومسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما بماء جديد، وتخليل اللحية الكثَّة، وتخليل أصابع اليدين والرجلين، وتقديم اليمنى على اليسرى، والطهارة ثلاثًا ثلاثًا، والموالاة. فإذا فرغ من الوضوء قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوَّابين واجعلني من المتطهرين، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ فقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قالها عقب كل وضوء، فُتِحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء.»

قال: أحسنتِ، فإذا أراد الإنسان الوضوء ماذا يكون عنده من الملائكة والشياطين؟ قالت: إذا تهيَّأَ الإنسان للوضوء أتَتِ الملائكة عن يمينه، والشياطين عن شماله؛ فإذا ذكر الله تعالى في ابتداء الوضوء فرَّتْ منه الشياطين، واستولت عليه الملائكة بخيمة من نور لها أربعة أطناب، مع كل طنب ملك يسبِّح الله تعالى ويستغفِر له ما دام في إنصات أو ذِكْر، فإن لم يذكر الله — عزَّ وجلَّ — عند ابتداء الوضوء ولم يُنصِت، استولَتْ عليه الشياطين، وانصرفت عنه الملائكة، ووسوَسَ له الشيطان حتى يدخل عليه الشك والنقص في وضوئه؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «الوضوء الصالح يطرد الشيطان، ويؤمن من جور السلطان.» وقال أيضًا: «مَن نزلت عليه بلية وهو على غير وضوء، فلا يلومَنَّ إلا نفسه.» قال: أحسنتِ، فأخبريني عمَّا يفعل الشخص إذا استيقظ من منامه. قالت: إذا استيقظ الشخص من منامه، فليغسل يدَيْه ثلاثًا قبل إدخالهما الإناء. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن فروض الغُسْل وعن سُنَنه؟ قالت: فروض الغُسْل: النية، وتعميم البدن بالماء؛ أيْ إيصال الماء إلى جميع الشعر والبشرة، وأما سُنَنه: فالوضوء قبله، والتدليك، وتخليل الشعر، وتأخير غسل الرجلين في قول ... إلى آخِر الغُسْل. قال: أحسنتِ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما أخبرت الفقيه عن فروض الغُسْل وسُنَنه، قال: أحسنتِ، فأخبريني عن أسباب التيمُّم، وفروضه، وسُنَنه. قالت: أما أسبابه فسبعة: فَقْدُ الماء، والخوف، والحاجة إليه، وإضلاله في رَحْله، والمرض، والجبيرة، والجراح. وأما فروضه فأربعة: النية، والتراب، وضربة للوجه، وضربة لليدين. وأما سُنَنه: فالتسمية، وتقديم اليمنى على اليسرى. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن شروط الصلاة، وعن أركانها، وعن سُنَنها. قالت: أما شروطها فخمسة أشياء: طهارة الأعضاء، وستر العورة، ودخول الوقت يقينًا أو ظنًّا، واستقبال القبلة، والوقوف على مكان طاهر. وأما أركانها: فالنية، وتكبيرة الإحرام، والقيام مع القدرة، وقراءة الفاتحة وبسم الله الرحمن الرحيم آية منها على مذهب الإمام الشافعي، والركوع والطمأنينة فيه، والاعتدال والطمأنينة فيه، والسجود والطمأنينة فيه، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والتشهُّد الأخير والجلوس له، والصلاة على النبي ﷺ فيه، والتسليمة الأولى، ونية الخروج من الصلاة في قول. وأما سُنَنها: فالأذان، والإقامة، ورفع اليدين عند الإحرام، ودعاء الافتتاح، والتعوُّذ، والتأمين، وقراءة السورة بعد الفاتحة، والتكبيرات عند الانتقالات، وقول سمع الله لَمَن حَمِده وربنا لك الحمد، والجهر في موضعه، والإسرار في موضعه، والتشهُّد الأول والجلوس له، والصلاة على النبي ﷺ فيه، والصلاة على الآل في التشهُّد الأخير، والتسليمة الثانية.

قال: أحسنتِ، فأخبريني في ماذا تجب الزكاة؟ قالت: تجب في الذهب، والفضة، والإبل، والبقر، والشاء، والحنطة، والشعير، والدخن، والذرة، والفول، والحمص، والأرز، والزبيب، والتمر. قال: أحسنتِ، فأخبريني في كم تجب الزكاة في الذهب؟ قالت: لا زكاة فيما دون عشرين مثقالًا، فإذا بلغَتِ العشرين ففيها نصف مثقال، وما زاد فبحسابه. قال: فأخبريني في كم تجب الزكاة في الوَرِق؟ قالت: ليس فيما دون مائتَيْ درهم زكاة،

فإذا بلغَتِ المائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فبحسابه. قال: أحسنتِ، فأخبريني في كم تجب الزكاة في الإبل؟ قالت: في كل خمس شاة إلى خمس وعشرين ففيها بنت مخاض. قال: أحسنتِ، فأخبريني في كم تجب الزكاة في الشياه؟ قالت: إذا بلغَتْ أربعين ففيها شاة. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن الصوم وفروضه. قالت: أما فروض الصوم: فالنية، والإمساك عن الأكل والشرب والجماع وتعمُّد القيِّ، وهو واجب على كل مكلَّف خالٍ عن الحيض والنفاس، ويجب برؤية الهلال أو بإخبار عدلٍ يقع في قلب المخبر صدقه، ومن واجباته تبييت النية. وأما سُنَنه: فتعجيل الفِطْر، وتأخير السحور، وترك الكلام إلا في الخير والذِّكْر وتلاوة القرآن. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن شيء لا يفسد الصوم. قالت: الأدهان، والاكتحال، وغبار الطريق، وابتلاع الريق، وخروج المني بالاحتلام، والنظر لامرأة أجنبية، والفصادة والحجامة، هذا كله لا يفسد الصوم. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن صلاة العيدين. قالت: ركعتان، وهما سُنَّة من غير أذان ولا إقامة، ولكن يقول الصلاة جامعة، ويكبِّر في الأولى سَبْعًا سوى تكبيرة الإحرام، وفي الثانية خمسًا سوى تكبيرة القيام على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما أخبرَتِ الفقيه عن صلاة العيدين قال لها: أحسنتِ، فأخبريني عن صلاة كسوف الشمس وخسوف القمر. قالت: ركعتان بغير أذان ولا إقامة، يأتي في كل ركعة بقيامين، وركوعين، وسجودين، ويجلس ويتشهَّد ويسلِّم. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن صلاة الاستسقاء. قالت: ركعتان بغير أذان ولا إقامة، ويتشهَّد ويسلِّم، ثم يخطب ويستغفر الله تعالى مكان التكبير في خطبتي العيدين، ويحول رداءه بأن يجعل أعلاه أسفله، ويدعو ويتضرَّع. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن صلاة الوتر. قالت: الوتر أقله ركعة واحدة، وأكثره إحدى عشرة. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن صلاة الضحى. قالت: الضحى أقلها ركعتان، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن الاعتكاف. قالت: هو سُنَّة. قال: فما شرطه؟ قالت: النية، وألَّا يخرج من المسجد إلا لحاجة، ولا يباشِر النساء، وأن يصوم ويترك الكلام. قال: أحسنتِ، فأخبريني بماذا يجب الحج؟ قالت: بالبلوغ، والعقل، والإسلام، والاستطاعة، وهو واجب في العمر مرة واحدة قبل الموت. قال: فما فروض الحج؟ قالت: الإحرام، والوقوف بعرفة، والطواف، والسعي، والحلق أو التقصير. قال: فما فروض العمرة؟ قالت: الإحرام بها، وطوافها، وسعيها. قال: فما فروض الإحرام؟ قالت: التجرُّد من المخيط، واجتناب الطيب، وترك حلق الرأس وتقليم الأظافر وقتل الصيد والنكاح. قال: فما سنن الحج؟ قالت: التلبية، وطواف القدوم والوداع، والمبيت بالمزدلفة وبمِنى، ورمي الجمار.

قال: أحسنتِ، فما الجهاد؟ وما أركانه؟ قالت: أما أركانه؛ فخروج الكُفَّار علينا، ووجود الإمام والعُدَّة، والثبات عند لقاء العدو. وأما سُنَنه؛ فهو التحريض على القتال لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن فروض البيع وسُنَنه. قالت: أما فروض البيع؛ فالإيجاب والقبول، وأن يكون المبيع مملوكًا

مُنتفَعًا به مقدورًا على تسليمه، وترك الربا. وأما سننه؛ فالإقالة، والخيار قبل التفرُّق لقوله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرَّقَا.» قال: أحسنتِ، فأخبريني عن شيء لا يجوز بيع بعضه ببعض. قالت: حفظتُ في ذلك حديثًا صحيحًا عن نافع عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن بيع التمر بالرطب، والتين الرطب باليابس، والقديد باللحم، والزبد بالسمن، وكل ما كان من صنف واحد مأكول فلا يجوز بيع بعضه ببعض. فلما سمع الفقيه كلامها، وعرف أنها ذكية فَطِنة حاذقة، عالمة بالفقه والحديث والتفسير وغير ذلك، قال في نفسه: لا بد من أن أتحيَّل عليها حتى أغلبها في مجلس أمير المؤمنين. فقال لها: يا جارية، ما معنى الوضوء في اللغة؟ قالت: الوضوء في اللغة النظافة، والخلوص من الأدناس. قال: فما معنى الصلاة في اللغة؟ قالت: الدعاء بخير. قال: فما معنى الغُسْل في اللغة؟ قالت: التطهير. قال: فما معنى الصوم لغةً؟ قالت: الإمساك. قال: فما معنى الزكاة لغةً؟ قالت: الزيادة. قال: فما معنى الحج لغةً؟ قالت: القصد. قال: فما معنى الجهاد؟ قالت: الدفاع. فانقطعت حجة الفقيه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الفقيه لما انقطعت حجته قام قائمًا على قدمَيْه وقال: اشهد عليَّ يا أمير المؤمنين بأن الجارية أعلم مني بالفقه. فقالت له الجارية: أسألك عن شيء فَأْتِني بجوابه سريعًا إنْ كنتَ عارفًا. قال: اسألي. قالت: فما سهام الدين؟ قال: هي عشرة: الأول الشهادة وهي الملة، الثاني الصلاة وهي الفطرة، الثالث الزكاة وهي الطهارة، الرابع الصوم وهو الجنة، الخامس الحج وهو الشريعة، السادس الجهاد وهو الكفاية، السابع والثامن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما الغيرة، التاسع الجماعة وهي الألفة، العاشر طلب العلم وهو الطريق الحميدة. قالت: أحسنتَ، وقد بقيتْ عليك مسألة، فما أصول الإسلام؟ قال: هي أربعة: صحة العقد، وصدق القصد، وحفظ الحد، والوفاء بالعهد. قالت: بقي مسألة أخرى، فإنْ أجبتَ وإلا أخذتُ ثيابك. قال: قولي يا جارية. قالت: فما فروع الإسلام؟ فسكَتَ ساعةً ولم يُجِب بشيء. فقالت: انزع ثيابك وأنا أفسِّرها لك. قال أمير المؤمنين: فَسِّريها، وأنا أنزع لك ما عليه من الثياب. قالت: هي اثنان وعشرون فرعًا: التمسُّك بكتاب الله تعالى، والاقتداء برسوله ﷺ، وكف الأذى، وأكل الحلال، واجتناب الحرام، ورد المظالم إلى أهلها، والتوبة، والفقه في الدين، وحب الخليل، واتباع التنزيل، وتصديق المرسلين، وخوف التبديل، والتأهُّب للرحيل، وقوة اليقين، والعفو عند القدرة، والقوة عند الضعف، والصبر عند المصيبة، ومعرفة الله تعالى، ومعرفة ما جاء به نبيه ﷺ، ومخالفة اللعين إبليس، ومجاهدة النفس ومخالفتها، والإخلاص لله. فلما سمع أمير المؤمنين ذلك منها، أمر بنزع ثياب الفقيه وطيلسانه، فنزعهما ذلك الفقيه، وخرج مقهورًا منها خجلًا من بين يدي أمير المؤمنين.

ثم قام لها رجل آخَر وقال: يا جارية، اسمعي مني مسائل قليلة. قالت له: قُلْ. قال: فما صحة التسليم؟ قالت: القدر المعلوم، والجنس المعلوم، والأجل المعلوم. قال: أحسنتِ،

فما فروض الأكل وسُنَنه؟ قالت: فروض الأكل الاعتراف بأن الله تعالى رزقه وأطعمه وسقاه، والشكر لله تعالى على ذلك. قال: فما الشكر؟ قالت: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خُلِق لأجله. قال: فما سُنَن الأكل؟ قالت: التسمية، وغسل اليدين، والجلوس على الورك الأيسر، والأكل بثلاث أصابع، والأكل مما يليك. قال: أحسنتِ، فأخبريني ما آداب الأكل؟ قالت: أن تصغِّر اللقمة، وتقلَّ النظرة إلى جليسك. قال: أحسنتِ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما سُئِلت عن آداب الأكل وذكرت الجواب، قال لها الفقيه السائل: أحسنتِ، فأخبريني عن عقائد القلب وأضدادها. قالت: هي ثلاث، وأضدادها ثلاث؛ الأولى: اعتقاد الإيمان، وضدها مجانبة الكفر؛ والثانية: اعتقاد السنة، وضدها مجانبة البدعة؛ والثالثة: اعتقاد الطاعة، وضدها مجانبة المعصية. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن شروط الوضوء. قالت: الإسلام، والتمييز، وطهور الماء، وعدم المانع الحسي، وعدم المانع الشرعي. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن الإيمان. قالت: الإيمان ينقسم إلى تسعة أقسام: إيمان بالمعبود، وإيمان بالعبودية، وإيمان بالخصوصية، وإيمان بالقبضتين، وإيمان بالقدر، وإيمان بالناسخ، وإيمان بالمنسوخ، وأن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشرِّه حلوه ومُرِّه. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن ثلاث تمنع ثلاثًا. قالت: نعم، رُوِي عن سفيان الثوري أنه قال: ثلاثٌ تُذهِب ثلاثًا: الاستخفاف بالصالحين يُذهِب الآخرة، والاستخفاف بالملوك يُذهِب الروح، والاستخفاف بالنفقة يُذهِب المال. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن مفاتيح السموات، وكم لها من باب؟ قالت: قال الله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس يعلم عدة أبواب السماء إلا الذي خلق السماء، وما من أحد من بني آدم إلا وله بابان في السماء؛ باب ينزل منه رزقه، وباب يصعد منه عمله، ولا يُغلَق باب رزقه حتى ينقطع أجله، ولا يُغلَق باب عمله حتى تصعد روحه.»

قال: أحسنتِ، فأخبريني عن شيء، وعن نصف شيء، وعن لا شيء. قالت: الشيء هو المؤمن، ونصف الشيء هو المنافق، واللاشيء هو الكافر. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن القلوب. قالت: قلب سليم، وقلب سقيم، وقلب منيب، وقلب نذير، وقلب منير؛ فالقلب السليم هو قلب الخليل، والقلب السقيم هو قلب الكافر، والقلب المنيب هو قلب المتقين الخائفين،

والقلب النذير هو قلب سيدنا محمد ﷺ، والقلب المنير هو قلب مَن يتبعه، وقلوب العلماء ثلاثة: قلب متعلِّق بالدنيا، وقلب متعلِّق بالآخرة، وقلب متعلِّق بمولاه. وقيل: إن القلوب ثلاثة: قلب معلَّق وهو قلب الكافر، وقلب معدوم وهو قلب المنافق، وقلب ثابت وهو قلب المؤمن. وقيل: هي ثلاثة: قلب مشروح بالنور والإيمان، وقلب مجروح من خوف الهجران، وقلب خائف من الخذلان. قال: أحسنتِ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما سألها الفقيه الثاني عن المسائل وأجابته، وقال لها: أحسنتِ. قالت: يا أمير المؤمنين، إنه قد سألني حتى عَيِيَ، وأنا أسأله مسألتين، فإن أتى بجوابهما فذاك، وإلا أخذت ثيابه وانصرف بسلام. فقال لها الفقيه: سليني عمَّا شئتِ. قالت: فما تقول في الإيمان؟ قال: إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يَكمُل المرء من الإيمان حتى يَكمُل فيه خمس خصال: التوكل على الله، والتفويض إلى الله، والتسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، وأن تكون أموره لله؛ فإنه مَن أَحَبَّ الله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان.» قالت: فأخبرني عن فرض الفرض، وعن فرضٍ في ابتداء كل فرض، وعن فرضٍ يحتاج إليه كل فرض، وعن فرضٍ يستغرق كل فرض، وعن سُنَّة داخلة في الفرض، وعن سُنَّة يتم بها الفرض. فسكت ولم يُجِب بشيء، فأمرها أمير المؤمنين بأن تفسِّرها، وأمره بأن ينزع ثيابه ويعطيها إياها، فعند ذلك قالت: يا فقيه، أما فرض الفرض فمعرفة الله تعالى، وأما الفرض في ابتداء كل فرض فهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأما الفرض الذي يحتاج إليه كل فرض فهو الوضوء، وأما الفرض المستغرق كل فرض فهو الغُسْل من الجنابة، وأما السُّنَّة الداخلة في الفرض فهي تخليل الأصابع، وتخليل اللحية الكثيفة، وأما السُّنَّة التي يتم بها الفرض فهي الاختتان. فعند ذلك تبيَّن عجز الفقيه، وقام على قدميه وقال: أشهد الله يا أمير المؤمنين أن هذه الجارية أعلم مني بالفقه وغيره. ثم نزع ثيابه وانصرف مقهورًا.

وأما حكايتها مع المقرئ، فإنها التفتت إلى مَن بقي من العلماء الحاضرين وقالت: أيكم الأستاذ المقرئ العالِم بالقراءات السبع، والنحو، واللغة؟ فقام إليها المقرئ وجلس بين يديها، وقال لها: هل قرأتِ كتابَ الله تعالى، وأحكمتِ معرفة آياته، وناسخه ومنسوخه،

ومُحكَمَه ومتشابهه، ومكيِّه ومدنيِّه، وفهمت تفسيره، وعرفته على الروايات والأصول في القراءات؟ قالت: نعم. قال: أخبريني عن عدد سور القرآن، وكم فيه من عُشْر؟ وكم فيه من آية؟ وكم فيه من حرف؟ وكم فيه من سجدة؟ وكم فيه من نبي مذكور؟ وكم فيه من سورة مدنية؟ وكم فيه من سورة مكية؟ وكم فيه من طير؟ قالت: يا سيدي، أما سور القرآن فمائة وأربع عشرة سورة، المكيُّ منها سبعون سورة، والمدني أربع وأربعون سورة، وأما أعشاره فستمائة عُشْر وواحد وعشرون عُشْرًا، وأما الآيات فستة آلاف ومائتان وستٌّ وثلاثون آية، وأما كلماته فتسعة وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة، وأما حروفه فثلاثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفًا وستمائة وسبعون حرفًا، وللقارئ بكل حرف عشر حسنات، وأما السجدات فأربع عشرة سجدة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما سألها المقرئ عن القرآن أجابته وقالت له: وأما الأنبياء الذين ذُكِرت أسماؤهم في القرآن فخمسة وعشرون نبيًّا، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، واليسع، ويونس، ولوط، وصالح، وهود، وشعيب، وداود، وسليمان، وذو الكفل، وإدريس، وإلياس، ويحيى، وزكريا، وأيوب، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأما الطير فهن تسع. قال: ما اسمهن؟ قالت: البعوض، والنحل، والذباب، والنمل، والهدهد، والغراب، والجراد، والأبابيل، وطير عيسى — عليه السلام — وهو الخفاش. قال: أحسنتِ، فأخبريني أي سورة في القرآن أفضل؟ قالت: سورة البقرة. قال: فأي آية أعظم؟ قالت: آية الكرسي، وهي خمسون كلمة، مع كل كلمة خمسون بركة. قال: فأي آية فيها تسع آيات؟ قالت: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ (البقرة: ١٦٩) إلى آخِر الآية. قال: أحسنتِ، فأخبريني أي آية أعدل؟ قالت: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (النحل: ٩٠) قال: فأي آية أطمع؟ قالت: قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (المعارج: ٣٨) قال: فأي آية أرجى؟ قالت: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

قال: أحسنتِ، فأخبريني بأي قراءة تقرئين؟ قالت: بقراءة أهل الجنة، وهي قراءة نافع. قال: فأي آية كذب فيها الأنبياء؟ قالت: قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (يوسف: ١٨) وهم إخوة يوسف. قال: فأخبريني أي آية صدق فيها الكفار؟

قالت: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ (البقرة: ١١٣) وهم صدقوا جميعًا. قال: فأي آية قالها الله لنفسه. قالت: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦). قال: فأي آية فيها قول الملائكة؟ قالت: قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠). قال: فأخبريني عن أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وما جاء فيها. قالت: التعوُّذ واجبٌ أَمَرَ الله به عند القراءة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: ٩٨). قال: فأخبريني ما لفظ الاستعاذة؟ وما الخلاف فيها؟ قالت: منهم مَن يستعيذ بقوله أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ومنهم مَن يقول: أعوذ بالله القوي، والأحسنُ ما نطق به القرآن العظيم، ووردت به السُّنَّة، وكان ﷺ إذا استفتح القرآن قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ورُوِي عن نافع عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام يصلي في الليل قال: «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا.» ثم يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومن همزات الشياطين ونزعاتهم.» ورُوِي عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أنه قال: «أول ما نزل جبريل على النبي ﷺ علَّمه الاستعاذة، وقال له: قُلْ يا محمد: أعوذ بالله السميع العليم. ثم قُلْ: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ❋ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ١-٢).»

فلما سمع المقرئ كلامها تعجَّبَ من لفظها وفصاحتها، وعلمها وفضلها، ثم قال لها: يا جارية، ما تقولين في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل: ١)، هل هي آية من آيات القرآن؟ قالت: نعم، آية من القرآن في النمل، وآية بين كل سورتين، والاختلاف في ذلك بين العلماء كثير. قال: أحسنتِ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما أجابت المقرئ وقالت: إن بسم الله الرحمن الرحيم فيها اختلاف كثير بين العلماء، قال: أحسنتِ، فأخبريني لِمَ لا تُكتَب بسم الله الرحمن الرحيم في أول سورة براءة؟ قالت: لما نُزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بينه ﷺ وبين المشركين، وجَّهَ النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب — كرَّمَ الله وجهه — في يوم موسم بسورة براءة، فقرأها عليهم ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. قال: فأخبريني عن فضل بسم الله الرحمن الرحيم، وبركتها. قالت: رُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما قرأتُ بسم الله الرحمن الرحيم على شيء إلا كان فيه البركة.» وعنه ﷺ: «حلف ربُّ العزة بعزته لا تُسمَّى بسم الله الرحمن الرحيم على مريض إلا عُوفِي من مرضه.» وقيل: لما خلق الله العرش اضطرب اضطرابًا عظيمًا، فكتب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم، فسكن اضطرابه. ولما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم على رسول الله ﷺ قال: «أمنت من ثلاثة: من الخسف، والمسخ، والغرق.» وفضلها عظيم، وبركتها كثيرة يطول شرحها، وقد رُوِي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُؤتَى برجل يوم القيامة فيُحاسَب فلا يلقى له حسنة، فيُؤمَر به إلى النار فيقول: إلهي ما أنصفتَني. فيقول الله عز وجل: ولِمَ ذلك؟ فيقول: يا رب، لأنك سمَّيتَ نفسك الرحمن الرحيم، وتريد أن تعذِّبني بالنار. فقال الله جل جلاله: أنا سمَّيتُ نفسي الرحمن الرحيم، امضوا بعبدي إلى الجنة برحمتي، وأنا أرحم الراحمين.» قال: أحسنتِ، فأخبريني عن أول بدء بسم الله الرحمن الرحيم. قالت: لما أنزل الله تعالى القرآن كتبوا: باسمك اللهم. فلما أنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الإسراء: ١١٠) كتبوا: باسم الله الرحمن. فلما نزل: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣) كتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم.

فلما سمع المقرئ كلامها أطرق وقال في نفسه: إن هذا العجب عجيب، وكيف تكلَّمَتْ هذه الجارية في أول بَدْء بسم الله الرحمن الرحيم، والله لا بد من أن أتحيَّل عليها لعلي أغلبها. ثم قال لها: يا جارية، هل أنزل الله القرآن جملة واحدة أم أنزله متفرِّقًا؟ قالت: نزل به جبريل الأمين — عليه السلام — من عند رب العالمين على نبيه محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين، بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والأخبار والأمثال، في عشرين سنة آياتٍ متفرقات على حسب الوقائع. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ. قالت: في قول ابن عباس سورة العلق، وفي قول جابر بن عبد الله سورة المدثر، ثم أُنزِلت السور والآيات بعد ذلك. قال: فأخبريني عن آخِر آية نزلت. قالت: آخِر آية نزلت عليه آيةُ الربا، وقيل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِّ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١). وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما أجابت المقرئ عن آخِر آية نزلت في القرآن، قال لها: أحسنتِ، فأخبريني عن عدة الصحابة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ. قالت: هم أربعة؛ أُبَي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعثمان بن عفان، رضي الله عنهم أجمعين. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن القرَّاء الذين تُؤخَذ عنهم القراءات. قالت: هم أربعة؛ عبد الله بن مسعود، وأُبَي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم بن عبد الله. قال: فما تقولين في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (المائدة: ٣)؟ قالت: هي الأصنام التي تُنصب وتُعبَد من دون الله تعالى، والعياذ بالله تعالى. قال: فما تقولين في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (المائدة: ١١٦)؟ قالت: تعلم حقيقتي وما عندي، ولا أعلم ما عندك، والدليل على هذا قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١١٦)، وقيل: تعلم عيني ولا أعلم عينك. قال: فما تقولين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٨٧)؟ قالت: حدَّثني الشيخ — رحمه الله تعالى — عن الضحاك أنه قال: هم قوم من المسلمين قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونلبس المسوح، فنزلت هذه الآية. وقال قتادة: إنها نزلت في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن مصعب، وغيرهما، قالوا: نخصي أنفسنا، ونلبس الشعر، ونترهَّب. فنزلت هذه الآية. قال: فما تقولين في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾؟ قالت: الخليل المحتاج الفقير، وفي قول آخَر هو المحب المنقطع إلى الله تعالى الذي ليس لانقطاعه اختلال.

فلما رآها المقرئ تمرُّ في كلامها مرَّ السحاب، ولم تتوقف في الجواب، قام على قدميه وقال: أشهد الله يا أمير المؤمنين أن هذه الجارية أعلم مني بالقراءات وغيرها. فعند ذلك

قالت الجارية: أنا أسألك مسألة واحدة، فإن أتيتَ بجوابها فذاك، وإلا نزعتَ ثيابك. قال أمير المؤمنين: سَلِيه. فقالت: ما تقول في آية فيها ثلاثة وعشرون كافًا، وآية فيها ستة عشر ميمًا، وآية فيها مائة وأربعون عينًا، وحزب ليس فيه جلالة؟ فعجز المقرئ عن الجواب، فقالت: انزع ثيابك. فنزع ثيابه، ثم قالت: يا أمير المؤمنين، إن الآية التي فيها ستة عشر ميمًا في سورة هود، وهي قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ (هود: ٤٨) الآية، وإن الآية التي فيها ثلاثة وعشرون كافًا في سورة البقرة، وهي آية الدين، وإن الآية التي فيها مائة وأربعون عينًا في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ (الأعراف: ١٥٥) لكل رجل عينان، وإن الحزب الذي ليس فيه جلالة هو سورة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١)، والرحمن، والواقعة. فعند ذلك نزع المقرئ ثيابه التي عليه، وانصرف خجلًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٤٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما غلبت المقرئ ونزع ثيابه وانصرف خجلًا، تقدَّمَ إليها الطبيب الماهر وقال: فرغنا من علم الأديان فتيقظي لعلم الأبدان، وأخبريني عن الإنسان، وكيف خلقه؟ وكم في جسده من عرق؟ وكم من عظم؟ وكم من فقارة؟ وأين أول العروق؟ ولِمَ سُمِّيَ آدمُ آدمَ؟ قالت: سُمِّي آدم لأدمته؛ أيْ سُمْرة لونه، وقيل: لأنه خُلِق من أديم الأرض؛ أيْ ظاهر وجهها، صدره من تربة الكعبة، ورأسه من تربة المشرق، ورجلاه من تربة المغرب. وخلق الله له سبعة أبواب في رأسه، وهي: العينان، والأذنان، والمنخران، والفم، وجعل له منفذين قُبُله ودُبُره، فجعل العينين حاسة النظر، والأذنين حاسة السمع، والمنخرين حاسة الشم، والفم حاسة الذوق، وجعل اللسان ينطق بما في ضمير الإنسان، وخَلق آدم مركبًا من أربعة عناصر، وهي: الماء، والتراب، والنار، والهواء؛ فكانت الصفراء طبع النار وهي حارَّة يابسة، والسوداء طبع التراب وهو بارد يابس، والبلغم طبع الماء وهو بارد رطب، والدم طبع الهواء وهو حار رطب. وخَلق في الإنسان ثلاثمائة وستين عرقًا، ومائتين وأربعين عظمًا، وثلاثة أرواح: حيواني، ونفساني، وطبيعي، وجعل لكلٍّ منها حكمًا، وخلق الله له قلبًا، وطحالًا، ورئة، وستة أمعاء، وكبدًا، وكليتين، وإليتين، ومخًّا، وعظمًا، وجلدًا، وخمس حواس: سامعة، وباصرة، وشامة، وذائقة، ولامسة، وجعل القلب في الجانب الأيسر من الصدر، وجعل المعدة أمام القلب، وجعل الرئة مروحةً للقلب، وجعل الكبد في الجانب الأيمن محاذية للقلب، وخلق ما دون ذلك من الحجاب والأمعاء، وركَّب ترائب الصدر وشبكها بالأضلاع.

قال: أحسنتِ، فأخبريني كم في رأس ابن آدم من بطن؟ قالت: ثلاثة بطون، وهي تشتمل على خمس قوى تُسمَّى الحواس الباطنية، وهي: الحس المشترك، والخيال، والمتصرفة، والواهمة، والحافظة. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن هيكل العظام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما قال لها الطبيب: أخبريني عن هيكل العظام. قالت: هو مؤلَّف من مائتين وأربعين عظمة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام: رأس، وجذع، وأطراف. أما الرأس: فتنقسم إلى جمجمة، ووجه؛ فالجمجمة مركَّبة من ثمانية عظام، ويضاف إليها عظميات السمع الأربع، والوجه ينقسم إلى فكٍّ علوي، وفكٍّ سفلي؛ فالعلوي يشتمل على إحدى عشرة عظمة، والسفلي عظمة واحدة، ويضاف إليه الأسنان، وهي اثنتان وثلاثون سنًّا، وكذا العظم اللامي. وأما الجذع فينقسم إلى سلسلة فقارية، وصدر وحوض، فالسلسلة مركَّبة من أربعة وعشرين عظمة تُسمَّى الفقار، والصدر مركَّب من القفص والأضلاع التي هي أربع وعشرون ضلعًا في كل جانب اثنتا عشرة، والحوض مركَّب من العظمين الحرقفيين والعجز والعصعص. وأما الأطراف فتنقسم إلى طرفين علويين، وطرفين سفليين؛ فالعلويان ينقسم كلٌّ منهما أولًا: إلى منكب مركب من الكتف، والترقوة، وثانيًا: إلى عضد، وهو عظمة واحدة، وثالثًا: إلى ساعد مركب من عظمتين هما: الكعبرة والزند، ورابعًا: إلى كف ينقسم إلى رسغ، ومشط، وأصابع، فالرسغ مركب من ثمانية عظام مصفوفة صفين، كلٌّ منهما يشتمل على أربعة عظام، والمشط يشتمل على خمسة عظام، والأصابع عدتها خمس، كلٌّ منها مركب من ثلاثة عظام تُسمَّى السلاميات، إلا الإبهام فإنها مركبة من اثنين فقط، والطرفان السفليان ينقسم كلٌّ منهما أولًا: إلى فخذ هو عظمة واحدة، وثانيًا: إلى ساق مركب من ثلاثة عظام: القصبة، والشظية، والرصفة، وثالثًا: إلى قدم ينقسم كالكف إلى رسغ، ومشط، وأصابع، فالرسغ مركَّب من سبعة عظام مصفوفة صفين: الأول فيه عظمان، والثاني فيه خمسة، والمشط مركب من خمسة عظام، والأصابع عدتها خمس، كل منها مركبة من ثلاث سلاميات، إلا الإبهام فمن سلاميَّين فقط.

قال: أحسنتِ، فأخبريني عن أصل العروق؟ قالت: أصل العروق الوتين، ومنه تتشعب العروق، وهي كثيرة لا يعلم عددها إلا الذي خلقها، وقيل إنها ثلاثمائة وستون عرقًا كما سبق، وقد جعل الله اللسان ترجمانًا، والعينين سراجين، والمنخرين منشقين، واليدين جناحين. ثم إن الكبد فيه الرحمة، والطحال فيه الضحك، والكليتين فيهما المكر، والرئة مروحة، والمعدة خزانة، والقلب عماد الجسد، فإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله. قال: أخبريني عن الدلالات والعلامات الظاهرة التي يُستدَل بها على المرض في الأعضاء الظاهرة والباطنة. قالت: نعم، إذا كان الطبيب ذا فهم نظر في أحوال البدن، استدلَّ بجس اليدين على الصلابة والحرارة واليبوسة والبرودة والرطوبة، وقد توجد في المحسوس دلالات على الأمراض الباطنة كصُفْرة العينين فإنها تدل على اليرقان، وتحقُّف الظهر فإنه يدل على داء الرئة. قال: أحسنتِ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما وصفت للطبيب العلامات الظاهرة قال لها: أحسنتِ، فما العلامات الباطنة؟ قالت: إن الوقوف على الأمراض بالعلامات الباطنة يُؤخَذ من ستة قوانين: الأول من الأفعال، والثاني مما يُستفرَغ من البدن، والثالث من الوجع، والرابع من الموضع، والخامس من الورم، والسادس من الأعراض. قال: أخبريني بِمَ يصل الأذى إلى الرأس؟ قالت: بإدخال الطعام على الطعام قبل هضم الأول، والشبع على الشبع؛ فهو الذي أفنى الأمم، فمَن أراد البقاء فَلْيباكر بالغداء، ولا يتمسَّ بالعشاء، وليقلَّ من مجامعة النساء، وليخفِّف الردى؛ أيْ لا يُكثِر الفصد ولا الحجامة، وأن يجعل بطنه ثلاثة أثلاث: ثلث للطعام، وثلث للماء، وثلث للنفس؛ لأن مصران بني آدم ثمانية عشر شبرًا، يجب أن يجعل ستة للطعام، وستة للشراب، وستة للنفس، وإذا مشى برفق كان أوفق له، وأجمل لبدنه، وأكمل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الإسراء: ٣٧). قال: أحسنتِ، فأخبريني ما علامة الصفراء، وماذا يُخاف منها؟ قالت: تُعرَف بصفرة اللون، ومرارة الفم، والجفاف، وضعف الشهوة، وسرعة النبض، ويخاف صاحبها من الحمى المحرقة، والسرسام، والجمرة، واليرقان، والورم، وقروح الأمعاء، وكثرة العطش؛ فهذه علامات الصفراء. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن علامات السوداء، وماذا يُخاف على صاحبها إذا غلبَتْ على البدن؟ قالت: إنها تتولد منها الشهوة الكاذبة، وكثرة الوسوسة، والهم والغم، فينبغي حينئذٍ أن تُستفرَغ، وإلا تولَّدَ منها الماليخوليا، والجذام، والسرطان، وأوجاع الطحال، وقروح الأمعاء.

قال: أحسنتِ، فأخبريني إلى كم جزء ينقسم الطب؟ قالت: ينقسم إلى جزأين؛ أحدهما علم تدبير الأبدان المريضة، والآخَر كيفية ردها إلى حال صحتها. قال: فأخبريني عن وقتٍ

يكون شرب الأدوية فيه أنفع منه في غيره؟ قالت: إذا جرى الماء في العود، وانعقد الحب في العنقود، وطلع سعد السعود، فقد دخل وقت نَفْع شرب الدواء وطَرْد الداء. قال: فأخبريني عن وقتٍ إذا شرب فيه الإنسان من إناء جديد يكون شرابه أهنأ وأمرأ منه في غيره، وتصعد له رائحة طيبة زكية. قالت: إذا صبر بعد أكل الطعام ساعة، فقد قال الشاعر:

لَا تَشْرَبَنْ مِنْ بَعْدِ أَكْلِكَ عَاجِلًا فَتَسُوقَ جِسْمَكَ لِلْأَذَى بِزِمَامِ
وَاصْبِرْ قَلِيلًا بَعْدَ أَكْلِكَ سَاعَةً فَعَسَاكَ تَظْفَرُ يَا أَخِي بِمُرَامِ

قال: فأخبريني عن طعام لا تتسبَّب عنه أسقام. قالت: هو الذي لا يُطعَم إلا بعد الجوع، وإذا طُعم لا تمتلئ منه الضلوع، لقول جالينوس الحكيم: مَن أراد إدخال الطعام فَلْيُبْطِئ، ثم لا يُخْطِئ. ولنختم بقوله عليه الصلاة والسلام: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأصل كل داء البردة.» يعني التخمة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما قالت للحكيم: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء ...» الحديث. قال لها: فما تقولين في الحمَّام؟ قالت: لا يدخله شبعان، وقد قال النبي ﷺ: «نِعْمَ البيت الحمام، ينظِّف الجسد، ويذكر النار.» قال: فأي الحمامات أحسن ماءً؟ قالت: ما عَذُب ماؤه، واتَّسَع فضاؤه، وطاب هواؤه، بحيث تكون أهويته أربعة: خريفي، وصيفي، وشتوي، وربيعي. قال: فأخبريني أي الطعام أفضل؟ قالت: ما صنعَتِ النساء، وقلَّ فيه الفناء، وأكلته بالهناء، وأفضل الطعام الثريد لقوله عليه الصلاة والسلام: «فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على سائر النساء.» قال: فأي الأُدم أفضل؟ قالت: اللحم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الأُدم اللحم؛ لأنه لذة الدنيا والآخرة.» قال: فأي اللحم أفضل؟ قالت: الضأن، ويُجتنب القديد؛ لأنه لا فائدة فيه. قال: فأخبريني عن الفاكهة. قالت: كُلْها في إقبالها، واتركها إذا انقضى زمانها. قال: فما تقولين في شرب الماء؟ قالت: لا تشربه شربًا، ولا تعبه عبًّا فإنه يؤذيك صداعه، ويشوش عليك من الأذى أنواعه، ولا تشربه عقب خروجك من الحمام، ولا عقب الجماع، ولا عقب الطعام، إلا بعد مُضِي خمس عشرة درجة للشاب، وللشيخ بعد أربعين درجة، ولا عقب يقظتك من المنام. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن شرب الخمر؟ قالت: أَفَلَا يكفيك زاجرًا ما جاء في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)، وقد قال الشاعر:

يَا شَارِبَ الْخَمْرِ أَمَا تَسْتَحِي ... تَشْرَبُ شَيْئًا حَرَّمَ اللهُ
فَخَلِّهِ عَنْكَ وَلَا تَأْتِهِ ... فَفِيهِ حَقًّا عَنَّفَ اللهُ

وقال آخر في المعنى:

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى زَالَ عَقْلِي فَبِئْسَ الشُّرْبُ حَيْثُ الْعَقْلُ زَالَا

وأما المنافع التي فيها، فإنها تفتِّت حصى الكلى، وتقوِّي الأمعاء، وتنفي الهم، وتحرك الكرم، وتحفظ الصحة، وتعين على الهضم، وتصح البدن، وتُخرِج الأمراض من المفاصل، وتنقِّي الجسم من الأخلاط الفاسدة، وتولِّد الطرب والفرح، وتقوِّي الغريزية، وتشد المثانة، وتقوِّي الكبد، وتفتح السدد، وتحمِّر الوجه، وتنقِّي الفضلات من الرأس والدماغ، وتبطئ بالمشيب، ولولا الله — عز وجل — حرَّمها، لم يكن على وجه الأرض ما يقوم مقامها؛ وأما الميسر فهو القمار. قال: فأي شيء من الخمر أحسن؟ قالت: ما كان بعد ثمانين يومًا أو أكثر، وقد اعتُصِر من عنب أبيض، ولم يَشُبْه ماءٌ، ولا شيءَ على وجه الأرض مثلها. قال: فما تقولين في الحجامة؟ قالت: ذلك لِمَن كان ممتلئًا من الدم، وليس به نقصان في دمه، فمَن أراد الحجامة فَلْيحتجم في نقصان الهلال في يوم هو بلا غيم ولا ريح ولا مطر، ويكون في السابع عشر من الشهر، وإنْ وافَقَ يوم الثلاثاء كان أبلغ في النفع، ولا شيء أنفع من الحجامة للدماغ والعينين وتصفية الذهن. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما وصفت منافع الحجامة قال لها الحكيم: أخبريني عن أحسن الحجامة. قالت: أحسنها على الريق؛ فإنها تزيد في العقل وفي الحفظ، لما رُوِي عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان ما اشتكى إليه أحدٌ وجعًا في رأسه أو رجليه إلا قال له: احتجم. وإذا احتجم لا يأكل على الريق مالحًا؛ فانه يورث الجرب، ولا يأكل على إثره حامضًا. قال: فأي وقت تُكرَه فيه الحجامة؟ قالت: يوم السبت والأربعاء، ومَن احتجم فيهما فلا يلومنَّ إلا نفسه، ولا يُحتَجَم في شدة الحر، ولا في شدة البرد، وخيار أيامه أيام الربيع.

قال: أخبريني عن المجامعة. فلمَّا سمعت ذلك أطرقت وطأطأت رأسها، واستحيت إجلالًا لأمير المؤمنين، ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين ما عجزتُ بل خجلتُ، وإن جوابه على طرف لساني. قال لها: يا جارية تكلَّمِي. قالت له: إن النكاح فيه فضائل مزيدة، وأمور حميدة، منها: أنه يخفِّف البدن الممتلئ بالسوداء، ويسكِّن حرارة العشق، ويجلب المحبة، ويبسط القلب، ويقطع الوحشة، والإكثار منه في أيام الصيف والخريف أشد ضررًا منه في أيام الشتاء والربيع. قال: فأخبريني عن منافعه. قالت: إنه يزيل الهم والوسواس، ويسكِّن العشق والغضب، وينفع القروح، هذا إذا كان الغالب على الطبع والبرودة واليبوسية، وإلا فالإكثار منه يضعف النظر، ويتولَّد منه وجع الساقين والرأس والظهر، وإياك إياك من مجامعة العجوز فإنها من القواتل، قال الإمام علي — كرَّم الله وجهه: «أربعٌ يقتلن ويُهرِمنَ البدن: دخول الحمام على الشبع، وأكل المالح، والمجامعة على الامتلاء، ومجامعة المريضة؛ فإنها تُضعف قوَّتك، وتُسقِم بدنك، والعجوز سم قاتل.» قال بعضهم: إياك أن تتزوج عجوزًا، ولو كانت أكثر من قارون كنوزًا. قال: فما أطيب الجماع؟ قالت: إذا كانت

المرأة صغيرة السن، مليحة القدِّ، حسنة الخد، كريمة الجد، بارزة النهد؛ فهي تزيدك قوَّة في صحة بدنك، وتكون كما قال فيها بعض واصفيها:

مَهْمَا لَحَظْتَ عَلِمْتَ مَا قَدْ تَبْتَغِي ... وَحْـيًـا بِـدُونِ إِشَـارَةٍ وَبَـيَـانِ
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى بَدِيعِ جَمَالِهَا ... أَغْنَتْ مَحَاسِنُهَا عَنِ الْبُسْتَانِ

قال: فأخبريني عن أي وقت يطيب فيه الجماع؟ قالت: إذا كان ليلًا فبعد هضم الطعام، وإذا كان نهارًا فبعد الغداء. قال: فأخبريني عن أفضل الفواكه. قالت: الرمان والأُترُجُّ. قال: فأخبريني عن أفضل البقول. قالت: الهندبا. قال: فما أفضل الرياحين؟ قالت: الورد والبنفسج. قال: فأخبريني عن قرارِ مَنِيِّ الرجل. قالت: إن في الرجل عرقًا يسقي سائر العروق، فيجتمع الماء من ثلاثمائة وستين عرقًا، ثم يدخل في البيضة اليسرى دمًا أحمر، فينطبخ من حرارة مزاج بني آدم ماءً غليظًا أبيضَ، رائحته مثل رائحة الطلع. قال: أحسنتِ، فأخبريني عن طير يُمنِي ويحيض. قالت: هو الخفاش؛ أي الوطواط. قال: فأخبريني عن شيء إذا حُبِس عاش، وإذا شمَّ الهواء مات. قالت: هو السمك. قال: فأخبريني عن شجاع يبيض. قالت: الثعبان. فعجز الطبيب من كثرة سؤاله وسكت. فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين، إنه سألني حتى عَيِيَ، وأنا أسأله مسألة واحدة، فإن لم يُجِب أخذت ثيابه حلالًا لي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما قالت لأمير المؤمنين: إنه سألني حتى عَيِي، وأنا أسأله مسألة واحدة، فإن لم يُجِب أخذت ثيابه حلالًا لي. قال لها الخليفة: سليه. فقالت له: ما تقول في شيء يشبه الأرض استدارةً، ويواري عن العيون فقاره وقراره، قليل القيمة والقدر، ضيق الصدر والنحر، مقيَّد وهو غير آبق، موثق وهو غير سارق، مطعون لا في القتال، مجروح لا في النضال، يأكل الدهر مرَّة، ويشرب الماء كثرة، وتارة يضرب من غير جناية، ويستخدم لا من كفاية، مجموع بعد تفرُّقه، متواضع لا من تملُّقه، حامل لا لولد في بطنه، مائل لا يسند إلى ركنه، يتسخ فيتطهر، ويصلي فيتغيَّر، يجامِع بلا ذكر، ويصارع بلا حذر، يريح ويستريح، ويُعَضُّ فلا يصيح، أكرم من النديم، وأبعد من الحميم، يفارق زوجته ليلًا ويعانقها نهارًا، مسكنه الأطراف في مساكن الأشراف. فسكت الطبيب ولم يُجِب بشيء، وتحيَّر في أمره، وتغيَّر لونه، وأطرق برأسه ساعة ولم يتكلم. فقالت: أيها الطبيب تكلم، وإلا فانزع ثيابك. فقام وقال: يا أمير المؤمنين، أشهد على أن هذه الجارية أعلم مني بالطب وغيره، ولا لي عليها طاقة. ونزع ما عليه من الثياب وخرج هاربًا؛ فعند ذلك قال لها أمير المؤمنين: فسِّري لنا ما قلتِه. فقالت: يا أمير المؤمنين، هذا الزر والعروة.

وأما ما كان من أمرها مع المنجم فإنها قالت: مَن كان منكم منجِّمًا فَلْيقم. فنهض إليها المنجم وجلس بين يديها، فلما رأته ضحكت وقالت: أنت المنجم الحاسب الكاتب؟ قال: نعم. قالت: اسأل عمَّا شئتَ، وبالله التوفيق. قال: أخبريني عن الشمس، وطلوعها، وأفولها. قالت: اعلم أن الشمس تطلع من عيون وتأفُل في عيون؛ فعيون الطلوع أجزاء المشارق، وعيون الأفول أجزاء المغارب، وكلتاهما مائة وثمانون جزءًا، قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥)؛ فالقمر سلطان

الليل، والشمس سلطان النهار، وهما مستبقان متداركان، قال الله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠). قال: فأخبريني إذا جاء الليل كيف يكون النهار، وإذا جاء النهار كيف يكون الليل؟ قالت: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

قال: فأخبريني عن منازل القمر. قالت: منازل القمر ثمانٍ وعشرون منزلة، وهنَّ: الشرطان، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، والرشاء؛ وهي مرتَّبة على حروف أبجد هوز إلى آخِرها، وفيها سر غامض لا يعلمه إلا الله — سبحانه وتعالى — والراسخون في العلم، وأما قسمتها على البروج الاثني عشر فهي أن تعطي كل برج منزلتين وثلث منزلة، فتجعل الشرطين والبطين وثلث الثريا للحمل، وثلثي الثريا مع الدبران وثلثي الهقعة للثور، وثلث الهقعة مع الهنعة والذراع للجوزاء، والنثرة والطرف وثلث الجبهة للسرطان، وثلثيها مع الزبرة وثلثي الصرفة للأسد، وثلثها مع العواء والسماك للسنبلة، والغفر والزباني وثلث الإكليل للميزان، وثلثي الإكليل مع القلب وثلثي الشولة للعقرب، وثلثها مع النعائم والبلدة للقوس، وسعد الذبائح وسعد بلع وثلث سعد السعود للجدي، وثلثي سعد السعود مع سعد الأخبية وثلثي المقدم للدلو، وثلث المقدم مع المؤخر والرشاء للحوت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما عدَّت المنازل وقسَّمتها على البروج قال لها المنجم: أحسنتِ، فأخبريني عن الكواكب السيَّارة، وعن طبائعها، وعن مكثها في البروج، والسعد منها والنحس، وأين بيوتها وشُرَفها وسقوطها؟ قالت: المجلس ضيق، ولكن سأخبرك. أما الكواكب فسبعة، وهي: الشمس، والقمر، وعطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل. فالشمس حارة يابسة نحيسة بالمقارنة سعيدة بالمنظر، تمكث في كل برج ثلاثين يومًا، والقمر بارد رطب سعيد يمكث في كل برج يومين وثلث يوم، وعطارد ممتزج سعد مع السعود، نحس مع النحوس، يمكث في كل برج سبعة عشر يومًا ونصف يوم، والزهرة معتدلة سعيدة تمكث في كل برج من البروج خمسة وعشرين يومًا، والمريخ نحس يمكث في كل برج عشرة أشهر، والمشتري سعد يمكث في كل برج سنة، وزحل بارد يابس نحس يمكث في كل برج ثلاثين شهرًا، والشمس بيتها الأسد وشرفها الحمل وهبوطها الدلو، والقمر بيته السرطان وشرفه الثور وهبوطه العقرب ووباله الجدي، وزحل بيته الجدي والدلو وشرفه الميزان وهبوطه الحمل ووباله السرطان والأسد، والمشتري بيته الحوت والقوس وشرفه السرطان وهبوطه الجدي ووباله الجوزاء والأسد، والزهرة بيتها الثور وشرفها الحوت وهبوطها الميزان ووبالها الحمل والعقرب، وعطارد بيته الجوزاء والسنبلة وشرفه السنبلة وهبوطه الحوت ووباله الثور، والمريخ بيته الحمل والعقرب وشرفه الجدي وهبوطه السرطان ووباله الميزان.

فلمَّا نظر المنجم إلى حذقها وعلمها وحُسْن كلامها وفهمها، ابتغى له حيلة يخجلها بها بين يدي أمير المؤمنين، فقال لها: يا جارية، هل ينزل في هذا الشهر مطر؟ فأطرقَتْ ساعة ثم تفكَّرَتْ طويلًا حتى ظنَّ أمير المؤمنين أنها عجزت عن جوابه، فقال لها المنجم: لِمَ لمْ تتكلمي؟ فقالت: لا أتكلم إلا إنْ أذِنَ لي في الكلام أميرُ المؤمنين. فقال لها أمير

المؤمنين: وكيف ذلك؟ قالت: أريد أن تعطيني سيفًا أضرب به عنقه لأنه زنديق. فضحك أمير المؤمنين وضحك مَن حوله ثم قالت: يا منجِّم، خمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، وقرأَتْ: ﴿إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣٤). قال لها: أحسنتِ، وإني والله ما أردتُ إلا اختبارك. فقالت له: اعلم أن أصحاب التقويم لهم إشارات وعلامات ترجع إلى الكواكب بالنظر إلى دخول السنة وللناس فيها تجارب. قال: وما هي؟ قالت: إن لكل يوم من الأيام كوكبًا يملكه، فإذا كان أول يوم من السنة يوم الأحد فهو للشمس، ويدل ذلك — والله أعلم — على الجور من الملوك والسلاطين والولاة وكثرة الوخم وقلة المطر، وأن تكون الناس في هرج عظيم، وتكون الحبوب طيبة إلا العدس فإنه يعطب، ويفسد العنب، ويغلو الكتان، ويرخص القمح من أول طوبة إلى آخِر برمهات، ويكثر القتال بين الملوك، ويكثر الخير في تلك السنة والله أعلم. قال: فأخبريني عن يوم الإثنين. قالت: هو للقمر، ويدل ذلك على صلاح ولاة الأمور والعُمَّال، وأن تكون السنة كثيرة الأمطار وتكون الحبوب طيبة، ويفسد بذر الكتان، ويرخص القمح في شهر كيهك، ويكثر الطاعون ويموت نصف الدواب من الضأن والمعز، ويكثر العنب، ويقل العسل، ويرخص القطن، والله أعلم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما فرغت من بيان يوم الإثنين، قال لها: أخبريني عن يوم الثلاثاء. قالت: هو للمريخ، ويدل ذلك على موت كبار الناس، وكثرة الفناء، وإهراق الدماء، والغلاء في الحَب، وقلة الأمطار، وأن يكون السمك قليلًا، ويزيد في أيام وينقص في أيام، ويرخص العسل والعدس، ويغلو بذر الكتان في تلك السنة، وفيها يفلح الشعير دون سائر الحبوب، ويكثر القتال بين الملوك، ويكون الموت بالدم، ويكثر موت الحمير، والله أعلم. قال: فأخبريني عن يوم الأربعاء. قالت: هو لعطارد، ويدل ذلك على هرج عظيم يقع في الناس، وعلى كثرة العدو، وأن تكون الأمطار معتدلة، وأن يفسد بعض الزرع، وأن يكثر موت الدواب، وموت الأطفال، ويكثر القتل في البحر، ويغلو القمح من برمودة إلى مسرى، وترخص بقية الحبوب، ويكثر الرعد والبرق، ويغلو العسل، ويكثر طلع النخل، ويكثر الكتان والقطن، ويغلو الفجل والبصل، والله أعلم. قال: أخبريني عن يوم الخميس. قالت: هو للمشتري، ويدل ذلك على العدل في الوزراء، والصلاح في القضاة والفقراء وأهل الدين، وأن يكون الخير كثيرًا، وتكثر الأمطار والثمار والأشجار والحبوب، ويرخص الكتان والقطن والعسل والعنب، ويكثر السمك، والله أعلم. قال: أخبريني عن يوم الجمعة؟ قالت: هو للزهرة، ويدل ذلك على الجور في كبار الجن، والتحدُّث بالزور والبهتان، وأن يكثر الندى، ويطيب الخريف في البلاد، ويكون الرخص في بلاد دون بلاد، ويكثر الفساد في البر والبحر، ويغلو بذر الكتان، ويغلو القمح في هاتور، ويرخص في أمشير، ويغلو العسل، ويفسد العنب والبطيخ، والله أعلم. قال: فأخبريني عن يوم السبت. قالت: هو لزحل، ويدل ذلك على إيثار العبيد والروم، ومَن لا خير فيه ولا في قربه، وأن يكون الغلاء والقحط كثيرًا، ويكون الغيم كثيرًا، ويكثر الموت في بني آدم، والويل لأهل مصر والشام من جور السلطان، وتقل البركة من الزرع، وتفسد الحبوب، والله أعلم.

ثم إن المنجم أطرق وطأطأ رأسه، فقالت: يا منجم، أسألك مسألة واحدة، فإن لم تجب أخذت ثيابك. قال لها: قولي. قالت: أين يكون مسكن زحل؟ قال: في السماء السابعة. قالت: فالمشتري؟ قال: في السماء السادسة. قالت: فالمريخ؟ قال: في السماء الخامسة. قالت: فالشمس؟ قال: في السماء الرابعة. قالت: فالزهرة؟ قال: في السماء الثالثة. قالت: فعطارد؟ قال: في السماء الثانية. قالت: فالقمر؟ قال: في السماء الأولى. قالت: أحسنتَ، وبقي عليك مسألة واحدة. قال: اسألي. قالت: فأخبرني عن النجوم إلى كم جزء تنقسم؟ فسكت ولم يحر جوابًا. قالت: انزع ثيابك. فنزعها، ولما أخذتها قال لها أمير المؤمنين: فسِّرِي لنا هذه المسألة؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، هم ثلاثة أجزاء: جزءٌ معلَّق بسماء الدنيا كالقناديل، وهو ينير الأرض، وجزءٌ يُرمَى به الشياطين إذا استرقوا السمع، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: ٥)، والجزء الثالث معلَّقٌ بالهواء، وهو ينير البحار وما فيها. قال المنجم: بقي لنا مسألة واحدة، فإن أجابَتْ أقررتُ لها. قالت: قُلْ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أنه قال: أخبريني عن أربعة أشياء متضادة مترتبة على أربعة أشياء متضادة. قالت: هي الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، خلق الله من الحرارة النار، وطبعها حار يابس، وخلق من اليبوسة التراب، وطبعه بارد يابس، وخلق من البرودة الماء، وطبعه بارد رطب، وخلق من الرطوبة الهواء، وطبعه حار رطب، ثم خلق الله اثني عشر برجًا، وهي: الحمل، الثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وجعلها على أربع طبائع: ثلاثة نارية، وثلاثة ترابية، وثلاثة هوائية، وثلاثة مائية؛ فالحمل والأسد والقوس نارية، والثور والسنبلة والجدي ترابية، والجوزاء والميزان والدلو هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مائية. فقام المنجم وقال: اشهدوا على أنها أعلم مني. وانصرف مغلوبًا.

ثم قال أمير المؤمنين: أين الفيلسوف؟ فنهض إليها رجل وتقدَّم، وقال: أخبريني عن الدهر وحده وأيامه، وما جاء فيه. قالت: إن الدهر هو اسم واقع على ساعات الليل والنهار، وإنما هي مقادير جري الشمس والقمر في أفلاكهما، كما أخبر الله تعالى حيث قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٧–٣٨). قال: فأخبريني عن ابن آدم كيف يصل إليه الكفر؟ قالت: رُوِي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكفر في بني آدم يجري كما يجري الدم في عروقه، حيث يسب الدنيا والدهر، والليلة والساعة.» وقال عليه الصلاة والسلام: لا يسب أحدكم الدهر، فإن الدهر هو الله، ولا يسب أحدكم الدنيا فتقول: لا أعان الله مَن يسبني. ولا يسب أحدكم الساعة، فإن الساعة آتية لا ريب فيها، ولا يسب أحدكم الأرض فإنها آية؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (طه: ٥٥). قال: فأخبريني عن خمسة أكلوا وشربوا، وما خرجوا من ظهر ولا بطن. قالت: هم آدم،

وشمعون، وناقة صالح، وكبش إسماعيل، والطير الذي رآه أبو بكر الصديق في الغار. قال: فأخبريني عن خمسة في الجنة لا من الإنس، ولا من الجن، ولا من الملائكة. قالت: ذئب يعقوب، وكلب أصحاب الكهف، وحمار العزيز، وناقة صالح، ودلدل النبي ﷺ.

قال: أخبريني عن رجل صلى صلاة لا في الأرض ولا في السماء. قالت: هو سليمان حين صلَّى على بساطه وهو على الريح. قال: أخبريني عمَّن صلَّى صلاة الصبح، فنظر إلى أَمَة فحرمت عليه، فلما كان الظهر حلت له، فلما كان العصر حرمت عليه، فلما كان المغرب حلت له، فلما كان العشاء حرمت عليه، فلما كان الصبح حلت له. قالت: هذا رجل نظر إلى أَمَة غيره عند الصبح وهي حرام عليه، فلما كان الظهر اشتراها فحلت له، فلما كان العصر أعتقها فحرمت عليه، فلما كان المغرب تزوجها فحلت له، فلما كان العشاء طلقها فحرمت عليه، فلما كان الصبح راجعها فحلت له. قال: أخبريني عن قبر مشى بصاحبه. قالت: هو حوت يونس بن متى حين ابتلعه. قال: أخبريني عن بقعة واحدة طلعت عليها الشمس مرة واحدة، ولا تطلع عليها بعد إلى يوم القيامة؟ قالت: البحر حين ضربه موسى بعصاه فانفلق اثني عشر فرقًا على عدد الأسباط، وطلعت عليه الشمس، ولم تعد له إلى يوم القيامة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الفيلسوف قال بعد ذلك للجارية: أخبريني عن أول ذيل سحب على وجه الأرض. قالت: ذيل هاجر حياءً من سارة، فصارت سُنَّة في العرب. قال: أخبريني عن شيء يتنفس بلا روح. قالت: قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير: ١٨). قال: أخبريني عن حمام طائر أقبل على شجرة عالية، فوقع بعضه فوقها، وبعضه تحتها، فقالت التي فوق الشجرة للتي تحتها: إن طلعت منكن واحدة صرتن الثلث، وإن نزلت منَّا واحدة كنا مثلكن في العدد. قالت الجارية: كان الحمام اثنتي عشرة حمامة، فوقع منهن فوق الشجرة سبع، وتحتها خمس، فإذا طلعت واحدة صار الذي فوق قدر الذي تحت مرتين، ولو نزلت واحدة صار الذي تحت مساويًا للذي فوق، والله أعلم. فتجرَّدَ الفيلسوف من ثيابه، وخرج هاربًا.

وأما حكايتها مع النظام، فإن الجارية التفتت إلى العلماء الحاضرين، وقالت: أيكم المتكلم في كل فن وعلم؟ فقام إليها النظام وقال لها: لا تحسبيني كغيري. فقالت له: الأصح عندي أنك مغلوب؛ لأنك مدَّعِي، والله ينصرني عليك حتى أجرِّدك من ثيابك، فلو أرسلتَ من يأتيك بشيء تلبسه لَكان خيرًا لك. فقال: والله لأغلبنك وأجعلنك حديثًا يتحدَّث به الناس جيلًا بعد جيل. فقالت له الجارية: كفِّرْ عن يمينك. قال: أخبريني عن خمسة أشياء خلقها الله تعالى قبل خلق الخلق. قالت له: الماء، والتراب، والنوم، والظلمة، والثمار. قال: أخبريني عن شيء خلقه الله بيد القدرة. قالت: العرش، وشجرة طوبى، وآدم، وجنة عدن، فهؤلاء خلقهم الله بيد قدرته، وسائر المخلوقات قال لهم الله: كونوا فكانوا. قال: أخبريني عن أبيك في الإسلام. قالت: محمد ﷺ. قال: فمَن أبو محمد؟ قالت: إبراهيم خليل الله. قال: فما دين الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

قال: فأخبريني ما أولك وما آخرك؟ قالت: أولي نطفة مذرة، وآخِري جيفة قذرة، وأولي من التراب، وآخِري التراب، قال الشاعر:

خُلِقْتُ مِنَ التُّرَابِ فَصِرْتُ شَخْصًا فَصِيحًا فِي السُّؤَالِ وَفِي الْجَوَابِ
وَعُدْتُ إِلَى التَّرَابِ فَصِرْتُ فِيهِ لِأَنِّي قَدْ خُلِقْتُ مِنَ التُّرَابِ

قال: فأخبريني عن شيء أوله عود، وآخره روح. قالت: عصا موسى حين ألقاها في الوادي، فإذا هي حية تسعى بإذن الله تعالى. قال: فأخبريني عن قوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ (طه: ١٨). قالت: كان يغرسها في الأرض فتزهو وتثمر، وتظله من الحر والبرد، وتحمله إذا عيي، وتحرس له الغنم إذا نام من السباع. قال: أخبريني عن أنثى من ذكر، وذكر من أنثى. قالت: حواء من آدم، وعيسى من مريم. قال: فأخبريني عن أربع نيران: نار تأكل وتشرب، ونار تأكل ولا تشرب، ونار تشرب ولا تأكل، ونار لا تأكل ولا تشرب. قالت: أما النار التي تأكل ولا تشرب فهي نار الدنيا، وأما النار التي تأكل وتشرب فهي نار جهنم، وأما النار التي تشرب ولا تأكل فهي نار الشمس، وأما النار التي لا تأكل ولا تشرب فهي نار القمر. قال: أخبريني عن المفتوح وعن المغلق. قالت: يا نظام، المفتوح هو المسنون، والمغلق هو المفروض. قال أخبريني عن قول الشاعر:

وَسَاكِنِ رَمْسٍ طَعْمُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ إِذَا ذَاقَ مِنْ ذَاكَ الطَّعَامِ تَكَلَّمَا
يَقُومُ وَيَمْشِي صَامِتًا مُتَكَلِّمًا وَيَرْجِعُ لِلْقَبْرِ الَّذِي مِنْهُ قُوِّمَا
وَلَيْسَ بِحَيٍّ يَسْتَحِقُّ كَرَامَةً وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ يَسْتَحِقُّ التَّرَحُّمَا

قالت له: هو القلم. قال: فأخبريني عن قول الشاعر حيث قال:

مُلَمْلَمَةُ الْجَيْبَيْنِ مَوْرُودَةُ الدَّمِ مُخَمَّرَةُ الْأُذُنَيْنِ مَفْتُوحَةُ الْفَمِ
لَهَا صَنَمٌ كَالدِّيكِ يَنْقُرُ جَوْفَهَا تُسَاوِي إِذَا قَوَّمْتَهَا نِصْفَ دِرْهَمِ

قالت: هي الدواة. قال: فأخبريني عن قول الشاعر حيث قال:

أَلَا قُلْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْأَدَبْ وَكُلِّ فَقِيهٍ سَادَ فِي الْفَهْمِ وَالرُّتَبْ
أَلَا أَنْبِئُونِي أَيَّ شَيْءٍ رَأَيْتُمُو مِنَ الطَّيْرِ فِي أَرْضِ الْأَعَاجِمِ وَالْعَرَبْ
وَلَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَلَيْسَ لَهُ دَمُ وَلَيْسَ لَهُ رِيشٌ وَلَيْسَ لَهُ زَغَبْ

وَيُؤْكَلُ مَطْبُوخًا وَيُؤْكَلُ بَارِدًا وَيُؤْكَلُ مَشْوِيًّا إِذَا دُسَّ فِي اللَّهَبْ
وَيَبْدُو لَهُ لَوْنَانِ: لَوْنٌ كَفِضَّةٍ وَلَوْنٌ ظَرِيفٌ لَيْسَ يُشْبِهُهُ الذَّهَبْ
وَلَيْسَ يَرَى حَيًّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ أَلَا أَخْبِرُونِي إِنَّ هَذَا مِنَ الْعَجَبْ

قالت: لقد أطلتَ السؤال في بيضة قيمتها فلس. قال: أخبريني كم كلمة كلَّمَ الله موسى؟ قالت: رُوِي عن رسول الله ﷺ أنه قال: كلَّمَ الله موسى ألفَ كلمة وخمسمائة وخمس عشرة كلمة. قال: أخبريني عن أربعة عشر كلموا ربَّ العالمين. قالت: السموات السبع والأرضون السبع لما قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما قالت له الجواب قال لها: أخبريني عن آدم وأول خلقته. قالت: خلق الله آدم من طين، والطير من زبد، والزبد من بحر، والبحر من ظلمة، والظلمة من نور، والنور من حوت، والحوت من صخرة، والصخرة من ياقوتة، والياقوتة من ماء، والماء من القدرة؛ لقوله تعالى﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢). قال: فأخبريني عن قول الشاعر حيث قال:

وَآكِلَةٍ بِغَيْرِ فَمٍ وَبَطْنٍ ... لَهَا الْأَشْجَارُ وَالْحَيَوانَاتُ قُوتُ
فَإِنْ أَطْعَمْتَهَا انْتَعَشَتْ وَعَاشَتْ ... وَلَوْ أَسْقَيْتَهَا مَاءً تَمُوتُ

قالت: هي النار. قال: فأخبريني عن قول الشاعر حيث قال:

خَلِيلَانِ مَمْنُوعَانِ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ ... يَبِيتَانِ طُولَ اللَّيْلِ يَعْتَنِقَانِ
هُمَا يَحْفَظَانِ الْأَهْلَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ ... وَعِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَفْتَرِقَانِ

قالت: هما مصراعا الباب. قال: فأخبريني عن أبواب جهنم. قالت: سبعة، وهي ضمن بيتين من الشعر:

جَهَنَّمُ وَلَظًى ثُمَّ الْحَطِيمُ كَذَا ... عُدَّ السَّعِيرُ وَكُلُّ الْقَوْلِ فِي سَقَرِ
وَبَعْدَ ذَاكَ جَحِيمٌ ثُمَّ هَاوِيَةٌ ... فَذَاكَ عِدَّتُهُمْ فِي قَوْلِ مُخْتَصَرِ

قال: فأخبريني عن قول الشاعر حيث قال:

وَذَاتِ ذَوَائِـبَ تَـنْـجَـرُّ طُـولًا وَرَاءَهَا فِي الْمَجِيءِ وَفِي الذَّهَابِ
بِعَيْنٍ لَمْ تَذُقْ لِلنَّوْمِ طَعْمًا وَلَا ذَرَفَتْ لِدَمْعٍ ذِي انْسِكَابِ
وَلَا لَبِسَتْ مَدَى الْأَيَّامِ ثَوْبًا وَتَكْسُو النَّاسَ أَنْوَاعَ الثِّيَابِ

قالت: هي الإبرة. قال: فأخبريني عن الصراط ما هو، وما طوله، وما عرضه؟ قالت: أما طوله فثلاثة آلاف عام؛ ألف هبوط، وألف صعود، وألف استواء، وهو أحدُّ من السيف، وأرقُّ من الشَّعْر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما وصفت له الصراط، قال: أخبريني كم لنبينا محمد ﷺ من شفاعة؟ قالت: له ثلاث شفاعات. قال لها: هل كان أبو بكر أول مَن أسلم؟ قالت: نعم. قال: إن عليًّا أسلم قبل أبي بكر. قالت: إن عليًّا أتى النبي ﷺ وهو ابن سبع سنين، فأعطاه الله الهداية على صِغَر سنه، فما سجد لصنم قطُّ. قال: فأخبريني، أعليٌّ أفضل أمِ العباس؟ فعلمت أن هذه مكيدة لها، فإن قالت: علي أفضل من العباس، فما لها من عُذْر عند أمير المؤمنين! فأطرقت ساعةً وهي تارة تحمر وتارة تصفر، ثم قالت: تسألني عن اثنين فاضلين لكل واحد منهما فضل، فارجع بنا إلى ما كنَّا فيه. فلما سمعها الخليفة هارون الرشيد استوى قائمًا على قدميه وقال لها: أحسنتِ وربِّ الكعبة يا تودُّد. فعند ذلك قال لها إبراهيم النظام: أخبريني عن قول الشاعر حيث قال:

مُهَفْهَفَةُ الْأَذْيَالِ عَذْبٌ مَذَاقُهَا   تُحَاكِي الْقَنَا لَكِنْ بِغَيْرِ سِنَانِ
وَيَأْخُذْ كُلُّ النَّاسِ مِنْهَا مَنَافِعًا   وَتُؤْكَلُ بَعْدَ الْعَصْرِ فِي رَمَضَانِ

قالت: قصب السكر. قال: فأخبريني عن مسائل كثيرة؟ قالت: وما هي؟ قال: ما أحلى من العسل؟ وما أحد من السيف؟ وما أسرع من السم؟ وما لذة ساعة؟ وما سرور ثلاثة أيام؟ وما أطيب يوم؟ وما فرحة جمعة؟ وما الحق الذي لا ينكره صاحب الباطل؟ وما سجن القبر؟ وما فرحة القلب؟ وما كيد النفس؟ وما موت الحياة؟ وما الداء الذي لا يُداوَى؟ وما العار الذي لا ينجلي؟ وما الدابة التي لا تأوي إلى العمران، وتسكن الخراب، وتبغض بني آدم، وخلق فيها خلق من سبعة جبابرة؟ قالت له: اسمع جواب ما قلت، ثم انزع ثيابك حتى أفسِّر لك ذلك. قال لها أمير المؤمنين: فسِّري وهو ينزع ثيابه. قالت: أمَّا

ما هو أحلى من العسل فهو حب الأولاد البارين بوالديهم، وأما ما هو أَحَدُّ من السيف فهو اللسان، وأما ما هو أسرع من السم فهو عين المعيان، وأما لذة ساعة فهو الجِمَاع، وأما سرور ثلاثة أيام فهو النورة للنساء، وأما ما هو أطيب يوم فهو يوم الربح في التجارة، وأما فرحة جمعة فهو العروس، وأما الحق الذي لا ينكره صاحب الباطل فهو الميت، وأما سجن القبر فهو الولد السوء، وأما فرحة القلب فهي المرأة المطيعة لزوجها، وقيل اللحم حين ينزل على القلب، فإنه يفرح بذلك، وأما كيد النفس فهو العبد العاصي، وأما موت الحياة فهو الفقر، وأما الداء الذي لا يُداوَى فهو سوء الخُلُق، وأما العار الذي لا ينجلي فهو البنت السوء، وأما الدابة التي لا تأوي إلى العمران، وتسكن الخراب، وتبغض بني آدم، وخلق فيها خلق من سبعة جبابرة؛ فإنها الجرادة، رأسها كرأس الفرس، وعنقها كعنق الثور، وجناحها جناح النسر، ورجلها رجل الجمل، وذنبها ذنب الحية، وبطنها بطن العقرب، وقرنها قرن الغزال.

فتعجَّبَ الخليفة هارون الرشيد من حذقها وفهمها، ثم قال للنظام: انزع ثيابك. فقام وقال: أشهد على جميع مَن حضر هذا المجلس أنها أعلم مني، ومن كل عالم. ونزع ثيابه، وقال لها: خذيهم لا بارَكَ الله لكِ فيهم. فأمر له أمير المؤمنين بثياب يلبسها، ثم قال أمير المؤمنين: يا تودُّد، بقي عليك شيء ممَّا وعدتِ به وهو الشطرنج، وأمر بإحضار معلِّمي الشطرنج والكنجفة والنرد، فحضروا وجلس الشطرنجي معها، وصُفَّت بينهما الصفوف، ونقل ونقلت، فما نقل شيئًا إلا أفسدته عن قليل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما لعبت الشطرنج مع المعلم بحضرة أمير المؤمنين هارون الرشيد، صارت كلما نقل نقلًا أفسدته حتى غلبته، ورأى الشاه مات، فقال: أنا أردت أن أطعمك حتى تظني أنك عارفة، لكن صفي حتى أُرِيكِ. فلما صفَّتِ الثاني قال في نفسه: افتح عينك وإلا غلبَتْكَ. وصار ما يخرج قطعة إلا بحساب، وما زال يلعب حتى قالت له: الشاه مات. فلما رأى ذلك منها دهش من حذقها وفهمها، فضحكت وقالت له: يا معلم، أنا أراهنك في هذه المرة الثالثة على أن أرفع لك الفرزان، ورخ الميمنة، وفرس الميسرة، وإنْ غلبتَني فخذ ثيابي، وإن غلبتُك أخذتُ ثيابك. قال: رضيت بهذا الشرط. ثم صفَّا الصفين، ورفعت الفرزان والرخ والفرس، وقالت له: انقل يا معلم. فنقل وقال: ما لي لا أغلبها بعد هذه الحطيطة. وعقد عقدًا، وإذا هي نقلت نقلًا قليلًا قليلًا إلى أن صيَّرَتْ له فرزانًا، ودنَتْ منه، وقربت البيادق والقطع، وشغلته وأطعمته قطعةً فقطعها، فقالت: الكيل كيل وافٍ، والرز رز صافٍ، فكُلْ حتى تزيد على الشبع، ما يقتلك يا ابن آدم إلا الطمع، أَمَا تعلم أني أُطعِمك لأخدعك؟ انظر فهذا الشاه مات. ثم قالت له: انزع ثيابك. فقال لها: اتركي لي السراويل، وأجرك على الله. وحلف بالله ألَّا يناظر أحدًا ما دامت تودُّد بمملكة بغداد، ثم نزع ثيابه وسلَّمَها لها، وانصرف.

فجِيء بلاعب النرد، فقالت له: إنْ غلبتُك في هذا اليوم فماذا تعطيني؟ قال: أعطيك عشرة ثياب من الديباج القسطنطيني المطرز بالذهب، وعشر ثياب من المخمل، وألف دينار، وإنْ غلبتُكِ فما أريد منك إلا أن تكتبي لي درجًا بأني غلبتُكِ. قالت له: دونك وما عولت عليه. فلعب فإذا هو قد خسر، وقام وهو يرطن بالإفرنجية، ويقول: ونعمة أمير المؤمنين إنها لا يوجد مثلها في سائر البلاد. ثم إن أمير المؤمنين دعا بأرباب آلات الطرب

فحضروا، فقال لها أمير المؤمنين: هل تعرفين شيئًا من آلات الطرب؟ قالت: نعم. فأمر بإحضار عود محكوك مدعوك، مجرود صاحبه بالهجران مكدود، قال فيه بعض واصفيه:

سَقَى اللهُ أَرْضًا أَنْبَتَتْ عُودَ مُطْرِبٍ زَكَتْ مِنْهُ أَغْصَانٌ وَطَابَتْ مَغَارِسُ
تَغَنَّتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ وَالْعُودُ أَخْضَرُ وَغَنَّتْ عَلَيْهِ الْغِيدُ وَالْعُودُ يَابِسُ

فجِيء بعودٍ في كيس من الأطلس الأحمر له شرابة من الحرير المزعفر، فحَلَّتِ الكيس وأخرجت العود، فإذا هو عليه منقوش:

وَغُصْنٍ رَطِيبٍ عَادَ عُودًا لِقَيْنَةٍ تَحِنُّ إِلَى أَتْرَابِهَا فِي الْمَحَافِلِ
تُغَنِّي فَيَتْلُو لَحْنَهَا وَكَأَنَّهُ يُلَقِّنُهَا إِعْرَابَ لَحْنِ الْبَلَابِلِ

فوضعته في حجرها، وأرخَتْ عليه نهدها، وانحنت عليه انحناءَ والدة تُرضِع ولدها، وضربت عليه اثني عشر نغمًا حتى ماج المجلس من الطرب، وأنشدت تقول:

أَقْصِرُوا هَجْرَكُمْ وَقِلُّوا جَفَاكُمْ فَفُؤَادِي وَحَقِّكُمْ مَا سَلَاكُمْ
وَارْحَمُوا بَاكِيًا حَزِينًا كَئِيبًا ذَا غَرَامٍ مُتَيَّمًا فِي هَوَاكُمْ

فطرب أمير المؤمنين وقال: بارَكَ الله فيكِ، ورحم مَن علَّمَكِ. فقامت وقبَّلَتِ الأرض بين يديه، ثم إن أمير المؤمنين أمر بإحضار المال، ودفع لمولاها مائة ألف دينار، وقال لها: يا تودُّد، تمنِّي عليَّ؟ قالت: تمنَّيْتُ عليك أن تردَّني إلى سيدي الذي باعني. فقال لها: نعم. فرَدَّها إليه، وأعطاها خمسة آلاف دينار لنفسها، وجعل سيدها نديمًا له على طول الزمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٢

قالت: أيها الملك السعيد، أن الخليفة أعطى الجارية خمسة آلاف دينار، وردها إلى مولاها، وجعله نديمًا له على طول الزمان، وأطلق له في كل شهر ألف دينار، وقعد مع جاريته تودد في أرغد عيش، فأعجب بها الملك من فصاحة هذه الجارية، ومن غزارة علمها وفهمها وفضلها في كامل العلوم. وانظر إلى مروءة أمير المؤمنين هارون الرشيد؛ حيث أعطى سيدها هذا المال، وقال لها: تمني عليَّ. فتمنت عليه أن يردها إلى سيدها، فردها إليه وأعطاها خمسة آلاف دينار لنفسها، وجعل سيدها نديمًا له، فأين يوجد هذا الكرم بعد الخلفاء العباسيين — رحمة الله تعالى عليهم أجمعين؟

حكاية الملك المغرور وملك الموت

ومما يُحكَى أيها الملك السعيد أن ملكًا من الملوك المتقدمين أراد أن يركب يومًا في جملة أهل مملكته، وأرباب دولته، ويُظهِر للخلائق عجائبَ زينته، فأمر أصحابه وأمراءه وكبراء دولته أن يأخذوا أهبة الخروج معه، وأمر خازن الثياب بأن يحضر له من أفخر الثياب ما يصلح للملك في زينته، وأمر بإحضار خيله الموصوفة العتاق المعروفة، ففعلوا ذلك، ثم إنه اختار من الثياب ما أعجبه، ومن الخيل ما استحسنه، ثم لبس الثياب، وركب الجواد، وسار بالموكب والطوق المرصع بالجواهر، وأصناف الدر واليواقيت، وجعل يركض الحصان في عسكره، ويفتخر بتيهه وتجبُّره، فأتاه إبليس فوضع يده على منخره، ونفخ في أنفه نفخة الكبر والعجب، فزَهَا وقال في نفسه: مَن في العالَم مثلي؟ وطفق يتيه بالعجب والكبر، ويُظهِر الأبهة ويزهو بالخيلاء، ولا ينظر إلى أحد من تيهه وكبره وعجبه وفخره، فوقف بين يدَيْه رجل عليه ثياب رثَّة، فسلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلام، فقبض على عنان

فرسه، فقال له الملك: ارفع يدك فإنك لا تدري بعنان مَن قد أمسكت. فقال له: إن لي إليك حاجة. فقال: اصبر حتى أنزل، واذكر حاجتك. فقال: إنها سر ولا أقولها إلا في أذنك. فمال بسمعه إليه فقال له: أنا ملك الموت، وأريد قبض روحك. فقال: امهلني بقدر ما أعود إلى بيتي، وأودع أهلي وأولادي وجيراني وزوجتي. فقال: كلا، لا تعود ولن تراهم أبدًا، فإنه قد مضى أجل عمرك. فأخذ روحه وهو على ظهر فرسه، فخَرَّ ميتًا، ومضى ملك الموت من هناك، فأتى رجلًا صالحًا قد رضي الله عنه فسلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلام، فقال ملك الموت: أيها الرجل الصالح، إن لي إليك حاجة وهي سر. فقال له الرجل الصالح: اذكر حاجتك في أذني. فقال: أنا ملك الموت. فقال الرجل: مرحبًا بك، الحمد لله على مجيئك، فإني كنتُ كثيرًا أترقَّب وصولك إليَّ، ولقد طالت غيبتك عن المشتاق إلى قدومك. فقال له ملك الموت: إن كان لك شغل فاقْضِه. فقال له: ليس لي شغل أهم عندي من لقاء ربي عزَّ وجلَّ. فقال: كيف تحب أن أقبض روحك؟ فإني أُمِرت أن أقبضها كيف أردتَ واخترتَ. فقال: أمهلني حتى أتوضأ وأصلي، فإذا سجدتُ فاقبض روحي وأنا ساجد. فقال ملك الموت: إن ربي عزَّ وجلَّ أمرني ألَّا أقبض روحك إلا باختيارك كيف أردتَ، وأنا أفعل ما قلتَ. فقام الرجل وتوضأ وصلَّى، فقبض ملك الموت روحَه وهو ساجِد، ونقله الله تعالى إلى محل الرحمة والرضوان والمغفرة.

حكاية الملك الغني ومَلَك الموت

وحُكِي أن ملكًا من الملوك كان قد جمع مالًا عظيمًا لا يُحصَى عدده، واحتوى على أشياء كثيرة من كل نوع خلقه الله تعالى في الدنيا ليرفِّه نفسه، حتى إذا أراد أن يتفرَّغ لما جمعه من النِّعَم الطائلة، بنى له قصرًا عاليًا مرتفعًا شاهقًا يصلح للملوك، ويكون بهم لائقًا، ثم ركَّبَ عليه بابين محكمين، ورتب له الغلمان والأجناد والبوابين كما أراد، ثم أمر الطباخ في بعض الأيام أن يصنع له شيئًا من أطيب الطعام، وجمع أهله وحشمه وأصحابه وخدمه ليأكلوا عنده، وينالوا رِفْده، وجلس على سرير مملكته وسيادته، واتكأ على وسادته، وخاطَبَ نفسه وقال: يا نفسُ، قد جمعتُ لكِ نِعَم الدنيا بأسرها، فالآن تفرَّغي وكلي من هذه النِّعَم مهنَّأة بالعمر الطويل، والحظ الجزيل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك لما حدَّثَ نفسه وقال لها: كلي من هذه النِّعَم، مهنَّأة بالعمر الطويل والحظ الجزيل. لم يفرغ مما حدَّثَ به نفسه، حتى أتاه رجل من ظاهر القصر عليه ثياب رثة، وفي عنقه مخلاة معلَّقة على هيئة سائل يسأل الطعام، فجاء وطرق حلقة باب القصر طرقة عظيمة هائلة كادت تزلزل القصر وتزعج السرير، فخاف الغلمان، فوثبوا إلى الباب وصاحوا بالطارق، وقالوا له: ويحك! ما هذه الفعلة وسوء الأدب؟ اصبر حتى يأكل الملك، ونعطيك مما يفضل. فقال للغلمان: قولوا لصاحبكم يخرج إليَّ حتى يكلِّمني، فلي إليه حاجة، وشغل مهم، وأمر ملم. فقالوا: تنحَّ أيها الضعيف، مَن أنت حتى تأمر صاحبنا بالخروج إليك؟ فقال لهم: عرِّفوه ذلك. فجاءوا إليه وعرَّفوه، فقال: هلَّا زجرتموه وجرَّدْتُم عليه السلاح، ونهرتموه. ثم طرق الباب أعظم من الطرقة الأولى، فنهض الغلمان إليه بالعصي والسلاح، وقصدوه ليحاربوه، فصاح بهم صيحة، وقال: الزموا أماكنكم، فأنا مَلَك الموت. فرعبت قلوبهم، وذهبت عقولهم، وطاشت حلومهم، وارتعدت فرائصهم، وبطلت عن الحركة جوارحهم، فقال لهم الملك: قولوا له يأخذ بدلًا مني، وعوضًا عني. فقال ملك الموت: لا آخذ بدلًا، ولا أتيتُ إلا من أجلك، لأفرِّق بينك وبين النِّعَم التي جمعتَها والأموال التي حويتها وخزنتها. فعند ذلك تنفَّسَ الصعداء وبكى وقال: لعن الله المال الذي غرَّني وأضرني ومنعني عن عبادة ربي، وكنتُ أظنُّ أنه ينفعني، فبقي اليوم حسرةً عليَّ ووبالًا لديَّ، وها أنا أخرج صفرَ اليدين منه ويبقى لأعدائي. قال: فأنطق الله المال وقال: لأي سببٍ تلعنني؟ العن نفسك، فإن الله تعالى خلقني وإياك من تراب، وجعلني في يدك لتتزوَّدٍ مني لآخرتك، وتتصدق بي على الفقراء والمساكين والضعفاء، ولتعمر بي الربط والمساجد والجسور والقناطر، لأكون عونًا لك في الدار الآخرة؛ وأنت جمعتني وخزنتني، وفي هواك أنفقتني، ولم تشكر لحقي بل كفرتني، فالآن تركتني

لأعدائك وأنت بحسرتك وندامتك؛ فأي ذنب لي حتى تسبني؟ ثم إن ملك الموت قبض روحه وهو على سريره قبل أن يأكل الطعام، فخَرَّ ميتًا ساقطًا من فوق سريره، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: ٤٤).

حكاية مَلِك إسرائيلي جبَّار ومَلَك الموت

ومما يُحكَى أن ملكًا جبَّارًا من ملوك بني إسرائيل كان في بعض الأيام جالسًا على سرير مملكته، فرأى رجلًا قد دخل عليه باب الدار، وله صورة منكرة، وهيئة هائلة، فاشمأزَّ من هجومه عليه، وفزع من هيئته، فوثب في وجهه وقال: مَن أنت أيها الرجل؟ ومَن أذن لك في الدخول عليَّ، وأمرك بالمجيء إلى داري؟ فقال: أمرني صاحب الدار، وأنا لا يحجبني حاجب، ولا أحتاج في دخولي على الملوك إلى إذن، ولا أرهب سياسة سلطان، ولا كثرة أعوان، أنا الذي لا يقرعني جبار، ولا لأحد من قبضتي فرار، أنا هادم اللذات، ومفرق الجماعات. فلما سمع الملك هذا الكلام خرَّ على وجهه، ودبت الرعدة في بدنه، ووقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق قال: أنت مَلَك الموت؟ قال: نعم. قال: أقسمتُ عليك بالله إلا أمهلتني يومًا واحدًا لأستغفر من ذنبي، وأطلب العذر من ربي، وأرد الأموال التي في خزائني إلى أربابها، ولا أتحمل مشقة حسابها، وويل عقابها. فقال ملك الموت: هيهات هيهات، لا سبيلَ إلى ذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مَلَك الموت قال للمَلِك: هيهات هيهات، لا سبيلَ لك إلى ذلك، وكيف أمهلك وأيام عمرك محسوبة، وأنفاسك معدودة، وأوقاتك مثبوتة مكتوبة؟ فقال: أمهلني ساعة. فقال: إن الساعة في الحساب وقد مضت وأنت غافل، وانقضت وأنت ذاهل، وقد استوفيت أنفاسك، ولم يَبْقَ لك إلا نفس واحدة. فقال: مَن يكون عندي إذا نُقِلت إلى لحدي؟ قال: لا يكون عندك إلا عملك. فقال: ما لي عمل. قال: لا جرم أنه يكون مقيلك في النار، ومصيرك إلى غضب الجبار. ثم قبض روحه فخرَّ ساقطًا عن سريره، ووقع إلى الأرض، فحصل الضجيج في أهل مملكته، وارتفعت الأصوات، وعلا الصياح والبكاء، ولو علموا ما يصير إليه من سخط ربه لَكان بكاؤهم عليه أكثر، وعويلهم أشدُّ وأوفر.

حكاية إسكندر ذي القرنين

ومما يُحكَى أن إسكندر ذا القرنين اجتاز في سفره بقوم ضعفاء لا يملكون شيئًا من أسباب الدنيا، وقد حفروا قبور موتاهم على أبواب دورهم، وكانوا في كل وقت يتعهدون تلك القبور ويكنسون التراب عنها وينظِّفونها ويزورونها، ويعبدون الله تعالى فيها، وليس لهم طعام إلا الحشيش ونبات الأرض؛ فبعث إليهم إسكندر ذو القرنين رجلًا يستدعي مَلِكهم إليه، فلم يُجِبْه وقال: ما لي إليه حاجة. فسار ذو القرنين إليه وقال: كيف حالكم وما أنتم عليه؟ فإني لا أرى لكم شيئًا من ذهب ولا فضة، ولا أجد عندكم شيئًا من نعيم الدنيا. فقال له: إن نعيم الدنيا لا يشبع منه أحد. فقال له إسكندر: لِمَ حفرتم القبور على أبوابكم؟ فقال: لتكون نصب أعيننا، فننظر إليها ونجدد ذكر الموت ولا ننسى الآخرة، ويذهب حب الدنيا من قلوبنا فلا نشغل بها عن عبادة ربنا تعالى. فقال إسكندر: كيف

تأكلون الحشيش؟ قال: لأنَّا نكره أن نجعل في بطوننا قبورَ الحيوانات، ولأن لذة الطعام لا تتجاوز الحلق. ثم مدَّ يده فأخرج قِحْفًا من رأس آدمي، فوضعه بين يدي إسكندر وقال له: يا ذا القرنين، أتعلم مَن كان صاحب هذا؟ قال: لا. قال: كان صاحبه مَلِكًا من ملوك الدنيا، فكان يظلم رعيته ويجور عليهم وعلى الضعفاء، ويستفرغ زمانه في جمع حطام الدنيا، فقبض الله روحه وجعل النار مقرَّه وهذا رأسه.

ثم مدَّ يدَه ووضع قِحْفًا آخَر بين يديه وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا كان مَلِكًا من ملوك الأرض، وكان عادلًا في رعيته شفوقًا على أهل ولايته وملكه، فقبض الله روحه وأسكنه جنته ورفع درجته. ووضع يده على رأس ذي القرنين وقال: تُرَى، أنت أي هذين الرأسين؟ فبكى ذو القرنين بكاءً شديدًا وضمَّه إلى صدره وقال له: إن أنت رغبتَ في صحبتي سلَّمت إليك وزراتي وقاسَمْتُك في مملكتي. فقال الرجل: هيهات هيهات، ما لي رغبة في هذا. فقال له إسكندر: ولِمَ ذلك؟ قال: لأن الخلق كلهم أعداؤك بسبب المال، والملك الذي أعطيته، وجميعهم أصدقائي في الحقيقة بسبب القناعة والصعلكة؛ لأنني ليس لي ملك ولا طمع في الدنيا، ولا لي إليها طلب ولا فيها أرب، وليس لي إلا القناعة فحسب. فضَمَّه إسكندر إلى صدره وقبَّلَه بين عينَيْه وانصرف.

حكاية أنو شروان وتظاهُره بالمرض

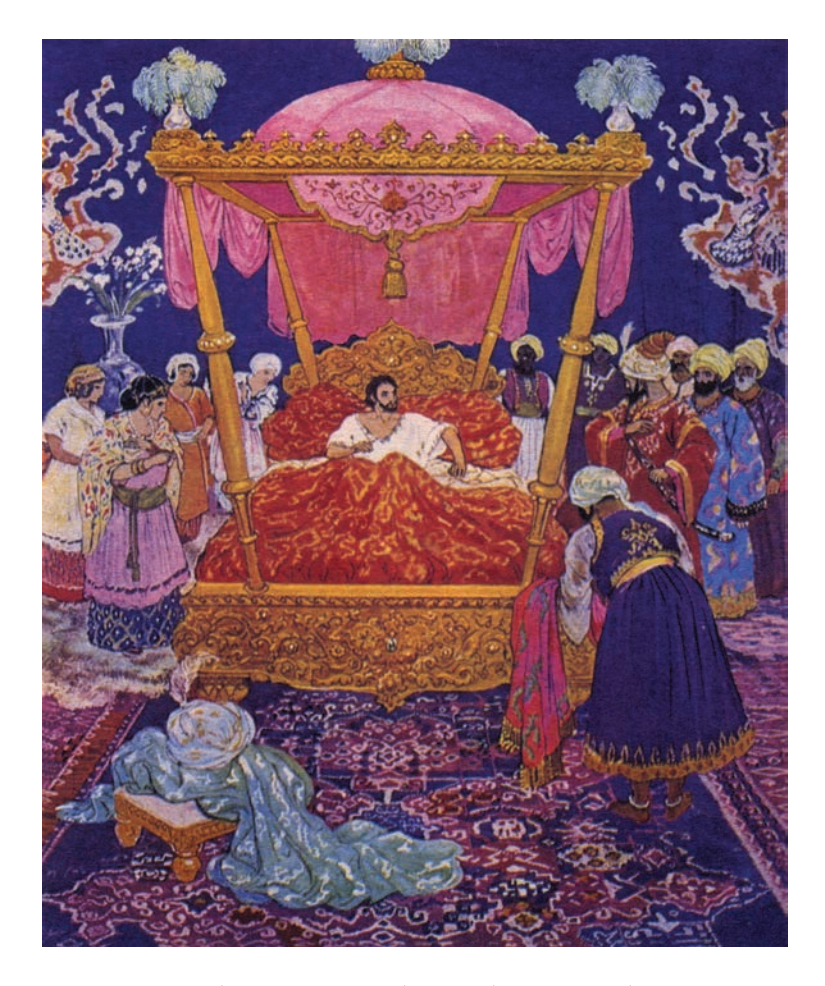
ومما يُحكَى أن الملك العادل أنو شروان أظهَرَ يومًا من الأيام أنه مريض، وأنفذ ثقاته وأمناءه وأمرهم أن يطوفوا أقطارَ مملكته وأكتافَ ولايته، وأن يتطلبوا له لبنة عتيقة من قرية خربة ليتداوى بها، وذكر لأصحابه أن الأطباء وصفوا له ذلك؛ فطافوا أقطار مملكته وجميع ولايته وعادوا إليه فقالوا: ما وجدنا في جميع المملكة مكانًا خربًا ولا لبنة عتيقة. ففرح أنوشروان بهذا وشكر الله وقال: إنما أردتُ أن أجرِّب ولايتي وأختبر مملكتي، لأعلم هل بقي فيها موضع خرب لأعمِّره؟ وحيث إنه الآن لم يَبْقَ فيها مكان إلا وهو عامر، فقد تمت أمور المملكة وانتظمت الأحوال، ووصلت العمارة إلى درجة الكمال. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما رجع إليه أرباب دولته وقالوا له: ما وجدنا في جميع المملكة مكانًا خربًا. شكر الله وقال: الآن قد تمَّتْ أمور المملكة وانتظمت الأحوال، ووصلت العمارة إلى درجة الكمال. فاعلم أيها الملك أن أولئك الملوك القدماء ما كانت همتهم واجتهادهم في عمارة ولايتهم، إلا لعلمهم أنه كلما كانت الولاية أعمر كانت الرغبة أوفر، لأنهم كانوا يعلمون أن الذي قالته العلماء ونطقت به الحكماء صحيح لا ريب فيه، حيث قالوا: إن الدين بالملك، والملك بالجند، والجند بالمال، والمال بعمارة البلاد، وعمارة البلاد بالعدل في العباد. فما كانوا يوافقون أحدًا على الجور والظلم، ولا يرضون لحشمهم بالتعدي، علمًا منهم أن الرعية لا تثبت على الجور، وأن البلاد والأماكن تخرب إذا استولى عليها الظالمون، ويتفرق أهلها ويهربون إلى ولايات غيرها. ويقع النقص في الملك، ويقل في البلاد الدخل، وتخلوا الخزائن من الأموال، ويتكدر عيش الرعايا لأنهم لا يحبون جائرًا، ولا يزال دعاؤهم عليه متواترًا، فلا يتمتع الملك بمملكته، وتُسرِع إليه دواعي مهلكته.

حكاية القاضي الإسرائيلي وزوجته

ومما يُحكَى أنه كان في بني إسرائيل قاضٍ من قضاتهم، وكان له زوجة بديعة الجمال، كثيرة الصون والصبر والاحتمال، فأراد ذلك القاضي النهوض إلى زيارة بيت المقدس، فاستخلف أخاه على القضاء وأوصاه بزوجته، وكان أخوه قد سمع بحُسْنها وجمالها، فكَلِفَ بها، فلما سار القاضي توجَّهَ إليها، وراودها عن نفسها، فامتنعت واعتصمت بالورع، فأكثر الطلب عليها وهي تمتنع، فلما يئس منها خاف أن تُخبِرَ أخاه بصنيعه إذا رجع، فاستدعى بشهود زور يشهدون عليها بالزنا، ثم رفع مسألتها إلى ملك ذلك



ويُحكى أن الملِك العادل أنوشروان أظهَرَ يومًا من الأيام أنه مريض.

الزمان، فأمر برجمها، فحفروا لها حفرةً وأقعدوها فيها، ورُجِمت حتى غطَّتْها الحجارة، وقال: تكون الحفرة قبرها. فلما جنَّ الليل صارت تَئِنُّ من شدة ما نالها، فمرَّ بها رجل يريد قرية، فلما سمع أنينها قصدها، فأخرجها من الحفرة، واحتملها إلى زوجته، وأمرها بمداواتها، فداوتها حتى شفيت، وكان للمرأة ولدٌ فدفعته إليها، فصارت تكفله، ويبيت معها في بيت ثانٍ، فرآها أحد الشطار فطمع فيها، وأرسل يراودها عن نفسها، فامتنعت،

فعزم على قتلها، فجاءها بالليل، ودخل عليها البيت وهي نائمة، ثم هوى بالسكين إليها، فوافَقَ الصبي فذبحه، فلما علم أنه ذبح الصبي أدركه الخوف، فخرج من البيت وعصمها الله منه، ولما أصبحت وجدَتِ الصبي مذبوحًا، وجاءت أمه وقالت: أنتِ التي ذبحتِه. ثم ضربتها ضربًا موجعًا، وأرادت ذبحها، فجاء زوجها وأنقذها منها، وقال: والله لم تفعل ذلك. فخرجت المرأة فارَّةً بنفسها لا تدري أين تتوجه، وكان معها بعض دراهم، فمرَّتْ بقرية والناس مجتمعون، ورجل مصلوب على جذع إلا أنه في قيد الحياة، فقالت: يا قوم، ما له؟ قالوا لها: أصاب ذنبًا لا يكفِّره إلا قتله، وصدقة كذا وكذا من الدراهم. فقالت: خذوا الدراهم وأطلِقوه. فتاب على يديها، ونذر على نفسه أن يخدمها لله تعالى حتى يتوفَّاه الله، ثم بنى لها صومعة أسكَنَها فيها، وصار يحتطب ويأتيها بقوتها، واجتهدَتِ المرأة في العبادة حتى كان لا يأتيها مريض أو مصاب فتدعو له إلا شفي من وقته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة لما صارت مقصودة للناس، وهي مقبلة على عبادتها في الصومعة، كان من قضاء الله تعالى أنه نزل بأخي زوجها الذي رجمها عاهة في وجهه، وأصاب المرأةَ التي ضربتها برصٌ، وابتُلِي الشاطر بوجعٍ أقعَدَه، وقد جاء القاضي زوجها من حجه، وسأل أخاه عنها، فأخبره أنها ماتت، فأسف عليها، واحتسبها عند الله، ثم تسامعت الناس بالمرأة حتى كانوا يقصدون صومعتها من أطراف الأرض ذات الطول والعرض، فقال القاضي لأخيه: يا أخي، هلَّا قصدتَ هذه المرأة الصالحة؟ لعل الله يجعل لك على يدَيْها شفاء. قال: يا أخي، احملني إليها. وسمع بها زوج المرأة التي نزل بها البرص فسار بها إليها، وسمع أهل الشاطر المُقعَد بخبرها فساروا به إليها أيضًا، واجتمع الجميع عند باب صومعتها، وكانت ترى جميع مَن يأتي صومعتها من حيث لا يراها أحد، فانتظروا خادمها حتى جاء ورغبوا إليه في أن يستأذن لهم في الدخول عليها ففعل، فانتقبت واستترت، ووقفت عند الباب تنظر زوجها وأخاه واللص والمرأة، وعرفَتْهم وهم لا يعرفونها، فقالت لهم: يا هؤلاء، إنكم ما تستريحون مما بكم حتى تعترفوا بذنوبكم، فإن العبد إذا اعترف بذنبه تاب الله عليه، وأعطاه ما هو متوجِّه فيه إليه. فقال القاضي لأخيه: يا أخي، تُبْ إلى الله، ولا تُصِرَّ على عصيانك، فإنه أنفع لخلاصك، ولسان الحال يقول هذا المقال:

الْيَوْمَ يُجْمَعُ مَظْلُومٌ وَمَنْ ظَلَمَا ... وَيُظْهِرُ اللهُ سِرًّا كَانَ قَدْ كُتِمَا
هَذَا مَقَامٌ يُذَلُّ الْمُذْنِبُونَ لَهُ ... وَيَرْفَعُ اللهُ مَنْ طَاعَاتِهِ لَزِمَا
وَيُظْهِرُ الْحَقَّ مَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا ... هَذَا وَإِنْ سَخَطَ الْعَاصِي وَإِنْ رُغِمَا

يَا وَيْحَ مَنْ جَاهَرَ الْمَوْلَى وَأَسْخَطَهُ كَـأَنَّـهُ بِـعِـقَـابِ الـلـهِ مَـا عَـلِـمَـا
يَا طَالِبَ الْعِزِّ إِنَّ الْعِزَّ وَيْحَكَ فِي تَقْوَى الْإِلَهِ فَكُنْ بِاللهِ مُعْتَصِمَا

قال: فعند ذلك قال أخو القاضي: الآن أقول الحق؛ إني فعلت بزوجتك ما هو كذا وكذا، وهذا ذنبي. فقالت البرصاء: وأنا كانت عندي امرأة، فنسبتُ إليها ما لم أعلمه، وضربتُها عمدًا، وهذا ذنبي. فقال المُقعَد: وأنا دخلتُ على امرأةٍ لأقتلها بعد مراودتها عن نفسها، وامتناعها من الزنا، فذبحتُ صبيًّا كان بين يدَيْها وهذا ذنبي. فقالت المرأة: اللهم كما أريْتَهم ذلَّ المعصية، فأَرِهِم عزَّ الطاعة، إنك على كل شيء قدير. فشفاهم الله عز وجل. وجعل القاضي ينظر إليها ويتأملها، فسألته عن سبب النظر، فقال: كانت لي زوجة، ولولا أنها ماتت لقلتُ إنها أنتِ. فعرَّفَتْه بنفسها، وجعلَا يحمدان الله عزَّ وجلَّ على ما مَنَّ عليهما به من جمع شملهما، ثم طفق كلٌّ من أخي القاضي واللص والمرأة يسألونها المسامحة، فسامحَتِ الجميع، وعبدوا الله تعالى في ذلك المكان، مع لزوم خدمتها إلى أن فرَّقَ الموتُ بينهم.

حكاية امرأة مسافرة إلى الحج وابنها

ومما يُحكَى أن بعض السادة قال: بينما أنا أطوف بالكعبة في ليلة مظلمة، إذ سمعتُ صوتًا ذا حنين ينطق عن قلب حزين، وهو يقول: يا كريم لطفك القديم، فإن قلبي على العهد مُقِيم. فتطايَرَ قلبي لسماع ذلك الصوت تطايُرًا أشرفْتُ منه على الموت، فقصدتُ نحوه فإذا صاحبته امرأة فقلت: السلام عليك يا أمة الله. فقالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقلتُ: أسألك بالله العظيم ما العهد الذي قلبك عليه مُقِيم؟ فقالت: لولا قسمك بالجبَّار ما أطلعتُكَ على الأسرار، انظر ما بين يدي، فنظر فإذا بين يديها صبي نائم يغطُّ في نومه، فقالت: خرجتُ وأنا حامل بهذا الصبي لأحجَّ هذا البيت، فركبتُ في سفينة فهالت علينا الأمواج، واختلفَتْ علينا الرياح، وانكسرت بنا السفينة، فنجوت على لوحٍ منها، ووضعت هذا الصبي وأنا على ذلك اللوح، فبينما هو في حجري، والأمواج تضربني … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية قالت: لما انكسرت السفينة نجوتُ على لوح منها، ووضعت هذا الصبي وأنا على ذلك اللوح، فبينما هو في حجري والأمواج تضربني، إذ وصل إليَّ رجل من ملَّاحي السفينة، وحصل معي، وقال لي: والله لقد كنتُ أهواكِ وأنتِ في السفينة، والآن قد حصلتُ معك، فمكِّنيني من نفسك، وإلا قذفتك في هذا البحر. فقلتُ: ويحك! أَمَا كان لك مما رأيت تذكرة وعبرة؟ فقال: إني رأيتُ مثل ذلك مرارًا ونجوتُ، وأنا لا أبالي. فقلتُ: يا هذا، نحن في بلية نرجو السلامة منها بالطاعة لا بالمعصية، فألحَّ عليَّ فخفتُ منه، وأردتُ أن أخادعه، فقلتُ له: مهلًا حتى ينام هذا الطفل. فأخذه من حجري وقذفه في البحر، فلما رأيت جرأته، وما فعل بالصبي طار قلبي، وزاد كربي، فرفعت رأسي إلى السماء وقلت: يا مَن يَحُول بين المرء وقلبه، حُل بيني وبين هذا الأسد؛ إنك على كل شيء قدير. فوالله ما فرغتُ من كلامي إلا ودابة قد طلعَتْ من البحر، فاختطفَتْه من فوق اللوح، وبقيت وحدي، وزاد كربي وحزني إشفاقًا على ولدي، فأنشدتُ وقلتُ:

قُـرَّةَ الْـعَـيْـنِ حَـبِـيـبِـي وَلَـدِي ... ضَاعَ حَيْثُ الْوَجْدُ أَوْهَى جَلَدِي
وَأَرَى جِسْمِي غَرِيقًا وَغَدَتْ ... بِالتيَاعِ الْوَجْدِ تَشْوِي كَبِدِي
لَيْسَ لِي فِي كُرْبَتِي مِنْ فَرَجٍ ... غَيْرُ أَلْطَافِكَ يَا مُعْتَمِدِي
أَنْتَ يَا رَبِّي تَرَى مَا حَلَّ بِي ... مِنْ غَرَامِي بِفِرَاقِي وَلَدِي
فَاجْمَعِ الشَّمْلَ وَكُنْ لِي رَاحِمًا ... فَرَجَائِي فِيكَ أَقْوَى عُدَدِي

فبقيت على تلك الحالة يومًا وليلة، فلما كان الصباح بصرت بقلاع سفينة تلوح من بُعْدٍ، فما زالَتِ الأمواج تقذفني والرياح تسوقني حتى وصلتُ إلى تلك السفينة التي كنتُ أرى قلاعها، فأخذني أهل السفينة ووضعوني فيها، فنظرت فإذا ولدي بينهم، فتراميتُ عليه وقلتُ: يا قوم، هذا ولدي، فمن أين كان لكم؟ قالوا: بينما نحن نسير في البحر إذ حبست السفينة، فإذا دابة كأنها المدينة العظيمة، وهذا الصبي على ظهرها يمصُّ إبهامه فأخذناه. فلما سمعتُ منهم ذلك حدَّثْتُهم بقصتي، وما جرى لي، وشكرتُ لربي على ما أنالني، وعاهدْتُه أنْ لا أبرح بيته، ولا أنثني عن خدمته، وما سألته بعد ذلك شيئًا إلا أعطانيه. فمددتُ يدي إلى كيس النفقة، وأردتُ أن أعطيها، فقالت: إليك عني يا بطال، أفأحدِّثك بأفضاله، وكرم فِعَاله، وآخُذ الرفد عن يد غيره، فلم أقدر على أن تقبل مني شيئًا، فتركتها وانصرفت من عندها، وأنا أنشد وأقول هذه الأبيات:

وَكَمْ لله مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ ... يَدُقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ
وَكَمْ يَسُرُّنِي مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ ... وَفَرَّجَ لَوْعَةَ الْقَلْبِ الشَّجِيِّ
وَكَمْ هَمٍّ تُعَانِيهِ صَبَاحًا ... فَتُعْقِبُهُ الْمَسَرَّةُ بِالْعَشِيِّ
إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْأَسْبَابُ يَوْمًا ... فَثِقْ بِالْوَاحِدِ الصَّمَدِ الْعَلِيِّ
تَشَفَّعْ بِالنَّبِيِّ فَكُلُّ عَبْدٍ ... يَنَالُ إِذَا تَشَفَّعَ بِالنَّبِيِّ

وما زالتْ في عبادة ربها ملازِمةً بيته إلى أن أدركها الموت.

حكاية العبد الأول المتعبِّد

ومما يُحكَى أن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: انحبس عنَّا المطر بالبصرة، فخرجنا نستقي مرارًا فلم نَرَ أثرَ الإجابة، فخرجت أنا وعطاء السلمي وثابت البناني ونجي البكاء ومحمد بن واسع وأيوب السختياني وحبيب الفارسي وحسان بن أبي سنان وعتبة الفلام وصالح المزني، حتى صرنا إلى المصلَّى، وخرجت الصبيان من المكاتب واستقينا فلم نَرَ أثرَ الإجابة؛ فانتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلَّى، فلما أظلم الليل بصرنا بأسود مليح الوجه، رقيق الساقين، عظيم البطن، قد أقبَلَ، عليه مئزر من صوف، إذا قُوِّمَ جميعَ ما كان عليه لا يساوي درهمين؛ فجاء بماء فتوضَّأَ، ثم أتى المحراب فصلَّى ركعتين خفيفتين، كان قيامه وركوعه وسجوده فيها سواء، ثم رفع طرفه

إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي، إلى كَمْ تردُّ عبادَك فيما لا ينقص ملكك؟ أَنَفَدَ ما عندك أَمْ فنيَتْ خزائنُ مُلْكِك؟ أقسمتُ عليك بحبِّك لي إلا سقيتنا غيثَك الساعة. قال: فما تمَّ الكلام حتى تغيَّمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب، ولم نخرج من المصلَّى إلا ونحن نخوض في الماء للركب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه قال: فما تمَّ كلامه حتى تغيَّمَتِ السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب، ولم نخرج من المصلَّى إلا ونحن نخوض في الماء للركب، وبقينا نتعجَّب من الأسود. قال مالك: فتعرَّضْتُ له وقلتُ: ويحك يا أسود، أَمَا تستحي مما قلتَ؟ فالتفَتَ إليَّ وقال: ماذا قلتُ؟ فقلتُ له: قولك بحبِّك لي، وما يدريك أنه يحبك؟ فقال لي: تنحَّ عني يا مَن اشتغل عن نفسه؛ فأين كنتُ أنا حين أيَّدَني بالتوحيد وخصَّني بمعرفته؟ أفتراه أيَّدني بذلك إلا لمحبته لي. ثم قال: محبته لي على قدر محبتي له. فقلت له: قف عليَّ قليلًا يرحمك الله. فقال: إني مملوك وعليَّ فرض من طاعة مالكي الصغير. قال: فجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخاس، وقد مضى من الليل نصفه، فطال علينا النصف الثاني فذهبنا. فلما كان الصباح أتينا النخاس وقلنا له: أعندك غلام تبيعه لنا لأجل الخدمة؟ قال: نعم، عندي نحو مائة غلام كلهم للبيع. قال: وجعل يعرض علينا غلامًا بعد غلام، حتى عرض سبعين غلامًا ولم أَرَ صاحبي فيهم. فقال: ما عندي غير هؤلاء. فلما أردنا الخروج دخلتُ حجرة خربة خلف داره، فإذا الأسود قائم. فقلت: هو وربِّ الكعبة. فرجعت إلى النخاس وقلت: بعني هذا الغلام. قال: يا أبا يحيى، إنه غلام مشئوم نكد، ليس له في الليل همة إلا البكاء، وفي النهار إلا الندم. فقلت: لذلك أريده. قال: فدعاه فخرج وهو يتناعس. فقال لي: خذه بما شئتَ بعد أن تبريني من عيوبه كلها. قال: واشتريته بعشرين دينارًا وقلت: ما اسمه؟ قال: ميمون. فأخذت بيده وانطلقنا نريد به المنزل، فالتفَتَ إليَّ وقال لي: يا مولاي الصغير، لماذا اشتريتني؟ فأنا والله لا أصلح لخدمة المخلوقين. فقلتُ له: إنما اشتريتُك لأخدمك بنفسي وعلى رأسي. فقال لي: ولِمَ ذلك؟ فقلتُ: ألستَ صاحبنا البارحة بالمصلَّى؟ فقال: وهل اطَّلَعْتَ عليَّ؟ قلت: أنا الذي اعترضتُكَ البارحة في الكلام. قال: فجعل يمشي حتى دخل مسجدًا، فصلَّى ركعتين ثم قال: إلهي وسيدي ومولاي، سرٌّ كان بيني

وبينك أطلعت عليه المخلوقين وفضحتني فيه بين العالمين، فكيف يطيب الآن عيشي وقد وقف على ما كان بيني وبينك غيرُك؟ أقسمتُ عليك إلا ما قبضتَ روحي الساعة. ثم سجد، فانتظرتُه ساعةً فلم يرفع رأسه، فحرَّكْتُه فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه. فمددتُ يدَيْه ورجلَيْه ونظرتُ إليه فإذا هو ضاحك وقد غلب البياض على السواد، ووجهه يستنير ويبدو متهللًا. فبينما نحن نعجب من أمره، إذا بشاب قد أقبل من الباب وقال: السلام عليكم، عظَّمَ الله أجرنا وإياكم في أخينا ميمون، هاك الكفن فكفِّنوه فيه. فناوَلَني ثوبين ما رأيتُ مثلَهما قطُّ، فكفَّناه فيهما. قال مالك: فقبره الآن يُستسقَى به وتُطلَب الحوائج من الله عز وجل لديه. وما أحلى ما قال بعضهم في هذا المعنى:

مَجَالُ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بِرَوْضَةٍ سَمَاوِيَّةٍ مِنْ دُونِهَا حُجِبَ الرَّبُّ
إِذَا شَرِبُوا فِيهَا الرَّحِيقَ مِزَاجُهُ بِتَسْنِيمِ رَاحِ الْأُنْسِ بِاللهِ مِنْ قُرْبِ
سَرَى سِرُّهُمْ بَيْنَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَهُمْ فَأَضْحَى مَصُونًا عَنْ سِوَى ذَلِكَ الْقَلْبِ

حكاية المتعبِّد الإسرائيلي وزوجته

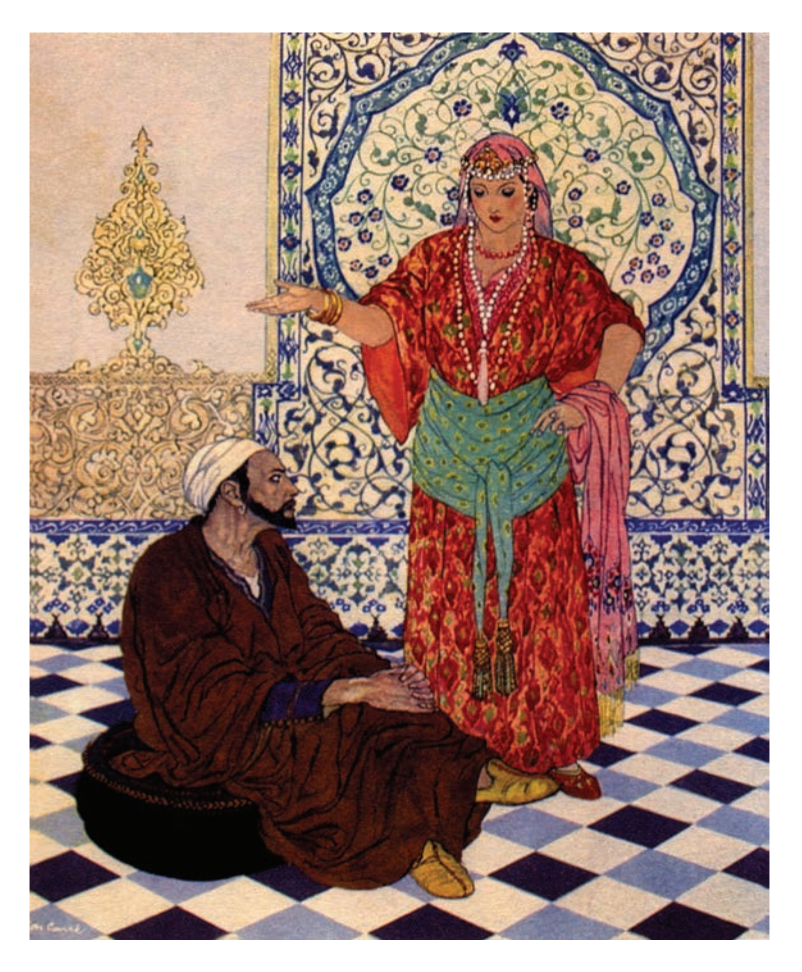
ومما يُحكَى أنه كان من بني إسرائيل رجل من خيارهم، وقد اجتهَدَ في عبادة ربه، وزهد في دنياه، وأزالها عن قلبه، وكانت له زوجة مساعدة على شأنه، مطيعة له في كل زمانه، وكانا يعيشان من عمل الأطباق والمراوح، يعملان النهار كله، فإذا كان آخر النهار خرج الرجل بما عملاه في يده، ومشى به يمر على الأزِقَّة والطُّرُق، يلتمس مشتريًا يبيع له ذلك، وكانا يُدِيمان الصوم، فأصبحَا في يومٍ من الأيام وهما صائمان، وقد عملَا يومهما ذلك، فلما كان آخِر النهار، خرج الرجل على عادته، وبيده ما عملاه يطلب مَن يشتريه منه، فمرَّ بباب أحد أبناء الدنيا، وأهل الرفاهية والجاه، وكان الرجل وضيء الوجه، جميل الصورة، فرأته امرأة صاحب الدار فعشقته، ومال قلبها إليه ميلًا شديدًا، وكان زوجها غائبًا، فدعَتْ خادمتها وقالت لها: لعلك تتحيَّلين على ذلك الرجل لتأتي به عندنا. فخرجت الخادمة، ودعته لتشتري منه ما بيده، وردَّتْه من طريقه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الخادمة خرجَتْ إلى الرجل ودَعَتْه، وقالت: ادخل فإن سيدتي تريد أن تشتري من هذا الذي بيدك شيئًا بعد أن تختبره وتنظر إليه. فتخيَّلَ الرجل أنها صادقة في قولها، ولم يَرَ في ذلك بأسًا، فدخل وقعد كما أمرته، فأغلقت الباب عليه، وخرجت سيدتها من بيتها، وأمسكت جلابيبه وجذبته وأدخلته، وقالت له: كم ذا؟ أطلب خلوة منك، وقد عِيل صبري من أجلك، وهذا البيت مبخَّر، والطعام محضَّر، وصاحب الدار غائب في هذه الليلة، وأنا قد وهبتُ لك نفسي، ولطالما طلبني الملوك والرؤساء وأصحاب الدنيا ولم ألتفت لأحدٍ منهم. وطال أمرها في القول، والرجل لا يرفع رأسه من الأرض حياءً من الله تعالى، وخوفًا من أليم عقابه، كما قال الشاعر:

وَرُبَّ كَبِيرَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي ... وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلَّا الْحَيَاءُ
وَكَانَ هُوَ الدَّوَاءُ لَهَا وَلَكِنْ ... إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ فَلَا دَوَاءُ

قال: وطمع الرجل في أن يخلص نفسه منها، فلم يقدر، فقال: أريد منك شيئًا. قالت: وما هو؟ قال: أريد ماءً طاهرًا أصعد به إلى أعلى موضع في دارك لأقضي به أمرًا، وأغسل به درنًا ممَّا لا يمكنني أن أُطلِعَك عليه. فقالت: الدار متَّسِعة، ولها خبايا وزوايا، وبيت الطهرة مُعَدٌّ. قال: ما غرضي إلا الارتفاع. فقالت لخادمتها: اصعدي به إلى المنظرة العليا من الدار. فصعدَتْ به إلى أعلى موضع فيها، ودفعت له آنية الماء ونزلت، فتوضَّأَ الرجل وصلَّى ركعتين، ونظر إلى الأرض ليُلقِي نفسه، فرآها بعيدة، فخاف ألَّا يصل إليها إلا وقد تمزَّقَ، ثم تفكَّرَ في معصية الله تعالى وعقابه، فهان عليه بذل نفسه وسفك دمه، فقال:



أدخلَته وقالت له: هذا البيت مُبخَّر، والطعام مُحضَّر، وصاحب الدار غائبٌ.

إلهي وسيدي، ترى ما نزل بي، ولا يخفى عليك حالي، إنك على كل شيء قدير. ولسان الحال يُنشِد ويقول في المعنى:

أَشَارَ الْقَلْبُ نَحْوَكَ وَالضَّمِيرُ وَسِرُّ السِّرِّ أَنْتَ بِهِ خَبِيرُ
وَإِنِّي إِنْ نَطَقْتُ بِكُمْ أُنَادِي وَفِي وَقْتِ السُّكُوتِ لَكُمْ أُشِيرُ

أَيَا مَنْ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ ثَانٍ أَتَاكَ الْوَالِهُ الصَّبُّ الْفَقِيرُ
وَلِي أَمَلٌ تُحَقِّقُهُ ظُنُونِي وَلِي قَلْبٌ كَمَا تَدْرِي يَطِيرُ
وَبَذْلُ النَّفْسِ أَصْعَبُ مَا يُلَاقِي فَإِنْ قَدَّرْتَهُ فَهْوَ الْيَسِيرُ
وَإِنْ تَمْنُنْ وَتَمْنَحْنِي خَلَاصِي فَأَنْتَ عَلَيْهِ يَا أَمَلِي قَدِيرُ

ثم إن الرجل ألقى نفسه من أعلى المنظرة، فبعث الله إليه ملكًا احتمله على جناحه، وأنزله إلى الأرض سالمًا دون أن يناله ما يؤذيه، فلما استقرَّ بالأرض حمد الله عزَّ وجلَّ على ما أولاه من عصمته، وما أناله من رحمته، وسار دون شيء إلى زوجته، وكان قد أبطأ عنها، فدخل وليس معه شيء، فسألته عن سبب بطئه، وعمَّا خرج به في يده، وما فعل به، وكيف رجع بدون شيء، فأخبرها بما عرض له من الفتنة، وأنه ألقى نفسه من ذلك الموضع فنجَّاه الله، فقالت زوجته: الحمد لله الذي صرف عنك الفتنة، وحال بينك وبين المحنة. ثم قالت: يا رجل، إن الجيران قد تعوَّدوا منَّا أن نُوقِد تنُّورَنا في كل ليلة، فإن رأونا الليلة دون نارٍ علموا أننا بلا شيء، ومن شكر الله كتم ما نحن فيه من الخصاصة، ووصال صوم هذه الليلة باليوم الماضي، وقيامها لله تعالى. فقامت إلى التنُّورِ، وملأته حطبًا، وأضرمته لتغالِط به الجارات، وأنشدت تقول هذه الأبيات:

سَأَكْتُمُ مَا بِي مِنْ غَرَامِي وَأَشْجَانِي وَأُضْرِمُ نَارِي كَيْ أُغَالِطَ جِيرَانِي
وَأَرْضَى بِمَا أَمْضَى مِنَ الْحُكْمِ سَيِّدِي عَسَاهُ يَرَى ذُلِّي إِلَيْهِ فَيَرْضَانِي

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة لما أضرمَتِ النار تغالط الجيران، نهضت هي وزوجها وتوضَآ وقامَا إلى الصلاة، فإذا امرأة من جارتها تستأذن في أن توقد من تنُّورِهما، فقالا لها: شأنك والتنُّور. فلما دَنَتِ المرأة من التنُّور لتأخذ النارَ نادت: يا فلانة، أدركي خبزك قبل أن يحترق. فقالت امرأة الرجل لزوجها: أسمعتَ ما تقول هذه المرأة؟ فقال: قومي وانظري. فقامت وتوجَّهَتْ للتنُّور، فإذا هو قد امتلأ من خبز نقي أبيض، فأخذت المرأة الأرغفة، ودخلت على زوجها وهي تشكر الله عزَّ وجلَّ على ما أولى من الخير العميم، والمنِّ الجسيم، فأكلَا من الخبز، وشربَا من الماء، وحمدَا الله تعالى، ثم قالت المرأة لزوجها: تعال ندعُ الله تعالى عساه أن يمنَّ علينا بشيء يُغنِينا عن كدِّ المعيشة، وتعب العمل، ويُعِيننا به على عبادته والقيام بطاعته. قال لها: نعم. فدعا الرجل ربَّه، وأمَّنَتِ المرأة على دعائه، فإذا السقف قد انفرج، ونزلت ياقوتة أضاء البيت من نورها، فزادَا شكرًا وثناءً، وسُرَّا بتلك الياقوتة سرورًا كثيرًا، وصليَا ما شاء الله تعالى. فلما كانَا آخِر الليل نامَا، فرأت المرأة في منامها كأنها دخلَتِ الجنة، وشاهدت منابر كثيرة مصفوفة، وكراسي منصوبة، فقالت: ما هذه المنابر، وما هذه الكراسي؟ فقيل لها: هذه منابر الأنبياء، وهذه كراسي الصديقين والصالحين. فقالت: وأين كرسي زوجي فلان؟ فقيل لها: هذا. فنظرت إليه فإذا في جانبه ثلم، فقالت: وما هذا الثلم؟ فقيل لها: هو ثلم الياقوتة النازلة عليكما من سقف بيتكما. فانتبهت من منامها وهي باكية حزينة على نقصان كرسي زوجها بين كراسي الصدِّيقين، فقالت: أيها الرجل، ادعُ ربَّكَ أن يردَّ هذه الياقوتة إلى موضعها؛ فمكابدةُ الجوع والمسكنةُ في الأيام القلائل أهون من ثلم كرسيك بين أصحاب الفضائل. فدعا الرجل ربه، فإذا الياقوتة قد طارت صاعدةً إلى السقف، وهما ينظران إليها، وما زالا على فقرهما وعبادتهما، حتى لقيَا الله عزَّ وجلَّ.

حكاية الحجاج بن يوسف الثقفي والسجين المتعبِّد

ومما يُحكَى أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان يتطلَّب رجلًا من الأكابر، فلما حضر بين يدَيْه قال: أي عدو الله قد أمكن الله منك. ثم قال: احملوه إلى السجن وقيِّدوه بقيد ضيق ثقيل، وابنوا عليه بيتًا لا يخرج منه، ولا يدخل إليه فيه أحد. فأمر بالرجل إلى السجن وأحضر الحداد والقيد، وكان الحداد إذا ضرب بمطرقته يرفع الرجل رأسه وينظر إلى السماء ويقول: أَلَا له الخلق والأمر. فلما فرغ منه بنى السجَّان عليه البيت وتركه فيه وحيدًا فريدًا؛ فداخَلَه الوَجْد والذهول ولسان حاله ينشد ويقول:

يَا مُرَادَ الْمُرِيدِ أَنْتَ مُرَادِي ... وَعَلَى فَضْلِكَ العَمِيمِ اعْتِمَادِي
لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ مَا أَنَا فِيهِ ... لَحْظَةً مِنْكَ بُغْيَتِي وَاقْتِصَادِي
سَجَنُونِي وَبَالَغُوا فِي امْتِحَانِي ... وَيْحَ نَفْسِي لِغُرْبَتِي وَانْفِرَادِي
إِنْ أَكُنْ مُفْرَدًا فَذِكْرُكَ أُنْسِي ... وَسَمِيرِي إِذَا مُنِعْتُ رُقَادِي
إِنْ تَكُنْ رَاضِيًا فَلَسْتُ أُبَالِي ... أَنْتَ تَدْرِي بِمَا تَرَى فِي فُؤَادِي

فلما جنَّ الليل أبقى السجَّان حرسه عنده وذهب إلى بيته، ولما أصبح جاء وتفقَّدَ الرجل فإذا القيد مطروح والرجل ليس له خبر؛ فخاف السجان وأيقَنَ بالموت، فسار إلى منزله وودَّعَ أهله وأخذ كفنه وحنوطه في كمه ودخل على الحجاج؛ فلما وقف بين يدَيْه شمَّ الحجاج رائحة الحنوط فقال: ما هذا؟ قال: يا مولاي، أنا جئتُ به. قال: وما حملك على هذا؟ فأخبره بخبر الرجل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السجَّان لما أخبر الحجاج بخبر الرجل قال للرجل: ويحك! هل سمعتَه يقول شيئًا؟ قال: نعم. كان إذا ضرب الحداد بالمطرقة ينظر إلى السماء ويقول: أَلَا له الخلق والأمر. فقال الحجاج: أَوَمَا علمتَ أن الذي ذكره وأنت حاضر، سرحه وأنت عنه غائب؟ وقد أنشَدَ لسان الحال في هذا المعنى وقال:

يَا رَبُّ كَمْ مِنْ بَلَاءٍ قَدْ ذَهَبْتَ بِهِ عَنِّي وَلَوْلَاكَ لَمْ أَقْعُدْ وَلَمْ أَقُمِ
فَكَمْ وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ لَسْتُ أَحْصُرُهَا نَجَّيْتَنِي مِنْ بَلَاهَا كَمْ وَكَمْ وَكَمِ

حكاية الحداد الذي يُدخِل يدَه في النار فلا تعدو عليه

وحُكِي أن رجلًا من الصالحين بلغه أن بمدينة كذا وكذا حدادًا يُدخِل يدَه في النار، ويأخذ الحديدة المحماة منها بها فلا تعدو عليه النار؛ فقصد الرجلُ تلك البلدة يسأل عن الحدَّاد، فدُلَّ عليه، فلما نظره وتأمَّلَه رآه يصنع ما قد وُصِف له، فأمهله حتى فرغ من عمله وأتاه وسلَّمَ عليه، وقال له: إني أريد أن أكون الليلةَ ضيفَك. فقال: حبًّا وكرامة. فاحتمله إلى منزله وتعشَّى معه وناما جميعًا، فلم يَرَ له أثر قيام ولا عبادة، فقال في نفسه: لعله يستتر مني. فبات عنده ثانية وثالثة، فرآه لا يزيد على الفرض إلا السنن، ولا يقوم من الليل إلا القليل. فقال له: يا أخي، إني سمعتُ عمَّا أكرَمَك الله به ورأيتُه باديًا عليك، ثم نظرتُ إلى اجتهادك فلم أَرَ منك عملَ مَن تظهر عليه الكرامات؛ فمن أين لك هذا؟ قال: إني أحدِّثك بسببه؛ وذلك أني كنتُ تولَّعْتُ بجارية وكنتُ بها كَلِفًا، فراودْتُها عن نفسها كثيرًا، فلم أقدر عليها لاعتصامها بالوَرَع، فجاءت سنةُ قحطٍ وجوعٍ وشدة، فعُدِم الطعام وعَظُم

الجوع، فبينما أنا قاعد إذ قرع البابَ قارعٌ، فخرجت، فإذا هي واقفة فقالت: يا أخي، أصابني جوع شديد وقد رفعتُ إليك رأسي لتُطعِمني لله. فقلت لها: أَمَا تعلمين ما كان من حبك وما قاسيتُه من أجلك؟ فأنا لا أُطعِمُك شيئًا حتى تمكِّنيني من نفسك. فقالت: الموت ولا معصية الله. ثم رجعت وعادَتْ بعد يومين، فقالت لي مثل مقالتها الأولى، وقلت مثل جوابي الأول؛ فدخلَتْ وقعدَتْ في البيت وقد أشرفَتْ على الهلاك، فلما جعلْتُ الطعامَ بين يديها، ذرفت عيناها وقالت: أطعمني لله عزَّ وجلَّ. فقلتُ لها: لا والله إلا أن تمكِّنيني من نفسك. فقالت: الموت خير لي من عذاب الله تعالى. وقامت وتركَتِ الطعام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة قالت للرجل حين أتاها بالطعام: أَطْعِمْني لله عزَّ وجلَّ. فقال: لا، إلا أن تمكِّنيني من نفسك. فقالت: الموت ولا عذاب الله. ثم قامت وتركت الطعام وخرجت ولم تأكل شيئًا، وجعلت تقول هذه الأبيات:

أَيَا وَاحِدًا إِحْسَانُهُ شَمَلَ الْخَلْقَا ... بِسَمْعِكَ مَا أَشْكُو بِعَيْنِكَ مَا أَلْقَى
فَقَدْ صَدَمَتْنِي شِدَّةٌ وَخَصَاصَةٌ ... وَنَازَلَنِي مَا بَعْضُهُ يَمْنَعُ النُّطْقَا
كَأَنِّي ظَمْآنٌ تَرَى الْمَاءَ عَيْنُهُ ... فَلَا عَيْنُهُ تُرْوَى وَلَا شُرْبَةً يُسْقَى
تُنَازِعُنِي نَفْسِي إِلَى نَيْلِ أَكْلَةٍ ... لَذَاذَتُهَا تَفْنَى وَعِصْيَانُهَا يَبْقَى

ثم إنها غابت يومين وأتَتْ تقرع الباب، فخرجت فإذا الجوع قد قطع صوتها، فقالت لي: يا أخي، قد أعيتني الحِيَل ولا أقدر على إبداء وجهي لأحد من الناس غيرك، فهل تُطعِمني لله تعالى؟ فقلت: لا، إلا أن تمكِّنيني من نفسك. فدخلَتْ وقعدت في البيت ولم يكن عندي طعام حاضر، فلما نضج الطعام وجعلتُه في القصعة، تداركني الله تعالى وقلت لنفسي: ويحك! هذه امرأة ناقصة عقل ودين تمتنع من الطعام، ولا قدرةَ لها على الصبر دونه لما نالَهَا من الجوع، وهي ترد المرة بعد الأخرى وأنت لا تنثني عن معصية الله تعالى. فقلت: اللهم إني أتوب إليك مما خطر بنفسي. فقمت بالطعام ودخلت عليها وقلت لها: كُلِي ولا بأسَ عليك، فإنه لله عزَّ وجلَّ. فرفعَتْ عينها إلى السماء وقالت: اللهم إنْ كان هذا صادقًا فحرِّمْ عليه النار في الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير. قال: فتركتُها وقمتُ لأزيل النار من الكانون، وكان الوقت وقتَ فصل الشتاء والبرد، فوقعَتْ

جمرةٌ على بدني، فلم أجد لها أَلَمًا بقدرة الله عزَّ وجلَّ، فوقع في نفسي أنَّ دعوتَها أُجِيبت؛ فأخذتُ الجمرة بكفي فلم تحرقني، فدخلتُ عليها وقلت: أَبْشِرِي فإن الله قد أجاب دعوتَكِ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحداد قال لها: أبشري فإن الله قد أجاب دعوتك. فألقت اللقمة من يدها وقالت: اللهم كما أريتَني مرادي فيه وأجبتَ دعوتي له، فاقبض روحي إنك على كل شيء قدير. فقبض الله روحها تلك الساعة رحمة الله عليها. وأنشد لسان الحال في هذا المعنى وقال:

دَعَتْ فَأَجَابَ مَوْلَاهَا دُعَاهَا ... وَتَابَ عَلَى غَوِيٍّ قَدْ دَعَاهَا
أَرَاهَا سُؤْلَهَا فِيهِ امْتِنَانًا ... وَوَاتَاهَا كَمَا شَاءَتْ مُنَاهَا
أَتَتْهُ لِبَابِهِ تَرْجُو نَوَالًا ... وَتَقْصِدُهُ لِكَرْبٍ قَدْ عَرَاهَا
فَمَالَ إِلَى غِوَايَتِهِ وَأَهْوَى ... لِشَهْوَتِهِ وَأَمَّلَ مُنْتَهَاهَا
وَلَمْ يَعْلَمْ مُرَادَ اللهِ فِيهِ ... وَتَوْبَتُهُ أَتَتْهُ وَمَا نَوَاهَا
قَضَايَا اللهِ أَرْزَاقٌ فَمَنْ لَا ... تُتَاحُ لَهُ وَتَأْتِيهِ أَتَاهَا

حكاية رجل إسرائيلي وسحابة

وحُكِي أنه كان في بني إسرائيل رجل من العباد المشهورين بالعبادة المعصومين الموصوفين بالزهادة، وكان إذا دعا ربه أجابه، وإذا سأل أعطاه وآتاه مُنَاه، وكان سيَّاحًا في الجبال قوَّام الليل، وكان الله سبحانه وتعالى قد سخر له سحابة تسير معه حيث يسير، وتسكب عليه ماء منهمرًا فيتوضأ منه ويشرب؛ فما زال على ذلك إلى أن اعتراه فتور في بعض الأوقات، فأزال الله عنه سحابته وحجب عنه إجابته؛ فكثر لذلك حزنه وطال كمده، وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة الممنون بها عليه، ويتحسَّر ويتأسَّف ويتلهَّف؛ فنام ليلة من الليالي، فقيل له في نومه: إنْ شئتَ أن يردَّ الله عليك سحابتك، فاقصد الملك الفلاني في بلد كذا أو

كذا، واسأله أن يدعو لك فإن الله سبحانه وتعالى يردُّها عليك ويسوقها إليك ببركة دعواته الصالحات. وأنشد يقول هذه الأبيات:

أَقْصِدْ إِلَى الصَّالِحِ الْأَمِيرِ ... فِي خَطْبِكَ الْوَاقِعِ الْكَبِيرِ
فَإِنْ دَعَا اللهُ جَاءَ مَا قَدْ ... سَأَلْتَ مِنْ وَابِلٍ هَمِيرِ
لَقَدْ سَمَا فِي الْمُلُوكِ قَدْرًا ... وَجَلَّ فِيهِمْ عَنِ النَّظِيرِ
وَسَوْفَ تَلْقَى لَدَيْهِ أَمْرًا ... يُؤْذِنُ بِالْبِشْرِ وَالسُّرُورِ
فَاقْطَعْ لَهُ الْبِيدَ وَالْفَيَافِي ... وَوَاصِلِ السَّيْرَ بِالْمَسِيرِ

قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى دخل البلدة التي ذُكِرت له في المنام، فسأل عن الملك فدُلَّ عليه، فسار إلى قصره، فإذا عند باب القصر غلام قاعِد على كرسي عظيم، وعليه كسوة هائلة، فوقف الرجل وسلَّمَ، فردَّ عليه السلام وقال: ما حاجتك؟ قال: أنا رجل مظلوم وقد جئتُ الملكَ أرفع قصتي إليه. قال: لا سبيل لك اليوم عليه؛ لأنه قد جعل لأهل المسائل في الأسبوع يومًا يدخلون عليه فيه، وهو يوم كذا أو كذا، فسِرْ راشدًا حتى يأتي ذلك اليوم. فأنكر الرجل عليه تحجُّبَه عن الناس وقال: كيف يكون هذا وليًّا من أولياء الله عزَّ وجلَّ، وهو على مثل هذا الحال؟

وذهب ينتظر اليوم الذي قيل له عليه، فلما كان ذلك اليوم الذي ذكره البوَّاب دخلت، فوجدت عند الباب أناسًا ينتظرون الإذن لهم في الدخول؛ فوقفت معهم إلى أن خرج وزير عليه ثياب هائلة، وبين يديه خدم وعبيد فقال: ليدخل أرباب المسائل. فدخلوا ودخلت في الجملة، فإذا الملك قاعد وبين يديه أرباب مملكته على قدر مقاديرهم ومراتبهم؛ فوقف الوزير وجعل يقدِّم واحدًا بعد واحد حتى وصلَتِ النوبة إليَّ، فلما قدَّمني الوزير نظر الملك إليَّ وقال: مرحبًا بصاحب السحابة، أقعد حتى أفرغ لك. فتحيَّرْتُ من قوله واعترفتُ بمرتبته وفضله. فلما قضى بين الناس وفرغ منهم قام وقام الوزير وأرباب المملكة، ثم أخذ الملك بيدي وأدخلني إلى قصره، فوجدت عند باب القصر عبدًا أسود وعليه ثياب هائلة، وفوق رأسه أسلحة، وعن يمينه وشماله دروع وقسي؛ فقام إلى الملك وسارَعَ لأمره وقضاء حوائجه، ثم فتح باب القصر فدخل الملك ويدي في يده، فإذا بين يدَيْه باب قصير ففتحه الملك بنفسه ودخل إلى خربة وبناء هائل، ثم دخل إلى بيت ليس فيه إلا سجادة وقدح للوضوء وشيء من الخوص؛ ثم جرَّدَ ثيابه التي كانت عليه، ولبس جبة خشنة من الصوف الأبيض، وجعل على رأسه قلنسوة من لبد، ثم قعد وأقعدني ونادى أن يا فلانة

لزوجته، فقالت له: لبيك. قال لها: أتدرين مَن ضيفنا في هذا اليوم؟ قالت: نعم، هو صاحب السحابة. فقال لها: اخرجي لا عليك منه. قال: فإذا هي امرأة كأنها الخيال، ووجهها يتلألأ كالهلال، وعليها جبة صوف وقناع. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما نادَى زوجته، خرجَتْ ووجهها يتلألأ كالهلال، وعليها جبة خشنة من صوف وقناع، فقال الملك: يا أخي، أتريد أن تعرف خبرنا أم ندعو لك وتنصرف؟ قال: بل أريد أن أسمع خبركما فإنه الأشوق إليَّ. فقال له: إنه كان آبائي وأجدادي يتداولون المملكة ويتوارثونها كابرًا عن كابر، إلى أن ماتوا ووصل الأمر إليَّ، فبغض الله ذلك لي؛ فأردت أن أسيح في الأرض وأترك أمر الناس لأنفسهم، ثم إني خفتُ عليهم من دخول الفتنة وتضييع الشرائع وتشتيت شمل الدين، فتركت الأمر على ما كان عليه، وجعلت لكل رأس منهم جراية بالمعروف، ولبست ثياب الملك وأقعدت العبيد على الأبواب إرهابًا لأهل الشر وذابًّا عن أهل الخير وإقامة للحدود؛ فإذا فرغتُ من ذلك كله دخلتُ منزلي وأزلتُ هذه الثياب ولبست ما ترى، وهذه ابنة عمي وافقَتْني على الزهادة وساعدتني على العبادة؛ فنعمل من هذا الخوص بالنهار ما نفطر به عند الليل، وقد مضى علينا ونحن على هذه الحالة نحو أربعين سنة، فأَقِمْ معنا يرحمك الله حتى نبيع خوصنا وتفطر معنا وتبيت عندنا ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى. قال: فلما كان آخِر النهار، أتى غلام خماسي ودخل، فأخذ ما عملاه من الخوص وسار به إلى السوق، فباعه بقيراط واشترى به خبزًا وفولًا وأتى بهما، فأفطرت معهما ونمت عندهما؛ فقاما من نصف الليل يصليان ويبكيان، فلما كان السحر قال الملك: اللهم إن هذا عبدك يطلب منك أن ترد سحابته عليه، وأنت على ذلك قدير، اللهم أَرِه إجابته واردُدْ عليه سحابته. قال: وأَمَّنَتِ المرأة، فإذا السحابة قد نشأت في السماء. فقال لي: البشارة. فودَّعْتُهما وانصرفتُ،

والسحابة تسير معي كما كانت. فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بحرمتهما شيئًا إلا أجابني، وأنشأت أقول هذه الأبيات:

وَإِنَّ لِـرَبِّـي صَـفْـوَةً مِـنْ عَـبِـيـدِهِ قُلُوبُهُمُو فِي رَوْضِ حِكْمَتِهِ تَجْرِي
وَأَبْدَانُـهُـمْ قَـدْ أُسْـكِـنَـتْ حَـرَكَـاتُـهَـا لِمَا فِي صُدُورِ الْقَوْمِ مِنْ خَالِصِ السِّرِّ
تَـرَاهُـمْ صُـمُـوتًـا خَـاشِـعِـيـنَ لِـرَبِّـهِـمْ بِحَيْثُ يَرَوْنَ الْغَيْبَ بِالْغَيْبِ كَالْجَهْرِ

حكاية المسلم الجريء والنصراني

وحُكِي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جهَّزَ جيشًا من المسلمين تجاه العدو قبل الشام، فحاصروا حصنًا من حصونهم حصارًا شديدًا، وكان في المسلمين رجلان أخوان قد آتاهما الله حدة وجراءة على العدو، وكان أمير ذلك الحصن يقول لأقياله ومَن بين يدَيْه من أبطاله: لو أن هذين المسلمين خطلَا أو قتلَا لَكفيتكم مَن سواهما من المسلمين. قال: فما زالوا ينصبون لهما المصائد ويحتالون عليهما بالمكائد، ويجعلون المكامن ويكثرون الكوامن، إلى أن أُخِذ أحدهما أسيرًا وقُتِل الآخَر شهيدًا؛ فاحتُمِل المسلم الأسير إلى أمير ذلك الحصن، فلما نظر إليه قال: إنَّ قتْلَ هذا لمصيبة، وإن رجوعه إلى المسلمين لكريهة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العدو لما حملوا المسلم الأسير إلى أمير ذلك الحصن ونظر إليه قال: إنَّ قتْلَ هذا لمصيبة ورجوعه إلى المسلمين لكريهة، ووددت لو يدخل في دين النصرانية عونًا وعضدًا. فقال بطريق من بطارقته: أيها الأمير، أنا أفتنه حتى يرتدَّ عن دينه؛ وذلك أن العرب تكثر الصبوة إلى النساء، ولي بنت لها جمال وكمال، فلو رآها لَفُتِنَ بها. فقال: هو مُسلَّم إليك فاحمله. فحمله إلى منزله، وألبس الصبِيَّة من الثياب ما زاد في زينتها وجمالها، وجاء بالرجل وأدخله المنزل، وأحضر الطعام ووقفت الصبِيَّة النصرانية بين يدَيْه كالخادمة المطيعة لسيدها تنتظر أن يأمرها بأمر تمتثله؛ فلما رأى المسلم ما نزل به، اعتصم بالله تعالى وغضَّ بصره واشتغل بعبادة ربه وقراءة القرآن، وكان له صوتٌ حَسَن وقريحة مؤثرة في النفس، فأَحَبَّته الصبية النصرانية حبًّا شديدًا، وكَلِفت به كَلَفًا عظيمًا. وما زال كذلك سبعة أيام حتى صارت تقول: ليته يرضى بدخولي في الإسلام. ولسان حالها ينشد هذه الأبيات:

أَتَعْرِضُ عَنِّي وَالْفُؤَادُ لَكُمْ يَصْبُو	فَدَاؤُكُمُو نَفْسِي وَمَثْوَاكُمُ الْقَلْبُ
وَإِنِّي لَأَرْضَى أَنْ أُفَارِقَ فِرْقَتِي	وَأَتْرُكَ دِينًا دُونَهُ الصَّارِمُ الْعَضْبُ
وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ	بِذَا ثَبَتَ الْبُرْهَانُ وَارْتَفَعَ الرَّيْبُ
عَسَى أَنَّهُ يَقْضِي بِوَصْلِهِ مُعْرِضٌ	وَيُبْرِدُ قَلْبًا شَفَّهُ الشَّوْقُ وَالْحُبُّ
فَقَدْ تُفْتَحُ الْأَبْوَابُ بَعْدَ تَغَلُّقٍ	وَيُعْطَى الْأَمَانِيَ مَنْ تَدَاوَلَهُ الْكَرْبُ

فلما عيل صبرها وضاق صدرها، ترامت بين يدَيْه وقالت: أسألك بدينك إلا ما سمعتَ كلامي. فقال: وما كلامك؟ قالت: اعرضْ عليَّ الإسلامَ. فعرضه عليها وأسلمَتْ، ثم تطهَّرَتْ وعلَّمَها كيف تصلِّي؛ فلما فعلت ذلك قالت: يا أخي، إنما كان دخولي في الإسلام بسببك

وابتغاء قُرْبِك. فقال لها: إن الإسلام يمنع من النكاح إلا بشاهدين عَدْلين ومَهْرٍ ووَلِيٍّ، وأنا لا أجد الشاهدين، ولا الولي، ولا المهر، فلو تحيَّلْتِ في خروجنا من هذا الوضع لَرجوتُ الوصولَ إلى دار الإسلام، وأعاهِدُكِ على ألَّا يكون لي زوجة في الإسلام غيرك. فقالت: أنا أحتال لذلك. ثم دعت أباها وأمها وقالت لهما: إن هذا المسلم قد لانَ قلبُه ورغب في الدخول إلى الدين، وأنا أوصله إلى ما يريد من نفسي. فقال: إن هذا لا يتَّفِق لي في بلدٍ قُتِل فيه أخي، فلو خرجتُ منه ليتسلَّى قلبي وفعلتُ ما هو المراد مني، ولا بأسَ أن تُخرِجاني معه إلى بلد أخرى، فإني ضامنة لكما وللمَلِك ما تريدونه. قال: فمشى والدها إلى أميرهم وعرَّفه، فسُرَّ بذلك سرورًا كبيرًا، وأمر بإخراجهما معه إلى القرية التي ذكرَتْ؛ فخرجَا، فلما وصلَا إلى القرية وبقيَا يومهما، وجَنَّ الليل عليهما، أخذَا في الرحيل وقطع السبيل، كما قال بعضهم شعرًا:

وَقَالُوا قَدْ دَنَا مِنَّا رَحِيلٌ ... فَقُلْتُ وَكَمْ أُهَدِّدُ بِالرَّحِيلِ
وَمَا لِي غَيْرَ جَوْبِ الْقَفْرِ شُغْلٌ ... وَقَطْعِ الْأَرْضِ مِيلًا بَعْدَ مِيلِ
لَئِنْ ظَعَنَ الْأَحِبَّةُ نَحْوَ أَرْضٍ ... رَجَعْتُ بِهَا مِنْ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ
وَأَجْعَلُ نَحْوَهُمْ شَوْقِي دَلِيلًا ... فَتَهْدِينِي الطَّرِيقَ بِلَا دَلِيلِ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المسلم الأسير والصبية أقامَا بتلك القرية التي دخلَاها بقية يومهما، ولما جَنَّ عليهما الليل أخذَا في الرحيل وقَطْع السبيل، وسارَا ليلتهما تلك، وكان الشاب قد ركب جوادًا سابقًا وأردفها خلفه؛ فما زال يقطع الأرضَ حتى قرب الصباح، فمال بها عن الطريق وأنزلها وتوضَّأَ وصلَّيَا الصبح. فبينما هما كذلك إذ سمعَا قعقعةَ السلاح وصلصلةَ اللجم وكلامَ الرجال وحوافرَ الخيل، فقال لها: يا فلانة، هذا تبع النصارى قد أدركنا، فما تكون الحيلة والفرس قد كَلَّ ومَلَّ حتى لا يقدر أن يخطو باعًا. فقالت له: ويحلك! أَفَزِعْتَ وخفْتَ؟ قال: نعم. قالت: فأين ما كنتَ تحدِّثني به من قدرة ربك وغياثته مستغيثين؟ تعال نتضرَّع إليه وندعه لعله يغيثنا بغياثه ويتداركنا بلطفه سبحانه وتعالى. فقال: نِعْمَ والله ما قلتِ. فأخذَا في التضرُّع إلى الله تعالى، وجعل ينشد ويقول هذا الأبيات:

إِنِّي إِلَيْكَ مَدَى السَّاعَاتِ مُحْتَاجُ ... لَوْ كَانَ فِي مَفْرِقِي الْإِكْلِيلُ وَالتَّاجُ
وَأَنْتَ حَاجَتِي الْكُبْرَى فَلَوْ ظَفِرَتْ ... بِمَا أَرَدْتَ يَدِي لَمْ يَبْقَ لِي حَاجُ
وَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَنْتَ مَانِعُهُ ... بَلْ سَيْلُ جُودِكَ سَيَّالٌ وَثَجَّاجُ
لَكِنَّنِي أَنَا مَحْجُوبٌ بِمَعْصِيَتِي ... وَنُورُ عَفْوِكَ يَا ذَا الْحِلْمِ وَهَّاجُ
يَا فَارِجَ الْهَمِّ فَرِّجْ مَا بُلِيتُ بِهِ ... فَمَنْ سِوَاكَ لِهَذَا الْهَمِّ فَرَّاجُ

قال: فبينما هو يدعو والجارية تؤمِّن على دعائه، ووجيف الخيل يقرب منهما، إذ سمع الفتى كلام أخيه الشهيد المقتول وهو يقول: يا أخي، لا تَخَفْ ولا تخزن، فالوفد وفد الله وملائكته، أرسَلَهم إليكما ليشهدوا عليكما في التزويج، وإنَّ الله تعالى قد باهى

بكما ملائكته وأعطاكما أجرَ السعداء والشهداء، وطوى لكما الأرض، وإنك تصبح بجبال المدينة، فإذا اجتمعت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فاقرأ عليه السلام مني وقل له: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، فلقد نصحتَ واجتهدتَ. ثم رفعت الملائكة أصواتها بالسلام عليه وعلى زوجته وقالوا: إن الله تعالى زوَّجَها منك قبل أن يخلق أباكما آدم عليه السلام بألفَيْ عام. قال: فغشيهما البشر والسرور والأمن والحبور، وزاد اليقين وثبتَتْ هداية المتقين. ولما طلع الفجر وصلَّيَا الصبح، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يغلس بصلاة الصبح، وربما دخل المحراب وخلفه رجلان فيبتدئ الصلاة بسورة الأنعام وبسورة النساء، فينتبه الراقد ويتوضأ المتوضئ ويأتي البعيد، فما يتم الركعة الأولى إلا والمسجد قد امتلأ من الناس، فيصلي الركعة الثانية بسورة خفيفة يوجز فيها؛ فلما كان ذلك اليوم، صلَّى في أول ركعة بسورة خفيفة أوجَزَ فيها وفي الثانية كذلك، فلما سلَّمَ نظر إلى أصحابه وقال: أخرجوا بنا لتلقِّي العروسين. فتعجَّبَ أصحابه ولم يفهموا كلامه، فتقدَّمَ وهُمْ خلفه حتى خرج إلى باب المدينة. وكان الشاب عندما ظهر له النور ورأى أعلام المدينة، أقبل نحو الباب وزوجته خلفه، فلقيه عمر والمسلمون فسلَّموا عليه، فلما دخلوا المدينة أمَرَ عمر رضي الله عنه أن تُصنَع وليمة، فحضر المسلمون وأكلوا، ودخل الشاب بعروسه ورزَقَه الله تعالى منها الأولاد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أن تُصنَع وليمة، فحضر المسلمون وأكلوا، ودخل الشاب بعروسه ورزقه الله منها أولادًا يقاتلون في سبيل الله، ويحفظون أنسابَهم لفخرهم، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى:

أَرَاكَ عَلَى الْأَبْوَابِ تَبْكِي وَتَشْتَكِي ... وَمَا لَكَ دُونَ الطَّالِبِينَ جَوَابُ
أَصَابَتْكَ عَيْنٌ أَمْ دَهَتْكَ مُلِمَّةٌ ... فَصَدَّكَ عَنْ بَابِ الْحَبِيبِ حِجَابُ
صِحِ الْيَوْمَ يَا مِسْكِينَ وَالْهَجْ بِذِكْرِهِ ... وَتُبْ مِثْلَ مَا تَابَ الْوَرَى وَأَنَابُوا
عَسَى مَطَرُ الْغُفْرَانِ يَغْسِلُ مَا مَضَى ... وَيَهْمِي بِأَرْبَابِ الذُّنُوبِ ثَوَابُ
فَقَدْ يَفْلِتُ الْمَأْسُورُ وَهْوَ مُقَيَّدٌ ... وَتُعْتَقُ مِنْ سِجْنِ الْعِقَابِ رِقَابُ

وما زالوا في أرغد عيش وأتمِّ سرور، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات.

حكاية بنت الملك والطبيب

ومما يُحكَى أن سيدي إبراهيم بن الخواص رحمة الله عليه قال: طالبَتْني نفسي في وقت من الأوقات بالخروج إلى بلاد الكفار فكفَفْتُها، فلم تكتفِ وتكفَّ، وعملتُ على نفي هذا الخاطر فلم ينتفِ، فخرجتُ أخترق ديارها، وأجول أقطارها، والعناية تكنفني، والرعاية تلحفني، لا ألقى نصرانيًّا إلا غضَّ ناظره عني، وتباعَدَ مني إلى أن أتيتُ مِصْرًا من الأمصار، فوجدتُ عند بابها جماعة من العبيد عليهم الأسلحة، وبأيديهم مقاطع الحديد، فلما رأوني قاموا على القدم، وقالوا لي: أطبيب أنت؟ قلت: نعم. فقالوا: أَجِبِ الملك. واحتملوني إليه، فإذا هو ملك عظيم، ذو وجه وسيم، فلما دخلتُ عليه نظر إليَّ وقال: أطبيب أنت؟ قلتُ: نعم. فقال:

احملوه إليها، وعرفوه بالشرط قبل دخوله عليها. فأخرجوني وقالوا لي: إن للملك ابنةً قد أصابها إعلال شديد، وقد أعيا الأطباءَ علاجُها، وما من طبيب دخل عليها وعالَجَها، ولم يَفِدْ طبُّه إلا قتله الملك، فانظر ماذا ترى؟ فقلتُ لهم: إنَّ الملك ساقَني إليها، فأدخلوني عليها، واحتملوني إلى بابها. فلما وصلت قرعوه، فإذا هي تنادي من داخل الدار: أدخلوا عليَّ الطبيب صاحب السر العجيب. وأنشدَتْ تقول:

افْتَحُوا الْبَابَ فَقَدْ جَاءَ الطَّبِيبْ وَانْظُرُوا نَحْوِي فَلِي سِرٌّ عَجِيبْ
فَلَكُمْ مُقْتَرِبٌ مُبْتَعِدٌ وَلَكُمْ مُبْتَعِدٌ وَهْوَ قَرِيبْ
كُنْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ فِي غُرْبَةٍ فَأَرَادَ الْحَقُّ أُنْسِي بِقَرِيبْ
جَمَعَتْنَا نِسْبَةٌ دِينِيَّةٌ فَتَرَاءَيْنَا مُحِبٌّ وَحَبِيبْ
وَدَعَانِي لِلتَّلَاقِي إِذْ دَعَا حَجَبَ الْعَاذِلَ عَنَّا وَالرَّقِيبْ
فَاتْرُكُوا عَذْلِي وَخَلُّوا لَوْمَكُمْ إِنَّنِي يَا وَيْحَكُمْ لَسْتُ أُجِيبْ
لَسْتُ أَلْوِي نَحْوَ فَانٍ غَائِبٍ إِنَّمَا قَصْدِيَ بَاقٍ لَا يَغِيبْ

قال: فإذا شيخ كبير قد فتح الباب بسرعة وقال: ادخل. فدخلتُ، فإذا بيت مبسوط بأنواع الرياحين، وستر مضروب في زاويته، ومن خلفه أنين ضعيف يخرج من هيكل نحيف، فجلست بإزاء الستر، وأردت أن أسلِّم، فتذكَّرْتُ قولَه ﷺ: «لا تبدءوا اليهودَ ولا النصارى بالسلام، وإذا لقَيْتُموهم في طريقٍ، فاضطروهم إلى أضيقه.» فأمسكتُ، فنادَتْ مِن داخل الستر: أين سلام التوحيد والإخلاص يا خواص؟ قال: فتعجَّبْتُ من ذلك، وقلت: من أين عرفتني؟ فقالت: إذا صفَتِ القلوبُ والخواطر أعربَتِ الألسنُ عن مخبآت الضمائر، وقد سألتُه البارحةَ أن يبعث إليَّ وليًّا من أوليائه، يكون لي على يدَيْه الخلاص، فنُودِيتُ من زوايا بيتي: لا تحزني؛ إنا سنُرسِل إليك إبراهيم الخواص. فقلتُ لها: ما خبرك؟ فقالت لي: أنا منذ أربع سنين قد لاحَ لي الحقُّ المُبِين، فهو المحدث والأنيس والمقرب والجليس، فرمقني قومي بالعيون، وظنوا بي الظنون، ونسبوني إلى الجنون، فما دخل عليَّ طبيب منهم إلا أوحشني، ولا زائر إلا أدهشني، فقلت: ومَن دَلَّكِ على ما وصلتِ إليه؟ قالت: براهينه الواضحة، وآياته اللائحة، وإذا وضح لك السبيل شاهدتَ المدلول والدليل. قال: فبينما أنا أكلِّمها إذ جاء الشيخ الموكل بها، وقال لها: ما فعل طبيبك؟ قالت: عرف العلة، وأصاب الدواء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ الموكل بها لما دخل عليها قال لها: ما فعل طبيبك؟ قالت: عرف العلة، وأصاب الدواء. فظهر لي منه البشر والسرور، وقابَلَني بالبر والحبور، وسار إلى الملك وأخبره، فحَضَّه الملك على إكرامي، فبقيتُ أختلف إليها سبعة أيام، فقالت: يا أبا إسحاق، متى تكون الهجرة إلى دار الإسلام؟ فقلت: كيف يكون خروجك؟ ومَن يتجاسر عليه؟ فقالت: الذي أدخلَكَ عليَّ وساقَكَ إليَّ. فقلت: نِعْمَ ما قلتِ. فلما كان الغد خرجنا على باب الحصن، وحجب عنَّا العيون من أمره ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. قال: فما رأيتُ أصبرَ منها على الصيام والقيام، فجاورَتْ بيتَ الله الحرام سبعة أعوام، ثم قضَتْ نحبها، وكانت أرض مكة تربها، أنزل الله عليها الرحمات، ورحم مَن قال هذه الأبيات:

وَلَمَّا أَتَوْنِي بِالطَّبِيبِ وَقَدْ بَدَتْ ... دَلَائِلُ مِنْ دَمْعٍ سَفُوحٍ وَمِنْ سَقْمِ
نَضَا الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِي فَلَمْ يَرَ تَحْتَهُ ... سِوَى نَفْسٍ مِنْ غَيْرِ رُوحٍ وَلَا جِسْمِ
فَقَالَ لَهُمْ ذَا قَدْ تَعَذَّرَ بُرْؤُهُ ... وَلِلْحُبِّ سِرٌّ لَيْسَ يُدْرَكُ بِالْوَهْمِ
فَقَالُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمِ النَّاسُ مَا بِهِ ... وَلَمْ يَكُ تَعْرِيفٌ بِحَدٍّ وَلَا رَسْمِ
فَكَيْفَ يَكُونُ الطِّبُّ فِيهِ مُؤَثِّرًا ... دَعُونِي فَإِنِّي لَسْتُ أَحْكُمُ بِالْوَهْمِ

حكاية النبي والفارس

وحُكِي أنَّ نبيًّا من الأنبياء كان يتعبَّد في جبل مرتفع، وتحته عين ماء تجري؛ فكان بالنهار يقعد في أعلى الجبل من حيث لا تراه الناس وهو يذكر الله تعالى، وينظر إلى مَن يَرِدُ العينَ من الناس. فبينما هو ذات يوم قاعد ينظر إلى العين إذ بصر بفارس قد أقبَلَ، ونزل عن

فرسه ووضع جرابًا كان في عنقه، واستراح وشرب من الماء، ثم راح وترك الجراب وكان فيه دنانير، وإذا رجل أقبل وأراد العين فأخذ الجراب بالمال وشرب من الماء وانصرف سالمًا. فجاء بعده رجل حطَّاب وهو حامل حزمة حطب ثقيلة على ظهره، وقعد على العين يشرب من الماء، فإذا الفارس الأول قد أقبَلَ لهفان وقال للحطَّاب: أين الجراب الذي كان هنا؟ فقال: لا أدري له خبرًا. فجذب الفارس سيفه وضرب الحطَّاب وقتله، وفتَّش في ثيابه فلم يجد شيئًا، فتركه وسار إلى حال سبيله. فقال ذلك النبي: يا رب، واحد أخذ ألف دينار وآخَر قُتِل مظلومًا. فأوحى الله إليه أن اشتغل بعبادتك، فإن تدبير المملكة ليس من شأنك؛ إن والد هذا الفارس كان قد غصب ألف دينار من مال والد هذا الرجل، فمكَّنْتُ الولدَ من مال أبيه، وإنَّ الحطاب كان قد قتل والد هذا الفارس، فمكَّنْتُ الولدَ من القصاص. فقال ذلك النبي: لا إله إلا أنت سبحانك، أنت علَّام الغيوب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن النبي لما أوحى الله إليه أن اشتغل بعبادتك، وأخبره بحقيقة الأمر قال: لا إله إلا أنت سبحانك، أنت علام الغيوب. وأنشد بعضهم في هذا المعنى شعرًا:

رَأَى النَّبِيَّ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالْبَصَرِ ... فَصَارَ يَسْأَلُ عَمَّا كَانَ مِنْ خَبَرِ
إِذْ شَاهَدَتْ عَيْنُهُ مَا لَيْسَ يَفْهَمُهُ ... فَقَالَ: يَا رَبُّ مَا ذَا وَالْقَتِيلَ بَرِي
هَذَا أَصَابَ الْغِنَى مِنْ دُونِ مَا تَعَبٍ ... وَكَانَ لَمَّا بَدَا فِي زِيٍّ مُفْتَقِرِ
وَذَاكَ قَدْ صَارَ مَيْتًا بَعْدَ عِيشَتِهِ ... مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ جَنَى يَا خَالِقَ الْبَشَرِ
إِنَّ الدَّرَاهِمَ كَانَتْ مَالَ وَالِدِ مَنْ ... رَأَيْتُهُ قَدْ أَتَى إِرْثًا بِلَا كَدَرِ
وَكَانَ قَدْ قَتَلَ الْحَطَّابُ وَالِدَ ذَا ... فَاقْتَصَّ مِنْهُ ابْنُهُ إِذْ فَازَ بِالظَّفَرِ
دَعْ عَنْكَ يَا عَبْدَنَا هَذَا فَإِنَّ لَنَا ... فِي الْخَلْقِ سِرٌّ خَفَى عَنْ حِدَّةِ النَّظَرِ
سَلِّمْ لِأَحْكَامِنَا وَاخْضَعْ لِعِزَّتِنَا ... فَحُكْمُنَا قَدْ جَرَى بِالنَّفْعِ وَالضَّرَرِ

حكاية الملّاح والشيخ

ومما يُحكَى أن رجلًا من الصالحين قال: كنتُ ملَّاحًا بنيل مصر، أعبر من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي، فبينما أنا ذات يوم من الأيام قاعد في الزورق إذا بشيخ ذي وجه مُشرِق قد وقف عليَّ وسلَّمَ، فرددتُ عليه السلام، فقال: تحملني لله تعالى. قلت: نعم. قال: وتُطعِمني لله. قلت: نعم. فصعد الزورق وعبرت به إلى الجانب الشرقي، وكان عليه مرقعة وبيده ركوة وعصًا، فلما أراد النزول قال لي: إني أريد أن أحملك أمانة. قلت: وما هي؟ قال: إذا كان الغد وألهمت أن تأتيني وقت الظهر وأتيت ووجدتني تحت تلك الشجرة ميتًا،

فغسِّلني وكفِّني في الكفن الذي تجده تحت رأسي، وادفني بعد الصلاة علي في هذا الرمل، وأمسك المرقعة والركوة والعصا، فإذا جاءك مَن يطلبهن فادفعهن له. قال: فتعجَّبْتُ من قوله وبِتُّ ليلتي تلك، ثم أصبحت أنتظر الوقتَ الذي ذكره لي. فلما جاء وقت الظهر نسيت كما قال، ثم أُلهِمت قريب العصر، فسِرْتُ بسرعة فوجدتُه تحت الشجرة ميتًا، ووجدت كفنًا جديدًا عند رأسه تفوح منه رائحة المسك؛ فغسَّلته وكفَّنته، وصليت عليه وحفرت له قبرًا ودفنته، ثم عبرت النيل وجئت الجانب الغربي ليلًا ومعي المرقعة والركوة والعصا. فلما لاح الصباح وفُتِح باب البلد، بصرت بشاب أصله شاطر كنت أعرفه، عليه ثياب رقيقة وفي يده أثر حناء، فأتى حتى وصل إليَّ فقال: أنت فلان؟ قلت: نعم. قال: هات الأمانة. قلت: وما هي؟ قال: المرقعة والركوة والعصا. فقلت: ومَن لك بهن؟ قال: لا أدري، غير أني بتُّ البارحة في عرس فلان، وسهرت أغني إلى أن جاء وقت الصبح، فنمتُ لأستريح فإذا شخص قد وقف عليَّ وقال لي: إن الله تعالى قد قبض روح فلان الولي وأقامك مقامَه، فسِرْ إلى فلان المعدي وخذ منه مرقعته وركوته وعصاه، فإنه قد وضعها لك عنده. قال: فأخرجتها ودفعتها له، فنضا ثيابه ثم لبسها وسار وتركني؛ فبكيت لما حُرِمت من ذلك. فلما جنَّ الليل عليَّ نمتُ، فرأيتُ ربَّ العزة تبارك وتعالى في المنام، فقال: يا عبدي، أَثَقُلَ عليك أني مَنَنْتُ على عبدٍ من عبادي بالرجوع إليَّ؟ إنما هو فضلي أُوتِيه مَن أشاء، وأنا على كل شيء قدير. فأنشدت هذه الأبيات:

مَا لِلْمُحِبِّ مَعَ الْحَبِيبِ مَرَامُ ... كُلُّ اخْتِيَارِكَ لَوْ عَرَفْتَ حَرَامُ
إِنْ شَاءَ وَصْلَكَ مِنَّةً وَتَعَطُّفًا ... أَوْ صَدَّ عَنْكَ فَمَا عَلَيْهِ مَلَامُ
إِنْ لَمْ تَكُنْ بِصُدُودِهِ مُتَلَذِّذًا ... فَادْرُجْ فَمَا لَكَ فِي الْمُقَامِ مَقَامُ
أَوَلَمْ تُمَيِّزْ قُرْبَهُ مِنْ بُعْدِهِ ... فَلَأَنْتَ خَلْفٌ وَالْهَوَى قُدَّامُ
إِنْ كَانَ مَلَّكَكَ الْغَرَامُ حُشَاشَتِي ... أَوْ قَادَنِي لِلْقَتْلِ فِيكَ زِمَامُ
فَاهْجُرْ وَصُدَّ وَصِلْ فَذَلِكَ وَاحِدٌ ... لَيْسَ الْوُقُوفُ مَعَ الْحُظُوظِ يُلَامُ
مَا الْقَصْدُ فِي حُبِّي إِلَيْكَ سِوَى الرِّضَى ... فَإِذَا رَأَيْتَ الْبُعْدَ فَهْوَ قَوَامُ

حكاية إسرائيلي وملك الجزيرة

ومما يُحكَى أنَّ رجلًا من خيار بني إسرائيل كان كثير المال، وله ولد صالح مبارك، فحضرت الرجل الوفاة، فقعد ولده عند رأسه، وقال: يا سيدي، أوصني. فقال: يا بني،

لا تحلف بالله بارًّا، ولا فاجرًا. ثم مات الرجل، وبقي الولد بعد أبيه، فتسامَعَ به فُسَّاق بني إسرائيل، فكان الرجل يأتيه فيقول له: لي عند والدك كذا أو كذا، وأنت تعلم بذلك، أَعْطِني ما في ذمته وإلا فاحلف. فيقف الولد مع الوصية، ويعطيه جميع ما طلبه، فما زالوا به حتى فني ماله، واشتدَّ إقلاله، وكان للولد زوجة صالحة مباركة، وله منها ولدان صغيران، فقال لها: إن الناس قد أكثروا طلبي، وما دام معي ما أدفع به عن نفسي بذلته، والآن لم يَبْقَ لنا شيء، فإن طالَبَني مُطالِب امتحنْتُ أنا وأنت، فالأولى أن نفوز بأنفسنا، ونذهب إلى موضع لا يعرفنا فيه أحد، ونعيش بين أظهر الناس. قال: فركب بها البحر وبولدَيْه وهو لا يعرف أين يتوجَّه، والله يحكم لا معقِّب لحكمه، ولسان الحال يقول:

يَا خَارِجًا خَوْفَ الْعِدَى مِنْ دَارِهِ ... وَالْيُسْرُ قَدْ وَافَاهُ عِنْدَ فِرَارِهِ
لَا تَجْزَعَنَّ مِنَ الْبِعَادِ فَرُبَّمَا ... عَزَّ الْغَرِيبُ بِطُولِ بُعْدِ مَزَارِهِ
لَوْ قَدْ أَقَامَ الدُّرُّ فِي أَصْدَافِهِ ... مَا كَانَ تَاجُ الْمُلْكِ بَيْتَ قَرَارِهِ

قال: فانكسرت السفينة، وخرج الرجل على لوح، وخرجت المرأة على لوح، وخرج كل ولد على لوح، وفرَّقَتْهم الأمواج، فحصلت المرأة على بلدة، وحصل أحد الولدين على بلدة أخرى، والتقط الولدَ الآخَر أهلُ سفينة في البحر، وأما الرجل فقذفَتْه الأمواج إلى جزيرة منقطعة، فخرج إليها، فتوضَّأَ من البحر، وأذَّنَ وأقام الصلاة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل لما خرج إلى الجزيرة توضَّأَ من البحر، وأذَّنَ وأقام الصلاة، فإذا قد خرج من البحر أشخاص بألوانٍ مختلفة، فصلوا معه، ولما فرغ قام إلى شجرة في الجزيرة، فأكل من ثمرها، فزال عنه جوعه، ثم وجد عين ماء فشرب منها، وحمد الله عزَّ وجلَّ وبقي ثلاثة أيام يصلي، وتخرج أقوام يصلون مثل صلاته، وبعد مضي الأيام الثلاثة سمع مناديًا يناديه: يا أيها الرجل الصالح البار بأبيه، المجلُّ قدر ربِّه، لا تحزن إن الله عز وجل مخلفٌ عليك ما خرج من يدك، فإن في هذه الجزيرة كنوزًا وأموالًا ومنافع يريد الله أن تكون لها وارثًا، وهي في موضع كذا وكذا من هذه الجزيرة، فاكشف عنها، وإنَّا لنسوق إليك السفن، فأحسِنْ إلى الناس، وادْعُهم إليك، فإن الله عزَّ وجلَّ يميل قلوبهم إليك، فقصد ذلك الموضع من الجزيرة، وكشف الله تعالى له عن تلك الكنوز، وصارت أهل السفن تَرِد عليه، فيُحسِن إليهم إحسانًا عظيمًا، ويقول لهم: لعلكم تدلون عليَّ الناس، فإني أعطيهم كذا وكذا، وأجعل لهم كذا وكذا، فصار الناس يأتون من الأقطار والأماكن، وما مضت عليه عشر سنين إلا والجزيرة قد عمرت، والرجل صار ملكها لا يأوي إليه أحد إلا أحسَنَ إليه، وشاع ذِكْره في الأرض بالطول والعرض، وكان ولده الأكبر قد وقع عند رجل علَّمَه وأدَّبَه، والآخَر قد وقع عند رجل ربَّاه، وأحسن تربيته، وعلَّمه طرق التجارة، والمرأة قد وقعت عند رجل من التجار ائتمنها على ماله، وعاهَدَها على ألَّا يخونها، وأن يُعِينها على طاعة الله عزَّ وجلَّ، وكان يسافر بها في السفينة إلى البلاد، ويستصحبها في أي موضع أراد، فسمع الولد الكبير بصيت ذلك الملك، فقصده وهو لا يعلم مَن هو، فلما دخل عليه أخذه وائتمنه على سره، وجعله كاتبًا له، وسمع الولد الآخَر بذلك الملك العادل الصالح، فقصده وسار إليه وهو لا يعلم مَن هو أيضًا، فلما دخل عليه وكَّلَه على النظر في أموره، وبقيَا مدة من الدهر في خدمته، وكل واحد منهم لا يعلم

بصاحبه، وسمع الرجل التاجر الذي عنده المرأةُ بذلك الملك، وبرِّه للناس وإحسانه إليهم، فأخذ جانبًا من الثياب الفاخرة، ومما يستظرف من تُحَف البلاد، وأتى بسفينة والمرأة معه حتى وصل إلى شاطئ الجزيرة، ونزل إلى الملك، وقدَّمَ له هديته، فنظرها الملك وسُرَّ بها سرورًا كثيرًا، وأمر للرجل بجائزة سنية، وكان في الهدية عقاقير أراد الملك من التاجر أن يعرِّفها له بأسمائها، ويخبره بمصالحها، فقال الملك للتاجر: أَقِمِ الليلةَ عندنا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن التاجر لما قال له الملك: أَقِمِ الليلةَ عندنا. قال: إن لي في السفينة وديعة عاهدتها أنْ لا أوكل أمرها إلى غيري، وهي امرأة صالحة تيمَّنْتُ بدعائها، وظهرت لي البركة في آرائها، فقال الملك: سأبعث إليها أمناء يبيتون عليها، ويحرسون كلَّ ما لديها. قال: فأجابه لذلك، وبقي عند الملك، ووجَّهَ الملكُ كاتبَه ووكيلَه إليها، وقال لهما: اذهبَا فاحرسَا سفينةَ هذا الرجل الليلةَ إن شاء الله تعالى. قال: فسارَا وصعدَا إلى السفينة، وقعد هذا على مؤخرها، وهذا على مقدمها، وذكرَا الله عزَّ وجلَّ برهة من الليل، ثم قال أحدهما للآخَر: يا فلان، إن الملك قد أمرنا بالحراسة، ونخاف النوم، فتعالَ نتحدَّث بأخبار الزمان، وما رأيناه من الخير والامتحان، فقال الآخَر: يا أخي، أمَّا أنا فمن امتحاني أن فرَّقَ الدهرُ بيني وبين أبي وأمي وأخٍ لي كان اسمه كاسمك، والسبب في ذلك أنه ركب والدنا البحر من بلد كذا وكذا، فهاجت علينا الرياح، واختلفت فكسرت السفينة، وفرَّقَ اللهُ شملنا. فلما سمع الآخَر بذلك قال: وما كان اسم والدتك يا أخي؟ قال: فلانة. قال: وما اسم والدك؟ قال: فلان. فترامى الأخ على أخيه وقال له: أنت أخي والله حقًّا. وجعل كلٌّ واحد منهما يحدِّث أخاه بما جرى عليه في صِغَره، والأم تسمع الكلام، ولكنها كتمت أمرها وصبَّرَتْ نفسها، فلما طلع الفجر قال أحدهما للآخَر: سِرْ يا أخي نتحدَّث في منزلي. قال: نعم. فسارَا وأتى الرجل، فوجد المرأة في كرب شديد، فقال لها: ما دهاك؟ وما أصابك؟ قالت: بعثتَ إليَّ الليلةَ مَن أراداني بالسوء، وكنت منهما في كرب عظيم. فغضب التاجر وتوجَّهَ للملك، وأخبره بما فعل الأمينان، فأحضرهما الملك بسرعة، وكان يحبهما لما تحقَّقَ فيهما من الأمانة والديانة، ثم أمر بإحضار المرأة حتى تذكر ما كان منهما مشافَهةً، فجِيء بها وأُحضِرت، وقال لها: أيتها المرأة، ماذا رأيتِ من هذين الأمينين؟ فقالت: أيها الملك،

أسألك بالله العظيم ربِّ العرش الكريم إلا ما أمرتهما أن يُعِيدَا كلامهما الذي تكلَّمَا به البارحة. فقال لهما الملك: قولَا ما قلتماه، ولا تكتمَا منه شيئًا. فأعادَا كلامهما، وإذا بالملك قد قام من فوق سريره، وصاح صيحة عظيمة، وترامى عليهما واعتنقهما، وقال: والله أنتما ولداي حقًّا. فكشفَتِ المرأة عن وجهها وقالت: أنا والله أمهما. فاجتمعوا جميعًا وصاروا في ألذ عيش وأهناه، إلى أن أبادهم الموت، فسبحان مَن إذا قصده العبدُ نجَّاه، ولم يخيِّب ما أمله فيه ورجاه! وما أحسن ما قيل في المعنى:

لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِيقَاتُ ... وَالْأَمْرُ فِيهِ أَخِي مَحْوٌ وَإِثْبَاتُ
لَا تَجْزَعَنَّ لِأَمْرٍ قَدْ دُهِيتَ بِهِ ... فَقَدْ أَتَانَا بِيُسْرِ الْعُسْرِ آيَاتُ
وَرُبَّ ذِي كُرْبَةٍ بَاتَتْ مَضَرَّتُهَا ... تَبْدُو وَبَاطِنُهَا فِيهِ الْمَسَرَّاتُ
وَكَمْ مُهَانٍ عُيُونُ النَّاسِ تَشْنُؤُهُ ... مِنَ الْهَوَانِ تَغَشَّتْهُ الْكَرَامَاتُ
هَذَا الَّذِي نَالَهُ كَرْبٌ وَكَابَدَهُ ... ضَرٌّ وَحَلَّتْ بِهِ فِي الْوَقْتِ آفَاتُ
وَفَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْهُ شَمْلَ أُلْفَتِهِ ... فَكُلُّهُمْ بَعْدَ طُولِ الْجَمْعِ أَشْتَاتُ
أَعْطَاهُ مَوْلَاهُ خَيْرًا ثُمَّ جَاءَ بِهِمْ ... وَفِي الْجَمِيعِ إِلَى الْمَوْلَى إِشَارَاتُ
سُبْحَانَ مَنْ عَمَّتِ الْأَكْوَانَ قُدْرَتُهُ ... وَأَخْبَرَتْ بِتَدَانِيهِ الدَّلَالَاتُ
فَهْوَ الْقَرِيبُ وَلَكِنْ لَا يُكَيِّفُهُ ... عَقْلٌ وَلَيْسَتْ تُدَانِيهِ الْمَسَافَاتُ

حكاية أبي الحسن الدرَّاج وأبي جعفر المجذوم

ومما يُحكَى أن أبا الحسن الدراج قال: كنتُ كثيرًا ما آتي مكة زادها الله شرفًا، وكان الناس يتبعونني لمعرفتي بالطريق وحفظ المناهل؛ فاتفق في عام من الأعوام أني أردتُ الوصول إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، وقلت في نفسي: أنا عارف بالطريق فأذهب وحدي. ومشيت حتى وصلت إلى القادسية فدخلتها وأتيت المسجد، فرأيت رجلًا مجذوبًا قاعدًا في المحراب، فلما رآني قال: يا أبا الحسن، أسألك الصحبة إلى مكة. فقلت في نفسي: إني فررتُ من الأصحاب وكيف أصحب المجذوبين؟ ثم قلت له: إني لا أصحب أحدًا. فسكت عني. فلما أصبح الصباح مشيتُ في الطريق وحدي، ولم أزل منفردًا حتى وصلت إلى العقبة ودخلت المسجد، فلما دخلته وجدتُ الرجل المجذوب في المحراب، فقلتُ في نفسي: سبحان الله! كيف سبقني هذا إلى ها هنا؟ فرفع رأسه إليَّ وتبسَّمَ وقال: يا أبا الحسن، يُصنَع للضعيف ما يتعجَّب منه القوي. فبتُّ تلك الليلة متحيِّرًا مما

رأيت، فلما أصبحت سلكت الطريق وحدي، فلما وصلت إلى عرفات وقصدتُ المسجد، إذا الرجل قاعد في المحراب؛ فترامَيتُ عليه وقلتُ له: يا سيدي، أسألك الصحبة. وجعلتُ أقبِّل قدمَيْه، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل. فجعلتُ أبكي وأنتحب لما حُرِمت من صحبته، فقال لي: هوِّنْ عليك، فإنه لا ينفعك البكاء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا الحسن قال: لما رأيتُ الرجلَ المجذوب قاعدًا في المحراب، تراميتُ عليه وقلتُ له: يا سيدي، أسألك الصحبة. وجعلت أقبِّل قدمَيْه، فقال لي: ليس إلى ذلك سبيل. فجعلتُ أبكي وأنتحب لما حُرِمته من صحبته. فقال لي: هوِّنْ عليك، فإنه لا ينفعك البكاء. وأجرى العَبَرات ثم أنشد هذه الأبيات:

أَتَبْكِي عَلَى بُعْدِي وَمِنْكَ جَرَى الْبُعْدُ وَتَطْلُبُ رَدًّا حِينَ لَا يُمْكِنُ الرَّدُّ
نَظَرْتَ إِلَى ضَعْفِي وَظَاهِرِ عِلَّتِي وَقُلْتَ سَقِيمٌ لَا يَرُوحُ وَلَا يَغْدُو
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَمُنُّ بِلُطْفٍ مَا تَخَيَّلَهُ الْعَبْدُ
لَئِنْ كُنْتَ فِي رَأْيِ الْعُيُونِ كَمَا تَرَى وَبِالْجِسْمِ مِنْ فَرْطِ الزَّمَانَةِ مَا يَبْدُو
وَلَيْسَ مَعِي زَادٌ لِيُوصِلَنِي إِلَى مَحَلٍّ بِهِ يَأْتِي إِلَى سَيِّدِي الْوَفْدُ
فَلِي خَالِقٌ أَلْطَافُهُ بِي خَفِيَّةٌ وَلَيْسَ لَهُ نِدٌّ وَلَا مِنْهُ لِي بُدُّ
فَسِرْ سَالِمًا عَنِّي وَدَعْنِي وَغُرْبَتِي فَإِنَّ الْغَرِيبَ الْفَرْدَ يُؤْنِسُهُ الْفَرْدُ

فانصرفتُ من عنده، وكنتُ بعد ذلك لا آتي منهلًا إلا وجدتُه قد سبقني؛ فلما وصلتُ إلى المدينة غاب عني أثره وعمي عليَّ خبره، فلقيتُ أبا يزيد البسطامي وأبا بكر الشبلي وطوائف الشيوخ، وأخبرتهم بقصتي وشكوتُ إليهم قضيتي، فقالوا: هيهات أن تنال بعد ذلك صحبته؛ هذا أبو جعفر المجذوب، بحرمته تستقي الأنواء، وببركته يستجاب الدعاء. فلما سمعتُ منهم هذا الكلام زاد شوقي إلى لقائه، وسألت الله أن يجمعني عليه، فبينما أنا واقف بعرفات إذا بجاذب يجذبني من خلفي، فالتفَتُّ إليه فإذا هو ذلك الرجل، فلما رأيتُه صحتُ صيحةً عظيمةً، ووقعتُ مغشيًّا عليَّ؛ فلما أَفَقْتُ ما وجدتُه، زاد وَجْدي لذلك

وضاقت عليَّ المسالكُ، وسألت الله تعالى رؤيته. فلم يكن إلا أيام قلائل وإذا به يجذبني من خلفي، فالتفَتُّ إليه فقال: عزمتُ عليك أن تأتيني وتسأل حاجتك. فسألته أن يدعو لي ثلاث دعوات: الأولى أن يحبِّب الله إليَّ الفقرَ، والثانية ألَّا أبيت على رزق معلوم، والثالثة أن يرزقني النظر إلى وجهه الكريم. فدعا لي هذه الدعوات وغاب عني، وقد استجاب الله دعاءه لي؛ أما الأولى فإن الله حبَّبَ إليَّ الفقر، فوالله ما في الدنيا شيء هو أحبُّ إليَّ منه. وأما الثانية فإني منذ كذا سنة ما بتُّ على رزقٍ معلومٍ، ومع ذلك لا يحوجني الله إلى شيء، وإني لَأرجو أن يمنَّ اللهُ عليَّ بالثالثة، ويكون قد أجاب فيها كما أجاب في الاثنتين قبلها، إنه كريم مفضال، ورحم الله مَن قال:

زِيُّ الْفَقِيرِ تَبَتُّلٌ وَوَقَارُ   وَلِبَاسُهُ الْخُلْقَانُ وَالْأَطْمَارُ
وَالِاصْفِرَارُ يَزِينُهُ وَلَرُبَّمَا   بِسَرَارِهَا تَتَزَيَّنُ الْأَقْمَارُ
قَدْ شَفَّهُ طُولُ الْقِيَامِ بِلَيْلِهِ   وَدُمُوعُهُ مِنْ جَفْنِهِ مِدْرَارُ
فَأَنِيسُهُ فِي دَارِهِ تَذْكَارُهُ   وَجَلِيسُهُ فِي لَيْلِهِ الْجَبَّارُ
إِنَّ الْفَقِيرَ بِهِ يُغَاثُ الْمُلْتَجِي   وَكَذَلِكَ الْأَنْعَامُ وَالْأَطْيَارُ
وَلِأَجْلِهِ يُجْرِي الْإِلَهُ بَلَاءَهُ   وَبِفَضْلِهِ تُتَنَزَّلُ الْأَمْطَارُ
وَإِذَا دَعَا يَوْمًا بِكَشْفِ مَلَمَّةٍ   هَلَكَ الظَّلُومُ وَعُطِّلَ الْجَبَّارُ
فَالْخَلْقُ أَجْمَعُهُمْ مَرِيضٌ مُدْنَفٌ   وَهْوَ الطَّبِيبُ الْمُشْفِقُ الْمِدْرَارُ
سِيمَاهُ تَبْدُو إِنْ نَظَرْتَ لِوَجْهِهِ   صَفَتِ الْقُلُوبُ وَلَاحَتِ الْأَنْوَارُ
يَا رَاغِبًا عَنْهُمْ وَلَمْ تَرَ فَضْلَهُمْ   حَجَبَتْكَ وَيْحَكَ عَنْهُمُ الْأَوْزَارُ
تَرْجُو لِحَاقَهُمُ وَأَنْتَ مُقَيَّدٌ   قَدْ أَخَّرَتْكَ عَنِ الْمُنَى أَوْزَارُ
لَوْ كُنْتَ تعْرِفُ قَدْرَهُمْ لَأَجَبْتَهُمْ   وَجَرَتْ لَهُمْ مِنْ جَفْنِكَ الْأَنْهَارُ
إِنِّي إِلَى الْمَذْكُومِ شَمُّ أَزَاهِر   الثَّوْبُ يَعْرِفُ قَدْرَهُ السِّمْسَارُ
فَاسْرِعْ إِلَى مَوْلَاكَ وَاسْأَلْ وَصْلَهُ   فَعَسَى تُسَاعِدُ سَعْيَكَ الْأَقْدَارُ
وَتُرَاحُ مِنْ فَرْطِ التَّبَاعُدِ وَالْقِلَى   وَتَنَالُ مَا تَهْوَى وَمَا تَخْتَارُ
فَجَنِيُّهُ رَحْبٌ لِكُلِّ مُؤَمِّلٍ   وَهْوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

حكاية مغامرات حاسب كريم الدين

ومما يُحكَى أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، حكيم من حكماء اليونان، وكان ذلك الحكيم يُسمَّى دانيال، وكان له تلامذة وجنود، وكان حكماء اليونان يذعنون

لأمره، ويعوِّلون على علومه، ومع هذا لم يُرزَق ولدًا ذَكَرًا، فبينما هو ذات ليلة من الليالي يتفكَّر في نفسه ويبكي على عدم وجود ولد يرثه في علومه من بعده، إذ خطر بباله أن الله سبحانه وتعالى يجيب دعوةَ مَن إليه أناب، وأنه ليس على باب فضله بوَّاب، ويرزق مَن يشاء بغير حساب، ولا يرد سائلًا إذا سأله، بل يجزل الخير والإحسان له، فسأل الله تعالى الكريم أن يرزقه ولدًا يخلفه من بعده، ويجزل له الإحسان من عنده، ثم رجع إلى بيته، وواقَعَ زوجته، فحملَتْ منه تلك الليلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحكيم اليوناني رجع إلى بيته، وواقَعَ زوجته، فحملت منه تلك الليلة، ثم بعد أيام سافَرَ إلى مكان في مركب فانكسرت به المركب، وراحت كتبه في البحر، وطلع هو على لوحٍ من تلك السفينة، وكان معه خمس ورقات بقيت من الكتب التي وقعت منه في البحر، فلما رجع إلى بيته وضع تلك الأوراق في صندوق، وقفل عليها، وكانت زوجته قد ظهر حملها، فقال لها: اعلمي أني قد دَنَتْ وفاتي، وقرب انتقالي من دار الفناء إلى دار البقاء، وأنت حامل فربما تلدين بعد موتي صَبِيًّا ذَكَرًا، فإذا وضعتِه فسمِّيه حاسب كريم الدين، وربِّيه أحسن التربية، فإذا كبر وقال لك: ما خلَّفَ لي أبي من الميراث؟ فأَعْطِيه هذه الخمس ورقات، فإذا قرأها وعرف معناها يصير أعلم أهل زمانه. ثم إنه ودَّعَها وشهق شهقة ففارَقَ الدنيا وما فيها، رحمة الله تعالى عليه؛ فبكى عليه أهله وأصحابه، ثم غسَّلوه وأخرجوه خرجة عظيمة، ودفنوه ورجعوا، ثم إن زوجته بعد أيام قلائل وضعَتْ ولدًا مليحًا، فسمَّتْه حاسب كريم الدين، كما أوصاها به، ولما ولدته أحضرَتْ له المنجِّمُون، فحسبوا طالعه، وناظره من الكواكب، ثم قالوا لها: اعلمي أيتها المرأة أن هذا المولود يعيش أيامًا كثيرة، ولكن بعد شدة تحصل له في مبدأ عمره، فإذا نجا منها فإنه يُعطَى بعد ذلك عِلْمَ الحكمة. ثم مضى المنجِّمُون إلى حال سبيلهم، فأرضعَتْه اللبن سنتين، وفطمته، فلما بلغ خمس سنين حطته في المكتب ليتعلم شيئًا من العلم، فلم يتعلم؛ فأخرجَتْه من المكتب، وحطَّتْه في الصنعة فلم يتعلَّم شيئًا من الصنعة، ولم يطلع من يده شيء من الشغل، فبكت أمه من أجل ذلك، فقال لها الناس: زوِّجِيه لعله يحمل هَمَّ زوجته، ويتَّخِذ له صنعة، فقامت وخطبت بنتًا وزوَّجَتْه بها، ومكث على ذلك الحال مدة من الزمان، وهو لم يتَّخِذ له صنعة قطُّ.

ثم إنهم كان لهم جيران حطَّابون، فأتوا إلى أمه وقالوا لها: اشتري لابنك حمارًا وحبلًا وفأسًا، ويروح معنا إلى الجبل، فنحتطب نحن وإياه، ويكون ثمن الحطب له ولنا، وينفق عليكم ممَّا يخصه. فلما سمعَتْ أمه ذلك من الحطَّابين فرِحَتْ فرحًا شديدًا، واشترَتْ لابنها حمارًا وحبلًا وفأسًا، وأخذَتْه وتوجَّهَتْ به إلى الحطَّابين، وسلَّمته إليهم، وأوصتهم عليه، فقالوا لها: لا تحملي هَمَّ هذا الولد؛ ربنا يرزقه، وهذا ابن شيخنا. ثم أخذوه معهم، وتوجَّهوا إلى الجبل، فقطعوا الحطب، وحملوا حميرهم وأتوا إلى المدينة وباعوا الحطب، وأنفقوا على عيالهم، ثم إنهم شدوا حميرهم، ورجعوا إلى الاحتطاب في ثاني يوم وثالث يوم، ولم يزالوا على هذه الحالة مدةً من الزمان؛ فاتفق أنهم ذهبوا إلى الاحتطاب في بعض الأيام، فنزلت عليهم مطرة عظيمة، فهربوا إلى مغارة عظيمة ليداروا أنفسهم فيها من تلك المطرة، فقام من عندهم حاسب كريم الدين، وجلس وحده في مكانٍ من تلك المغارة، وصار يضرب الأرضَ بالفأس، فسمع حسَّ الأرض خالية من تحت الفأس، فلما عرف أنها خالية مكث يحفر ساعة، فرأى بلاطة مدوَّرة، وفيها حلقة، فلما رأى ذلك فرِحَ ونادى جماعته الحطَّابين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حاسب كريم الدين لما رأى البلاطة التي فيها الحلقة فرح ونادى جماعته، فحضروا إليه فرأوا تلك البلاطة، فتسارعوا إليها وقلعوها، فوجدوا تحتها بابًا، ففتحوا الباب الذي تحت البلاطة، فإذا هو جبٌّ ملآن عسل نحل، فقال الحطَّابون لبعضهم: هذا جبٌّ ملآن عسلًا، وما لنا إلا أن نروح المدينة، ونأتي بظروف، ونعبِّئ هذا العسل فيها، ونبيعه ونقتسم حقَّه، وواحد منَّا يقعد ليحفظه من غيرنا. فقال حاسب: أنا أقعد وأحرسه حتى تروحوا وتأتوا بالظروف. فتركوا حاسب كريم الدين يحرس لهم الجب، وذهبوا إلى المدينة، وأتوا بظروفٍ، وعبَّوها من ذلك العسل، وحمَّلوا حميرهم، ورجعوا إلى المدينة، وباعوا ذلك العسل، ثم عادوا إلى الجب ثاني مرة؛ وما زالوا على هذه الحالة مدةً من الزمان، وهم يبيعون في المدينة ويرجعون إلى الجب يعبُّون من ذلك العسل، وحاسب كريم الدين قاعد يحرس لهم الجبَّ، فقالوا لبعضهم يومًا من الأيام: إن الذي لقي جبَّ العسل حاسب كريم الدين، وفي غدٍ ينزل إلى المدينة، ويدَّعِي علينا، ويأخذ ثمن العسل ويقول: أنا الذي لقيتُه، وما لنا خلاص من ذلك إلا أن نُنزِله في الجبِّ ليعبِّي العسل الذي بقي فيه، ونتركه هناك فيموت كمدًا، ولا يدري به أحد، فاتفق الجميع على هذا الأمر، ثم ساروا، وما زالوا سائرين حتى أتوا إلى الجب، فقالوا له: يا حاسب، انزل الجبَّ، وعبِّ لنا العسلَ الذي بقي فيه، فنزل حاسب في الجب وعبَّى لهم العسل الذي بقي فيه، وقال لهم: اسحبوني فما بقي فيه شيء. فلم يردَّ عليه أحدٌ منهم جوابًا، وحمَّلوا حميرهم، وساروا إلى المدينة، وتركوه في الجبِّ وحدَه، وصار يستغيث ويبكي ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، قد متُّ كمدًا.

هذا ما كان من أمر حاسب كريم الدين، وأما ما كان من أمر الحطَّابين، فإنهم لما وصلوا إلى المدينة باعوا العسل، وراحوا إلى أم حاسب وهم يبكون، وقالوا لها: تعيش

رأسك في ابنك حاسب. فقالت لهم: ما سبب موته؟ قالوا لها: إنَّا كنَّا قاعدين فوق الجبل، فأمطرت علينا السماء مطرًا عظيمًا، فأوينا إلى مغارة لنتدارى فيها من ذلك المطر، فلم نشعر إلا وحمار ابنك هرب في الوادي، فذهب خلفه ليردَّه من الوادي، وكان فيه ذئب عظيم فافترس ابنك، وأكل الحمار، فلما سمعَتْ أمه كلامَ الحطَّابين، لطمَتْ على وجهها، وحثَّتِ التراب على رأسها، وأقامت عزاءَه، وصار الحطَّابون يجيئون لها بالأكل والشرب في كل يوم.

هذا ما كان من أمر أمه، وأما ما كان من أمر الحطَّابين، فإنهم فتحوا لهم دكاكين، وصاروا تجَّارًا، ولم يزالوا في أكل وشرب وضحك ولعب.

وأما ما كان من أمر حاسب كريم الدين، فإنه صار يبكي وينتحب، فبينما هو قاعد في الجب على هذه الحالة، وإذا بعقربٍ كبير وقع عليه، فقام وقتله، ثم تفكَّرَ في نفسه وقال: إن الجبَّ كان ملآن عسلًا، فمن أين أتى العقرب؟ فقام ينظر المكان الذي وقع منه العقرب، وصار يلتفت يمينًا وشمالًا في الجبِّ، فرأى المكان الذي وقع منه العقرب يلوح منه النور، فأخرج سكينًا كانت معه، ووسَّعَ ذلك المكان حتى صار قدر الطاقة، وخرج منه، وتمشَّى ساعةً في داخله، فرأى دهليزًا عظيمًا، فمشى فيه فرأى بابًا عظيمًا من الحديد الأسود، وعليه قفل من الفضة، وعلى ذلك القفل مفتاح من الذهب، فتقدَّمَ إلى ذلك الباب، ونظر من خلاله، فرأى نورًا عظيمًا يلوح من داخله، فأخذ المفتاح وفتح الباب، وعبر إلى داخله، وتمشَّى ساعةً حتى وصل إلى بحيرة عظيمة، فرأى في تلك البحيرة شيئًا يلمع مثل الماء، فلم يزل يمشي حتى وصل إليه، فرأى تلًّا عاليًا من الزبرجد الأخضر، وعليه تخت منصوب من الذهب مرصَّع بأنواع الجواهر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حاسب كريم الدين لما وصل إلى التل وجده من الزبرجد الأخضر، وعليه تخت منصوب من الذهب، مرصَّع بأنواع الجواهر، وحول ذلك التخت كراسيُّ منصوبة، بعضها من الذهب وبعضها من الفضة، وبعضها من الزمرد الأخضر، فلما أتى إلى تلك الكراسي تنهَّدَ، ثم عدَّها فرآها اثني عشر ألف كرسي، فطلع على ذلك التخت المنصوب في وسط تلك الكراسي، وقعد عليه، وصار يتعجَّب من تلك البحيرة، وتلك الكراسي المنصوبة، ولم يزل متعجبًا حتى غلب عليه النوم، فنام ساعة، وإذا هو يسمع نفخًا وصفيرًا، وهرجًا عظيمًا، ففتح عينَيْه وقعد، فرأى على الكراسي حيَّات عظيمة، طول كلٍّ منها مائة ذراع، فحصل له من ذلك فزع عظيم، ونشف ريقه من شدة خوفه، ويئس من الحياة، وخاف خوفًا عظيمًا، ورأى عين كل حية تتوقَّد مثل الجمر، وهن فوق الكراسي، والتفت إلى البحيرة، فرأى فيها حياتٍ صغارًا، لا يعلم عددُها إلا الله تعالى، وبعد ساعة أقبلَتْ عليه حية عظيمة مثل البغل، وعلى ظهر تلك الحية طبق من الذهب، وفي وسط ذلك الطبق حية تضيء مثل البلور، ووجهها وجه إنسان، وهي تتكلَّم بلسانٍ فصيح، فلما قربت من حاسب كريم الدين سلَّمَتْ عليه، فردَّ عليها السلام، ثم أقبلَتْ حية من تلك الحيات التي فوق الكراسي، ثم إن تلك الحية زعقت على تلك الحيات بلُغَاتها، فخَرَّتْ جميع الحيات من فوق كراسيها، ودعَيْنَ لها، وأشارت إليهن بالجلوس فجلسن، ثم إن الحية قالت لحاسب كريم الدين: لا تَخَفْ منَّا أيها الشاب؛ فإني أنا ملكة الحيات وسلطانتهن.

فلما سمع حاسب كريم الدين ذلك الكلام من الحية اطمأنَّ قلبه، ثم إن الحية أشارَتْ إلى تلك الحيات أن يأتوا بشيء من الأكل، فأتوا بتفاح وعنب ورمان، وفستق وبندق وجوز ولوز وموز، وحطوه قدام حاسب كريم الدين، ثم قالت له ملكة الحيات: مرحبًا بك يا شاب، ما اسمك؟ فقال لها: اسمي حاسب كريم الدين. فقالت له: يا حاسب، كُلْ من



وبعد ساعاتٍ أقبلَت عليه حيةٌ عظيمةٌ مثل البغل.

هذه الفواكه، فما عندنا طعام غيرها، ولا تَخَفْ منَّا أبدًا. فلما سمع حاسب هذا الكلام من الحية، أكل حتى اكتفى، وحمد الله تعالى، فلما اكتفى من الأكل رفعوا السماط من قدَّامه، ثم بعد ذلك قالت له ملكة الحيات: أخبرني يا حاسب مِن أين أنت؟ ومِن أين أتيتَ إلى هذا المكان؟ وما جرى لك؟ فحكى لها حاسب ما جرى لأبيه، وكيف ولدَتْه أمه، وحطته في المكتب، وهو ابن خمس سنين، ولم يتعلَّم شيئًا من العلم، وكيف حطته في الصنعة،

وكيف اشترَتْ أمه له الحمار، وصار حطَّابًا، وكيف لقي جبَّ العسل، وكيف تركه رفقاؤه الحطَّابون في الجب وراحوا، وكيف نزل عليه العقرب وقتله، وكيف وسَّعَ الشق الذي نزل منه العقرب، وطلع من الجب، وأتى إلى الباب الحديد وفتحه حتى وصل إلى ملكة الحيات التي يكلِّمها، ثم قال لها: وهذه حكايتي من أولها إلى آخِرها، والله أعلم بما يحصل لي بعد هذا كله. فلما سمعت ملكة الحيات حكايةَ حاسب كريم الدين من أولها إلى آخِرها، قالت له: ما يحصل لك إلا كلٌّ خير. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ملكة الحيات لما سمعَتْ حكايةَ حاسب كريم الدين من أولها إلى آخِرها، قالت له: ما يحصل لك إلا كلُّ خير، ولكن أريد منك يا حاسب أن تقعد عندي مدة من الزمان حتى أحكي لك حكايتي، وأُخبِرك بما جرى لي من العجائب. فقال لها: سمعًا وطاعةً فيما تأمرينني به. فقالت له: اعلم يا حاسب أنه كان بمدينة مصر مَلِك من بني إسرائيل، وكان له ولد اسمه بلوقيا، وكان هذا الملك عالِمًا عابدًا مُكِبًّا على قراءة كتب العلم، فلما ضعف وأشرف على الموت طلع له أكابر دولته ليسلِّموا عليه، فلما جلسوا عنده وسلَّموا عليه، قال لهم: يا قوم، اعلموا أنه قد دنَا رحيلي من الدنيا إلى الآخرة، وما لي عندكم شيء أوصيكم به إلا ابني بلوقيا، فاستوصوا به. ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله. وشهق شهقة ففارَقَ الدنيا رحمة الله عليه؛ فجهَّزوه وغسَّلوه ودفنوه، وأخرجوه خرجة عظيمة، وجعلوا ولده بلوقيا سلطانًا عليهم، وكان ولده عادلًا في الرعية، واستراحت الناس في زمانه، فاتفق في بعض الأيام أنه فتح خزائن أبيه ليتفرَّج فيها، ففتح خزانة من تلك الخزائن، فوجد فيها صورة بابٍ، ففتحه ودخل، فإذا هي خلوة صغيرة، وفيها عمود من الرخام الأبيض، وفوقه صندوق من الأبنوس، فأخذه بلوقيا وفتحه فوجد فيه صندوقًا آخَر من الذهب، ففتحه فرأى فيه كتابًا، ففتح الكتاب وقرأه، فرأى فيه صفة محمد ﷺ، وأنه يُبعث في آخِر الزمان، وهو سيد الأولين والآخِرين، فلما قرأ بلوقيا هذا الكتاب، وعرف صفات سيدنا محمد ﷺ تعلَّقَ قلبه بحبه، ثم إن بلوقيا جمع أكابر بني إسرائيل من الكهان والأحبار والرهبان، وأَطْلَعَهم على ذلك الكتاب، وقرأه عليهم وقال لهم: يا قوم، ينبغي أن أُخرِج أبي من قبره وأحرقه. فقال له قومه: لأي شيء تحرقه؟ فقال لهم بلوقيا: لأنه أخفى عني هذا الكتاب ولم يُظهِره لي، وقد كان استخرجه من التوراة، ومن صحف

إبراهيم، ووضع هذا الكتاب في خزائنه، ولم يُطلِع عليه أحدًا من الناس. فقالوا له: يا ملكنا، إن أباك قد مات، وأمره مفوَّض إلى ربه، وهو الآن في التراب، ولا تُخرِجه من قبره. فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من أكابر بني إسرائيل، عرف أنهم لا يمكِّنونه من أبيه، فتركهم ودخل على أمه وقال لها: يا أمي، إني رأيت في خزائن أبي كتابًا فيه صفة محمد ﷺ، وهو نبي يُبعَث في آخِر الزمان، وقد تعلَّقَ قلبي بحبه، وأنا أريد أن أسيح في البلاد حتى أجتمع به، فإنني إنْ لم أجتمع به متُّ غرامًا في حبه. ثم نزع ثيابه، ولبس عباءة وزربونًا، وقال: لا تنسيني يا أمي من الدعاء. فبكت عليه أمه، وقالت له: كيف يكون حالنا بعدك؟ قال بلوقيا: ما بقي لي صبر أبدًا، وقد فوَّضْتُ أمري وأمرك إلى الله تعالى. ثم خرج سائحًا نحو الشام، ولم يدرِ به أحدٌ من قومه، وسار حتى وصل إلى ساحل البحر، فرأى مركبًا فنزل فيها مع الركاب، وسارت بهم إلى أن أقبلوا على جزيرة، فطلع الركاب من المركب إلى تلك الجزيرة، وطلع معهم، ثم انفرد عنهم في الجزيرة، وقعد تحت شجرة، فغلب عليه النوم فنام، ثم إنه أفاق من نومه، وقام إلى المركب لينزل فيها، فرأى المركب قد أقلعت، ورأى في تلك الجزيرة حيات مثل الجِمَال، ومثل النخل، وهم يذكرون الله عزَّ وجلَّ ويصلون على محمد ﷺ، ويصيحون بالتهليل والتسبيح، فلما رأى بلوقيا تعجَّبَ غايةَ العجب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٧

حكاية مغامرات بلوقيا

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا لما رأى الحيات يسبِّحون ويهلِّلون، تعجَّبَ من ذلك غاية العجب، ثم إن الحيات لما رأت بلوقيا اجتمعت عليه، وقالت له حية منهم: مَن تكون أنت؟ ومن أين أتيتَ؟ وما اسمك؟ وإلى أين رائح؟ فقال لها: اسمي بلوقيا، وأنا من بني إسرائيل، وخرجتُ هائمًا في حبِّ محمد ﷺ وفي طلبه، فمَن تكونون أنتم أيها الخليقة الشريفة؟ فقالت له الحيات: نحن من سكَّان جهنم، وقد خلقنا الله تعالى نقمة على الكافرين. فقال لهم بلوقيا: وما الذي جاء بكم إلى هذا المكان؟ فقالت له الحيات: اعلم يا بلوقيا أن جهنم من كثرة غليانها تتنفس في السنة مرتين: مرة في الشتاء، ومرة في الصيف، واعلم أن كثرة الحر من شدة فيحها، ولما تخرج نفسها ترمينا من بطنها، ولما تسحب نفسها تردُّنا إليها. فقال لهم بلوقيا: هل في جهنم أكبر منكم؟ فقالت له الحيات: إننا ما نخرج مع تنفُّسها إلا لصِغَرِنا، فإن في جنهم كل حية لو عبر أكبرُ ما فينا إلى أنفها لم تحس به. فقال لهم بلوقيا: أنتم تذكرون الله، وتصلون على محمد، ومن أين تعرفون محمدًا ﷺ؟ فقالوا يا بلوقيا: إن اسم محمد مكتوب على باب الجنة، ولولاه ما خلق الله المخلوقات، ولا جنةً ولا نارًا، ولا سماءً ولا أرضًا؛ لأن الله لم يخلق جميع الموجودات إلا من أجل محمد ﷺ، وقرن اسمه باسمه في كل مكان، ولأجل هذا نحن نحبُّ محمدًا ﷺ.

فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من الحيات زاد غرامه في حب محمد ﷺ، وعظم اشتياقه إليه، ثم إن بلوقيا ودَّعَهم وسار حتى وصل إلى شاطئ البحر، فرأى مركبًا راسية في جنب الجزيرة، فنزل فيها مع ركَّابها، وسارت بهم، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى جزيرة أخرى، فطلع عليها وتمشَّى ساعة، فرأى فيها حيات كبارًا وصغارًا لا يعلم عددها إلا الله

تعالى، وبينهم حية بيضاء أبيض من البلور، وهي جالسة في طبق من الذهب، وذلك الطبق على ظهر حية مثل الفيل، وتلك الحية ملكة الحيات، وهي أنا يا حاسب.

ثم إن حاسبًا سأل ملكة الحيات، وقال لها: أي شيء جوابك مع بلوقيا؟ فقالت الحية: يا حاسب، اعلم أني لما نظرت إلى بلوقيا سلَّمْتُ عليه، فردَّ عليَّ السلام، وقلت له: مَن أنت؟ وما شأنك؟ ومن أين أقبلتَ؟ وإلى أين تذهب؟ وما اسمك؟ فقال: أنا من بني إسرائيل، واسمي بلوقيا، وأنا سائح في حب محمد ﷺ وفي طلبه، فإني رأيت صفاته في الكتب المنزلة. ثم إن بلوقيا سألني، وقال لي: أي شيء أنت؟ وما شأنك؟ وما هذه الحيات التي حولك؟ فقلتُ له: يا بلوقيا، أنا ملكة الحيات، وإذا اجتمعتَ بمحمد ﷺ فأقرِئْه مني السلام. ثم إن بلوقيا ودَّعَني، ونزل في المركب حتى وصل إلى بيت المقدس، وكان في بيت المقدس رجلٌ تمكَّنَ من جميع العلوم، وكان متقنًا في علم الهندسة وعلم الفلك والحساب والسيمياء والروحاني، وكان يقرأ التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم، وكان يقال له عفان، وقد وجد في كتاب عنده أن كلَّ مَن لبس خاتم سيدنا سليمان انقادَتْ له الإنس والجن والطير والوحش وجميع المخلوقات، ورأى في بعض الكتب أنه لما توفي سيدنا سليمان، حطوه في تابوت، وعدوا به سبعة أبحر، وكان الخاتم في أصبعه، ولا يقدر أحد من الإنس، ولا من الجن أن يأخذ ذلك الخاتم، ولا يقدر أحد من أصحاب المراكب أن يروح بمركب إلى ذلك المكان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عفانًا وجد في بعض الكتب أنه لا يقدر أحدٌ من الإنس ولا من الجن أن يأخذ الخاتم من أصبع سيدنا سليمان، ولا يقدر أحد من أصحاب المراكب أن يسافر بمركبه في السبعة أبحر التي عدُّوها بتابوته، ووجد في بعض الكتب أيضًا أن بين الأعشاب عشبًا، كلُّ مَن أخذ منه شيئًا وعصره وأخذ ماءَه، ودهن به قدمَيْه، فإنه يمشي على أي بحر خلقه الله تعالى، ولا تبتلُّ قدماه، ولا يقدر أحد على تحصيل ذلك العشب إلا إذا كانت معه ملكة الحيات.

ثم إن بلوقيا لما دخل بيت المقدس جلس في مكان يعبد الله تعالى، فبينما هو جالس يعبد الله إذ أقبل عليه عفان، وسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، ثم إن عفانًا نظر إلى بلوقيا فرآه يقرأ في التوراة وهو جالس يعبد الله تعالى، فتقدَّمَ إليه وقال له: أيها الرجل، ما اسمك؟ ومن أين أتيتَ؟ وإلى أين تذهب؟ فقال له: اسمي بلوقيا، وأنا من مدينة مصر، خرجتُ سائحًا في طلب محمد ﷺ. فقال عفان لبلوقيا: قُمْ معي إلى منزلي حتى أضيفك. فقال: سمعًا وطاعة. فأخذ عفان بيد بلوقيا، وذهب به إلى منزله، وأكرَمَه غاية الإكرام، وبعد ذلك قال له: أخبرني يا أخي بخبرك، ومَن أين عرفتَ محمدًا ﷺ حتى تعلَّقَ قلبُك بحبه، وذهبْتَ في طلبه، ومَن دلَّكَ على هذا الطريق؟ فحكى له بلوقيا حكايته من الأول إلى الآخِر، فلما سمع عفان كلامَه كاد أن يذهب عقله، وتعجَّبَ من ذلك غاية العجب، ثم إن عفانًا قال لبلوقيا: اجمعني على ملكة الحيات، وأنا أجمعك على محمد ﷺ؛ لأن زمان مبعث محمد ﷺ بعيد، وإذا ظفرنا بملكة الحيات نحطها في قفص ونروح بها إلى الأعشاب التي في الجبال، وكل عشب جزنا عليه، وهي معنا ينطق ويخبر بمنفعته بقدرة الله تعالى، فإني قد وجدتُ عندي في الكتب أن في الأعشاب عشبًا، كلُّ مَن أخذه ودَقَّه، وأخذ ماءه ودهن به قدمَيْه،

ومشى على أي بحر خلقه الله تعالى لم تبتلَّ له قدم، فإذا أخذنا ملكة الحيات تدلنا على ذلك العشب، وإذا وجدناه نأخذه وندقُّه، ونأخذ ماءه، ثم نطلقها إلى حال سبيلها، وندهن بذلك الماء أقدامنا، ونعدِّي السبعة أبحر، ونصل إلى مدفن سيدنا سليمان، ونأخذ الخاتم من أصبعه، ونحكم كما حكم سيدنا سيلمان، ونصل إلى مقصودنا، وبعد ذلك ندخل بحر الظلمات، فنشرب من ماء الحياة، فيمهلنا الله إلى آخِر الزمان، ونجتمع بمحمد ﷺ.

فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من عفان قال له: يا عفان، أنا أجمعك بملكة الحيات، وأُرِيك مكانها. فقام عفان وصنع له قفصًا من حديد، وأخذ معه قدحين، وملأ أحدهما خمرًا، وملأ الآخَر لبنًا، وسار عفان هو وبلوقيا أيامًا وليالي حتى وصلَا إلى الجزيرة التي فيها ملكة الحيات، فطلع عفان وبلوقيا إلى الجزيرة، وتمشَّيَا فيها، وبعد ذلك وضع عفان القفص، ونصب فيه فخًّا، ووضع فيه القدحين المملوءين خمرًا ولبنًا، ثم تباعَدَا عن القفص، واستخفيَا ساعة، فأقبلت ملكة الحيات على القفص حتى قربت من القدحين، فتأمَّلَتْ فيهما ساعة، فلما شمت رائحة اللبن نزلت من فوق ظهر الحية التي هي فوقها، وطلعت من الطبق، ودخلت القفص، وأتت إلى القدح الذي فيه الخمر وشربت منه، فلما شربت من ذلك القدح داخت رأسها ونامت؛ فلما رأى ذلك عفان تقدَّمَ إلى القفص وقفله على ملكة الحيات، ثم أخذها هو وبلوقيا وسارَا، فلما أفاقت رأت روحها في قفص من حديد، والقفص على رأس رجل وبجانبه بلوقيا، فلما رأت ملكة الحيات بلوقيا قالت له: هذا جزاء مَن لا يؤذي بني آدم. فردَّ عليها بلوقيا وقال لها: لا تخافي منَّا يا ملكة الحيات، فإنَّا لا نؤذيك أبدًا، ولكن نريد منك أن تدلِّينا على عشب بين الأعشاب، كلُّ مَن أخذه ودقَّه، واستخرج ماءه، ودهن به قدمَيْه، ومشى على أي بحر خلقه الله تعالى لا تبتلُّ قدماه، فإذا وجدنا ذلك العشب أخذناه، ونرجع بك إلى مكانك، ونطلقك إلى حال سبيلك.

ثم إن عفانًا وبلوقيا سارَا بملكة الحيات نحو الجبال التي فيها الأعشاب، ودارَا بها على جميع الأعشاب، فصار كل عشب ينطق ويخبر بمنفعته بإذن الله تعالى، فبينما هما في هذا الأمر، والأعشاب تنطق يمينًا وشمالًا، وتخبر بمنافعها، وإذا بعشب نطق وقال: أنا العشب الذي كلُّ مَن أخذني ودقَّني، وأخذ مائي، ودهن به قدمَيْه، وجاز على أي بحر خلقه الله تعالى لم تبتلَّ قدماه. فلما سمع عفان كلام العشب حطَّ القفص من فوق رأسه، وأخذَا من ذلك العشب ما يكفيهما، ودقَّاه وعصرَاه، وأخذَا ماءه، وجعلاه في قزازتين وحفظاهما، والذي فضل منهما دهَنَا به أقدامهما، ثم إن بلوقيا وعفانًا أخذَا ملكة الحيات، وسارَا بها ليالي وأيامًا حتى وصلَا إلى الجزيرة التي كانت فيها، ففتح عفان باب القفص، وخرجت

منه ملكة الحيات، فلما خرجت قالت لهما: فما تصنعان بهذا الماء؟ فقالَا لها: مرادنا أن ندهن به أقدامنا حتى نتجاوز السبعة أبحر، ونصل إلى مدفن سيدنا سليمان، ونأخذ الخاتم من أصبعه. فقالت لهما ملكة الحيات: هيهات أن تقدرَا على أخذ الخاتم. فقالا لها: لأي شيء؟ فقالت لهما: لأن الله تعالى مَنَّ على سليمان بإعطائه ذلك الخاتم، وخصَّه بذلك؛ لأنه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، فما لكما ولذلك الخاتم؟ ثم قالت لهما: لو أخذتما من العشب الذي كلُّ مَن أكل منه لا يموت إلى النفخة الأولى، وهو بين تلك الأعشاب، لَكان أنفع لكما من هذا الذي أخذتماه، فإنه لا يحصل لكما منه مقصودكما. فلما سمعَا كلامَهما ندمَا ندمًا عظيمًا، وسارَا إلى حال سبيلهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا وعفانًا لما سمعَا كلام ملكة الحيات ندمَا ندمًا عظيمًا، وسارَا إلى حال سبيلهما. هذا ما كان من أمرهما، وأما ما كان من أمر ملكة الحيات، فإنها أتت إلى عساكرها، فرأتهم قد ضاعت مصالحهم، وضعف قويُّهم، وضعيفهم مات؛ فلما رأى الحيات ملكتهم بينهم فرحوا، والتمُّوا حولها، وقالوا لها: ما خبرك؟ وأين كنتِ؟ فحكَتْ لهم جميع ما جرى لها مع عفان وبلوقيا، ثم بعد ذلك جمعت جنودها، وتوجَّهَتْ بهم إلى جبل قاف؛ لأنها كانت تشتِّي فيه، وتصيِّف في المكان الذي رآها فيه حاسب كريم الدين. ثم إن الحية قالت: يا حاسب، هذه حكايتي، وما جرى لي. فتعجَّبَ حاسب من كلام الحية، ثم قال لها: أريد من فضلك أن تأمري أحدًا من أعوانك أن يُخرِجني إلى وجه الأرض، وأروح إلى أهلي. فقالت له ملكة الحيات: يا حاسب، ليس لك رواح من عندنا حتى يدخل الشتاء، وتروح معنا إلى جبل قاف، وتتفرج فيه على تلال ورمل وأشجار، وأطيار تسبح الواحد القهَّار، وتتفرج على مَرَدَة عفاريت وجان ما يعلم عددها إلا الله تعالى.

فلما سمع حاسب كريم الدين كلامَ ملكة الحيات صار مهمومًا مغمومًا، ثم قال لها: أعلميني بعفان وبلوقيا، لَمَّا فارقَاكِ وسارَا، هل عدَّيَا السبعة بحور، ووصلَا إلى مدفن سيدنا سليمان أم لا؟ وإذا كان وصلَا إلى مدفن سيدنا سليمان، فهل قدرَا على أخذ الخاتم أم لا؟ فقالت له: اعلم أن عفانًا وبلوقيا لما فارقاني وسارَا، دهنَا أقدامهما من ذلك الماء، ومشيا على وجه البحر، وصارَا يتفرجان على عجائب البحر، وما زالا سائرين من بحر إلى بحر حتى عديَا السبعة أبحر، فلما عديَا تلك البحار وجدَا جبلًا عظيمًا شاهقًا في الهواء، وهو من الزمرد الأخضر، وفيه عين تجري، وترابه كله من المسك، فلما وصلَا إلى ذلك المكان فرحَا، وقالا: قد بلغنا مقصودنا. ثم سارَا حتى وصلَا إلى جبلٍ عال، فمشيَا فيه، فرأيَا مغارةً من بعيد في ذلك الجبل وعليها قبة عظيمة، والنور يلوح منها، فلما

رأيَا تلك المغارة قصداها حتى وصلا إليها، فدخلا فرأيا فيها تختًا منصوبًا من الذهب مرصعًا بأنواع الجواهر، وحوله كراسي منصوبة لا يحصي لها عددًا إلا الله تعالى، ورأيَا السيد سليمان نائمًا فوق ذلك التخت، وعليه حلة من الحرير الأخضر مزركشة بالذهب، مرصَّعة بنفيس المعادن من الجواهر، ويده اليمنى على صدره، والخاتم في أصبعه، ونور الخاتم يغلب على نور تلك الجواهر التي في ذلك المكان. ثم إن عفانًا علَّمَ بلوقيا أقسامًا وعزائم، وقال له: اقرأ هذه الأقسام، ولا تترك قراءتها حتى آخذ الخاتم. ثم تقدَّمَ عفان إلى التخت حتى قرب منه، وإذا بحيةٍ عظيمة طلعت من تحت التخت، وزعقت زعقة عظيمة، فارتعد ذلك المكان من زعقتها، وصار الشرر يطير من فمها، ثم إن الحية قالت لعفان: إن لم ترجع هلكتَ. فاشتغل عفان بالأقسام، ولم ينزعج من تلك الحية، فنفخت عليه الحية نفخة عظيمة كادت أن تُحرِق ذلك المكان، وقالت: ويلك إن لم ترجع أحرقتُك. فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من الحية طلع من المغارة، وأما عفان فإنه لم ينزعج من ذلك، بل تقدَّمَ إلى السيد سليمان، ومدَّ يده ولمس الخاتم، وأراد أن يسحبه من أصبع السيد سليمان، وإذا بالحية نفخت على عفان فأحرقته، فصار كومَ رمادٍ.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر بلوقيا، فإنه وقع مغشيًّا عليه من هذا الأمر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا لما رأى عفانًا احترق، وصار كومَ رمادٍ، وقع مغشيًّا عليه، وأمر الربُّ جلَّ جلاله جبريلَ أن يهبط إلى الأرض قبل أن تنفخ الحية على بلوقيا، فهبط إلى الأرض بسرعة، فرأى بلوقيا مغشيًّا عليه، ورأى عفانًا احترق من نفخة الحية، فأتى جبريل إلى بلوقيا، وأيقظه من غشيته، فلما أفاق سلَّمَ عليه جبريل، وقال له: من أين أتيتم على هذا المكان؟ فحكى له بلوقيا جميع حكايته من الأول إلى الآخِر، ثم قال له: اعلم أنني ما أتيتُ إلى هذا المكان إلا بسبب محمد ﷺ، فإن عفانًا أخبرني أنه يُبعَث في آخِر الزمان، ولا يجتمع به إلا مَن يعيش إلى ذلك الوقت، ولا يعيش إلى ذلك الوقت إلا مَن شرب من ماء الحياة، ولا يمكن ذلك إلا بحصول خاتم سليمان عليه السلام؛ فصحبته إلى هذا المكان، وحصل له ما حصل، وها هو قد احترق، وأنا لم أحترق، ومرادي أن تخبرني بمحمد أين يكون؟ فقال له جبريل: يا بلوقيا، اذهب إلى حال سبيلك، فإن زمان محمد بعيد. ثم ارتفع جبريل إلى السماء من وقته.

وأما بلوقيا فإنه صار يبكي بكاءً شديدًا، وندم على ما فعل، وتفكَّرَ قول ملكة الحيات: هيهات أن يقدر أحد على أخذ الخاتم. وتحيَّرَ بلوقيا في نفسه وبكى، ثم إنه نزل من الجبل وسار، ولم يزل سائرًا حتى قرب من شاطئ البحر، وقعد هناك ساعة يتعجب من تلك الجبال والبحار والجزائر، ثم بات تلك الليلة في ذلك الموضع، ولما أصبح الصباح دهن قدمَيْه من الماء الذي كانَا أخذاه من العشب، ونزل البحر، وسار ماشيًا فيه أيامًا وليالي وهو يتعجب من أهوال البحر وعجائبه وغرائبه، وما زال سائرًا على وجه الماء حتى وصل إلى جزيرةٍ كأنها الجنة، فطلع بلوقيا إلى تلك الجزيرة، وصار يتعجب منها ومن حُسْنها، وساح فيها فرآها جزيرة عظيمة، ترابها من الزعفران، وحصاها من الياقوت والمعادن

الفاخرة، وسياجها الياسمين، وزرعها من أحسن الأشجار، وأبهج الرياحين وأطيبها، وفيها عيون جارية، وحطبها من العود القماري والعود القاقلي، وبوصها قصب السكر، وحولها الورد والنرجس والعبهر والقرنفل والأقحوان والسوس والبنفسج، وكل ذلك فيها أشكال وألوان، وأطيارها تناغي على تلك الأشجار، وهي مليحة الصفات، واسعة الجهات، كثيرة الخيرات، قد حوت جميع الحسن والمعاني، وتغريد أطيارها ألطف من رنات المثاني، وأشجارها باسقة، وأطيارها ناطقة، وأنهارها دافقة، وعيونها جارية، ومياهها حالية، وفيها الغزلان تمرح، والجآذر تسنح، والأطيار تناغي على تلك الأغصان، وتسلي العاشق الولهان، فتعجَّبَ بلوقيا من هذه الجزيرة، وعلم أنه قد تاه عن الطريق التي قد أتى منها أول مرة حين كان معه عفان، فساح في تلك الجزيرة وتفرج فيها إلى وقت المساء.

فلما أمسى عليه الليل طلع على شجرة عالية لينام فوقها، وصار يتفكَّر في حُسْن تلك الجزيرة، فبينما هو فوق الشجرة على تلك الحالة، وإذ بالبحر قد اختبط، وطلع منه حيوان عظيم، وصاح صياحًا عظيمًا حتى انزعجت حيوانات تلك الجزيرة من صياحه، فنظر إليه بلوقيا وهو جالس على الشجرة، فرآه حيوانًا عظيمًا، فصار يتعجَّب منه، فلم يشعر بعد ساعة إلا وطلع خلفه من البحر وحوش مختلفة الألوان، وفي يد كل وحش منها جوهرة تضيء مثل السراج، حتى صارت الجزيرة مثل النهار من ضياء الجواهر، وبعد ساعة أقبلت من الجزيرة وحوش لا يعلم عددها إلا الله تعالى، فنظر إليها بلوقيا فرآها وحوش الفلاة من سباع ونمور وفهود، وغير ذلك من حيوانات البر، ولم تزل وحوش البر مقبلة حتى اجتمعت مع وحوش البحر في جانب الجزيرة، وصاروا يتحدثون إلى الصباح. فلما أصبح الصباح افترقوا من بعضهم، ومضى كلٌّ واحد منهم إلى حال سبيله، فلما رآهم بلوقيا خاف ونزل من فوق الشجرة، وسار إلى شاطئ البحر، ودهن قدمَيْه من الماء الذي معه، ونزل البحر الثاني، وسار على وجه الماء ليالي وأيامًا حتى وصل إلى جبل عظيم، وتحت ذلك الجبل وادٍ ما له آخر، وذلك الوادي حجارته من المغناطيس، ووحوشه سباع وأرانب ونمور، فطلع بلوقيا إلى ذلك الجبل وساح فيه من مكان إلى مكان حتى أمسى عليه المساء، فجلس تحت قنة من قنن ذلك الجبل بجانب البحر، وسار يأكل من السمك الناشف الذي يقذفه البحر.

فبينما هو جالس يأكل من ذلك السمك، وإذا بنمر عظيم أقبل على بلوقيا، وأراد أن يفترسه، فالتفت بلوقيا إلى ذلك النمر فرآه هاجمًا عليه ليفترسه، فدهن قدميه من الماء الذي معه، ونزل البحر الثالث هربًا من ذلك النمر، وسار على وجه الماء في الظلام، وكانت

ليلة سوداء ذات ريح عظيم، وما زال سائرًا حتى أقبل على جزيرة، فطلع عليها، فرأى فيها أشجارًا رطبة ويابسة، فأخذ بلوقيا من ثمر تلك الأشجار، وأكل وحمد الله تعالى، ودار فيها يتفرج إلى وقت المساء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا دار يتفرَّج في تلك الجزيرة، ولم يزل دائرًا يتفرج فيها إلى وقت المساء، فنام في تلك الجزيرة، ولما أصبح الصباح صار يتأمل في جهاتها، ولم يزل يتفرج فيها مدة عشرة أيام، وبعد ذلك توجَّهَ إلى شاطئ البحر، ودهن قدمَيْه، ونزل في البحر الرابع، ومشى على وجه الماء ليلًا ونهارًا حتى وصل إلى جزيرة، فرأى أرضها من الرمل الناعم الأبيض، وليس فيها شيء من الشجر، ولا من الزرع، فتمشى فيها ساعة، فوجد وحشها الصقور وهي معششة في ذلك الرمل، فلما رأى ذلك دهن قدمَيْه ونزل في البحر الخامس، وسار فوق الماء، وما زال سائرًا ليلًا ونهارًا حتى أقبل على جزيرة صغيرة أرضها وجبالها مثل البلور، وفيها العروق التي يُصنَع منها الذهب، وفيها أشجار غريبة ما رأى مثلها في سياحته، وأزهارها كلَوْنِ الذهب، فطلع بلوقيا إلى تلك الجزيرة، وصار يتفرج فيها إلى وقت المساء، فلما جنَّ عليه الظلام صارت الأزهار تضيء في تلك الجزيرة كالنجوم، فتعجَّبَ بلوقيا من هذه الجزيرة، وقال: إن الأزهار التي في هذه الجزيرة هي التي تيبس من الشمس، وتسقط على الأرض فتضربها الرياح، فتجتمع تلك الحجارة، وتصير إكسيرًا، فيأخذونها ويصنعون منها الذهب.

ثم إن بلوقيا نام في تلك الجزيرة إلى وقت الصباح، وعند طلوع الشمس دهن قدمَيْه من الماء الذي معه، ونزل البحر السادس، وسار ليالي وأيامًا حتى أقبل على جزيرة، فطلع عليها وتمشَّى فيها ساعة، فرأى فيها جبلين، وعليهما أشجار كثيرة، وثمار تلك الأشجار كرءوس الآدميين، وهي معلَّقة من شعورها، ورأى فيها أشجارًا أخرى أثمارها طيور خضر، مُعلَّقة من أرجلها، وفيها أشجار تتوقَّد مثل النار، ولها فواكه مثل الصبار، وكلُّ مَن سقطت عليه نقطة من تلك الفواكه احترق بها؛ ورأى بها فواكه تبكي، وفواكه تضحك، ورأى بلوقيا في تلك الجزيرة عجائب كثيرة. ثم إنه تمشى إلى شاطئ البحر، فرأى

شجرة عظيمة، فجلس تحتها إلى وقت العشاء، فلما أظلم الظلام طلع فوق تلك الشجرة، وصار يتفكَّر في مصنوعات الله، فبينما هو كذلك وإذا بالبحر قد اختبط، وطلع منه بنات البحر، وفي يد كل واحدة منهن جوهرة تضيء مثل المصباح، وسرن حتى أتين تحت تلك الشجرة، وجلسن ولعبن، ورقصن وطربن، فصار بلوقيا يتفرج عليهن، وهن في هذه الحالة، ولم يزلن في لعب إلى الصباح، فلما أصبح نزلن البحر، فتعجب منهن بلوقيا، ونزل من فوق الشجرة، ودهن قدمَيْه من الماء الذي معه، ونزل البحر السابع وسار، ولم يزل سائرًا مدة شهرين وهو لا ينظر جبلًا ولا جزيرة، ولا برًّا ولا واديًا ولا ساحلًا، حتى قطع ذلك البحر، وقاسى فيه جوعًا عظيمًا، حتى صار يخطف السمك من البحر، ويأكله نيئًا من شدة جوعه.

ولم يزل سائرًا على هذه الحالة حتى انتهى إلى جزيرة أشجارها كثيرة، وأنهارها غزيرة، فطلع إلى تلك الجزيرة وصار يمشي فيها، ويتفرج يمينًا وشمالًا، وكان ذلك في وقت الضحى، وما زال يتمشى حتى أقبل على شجرة تفاح، فمد يده ليأكل من تلك الشجرة، وإذا بشخصٍ صاح عليه من تلك الشجرة، وقال له: إنْ تقرَّبت إلى هذه الشجرة، وأكلتَ منها شيئًا، قسمَتْك نصفين. فنظر بلوقيا إلى ذلك الشخص فرآه طويلًا، طوله أربعون ذراعًا بذراع أهل ذلك الزمان، فلما رآه بلوقيا خاف منه خوفًا شديدًا، وامتنع عن تلك الشجرة، ثم قال له بلوقيا: لأي شيء تمنعني من الأكل من هذه الشجرة؟ فقال له: لأنك ابن آدم، وأبوك آدم نسي عهد الله، فعصاه وأكل من الشجرة. فقال له بلوقيا: أي شيء أنت؟ ولِمَن هذه الجزيرة وهذه والأشجار؟ وما اسمك؟ فقال له الشخص: أنا اسمي شراهيا، وهذه الأشجار والجزيرة للملك صخر، وأنا من أعوانه، وقد وكَّلَني على هذه الجزيرة. ثم إن شراهيا سأل بلوقيا وقال له: مَن أنت؟ ومن أين أتيتَ إلى هذه البلاد؟ فحكى له بلوقيا حكايته من الأول إلى الآخِر، فقال له شراهيا: لا تَخَفْ. ثم جاء له بشيء من الأكل، فأكل بلوقيا حتى اكتفى، ثم ودَّعَه وسار، ولم يزل سائرًا مدة عشرة أيام، فبينما هو سائر في جبال ورمال إذ نظر غبرة عاقدة في الجو، فقصد بلوقيا صوب تلك الغبرة، فسمع صياحًا وضربًا وهرجًا عظيمًا، فمشى بلوقيا نحو تلك الغبرة حتى وصل إلى وادٍ عظيم طوله مسيرة شهرين، ثم تأمَّلَ بلوقيا في جهة ذلك الصياح، فرأى ناسًا راكبين على خيل وهم يقتتلون مع بعضهم، وقد جرى الدم بينهم حتى صار مثل النهر، ولهم أصوات مثل الرعد، وفي أيديهم رماح وسيوف وأعمدة من الحديد، وقسي ونبال، وهم في قتال عظيم، فأخذه خوف شديد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا لما رأى هؤلاء الناس بأيديهم السلاح وهم في قتال عظيم، أخذه خوف شديد، وتحيَّرَ في أمره، فبينما هو كذلك وإذا هم رأوه، فلما رأوه امتنعوا عن بعضهم، وتركوا الحرب، ثم أتت إليه طائفة منهم، فلما قربوا منه تعجَّبوا من خلقته، ثم تقدَّمَ إليه فارس منهم، وقال له: أي شيء أنت؟ ومن أين أتيتَ؟ وإلى أين رائح؟ ومَن دلَّكَ على هذه الطريق حتى وصلت إلى بلادنا؟ فقال له: أنا من بني آدم، وجئتُ هائمًا في حبِّ محمد ﷺ، ولكني تهتُ عن الطريق. فقال له الفارس: نحن ما رأينا ابن آدم قطُّ، ولا أتى إلى هذه الأرض. وصاروا يتعجبون منه، ومن كلامه، ثم إن بلوقيا سألهم وقال لهم: أي شيء أنتم أيها الخليقة؟ فقال له الفارس: نحن من الجان. فقال له بلوقيا: يا أيها الفارس، ما سبب القتال الذي بينكم؟ وأين مسكنكم؟ وما اسم هذا الوادي وهذه الأراضي؟ فقال له الفارس: نحن مسكننا الأرض البيضاء، وفي كل عام يأمرنا الله تعالى أن نأتي إلى هذه الأرض، ونغازي الجان الكافرين. فقال له بلوقيا: وأين الأرض البيضاء؟ فقال له الفارس: خلف جبل قاف بمسيرة خمسة وسبعين سنة، وهذه الأرض يقال لها أرض شداد بن عاد، ونحن أتينا إليها لنغازي فيها، وما لنا شغل سوى التسبيح والتقديس، ولنا مَلِك يقال له الملك صخر، وما يمكن إلا أن تروح معنا إليه حتى ينظرك ويتفرَّج عليك.

ثم إنهم ساروا وبلوقيا معهم حتى أتوا منزلهم، فنظر بلوقيا خيامًا عظيمة من الحرير الأخضر لا يعلم عددها إلا الله تعالى، ورأى بينها خيمة منصوبة من الحرير الأحمر، واتساعها مقدار ألف ذراع، وأطنابها من الحرير الأزرق، وأوتادها من الذهب والفضة، فتعجَّبَ بلوقيا من تلك الخيمة، ثم إنهم ساروا به حتى أقبلوا على الخيمة، فإذا هي خيمة الملك صخر، ثم دخلوا به حتى أتوا قدام الملك صخر، فنظر بلوقيا إلى الملك

فرآه جالسًا على تخت عظيم من الذهب الأحمر، مرصَّع بالدر والجوهر، وعلى يمينه ملوك الجان، وعلى يساره الحكماء والأمراء وأرباب الدولة وغيرهم، فلما رآه الملك صخر أمر أن يدخلوا به عنده، فدخلوا به عند الملك، فتقدَّمَ بلوقيا وسلَّمَ عليه وقبَّلَ الأرض بين يديه، فردَّ عليه الملك صخر السلام، ثم قال له: ادنُ مني أيها الرجل. فدنا منه بلوقيا حتى صار بين يديه، فعند ذلك أمر الملك صخر أن ينصبوا له كرسيًّا بجانبه، فنصبوا له كرسيًّا بجانب الملك، ثم أمره الملك صخر أن يجلس على ذلك الكرسي، فجلس بلوقيا عليه. ثم إن الملك صخر سأل بلوقيا وقال له: أي شيء أنت؟ فقال له: أنا من بني آدم من بني إسرائيل. فقال له الملك صخر: احكِ لي حكايتك، وأخبرني بما جرى لك، وكيف أتيتَ إلى هذه الأرض؟ فحكى له بلوقيا جميع ما جرى له في سياحته من الأول إلى الآخِر، فتعجَّبَ الملك صخر من كلامه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا لما أخبر الملك صخر بجميع ما جرى له في سياحته من الأول إلى الآخِر، تعجَّبَ من ذلك، ثم أمر الفراشين أن يأتوا بسماط، فأتوا بسماط ومدوه، ثم إنهم أتوا بصوانٍ من الذهب الأحمر، وصوانٍ من الفضة، وصوانٍ من النحاس، وبعض الصواني فيها خمسون مسلاقة، وبعضها فيها عشرون جملًا، وبعضها فيها خمسون رأسًا من الغنم، وعدد الصواني ألف وخمسمائة صينية؛ فلما رأى بلوقيا ذلك تعجَّبَ غاية العجب، ثم إنهم أكلوا، وأكل بلوقيا معهم حتى اكتفى، وحمد الله تعالى، وبعد ذلك رفعوا الطعام، وأتوا بفواكه فأكلوا، ثم بعد ذلك سبَّحوا الله تعالى، وصلُّوا على نبيه محمد ﷺ، فلما سمع بلوقيا ذِكْرَ محمد تعجَّبَ، وقال للملك صخر: أريد أن أسألك بعض مسائل. فقال له الملك صخر: سَلْ ما تريد. فقال له بلوقيا: يا ملك، أي شيء أنتم؟ ومن أين أصلكم؟ ومن أين تعرفون محمدًا ﷺ حتى تصلون عليه وتحبوه؟ فقال له الملك صخر: يا بلوقيا، إن الله تعالى خلق النار سبع طبقات بعضها فوق بعض، وبين كل طبقة وطبقة مسيرة ألف عام، وجعل اسم الطبقة الأولى جهنم، وأعَدَّها لعصاة المؤمنين الذين يموتون من غير توبة، واسم الطبقة الثانية لظًى، وأعَدَّها للكفار، واسم الطبقة الثالثة الجحيم، وأعَدَّها ليأجوج ومأجوج، واسم الرابعة السعير، وأعَدَّها لقوم إبليس، واسم الخامسة سقر، وأعَدَّها لتارك الصلاة، واسم السادسة الحطمة، وأعَدَّها لليهود والنصارى، واسم السابعة الهاوية، وأعَدَّها للمنافقين؛ فهذه السبع طبقات. فقال له بلوقيا: لعل جهنم أهون عذابًا من الجميع؛ لأنها هي الطبقة الفوقانية. قال الملك صخر: نعم، هي أهون الجميع عذابًا، ومع ذلك فيها ألف جبل من النار، وفي كل جبل سبعون ألف وادٍ من النار، وفي كل وادٍ سبعون ألف مدينة من النار، وفي كل مدينة سبعون ألف قلعة من النار، وفي كل قلعة سبعون ألف بيت من النار، وفي كل بيت سبعون ألف تخت من النار، وفي كل

تخت سبعون ألف نوع من العذاب، وما في جميع طبقات النار يا بلوقيا أهون عذابًا من عذابها؛ لأنها هي الطبقة الأولى، وأما الباقي فلا يعلم عددها فيه من أنواع العذاب إلا الله تعالى.

فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من الملك صخر وقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق من غشيته بكى وقال: يا ملك، كيف يكون حالنا؟ فقال له الملك صخر: يا بلوقيا، لا تَخَفْ، واعلم أن كلَّ مَن كان يحب محمدًا لم تحرقه النار، وهو معتوق لأجل محمد ﷺ، وكل مَن كان على مِلَّته تهرب منه النار، وأما نحن فخلقنا الله تعالى من النار، وأول ما خلق الله المخلوقات في جهنم خلق شخصين من جنوده؛ أحدهما اسمه خليت، والآخَر اسمه مليت، وجعل خليت على صورة أسد، ومليت على صورة ذئب، وكان ذنب مليت على صورة الأنثى، ولونها أبلق، وذنب خليت على صورة ذكر وهو في هيئة حية، وذنب مليت في هيئة سلحفاة، وطول ذنب خليت مسيرة عشرين سنة، ثم أمر الله تعالى ذنبَيْهما أن يجتمعا مع بعضهما، ويتناكَحَا، فتوالَدَ منهما حيات وعقارب ومسكنها في النار ليعذِّب الله بها مَن يدخلها، ثم إن تلك الحيات والعقارب تناسلوا وتكاثروا، ثم بعد ذلك أمر الله تعالى ذنبَيْ خليت ومليت أن يجتمعَا ويتناكَحَا ثاني مرة، فاجتمعَا وتناكَحَا، فحمل ذنب مليت من ذنب خليت، فلما وضعت ولدت سبعة ذكور، وسبع إناث، فتربوا حتى كبروا، فلما كبروا تزوَّجَ الإناث بالذكور، وأطاعوا والدهم إلا واحدًا منهم عصى والده، فصار دودةً، وتلك الدودة هي إبليس لعنه الله تعالى، وكان من المقربين، فإنه عبَدَ اللهَ تعالى حتى ارتفع إلى السماء، وتقرَّبَ من الرحمن، وصار رئيس المقرَّبين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إبليس كان عبد الله تعالى، وصار رئيس المقربين، ولما خلق الله تعالى آدم عليه السلام أمر إبليس بالسجود له، فامتنع من ذلك، فطرده الله تعالى ولعنه، فلما تناسَلَ جاءت منه الشياطين، وأما الستة ذكور الذين قبلهم فهم الجان المؤمنون، ونحن من نسلهم، وهذا أصلنا يا بلوقيا. فتعجَّبَ بلوقيا من كلام الملك صخر، ثم إنه قال: يا ملك، أريد منك أن تأمر واحدًا من أعوانك ليوصلني إلى بلادي. فقال له الملك صخر: ما نقدر أن نفعل شيئًا من ذلك إلا إنْ أمرنا الله تعالى، ولكن يا بلوقيا إنْ شئتَ الذهاب من عندنا، فإني أُحضِر لك فرسًا من خيلي، وأركبك على ظهرها، وآمرها أن تسير بك إلى آخِر حكمي، فإذا وصلتَ إلى آخِر حكمي يلاقيك جماعة ملك اسمه براخيا، فينظرون الفرس فيعرفونها، ويُنزِلونك من فوقها، ويرسلونها إلينا، وهذا الذي نقدر عليه لا غير.

فلما سمع بلوقيا هذا الكلام بكى وقال للملك: افعل ما تريد. فأمر الملك أن يأتوا له بالفرس، فأتوا له بالفرس وأركبوه على ظهرها، وقالوا له: احذر أن تنزل من فوق ظهرها، أو تضربها في وجهها، فإن فعلتَ ذلك أهلكَتْك، بل استمِرَّ راكبًا عليها مع السكون حتى تقف بك، فانزل عن ظهرها ورُحْ إلى حال سبيلك. فقال لهم بلوقيا: سمعًا وطاعة. ثم ركب الفرس، وسار في الخيام مدة طويلة، ولم يمر في سيره إلا على مطبخ الملك صخر، فنظر بلوقيا إلى قدور معلَّقة، في كل قدر خمسون جملًا، والنار تلتهب من تحتها، فلما رأى بلوقيا تلك القدور وكبرها، تأمَّلَها وتعجَّبَ منها، وأكثر التعجب والتأمل فيها، فنظر إليه الملك فرآه متعجبًا من المطبخ، فظنَّ الملك في نفسه أنه جائع، فأمر أن يجيئوا له بجملين مشويين، فجاءوا له بجملين مشويين وربطوهما خلفه على ظهر الفرس، ثم إنه ودَّعهم وسار حتى وصل إلى آخِر حكم الملك صخر، فوقف الفرس، فنزل عنها بلوقيا

ينفض تراب السفر من ثيابه، وإذا برجال أتوا إليه، ونظروا الفرس فعرفوها، فأخذوها وساروا وبلوقيا معهم حتى وصلوا إلى الملك براخيا، فلما دخل بلوقيا على الملك براخيا سلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلام، ثم إن بلوقيا نظر إلى الملك فرآه جالسًا في صيوان عظيم، وحوله عساكر وأبطال، وملوك الجان على يمينه وشماله، ثم إن الملك أمر بلوقيا أن يدنو منه، فتقدَّمَ بلوقيا إليه، فأجلسه الملك بجانبه، وأمر أن يأتوا بالسماط، فنظر بلوقيا إلى حال الملك براخيا، فرآه مثل حال الملك صخر، ولما حضرت الأطعمة أكلوا وأكل براقيا حتى اكتفى وحمد الله تعالى. ثم إنهم رفعوا الأطعمة وأتوا بالفاكهة فأكلوا، ثم إن الملك براخيا سأل بلوقيا وقال له: متى فارقْتَ الملك صخر؟ فقال له: من مدة يومين. فقال الملك براخيا لبلوقيا: أتدري مسافة كم يوم سافرْتَ في هذين اليومين؟ قال: لا. قال: مسيرة سبعين شهرًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك براخيا قال لبلوقيا: إنك سافرت في هذين اليومين مسيرة سبعين شهرًا، ولكنك لما ركبت الفرس فزعت منك، وعلمت أنك ابن آدم، وأرادت أن ترميك عن ظهرها، فأثقلوها بهذين الجملين. فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من الملك براخيا تعجَّبَ، وحمد الله تعالى على السلامة، ثم إن الملك براخيا قال لبلوقيا: أخبرني بما جرى لك، وكيف أتيتَ إلى هذه البلاد؟ فحكى له بلوقيا جميع ما جرى له، وكيف ساح وأتى إلى هذه البلاد، فلما سمع الملك كلامه تعجَّبَ منه، ومكث بلوقيا عنده مدة شهرين.

فلما سمع حاسب كلام ملكة الحيات تعجَّبَ غاية العجب، ثم قال لها: أريد من فضلِك وإحسانِك أن تأمري أحدًا من أعوانك أن يُخرِجني إلى وجه الأرض حتى أروح إلى أهلي. فقالت له ملكة الحيات: يا حاسب كريم الدين، اعلم أنك متى خرجت إلى وجه الأرض تروح إلى أهلك، ثم تدخل الحمام وتغتسل، وبمجرد ما تفرغ من غُسْلك أموت أنا؛ لأن ذلك يكون سببًا لموتي. فقال حاسب: أنا أحلف لك ما أدخل الحمام طول عمري، وإذا وجب عليَّ الغُسْل أغتسل في بيتي. فقالت له ملكة الحيات: لو حلفتَ لي مائة يمين ما أصدقك أبدًا، فإن هذا لا يكون، واعلم أنك ابن آدم ما لك عهد؛ لإن أباك آدم قد عاهَدَ الله ونقض عهده، وكان الله تعالى خمر طينته أربعين صباحًا، وأسجد له ملائكته، وبعد ذلك نكث العهد ونسيه وخالَفَ أمر ربه.

فلما سمع حاسب ذلك الكلام سكت وبكى، ومكث يبكي مدة عشرة أيام، ثم قال لها حاسب: أخبريني بالذي جرى لبلوقيا بعد قعوده شهرين عند الملك براخيا. فقالت له: اعلم يا حاسب أن بلوقيا بعد قعوده عند الملك براخيا ودَّعَه، وسار في البراري ليلًا ونهارًا حتى وصل إلى جبلٍ عالٍ، فطلع ذلك الجبل فرأى فوقه ملكًا عظيمًا جالسًا على ذلك الجبل، وهو يذكر الله تعالى ويصلي على محمد، وبين يدي ذلك الملك لوح مكتوب فيه شيء أبيض،

وشيء أسود، وهو ينظر في اللوح، وله جناحان؛ أحدهما ممدود بالمشرق، والآخَر ممدود بالمغرب، فأقبَلَ عليه بلوقيا وسلَّمَ عليه، فرَدَّ عليه السلام. ثم إن الملك سأل بلوقيا وقال له: مَن أنت؟ ومن أين أتيتَ؟ وإلى أين رائح؟ وما اسمك؟ فقال بلوقيا: أنا من بني آدم من قوم بني إسرائيل، وأنا سائح في حب محمد ﷺ، واسمي بلوقيا. فقال: ما الذي جرى لك في مجيئك إلى هذه الأرض؟ فحكى له بلوقيا جميع ما جرى له، وما رأى في سياحته؛ فلما سمع الملك من بلوقيا ذلك الكلام تعجَّبَ منه، ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال: أخبرني أنت الآخَر بهذا اللوح، وأي شيء مكتوب فيه، وما هذا الأمر الذي أنت فيه، وما اسمك؟ فقال له الملك: أنا اسمي ميخائيل، وأنا موكَّل بتصريف الليل والنهار، وهذا شغلي إلى يوم القيامة. فلما سمع بلوقيا ذلك الكلام تعجَّبَ منه، ومن صورة ذلك الملك، ومن هيبته، وعِظَم خِلْقته.

ثم إن بلوقيا ودَّعَ ذلك الملك، وسار ليلًا ونهارًا حتى وصل إلى مرج عظيم، فتمشَّى في ذلك المرج، فرأى فيه سبعة أنهر، ورأى أشجارًا كثيرة؛ فتعجب بلوقيا من ذلك المرج العظيم، وسار في جوانبه، فرأى فيه شجرة عظيمة، وتحت تلك الشجرة أربعة ملائكة، فتقدَّمَ إليهم بلوقيا ونظر إلى خِلْقتهم، فرأى واحدًا منهم صورته صورة بني آدم، والثاني صورته صورة وحش، والثالث صورته صورة طير، والرابع صورته صورة ثور، وهم مشغولون بذِكْر الله تعالى، ويقول كلٌّ منهم: إلهي وسيدي ومولاي، بحقِّك وبجاه نبيك محمد ﷺ أن تغفر لكل مخلوق خلقته على صورتي وتسامحه؛ إنك على كل شيء قدير. فلما سمع بلوقيا منهم ذلك الكلام تعجَّبَ، وسار من عندهم ليلًا ونهارًا حتى وصل إلى جبل قاف، فطلع فوقه فرأى هناك ملكًا عظيمًا، وهو جالس يسبِّح الله تعالى ويقدِّسه، ويصلِّي على محمد ﷺ، ورأى ذلك الملك في قبض وبسط، وطي ونشر، فبينما هو في هذا الأمر إذ أقبل بلوقيا وسلَّمَ عليه، فردَّ الملك عليه السلام، وقال له: أي شيء أنت؟ ومَن أين أتيت؟ وإلى أين رائح؟ وما اسمك؟ فقال بلوقيا: أنا من بني إسرائيل، من بني آدم، واسمي بلوقيا، وأنا سائح في حب محمد ﷺ، ولكن تهت في طريقي. وحكى له جميع ما جرى له، فلما فرغ بلوقيا من حكايته، سأل الملك وقال له: مَن أنت؟ وما هذا الجبل؟ وما هذا الشغل الذي أنت فيه؟ فقال له الملك: اعلم يا بلوقيا أن هذا جبل قاف المحيط بالدنيا، وكل أرض خلقها الله في الدنيا قبضتها في يدي، فإذا أراد الله تعالى بتلك الأرض شيئًا من زلزلة، أو قحط، أو خصب، أو قتال، أو صلح، أمرني أن أفعله، فأفعل وأنا في مكاني، واعلم أن يدي قابضة بعروق الأرض. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك قال لبلوقيا: واعلم أن يدي قابضة بعروق الأرض. فقال بلوقيا للملك: هل خلق الله في جبل قاف أرضًا غير هذه الأرض التي أنت فيها؟ قال الملك: نعم، خلق أرضًا بيضاء مثل الفضة، وما يعلم قدر اتساعها إلا الله تعالى، وأسكَنَها ملائكة أكلُهم وشربُهم التسبيحُ والتقديس والإكثار من الصلاة على محمد ﷺ، وفي كل ليلة جمعة يأتون إلى هذا الجبل، ويجتمعون ويدعون الله تعالى طول الليل إلى وقت الصباح، ويهدون ثوابَ ذلك التسبيح والتقديس والعبادات للمذنبين من أمة محمد ﷺ، ولكل مَن اغتسل غُسْلَ الجمعة، وهذا حالهم إلى يوم القيامة.

ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال له: هل خلق الله جبالًا خلف جبل قاف؟ فقال الملك: نعم، خلف جبل قاف جبل قدره مسيرة خمسمائة عام، وهو من الثلج والبرد، وهو الذي ردَّ حرَّ جهنم عن الدنيا، ولولا ذلك الجبل لَاحترقت الدنيا من حر نار جهنم، وخلف جبل قاف أربعون أرضًا، كل أرض منها قدر الدنيا أربعين مرة، منها ما هو من الذهب، ومنها ما هو من الفضة، ومنها ما هو من الياقوت، ولكل أرض من تلك الأراضي لون، وأسكن الله في تلك الأراضي ملائكة لا شغلَ لهم سوى التسبيح والتقديس، والتهليل والتكبير، ويدعون الله تعالى لأمة محمد ﷺ، ولا يعرفون حواء ولا آدم، ولا ليلًا ولا نهارًا؛ واعلم يا لوقيا أن الأراضي سبع طباق، بعضها فوق بعض، وخلق الله ملكًا من الملائكة لا يعلم أوصافه ولا قدره إلا الله عزَّ وجلَّ، وهو حامل السبع أراضي على كاهله، وخلق الله تعالى تحت ذلك الملك صخرة، وخلق الله تعالى تحت تلك الصخرة نورًا، وخلق الله تعالى تحت ذلك النور حوتًا، وخلق الله تحت ذلك الحوت بحرًا عظيمًا، وقد أعلم الله تعالى عيسى عليه السلام بذلك الحوت، فقال له: يا رب، أَرِني ذلك الحوت حتى أنظر إليه. فأمر الله تعالى مَلَكًا من الملائكة أن يأخذ عيسى ويروح به إلى الحوت حتى ينظره، فأتى ذلك الملك إلى عيسى عليه

السلام وأخذه، وأتى به البحر الذي فيه الحوت، وقال له: انظر يا عيسى إلى الحوت. فنظر عيسى إلى الحوت فلم يَرَه، فمَرَّ الحوت على عيسى مثل البرق، فلما رأى ذلك عيسى وقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق أوحى الله إلى عيسى وقال له: يا عيسى، هل رأيت الحوت؟ وهل علمت طوله وعرضه؟ فقال عيسى: وعزتك وجلالك يا رب ما رأيته، ولكن مرَّ عليَّ نورٌ عظيم قدره مسافة ثلاثة أيام، ولم أعرف ما شأن ذلك النور. فقال الله: يا عيسى، ذلك الذي مرَّ عليك وقدره مسافة ثلاثة أيام إنما هو رأس النور، واعلم يا عيسى أنني في كل يوم أخلق أربعين حوتًا مثل ذلك الحوت. فلما سمع ذلك الكلام تعجَّبَ من قدرة الله تعالى.

ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال له: أي شيء خلق الله تحت البحر الذي فيه الحوت؟ فقال له الملك: خلق الله تحت البحر هواءً عظيمًا، وخلق الله تحت الهواء نارًا، وخلق الله تحت النار حية عظيمة اسمها فلق، ولولا خوف تلك الحية من الله تعالى لَابتلعت جميع ما فوقها من الهواء والنار والملك وما حمله، ولم تحس بذلك الملك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك قال لبلوقيا في وصف الحية: ولولا خوفها من الله تعالى لَابتلعت جميع ما فوقها من الهواء والنار، والملك وما حمله، ولم تحس بذلك، ولما خلق الله تعالى تلك الحية أوحى إليها أني أريد منك أن أُودِع عندك أمانة فاحفظيها. فقالت الحية: افعل ما تريد. فقال الله لتلك الحية: افتحي فاكِ. ففتحت فاها، فأدخل الله جهنم في بطنها، وقال لها: احفظي جهنم إلى يوم القيامة. فإذا جاء يوم القيامة، يأمر الله ملائكته أن يأتوا ومعهم سلاسل يقودون بها جهنم إلى المحشر، ويأمر الله تعالى جهنم أن تفتح أبوابها، فتفتحها ويطير منها شرر كبار أكثر من الجبال.

فلما سمع بلوقيا ذلك الكلام من الملك بكى بكاءً شديدًا، ثم إنه ودَّعَ الملك، وسار إلى ناحية الغرب حتى أقبل على شخصين فرآهما جالسين، وعندهما باب عظيم مقفول، فلما قرب منهما رأى أحدهما صورته صورة أسد، والآخَر صورته صورة ثور، فسلَّمَ عليهما بلوقيا، فردَّا عليه السلام، ثم إنهما سألاه وقالا له: أي شيء أنت؟ من أين أتيت؟ وإلى أين رائح؟ فقال لهما بلوقيا: أنا من بني آدم، وأنا سائح في حب محمد ﷺ، ولكن تهت عن طريقي. ثم إن بلوقيا سألهما، وقال لهما: أي شيء أنتما، وما هذا الباب الذي عندكما؟ فقالا له: نحن حراس هذا الباب الذي تراه، وما لنا شغل سوى التسبيح والتقديس والصلاة على محمد ﷺ. فلما سمع بلوقيا هذا الكلام تعجَّبَ، وقال لهما: أي شيء داخل هذا الباب؟ فقالا: لا ندري. فقال لهما: بحق ربكما الجليل أن تفتحَا لي هذا الباب حتى أنظر أي شيء داخله. فقالَا له: ما نقدر أن نفتح هذا الباب، ولا يقدر على فتحه أحدٌ من المخلوقين، إلا الأمين جبريل عليه السلام.

فلما سمع بلوقيا ذلك تضرَّعَ إلى الله تعالى، وقال: يا رب، ائتني بالأمين جبريل ليفتح لي هذا الباب حتى أنظر ما داخله. فاستجاب الله دعاءه، وأمر الأمين جبريل أن ينزل إلى

الأرض، ويفتح باب مجمع البحرين حتى ينظره بلوقيا، فنزل جبريل إلى بلوقيا وسلَّمَ عليه، وأتى إلى ذلك الباب وفتحه. ثم إن جبريل قال لبلوقيا: ادخل إلى هذا الباب، فإن الله أمرني أن أفتحه لك. فدخل بلوقيا وسار فيه، ثم إن جبريل قفل الباب وارتفع إلى السماء، ورأى بلوقيا في داخل الباب بحرًا عظيمًا، نصفه مالح، ونصفه حلو، وحول ذلك البحر جبلان، وهذان الجبلان من الياقوت الأحمر، وسار بلوقيا حتى أقبل على هذين الجبلين، فرأى فيهما ملائكة مشغولين بالتسبيح والتقديس، فلما رآهم بلوقيا سلَّمَ عليهم، فردُّوا عليه السلام، فسألهم بلوقيا عن البحر وعن هذين الجبلين، فقال له الملائكة: إن هذا مكان تحت العرش، وإن هذا البحر يمد كلَّ بحر في الدنيا، ونحن نقسم هذا الماء ونسوقه إلى الأراضي؛ المالح للأرض المالحة، والحلو للأرض الحلوة، وهذان الجبلان خلقهما ليحفظَا هذا الماء، وهذا أمرنا إلى يوم القيامة.

ثم إنهم سألوه وقالوا له: من أين أقبلت، وإلى أين رائح؟ فحكى لهم بلوقيا حكايته من الأول إلى الآخِر، ثم إن بلوقيا سألهم عن الطريق، فقالوا له: اطلع هنا على ظهر هذا البحر. فأخذ بلوقيا من الماء الذي معه، ودهن قدمَيْه، وودَّعهم وسار على ظهر البحر ليلًا ونهارًا، فبينما هو سائر وإذا هو ينظر شابًّا مليحًا سائرًا على ظهر البحر، فأتى إليه وسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، ثم إن بلوقيا لما فارَقَ الشاب رأى أربعة ملائكة سائرين على وجه البحر، وسيرهم مثل البرق الخاطف، فتقدَّمَ بلوقيا ووقف في طريقهم، فلما وصلوا إليه سلَّمَ عليهم بلوقيا، وقال لهم: أريد أن أسألكم بحق العزيز الجليل، ما اسمكم؟ ومن أين أنتم؟ وإلى أين تذهبون؟ فقال واحد منهم: أنا اسمي جبريل، والثاني اسمه إسرافيل، والثالث اسمه ميكائيل، والرابع اسمه عزرائيل، وقد ظهر في المشرق ثعبان عظيم، وذلك الثعبان خرَّبَ ألف مدينة، وأكل أهلها، وقد أمرنا الله تعالى أن نروح إليه ونمسكه ونرميه في جهنم. فتعجَّبَ منهم بلوقيا، ومن عِظَمهم، وسار على عادته ليلًا ونهارًا حتى وصل إلى جزيرةٍ، فطلع عليها وتمشَّى فيها ساعة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا طلع إلى الجزيرة، وتمشى فيها ساعة، فرأى شابًّا مليحًا، والنور يلوح من وجهه، فلما قرب منه بلوقيا رآه جالسًا بين قبرين مبنيَّيْن، وهو ينوح ويبكي، فأتى إليه بلوقيا وسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، ثم إن بلوقيا سأل الشاب، وقال له: ما شأنك؟ وما اسمك؟ وما هذان القبران المبنيان اللذان أنت جالس بينهما؟ وما هذا البكاء الذي أنت فيه؟ فالتفت الشاب إلى بلوقيا، وبكى بكاءً شديدًا حتى بلَّ ثيابَه من دموعه، وقال لبلوقيا: اعلم يا أخي أن حكايتي عجيبة، وقصتي غريبة، وأحب أن تجلس عندي حتى تحكي لي ما رأيتَ في عمرك، وما سبب مجيئك إلى هذا المكان، وما اسمك، وإلى أين رائح، وأحكي لك أنا الآخَر حكايتي. فجلس بلوقيا عند الشاب وأخبره بجميع ما وقع له في سياحته من الأول إلى الآخِر، وأخبره كيف مات والده وخلفه، وكيف فتح الخلوة ورأى فيها الصندوق، وكيف رأى الكتاب الذي فيه صفة محمد ﷺ، وكيف تعلَّقَ قلبه به، وطلع سائحًا في حبه، وأخبره بجميع ما وقع له إلى أن وصل إليه، ثم قال له: وهذه حكايتي بتمامها، والله أعلم، وما أدري بالذي يجري عليَّ بعد ذلك. فلما سمع الشاب كلامَه تنهَّدَ، وقال له: يا مسكين، أي شيء رأيتَ في عمرك؟ اعلم يا بلوقيا أني رأيتُ السيد سليمان في زمانه، ورأيتُ شيئًا لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، وحكايتي عجيبة، وقصتي غريبة، وأريد منك أن تقعد عندي حتى أحكي لك حكايتي، وأخبرك بسبب قعودي هنا.

فلما سمع حاسب هذا الكلام من الحية تعجَّبَ، وقال: يا ملكة الحيات، بالله عليكِ أن تعتقيني، وتأمري أحد خدمك أن يُخرِجني إلى وجه الأرض، وأحلف لك يمينًا أنني لا أدخل الحمام طول عمري. فقالت: إن هذا الأمر لا يكون، ولا أصدقك في يمينك. فلما سمع منها ذلك بكى، وبكت الحيات جميعًا لأجله، وصارت تستشفع له عند الملكة، وتقول لها: نريد منك أن تأمري إحدانا أن تُخرِجه إلى وجه الأرض، ويحلف لك يمينًا أنه لن يدخل

الحمام طول عمره. وكانت ملكة الحيات اسمها يمليخا، فلما سمعت يمليخا منهن ذلك الكلام أقبلت على حاسب وحلَّفته، فحلف لها، ثم أمرت حية أن تُخرِجه إلى وجه الأرض، فأتته وأرادت أن تُخرِجه، فلما أتت تلك الحية لتُخرِجه قال لملكة الحيات: أريد منك أن تحكي لي حكاية الشاب الذي قعد عنده بلوقيا، ورآه جالسًا بين القبرين. فقالت: اعلم يا حاسب أن بلوقيا جلس عند الشاب، وحكى له حكايته من أولها إلى آخِرها لأجل أن يحكي له الآخَر قصته، ويُخبِره بما جرى له في عمره، ويعرِّفه سببَ قعوده بين القبرين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٤٩٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا لما حكى للشاب حكايته قال له الشاب: وأي شيء رأيتَ من العجائب يا مسكين؟ أنا رأيت السيد سليمان في زمانه، ورأيت عجائب لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، واعلم يا أخي أن أبي كان ملكًا يقال له الملك طيغموس، وكان يحكم على بلاد كابل، وعلى بني شهلان، وهم عشرة آلاف بهلوان، كل بهلوان منهم يحكم على مائة مدينة، ومائة قلعة بأسوارها، وكان يحكم على سبعة سلاطين، ويُحمَل له المال من المشرق إلى المغرب، وكان عادلًا في حكمه، وقد أعطاه الله تعالى كل هذا، ومَنَّ عليه بذلك المُلْك العظيم، ولم يكن له ولد، وكان مراده في عمره أن يرزقه الله ولدًا ذكرًا ليخلفه في ملكه بعد موته، فاتفق أنه طلب العلماء والمنجِّمين، وأرباب المعرفة والتقويم، يومًا من الأيام، وقال لهم: انظروا طالعي، وهل يرزقني الله في عمري ولدًا ذكرًا فيخلفني في ملكي؟ ففتح المنجِّمون الكتب، وحسبوا طالعه وناظره من الكواكب، ثم قالوا له: اعلم أيها الملك أنك تُرزَق ولدًا ذكرًا، ولا يكون ذلك الولد إلا من بنت ملك خراسان. فلما سمع طيغموس ذلك منهم فرِحَ فرحًا شديدًا، وأعطى المنجِّمين والحكماء مالًا كثيرًا لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، وذهبوا إلى حال سبيلهم، وكان عند الملك طيغموس وزير كبير، وكان بهلوانًا عظيمًا، مقومًا بألف فارس، وكان اسمه عين زار، فقال له: يا وزير، أريد منك أن تتجهَّزَ للسفر إلى بلاد خراسان، وتخطب لي بنت الملك بهروان ملك خراسان، وحكى الملك طيغموس لوزيره عين زار ما أخبره به المنجِّمون، فلما سمع الوزير ذلك الكلام من الملك طيغموس ذهب من وقته وساعته، وتجهَّزَ للسفر؛ ثم برز إلى خارج المدينة بالعساكر والأبطال والجيوش.

هذا ما كان من أمر الوزير، وأما ما كان من أمر الملك طيغموس، فإنه جهَّزَ ألفًا وخمسمائة حمل من الحرير، والجواهر واللؤلؤ واليواقيت، والذهب والفضة والمعادن، وجهَّزَ شيئًا كثيرًا من آلة العرس وحمَّلَها على الجِمال والبغال، وسلَّمَها إلى وزيره عين

زار، وكتب له كتابًا مضمونه: «أما بعد، فالسلام على الملك بهروان، واعلم أننا قد جمعنا المنجِّمين والحكماء وأرباب التقاويم، فأخبرونا أننا نُرزَق ولدًا ذكرًا، ولا يكون ذلك الولد إلا من بنتك، وها أنا قد جهَّزْتُ لك الوزير عين زار، ومعه أشياء كثيرة من آلة العروس، وإني أقمت وزيري مقامي في هذه المسألة، ووكَّلْتُه في قبول العقد، وأريد من فضلك أن تقضي للوزير حاجته، فإنها حاجتي، ولا تُبدِي في ذلك إهمالًا ولا إمهالًا، وما فعلته من الجميل فهو مقبول منك، والحذر من المخالفة في ذلك. واعلم يا ملك بهروان أن الله قد مَنَّ عليَّ بمملكة كابل، وملَّكَني على بني شهلان، وأعطاني مُلْكًا عظيمًا، وإذا تزوَّجْتُ بنتك أكون أنا وأنت في المُلْك شيئًا واحدًا، وأُرسِل إليك في كل سنة ما يكفيك من المال، وهذا قصدي منك.»

ثم إن الملك طيغموس ختم الكتاب، وناوله لوزيره عين زار، وأمره بالسفر إلى بلاد خراسان، فسافر الوزير حتى وصل إلى قرب مدينة الملك بهروان، فأعلموه بقدوم وزير الملك طيغموس، فلما سمع الملك بهروان بذلك الكلام جهَّزَ أمراء دولته للملاقاة، وجهَّزَ معهم أكلًا وشربًا، وغير ذلك، وأعطاهم عليقًا لأجل الخيل، وأمرهم بالسير إلى ملاقاة الوزير عين زار، فحمَّلوا الأحمال، وساروا حتى أقبلوا على الوزير، وحطوا الأحمال، ونزلت الجيوش والعساكر، وسلَّمَ بعضهم على بعض، ومكثوا في ذلك المكان مدة عشرة أيام وهم في أكل وشرب، ثم بعد ذلك ركبوا وتوجَّهوا إلى المدينة، وطلع الملك بهروان إلى مقابلة وزير الملك طيغموس، وعانَقَه وسلَّمَ عليه، وأخذه وتوجَّهَ به إلى القلعة. ثم إن الوزير قدَّمَ الأحمال والتحف وجميع الأموال للملك بهروان، وأعطاه الكتاب، فأخذه الملك بهروان، وقرأه وعرف ما فيه، وفهم معناه، وفرح فرحًا شديدًا، ورحَّبَ بالوزير وقال له: أبشِرْ بما تريد، ولو طلب الملك طيغموس روحي لأعطيتُه إياها. وذهب الملك بهروان من وقته إلى بنته وأمها وأقاربه، وأعلَمَهم بذلك الأمر واستشارهم فيه، فقالوا له: افعل ما شئتَ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك استشار البنت وأمها وأقاربها، فقالوا له: افعل ما تريد. ثم إن الملك بهروان رجع إلى الوزير عين زار، وأعلمه بقضاء حاجته، ومكث الوزير عند الملك بهروان مدة شهرين، ثم بعد ذلك قال الوزير للملك: إننا نريد منك أن تنعم علينا بما أتيناك فيه، ونروح إلى بلادنا. فقال الملك للوزير: سمعًا وطاعةً. ثم أمر بإقامة العرس وتجهيز الجهاز، ففعلوا ما أمرهم به، وبعد ذلك أمر بإحضار وزرائه، وجميع الأمراء من أكابر دولته، فحضروا جميعًا، ثم أمر بإحضار الرهبان والقسيسين، فحضروا وعقدوا عقد البنت للملك طيغموس، وهيَّأ الملك بهروان آلة السفر، وأعطى بنته من الهدايا والتحف والمعادن ما يكلُّ عنه الوصف، وأمر بفرش أزِقَّة المدينة، وزيَّنَها بأحسن زينة، وسافر الوزير عين زار ببنت الملك بهروان إلى بلاده، فلما وصل الخبر إلى الملك طيغموس أمر بإقامة الفرح وزينة المدينة، ثم إن الملك طيغموس دخل على بنت الملك بهروان، وأزال بكارتها، فما مضت عليها أيام قلائل حتى علقت منه، ولما تمَّتْ أشهرها وضعت ولدًا ذكرًا مثل البدر في ليلة تمامه، فلما علم الملك طيغموس أن زوجته وضعت ولدًا ذكرًا مليحًا، فرح فرحًا شديدًا، وطلب الحكماء والمنجِّمين وأرباب التقاويم، وقال لهم: أريد منكم أن تنظروا طالع هذا المولود، وناظره من الكواكب، وتخبروني بما يلقاه في عمره، فحسب الحكماء والمنجمون طالعه وناظره، فرأوا الولد سعيدًا، ولكنه يحصل له في أول عمره تعب، وذلك عند بلوغه خمس عشرة سنة، فإنْ عاش بعدها رأى خيرًا كثيرًا، وصار مَلِكًا عظيمًا أعظم من أبيه، وعظم سعده، وهلك ضده، وعاش عيشًا هنيئًا، وإنْ مات فلا سبيل إلى ما فات، والله أعلم.

فلما سمع الملك ذلك الخبر فرح فرحًا شديدًا، وسماه جانشاه، وسلَّمه للمراضع والدايات وأحسن تربيته، فلما بلغ من العمر خمس سنين علَّمَه أبوه القراءة، وصار يقرأ

في الإنجيل، وعلَّمَه الحرب والطعن والضرب في أقل من سبع سنين، وجعل يركب للصيد والقنص، وصار بهلوانًا عظيمًا كاملًا في جميع آلات الفروسية، وصار أبوه كلما سمع بفروسيته في جميع آلات الحرب فرح فرحًا شديدًا، فاتفق في يوم من الأيام أن الملك طيغموس أمر عسكره أن يركبوا للصيد والقنص، فطلعت العسكر والجيوش وركب الملك طيغموس هو وابنه جانشاه، وساروا إلى البراري والقفار، واشتغلوا بالصيد والقنص إلى عصر اليوم الثالث، فسنحت لجانشاه غزالة عجيبة اللون، وشردت قدَّامه، فلما نظر جانشاه إلى تلك الغزالة وهي شاردة قدامه تبعها، وأسرَعَ في الجري وراءها وهي هاربة، فانتبذ سبعة مماليك من مماليك طيغموس، وذهبوا في إثر جانشاه، فلما نظروا إلى سيدهم وهو مُسرِع وراء تلك الغزالة، راحوا مُسرِعين وراءه وهم على خيل سوابق، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى بحر، فتهاجم الجميع على الغزالة ليمسكوها قنصًا، ففَرَّتْ منهم الغزالة، وألقت نفسها في البحر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠١

حكاية جانشاه ابن الملك طيغموس

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه هو ومماليكه لما هجموا على الغزالة ليمسكوها قنصًا، فرَّتْ منهم ورمت نفسها في البحر، وكان في ذلك البحر مركب صياد، فنَطَّتْ فيها الغزالة، فنزل جانشاه ومماليكه عن خيلهم إلى المركب، وقنصوا الغزالة، وأرادا أن يرجعوا إلى البر، وإذا بجانشاه ينظر إلى جزيرة عظيمة، فقال للمماليك الذين معه: إني أريد أن نذهب إلى الجزيرة. فقالوا له: سمعًا وطاعةً. وساروا بالمركب إلى ناحية الجزيرة حتى وصلوا إليها، فلما وصلوا إليها طلعوا فيها وصاروا يتفرجون عليها، ثم بعد ذلك عادوا إلى المركب ونزلوا فيها، وساروا والغزالة معهم قاصدين البرَّ الذي أتوا منه، فأمسى عليهم المساء، وتاهوا في البحر، فهَبَّتْ عليهم الريح، وأجرت المركب في وسط البحر، وناموا إلى وقت الصباح، ثم انتبهوا وهم لا يعرفون الطريق، ولم يزالوا سائرين في البحر.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر الملك طيغموس والد جانشاه، فإنه تفقَّدَ ابنه فلم يَرَه، فأمر العسكر أن يروح كل جماعة منهم إلى طريق، فصاروا دائرين يفتِّشون عن ابن الملك طيغموس، وذهب جماعة منهم إلى البحر، فرأوا المملوك الذي خلوه عند الخيل، فأتوه وسألوه عن سيده، وعن الستة المماليك، فأخبرهم المملوك بما جرى لهم، فأخذوا المملوك والخيل، ورجعوا على الملك وأخبروه بذلك الخبر، فلما سمع الملك بذلك الكلام بكى بكاءً شديدًا، ورمى التاج من فوق رأسه، وعضَّ يدَيْه ندمًا، وقام من وقته وكتب كتبًا، وأرسلها إلى الجزائر التي في البحر، وجمع مائة مركب، وأنزل فيها عساكر، وأمرهم أن يدوروا في البحر، ويفتِّشوا على ولده جانشاه. ثم إن الملك أخذ بقية العساكر

والجيوش، ورجع إلى المدينة، وصار في نكد شديد، ولما علمت والدة جانشاه بذلك، لطمت وجهها وأقامت عزاءه.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر جانشاه والمماليك الذين معه، فإنهم لم يزالوا تائهين في البحر، ولم يزل الرواد دائرين يفتشون عنهم في البحر مدةَ عشرة أيام، فما وجدوهم، فرجعوا إلى الملك وأعلموه بذلك، ثم إن جانشاه والمماليك الذين معه هبَّ عليهم ريح عاصف، وساق المركب التي هم فيها حتى أوصلها إلى جزيرة، وطلع جانشاه والستة المماليك من المركب، وتمشَّوْا في تلك الجزيرة حتى وصلوا إلى عين ماء جارية في وسط تلك الجزيرة، فرأوا رجلًا جالسًا على بُعْدٍ قريبًا من العين، فأتوه وسلَّموا عليه، فردَّ عليهم السلام، ثم إن الرجل كلَّمهم بكلام مثل صغير الطير، فلما سمع جانشاه كلامَ ذلك الرجل تعجَّبَ، ثم إن الرجل التفَتَ يمينًا وشمالًا، وبينما هم يتعجَّبون من ذلك الرجل، إذا هو قد انقسم نصفين، وراح كل نصف في ناحية. وبينما هم كذلك إذ أقبَلَ عليهم أصنافُ رجال لا تُحصَى ولا تُعَدُّ، وأتوا من جانب الجبل، وساروا حتى وصلوا إلى العين، وصار كل واحد منقسمًا نصفين، ثم إنهم أتوا جانشاه والمماليك ليأكلوهم، فلما رآهم جانشاه يريدون أكلهم هرب منهم، وهربت معه المماليك، فتبعهم هؤلاء الرجال، فأكلوا من المماليك ثلاثة، وبقي ثلاثة مع جانشاه.

ثم إن جانشاه نزل في المركب ومعه الثلاثة المماليك، ودفعوا المركب إلى وسط البحر، وساروا ليلًا ونهارًا وهم لا يعرفون أين تذهب بهم المركب، ثم إنهم ذبحوا الغزالة، وصاروا يقتاتون منها، فضربتهم الرياح، فنقلتهم إلى جزيرة أخرى، فنظروا إلى تلك الجزيرة، فرأوا فيها أشجارًا وأنهارًا، وأثمارًا وبساتين، وفيها من جميع الفواكه، والأنهار تجري من تحت تلك الأشجار، وهي كأنها الجنة، فلما رأى جانشاه تلك الجزيرة أعجبته، وقال للمماليك: مَن فيكم يطلع هذه الجزيرة، وينظر لنا خبرها؟ فقال مملوك منهم: أنا أطلع وأكشف لكم عن خبرها، وأرجع إليكم. فقال جانشاه: هذا أمر لا يكون، وإنما تطلعون أنتم الثلاثة، وتكشفون لنا عن خبر هذه الجزيرة، وأنا قاعد لكم في المركب حتى ترجعوا. ثم إن جانشاه أنزل الثلاثة المماليك ليكشفوا عن خبر هذه الجزيرة، فطلع المماليك إلى الجزيرة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المماليك الثلاثة لما طلعوا إلى الجزيرة داروا فيها شرقًا وغربًا، فلم يجدوا فيها أحدًا، ثم مشوا فيها إلى وسطها فرأوا على بُعْدٍ قلعةً من الرخام الأبيض، وبيوتها من البلور الصافي، وفي وسط تلك القلعة بستان فيه من جميع الفواكه اليابسة والرطبة ما يكلُّ عنه الوصف، وفيه جميع المشموم، ورأوا في تلك القلعة أشجارًا وأثمارًا، وأطيارًا تناغي على تلك الأشجار، وفيها بحيرة عظيمة، وبجانب البحيرة إيوان عظيم، وعلى ذلك الإيوان كراسي منصوبة، وفي وسط تلك الكراسي تخت منصوب من الذهب الأحمر، مرصَّع بأنواع الجواهر واليواقيت. فلما رأى المماليك حُسْن تلك القلعة وذلك البستان، داروا في تلك القلعة يمينًا وشمالًا فما رأوا فيها أحدًا، ثم طلعوا من القلعة ورجعوا إلى جانشاه وأعلموه بما رأوه. فلما سمع جانشاه ابن الملك منهم ذلك الخبر قال لهم: إني لا بد لي من أن أتفرج في هذه القلعة. ثم إن جانشاه طلع من المركب وطلعت معه المماليك وساروا حتى أتوا القلعة ودخلوا فيها، فتعجَّبَ جانشاه من حُسْن ذلك المكان، ثم داروا يتفرجون في البستان، ويأكلون من تلك الفواكه، ولم يزالوا دائرين إلى وقت المساء، ولما أمسى عليهم المساء، أتوا إلى المنصوبة وجلس جانشاه على التخت المنصوب في الوسط، وصارت الكراسي منصوبة عن يمينه وشماله، ثم إن جانشاه لما جلس على ذلك التخت صار يتفكَّر ويبكي على فراق تخت والده، وعلى فراق بلاده وأهله وأقاربه، وبكت حوله الثلاثة المماليك. فبينما هم في ذلك الأمر، وإذا بصيحةٍ عظيمة من جانب البحر، فالتفتوا إلى جهة تلك الصيحة، فإذا هم قردة كالجراد المنتشرة، وكانت تلك القلعة والجزيرة للقردة، ثم إن هؤلاء القردة لما رأوا المركب التي أتى فيها جانشاه، خسفوها على شاطئ البحر، وأتوا جانشاه وهو جالس في القلعة.

قالت ملكة الحيات: كل هذا يا حاسب مما يحكيه الشاب الجالس بين القبرين لبلوقيا. فقال لها حاسب: وما فعل جانشاه مع القردة بعد ذلك؟ قالت له ملكة الحيات: لما طلع جانشاه وجلس على التخت، والمماليك عن يمينه وشماله، أقبل عليهم القِرَدة، فأفزعوهم وأخافوهم خوفًا عظيمًا، ثم دخلت جماعة من القردة، وتقدَّموا إلى أن قربوا من التخت الجالس عليه جانشاه، وقبَّلوا الأرض قدَّامه، ووضعوا أيديهم على صدورهم، ووقفوا قدامه ساعة، وبعد ذلك أقبلَتْ جماعة منهم، ومعهم غزلان فذبحوها، وأتوا بها إلى القلعة وسلخوها، وقطعوا لحمها وشووها حتى طابت للأكل، وحطوها في صوان من الذهب والفضة، ومدوا السماط، وأشاروا إلى جانشاه وجماعته أن يأكلوا، فنزل جانشاه من فوق التخت وأكل، وأكلت معه القرود والمماليك، حتى اكتفوا من الأكل. ثم إن القرود رفعوا سماط الطعام وأتوا بفاكهة، فأكلوا منها وحمدوا الله تعالى، ثم إن جانشاه أشار إلى أكابر القرود، وقال لهم: ما شأنكم؟ ولِمَنْ هذا المكان؟ فقال له القرود بالإشارة: اعلم أن هذا المكان لسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، وكان يأتي إليه في كل سنة مرة يتفرَّج فيه، ويروح من عندنا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه أخبره القرود عن القلعة، وقالوا له: إن هذا المكان كان لسيدنا سليمان بن داود، وكان يأتي إليه في كل سنة يتفرَّج فيه ويروح من عندنا. ثم قال له القرود: اعلم أيها الملك أنك بقيتَ علينا سلطانًا، ونحن في خدمتك، وكُلْ واشربْ، وكل ما أمرتنا به نفعله. ثم قام القرود وقبَّلوا الأرض بين يدَيْه، وانصرف كلٌّ واحد منهم إلى حال سبيله، ونام جانشاه فوق التخت، ونام المماليك حوله على الكراسي إلى وقت الصباح. ثم دخل عليه الأربعة وزراء الرؤساء على القرود وعساكرهم حتى امتلأ ذلك المكان، وصاروا حوله صفًّا بعد صف، وأتت الوزراء وأشاروا إلى جانشاه أن يحكم بينهم بالصواب، ثم صاح القرود على بعضهم وانصرفوا، وبقي منهم جانب قدام الملك جانشاه من أجل الخدمة، ثم بعد ذلك أقبَلَ قرود معهم كلاب في صورة الخيل، وفي رأس كل كلب منهم سلسلة، فتعجَّبَ جانشاه من هذه الكلاب ومن عِظَم خلقتها. ثم إن وزراء القرود أشاروا لجانشاه أن يركب ويسير معهم، فركب جانشاه والثلاثة مماليك، وركب معهم عسكر القرود، وصاروا مثل الجراد المنتشر، وبعضهم راكب، وبعضهم ماشٍ، فتعجَّبَ من أمورهم. ولم يزالوا سائرين إلى شاطئ البحر، فلما رأى جانشاه المركب التي كان راكبًا فيها قد خُسِفت، التفت إلى وزرائه من القرود وقال لهم: أين المركب التي كانت هنا؟ فقالوا له: اعلم أيها الملك أنكم لَمَّا أتيتم إلى جزيرتنا، علمنا أنك تكون سلطانًا علينا، وخفنا أن تهربوا منَّا إذ أتينا عندكم وتنزلوا المركب، فمن أجل ذلك خسفناها.

فلما سمع جانشاه هذا الكلام التفت إلى المماليك، وقال لهم: ما بقي لنا حيلة في الرواح من عند هؤلاء القرود، ولكن نصبر لما قدَّرَه الله تعالى. ثم ساروا، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى شاطئ نهر، وفي جانب ذلك النهر جبل عالٍ، فنظر جانشاه إلى ذلك الجبل، فرأى فيه غيلانًا كثيرة، فالتفت إلى القرود وقال لهم: ما شأن هؤلاء الغيلان؟

فقال له القرود: اعلم أيها الملك أن هؤلاء الغيلان أعداؤنا، ونحن أتينا لنقاتلهم، فتعجَّبَ جانشاه من هؤلاء الغيلان، ومن عِظَم خلقتهم، وهم راكبون على الخيل، ورءوس بعضهم على صورة رءوس البقر، وبعضهم على صورة الجمال، فلما رأى الغيلانُ عسكرَ القرود هجموا عليهم، ووقفوا على شاطئ النهر، وصاروا يرجمونهم بشيء من الحجارة في صورة العواميد، وحصل بينهم حرب عظيمة؛ فلما رأى جانشاه الغيلان غلبوا القرود، زعق على المماليك وقال لهم: أطلعوا القسيَّ والنشابَ، وارموا عليهم بالنبال حتى تقتلوهم، وتردُّوهم عنَّا. ففعل المماليك ما أمرهم به جانشاه حتى حصل للغيلان كرب عظيم، وقُتِل منهم خلق كثير، وانهزموا وولَّوْا هاربين، فلما رأى القرود من جانشاه هذا الأمر، نزلوا في النهر وعدوه، وجانشاه معهم، وطرد الغيلان حتى غابوا عن أعينهم، وانهزموا وقُتِل منهم كثير، ولم يزل جانشاه والقرود سائرين حتى وصلوا إلى جبلٍ عالٍ، فنظر جانشاه إلى ذلك الجبل، فوجد فيه لوحًا من المرمر مكتوبًا فيه: «اعلم يا مَن دخل هذه الأرض، أنك تصير سلطانًا على هؤلاء القرود، وما يتأتى لك رواح من عندهم إلا إنْ رحتَ من الدرب الشرقي بناحية الجبل، وطوله ثلاثة أشهر، وأنت سائر بين الوحوش والغيلان والمَرَدة والعفاريت، وبعد ذلك تنتهي إلى البحر المحيط بالدنيا؛ أو رحت من الدرب الغربي، وطوله أربعة أشهر، وفي رأسه وادي النمل، فإذا وصلتَ إلى وادي النمل ودخلت فيه، فاحترز على نفسك من هذا النمل حتى تنتهي إلى جبلٍ عالٍ، وذلك الجبل يتوقَّد مثل النار، ومسيرته عشرة أيام.» فلما رأى جانشاه ذلك اللوح ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه لما رأى ذلك اللوح، قرأه ورأى فيه ما ذكرناه، ورأى في آخِر الكلام: «ثم تنتهي إلى نهر عظيم وهو يجري، وجريانه يخطف البصر من شدة عزمه، وذلك النهر في كل سبت ييبس، وبجانبه مدينة أهلها كلهم يهود، ولدين محمد جحود، ما فيهم مسلم أبدًا، وما في هذه الأرض إلا هذه المدينة، وما دمتَ مقيمًا عند القرود هم منصورون على الغيلان. واعلم أن هذا اللوح كتبه السيد سليمان بن داود عليهما السلام.» فلما قرأه جانشاه بكى بكاءً شديدًا، ثم التفت إلى مماليكه، وأعلمهم بما هو مكتوب على اللوح، وبعد ذلك ركب وركب حوله عساكر القرود، وصاروا فرحانين بالنصر على أعدائهم، ورجعوا إلى قلعتهم؛ ومكث جانشاه في القلعة سلطانًا على القرود سنةً ونصفًا، ثم بعد ذلك أمر جانشاه عساكر القرود أن يركبوا للصيد والقنص، فركبوا وركب معهم جانشاه ومماليكه، وساروا في البراري والقفار، ولم يزالوا سائرين من مكان إلى مكان حتى عرف وادي النمل، ورأى الأمارة المكتوبة في اللوح المرمر؛ فلما رأى ذلك أمرهم أن ينزلوا في ذلك المكان، فنزلوا ونزلت عساكر القرود، ومكثوا في أكل وشرب مدة عشرة أيام، ثم اختلى جانشاه بمماليكه ليلةً من الليالي، وقال لهم: إني أريد أن نهرب ونروح إلى وادي النمل، ونسير إلى مدينة اليهود؛ لعل الله ينجينا من هؤلاء القرود، ونروح إلى حال سبيلنا. فقالوا له: سمعًا وطاعةً.

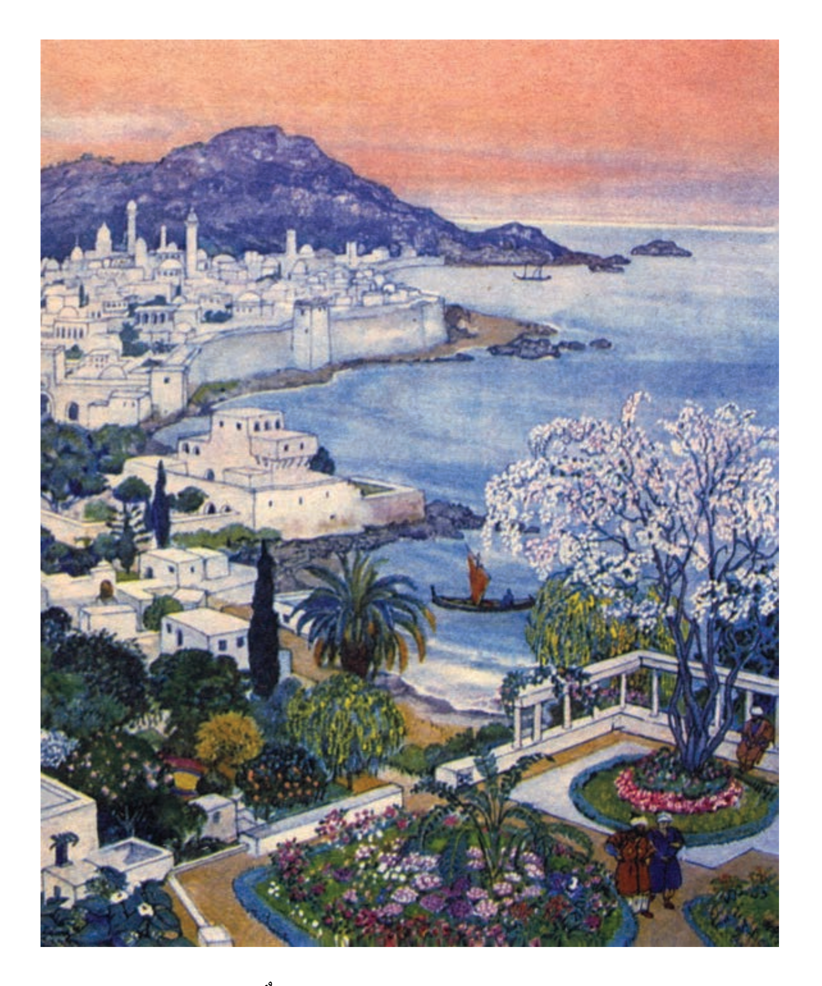
ثم إنه صبر حتى مضى من الليل شيء قليل، وقام وقامت معه المماليك، وتسلَّحوا بأسلحتهم، وحزموا أوساطهم بالسيوف والخناجر، وما أشبه ذلك من آلات الحرب، وخرج جانشاه هو ومماليكه وساروا من أول الليل إلى وقت الصبح، فلما انتبه القرود من نومهم لم يروا جانشاه ولا مماليكه، فعلموا أنهم هربوا منهم، فقامت جماعة من القرود وركبوا وساروا ناحية الدرب الشرقي، وجماعة ركبوا وساروا إلى وادي النمل. فبينما القرود

سائرون إذ نظروا جانشاه والمماليك معه وهم مُقبِلون على وادي النمل، فلما رأوهم أسرعوا وراءهم، فلما نظرهم جانشاه هرب وهربت معه المماليك، ودخلوا وادي النمل، فما مضت ساعة من الزمان إلا والقرود قد هجمت عليهم، وأرادوا أن يقتلوا جانشاه هو ومماليكه، وإذا هم بنملٍ قد خرج من تحت الأرض مثل الجراد المنتشر، كل نملة منه قدر الكلب، فلما رأى النملُ القرودَ هجم عليهم، وأكل منهم جماعة، وقُتِل من النمل جماعة كثيرة، لكن حصل النصر للنمل، وصارت النملة تأتي إلى القرد وتضربه فتقسمه نصفين، وصار العشرة قرود يركبون النملة الواحدة ويمسكونها ويقسمونها نصفين، ووقع بينهم حرب عظيم إلى وقت المساء، ولما أمسى الوقت هرب جانشاه هو والمماليك في بطن الوادي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه لما أقبل المساء هرب جانشاه هو ومماليكه في بطن الوادي إلى الصباح، فلما أصبح الصباح أقبل القرود على جانشاه، فلما رآهم زعق على مماليكه، وقال لهم: اضربوهم بالسيوف. فسحب المماليك سيوفهم، وجعلوا يضربون القرود يمينًا وشمالًا، فتقدَّمَ قرد عظيم له أنياب مثل أنياب الفيل، وأتى إلى واحد من المماليك وضربه فقسمه نصفين، وتكاثرت القرود على جانشاه، فهرب إلى أسفل الوادي، ورأى هناك نهرًا عظيمًا وبجانبه نمل عظيم، فلما رأى النمل جانشاه مُقبِلًا عليه واحتاط به، وإذا بمملوك ضرب نملة بالسيف فقسمها نصفين، فلما رأت عساكر النمل ذلك تكاثروا على المملوك وقتلوه. فبينما هم في هذا الأمر وإذا بالقرود قد أقبلوا من فوق الجبل، وتكاثروا على جانشاه، فلما رأى جانشاه اندفاعهم عليه، نزع ثيابه ونزل النهر، ونزل معه المملوك الذي بقي، وعاما في الماء إلى وسط النهر، ثم إن جانشاه رأى شجرة على شاطئ النهر من الجهة الأخرى، فمدَّ يده إلى غصن من أغصانها وتناوله، وتعلَّقَ به وطلع إلى البر، وأما المملوك فإنه غلب عليه التيار فأخذه وقطعه في الجبل، وصار جانشاه واقفًا وحده في البر يعصر ثيابه وينشِّفها في الشمس، ووقع بين القرود والنمل قتال عظيم، ثم رجع القرود إلى بلادهم.

هذا ما كان من أمر القرود والنمل، وأما ما كان من أمر جانشاه، فإنه صار يبكي إلى وقت المساء، ثم دخل مغارة واستكنَّ فيها، وقد خاف خوفًا شديدًا، واستوحش لفقد مماليكه، ثم نام في تلك المغارة إلى الصباح، ثم سار، ولم يزل سائرًا ليالي وأيامًا وهو يأكل من الأعشاب، حتى وصل إلى الجبل الذي يتوقَّد مثل النار، فلما أتى إليه سار فيه حتى وصل إلى النهر الذي ينشف في كل يوم سبت، فلما وصل إلى ذلك النهر رآه نهرًا عظيمًا، وبجانبه مدينة عظيمة، وهي مدينة اليهود التي رآها مكتوبة في اللوح، فأقام هناك إلى



فلما وصل رآه نهرًا عظيمًا، وبجانبه مدينةٌ عظيمة.

أن أتى يوم السبت ونشف النهر، ثم مشى من النهر حتى وصل إلى مدينة اليهود، فلم يَرَ فيها أحدًا، فمشى فيها حتى وصل إلى باب بيت ففتحه ودخله، فرأى أهله ساكتين لا يتكلمون أبدًا، فقال لهم: إني رجل غريب جائع. فقالوا له بالإشارة: كُلْ واشربْ ولا تتكلَّمْ. فقعد عندهم وأكل وشرب، ونام تلك الليلة، فلما أصبح الصباح سلَّمَ عليه صاحب البيت ورحَّب به، وقال له: من أين أتيتَ؟ وإلى أين رائح؟ فلما سمع جانشاه كلام ذلك اليهودي،

بكى بكاءً شديدًا وحكى له قصته، وأخبره بمدينة أبيه، فتعجَّبَ اليهودي من ذلك وقال له: ما سمعنا بهذه المدينة قطُّ، غير أننا كنَّا نسمع من قوافل التجار أن هناك بلادًا تُسمَّى بلاد اليمن. فقال جانشاه لليهودي: هذه البلاد التي يخبر بها التجار لا تبعد عن هذا المكان. فقال له اليهودي: إن تجار تلك القوافل يزعمون أن مدة سفرهم من بلادهم إلى هنا سنتان وثلاثة أشهر. فقال جانشاه لليهودي: ومتى تأتي القافلة؟ فقال له: تأتي في السنة القابلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن جانشاه لما سأل اليهودي عن مجيء القافلة قال له: تأتي في السنة القابلة. فلما سمع جانشاه كلامه بكى بكاءً شديدًا، وحزن على نفسه، وعلى مماليكه، وعلى فراق أمه وأبيه، وعلى ما جرى له في سفره، فقال له اليهودي: لا تبكِ يا شاب، واقعدْ عندنا حتى تأتي القافلة، ونحن نُرسِلك معها إلى بلادك. فلما سمع جانشاه ذلك الكلام، قعد عند اليهودي مدة شهرين، وصار في كل يوم يخرج إلى أزِقَّة المدينة ويتفرج فيها، فاتفق أنه خرج على عادته يومًا من الأيام، ودار في شوارع المدينة يمينًا وشمالًا، فسمع رجلًا ينادي، ويقول: مَن يأخذ ألف دينار وجارية حسناء بديعة الحُسْن والجمال، ويعمل لي شغلًا من وقت الصباح إلى وقت الظهر؟ فلم يُجِبْه أحدٌ. فلما سمع جانشاه كلام المنادي قال في نفسه: لولا أن هذا الشغل خطر ما كان صاحبه يعطي ألف دينار وجارية حسناء في شغل من الصبح إلى الظهر. ثم إن جانشاه تمشى إلى المنادي، وقال له: أنا أعمل هذا الشغل. فلما سمع المنادي من جانشاه هذا الكلام أخذه، وأتى به إلى بيتٍ عالٍ، فدخل هو وجانشاه ذلك البيت فوجده بيتًا عظيمًا، ووجد هناك رجلًا يهوديًّا تاجرًا جالسًا على كرسي من الأبنوس، فوقف المنادي قدامه وقال له: أيها التاجر، إن لي ثلاثة شهور وأنا أنادي في المدينة، فلم يُجِبْني أحد إلا هذا الشاب. فلما سمع التاجر كلام المنادي رحَّبَ بجانشاه وأخذه ودخل به إلى مكان نفيس، وأشار إلى عبيده أن يأتوا له بالطعام، فمدوا السماط، وأتوا بأنواع الأطعمة، فأكل التاجر وجانشاه، وغسلَا أيديهما، وأتوا بالمشروب فشربا، ثم إن التاجر قام وأتى لجانشاه بكيس فيه ألف دينار، وأتى له بجارية بديعة الحُسْن والجمال، وقال له: خذ هذه الجارية وهذا المال في الشغل الذي تعمله. فأخذ جانشاه الجارية والمال، وأجلس الجارية بجانبه، وقال له التاجر: في غدٍ اعمل لنا الشغل.

ثم ذهب التاجر من عنده، ونام جانشاه هو والجارية في تلك الليلة، ولما أصبح الصباح راح إلى الحمام، فأمر التاجر عبيده أن يأتوا له ببدلة من الحرير، فأتوا له ببدلة نفيسة من الحرير، وصبروا حتى خرج من الحمام، وألبسوه البدلة، وأتوا به إلى البيت، فأمر التاجر عبيده أن يأتوا بالحنك والعود والمشروب، فأتوا إليهما بذلك، فشربا ولعبا وضحكا إلى أن مضى من الليل نصفه، وبعد ذلك ذهب التاجر إلى حريمه، ونام جانشاه مع الجارية إلى وقت الصباح، ثم راح إلى الحمام، فلما رجع من الحمام جاء إليه التاجر، وقال: إني أريد أن تعمل لنا الشغل. فقال جانشاه: سمعًا وطاعةً. فأمر التاجر عبيده أن يأتوا ببغلتين، فأتوه ببغلتين، فركب بغلة وأمر جانشاه أن يركب البغلة الثانية فركبها، ثم إن جانشاه والتاجر سارَا من وقت الصباح إلى وقت الظهر حتى وصلا إلى جبلٍ عالٍ ما له حدٌّ في العلوِّ، فنزل التاجر من فوق ظهر البغلة، وأمر جانشاه أن ينزل، فنزل جانشاه، ثم إن التاجر ناول جانشاه سكينًا وحبلًا، وقال له: أريد منك أن تذبح هذه البغلة. فشمر جانشاه ثيابه، وأتى إلى البغلة، ووضع الحبل في أربعتها، ورماها على الأرض، وأخذ السكين وذبحها وسلخها، وقطع أربعتها ورأسها، وصارت كوم لحم؛ فقال له التاجر: أمرتك أن تشقَّ بطنها وتدخل فيه وأخيط عليك، وتقعد هناك ساعة من الزمان، ومهما تراه في بطنها فأخبرني به. فشقَّ جانشاه بطن البغلة ودخله، وخاطه عليه التاجر، ثم تركه وبَعُدَ عنه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن التاجر لما خاط بطن البغلة على جانشاه، تركه وبَعُدَ عنه، واستخفى في ذيل الجبل، وبعد ساعة نزل على البغلة طائر عظيم فاختطفها وطار، ثم حطَّ بها أعلى الجبل، وأراد أن يأكلها، فحسَّ جانشاه بالطائر، فشقَّ بطن البغلة وخرج منها، فجفل الطائر لما رأى جانشاه، وطار وراح إلى حال سبيله، فقام جانشاه على قدمَيْه وصار ينظر يمينًا وشمالًا، فلم يَرَ أحدًا إلا رجالًا ميتة يابسة من الشمس، فلما رأى ذلك قال في نفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم إنه نظر إلى أسفل الجبل، فرأى التاجر واقفًا تحت الجبل ينظر إلى جانشاه، فلما رآه قال له: ارمِ لي من الحجارة التي حولك حتى أدلك على طريقٍ تنزل منها. فرمى جانشاه من تلك الحجارة نحو مائتَيْ حجر، وكانت تلك الحجارة من الياقوت والزبرجد والجواهر الثمينة، ثم إن جانشاه قال للتاجر: دلَّني على الطريق، وأنا أرمي لك مرة أخرى. فلمَّ التاجر تلك الحجارة، وحملها على البغلة التي كان راكبها، وسار ولم يردَّ له جوابًا، وبقي جانشاه فوق الجبل وحده، فصار يستغيث ويبكي، ثم مكث فوق الجبل ثلاثة أيام، وبعد الثلاثة أيام قام وسار في عرض الجبل مدة شهرين وهو يأكل من أعشاب الجبل، وما زال سائرًا حتى وصل في سيره إلى طرف الجبل، فلما وصل إلى ذيل الجبل رأى واديًا على بُعْدٍ، وفيه أشجار وأثمار وأطيار تسبِّح الله الواحد القهار.

فلما رأى جانشاه ذلك الوادي فرح فرحًا شديدًا، فقصده، ولم يزل ماشيًا ساعة من الزمان حتى وصل إلى شرم في الجبل ينزل منه السيل، فنزل منه، وسار حتى وصل إلى الوادي الذي رآه وهو على الجبل، فنزل الوادي وصار يتفرج فيه يمينًا وشمالًا، وما زال يمشي ويتفرج حتى وصل إلى قصرٍ عالٍ شاهق في الهواء، فتقرَّبَ جانشاه من ذلك القصر حتى وصل إلى بابه، فرأى شيخًا مليح الهيئة، يلمع النور من وجهه، وبيده عكاز من

الياقوت، وهو واقف على باب القصر، فتمشَّى جانشاه حتى قرب منه وسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام ورحَّبَ به، وقال له: اجلس يا ولدي. فجلس جانشاه على باب ذلك القصر، ثم إن الشيخ سأله وقال له: من أين أتيت إلى هذه الأرض؟ وابن آدم ما داسها قطُّ، وإلى أين رائح؟ فلما سمع جانشاه كلام الشيخ بكى بكاءً شديدًا من كثرة ما قاساه، وخنقه البكاء، فقال له الشيخ: يا ولدي، اترك البكاء، فقد أوجعتَ قلبي. ثم قام الشيخ وأتى له بشيء من الأكل وحطه قدامه، وقال له: كُلْ من هذا. فأكل جانشاه حتى اكتفى، وحمد الله تعالى. ثم إن الشيخ بعد ذلك سأل جانشاه، وقال له: يا ولدي، أريد منك أن تحكي لي حكايتك، وتخبرني بما جرى لك. فحكى له حكايته، وأخبره بجميع ما جرى له من أول الأمر إلى أن وصل إليه؛ فلما سمع كلامه تعجب منه عجبًا شديدًا، فقال جانشاه للشيخ: أريد منك أن تخبرني بصاحب هذا الوادي، ولِمَن هذا القصر العظيم؟ فقال الشيخ لجانشاه: اعلم يا ولدي أن هذا الوادي وما فيه، وذلك القصر وما حواه، للسيد سليمان بن داود عليهما السلام، وأنا اسمي الشيخ نصر ملك الطيور، واعلم أن السيد سليمان وكَّلَني بهذا القصر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ نصر ملك الطيور قال لجانشاه: واعلم أن السيد سليمان وكَّلني بهذا القصر، وعلَّمني منطق الطير، وجعلني حاكمًا على جميع الطير الذي في الدنيا، وفي كل سنة يأتي الطير إلى هذا القصر وننظره ويروح، وهذا سبب قعودي في المكان. فلما سمع جانشاه كلامَ الشيخ نصر بكى بكاءً شديدًا، وقال له: يا والدي، كيف تكون حيلتي حتى أروح إلى بلادي؟ فقال له الشيخ: اعلم يا ولدي أنك بالقرب من جبل قاف، وليس لك رواح من هذا المكان إلا إذا أتت الطيور، وأوصي عليك واحدًا منها فيوصلك إلى بلادك، فاقعد عندي في هذا المكان وكُلْ واشربْ، وتفرج في هذه المقاصير حتى تأتي الطيور. فقعد جانشاه عند الشيخ، وصار يدور في الوادي، ويأكل من تلك الفواكه، ويتفرج ويضحك ويلعب، ولم يزل مُقِيمًا في ألذ عيش مدةً من الزمان حتى قرب مجيء الطيور من أماكنها لزيارة الشيخ نصر؛ فلما علم الشيخ نصر بمجيء الطيور قام على قدمَيْه، وقال لجانشاه: يا جانشاه، خذ هذه المفاتيح، وافتح المقاصير التي في هذا القصر، وتفرَّج على ما فيها إلا المقصورة الفلانية، فاحذر أن تفتحها، ومتى خالفتني وفتحتها ودخلتها لا يحصل لك خير أبدًا. وأوصى جانشاه بهذه الوصية، وأكَّدَ عليه فيها، وسار من عنده لملاقاة الطيور، فلما نظرَتِ الطيور الشيخ نصر أقبلَتْ عليه، وقبَّلَتْ يدَيْه جنسًا بعد جنس.

هذا ما كان من أمر الشيخ نصر، وأما ما كان من أمر جانشاه، فإنه قام على قدميه، وصار دائرًا يتفرج على القصر يمينًا وشمالًا، وفتح جميع المقاصر التي في القصر، حتى وصل إلى المقصورة التي حذَّره الشيخ نصر من فتحها؛ فنظر إلى باب تلك المقصورة فأعجبه ورأى عليه قفلًا من الذهب، فقال في نفسه: إن هذه المقصورة أحسن من جميع المقاصير التي في القصر، يا تُرَى ما يكون في هذه المقصورة حتى منعني الشيخ نصر

من الدخول فيها؟ فلا بد لي من أن أدخل هذه المقصورة، وأنظر الذي فيها، وما كان مقدَّرًا على العبد لا بد أن يستوفيه. ثم مدَّ يده وفتح المقصورة ودخلها، فرأى فيها بحيرة عظيمة، وبجانب البحيرة قصر صغير، وهو مبني من الذهب والفضة والبلور، وشبابيكه من الياقوت، ورخامه من الزبرجد الأخضر والبلخش والزمرد والجواهر مرصَّعة في الأرض على هيئة الرخام، وفي وسط ذلك القصر فسقية من الذهب ملآنة بالماء، وحول تلك الفسقية وحوش وطيور مصنوعة من الذهب والفضة، يخرج من بطونها الماء، وإذا هبَّ النسيم يدخل في آذانها فتصفِّر كل صورة بلغتها، وبجانب الفسقية إيوان عظيم، وعليه تخت عظيم من الياقوت مرصَّع بالدر والجواهر، وعلى ذلك التخت خيمة منصوبة من الحرير الأخضر، مزركشة بالفصوص والمعادن الفاخرة، ومقدار سعتها خمسون ذراعًا، وداخل تلك الخيمة مخدع فيه البساط الذي كان للسيد سليمان عليه السلام. ورأى جانشاه حول ذلك القصر بستانًا عظيمًا، وفيه أشجار وأثمار وأنهار، وفي دائر القصر مزارع من الورد والريحان والنسرين، ومن كل مشموم، وإذا هبَّتِ الرياح على الأشجار تمايلت تلك الأغصان، ورأى جانشاه في ذلك البستان من جميع الأشجار رطبًا ويابسًا، وكل ذلك في تلك المقصورة، فلما رأى جانشاه هذا الأمر تعجَّبَ منه غاية العجب، وصار يتفرَّج في ذلك البستان وفي ذلك القصر على ما فيهما من العجائب والغرائب، ونظر إلى البحيرة فرأى حصاها من الفصوص النفيسة، والجواهر الثمينة، والمعادن الفاخرة، ورأى في تلك المقصورة شيئًا كثيرًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٠٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه رأى في تلك المقصورة شيئًا كثيرًا، فتعجَّبَ منه، ثم تمشَّى حتى دخل القصر الذي في تلك المقصورة، وطلع على التخت المنصوب على الليوان بجانب الفسقية، ودخل الخيمة المنصوبة فوقه، ونام في تلك الخيمة مدة من الزمان، ثم أفاق وقام يتمشى حتى خرج من باب القصر، وجلس على كرسي قدام باب القصر وهو يتعجَّب من حُسْن ذلك المكان.

فبينما هو جالس إذ أقبل عليه من الجوِّ ثلاثة طيور في صفة الحمام، ثم إن الطيور حطوا بجانب البحيرة، ولعبوا ساعة، وبعد ذلك نزعوا ما عليهم من الريش، فصاروا ثلاث بنات كأنهن الأقمار، ليس لهن في الدنيا شبيه، ثم نزلن البحيرة وسبحن فيها، ولعبن وضحكن، فلما رآهن جانشاه تعجَّبَ من حُسْنهن وجمالهن واعتدال قدودهن، ثم طلعن إلى البر ودُرْنَ يتفرَّجْنَ في البستان، فلما رآهن جانشاه طلعن إلى البر كاد عقله أن يذهب، وقام على قدمَيْه وتمشى حتى وصل إليهن، فلما قرب منهن سلَّم عليهن، فردَدْنَ عليه السلام، ثم إنه سألهن وقال لهن: مَن أنتن أيتها السيدات الفاخرات؟ ومن أين أقبلتن؟ فقالت له الصغيرة: نحن أتينا من ملكوت الله تعالى؛ لنتفرج في هذا المكان. فتعجَّبَ من حُسْنهن، ثم قال للصغيرة: ارحميني وتعطَّفِي عليَّ وارثي لحالي، وما جرى لي في عمري. فقالت له: دَعْ عنك هذا الكلام. فلما سمع جانشاه منها هذا الكلام بكى بكاءً شديدًا، واشتدت به الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

بَدَتْ لِي فِي الْبُسْتَانِ بِالْحُلَلِ الْخُضْرِ مُفَكَّكَةَ الْأَزْرَارِ مَحْلُولَةَ الشَّعْرِ
فَقُلْتُ لَهَا: مَا الِاسْمُ؟ قَالَتْ: أَنَا الَّتِي كَوَيْتُ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ عَلَى جِجْرِي

شَكَوْتُ إِلَيْهَا مَا لَقِيتُ مِنَ الْهَوَى فَقَالَتْ: إِلَى صَخْرٍ شَكَوْتَ وَلَمْ تَدْرِ
فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ كَانَ قَلْبُكِ صَخْرَةً فَقَدْ أَنْبَعَ اللهُ الزُّلَالَ مِنَ الصَّخْرِ

فلما سمع البنات هذا الشعر من جانشاه، ضحكن ولعبن وغنين وطربن، ثم إن جانشاه أتى إليهن بشيء من الفواكه، فأكلن وشربن، ونمن مع جانشاه تلك الليلة إلى الصباح، فلما أصبح الصباح لبسن البنات ثيابهن الريش، وصرن في هيئة الحمام، وطرن ذاهبات إلى حال سبيلهن؛ فلما رآهن جانشاه طائرات، وقد غبن عن عيونه، كاد عقله أن يطير معهن، وزعق زعقة عظيمة، ووقع مغشيًّا عليه، ومكث في غشيته طول ذلك اليوم. فبينما هو طريح على الأرض، وإذا بالشيخ نصر قد أتى من ملاقاة الطيور، وفتَّشَ على جانشاه ليُرسِله مع الطيور ويروح إلى بلاده، فلم يَرَه، فعلم الشيخ نصر أنه دخل المقصورة، وقد كان الشيخ نصر قال للطيور: إن عندي ولدًا صغيرًا جاءت به المقادير من بلاد بعيدة إلى هذه الأرض، وأريد منكم أن تحملوه وتوصلوه إلى بلاده. فقالوا له: سمعًا وطاعةً. ولم يزل الشيخ نصر يفتِّش على جانشاه حتى أتى إلى باب المقصورة التي نهاه عن فتحها، فوجده مفتوحًا، فدخل فرأى جانشاه مرميًّا تحت شجرة وهو مغشي عليه، فأتاه بشيء من المياه العطرية، ورشَّه على وجهه، فأفاق من غشيته، وصار يلتفت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ نصر لما رأى جانشاه مرميًّا تحت شجرة، أتاه بشيء من المياه العطرية، ورشَّه على وجهه فأفاق من غشيته، وصار يلتفت يمينًا وشمالًا، فلم يَرَ عنده أحدًا سوى الشيخ نصر، فزادت به الحسرات، وأنشد هذه الأبيات:

تَبَدَّتْ كَبَدْرِ التِّمِّ فِي لَيْلَةِ السَّعْدِ ... مُنَعَّمَةَ الْأَطْرَافِ مَمْشُوقَةَ الْقَدِّ
لَهَا مُقْلَةٌ تَسْبِي الْعُقُولَ بِسِحْرِهَا ... وَثَغْرٌ حَكَى الْيَاقُوتَ فِي حُمْرَةِ الْوَرْدِ
تَحَدَّرَ فَوْقَ الرِّدْفِ أَسْوَدُ شَعْرِهَا ... فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْحُبَابَ مِنَ الْجَعْدِ
لَقَدْ رَقَّتِ الْأَعْطَافُ مِنْهَا وَقَلْبُهَا ... عَلَى صَبِّهَا أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ
وَتُرْسِلُ سَهْمَ اللَّحْظِ مِنْ قَوْسِ حَاجِبٍ ... يُصِيبُ وَلَمْ يُخْطِئْ وَلَوْ كَانَ مِنْ بُعْدِ
فَيَا حُسْنَهَا قَدْ فَاقَ كُلَّ مَلَاحَةٍ ... وَلَيْسَ لَهَا بَيْنَ الْبَرِيَّةِ مِنْ نِدِّ

فلما سمع الشيخ نصر من جانشاه هذه الأشعار قال له: يا ولدي، أَمَا قلتُ لك لا تفتح هذه المقصورة، ولا تدخلها؛ ولكن أخبرني يا ولدي بما رأيتَ فيها، واحكِ لي حكايتك، وعرِّفني ما جرى لك. فحكى له جانشاه حكايته، وأخبره بما جرى له مع الثلاث بنات وهو جالس، فلما سمع الشيخ نصر كلامه قال له: اعلم يا ولدي أن هذه البنات من بنات الجان، وفي كل سنة يأتين إلى هذا المكان فيلعبن وينشرحن إلى وقت العصر، ثم يذهبن إلى بلادهن. فقال له جانشاه: وأين بلادهن؟ فقال له الشيخ نصر: والله يا ولدي ما أعلم أين بلادهن. ثم إن الشيخ نصر قال له: قُمْ معي، وقوِّ نفسك حتى أُرسِلَك إلى بلادك مع الطيور، وخلِّ عنك هذا العشق. فلما سمع جانشاه كلامَ الشيخ نصر صرخ صرخة عظيمة، ووقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق قال له: يا والدي، أنا لا أريد الرواح إلى بلادي حتى

أجتمع بهؤلاء البنات، واعلم يا والدي أني ما بقيت أذكر أهلي ولو أموت بين يديك. ثم بكى وقال: أنا رضيت بأن أنظر وجهَ مَن عشقتها، ولو في السنة مرةً واحدةً. ثم صعد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

لَيْتَ الْخَيَالَ عَلَى الأَحْبَابِ مَا طَرَقَ وَلَيْتَ هَذَا الْهَوَى لِلنَّاسِ مَا خُلِقَ
لَوْلَا حَرَارَةُ قَلْبِي مِنْ تَذَكُّرِكُمْ مَا سَالَ دَمْعِي عَلَى خَدِّي وَلَا انْدَفَقَ
أُصَبِّرُ الْقَلْبَ فِي يَوْمِي وَلَيْلَتِهِ وَصَارَ جِسْمِي بِنَارِ الْحُبِّ مُحْتَرِقًا

ثم إن جانشاه وقع على رجلي الشيخ نصر وقبَّلَهما، وبكى بكاءً شديدًا، وقال له: ارحمني يرحمك الله، وأَعِنِّي على بلوتي يُعِنْك الله. فقال له الشيخ نصر: يا ولدي، والله لا أعرف هذه البنات، ولا أدري أين بلادهن، ولكن يا ولدي حيث تولَّعْتَ بإحداهن، فاقعد عندي إلى مثل هذا العام؛ لأنهن يأتين في السنة القابلة مثل هذا اليوم، فإذا قربت الأيام التي يأتين فيها، فكُنْ مستخفيًا في البستان تحت شجرة، ولما ينزلن البحيرة ويسبحن فيها، ويلعبن ويبعدن عن ثيابهن، فخُذْ ثياب التي تريدها منهن، فإذا نظرْنَك يطلعن على البر ليلبسن ثيابهن، وتقول لك التي أخذت ثيابها بعذوبة كلام، وحسن ابتسام: أَعْطِني ثيابي يا أخي حتى ألبسها، وأستتر بها. ومتى قبلتَ كلامها وأعطيتها ثيابها، فإنك لا تبلغ مرادك منها أبدًا، بل تلبس ثيابها وتروح إلى أهلها، ولا تنظرها بعد ذلك أبدًا؛ فإذا ظفرتَ بثيابها فاحفظها، وحطها تحت إبطك، ولا تُعْطِها إياها حتى أرجع من ملاقاة الطيور، وأوفِّق بينك وبينها، وأُرسِلك إلى بلادك وهي معك، وهذا الذي أقدر عليه يا ولدي لا غير. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ نصر قال لجانشاه: احفظ ثياب التي تريدها، ولا تعطها إياها حتى أرجع من ملاقاة الطيور، وهذا الذي أقدر عليه يا ولدي لا غير. فلما سمع جانشاه كلام الشيخ نصر اطمأنَّ قلبه، وقعد عنده إلى ثاني عام، وصار يعدُّ الماضي من الأيام التي تأتي الطيور عقبها؛ فلما جاء ميعاد مجيء الطيور أتى الشيخ نصر إلى جانشاه، وقال له: اعمل بالوصية التي أوصيتُك بها من أمر ثياب البنات، فإنني ذاهب إلى ملاقاة الطيور. فقال جانشاه: سمعًا وطاعةً لأمرك يا والدي. ثم ذهب الشيخ نصر إلى ملاقاة الطيور، وبعد ذهابه قام جانشاه وتمشَّى حتى دخل البستان، واختفى تحت شجرة بحيث لا يراه أحد، وقعد أول يوم وثاني يوم وثالث يوم فلم تأتِ إليه البنات، فقلق وصار في بكاء وأنين ناشئ عن قلب حزين، ولم يزل يبكي حتى أُغمِي عليه، ثم بعد ساعة أفاق وجعل ينظر تارةً إلى السماء، وتارةً ينظر إلى الأرض، وتارةً ينظر إلى البحيرة، وتارةً ينظر إلى البر، وقلبه يرتجف من شدة العشق. فبينما هو على هذه الحالة إذ أقبل عليه من الجو ثلاثة طيور في صفة الحمام، ولكن كل حمامة قدر النسر، ثم إنهن نزلن بجانب البحيرة، وتلفَّتْنَ يمينًا وشمالًا فلم يرين أحدًا من الإنس، ولا من الجن، فنزعن ثيابهن ونزلن البحيرة، وصرن يلعبن ويضحكن وينشرحن، وهن عرايا كسبائك الفضة، ثم إن الكبيرة فيهن قالت لهن: أخشى يا أخواتي أن يكون أحد مختفيًا لنا في هذا القصر. فقالت الوسطى منهن: يا أختي، إن هذا القصر من عهد سليمان، ما دخله إنس ولا جان. فقالت الصغيرة منهن وهي تضحك: والله يا أخواتي إن كان أحدٌ مختفيًا في هذا المكان، فإنه لا يأخذ إلا أنا.

ثم إنهن لعبن وضحكن، وقلب جانشاه يرتجف من فرط الغرام، وهو مختفٍ تحت الشجرة ينظرهن، وهنَّ لا ينظرنه، ثم إنهن سبحن في الماء حتى وصلن إلى وسط البحيرة،

وبعدن عن ثيابهن، فقام جانشاه على قدمَيْه وهو يجري كالبرق الخاطف، وأخذ ثياب البنت الصغيرة، وهي التي تعلَّقَ قلبه بها، وكان اسمها شمسة، فلما التفتَتْ رأت جانشاه، فارتجفت قلوبهن، واستترن منه بالماء، وأتين إلى قرب البر، ثم نظرن إلى وجه جانشاه، فرأينه كأنه البدر في ليلة تمامه، فقلن له: مَن أنت؟ وكيف أتيت إلى هذا المكان وأخذت ثياب السيدة شمسة؟ فقال لهن: تعالَيْنَ عندي حتى أحكي لَكُنَّ ما جرى لي. فقالت السيدة شمسة: ما خبرك؟ ولأي شيء أخذت ثيابي؟ وكيف عرفتني من دون أخواتي؟ فقال لها جانشاه: يا نور عيني، اطلعي من الماء حتى أحكي لك حكايتي، وأخبرك بما جرى لي، وأعلمك بسبب معرفتي بك. فقالت له: يا سيدي، وقرة عيني، وثمرة فؤادي، أَعْطِني ثيابي حتى ألبسها وأستتر بها، وأطلع عندك. فقال لي جانشاه: يا سيدة الملاح، ما يمكن أن أعطيك ثيابك، وأقتل نفسي من الغرام، فلا أعطيك ثيابك إلا إذا أتى الشيخ نصر ملك الطيور. فلما سمعت السيدة شمسة كلامَ جانشاه قالت له: إنْ كنتَ لا تعطيني ثيابي، فتأخَّرْ عنَّا قليلًا حتى تطلع أخواتي إلى البر، ويلبسن ثيابهن، ويعطينني شيئًا أستتر به. فقال لها جانشاه: سمعًا وطاعةً. ثم تمشَّى من عندهن إلى القصر ودخله، فطلعت السيدة شمسة هي وأخواتها إلى البر، ولبسن ثيابهن.

ثم إن أخت السيدة شمسة الكبيرة أعطتها ثوبًا من ثيابها لا يمكنها الطيران به، وألبستها إياه، ثم قامت السيدة شمسة وهي كالبدر الطالع، والغزال الراتع، وتمشَّتْ حتى وصلت إلى جانشاه، فرأته جالسًا فوق التخت، فسلَّمَتْ عليه، وجلست قريبًا منه، وقالت له: يا مليح الوجه، أنت الذي قتلتني وقتلت نفسك، ولكن أخبرنا بما جرى لك حتى ننظر ما خبرك. فلما سمع جانشاه كلام السيدة شمسة، بكى حتى بلَّ ثيابه من دموعه، فلما علمت أنه مُغرَم بحبها قامت على قدمَيْها، وأخذته من يده وأجلسته بجانبها، ومسحت دموعه بكمها، وقالت له: يا مليح الوجه، دَعْ عنك هذا البكاء، واحكِ لي ما جرى لك. فحكى لها جانشاه ما جرى له، وأخبرها بما رآه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة شمسة قالت لجانشاه: احكِ لي ما جرى لك. فحكى لها جميع ما جرى له، فلما سمعت السيدة منه ذلك الكلام، تنهَّدَتْ وقالت له: يا سيدي، إذا كنتَ مغرمًا بي، فأَعْطِني ثيابي حتى ألبسها وأروح أنا وأخواتي إلى أهلي، وأُعلِمهم بما جرى لك في محبتي، ثم أرجع إليك وأحملك إلى بلادك. فلما سمع جانشاه منها هذا الكلام بكى بكاءً شديدًا وقال لها: أيحلُّ لكِ من الله أن تقتليني ظلمًا؟ فقالت له: يا سيدي، بأي سبب أقتلك ظلمًا؟ فقال لها: لأنك متى لبست ثيابك ورحت من عندي، فإني أموت من وقتي. فلما سمعت السيدة شمسة كلامه ضحكت وضحك أخواتها، ثم قالت له: طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، فلا بد أن أتزوج بك. ومالت عليه، وعانقته وضمَّتْه إلى صدرها، وقبَّلَتْه بين عينيه وفي خده، وتعانَقَتْ هي وإياه ساعةً من الزمان، ثم افترقَا وجلسَا فوق ذلك التخت، فقامت أختها الكبيرة، وخرجت من القصر إلى البستان، فأخذت شيئًا من الفواكه والمشموم وأتت به إليهم، فأكلوا وشربوا وتلذَّذوا وطربوا وضحكوا ولعبوا، وكان جانشاه بديع الحُسْن والجمال، رشيق القد والاعتدال، فقالت له السيدة شمسة: يا حبيب، والله أنا أحبك محبة عظيمة، وما بقيت أفارقك أبدًا. فلما سمع جانشاه كلامها انشرح صدره، وضحك سنه، واستمروا يضحكون ويلعبون.

فبينما هم في حظ وسرور، وإذا بالشيخ نصر قد أتى من ملاقاة الطيور، فلما أقبل عليهم نهض الجميع إليه قائمين على أقدامهم، وسلَّموا عليه وقبَّلوا يديه، فرحَّبَ بهم الشيخ نصر، وقال لهم: اجلسوا. فجلسوا، ثم إن الشيخ نصر قال للسيدة شمسة: إن هذا الشاب يحبك محبة عظيمة، فبالله عليك أن تتوصَّي به، فإنه من أكابر الناس، ومن أبناء الملوك، وأبوه يحكم على بلاد كابل، وقد حوى ملكًا عظيمًا. فلما سمعت السيدة شمسة كلام الشيخ نصر قالت له: سمعًا وطاعةً لأمرك. ثم إنها قبَّلَتْ يدَيِ الشيخ نصر ووقفت

قدامه، فقال لها الشيخ نصر: إنْ كنتِ صادقةً في قولك، فاحلفي لي بالله إنك لا تخونينه ما دمتِ على قيد الحياة. فحلفت يمينًا عظيمًا أنها لا تخونه أبدًا، ولا بد أن تتزوَّج به، وبعد أن حلفت قالت: اعلم يا شيخ نصر أني لا أفارقه أبدًا. فلما حلفت السيدة شمسة للشيخ نصر صدَّقَ يمينها، وقال لجانشاه: الحمد لله الذي وفَّقَ بينك وبينها. ففرح جانشاه بذلك فرحًا شديدًا، ثم قعد جانشاه هو والسيدة شمسة عند الشيخ نصر مدة ثلاثة أشهر في أكل وشرب ولعب وضحك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه هو والسيدة شمسة قعدا عند الشيخ نصر ثلاثة أشهر في أكل وشرب ولعب وحظٍّ عظيم، وبعد الثلاثة أشهر قالت السيدة شمسة لجانشاه: إني أريد أن نروح إلى بلادك وتتزوج بي ونقيم فيها. فقال لها: سمعًا وطاعةً. ثم إن جانشاه شاوَرَ الشيخ نصر وقال له: إننا نريد أن نروح إلى بلادي. وأخبره بما قالته السيدة شمسة، فقال لهما الشيخ نصر: اذهبَا إلى بلادك، وتوصَّ بها. فقال جانشاه: سمعًا وطاعةً. ثم إنها طلبت ثوبها، وقالت: يا شيخ نصر، مُرْه أن يعطيني ثوبي حتى ألبسه. فقال له: يا جانشاه، أَعْطِها ثيابها. فقال: سمعًا وطاعةً. ثم قام بسرعة ودخل القصر وأتى بثوبها، وأعطاه لها، فأخذته منه ولبسته، وقالت لجانشاه: اركب فوق ظهري، وغمض عينَيْك، وسدَّ أذنيك حتى لا تسمع دوي الفلك الدوَّار، وأمسك في ثوبي الريش وأنت على ظهري بيدَيْك، واحترِسْ على نفسك من الوقوع.

فلما سمع جانشاه كلامها ركب على ظهرها، ولما أرادت الطيران قال لها الشيخ نصر: قفي حتى أصف لك بلاد كابل خوفًا عليكما أن تغلطَا في الطريق. فوقفت حتى وصف لها البلاد، وأوصاها بجانشاه، ثم ودَّعَهما، وودَّعَتِ السيدة شمسة أختَيْها، وقالت لهما: روحَا إلى أهلكما؛ أَعْلِماهم بما جرى لي مع جانشاه. ثم إنها طارت من وقتها وساعتها، وصارت في الجو مثل هبوب الريح والبرق اللائح، وبعد ذلك طارت أختاها وذهبتا إلى أهلهما، وأعلماهم بما جرى للسيدة شمسة مع جانشاه، ومن حين طارت السيدة شمسة لم تزل طائرة من وقت الضحى إلى وقت العصر، وجانشاه راكب على ظهرها، وفي وقت العصر لاح لها على بُعْد وادٍ ذو أشجار وأنهار، فقالت لجانشاه: قصدي أن ننزل في هذا الوادي لنتفرج على ما فيه من الأشجار والنباتات هذه الليلة. فقال لها جانشاه: افعلي ما تريدين. فنزلت من الجو، وحطت في ذلك الوادي، ونزل جانشاه من فوق ظهرها، وقبَّلَها

بين عينَيْها، ثم جلسَا بجانب نهرٍ ساعةً من الزمان، وبعد ذلك قامَا على قدميهما، وصارَا دائرين في الوادي يتفرجان على ما فيه، ويأكلان من تلك الأثمار، ولم يزالا يتفرجان في الوادي إلى وقت المساء، ثم أتيَا إلى شجرة وناما عندها إلى الصباح. ثم قامت السيدة شمسة وأمرت جانشاه أن يركب على ظهرها، فقال جانشاه: سمعًا وطاعةً. ثم ركب على ظهرها وطارت به من وقتها وساعتها، ولم تزل طائرة من الصبح إلى وقت الظهر.

فبينما هما سائران إذ نظرَا الأمارات التي أخبرهما بها الشيخ نصر، فلما رأت السيدة شمسة تلك الأمارات، نزلت من أعلى الجو إلى مرجٍ فسيحٍ ذي زرع مليح، فيه غزلان راتعة، وعيون نابعة، وأثمار يانعة، وأنهار واسعة، فلما نزلت في ذلك المرج نزل جانشاه من فوق ظهرها، وقبَّلَها بين عينَيْها، فقالت له: يا حبيبي وقرة عيني، أتدري ما المسافة التي سرناها؟ قال: لا. قالت: مسافة ثلاثين شهرًا. فقال لها جانشاه: الحمد لله على السلامة. ثم جلس وجلست بجانبه، وقعدَا في أكل وشرب ولعب وضحك. فبينما هما في هذا الأمر إذ أقبَلَ عليهما مملوكان؛ أحدهما الذي كان عند الخيل لما نزل جانشاه في مركب الصياد، والثاني من المماليك الذين كانوا معه في الصيد والقنص؛ فلما رأيَا جانشاه عرفاه، وسلَّمَا عليه، وقالا له: عن إذنك نتوجَّه إلى والدك، ونبشِّرُه بقدومك. فقال لهما جانشاه: اذهبا إلى أبي، وأعلماه بذلك، وَأْتِيَانا بالخيام، ونحن نقعد في هذا المكان سبعة أيام لأجل الراحة؛ حتى يجيء الموكب لملاقاتنا، وندخل في موكب عظيم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن جانشاه قال للمملوكَيْن: اذهبَا إلى أبي، وأعلمَاه بي، وَأْتِيَانا بالخيام، ونحن نقعد في هذا المكان سبعة أيام لأجل الراحة حتى يجيء الموكب لملاقاتنا، وندخل في موكب عظيم. فركب المملوكان خيلهما، وذهبا إلى أبيه وقالا له: البشارة يا ملك الزمان. فلما سمع الملك طيغموس كلامَ المملوكين، قال لهما: بأي شيء تبشِّراني؟ هل قَدِمَ ابني جانشاه؟ فقالا: نعم، إن ابنك جانشاه أتى من غيبته، وهو بالقرب منك في مرج الكراني. فلما سمع الملك كلام المملوكين، فرح فرحًا شديدًا ووقع مغشيًّا عليه من شدة الفرح، فلما أفاق أمر وزيره أن يخلع على المملوكين كل واحد خلعة نفيسة، ويعطي كل واحد منهما قدرًا من المال، فقال له الوزير: سمعًا وطاعةً. ثم قام من وقته، وأعطى المملوكين ما أمره به الملك، وقال لهما: خذَا هذا المال في نظير البشارة التي أتيتما بها، سواء أكذبتما أم صدقتما. فقالا المملوكان: نحن ما نكذب، وكنَّا في هذا الوقت قاعدَيْن عنده، وسلَّمْنا عليه، وقبَّلْنا يديه، وأمَرَنا أن نأتي له بالخيام، وهو يقعد في مرج الكراني سبعة أيام حتى تذهب الأمراء والوزراء وأكابر الدولة لملاقاته. ثم إن الملك قال لهما: كيف حال ولدي؟ فقالا له: إن ولدك معه حورية كأنه خرج بها من الجنة. فلما سمع الملك ذلك الكلام أمر بدق الكاسات والبوقات، فدقت البشائر، وأرسل الملك طيغموس المبشِّرين في جهات المدينة ليبشِّروا أمَّ جانشاه، ونساء الأمراء والوزراء، وأكابر الدولة؛ فانتشر المبشِّرون في المدينة، وأعلَمُوا أهلها بقدوم جانشاه، ثم تجهَّزَ الملك طيغموس بالعساكر والجيوش وتوجَّهَ إلى مرج الكراني.

فبينما جانشاه جالس والسيدة شمسة بجانبه، وإذا بالعساكر قد أقبلَتْ عليهما، فقام جانشاه على قدميه، وتمشَّى حتى قَرُبَ منهم، فلما رأته العساكر عرفوه، ونزلوا عن خيلهم، وترجَّلوا إليه، وسلَّموا عليه، وقبَّلوا يدَيْه، وما زال جانشاه سائرًا والعساكر قدامه

واحدًا بعد واحد، حتى وصل إلى أبيه، فلما نظر الملك طيغموس ولده، رمى نفسه عن ظهر الفرس وحضنه، وبكى بكاءً شديدًا، ثم ركب وركب ابنه، والعساكر عن يمينه وشماله، وما زالوا سائرين حتى أتوا إلى جانب النهر، فنزلت العساكر والجيوش، ونصبوا الخيام والصواوين والبيارق، ودُقَّتِ الطبول، وزمرت الزمور، وضُرِبت الكاسات، وزعقت البوقات. ثم إن الملك طيغموس أمر الفراشين أن يأتوا بخيمة من الحرير الأحمر، وينصبوها للسيدة شمسة، ففعلوا ما أمرهم به، وقامت السيدة شمسة وقلعت ثوبها الريش، وتمشت حتى وصلت إلى تلك الخيمة وجلست فيها. فبينما هي جالسة، وإذا بالملك طيغموس وابنه جانشاه بجانبه أقبلَا عليها، فلما رأت السيدة شمسة الملك طيغموس قامت على قدمَيْها، وقبَّلَتِ الأرضَ بين يدَيْه، ثم جلس الملك، وأخذ ولده جانشاه عن يمينه، والسيدة شمسة عن شماله، ورحَّبَ بالسيدة شمسة، وسأل ابنه جانشاه وقال له: أخبرني بالذي وقع لك في هذه الغيبة. فحكى له جميع ما جرى من الأول إلى الآخِر، فلما سمع الملك من ابنه هذا الكلام، تعجَّبَ عجبًا شديدًا، والتفت إلى السيدة شمسة وقال: الحمد لله الذي وفَّقَكِ حتى جمعتِ بيني وبين ابني، إن هذا لَهُوَ الفضل العظيم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك طيغموس قال للسيدة شمسة: الحمد لله الذي وفَّقكِ حتى جمعتِ بيني وبين ولدي، إن هذا لَهُوَ الفضل العظيم، ولكن أريد منكِ أن تتمني عليَّ ما تشتهينه حتى أفعله إكرامًا لكِ. فقالت له السيدة شمسة: تمنَّيْتُ عليك عمارة قصر في وسط بستان، والماء يجري من تحته. فقال: سمعًا وطاعةً. فبينما هما في الكلام، وإذا بأم جانشاه أقبلت ومعها جميع نساء الأمراء والوزراء، ونساء أكابر المدينة جميعًا، فلما رآها ولدُها جانشاه خرج من الخيمة وقابلها، وتعانَقَا ساعةً من الزمان، ثم إن أمه من فرط الفرح أجرت دمع العين، وأنشدت هذين البيتين:

هَجَمَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ ... مِنْ فَرْطِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي
يَا عَيْنُ قَدْ صَارَ الدَّمْعُ مِنْكِ سَجِيَّةً ... تَبْكِينَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْزَانِ

ثم شكيَا لبعضهما ما قاسياه من البُعْد وألم الشوق، ثم انتقل والده إلى خيمته، وانتقل جانشاه هو وأمه إلى خيمته، وجلسَا يتحدثان مع بعضهما، فبينما هما جالسان إذ أقبل المبشِّرون بقدوم السيدة شمسة، وقالوا لأم جانشاه: إن شمسة أَتَتْ إليكِ وهي ماشية تريد أن تسلِّم عليك. فلما سمعت أم جانشاه هذا الكلام، قامت على قدمَيْها وقابلتها وسلَّمت عليها، وقعدتا ساعة من الزمان، ثم قامت أم جانشاه مع السيدة شمسة، وسارت هي وإياها ونساء الأمراء وأرباب الدولة، وما زلن سائرات حتى وصلن خيمة السيدة شمسة، فدخلنها وجلسن فيها. ثم إن الملك طيغموس أجزل العطايا، وأكرم الرعايا، وفرح بابنه فرحًا شديدًا، ومكثوا في ذلك المكان مدة عشرة أيام في أكل وشرب، وأهنى عيش، وبعد ذلك أمر الملك عساكره أن يرحلوا، ويتوجهوا إلى المدينة، ثم ركب الملك وركبت حوله

العساكر والجيوش، وسارت الوزراء والحجاب عن يمينه وعن شماله، وما زالوا سائرين حتى دخلوا المدينة، وذهبت أم جانشاه هي والسيدة شمسة إلى منزلهم، وتزيَّنَتِ المدينة بأحسن زينة، ودقَّتِ البشائر والكاسات، وزوَّقوا المدينة بالحلي والحلل، وفرشوا نفيس الديباج تحت سنابك الخيل، وفرح أرباب الدولة وأظهروا التحف، وانبهر المتفرجون، وأطعموا الفقراء والمساكين، وعملوا فرحًا عظيمًا مدة عشرة أيام، وفرحت السيدة شمسة فرحًا شديدًا لما رأت ذلك.

ثم إن الملك طيغموس أرسل إلى البنَّائين والمهندسين وأرباب المعرفة، وأمرهم أن يعملوا له قصرًا في ذلك البستان، فأجابوه بالسمع والطاعة، وشرعوا في تجهيز ذلك القصر؛ ثم إنهم أتموه على أحسن حال، وحين علم جانشاه بصدور الأمر ببناء القصر، أمر الصنَّاع أن يأتوا بعمودٍ من الرخام الأبيض، وأن ينقروه ويجوفوه، ويجعلوه على صورة صندوق، ففعلوا ما أمرهم به. ثم إن جانشاه أخذ ثوب السيدة شمسة الذي تطير به، وحطَّه في ذلك العمود، ودفنه في أساس القصر، وأمر البنَّائين أن يبنوا فوقه القناطر التي عليها القصر، ولما تمَّ القصر فرشوه، وصار قصرًا عظيمًا في وسط ذلك البستان، والأنهار تجري من تحته. ثم إن الملك طيغموس بعد ذلك عمل عرس جانشاه في تلك المدة، وصار فرحًا عظيمًا لم يَبْقَ له نظير، وزفوا السيدة شمسة إلى جانشاه، وذهب كل واحد منهم إلى حال سبيله. ولما دخلت السيدة شمسة في ذلك القصر، شمَّتْ رائحةَ ثوبها الريش. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السيدة شمسة لما دخلت ذلك القصر شمَّتْ رائحةَ ثوبها الريش الذي تطير به، وعرفت مكانه، وأرادت أخذه، فصبرت إلى نصف الليل حتى استغرق جانشاه في النوم، ثم قامت وتوجَّهَتْ إلى العمود الذي عليه القناطر، وحفرت بجانبه حتى وصلت إلى العمود الذي فيه الثوب، وأزالت الرصاص الذي كان مسبوكًا عليه، وأخرجت الثوب منه، ولبسته وطارت من وقتها، وجلست على أعلى القصر، وقالت لهم: أريد منكم أن تحضروا إليَّ جانشاه حتى أودِّعه. فأخبروا جانشاه بذلك، فذهب إليها فرآها فوق سطح القصر، وهي لابسة ثوبها الريش، فقال لها: كيف فعلتِ هذه الفعال؟ فقالت له: يا حبيبي، وقرة عيني، وثمرة فؤادي، والله إني أحبك محبةً عظيمةً، وقد فرحتُ فرحًا شديدًا حيث أوصلتُك إلى أرضك وبلادك، ورأيت أمك وأباك، فإن كنتَ تحبني كما أحبك فتعالَ عندي إلى قلعة جوهر تكني. ثم طارت من وقتها وساعتها، ومضت إلى أهلها.

فلما سمع جانشاه كلام السيدة شمسة وهي فوق سطح القصر، كاد يموت من الجزع، ووقع مغشيًّا عليه، فمضوا إلى أبيه وأعلموه بذلك، فركب أبوه وتوجَّهَ إلى القصر، ودخل على ولده فرآه مطروحًا على الأرض، فبكى الملك طيغموس، وعلم أن ابنه مغرم بحب السيدة شمسة، فرَشَّ على وجهه ماء ورد، فأفاق، فرأى أباه عند رأسه، فبكى من فراق زوجته، فقال له أبوه: ما الذي جرى لك يا ولدي؟ فقال: اعلم يا أبي أن السيدة شمسة من بنات الجان، وأنا أحبها ومُغرَم بها، وقد عشقت جمالها، وكان عندي ثوب لها وهي ما تقدر أن تطير بدونه، وقد كنت أخذت ذلك الثوب وأخفيته في عمود على هيئة الصندوق، وسبكت عليه الرصاص، ووضعته في أساس القصر، فحفرت ذلك الأساس وأخذته، ولبسته وطارت، ثم نزلت على سطح القصر، وقالت: إني أحبك، وقد أوصلتُك إلى أرضك وبلادك، واجتمعت بأبيك وأمك، فإنْ كنتَ أنت تحبني فتعالَ عندي في قلعة

جوهر تكني. ثم طارت من سطح القصر، وراحت إلى حال سبيلها. فقال الملك طيغموس: يا ولدي، لا تحمل همًّا، فإننا نجمع أرباب التجارة والسياحين في البلاد، ونستخبرهم عن تلك القلعة، فإذا عرفناها نسير إليها ونذهب إلى أهل السيدة شمسة، ونرجو من الله تعالى أن يعطوك إياها وتتزوج بها.

ثم خرج الملك من وقته وساعته، وأمر وزراءه الأربعة، وقال لهم: اجمعوا كلَّ مَن في المدينة من التجار والمسافرين، واسألوهم عن قلعة جوهر تكني، وكل مَن عرفها ودلَّ عليها، فإني أعطيه خمسين ألف دينار. فلما سمع الوزراء ذلك الكلام قالوا له: سمعًا وطاعةً. ثم ذهبوا من وقتهم وساعتهم، وفعلوا ما أمرهم به الملك، وصاروا يسألون التجار والسياحين في البلاد عن قلعة جوهر تكني، فما أخبرهم بها أحد، فأتوا الملك وأخبروه بذلك؛ فلما سمع الملك كلامهم قام من وقته وساعته، وأمر أن يأتوا لابنه جانشاه من السراري الحسان، والجواري ربات الآلات، والمحاظي المطربات بما لا يوجد مثله إلا عند الملوك؛ لعله يتسلَّى عن حب السيدة شمسة، فأتوه بما طلبه، ثم بعد ذلك أرسل الملك روادًا وجواسيس إلى جميع البلاد والجزائر والأقاليم ليسألوا عن قلعة جوهر تكني، فسألوا عنها مدة شهرين، فما أخبرهم بها أحد، فرجعوا إلى الملك وأعلموه بذلك؛ فبكى بكاءً شديدًا، وذهب إلى ابنه فوجده جالسًا بين السراري والمحاظي وربات آلات الطرب من الجنك والسنطير وغيرهما، وهو لا يتسلَّى بهن عن السيدة شمسة، فقال له: يا ولدي، ما وجدتُ مَن يعرف هذه القلعة، وقد أتيتُك بأجمل منها. فلما سمع جانشاه ذلك الكلام بكى، وأفاض دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

تَرَحَّلَ صَبْرِي وَالْغَرَامُ مُقِيمُ وَجِسْمِي مِنْ فَرْطِ الْغَرَامِ سَقِيمُ
مَتَّى تَجْمَعُ الْأَيَّامُ شَمْلِي بِشَمْسَةَ وَعَظْمِيَ مِنْ حَرِّ الْفِرَاقِ رَمِيمُ

ثم إن الملك طيغموس كان بينه وبين ملك الهند عداوة عظيمة؛ فإن الملك طيغموس كان عدا عليه وقتل رجاله وسلب أمواله، وكان ملك الهند يقال له الملك كفيد، وله جيوش وعساكر وأبطال، وكان له ألف بهلوان، كل بهلوان منهم يحكم على ألف قبيلة، وكل قبيلة من تلك القبائل تشمل على أربعة آلاف فارس، وكان عنده أربعة وزراء، وتحته ملوك وأكابر وأمراء، وجيوش كثيرة، وكان يحكم على ألف مدينة، لكل مدينة ألف قلعة، وكان ملكًا عظيمًا، شديد البأس، وعساكره قد ملأت جميع الأرض. فلما علم الملك كفيد ملك الهند أن الملك طيغموس اشتغل بحب ابنه، وترك الحكم والملك، وقلَّتْ من عنده العساكر،

وصار في همٍّ ونكدٍ بسبب اشتغاله بحب ابنه، جمع الوزراء والأمراء وأرباب الدولة، وقال لهم: أَمَا تعلمون أن الملك طيغموس قد هجم على بلادنا، وقتل أبي وإخوتي، ونهب أموالنا، وما منكم أحد إلا وقد قتل له قريبًا، وأخذ له مالًا، ونهب رزقه، وأَسَرَ أهله، وإني سمعت اليوم أنه مشغول بحب ابنه جانشاه، وقد قلَّتْ من عنده العساكر، وهذا وقت أخذ ثأرنا منه، فتأهَّبوا للسفر إليه، وجهِّزوا آلات الحرب للهجوم عليه، ولا تتهاونوا في هذا الأمر، بل نسير إليه ونهجم عليه، ونقتله هو وابنه، ونملك بلاده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك كفيد ملك الهند أمر جيوشه وعساكره أن يركبوا على بلاد الملك طيغموس، وقال لهم: تأهبوا للسفر، وجهزوا آلات الحرب للهجوم عليه، ولا تتهاونوا في هذا الأمر، بل نسير إليه ونهجم عليه ونقتله هو وابنه، ونملك بلاده. فلما سمعوا منه ذلك الكلام قالوا: سمعًا وطاعة. وأخذ كل واحد منهم في تجهيز عدته، واستمروا في تجهيز العدد والسلاح، وجمع العساكر ثلاثة أشهر، ولما تكاملت العساكر والجيوش والأبطال دقوا الكاسات، ونفخوا في البوقات، ونصبوا البيارق والرايات، ثم إن الملك كفيد خرج بالعساكر والجيوش، وسار حتى وصل إلى أطراف بلاد كابل، وهي بلاد الملك طيغموس، ولما وصلوا إلى تلك البلاد نهبوها، وفسقوا في الرعية، وذبحوا الكبار، وأسروا الصغار، فوصل الخبر إلى الملك طيغموس، فلما سمع بذلك الخبر اغتاظ غيظًا شديدًا، وجمع أكابر دولته، ووزراءه وأمراء مملكته، وقال لهم: اعلموا أن كفيد قد أتى ديارنا، ونزل بلادنا، ويريد قتالنا، ومعه جيوش وأبطال وعساكر لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، فما الرأي عندكم؟ فقالوا له: يا ملك الزمان، الرأي عندنا أننا نخرج إليه ونقاتله، ونرده عن بلادنا. فقال لهم الملك طيغموس: تجهَّزوا إلى القتال. ثم أخرج لهم من الزرد والدروع، والخوذ والسيوف، وجميع آلات الحرب، ما يردي الأبطال، ويتلف صناديد الرجال، فاجتمعت العساكر والجيوش والأبطال وتجهزوا للقتال، ونصبوا الرايات ودُقَّت الكاسات ونُفِخ في البوقات، وضُرِبت الطبول وزمرت الزمور، وسار الملك طيغموس بعساكره إلى ملاقاة الملك كفيد، وما زال الملك طيغموس سائرًا بالعساكر والجيوش حتى قربوا من الملك كفيد، ثم نزل الملك طيغموس على وادٍ يقال له وادي زهران، وهو في أطراف بلاد كابل.

ثم إن الملك طيغموس كتب كتابًا وأرسله مع رسول من عسكره إلى الملك، مضمونه: «أما بعد، فالذي نعلم به الملك كفيد أنك ما فعلت إلا فعل الأوباش، ولو كنتَ ملكًا ابن ملك ما فعلتَ هذه الفعال، ولا كنتَ تجيء بلادي، وتنهب أموال الناس، وتفسق في رعيتي؛ أَمَا علمت أن هذا كله جور منك، ولو علمت بأنك تتجارى على مملكتي لَكنتُ أتيتُ قبل مجيئك بمدة، ومنعتك عن بلادي، ولكن إنْ رجعتَ وتركتَ الشر بيننا وبينك فبها نعمت، وإن لم ترجع فابرز إليَّ في حومة الميدان، وتجلَّدَ لديَّ في موقف الحرب والطعان.» ثم إنه ختم الكتاب وسلَّمَه لرجل عامل من عسكره، وأرسل معه جواسيس يتجسَّسون له على الأخبار. ثم إن الرجل أخذ الكتاب وسار به حتى وصل إلى الملك كفيد، فلما قرب من مكانه رأى خيامًا منصوبة على بُعْد، وهي مصنوعة من الحرير الأطلس، ورأى رايات من الحرير الأزرق، ورأى بين الخيام خيمة عظيمة من الحرير الأحمر، وحول تلك الخيمة عسكر عظيم، وما زال سائرًا حتى وصل إلى تلك الخيمة، فسأل عنها فقيل له: إنها خيمة الملك كفيد. فنظر الرجل إلى وسط الخيمة، فرأى الملك كفيد جالسًا على كرسي مرصَّع بالجواهر، وعنده الوزراء والأمراء وأرباب الدولة؛ فلما رأى ذلك أظهر الكتاب في يده، فذهب إليه جماعة من عسكر الملك كفيد وأخذوا الكتاب منه، وأتوا به أمام الملك، فأخذه الملك، فلما قرأه وعرف معناه، كتب له جوابًا مضمونه: «أما بعد، فالذي نعلم به الملك طيغموس أنه لا بد من أننا نأخذ الثأر، ونكشف العار، ونخرب الديار، ونهتك الأستار، ونقتل الكبار، ونأسر الصغار، وفي غدٍ أبرز إلى القتال في الميدان حتى أريك الحرب والطعان.» ثم ختم الكتاب وسلَّمَه لرسول الملك طيغموس، فأخذه وسار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك كفيد سلَّمَ جواب الكتاب الذي أرسله إليه الملك طيغموس لرسوله، فأخذه ورجع، فلما وصل إليه قبَّلَ الأرض بين يدَيْه، ثم أعطاه الكتاب، وأخبره بما رآه، وقال له: يا ملك، إني رأيتُ فرسانًا وأبطالًا ورجالًا لا يُحصَى لهم عدد، ولا ينقطع لهم مدد. فلما قرأ الكتاب وفهم معناه، غضب غضبًا شديدًا، وأمر وزيره عين زار أن يركب ومعه ألف فارس، ويهجم على عسكر الملك كفيد في نصف الليل، وأن يخوضوا فيهم ويقتلوهم؛ فقال له الوزير عين زار: سمعًا وطاعة. ثم ركب وركبت معه العساكر والجيوش، وساروا نحو الملك كفيد، وكان للملك كفيد وزيرٌ يقال له غطرفان، فأمره أن يركب ويأخذ معه خمسة آلاف فارس، ويذهب بهم إلى عسكر الملك طيغموس، ويهجموا عليهم ويقتلوهم، فركب الوزير غطرفان، وفعل ما أمره به الملك كفيد، وسار بالعسكر نحو الملك طيغموس، وما زالوا سائرين إلى نصف الليل حتى قطعوا نصف الطريق، فإذا الوزير غطرفان وقع في الوزير عين زار، فصاحت الرجال على الرجال، ووقع بنيهم شديد القتال، وما زال يقاتل بعضهم بعضًا إلى وقت الصباح.

فلما أصبح الصباح، انهزمت عساكر الملك كفيد، وولَّوْا هاربين إليه، فلما رأى ذلك غضب غضبًا شديدًا، وقال لهم: يا ويلكم، ما الذي أصابكم حتى فقدتم أبطالكم؟ فقالوا له: يا ملك الزمان، إنه لما ركب الوزير غطرفان، وسرنا نحو الملك طيغموس، لم نزل سائرين إلى أن نصفنا الليل، وقطعنا نصف الطريق، فقابلنا عين زار وزير الملك طيغموس، وأقبل علينا ومعه جيوش وأبطال، وكانت المقابلة بجنب وادي زهران، فما نشعر إلا ونحن في وسط العسكر، ووقعت العين على العين، وقاتلنا قتالًا شديدًا من نصف الليل إلى الصباح، وقد قُتِل خلق كثير، وصار الوزير عين زار يصيح في وجه الفيل ويضربه، فيجفل الفيل

من شدة الضربة، ويدوس الفرسان، ويولي هاربًا، وما بقي أحد ينظر أحدًا من كثرة ما يطير من الغبار، وصار الدم يجري كالتيار، ولولا أننا أتينا هاربين لكنَّا قُتِلنا عن آخرنا.

فلما سمع الملك كفيد هذا الكلام، قال: لا باركت فيكم الشمس، بل غضبت عليكم غضبًا شديدًا. ثم إن الوزير عين زار رجع إلى الملك طيغموس، وأخبره بذلك، فهنَّأه الملك طيغموس بالسلامة، وفرح فرحًا شديدًا، وأمر بدق الكاسات، والنفخ في البوقات، ثم تفقَّدَ عسكره، فإذا هم قد قُتِل منهم مائتا فارس من الشجعان الشداد. ثم إن الملك كفيد هيَّأ عسكره وجنوده وجيوشه وأتى الميدان، واصطفوا صفًّا بعد صف، فكمَّلوا خمسة عشر صفًّا، كل صف عشرة آلاف فارس، وكان معه ثلاثمائة بهلوان يركبون على الأفيال، وقد انتخب الأبطال وصناديد الرجال، ونصب البيارق والرايات، ودُقَّت الكاسات، ونُفِخ في البوقات، وبرز الأبطال طالبين القتال؛ وأما الملك طيغموس فإنه صفَّ عسكره صفًّا بعد صف، فإذا هم عشرة صفوف، في كل صف عشرة آلاف فارس، وكان معه مائة بهلوان يركبون عن يمينه وشماله، ولما اصطفت الصفوف تقدَّمَ كل فارس موصوف، وتصادمت الجيوش، وضاق رحب الأرض عن الخيل، وضُربت الطبول، وزمرت الزمور، ودُقت الكاسات، ونُفخ في البوقات، وصاح النفير، وصُمَّت الآذان من صهيل الخيل في الميدان، وصاحت الرجال بأصواتهم، وانعقد الغبار على رءوسهم، واقتتلوا قتالًا شديدًا من أول النهار إلى أن أقبل الظلام، ثم افترقوا وذهبت العساكر إلى منازلهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥١٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن العساكر افترقوا وذهبوا إلى منازلهم، فتفقَّدَ الملك كفيد عسكره، فإذا هم قد قُتِل منهم خمسة آلاف، فغضب غضبًا شديدًا، وتفقَّدَ الملك طيغموس عسكره فإذا هم قد قُتِل منهم ثلاثة آلاف فارس من خواص شجعانه، فلما رأى ذلك غضب غضبًا شديدًا. ثم إن الملك كفيد برز إلى الميدان ثانيًا، وفعل كما فعل أول مرة، وكل واحد منهما يطلب النصر لنفسه، وصاح الملك كفيد على عسكره، وقال: هل فيكم مَن يبرز إلى الميدان، ويفتح لنا باب الحرب والطعان؟ فإذا بطلٌ يقال له بركيك، قد أقبل راكبًا على فيل، وكان بهلوانًا عظيمًا، ثم تقدَّمَ ونزل من فوق ظهر الفيل، وقبَّلَ الأرض بين يدَيِ الملك كفيد، واستأذنه في البراز، ثم ركب الفيل وساقه إلى الميدان، وصاح وقال: هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ هل من مقاتل؟ فلما سمع ذلك الملك طيغموس التفت إلى عسكره، وقال لهم: مَن يبرز إلى هذا البطل منكم؟ فإذا فارس قد برز من بين الصفوف راكبًا على جواد عظيم الخلقة، وسار حتى أقبل على الملك طيغموس، وقبَّلَ الأرض قدامه، واستأذنه في المبارزة، ثم توجَّهَ إلى بركيك، فلما أقبل عليه قال له: مَن تكون أنت حتى تستهزأ بي، وتبرز إليَّ وحدك؟ وما اسمك؟ فقال له: اسمي غضنفر بن كمخيل. فقال له بركيك: كنت أسمع بك وأنا في بلادي، فدونك والقتال بين صفوف الأبطال. فلما سمع غضنفر كلامه سحب العود الحديد من تحت فخذه، وقد أخذ بركيك السيف في يده، وتقاتَلَا قتالًا شديدًا، ثم إن بركيك ضرب غضنفر بالسيف فأتت الضربة في خوذته، ولم يصبه منها ضرر، فلما رأى ذلك غضنفر، ضربه بالعود فاستوى لحمه بلحم الفيل، فأتاه شخص وقال له: مَن أنت حتى تقتل أخي؟ ثم أخذ نبلة في يده، وضرب بها غضنفر فأصابت فخذه، فسمرت الدرع فيه، فلما رأى ذلك غضنفر جرَّدَ السيف في يده، وضربه فقسمه نصفين، فنزل إلى الأرض يخور في دمه.

ثم إن غضنفر ولى هاربًا نحو الملك طيغموس، فلما رأى ذلك الملك كفيد صاح على عسكره وقال لهم: انزلوا الميدان، وقاتلوا الفرسان. ونزل الملك طيغموس بعسكره وجيوشه، وقاتلوا قتالًا شديدًا وقد صهلت الخيل على الخيل، وصاحت الرجال على الرجال، وتجرَّدَتِ السيوف، وتقدَّمَ كل فارس موصوف، وحملت الفرسان على الفرسان، وفرَّ الجبان من موقف الطعان، ودقت الكاسات، ونفخ في البوقات، فما تسمع الناس إلا ضجة صياح، وقعقعة سلاح، وهلك في ذلك الوقت من الأبطال مَن هلك، وما زالوا على هذا الحال إلى أن صارت الشمس في قبة الفلك. ثم إن الملك طيغموس انفرق بعسكره وجيوشه، وعاد لخيامه، وكذلك الملك كفيد. ثم إن الملك طيغموس تفقَّدَ رجاله فوجدهم قد قُتِل منهم خمسة آلاف فارس، وانكسرت منهم أربعة بيارق، فلما علم الملك طيغموس ذلك غضب غضبًا شديدًا؛ وأما الملك كفيد فإنه تفقَّدَ عسكره فوجدهم قد قُتِل منهم ستمائة فارس من خواص شجعانه، وانكسرت منهم تسعة بيارق، ثم ارتفع القتال من بينهم مدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك كتب الملك كفيد كتابًا، وأرسله مع رسولٍ من عسكره إلى ملكٍ يقال له فاقون الكلب، فذهب الرسول إليه، وكان كفيد يدَّعِي أنه قريبه من جهة أمه. فلما علم الملك فاقون بذلك جمع عسكره وجيوشه، وتوجَّهَ إلى الملك كفيد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك فاقون جمع عساكره وجيوشه، وتوجَّهَ إلى الملك كفيد، فبينما الملك طيغموس جالس في حظه إذ أتاه شخص، وقال له: إني رأيت غبرة ثائرة على بُعْد قد ارتفعت إلى الجو، فأمر الملك طيغموس جماعة من عسكره أن يكشفوا عن خبر تلك الغبرة، فقالوا: سمعًا وطاعة. ثم ذهبوا ورجعوا وقالوا: أيها الملك، قد رأينا الغبرة وبعد ساعة ضربها الهواء وقطعها، وبان من تحتها بيارق، تحت كل بريق ثلاثة آلاف فارس، وساروا إلى ناحية الملك كفيد. ولما وصل الملك فاقون الكلب إلى الملك كفيد، سلَّمَ عليه وقال له: ما خبرك؟ وما هذا القتال الذي أنت فيه؟ فقال له الملك كفيد: أَمَا تعلم أن الملك طيغموس عدوي وقاتَلَ إخوتي وأبي؟ وأنا قد جئتُه لأقاتله، وآخذ بثأري منه. فقال الملك فاقون: باركت الشمس فيك. ثم إن الملك كفيد أخذ الملك فاقون الكلب وذهب به إلى خيمته، وفرح فرحًا شديدًا. هذا ما كان من أمر الملك طيغموس والملك كفيد.

حكاية جانشاه ابن الملك طيغموس

وأما ما كان من أمر الملك جانشاه، فإنه استمر شهرين وهو لم ينظر أباه، ولم يأذن بالدخول عليه لأحد من الجواري اللاتي كن في خدمته، فحصل له بذلك قلق عظيم، فقال لبعض أتباعه: ما خبر أبي حتى إنه لم يأتني؟ فأخبروه بما جرى لأبيه مع الملك كفيد، فقال: ائتوني بجوادي حتى أذهب إلى أبي. فقالوا له: سمعًا وطاعة. وأتوه بالجواد، فلما حضر جواده قال في نفسه: أنا مشغول بنفسي، فالرأي أن آخذ فرسي وأسير إلى مدينة اليهود، وإذا وصلتُ إليها يهون الله عليَّ بذلك التاجر الذي استأجرني للعمل، لعله يفعل بي مثل ما فعل أول مرة، وما يدري أحد أين تكون الخيرة! ثم إنه ركب وأخذ معه

ألف فارس، وسار حتى صار الناس يقولون: إن جانشاه ذاهب إلى أبيه ليقاتل معه. وما زالوا سائرين إلى وقت المساء، ثم نزلوا في مرج عظيم، وباتوا بذلك المرج، فلما ناموا، وعلم جانشاه أن عسكره ناموا كلهم، قام في خفية وشد وسطه، وركب جواده، وسار إلى طريق بغداد؛ لأنه كان سمع من اليهود أنه تأتيهم في كل سنتين قافلة من بغداد، وقال في نفسه: إذا وصلتُ إلى بغداد أسير مع القافلة حتى أصل إلى مدينة اليهود. وصمَّمَتْ نفسه على ذلك، وسار إلى حال سبيله، فلما استيقظ العساكر من نومهم، ولم يروا جانشاه ولا جواده، ركبوا وساروا يفتشون على جانشاه يمينًا وشمالًا، فلم يجدوا له خبرًا، فرجعوا إلى أبيه وأعلموه بما فعل ابنه؛ فغضب غضبًا شديدًا، وكاد الشرار يطلع من فيه، ورمى بتاجه من فوق رأسه، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قد فقدتُ ولدي والعدو قبالتي. فقال له الملوك والوزراء: اصبر يا ملك الزمان، فما بعد الصبر إلا الخير. ثم إن جانشاه صار من أجل أبيه وفراقِ محبوبته حزينًا مهمومًا، جريحَ القلب، قريحَ العين، سهرانَ الليل والنهار. وأما أبوه فإنه لما علم بفَقْد جميع عساكره وجيوشه، رجع عن حرب عدوه، وتوجَّهَ إلى مدينته، ودخلها وغلق أبوابها، وحصَّنَ أسوارها، وصار هاربًا من الملك كفيد، وصار كفيد في كل شهر يجيء المدينة طالبًا القتال والخصام، ويقعد عليها سبع ليالٍ وثمانية أيام، وبعد ذلك يأخذ عسكره ويرجع بهم إلى الخيام ليداووا المجروحين من الرجال. فأما أهل مدينة الملك طيغموس، فإنهم عند انصراف العدو عنهم يشتغلون بإصلاح السلاح، وتحصين الأسوار، وتهيئة المنجنيقات، ومكث الملك طيغموس والملك كفيد على هذه الحالة سبع سنين، والحرب مستمرة بينهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك طيغموس مكث هو والملك كفيد على هذه الحالة سبع سنين. هذا ما كان من أمرهما، وأما ما كان من أمر جانشاه، فإنه لم يزل سائرًا يقطع البراري والقفار، وكلما وصل إلى بلد من البلاد، سأل عن قلعة جوهر تكني، فلم يخبره أحد بها، وإنما يقولون له: إننا لم نسمع بهذا الاسم أصلًا. ثم إنه سأل عن مدينة اليهود، فأخبره رجل من التجار أنها في أطراف بلاد المشرق، وقال له: في هذا الشهر، سِرْ معنا إلى مدينة مزرقان وهي في الهند، ومن تلك المدينة نذهب إلى خراسان، ثم نسافر من هناك إلى مدينة شمعون، ومنها إلى خوارزم، وتبقى مدينة اليهود قريبة من خوارزم، فإن بينها وبينها مسافة سنةٍ وثلاثةِ أشهر، فصبر جانشاه حتى سافرَتِ القافلة، وسافَرَ معها إلى أن وصل إلى مدينة مزرقان، ولما دخل تلك المدينة صار يسأل عن قلعة جوهر تكني فلم يخبره بها أحد، وسافرت القافلة وسافر معها إلى الهند، ودخل المدينة وسأل عن قلعة جوهر تكني، فلم يخبره بها أحد، وقالوا له: ما سمعنا بهذا الاسم أصلًا. وقاسى في الطريق شدةً عظيمة، وأهوالًا صعبة، وجوعًا وعطشًا.

ثم سافَرَ من الهند ولم يزل مسافرًا حتى وصل إلى بلاد خراسان، وانتهى إلى مدينة شمعون، ودخلها وسأل عن مدينة اليهود، فأخبروه عنها ووصفوا له طريقها، فسافَرَ أيامًا وليالي حتى وصل إلى المكان الذي هرب فيه من القِرَدة، ثم مشى أيامًا وليالي حتى وصل إلى النهر الذي بجانب مدينة اليهود، وجلس على شاطئه، وصبر إلى يوم السبت حتى نشف بقدرة الله تعالى، فعدَّى منه وذهب إلى بيت اليهودي الذي كان فيه أول مرة، فسلَّمَ عليه هو وأهل بيته؛ ففرحوا به وأتوه بالأكل والشرب، ثم قالوا له: أين كانت غيبتك؟ فقال لهم: في ملك الله تعالى. ثم بات تلك الليلة عندهم، ولما كان الغد دارَ في المدينة يتفرَّج، فرأى مناديًا ينادي ويقول: يا معاشر الناس، مَن يأخذ ألف دينار وجارية حسنة، ويعمل عندنا

شغل نصف يوم؟ فقال جانشاه: أنا أعمل هذا الشغل. فقال له المنادي: اتبعني. فتبعه حتى وصل إلى بيت اليهودي التاجر الذي وصل إليه أول مرة، ثم قال المنادي لصاحب البيت: إن هذا الولد يعمل الشغل الذي تريد. فرحَّبَ به التاجر، وقال له: مرحبًا بك، وأخذه ودخل به إلى الحريم، وأتاه بالأكل والشرب، فأكل جانشاه وشرب. ثم إن التاجر قدَّمَ له الدنانير والجارية الحسنة، وبات معها تلك الليلة، ولما أصبح الصباح أخذ الدنانير والجارية وسلَّمَها لليهودي الذي بات في بيته أول مرة، ثم رجع إلى التاجر صاحب الشغل، فركب معه وسارَا حتى وصلَا إلى جبلٍ عالٍ شاهق في العلو.

ثم إن التاجر أخرج حبلًا وسكينًا وقال لجانشاه: ارم هذه الفرس على الأرض. فرماها وكتَّفَها بالحبل، وذبحها وسلخها، وقطع قوائمها ورأسها، وشقَّ بطنها كما أمره التاجر، ثم قال التاجر لجانشاه: ادخل بطن هذا الفرس حتى أخيطه عليك، ومهما رأيته فيه فقل لي عليه، فهذا الشغل الذي أخذتَ أجرته. فدخل جانشاه بطن الفرس وخاطه عليه التاجر، ثم ذهب إلى محل بعيد عن الفرس واختفى فيه، وبعد ساعة أقبل طير عظيم ونزل من الجو، وخطف الفرس، وارتفع بها إلى عنان السماء، ثم نزل على رأس الجبل، فلما استقر على رأس الجبل أراد أن يأكل الفرس، فلما أحسَّ به جانشاه شقَّ بطن الفرس وخرج، فجفل الطير منه وطار إلى حال سبيله، فطلع جانشاه ونظر إلى التاجر، فرآه واقفًا تحت الجبل مثل العصفور، فقال له: ما تريد أيها التاجر؟ فقال له: ارمِ لي بشيء من هذه الحجارة التي حواليك حتى أدلك على الطريق التي تنزل منها. فقال جانشاه: أنت الذي فعلتَ بي كيت وكيت من مدة خمس سنين، وقد قاسيتُ جوعًا وعطشًا، وحصل لي تعبٌ عظيم، وشرٌّ كثير، وها أنت عدتَ بي إلى هذا المكان، وأردت هلاكي، والله لا أرمي لك بشيء. ثم إن جانشاه سار وقصد الطريق التي توصل إلى الشيخ نصر ملك الطيور. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن جانشاه سار وقصد الطريق التي توصل إلى الشيخ نصر ملك الطيور، ولم يزل سائرًا أيامًا وليالي وهو باكي العين، حزين القلب، وإذا جاع يأكل من نبات الأرض، وإذا عطش يشرب من أنهارها، حتى وصل إلى قصر السيد سليمان، فرأى الشيخ نصر جالسًا على باب القصر، فأقبل عليه وقبَّلَ يديه، فرحَّبَ به الشيخ وسلَّم عليه، ثم قال له: يا ولدي، ما خبرك حتى جئتَ هذا المكان؟ وكنتَ قد توجَّهْتَ من هنا مع السيدة شمسة، وأنت قرير العين، منشرح الصدر. فبكى جانشاه، وحكى له ما جرى من السيدة شمسة لما طارت، وقالت له: إنْ كنتَ تحبني تعال عندي في قلعة جوهر تكني. فتعجَّبَ الشيخ نصر من ذلك، وقال: والله يا ولدي ما أعرفها وحقِّ السيد سليمان، ولا سمعتُ بهذا الاسم طول عمري. فقال جانشاه: كيف أعمل وقد متُّ من العشق والغرام؟ فقال له الشيخ نصر: اصبر حتى تأتي الطيور، ونسألهم عن قلعة جوهر تكني؛ لعل أحدًا منهم يعرفها. فاطمأن قلب جانشاه، ودخل القصر، وذهب إلى المقصورة المشتملة على البحيرة التي رأى فيها البنات الثلاث، ومكث عند الشيخ نصر مدة من الزمان.

فبينما هو جالس على عادته، إذ قال له الشيخ نصر: يا ولدي، إنه قد قرب مجيء الطير. ففرح جانشاه بذلك الخبر، ولم تمضِ إلا أيام قلائل حتى أقبلت الطيور، فجاء الشيخ جانشاه، وقال له: يا ولدي، تعلم هذه الأسماء وأقبل على الطيور. فجاءت وسلَّمَتْ على الشيخ نصر نوعًا بعد نوع، ثم سألها عن قلعة جوهر تكني، فقال كل منها: ما سمعت بهذه القلعة طول عمري. فبكى جانشاه، وتحسَّرَ ووقع مغشيًّا عليه، فطلب الشيخ نصر طيرًا عظيمًا، وقال له: أوصل هذا الشاب إلى بلاد كابل. ووصف له البلاد وطريقها، فقال له: سمعًا وطاعة. ثم ركب جانشاه على ظهره، وقال له: احترس على نفسك، وإياك أن تميل فتتقطع في الهواء، وسدَّ أذنَيْك من الريح؛ لئلا يضرك جري الأفلاك، ودوي البحار.

فقبِلَ جانشاه ما قاله الشيخ نصر، ثم اقتلع الطير، وعلا به إلى الجو، وسار به يومًا وليلة، ثم نزل به عند ملك الوحوش، واسمه شاه بدري، فقال الطير لجانشاه: قد تهنا عن البلاد التي وصفها لنا الشيخ نصر. وأراد أن يأخذ جانشاه ويطير به، فقال له جانشاه: اذهب إلى حال سبيلك، واتركني في هذه الأرض حتى أموت فيها، أو أصل إلى بلادي. فتركه الطير عند ملك الوحوش شاه بدري، وذهب إلى حال سبيله. ثم إن شاه بدري سأله وقال له: يا ولدي، مَن أنت؟ ومن أين أقبلتَ مع هذا الطير العظيم؟ وما حكايتك؟ فحكى له جميع ما جرى له من الأول إلى الآخِر، فتعجَّبَ ملك الوحوش من حكايته، وقال له: وحقِّ السيد سليمان إني ما أعرف هذه القلعة، وكل مَن دلَّنا عليها نكرمه، ونرسلك إليها. فبكى جانشاه بكاءً شديدًا، وصبر مدة قليلة، وبعدها أتاه ملك الوحوش وهو شاه بدري، وقال له: قُمْ يا ولدي، وخذ هذه الألواح، واحفظ الذي فيها، وإذا أتَتِ الوحوش نسألها عن تلك القلعة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن شاه بدري ملك الوحوش قال لجانشاه: احفظ ما في هذه الألواح، وإذا جاءت الوحوش نسألها عن تلك القلعة، فما مضى غير ساعة حتى أقبلت الوحوش نوعًا بعد نوع، وصاروا يسلِّمون على الملك شاه بدري، ثم إنه سألهم عن قلعة جوهر تكني، فقالوا له جميعًا: ما نعرف هذه القلعة، ولا سمعنا بها. فبكى جانشاه، وتأسَّفَ على عدم ذهابه مع الطير الذي أتى به من عند الشيخ نصر، فقال له ملك الوحوش: يا ولدي، لا تحمل همًّا، إنَّ لي أخًا أكبر مني يقال له الملك شماخ، وكان أسيرًا عند السيد سليمان؛ لأنه كان عاصيًا عليه، وليس أحد من الجن أكبر منه هو والشيخ نصر، فلعله يعرف هذه القلعة، وهو يحكم على الجان الذين في هذه البلاد. ثم ركَّبَه ملك الوحوش على ظهر وحش منها، وأرسل معه كتابًا إلى أخيه بالوصية عليه، ثم إن ذلك الوحش سار من وقته وساعته، ولم يزل سائرًا بجانشاه أيامًا وليالي حتى وصل إلى الملك شماخ، فوقف ذلك الوحش في مكانٍ وحده بعيدًا عن الملك، ثم نزل جانشاه من فوق ظهره، وصار يتمشَّى حتى وصل إلى حضرة الملك شماخ، فقبَّلَ يدَيْه وناوله الكتاب، فقرأه وعرف معناه، ورحَّبَ به وقال له: والله يا ولدي إن هذه القلعة عمري ما سمعتُ بها، ولا رأيتها. فبكى جانشاه وتحسَّرَ، فقال له الملك شمساخ: احكِ لي حكايتك، وأخبرني مَن أنت، ومن أين أتيتَ، وإلى أين تذهب؟ فأخبره بجميع ما جرى له من الأول إلى الآخِر، فتعجَّبَ شماخ من ذلك، وقال له: يا ولدي، ما أظن أن السيد سليمان في عمره سمع بهذه القلعة ولا رآها، ولكن يا ولدي أنا أعرف راهبًا في الجبل وهو كبير في العمر، وقد أطاعته جميع الطيور والوحوش والجان من كثرة أقسامه؛ لأنه ما زال يتلو الأقسام على ملوك الجن حتى أطاعوه قهرًا عنهم من شدة تلك الأقسام والسحر الذي عنده، وجميع الطيور والوحوش تسير إلى خدمته، وها أنا قد كنتُ عصيتُ السيد سليمان فهو أسرني عنده، وما

غلبني سوى هذا الراهب من شدة مكره وأقسامه وسحره، وقد بقيت في خدمته، واعلم أنه ساحَ في جميع البلاد والأقاليم، وعرف الطرق والجهات والأماكن والقلاع والمدائن، وما أظن أنه يخفى عليه مكان؛ فأنا أرسلك إليه لعلَّه يدلُّك على هذه القلعة، وإنْ لم يدلُلْكَ هو عليها فما يدلك عليها أحد؛ لأنه قد أطاعته الطيور والوحوش والجان، وكلهم يأتونه، ومن شدة سحره قد اصطنع له عكازة ثلاث قطع، فيغرزها في الأرض ويتلو القسم على القطعة الأولى من العكازة، فيخرج منها لحم، ويخرج منها دم، ويتلو القسم على القطعة الثانية فيخرج منها لبن، ويتلو القسم على القطعة الثالثة فيخرج منها قمح وشعير، وبعد ذلك يخرج العكازة من الأرض، ثم يذهب إلى ديره، وديره يُسمَّى دير الماس، وهذا الراهب الكاهن يخرج من يده اختراع كل صنعة غريبة، وهو ساحر كاهن ماكر مخادع خبيث، واسمه يغموس، وقد حوى جميعَ الأقسام والعزائم، ولا بد من أن أرسلك إليه مع طير عظيم له أربعة أجنحة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك شماخ قال لجانشاه: ولا بد من أن أرسلك إلى الراهب مع طير عظيم له أربعة أجنحة. ثم ركَّبَه على ظهر طير عظيم له أربعة أجنحة، طول كل جناح منها ثلاثون ذراعًا بالهاشمي، وله أرجل مثل أرجل الفيل، لكنه لا يطير في السنة إلا مرتين، وكان عند الملك شماخ عون يقال له طمشون، كل يوم يختطف لهذا الطير بختيتين من بلاد العراق، ويفسخهما له ليأكلهما، فلما ركب جانشاه على ظهر ذلك الطير، أمره شماخ أن يوصله إلى الراهب يغموس. فأخذه على ظهره، وسار به ليالي وأيامًا حتى وصل إلى جبل القلع ودير الماس، فنزل جانشاه عند ذلك الدير، فرأى يغموس الراهب داخل الكنيسة وهو يتعبَّد فيها، فتقدَّمَ جانشاه إليه، وقبَّلَ الأرض، ووقف بين يدَيْه، فلما رآه الراهب قال له: مرحبًا بك يا ولدي، يا غريب الديار، وبعيد المزار، أخبرني ما سبب مجيئك هذا المكان. فبكى جانشاه، وحكى له حكايته من الأول إلى الآخِر؛ فلما سمع الراهب الحكايةَ تعجَّبَ منها غاية العجب، وقال له: والله يا ولدي عمري ما سمعتُ بهذه القلعة، ولا رأيتُ مَن سمع بها أو رآها، مع أني كنتُ موجودًا على عهد نوح نبي الله، وحكمتُ من عهد نوح إلى زمن السيد سليمان بن داود على الوحوش والطيور والجن، وما أظن أن سليمان سمع بهذه القلعة، ولكن اصبر يا ولدي حتى تأتي الطيور والوحوش، وعون الجان، وأسألهم لعل أحدًا منهم يخبرنا بها، ويأتينا بخبرٍ عنها، ويهوِّن الله تعالى عليك.

فقعد جانشاه مدة من الزمان عند الراهب، فبينما هو قاعد إذ أقبلت عليه الطيور والوحوش والجان أجمعون، وصار جانشاه والراهب يسألونهم عن قلعة جوهر تكني، فما أحد منهم قال أنا رأيتها أو سمعت بها، بل كان كل منهم يقول: لا رأيت هذه القلعة، ولا سمعت بها. فصار جانشاه يبكي وينوح ويتضرَّع إلى الله تعالى، وبينما هو كذلك إذا

بطير قد أقبَلَ آخِر الطيور، وهو أسود اللون، عظيم الخلقة، ولما نزل من أعلى الجو جاء وقبَّلَ يدَيِ الراهب، فسأله الراهب عن قلعة جوهر تكني، فقال له الطير: أيها الراهب، إننا كنَّا ساكنين خلف قاف بجبل البلور في برٍّ عظيم، وكنتُ أنا وإخوتي فراخًا صغارًا، وأبي وأمي كانا يسرحان في كل يوم يجيئان برزقنا، فاتفق أنهما سرحا يومًا من الأيام، وغابا عنَّا سبعة أيام، فاشتدَّ علينا الجوع، ثم أتيا في اليوم الثامن وهما يبكيان، فقلنا لهما: ما سبب غيابكما عنَّا؟ فقالا: إنه خرج علينا مارد فخطفنا، وذهب بنا إلى قلعة جوهر تكني، وأوصلنا إلى الملك شهلان، فلما رآنا الملك شهلان أراد قتلنا، فقلنا له: إن وراءنا فراخًا صغارًا، فأعتقنا من القتل. ولو كان أبي وأمي في قيد الحياة لَكانا أخبراكم عن القلعة. فلما سمع جانشاه هذا الكلام بكى بكاءً شديدًا، وقال للراهب: أريد منك أن تأمر هذا الطير أن يوصلني إلى نحو وكر أبيه وأمه في جبل البلور خلف جبل قاف. فقال الراهب للطير: أيها الطير، أريد منك أن تطيع هذا الولد في جميع ما يأمرك به. فقال الطير للراهب: سمعًا وطاعةً لما تقول. ثم إن ذلك الطير أركب جانشاه على ظهره وطار، ولم يزل طائرًا به أيامًا وليالي حتى أقبَلَ على جبل البلور، ثم نزل به هناك، ومكث برهة من الزمان، ثم أركبه على ظهره وطار، ولم يزل طائرًا به مدة يومين حتى وصل إلى الأرض التي فيها الوكر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الطير لم يزل طائرًا بجانشاه مدة يومين حتى وصل به إلى الأرض التي فيها الوكر، ونزل به هناك، ثم قال له: يا جانشاه، هذا الوكر الذي كنَّا فيه. فبكى جانشاه بكاءً شديدًا، وقال للطير: أريد منك أن تحملني وتوصلني إلى الناحية التي كان أبوك وأمك يذهبان إليها ويجيئان منها بالرزق. فقال له الطير: سمعًا وطاعةً يا جانشاه. ثم حمله وطار به، ولم يزل طائرًا سبع ليالٍ وثمانية أيام حتى وصل به إلى جبلٍ عالٍ، ثم أنزله من فوق ظهره، وقال له: ما بقيت أعرف وراء هذا المكان أرضًا. فغلب على جانشاه النوم، فنام في رأس ذلك الجبل، فلما أفاق من النوم رأى بريقًا على بُعْد يملأ نورُه الجوَّ، فصار متحيِّرًا في نفسه من ذلك اللمعان والبريق، ولم يَدْرِ أنه لمعان القلعة التي هو يفتِّش عليها، وكان بينه وبينها مسيرة شهرين، وهي مبنية من الياقوت الأحمر، وبيوتها من الذهب الأصفر، ولها ألف برج مبنية من المعادن النفيسة التي تخرج من بحر الظلمات؛ ولهذا سُمِّيت قلعة جوهر تكني؛ لأنها من نفس الجواهر والمعادن، وكانت قلعةً عظيمة، واسم ملكها شهلان، وهو أبو البنات الثلاث.

هذا ما كان من أمر جانشاه، وأما ما كان من أمر السيدة شمسة، فإنها لما هربت من عند جانشاه، وراحت عند أبيها وأمها وأهلها، أخبرتهم بما جرى لها مع جانشاه، وحكت لهم حكايته، وأعلمَتْهم أنه ساحَ في الأرض ورأى العجائب، وعرَّفَتْهم بمحبته لها ومحبتها له، وبما وقع بينهما. فلما سمع أبوها وأمها منها ذلك الكلام قالا لها: ما يحل لك من الله أن تفعلي معه هذا الأمر. ثم إن أباها حكى هذه المسألة لأعوانه من مردة الجان، وقال لهم: كلُّ مَن رأى منكم إنسيًّا فَلْيأتني به. وكانت السيدة شمسة أخبرت أمها أن جانشاه مغرم بها، وقالت لها: ولا بد من أنه يأتينا؛ لأني لما طرتُ من فوق قصر أبيه قلت له: إنْ كنتَ تحبني فتعال في قلعة جوهر تكني.

ثم إن جانشاه لما رأى ذلك البريق واللمعان قصد نحوه ليعرف ما هو، وكانت السيدة شمسة قد أرسلت عونًا من الأعوان في شغل بناحية جبل قرموس، فبينما ذلك العون سائر إذ هو ينظر من بعيد شخص إنسي، فلما رآه أقبل نحوه وسلَّمَ عليه، فخاف جانشاه من ذلك العون، ولكنه ردَّ عليه السلام، فقال له العون: ما اسمك؟ فقال له: اسمي جانشاه، وكنتُ قبضت على جنية اسمها السيدة شمسة؛ لأني تعلَّقْتُ بحسنها وجمالها، وكنت أحبها محبة عظيمة، ثم إنها هربت مني بعد دخولها في قصر والدي. وحكى له جميع ما جرى له معها، وصار جانشاه يكلِّم المارد وهو يبكي، فلما نظر العون إلى جانشاه وهو يبكي أحرق قلبه، وقال له: لا تَبْكِ، فإنك قد وصلتَ إلى مرادك، واعلم أنها تحبك محبة عظيمة، وقد أعلمت أباها وأمها بمحبتك لها، وكل مَن في القلعة يحبك لأجلها، فطِبْ نفسًا، وقرَّ عينًا. ثم إن المارد حمله على كاهليه، وسار به حتى وصل إلى قلعة جوهر تكني، وذهب المبشِّرون إلى الملك شهلان وإلى السيدة شمسة وإلى أمها، يبشرونهم بمجيء جانشاه، ولما جاءتهم البشائر بذلك فرحوا فرحًا عظيمًا. ثم إن الملك شهلان أمر جميع الأعوان أن يلاقوا جانشاه، وركب هو وجميع الأعوان والعفاريت والمَرَدة إلى ملاقاة جانشاه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك شهلان ركب هو وجميع الأعوان والعفاريت والمَرَدة إلى ملاقاة جانشاه، فلما أقبل الملك أبو السيدة شمسة على جانشاه عانَقَه، ثم إن جانشاه قبَّلَ يدَيِ الملك شهلان، وأمر له الملك بخلعة عظيمة من الحرير مختلفة الألوان، مطرزة بالذهب، مرصَّعة بالجوهر، ثم ألبسه التاج الذي ما رأى مثله أحد من ملوك الإنس، ثم أمر له بفرس عظيمة من خيل ملوك الجان، فركبها ثم ركب والأعوان عن يمينه وشماله، وسار هو والملك في موكب عظيم حتى أتوا باب القصر، فنزل الملك ونزل جانشاه في ذلك القصر، فرآه قصرًا عظيمًا، حيطانه مبنية بالجواهر واليواقيت ونفيس المعدن، وأما البلور والزبرجد والزمرد فمرصَّع في الأرض؛ فصار يتعجَّب من ذلك ويبكي، والملك وأم السيدة شمسة يمسحان دموعه ويقولان له: قلِّلْ من البكاء ولا تحمل همًّا، واعلم أنك قد وصلتَ إلى مرادك. ثم إنه لما وصل إلى وسط المكان، لاقَتْه الجواري الحسان والعبيد والغلمان، وأجلسوه في أحسن مكان ووقفوا في خدمته، وهو متحيِّر في حسن ذلك المكان وحيطانه التي بُنِيت من جميع المعادن ونفيس الجواهر.

وانصرف الملك شهلان إلى محل جلوسه وأمر الجواري والغلمان أن يأتوه بجانشاه ليجلس عنده، فأخذوه ودخلوا به عليه، فقام الملك إليه وأجلسه على تخته بجانبه، ثم إنهم أتوا بالسماط، فأكلوا وشربوا، ثم غسلوا أيديهم، وبعد ذلك أقبلَتْ عليه أم السيدة شمسة، فسلَّمَتْ عليه ورحَّبَتْ به، وقالت له: قد بلغتَ المقصود بعد التعب، ونامَتْ عينُك بعد السهر، والحمد لله على سلامتك. ثم ذهبت من وقتها إلى بنتها السيدة شمسة، فأتت بها جانشاه؛ فلما أقبلت عليه السيدة شمسة سلَّمَتْ عليه وقبَّلَتْ يدَيْه، وأطرقت برأسها خجلًا منه، ومن أمها وأبيها، وأتى إخوتها الذين كانوا معها في القصر، وقبَّلوا يدَيْه وسلَّموا عليه، ثم إن السيدة أم شمسة قالت له: مرحبًا يا ولدي، ولكن بنتي شمسة قد أخطأت في

حقك، ولا تؤاخذها بما فعلَتْ معك لأجلنا. فلما سمع جانشاه منها ذلك الكلام صاح ووقع مغشيًّا عليه، فتعجَّبَ الملك منه. ثم إنهم رشوا وجهه بماء الورد الممزوج بالمسك والزباد، فأفاق ونظر إلى السيدة شمسة، وقال: الحمد لله الذي بلَّغني مرادي، وأطفأ ناري، حتى لم يَبْقَ في قلبي نار. فقالت له السيدة شمسة: سلامتك من النار، ولكن يا جانشاه أريد أن تحكي لي على ما جرى لك بعد فراقي، وكيف أتيتَ هذا المكان؟ مع أن أكثر الجان لا يعرفون قلعة جوهر تكني، ونحن عاصون على جميع الملوك، وما أحد عرف طريق هذا المكان، ولا سمع به. فأخبرها بجميع ما جرى له، وكيف أتى، وأعلمهم بما جرى لأبيه مع الملك كفيد، وأخبرهم بما قاساه في الطريق، وما رآه من الأهوال والعجائب، وقال لها: كلٌّ هذا من أجلك يا سيدتي شمسة. فقالت له أمها: قد بلغتَ المراد، والسيدة شمسة جارية نُهْدِيها إليك. فلما سمع ذلك جانشاه فرح فرحًا شديدًا، فقالت له: بعد ذلك إن شاء الله تعالى في الشهر القابل ننصب الفرح، ونعمل العرس ونزوِّجك بها، ثم تذهب بها إلى بلادك، ونعطيك ألف مارد من الأعوان، لو أذنتَ لأقلِّ مَن فيهم أن يقتل الملك كفيد هو وقومه لَفعل ذلك في لحظة، وفي كل عام نرسل إليك قومًا، إذا أمرتَ واحدًا منهم بإهلاك أعدائك جميعًا أهلكهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن أم السيدة شمسة قالت له: وفي كل عام نرسل إليك قومًا إذا أمرتَ واحدًا منهم بإهلاك أعدائك جميعًا، أهلكهم عن آخِرهم. ثم إن الملك شهلان جلس فوق التخت، وأمر أرباب الدولة أن يعملوا فرحًا عظيمًا، ويزيِّنوا المدينةَ سبعةَ أيام ولياليها، فقالوا: سمعًا وطاعةً. ثم ذهبوا في ذلك الوقت، وأخذوا في تجهيز الأهبة للفرح، ومكثوا في التجهيز مدة شهرين، وبعد ذلك عملوا عرسًا عظيمًا للسيدة شمسة حتى صار فرحًا عظيمًا لم يكن مثله، ثم أدخلوا جانشاه على السيدة، واستمر معها مدة سنتين في ألذ عيش وأهناه، وأكل وشرب، ثم بعد ذلك قال للسيدة شمسة: إن أباك قد وعدنا بالذهاب، وأن نقعد هناك سنة، وهنا سنة. فقالت السيدة شمسة: سمعًا وطاعةً. ولما أمسى المساء دخلت على أبيها، وذكرت له ما قاله جانشاه، فقال لها: سمعًا وطاعةً. ولكن اصبرَا إلى أول الشهر حتى نجهِّز لكما الأعوان، فأخبرت جانشاه بما قاله أبوها، وصبر المدة التي عيَّنَها، وبعد ذلك أَذِنَ الملك شهلان للأعوان أن يخرجوا في خدمة السيدة شمسة وجانشاه، حتى يوصلوهما إلى بلاد جانشاه، وقد جهَّزَ لهما تختًا عظيمًا من الذهب الأحمر مرصَّعًا بالدر والجوهر، فوقه خيمة من الحرير الأخضر، منقوشة بسائر الألوان، مرصعة بنفيس الجواهر، يحار في حسنها الناظر، فطلع جانشاه هو والسيدة شمسة فوق ذلك التخت، ثم انتخب من الأعوان أربعة ليحملوا ذلك التخت، فحملوه وصار كل واحد منهم في جهة من جهاته، وجانشاه والسيدة شمسة فوقه.

ثم إن السيدة شمسة ودَّعَتْ أمها وأباها وإخوتها وأهلها، وقد ركب أبوها وسار مع جانشاه، وسارت الأعوان بذلك التخت، ولم يزل الملك شهلان سائرًا معهم إلى وسط النهار، ثم حطَّت الأعوان ذلك التخت، ونزلوا وودَّعوا بعضهم، وصار الملك شهلان يوصي جانشاه على السيدة شمسة، ويوصي الأعوان عليهما، ثم أمر الأعوان أن يحملوا التخت، فودَّعَتِ

السيدة شمسة أباها، وكذلك ودَّعَه جانشاه، وسارَا ورجع أبوها، وكان أبوها قد أعطاها ثلاثمائة جارية من السراري الحسان، وأعطى جانشاه ثلاثمائة مملوك من أولاد الجان، ثم إنهم ساروا من ذلك الوقت بعد أن طلعوا جميعهم على ذلك التخت، والأعوان الأربعة قد حملته، وطارت به بين السماء والأرض، وصاروا يسيرون في كل يوم مسيرة ثلاثين شهرًا، ولم يزالوا سائرين على هذه الحالة مدة عشرة أيام، وكان في الأعوان عون يعرف بلاد كابل، فلما رآها أمرهم أن ينزلوا على المدينة الكبيرة في تلك البلاد، وكانت تلك المدينة مدينة الملك طيغموس، فنزلوا عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الأعوان نزلوا على مدينة الملك طيغموس، ومعهم جانشاه والسيدة شمسة، وكان الملك طيغموس قد انهزم من الأعداء، وهرب في مدينة، وصار في حصر عظيم، وضيَّقَ عليه الملك كفيد، وطلب الأمان من الملك كفيد فلم يؤمنه؛ فلما علم الملك طيغموس أنه لم يَبْقَ له حيلة في الخلاص من الملك كفيد، أراد أن يخنق روحه حتى يموت ويستريح من ذلك الهم والحزن، وقاد وودَّعَ الوزراء والأمراء ودخل بيته ليودِّع الحريم، وصار أهل مملكته في بكاء ونواح وعزاء وصياح. فبينما هو في ذلك الأمر إذا بالأعوان قد أقبلوا على القصر الذي في داخل القلعة، وأمرهم جانشاه أن ينزلوا بالتخت في وسط الديوان؛ ففعلوا ما أمرهم به جانشاه، ونزلت السيدة شمسة مع جانشاه والجواري والمماليك، فرأوا جميع أهل المدينة في حصر وضيق وكرب عظيم؛ فقال جانشاه للسيدة شمسة: يا حبيبة قلبي وقرة عيني، انظري إلى أبي، كيف هو في أسوأ حال. فلما رأت السيدة شمسة أباه وأهل مملكته في ذلك الحال، أمرت الأعوان أن يضربوا العسكر الذين حاصروهم ضربًا شديدًا ويقتلوهم، وقالت للأعوان: لا تبقوا منهم أحدًا. ثم إن جانشاه أومأ إلى عون من الأعوان شديد البأس اسمه قراطش، وأمره أن يجيء بالملك كفيد مقيَّدًا، ثم إن الأعوان ساروا إليه، وأخذوا ذلك التخت معهم، وما زالوا سائرين حتى حطوا التخت فوق الأرض، ونصبوا الخيمة على التخت، وصبروا إلى نصف الليل، ثم هجموا على الملك كفيد وعساكره، وساروا يقتلونهم، وصار الواحد يأخذ عشرة أو ثمانية، وهم على ظهر الفيل، ويطير بهم إلى الجو، ثم يبقيهم فيتمزَّقون في الهواء، وكان بعض الأعوان يضرب العساكر بالعمد الحديد. ثم إن العون الذي اسمه قراطش ذهب من وقته إلى خيمة الملك كفيد، فهجم عليه وهو جالس فوق السرير، وأخذه وطار به إلى الجو، فزعق من هيبة ذلك العون، ولم يزل طائرًا به حتى وضعه على التخت قدام جانشاه، فأمر الأعوان أن

يقتلعوا التخت وينصبوه في الهواء، فلم ينتبه الملك كفيد إلا وقد رأى نفسه ما بين السماء والأرض، فصار يلطم وجهه ويتعجَّب من ذلك.

هذا ما كان من أمر الملك كفيد، وأما ما كان من أمر الملك طيغموس، فإنه لما رأى ابنه كاد يموت من شدة الفرح، وصاح صيحة عظيمة، ووقع مغمًى عليه، فرشوا وجهه بماء الورد، فلما أفاق تعانَقَ هو وابنه، وبكيَا بكاءً شديدًا، ولم يعلم الملك طيغموس بأن الأعوان في قتال الملك كفيد، وبعد ذلك قامت السيدة شمسة، وتمشت حتى وصلت إلى الملك طيغموس أبي جانشاه، وقبَّلَتْ يدَيْه وقالت له: يا سيدي، اصعد إلى أعلى القصر، وتفرَّج على قتال أعوان أبي. فصعد الملك أعلى القصر، وجلس هو والسيدة شمسة يتفرجان على الأعوان؛ وذلك أنهم صاروا يضربون في العساكر طولًا وعرضًا، وكان منهم مَن يأخذ العمود الحديد، ويضرب به الفيل، فينهرس الفيل والذي على ظهره، حتى صارت الفِيَلة لا تتميز من الآدميين، ومنهم مَن يجيء جماعة وهم هاربون، فيصيح في وجوههم فيسقطون ميتين، ومنهم مَن يقبض على العشرين فارسًا، ويقتلع بهم إلى الجو، ويلقيهم إلى الأرض، فيتقطعون قطعًا؛ هذا وجانشاه ووالده والسيدة شمسة ينظرون إليهم، ويتفرجون على القتال. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٢٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن طيغموس هو وابنه جانشاه وزوجته السيدة شمسة، ارتقوا إلى أعلى القصر، وصاروا يتفرجون على قتال الأعوان مع عسكر الملك كفيد، وصار الملك كفيد ينظر إليهم وهو فوق التخت ويبكي، وما زال القتل في عسكره مدة يومين حتى قطعوا عن آخِرهم. ثم إن جانشاه أمر الأعوان أن يأتوا بالتخت، وينزلوا به إلى الأرض في وسط قلعة الملك طيغموس، فأتوا به وفعلوا ما أمرهم به سيدهم الملك جانشاه. ثم إن الملك طيغموس أمر عونًا من الأعوان يقال له شموال، أن يأخذ الملك كفيد ويجعله في السلاسل والأغلال، ويسجنه في البرج الأسود، ففعل شموال ما أمره به، ثم إن الملك طيغموس أمر بضرب الكاسات وأرسل المبشرين إلى أم جانشاه، فذهبوا وأعلموها بأن ابنها أتى وفعل هذه الأفعال؛ ففرحت بذلك وركبت وأتت، فلما رآها جانشاه ضمَّها إلى صدره فوقعت مغشيةً عليها من شدة الفرح، فرشُّوا وجهها بماء الورد؛ فلما أفاقت عانقَتْه وبكَتْ من فرط السرور، ولما علمت السيدة شمسة بقدومها، قامت تتمشَّى حتى وصلت إليها وسلَّمَتْ عليها وعانَقَ بعضهما بعضًا ساعة من الزمان، ثم جلستا تتحدثان، وفتح الملك طيغموس أبوابَ المدينة وأرسَلَ المبشرين إلى جميع البلاد، فنشروا البشائر فيها، ووردت عليه الهدايا والتحف، وصار الأمراء والعساكر والملوك الذين في البلدان يأتون ليسلِّموا عليه ويهنوه بتلك النصرة وبسلامة ابنه. وما زالوا على هذا الحال والناس يأتونهم بالهدايا والتحف العظيمة مدةً من الزمان.

ثم إن الملك عمل عرسًا عظيمًا للسيدة شمسة مرةً ثانية، وأمر بزينة المدينة، وجلاها على جانشاه بالحلي والحلل الفاخرة، ودخل جانشاه عليها وأعطاها مائة جارية من السراري الحسان لخدمتها. ثم بعد ذلك بأيام توجَّهَتِ السيدة شمسة إلى الملك طيغموس، وتشفَّعَتْ عنده في الملك كفيد، وقالت له: أطلِقْه ليرجع إلى بلاده، وإن حصل منه شرٌّ أمرتُ

أحدَ الأعوان أن يخطفه، ويأتيك به. فقال لها: سمعًا وطاعة. ثم أرسل إلى شموال أن يحضر إليه بالملك كفيد، فأتى به في السلاسل والأغلال، فلما قدم عليه وقبَّلَ الأرض بين يدَيْه، أمر الملك أن يحلُّوه من تلك الأغلال، فحلُّوه منها؛ ثم أركبه على فرس عرجاء، وقال له: إن الملكة شمسة قد تشفَّعَتْ فيك، فاذهب إلى بلادك، وإنْ عدتَ لما كنتَ عليه، فإنها ترسل إليك عونًا من الأعوان فيأتي بك. فسار الملك كفيد إلى بلاده وهو في أسوأ حال. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك كفيد سار إلى بلده وهو في أسوأ حال، ثم إن جانشاه قعد هو وأبوه والسيدة شمسة في ألذ عيش وأهناه، وأطيب سرور وأوفاه، وكل هذا يحكيه الشاب الجالس بين القبرين لبلوقيا، ثم قال له: وها أنا جانشاه الذي رأيتُ هذا كله يا أخي يا بلوقيا. فتعجَّبَ بلوقيا من حكايته، ثم إن بلوقيا السائح في حب محمد ﷺ قال لجانشاه: يا أخي، وما شأن هذين القبرين؟ وما جلوسك بينهما؟ وما سبب بكائك؟ فردَّ عليه جانشاه، وقال له: اعلم يا بلوقيا أننا كنَّا في ألذ عيش وأهناه، وأطيب سرور وأوفاه، وكنَّا نقيم ببلادنا سنة، وبقلعة جوهر تكني سنة، ولا نسير إلا ونحن جالسون فوق التخت، والأعوان تحمله، وتطير به بين السماء والأرض. فقال له بلوقيا: يا أخي يا جانشاه، ما كان طول المسافة التي بين تلك القلعة وبين بلادكم؟ فردَّ عليه جانشاه وقال له: كنَّا نقطع في كل يوم مسافة ثلاثين شهرًا، وكنَّا نصل إلى القلعة في عشرة أيام، ولم نزل على هذه الحالة مدة من من السنين، فاتفق أننا سافرنا على عادتنا حتى وصلنا إلى هذا المكان، فنزلنا فيه بالتخت لنتفرج على هذه الجزيرة، فجلسنا على شاطئ النهر، وأكلنا وشربنا، فقالت السيدة شمسة: إني أريد أن أغتسل في هذا النهر. ثم نزعت ثيابها، ونزع الجواري ثيابهن، ونزلن في النهر، وسبحن فيه، ثم إني تمشيت على شاطئ النهر، وتركت الجواري يلعبن فيه مع السيدة شمسة، فإذا بقرش عظيم من دواب البحر ضربها في رجلها من دون الجواري، فصرخت ووقعت ميتة من وقتها وساعتها، فطلعت الجواري من النهر هاربات إلى الخيمة من ذلك القرش.

ثم إن بعض الجواري حملنها وأتين بها الخيمة وهي ميتة، فلما رأيتُها ميتة وقعتُ مغشيًّا عليَّ، فرشُّوا وجهي بالماء، فلما أفقتُ بكيتُ عليها، وأمرت الأعوان أن يأخذوا التخت،



ثم نزعت ثيابَها، ونزع الجواري ثيابَهن، ونزلْنَ في النهر وسبَحْنَ.

ويروحوا به إلى أهلها، ويعلموهم بما جرى لها؛ فراحوا إلى أهلها، وأعلموهم بما جرى لها، فلم يغب أهلها إلا قليلًا حتى أتوا هذا المكان، فغسَّلوها وكفَّنوها، وفي هذا المكان دفنوها، وعملوا عزاءها، وطلبوا أن يأخذوني معهم إلى بلادهم، فقلت لأبيها: أريد منك أن تحفر لي حفرة بجانب قبرها، واجعل تلك الحفرة قبرًا لي، لعلي إذا متُّ أُدفَن فيها بجانبها. فأمر الملك شهلان عونًا من الأعوان بذلك، ففعل لي ما أردتُه، ثم راحوا من عندي، وخلوني

هنا أنوح وأبكي عليها، وهذه قصتي، وسبب قعودي بين هذين القبرين. ثم أنشد هذين البيتين:

مَا الدَّارُ مُذْ غِبْتُمُو يَا سَادَتِي دَارُ كَلَّا وَلَا ذَلِكَ الْجَارُ الرَّضِي جَارُ
وَلَا الْأَنِيسُ الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَعْهَدُهُ فِيهَا أَنِيسٌ وَلَا الْأَنْوَارُ أَنْوَارُ

فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من جانشاه تعجَّبَ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن بلوقيا لما سمع هذا الكلام من جانشاه تعجب وقال: والله إني كنت أظن أنني سحت ودرت طائفًا في الأرض، والله إني نسيت الذي رأيته بما سمعته من قصتك. ثم إنه قال لجانشاه: أريد من فضلك وإحسانك يا أخي، أنك تدلني على طريق السلامة. فدلَّه على الطريق، ثم ودَّعه وسار، وكل هذا الكلام تحكيه ملكة الحيات لحاسب كريم الدين، فقال لها حاسب كريم الدين: كيف عرفتِ هذه الأخبار؟ فقالت له: اعلم يا حاسب، أني كنتُ أرسلت إلى بلاد مصر حية عظيمة من مدة خمسة وعشرين عامًا، وأرسلت معها كتابًا بالسلام على بلوقيا لتوصله إليه، فراحت تلك الحية وأوصلته إلى بنت شموخ، وكان لها بنت في أرض مصر؛ فأخذت ذلك الكتاب وسارت حتى وصلت إلى مصر، وسألت الناس عن بلوقيا فدلُّوها عليه، فلما أتت ورأته، سلَّمَتْ عليه وأعطته ذلك الكتاب؛ فقرأه وفهم معناه ثم قال للحية: هل أنت أتيتِ من عند ملكة الحيات؟ قالت: نعم. فقال لها: أريد أن أروح معك إلى ملكة الحيات لأن لي عندها حاجة. فقالت له: سمعًا وطاعة. ثم أخذته وسارت به إلى بنتها وسلَّمَتْ عليها، ثم ودَّعَتْها وخرجت من عندها وقالت له: أغمض عينَيْك. فأغمض عينَيْه وفتحهما، فإذا هو في الجبل الذي أنا فيه؛ فسارت به إلى الحية التي أعطتها الكتاب، وسلَّمَتْ عليها وقالت لها: هل أوصلتِ الكتاب إلى بلوقيا؟ قالت: نعم، أوصلته إليه وقد جاء معي، وها هو. فتقدَّمَ بلوقيا وسلَّم على تلك الحية وسألها عن ملكة الحيات، فقالت له: إنها راحت إلى جبل قاف بجنودها وعساكرها، وإنها حين يأتي الصيف تعود إلى هذه الأرض، وكلما ذهبت إلى جبل قاف وضعتني في موضعها حتى تأتي؛ فإن كان لك حاجة فأنا أقضيها لك. فقال لها بلوقيا: أريد منك أن تجيئي بالنبات الذي كلُّ مَن دقه وشرب ماءه لا يضعف ولا يشيب ولا يموت. فقالت له تلك الحية: ما أجيء به حتى تخبرني بما جرى لك بعد مفارقتها، حيث رحت أنت وعفان

إلى مدفن السيد سليمان. فأخبرها بلوقيا بقصته من أولها إلى آخِرها، وأعلمها بما جرى لجانشاه وحكى لها حكايته، ثم قال لها: اقضي لي حاجتي حتى أروح إلى بلادي. فقالت الحية: وحق السيد سليمان ما أعرف طريق ذلك العشب. ثم إنها أمرت الحية التي جاءت به وقالت لها: أوصليه إلى بلاده. فقالت لها: سمعًا وطاعةً. ثم قالت له: أغمض عينيك. فأغمض عينيه وفتحهما، فرأى نفسه في الجبل المقطب، فسار حتى أتى منزله.

ثم إن ملكة الحيات لما عادت من جبل قاف توجَّهَتْ إليها الحية التي أقامتها مقامها، وسلَّمت عليها وقالت لها: إن بلوقيا يسلِّم عليك. وحكت لها جميع ما أخبرها به بلوقيا مما رآه في سياحته ومن اجتماعه بجانشاه، ثم قالت ملكة الحيات لحاسب كريم الدين: وهذا الذي أخبرني بهذا الخبر يا حاسب. فقال لها حاسب: يا ملكة الحيات، أخبريني بما جرى لبلوقيا حين عاد إلى مصر. فقالت له: اعلم يا حاسب أن بلوقيا لما فارَقَ جانشاه، سار ليالي وأيامًا حتى وصل إلى بحر عظيم، ثم إنه دهن قدمَيْه من الماء الذي معه، ومشى على وجه الماء حتى وصل إلى جزيرةٍ ذات أشجار وأنهار وأثمار كأنها الجنة، ودار في تلك الجزيرة، فرأى شجرة عظيمة ورقها مثل قلوع المراكب، فقرب من تلك الشجرة، فرأى تحتها سماطًا ممدودًا، وفيه جميع الألوان الفاخرة من الطعام، ورأى على تلك الشجرة طيرًا عظيمًا من اللؤلؤ والزمرد الأخضر، ورجلاه من الفضة، ومنقاره من الياقوت الأحمر، وريشه من نفيس المعادن، وهو يسبِّح الله تعالى، ويصلِّي على محمد ﷺ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا لما طلع الجزيرة ووجدها كالجنة، تمشَّى في جوانبها ورأى ما فيها من العجائب، ومن جملتها الطير الذي هو من اللؤلؤ والزمرد الأخضر، وريشه من نفيس المعدن، على تلك الحالة وهو يسبح الله تعالى، ويصلِّي على محمد ﷺ، فلما رأى بلوقيا ذلك الطائر العظيم قال له: مَن أنت؟ وما شأنك؟ فقال له: أنا من طيور الجنة، واعلم يا أخي أن الله تعالى أخرج آدم من الجنة، وأخرج معه أربع ورقات يستتر بها، فسقطن في الأرض، فواحدة منهن أكلها الدود فصار منها الحرير، والثانية أكلها الغزلان فصار منها المسك، والثالثة أكلها النحل فصار منها العسل، والرابع وقعت في الهند فصار منها البهار، وأما أنا فإني سحت في جميع الأرض إلى أنْ مَنَّ الله عليَّ بهذا المكان فمكثت فيه، وإنه في كل ليلة جمعة ويومها، تأتي الأولياء والقطاب الذين في الدنيا هذا المكان ويزورونه، ويأكلون من هذا الطعام، وهو ضيافة الله تعالى لهم، يضيفهم بها في كل ليلة جمعة ويومها، ثم بعد ذلك يرتفع السماط إلى الجنة، ولا ينقص أبدًا، ولا يتغيَّر، فأكل بلوقيا، ولما فرغ من الأكل وحمد الله تعالى فإذا الخضر عليه السلام قد أقبل، فقام بلوقيا إليه وسلَّمَ عليه، وأراد أن يذهب. فقال له الطير: اجلس يا بلوقيا في حضرة الخضر عليه السلام. فجلس بلوقيا، فقال له الخضر: أخبرني بشأنك، واحكِ لي حكايتك. فأخبره بلوقيا بجميع ما جرى له من الأول إلى الآخِر، إلى أن أتاه ووصل إلى المكان الذي هو جالس فيه بين يدَيِ الخضر، ثم قال له: يا سيدي، ما مقدار الطريق من هنا إلى مصر؟ فقال له: مسيرة خمسة وتسعين عامًا. فلما سمع بلوقيا هذا الكلام بكى، ثم وقع على يد الخضر وقبَّلَها، وقال له: أنقذني من هذه الغربة وأجرك على الله؛ لأني قد أشرفتُ على الهلاك، وما بقيت لي حيلة. فقال له الخضر: ادعُ الله تعالى أن يأذن لي في أن أوصلك إلى مصر قبل أن تهلك. فبكى بلوقيا، وتضرَّعَ إلى الله تعالى، فتقبَّلَ الله دعاءه،

وألهم الخضر عليه السلام أن يوصله إلى أهله، فقال الخضر عليه السلام لبلوقيا: ارفع رأسك؛ فقد تقبَّلَ الله دعاءك، وألهمني أن أوصلك إلى مصر، فتعلَّقْ بي، واقبضْ عليَّ بيديك، وأغمض عينيك. فتعلَّقَ بلوقيا بالخضر عليه السلام وقبض عليه بيديه، وأغمض عينيه، وخطا الخضر عليه السلام خطوة، ثم قال لبلوقيا: افتح عينيك. ففتح عينيه فرأى نفسه واقفًا على باب منزله، ثم إنه التفَتَ ليودِّع الخضر عليه السلام فلم يجد له أثرًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن بلوقيا لما أوصله الخضر عليه السلام إلى باب منزله، فتح عينيه ليودعه فلم يجده، فدخل بيته، فلما رأته أمه صاحت صيحة عظيمة، ووقعت مغشية عليها من شدة الفرح، فرشُّوا وجهها بالماء حتى أفاقت، فلما أفاقت عانقَتْه، وبكت بكاءً شديدًا، وصار بلوقيا يبكي وتارةً يضحك، وأتاه أهله وجماعته، وجميع أصحابه، وصاروا يهنونه بالسلامة، وشاعت الأخبار في البلاد، وجاءته الهدايا من جميع الأقطار، ودقت الطبول، وزمرت الزمور، وفرحوا فرحًا شديدًا، ثم بعد ذلك حكى لهم بلوقيا حكايته، وأخبرهم بجميع ما جرى له، وكيف أتى به الخضر، وأوصله إلى باب منزله، فتعجَّبوا من ذلك، وبكوا حتى ملُّوا من البكاء.

وكل هذا تحكيه ملكة الحيات لحاسب كريم الدين، فتعجب حاسب كريم الدين من ذلك، وبكى بكاءً شديدًا، ثم قال لملكة الحيات: إني أريد الذهاب إلى بلادي. فقالت له ملكة الحيات: إني أخاف يا حاسب إذا وصلتَ إلى بلادك أن تنقض العهد، وتحنث في اليمين الذي حلفتَه، وتدخل الحمام. فحلف أيمانًا أخرى وثيقة أنه لن يدخل الحمام طول عمره، فأمرت حيةً وقالت لها: أَخْرِجي حاسب كريم الدين إلى وجه الأرض. فأخذته الحية، وسارت به من مكان إلى مكان حتى أخرجته على وجه الأرض من سطح جب مهجور، ثم مشى حتى وصل إلى المدينة، وتوجَّهَ إلى منزله، وكان ذلك آخِر النهار وقتَ اصفرار الشمس؛ ثم طرق الباب فخرجت أمه، وفتحت الباب، فرأت ابنها واقفًا، فلما رأته صاحت من شدة فرحتها، وألقت نفسها عليه وبكت، فلما سمعت زوجته بكاها خرجت إليها، فرأت زوجها فسلَّمَتْ عليه، وقبَّلَتْ يدَيْه، وفرح بعضهم ببعض فرحًا عظيمًا، ودخلوا البيت، فلما استقرَّ بهم الجلوس وقعد بين أهله، سأل عن الحطابين الذين كانوا يحطبون معه، وراحوا وخلوه في الجب، فقالت له أمه: إنهم أتوني وقالوا لي: إن ابنك أكله الذئب

في الوادي. وقد صاروا تجارًا، وأصحاب أملاك ودكاكين، واتسعت عليهم الدنيا، وهم في كل يوم يجيئوننا بالأكل والشرب، وهذا دأبهم إلى الآن. فقال لأمه: في غدٍ روحي إليهم، وقولي لهم: قد جاء حاسب كريم الدين من سفره، فتعالوا وقابِلوه وسلِّموا عليه. فلما أصبح الصباح راحت أمه إلى بيوت الحطابين، وقالت لهم ما وصَّاها به ابنها، فلما سمع الحطابون ذلك الكلامَ تغيَّرَتْ ألوانهم، وقالوا لها: سمعًا وطاعةً. وقد أعطاها كل واحد منهم بدلة من الحرير مطرزة بالذهب، وقالوا لها: أعطِ ولدَكِ هذه ليلبسها، وقولي له: إنهم في غدٍ يأتون عندك. فقالت لهم: سمعًا وطاعة. ثم رجعت من عندهم إلى ابنها، وأعلمته بذلك، وأعطته الذي أعطوها إياه.

هذا ما كان من أمر حاسب كريم الدين وأمه، وأما ما كان من أمر الحطابين، فإنهم جمعوا جماعة من التجار، وأعلموهم بما حصل منهم في حق حاسب كريم الدين، وقالوا لهم: كيف نصنع معه الآن؟ فقال لهم التجار: ينبغي لكلٍّ منكم أن يعطيه نصف ماله ومماليكه. فاتفق الجميع على هذا الرأي، وكل واحد أخذ نصف ماله معه، وذهبوا إليه جميعًا، وسلَّموا عليه وقبَّلوا يدَيْه، وأعطوه ذلك وقالوا له: هذا من بعض إحسانك، وقد صرنا بين يدَيْك. فقبله منهم وقال لهم: قد راح الذي راح، وهذا مقدور من الله تعالى، والمقدور يغلب المحذور. فقالوا له: قُمْ بنا نتفرج في المدينة، وندخل الحمام. فقال لهم: أنا قد صدر مني يمين أنني لا أدخل الحمام طول عمري. فقالوا: قم بنا لبيوتنا حتى نضيفك. فقال لهم: سمعًا وطاعةً. ثم قام وراح معهم إلى بيوتهم، وصار كل واحد منهم يضيفه ليلة، ولم يزالوا على هذه الحالة مدة سبع ليالٍ، وقد صار صاحبَ أموالٍ وأملاك ودكاكين، واجتمع به تجار المدينة، فأخبرهم بجميع ما جرى له وما رآه، وصار من أعيان التجار، ومكث على هذا الحال مدةً من الزمان.

فاتفق أنه خرج في يومٍ من الأيام يتمشَّى في المدينة، فرآه صاحب حمَّامي، وهو جائز على باب الحمام، ووقعت العين على العين، فسلَّمَ عليه وعانَقَه، وقال له: تفضَّلْ عليَّ بدخول الحمام، وتكيَّسَ حتى أعمل لك ضيافة. فقال له: إنه صدر مني يمين أنني لا أدخل الحمام مدة عمري. فحلف الحمامي وقال له: نسائي الثلاث طالقات ثلاثًا إنْ لم تدخل معي الحمام وتغتسل فيه. فتحيَّرَ حاسب كريم الدين في نفسه، وقال: أتريد يا أخي أنك تيتِّم أولادي وتخرب بيتي، وتجعل الخطيئة في رقبتي. فارتمى الحمامي على رجل حاسب كريم الدين وقبَّلَها، وقال له: أنا في جيرتك أن تدخل معي الحمام، وتكون الخطيئة في رقبتي أنا. واجتمع عَمَلَة الحمام، وكلُّ مَن فيه على حاسب كريم الدين، وتداخلوا

عليه، ونزعوا عنه ثيابه، وأدخلوه الحمام، فبمجرد ما دخل الحمام وقعد بجانب الحائط، وسكب على رأسه من الماء، أقبل عليه عشرون رجلًا، وقالوا له: قُمْ أيها الرجل من عندنا، فإنك غريم السلطان. وأرسلوا واحدًا منهم إلى وزير السلطان، فراح الرجل وأعلَمَ الوزير، فركب الوزير وركب معه ستون مملوكًا، وساروا حتى أتوا الحمام، واجتمعوا بحاسب كريم الدين، وسلَّمَ عليه الوزير ورحَّبَ به، وأعطى الحمامي مائة دينار، وأمر أن يقدِّموا لحاسب حصانًا ليركبه، ثم ركب الوزير وحاسب، وكذلك جماعة الوزير وأخذوه معهم، وساروا به حتى وصلوا إلى قصر السلطان، فنزل الوزير ومَن معه، ونزل حاسب، وجلسوا في القصر، وأتوا بالسماط فأكلوا وشربوا، ثم غسلوا أيديهم، وخلع عليه الوزير خلعتين، كل واحدة تساوي خمسة آلاف دينار، وقال له: اعلم أن الله قد مَنَّ علينا بك، ورحمنا بمجيئك، فإن السلطان كان أشرف على الموت من الجذام الذي به، وقد دلَّتْ عندنا الكتبُ على أن حياته على يدَيْك.

فتعجَّبَ حاسب من أمرهم، ثم تمشَّى الوزير وحاسب وخواص الدولة من أبواب القصر السبعة إلى أن دخلوا على الملك، وكان يقال له الملك كرزدان ملك العجم، وقد ملك الأقاليم السبعة، وكان في خدمته مائة سلطان يجلسون على كراسي من الذهب الأحمر، وعشرة آلاف بهلوان، كل بهلوان تحت يده مائة نائب ومائة جلَّاد، وبأيديهم السيوف والأطبار، فوجدوا ذلك الملك نائمًا، ووجهه ملفوف في منديل، وهو يئنُّ من الأمراض، فلما رأى حاسب هذا الترتيب دهش عقله من هيئة الملك كرزدان، وقبَّلَ الأرض بين يديه، ودعا له، ثم أقبل عليه وزيره الأعظم، وكان يقال له الوزير شمهور، ورحَّبَ به وأجلسه على كرسي عظيم عن يمين الملك كرزدان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الوزير شمهور أقبل على حاسب وأجلسه على كرسي عن يمين الملك كرزدان، وأحضروا السماط فأكلوا وشربوا، وغسلوا أيديهم، ثم بعد ذلك قام الوزير شمهور، وقام لأجله كلُّ مَن في المجلس هيبةً له، وتمشى إلى نحو حاسب كريم الدين، وقال له: نحن في خدمتك، وكل ما طلبت نعطيك، ولو طلبتَ نصف المُلْك أعطيناك إياه؛ لأن شفاء الملك على يديك. ثم أخذه من يده، وذهب به إلى الملك، فكشف حاسب عن وجه الملك، ونظر إليه فرآه في غاية المرض، فتعجَّبَ من ذلك، ثم إن الوزير نزل على يد حاسب وقبَّلَها، وقال له: نريد منك أن تداوي هذا الملك، والذي تطلبه نعطيك إياه، وهذه حاجتنا عندك. فقال حاسب: نعم، إني ابن دانيال نبي الله، لكنني ما أعرف شيئًا من العلم، فإنهم وضعوني في صنعة الطب ثلاثين يومًا فلم أتعلم شيئًا من تلك الصنعة، وكنت أود لو عرفت شيئًا من العلم وأداوي هذا الملك. فقال الوزير: لا تُطِلْ علينا الكلام، فلو جمعنا حكماء المشرق والمغرب ما يداوي الملك إلا أنت. فقال له حاسب: كيف أداويه وأنا ما أعرف داءه ولا دواءه؟ فقال له الوزير: إن دواء الملك عندك. قال له حاسب: لو كنتُ أعرف دواءه لَداويتُه. فقال له الوزير: أنت تعرف دواءه معرفة جيدة، فإن دواءه ملكة الحيات، وأنت تعرف مكانها ورأيتَها، وكنت عندها.

فلما سمع حاسب هذا الكلام، عرف أن سبب ذلك دخول الحمام، وصار يتندَّم حيث لا ينفعه الندم، وقال لهم: كيف ملكة الحيات وأنا لا أعرفها، ولا سمعت طول عمري بهذا الاسم؟ فقال الوزير: لا تُنكِر معرفتَها، فإن عندي دليلًا على أنك تعرفها، وأقمتَ عندها سنتين. فقال حاسب: أنا لا أعرفها، ولا رأيتها، ولا سمعت بهذا الخبر إلا في هذا الوقت منكم. فأحضر الوزير كتابًا وفتحه، وصار يتحسب، ثم قال: إن ملكة الحيات تجتمع برجل ويمكث عندها سنتين، ويرجع من عندها، ويطلع على وجه الأرض، فإذا دخل

الحمام تسودُّ بطنه. ثم قال لحاسب: انظر إلى بطنك. فنظر إليها فرآها سوداء، فقال لهم حاسب: إن بطني سوداء من يوم ولدتني أمي. فقال له الوزير: أنا كنت وكَّلْتُ على كل حمام ثلاثة مماليك لأجل أن يتعهَّدوا كلَّ مَن يدخل الحمام، وينظروا إلى بطنه، ويُعلِموني به، فلما دخلت أنت الحمام نظروا إلى بطنك فوجدوها سوداء، فأرسلوا إليَّ خبرًا بذلك، وما صدَّقْنا أننا نجتمع بك في هذا اليوم، وما لنا عندك حاجة إلا أن ترينا الموضع الذي طلعتَ منه، وتروح إلى حال سبيلك، ونحن نقدر على إمساك ملكة الحيات، وعندنا مَن يأتينا بها.

فلما سمع حاسب هذا الكلام ندم على دخول الحمام ندمًا عظيمًا حيث لا ينفعه الندم، وصار الأمراء والوزراء يتدخلون على حاسب في أن يخبرهم بملكة الحيات حتى عجزوا، وهو يقول: لا رأيت هذا الأمر ولا سمعت به. فعند ذلك طلب الوزير الجلاد، فأتوه به، فأمره أن ينزع ثياب حاسب عنه، ويضربه ضربًا شديدًا، ففعل ذلك حتى عاين الموت من شدة العذاب، وبعد ذلك قال له الوزير: إن عندنا دليلًا على أنك تعرف مكان ملكة الحيات، فلأي شيء أنت تنكره؟ أَرِنا الموضع الذي خرجت منه، وابعد عنا، وعندنا الذي يمسكها، ولا ضرر عليك. ثم لاطَفَه وأقامه، وأمر له بخلعة مزركشة بالذهب والمعادن، فامتثل حاسب لأمر الوزير وقال له: أنا أريكم الموضع الذي خرجت منه. فلما سمع الوزير كلامه فرح فرحًا شديدًا، وركب هو والأمراء جميعًا، وركب حاسب وسار قدام العساكر، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى الجبل، ثم إنه دخل بهم إلى المغارة، وبكى وتحسَّرَ، ونزلت الأمراء والوزراء وتمشوا وراء حاسب حتى وصلوا إلى البئر الذي طلع منه، ثم تقدَّمَ الوزير وجلس وأطلق البخور، وأقسم وتلا العزائم، ونفث وهمهم؛ لأنه كان ساحرًا ماكرًا كاهنًا يعرف علم الروحاني وغيره، ولما فرغ من عزيمته الأولى قرأ عزيمة ثانية وعزيمة ثالثة، وكلما فرغ البخور وضع غيره على النار، ثم قال: اخرجي يا ملكة الحيات. فإذا البئر قد غاض ماؤه، وانفتح فيها باب عظيم، وخرج منها صراخ عظيم مثل الرعد، حتى ظنوا أن ذلك البئر قد انهدم، ووقع جميع الحاضرين في الأرض مغشيًّا عليهم، ومات بعضهم، وخرج من ذلك البئر حية عظيمة مثل الفيل، يطير مِن عينيها ومِن فيها الشررُ مثل الجمر، وعلى ظهرها طبق من الذهب الأحمر مرصَّع بالدر والجوهر، وفي وسط ذلك الطبق حية تضيء المكان، ووجهها كوجه إنسان، وتتكلَّم بأفصح لسان، وهي ملكة الحيات، والتفتت يمينًا وشمالًا فوقع بصرها على حاسب كريم الدين، فقالت له: أين العهد الذي عاهدتَني به، واليمين الذي حلفتَه لي من أنك لا تدخل الحمام؟ ولكن لا تنفع حيلة من قدر، والذي على الجبين مكتوب ما منه مهروب، وقد جعل الله آخِر عمري على

يدَيْك، وبهذا حكم الله، وأراد أن أُقتَل أنا والملك كرزدان يُشفى من مرضه. ثم إن ملكة الحيات بكت بكاءً شديدًا، وبكى حاسب لبكائها، ولما رأى الوزير شمهور الملعون ملكة الحيات، مدَّ يده إليها ليمسكها، فقالت له: امنع يدك يا ملعون، وإلا نفخت عليك وصيَّرتك كوم رماد أسود. ثم صاحت على حاسب، وقالت له: تعال عندي وخذني بيدك، وحطَّني في هذه الصينية التي معكم، واحلمها على رأسك، فإن موتي على يدك مقدر من الأزل، ولا حيلةَ لك في دفعه. فأخذها حاسب وحطها في الصينية، وحملها على رأسه، وعادت البئر كما كانت، ثم ساروا وحاسب حامل الصينية التي هي فيها على رأسه.

فبينما هم في أثناء الطريق إذ قالت ملكة الحيات لحاسب كريم الدين سرًّا: يا حاسب، اسمع ما أقول لك من النصيحة، ولو كنت نقضتَ العهد، وحنثتَ في اليمين، وفعلتَ هذه الأفعال؛ لأن ذلك مقدور من الأزل. فقال لها: سمعًا وطاعةً، ما الذي تأمرينني به يا ملكة الحيات؟ فقالت له: إذا وصلت إلى بيت الوزير، فإنه يقول لك: اذبح ملكة الحيات، وقطِّعها ثلاث قطع. فامتنِعْ من ذلك ولا تفعل، وقل له: أنا ما أعرف الذبح. لأجل أن يذبحني هو بيده ويعمل فيَّ ما يريد. فإذا ذبحني وقطَّعني يأتيه رسول من عند الملك كرزدان، ويطلبه إلى الحضور عنده، فيضع لحمي في قدر من النحاس، ويضع القدر فوق الكانون قبل الذهاب إلى الملك، ويقول لك: أوقد النار على هذا القدر حتى تطلع رغوة اللحم، فإذا طلعت الرغوة فخذها وحطها في قنينة، واصبر عليها حتى تبرد، واشربها أنت، فإذا شربتها لا يبقى في بدنك وجع، فإذا طلعت الرغوة الثانية فحطها عندك في قنينة ثانية حتى أجيء من عندك الملك، وأشربها من أجل مرضٍ في صلبي. ثم إنه يعطيك القنينتين ويروح إلى الملك، فإذا راح إليه أوقد النار على القدر حتى تطلع الرغوة فخذها وحطها في قنينة واحفظها عندك وإياك أن تشربها، فإنْ شربْتَها لم يحصل لك خير، وإذا طلعت الرغوة الثانية فحطَّها في القنينة الثانية، واصبر حتى تبرد، واحفظها عندك حتى تشربها، فإذا جاء من عند الملك وطلب منك القنينة الثانية فأعْطِه الأولى، وانظر ما يجري له. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن ملكة الحيات أوصت حاسب كريم الدين بعدم الشرب من الرغوة الأولى، والمحافظة على الرغوة الثانية، وقالت له: إذا رجع الوزير من عند الملك وطلب منك القنينة الثانية فأَعْطِه الأولى، وانظر ما يجري له، ثم بعد ذلك اشرب أنت الثانية، فإذا شربتها يصير قلبك بيت الحكمة، ثم بعد ذلك أطلع اللحم، وحطه في صينية من النحاس، وأعْطِ الملك إياه ليأكله، فإذا أكله واستقرَّ في بطنه، استر وجهه بمنديل واصبر عليه إلى وقت الظهر حتى تبرد بطنه، وبعد ذلك اسقه شيئًا من الشراب، فإنه يعود صحيحًا كما كان، ويبرأ من مرضه بقوة الله تعالى، واسمع هذه الوصية التي وصيتك بها، وحافِظْ عليها كلَّ المحافظة.

وما زالوا سائرين حتى أقبلوا على بيت الوزير، فقال الوزير لحاسب: ادخل معي البيت. فلما دخل الوزير وحاسب، وتفرَّقَ العساكر، وراح كلٌّ منهم إلى حال سبيله، وضَعَ حاسب الصينية التي فيها ملكة الحيات من فوق رأسه، ثم قال له الوزير: اذبح ملكة الحيات. فقال له حاسب: أنا لا أعرف الذبح، وعمري ما ذبحتُ شيئًا، فإنْ كان لك غرض في ذبحها، فاذبحها أنت بيدك. فقام الوزير شمهور وأخذ ملكة الحيات من الصينية التي هي فيها وذبحها، فلما رأى حاسب ذلك بكى بكاءً شديدًا، فضحك شمهور منه، وقال له: يا ذاهب العقل، كيف تبكي من أجل ذبح حية؟ وبعد أن ذبحها الوزير قطَّعها ثلاث قطع، ووضعها في قدر من النحاس، ووضع القدر على النار، وجلس ينتظر نضج لحمها. فبينما هو جالس، إذا بمملوك أقبل عليه من عند الملك وقال له: إن الملك يطلبك في هذه الساعة. فقال له الوزير: سمعًا وطاعةً. ثم قام وأحضر قنينتين لحاسب، وقال له: أوقد النار على هذا القدر حتى تخرج رغوة اللحم الأولى، فإذا خرجَتْ فاكشطها من فوق اللحم، وحطها في إحدى هاتين القنينتين، واصبر عليها حتى تبرد واشربها أنت، فإذا شربتها صحَّ

جسمك، ولا يبقى في جسدك وجع ولا مرض، وإذا طلعت الرغوة الثانية فضعها في القنينة الأخرى، واحفظها عندك حتى أرجع من عند الملك وأشربها؛ لأن في صلبي وجعًا عساه يبرأ إذا شربتُها. ثم توجَّهَ إلى الملك بعد أن أكَّدَ على حاسب في تلك الوصية، فصار حاسب يوقد النار تحت القدر حتى طلعت الرغوة الأولى، فكشطها وحطها في قنينة من الاثنتين، ووضعها عنده، ولم يزل يوقد النار تحت القدر حتى طلعت الرغوة الثانية، فكشطها وحطها في القنينة الأخرى، وحفظها عنده، ولما استوى اللحم أنزل القدر من فوق النار، وقعد ينتظر الوزير، فلما أقبل الوزير من عند الملك قال لحاسب: أي شيء فعلتَ؟ فقال له حاسب: قد انقضى الشغل. فقال له الوزير: ما فعلتَ في القنينة الأولى؟ قال له: شربتُ ما فيها في هذا الوقت. فقال له الوزير: أرى جسدك لم يتغيَّر منه شيء. فقال له حاسب: إن جسدي من فوقي إلى قدمي أحس منه بأنه يشتعل مثل النار. فكتم الماكر الوزير شمهور الأمر عن حاسب خداعًا، ثم إنه قال له: هات القنينة الثانية لأشرب ما فيها لعلي أشفى وأبرأ من هذا المرض الذي في صلبي. ثم إنه شرب ما في القنينة الأولى وهو يظن أنها الثانية، فلم يتم شربها حتى سقطت من يده، وتورَّمَ من ساعته، وصحَّ فيه قول صاحب المثل: مَن حفر بئرًا لأخيه وقع فيه.

فلما رأى حاسب ذلك الأمر تعجَّبَ منه، وصار خائفًا من شرب القنينة الثانية، ثم تفكَّرَ وصية الحية، وقال في نفسه: لو كان ما في القنينة الثانية مضرًّا ما كان الوزير استخارها لنفسه. ثم إنه قال: توكَّلْتُ على الله تعالى. وشرب ما فيها، ولما شرب فجَّرَ الله تعالى في قلبه ينابيع الحكمة، وفتح له عين العلم، وحصل على الفرح والسرور، وأخذ اللحم الذي كان في القدر، ووضعه في صينية من نحاس، وخرج به من بيت الوزير، ورفع رأسه إلى السماء، فرأى السموات السبع وما فيهن إلى سدرة المنتهى، ورأى كيفية دوران الفلك، وكشف الله له عن جميع ذلك، ورأى النجوم السيَّارة والثوابت، وعلم كيفية الكواكب، وشاهَدَ هيئة البر والبحر، واستنبط من ذلك علم الهندسة، وعلم التنجيم، وعلم الهيئة، وعلم الفلك، وعلم الحساب، وما يتعلَّق بذلك كله، وعرف ما يترتَّب على الكسوف والخسوف، وغير ذلك؛ ثم نظر إلى الأرض فعرف ما فيها من المعادن والنبات والأشجار، وعلم جميع ما لها من الخواص والمنافع، واستنبط من ذلك علم الطب، وعلم السيمياء، وعلم الكيمياء، وعرف صنعة الذهب والفضة، ولم يزل سائرًا بذلك اللحم حتى وصل إلى قصر الملك كرزدان، ودخل عليه، وقبَّلَ الأرض بين يدَيْه، وقال له: تسلم رأسك في وزيرك شمهور. فاغتاظ الملك غيظًا شديدًا بسبب موت وزيره، وبكى بكاءً شديدًا، وبكت عليه الوزراء والأمراء وأكابر الدولة.

ثم بعد ذلك قال الملك كرزدان: إن الوزير شمهور كان عندي في هذا الوقت وهو في غاية الصحة، ثم ذهب ليأتيني باللحم إن كان طاب طبخه، فما سبب موته في هذه الساعة؟ وأي شيء عرض له من العوارض؟ فحكى حاسب للملك جميع ما جرى لوزيره، من أنه شرب القنينة، وتورَّمَ وانتفخ بطنه ومات؛ فحزن عليه الملك حزنًا شديدًا، ثم قال لحاسب: كيف حالي بعد شمهور؟ فقال حاسب: لا تحمل همًّا يا ملك الزمان، فأنا أداويك في ثلاثة أيام، ولا أترك في جسمك شيئًا من الأمراض. فانشرح صدر الملك كرزدان، وقال لحاسب: أنا مرادي أن أعافى من هذا البلاء، ولو بعد مدة من السنين. فقام حاسب وأتى بالقدر وحطه قدام الملك، وأخذ قطعة من لحم ملكة الحيات، وأطعمها للملك كرزدان، وغطاه ونشر على وجهه منديلًا، وقعد عنده وأمره بالنوم؛ فنام من وقت الظهر إلى وقت المغرب حتى دارت قطعة اللحم في بطنه، ثم بعد ذلك أيقظه، وسقاه شيئًا من الشراب، وأمره بالنوم، فنام الليل إلى وقت الصبح، ولما طلع النهار فعل معه مثل ما فعل بالأمس حتى أطعمه القطع الثلاث على ثلاثة أيام، فقب جلد الملك، وانقشر جميعه؛ فعند ذلك عرق الملك حتى جرى العرق من رأسه إلى قدمه وتعافى، وما بقي في جسده شيء من الأمراض. وبعد ذلك قال له حاسب: لا بد من دخول الحمام. ثم أدخله الحمام، وغسل جسده، وأخرجه فصار جسمه مثل قضيب الفضة، وعاد لما كان عليه من الصحة، ورُدَّتْ له العافية أحسن ما كانت أولًا، ثم إنه لبس أحسن ملبوسه، وجلس على التخت، وأذن لحاسب كريم الدين في أن يجلس معه، فجلس بجانبه، ثم أمر الملك بمد السماط، فمُدَّ فأكلَا وغسلَا أيديهما، وبعد ذلك أمر أن يأتوا بالمشروب فأتوا بما طلب فشربا، ثم بعد ذلك أتى جميع الأمراء والوزراء والعسكر وأكابر الدولة وعظماء رعيته، وهنوه بالعافية والسلامة، ودقوا الطبول وزينوا المدينة من أجل سلامة الملك، ولما اجتمعوا عنده للتهنئة قال لهم الملك: يا معشر الوزراء والأمراء وأرباب الدولة، هذا حاسب كريم الدين داواني من مرضي، اعلموا أنني قد جعلته وزيرًا أعظم مكان الوزير شمهور. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملك قال لوزرائه وأكابر دولته: إن الذي داواني من مرضي هو حاسب كريم الدين، وقد جعلته وزيرًا أعظم مكان الوزير شمهور، فمَن أَحَبَّه فقد أَحَبَّني، ومَن أكرمه فقد أكرمني، ومَن أطاعه فقد أطاعني. فقال له الجميع: سمعًا وطاعة. ثم قاموا كلهم، وقبَّلوا حاسب كريم الدين، وسلَّموا عليه، وهنَّوه بالوزارة، ثم بعد ذلك خلع عليه الملك خلعة سنية منسوجة بالذهب الأحمر، مرصَّعة بالدر والجوهر، أقل جوهرة فيها تساوي خمسة آلاف دينار، وأعطاه ثلاثمائة مملوك، وثلاثمائة سرية تضيء مثل الأقمار، وثلاثمائة جارية من الحبش، وخمسمائة بغلة محملة من المال، وأعطاه من المواشي والغنم والجاموس والبقر ما يكلُّ عنه الوصف، وبعد هذا كله أمر وزراءه وأمراءه، وأرباب دولته، وأكابر مملكته ومماليكه، وعموم رعيته؛ أن يهاوده، ثم ركب حاسب كريم الدين، وركب خلفه الوزراء والأمراء، وأرباب الدولة، وجميع العساكر، وساروا إلى بيته الذي أخلاه له الملك. ثم جلس على كرسي، وتقدَّمت إليه الأمراء والوزراء، وقبَّلوا يده، وهنَّوه بالوزارة، وصاروا كلهم في خدمته، وفرحت أمه بذلك فرحًا شديدًا، وهنته بالوزارة، وجاءه أهله وهنوه بالسلامة والوزارة، وفرحوا به فرحًا شديدًا، ثم بعد ذلك أقبل عليه أصحابه الحطَّابون، وهنوه بالوزارة، وبعد ذلك ركب وسار حتى وصل إلى قصر الوزير شمهور، فختم على بيته، ووضع يده على ما فيه، وضبطه ثم نقله إلى بيته، وبعد أن كان لا يعرف شيئًا من العلوم، ولا قراءة الخط، صار عالمًا بجميع العلوم بقدرة الله تعالى، وانتشر علمه وشاعت حكمته في جميع البلاد، واشتهر بالتبحُّر في علم الطب والهيئة والهندسة، والتنجيم والكيمياء والسيمياء والروحاني، وغير ذلك من العلوم.

ثم إنه قال لأمه يومًا من الأيام: يا والدتي، إن أبي دانيال كان عالمًا فاضلًا، فأخبريني بما خلَّفه من الكتب وغيرها، فلما سمعت أمه كلامَه، أَتَتْه بالصندوق الذي كان أبوه قد

وضع فيه الورقات الخمس الباقية من الكتب التي غرقت في البحر، وقالت له: ما خلَّفَ أبوك شيئًا من الكتب إلا الورقات الخمس التي في هذا الصندوق. ففتح الصندوق وأخذ منه الورقات الخمس وقرأها، وقال لها: يا أمي، إن هذه الأوراق من جملة كتاب وأين بقيته؟ فقالت له: إن أباك كان قد سافَرَ بجميع كتبه في البحر، فانكسرت به المركب، وغرقت كتبه، وأنجاه الله تعالى من الغرق، ولم يَبْقَ من كتبه إلا هذه الورقات الخمس، ولما جاء أبوك من السفر كنتُ حاملًا بك، فقال لي: ربما تلدين ذكرًا، فخذي هذه الأوراق، واحفظيها عندك، فإذا كبر الغلام وسأل عن تركتي، فأعطيه إياها وقولي له: إن أباك لم يخلف غيرها. وهذه إياها. ثم إن حاسب كريم الدين تعلَّمَ جميع العلوم، ثم بعد ذلك قعد في أكل وشرب، وأطيب معيشة، وأرغد عيش إلى أن أتاه هادم اللذات، ومفرِّق الجماعات. وهذا آخِر ما انتهى إلينا من حديث حاسب بن دانيال رحمه الله تعالى، والله أعلم.

حكاية سندباد البحري

قالت: بلغني أنه كان في زمن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يقال له السندباد الحمَّال، وكان رجلًا فقير الحال يحمل بأجرته على رأسه، فاتفق له أنه حمل في يوم من الأيام حملة ثقيلة، وكان ذلك اليوم شديدَ الحر، فتعب من تلك الحملة، وعرق واشتدَّ عليه الحر، فمرَّ على باب رجل تاجر قدامه كنس ورش، وهناك هواء معتدل، وكان بجانب الباب مصطبة عريضة، فحَطَّ الحمَّال حملته على تلك المصطبة ليستريح ويشم الهواء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.


هنا سور الأزبكية على
mohamed khatab


هنداوي